ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

II

مكتبة ٦٩١

ترجمة: محمّد آيت حنّا

التنوير

إلى

ماري

رسول السلام

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

المجلد الثاني

الكتاب: كونت مونت كريستو، المجلد الثاني
تأليف: ألكسندر دوما
ترجمة: محمّد آيت حنا
عدد الصفحات: 560 صفحة
الترقيم الدولي: 3-151-472-614-978
الطبعة الأولى: 2021

الترجمة الكاملة لرواية
Le Comte de Monte Cristo
Alexandre Dumas

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة 2- شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

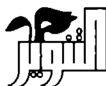
ألكسندر دوما

مكتبة | 691
سُر مَن قرأ

كونت مونت كريستو

المجلد الثاني

ترجمة : محمّد آيت حنّا



39

الضّيوف

في المنزل الواقع بشارع هيلدر، حيثُ ضرب ألبير دو مورسيرف للكونت موعدًا لمّا كانا في روما، وكان الوقتُ صبيحةَ يوم 21 مايو، كان كلّ شيء يتهيّأ ليفيَ الشّابُ بوعده.

وكان الشّابُ يسكن مبنىً يقع عند زاوية ساحةٍ كبيرة، ويقابل بنايةً أخرى مخصّصةً للخدم. نافذتان فقط من نوافذ الجناح كانتا تطلّان على الشّارع، أمّا النّوافذ الباقية، فثلاثةٌ منها تطلّ على الفناء، ونافذتان أخريان على الحديقة. وبين ذاك الفناء وتلك الحديقة يرتفع مقرُّ الكونت والكونتيسة دو مورسيرف، وهو بنايةٌ عصريةٌ ورحبةٌ، صُمّمت على نمط المعمار الإمبراطوريّ القبيح.

على امتدادِ العقارِ عَرْضًا يرتفع جدارٌ يطلّ على الشّارع، وتعلوه، من موضعٍ إلى آخر، أصص الزّهور، وعند منتصفه سياجٌ كبيرٌ ذو أسنّةٍ مذهّبةٍ، يستعملُ في الاحتفالات؛ وبابٌ صغيرٌ يكاد يكون ملتصقًا بغرفة البوابِ، يستعملُه الخدمُ، والسّادة حين يخرجون مشيًا على الأقدام.

ومن اختيار الجناح الذي يقيم فيه ألبير، نستشفُّ حكمة أمّه وتبصّرها، إذ لم ترد المرأةُ أن يفارقها ابنها، لكنّها أدركت في الآن نفسه أنّ شابًا في مثل سنّه لابدّ أن يحتاج مساحةً من الحريّة والخصوصية. كما نستشفُّ في الاختيار جانبًا آخر، ينبغي أن نقوله، نقصد أنانية الشّابِ المولع بحياة الحريّة والكسل، حياة أبناء العوائل الغنية، الحياةِ التي تُزَيَّنُ للمرء كما يُزَيَّنُ للطائر قفصُه.

ومن النّافذتين المطلّتين على الشّارع كان ألبير يستطيع أن يستكشفَ الخارجَ. إنّ المنظرَ المفتوح على الخارجِ أمرٌ ضروريٌّ بالنّسبة إلى الشّباب الذين يريدون دومًا متابعةَ النّاس يمرّون في أفق بصرهم، حتّى لو لم يكن هذا الأفق سوى شارع! ثمّ متى ما تمّ له الاستكشافُ، فتمخّضَ عمّا يستحقُّ التّعميقَ، فإنّ بمقدور ألبير دو مورسيرف أن يخرج من باب مماثل للباب الصّغير الملاصق لغرفة البوّاب، وهذا بابٌ يستحقُّ منّا وقفة خاصّة. إنّه بابٌ يبدو كأنّما قد أُهمل ونُسيَ منذ أن بُنيَ المنزلُ؛ كأنّما قد أُغلق إلى الأبد، لفرط ما كان خفيًا ومغبرًا، غير أنّ قفلَه ومفصلاته المشحّمة بعناية، تكشف عن ممارسة سريّةٍ متواصلة. وكان هذا البابُ السريُّ الصّغيرُ ينافسُ البابين الآخرين، ويسخرُ من البوّابِ ومن حيطته وحذره، إذ يُفتَح كما البابِ الشّهير في ألف ليلة وليلة، كما بابِ علي بابا الشّهيرِ بسمسم، الباب الذي يفتح بكلماتٍ قبّالية[1] يهمسُ بها أعذبُ الأصواتِ، أو بفركِ موضعٍ معيّنٍ يقومُ به أشدّ الأصابع رهافةً.

أقصى البهو الرّحب الهادئ الذي يفضي إليه البابُ الصّغير، والذي هو بمثابة ردهةٍ، تنفتحُ يمينًا غرفةُ طعامِ ألبير المطلّة على الفناء، وشمالًا صالونُه الصّغير المنفتحُ على الحديقة. أشجارٌ، ونباتاتٌ متسلّقةٌ تنبسط كمراوحَ أمام النّوافذ، حاجبةً عن الفناء والحديقة رؤيةَ ما في داخل الغرفتين، بحيث وحدهم المتموقعون عند مستوى الطّابق السّفليّ يستطيعون اختلاس النّظر.

وفي الطّابق الأوّل تتكرّر غرفتان أخريان نظيرتين للغرفتين السّابقتين، وقد جُعلت إحداهما غرفة نومٍ، والثانية مخدعًا؛ وزيد عليهما بغرفةٍ ثالثةٍ اتُخذَت غرفةَ جلوسٍ. ولم يكن الصالون بالطّابق السّفليّ إلا ما يشبه أريكةً جزائريّةً خُصّصت للمدخّنين. وكان المخدع بالطّابق الأوّل

---

(1) نسبة إلى القبّالا، التقليد الصوفي اليهودي، وهذا فهمٌ من عند المؤلّف.

متّصلًا، بواسطة بابٍ سريّ، بالدّرج. فيبدو أنّ كلّ الاحتياطات قد اتُخذت.

فوق هذا الطّابق الأوّل يمتدُّ مستودعٌ رحبٌ، زيدَ من مساحته بإزالة الجدران والفواصل، كان أشبه شيءٍ ببوندومنيوم[1] يتنازَعُه الفنّانُ والدّانديُّ[2]. وهناك تتكدّس على التّوالي كلُّ متعلّقات النّزوات التي عرفها ألبير: الأبواق، الكمنجاتُ، النّايات[3]، جوقٌ كاملٌ بالمحصّلة، إذ إنّ ألبير قد انتابه للحظةٍ، ليس ميلًا إلى الموسيقى، وإنّما فقط هوىً إليها؛ ثمّ حوامل اللّوحاتِ، وألواحُ الألوان، وأصباغ الباستيلو، إذ إنّ هوى الموسيقى قد أخلى مكانه لهوى الرّسم؛ ثمّ أتى الدّور على سيوف الشّيّش، وقفّازات الملاكمة، والحراب والعصي من كلّ نوع؛ ذاك أنّه وفقًا لتقاليد الشّبابِ الذين يسايرون موضةَ ذاك الزّمان، فقد انتهى ألبير مورسيرف إلى العناية، وهذه المرّة بمثابرةٍ على خلاف ما حدث مع الموسيقى والرّسم، قلنا انتهى مورسيرف إلى ممارسة الفنون الثلاثة التي بها تكتمل التربية الشّاملة: المُسايفة والملاكمة والمبارزةُ بالعصا. وفي هذا المكان المخصّص لتمارين الجسد كلّها، كان يتوالى على زيارة الشّابِ كلّ من غريسييه[4]، وكوك وشارل لوبوشييه.

وما تبقّى من أثاثِ هذه الحجرة المميّزة كان صناديقَ تخزين من أيّام الملك فرَنسوا الأوّل، صناديقَ مملوءة بخزفٍ صينيّ، ومزهرياتٍ

(1) تشير في تاريخ الأدب إلى عاصمة الشّيطان التي منها يلقي وصاياه على الأبالسة، ومنذ استعملها جون ميلتون صارت تدلُّ على المكان الذي يعجُّ بالفوضى والفساد.
(2) الدّاندي كلمة تشيرُ إلى الرّجل الذي يسعى إلى الظّهور بمظهر الأنيق والمهذّب، فيعتنق الدّاندية وهي تيّارُ موضة ساد في إنجلترا نهاية القرن الثامن عشر.
(3) أسماء الآلات هنا تقريبية.
(4) هو على الأرجح أوجستان غريسييه (1865–1791) وكان مؤلّفًا، ومعلّم أسلحةٍ فرنسيًا. ولم نهتدِ إلى الآخَرين، لكنّهما بالضّرورة معلما فنون حربية.

يابانية، وخزفياتٍ مصقولةٍ من شغل الصّانع الفلورنسيّ لوكا ديلّا روبيّا، وصحونٍ تحمل توقيع الفنّان برنار باليسّي؛ ومقاعد عتيقة، ربّما قد جلس عليها هنري الرّابع، أو مستشاره الدّوق سولّي، أو لويس الثالث عشر، أو الكاردينال ريشيليو، إذ إنّ مقعَدين من تلك المقاعد، كانا مزيّنين بشارةٍ منحوتةٍ يلمع فيها شعارُ الزّنبقة الثلاثية الفرنسيّ، ويعلوها التّاجُ الملكيّ؛ قلنا كان واضحًا أنّ ذينك المقعدين قد جيء بهما من الأثاث المحفوظ بمتحف اللوفر، أو على الأقلّ الأثاث المحفوظ في أحد القصور الملكية. وعلى تلك المقاعد ذات الخلفية الغامقة والصّارمة، ألقيَ خليطٌ من الأقمشة ذات الألوان الزاهية، أقمشة صبغت في شمس بلاد فارس، أو نُسجت بأصابع نساء كالكوتا أو شاندرناغور (الهند). لمَ كانت تلك الأقمشة هناك؟ لا أحد يعرف؛ كانت هناك تنتظرُ، مُبهجةً الأنظارَ، وجهةً لا يعلمها حتّى مالكها، وفي انتظار ذلك ها هي ذي تضيءُ المكان بأشعّتها الحريريّة والذّهبية.

وفي الموضع الأبرز من المكان ينتصبُ بيانو، صنعه رولر وبلانشيه[1] من خشبِ الورد، بيانو يناسبُ حجمُه مساحة صالوناتنا القزمة، لكنّه يختزن في جوفه الضيّق الرنّان أوركسترا بأكملها، ويئنُّ تحت ثقل أعمال بيتهوفن، وفيبر، وموزارت، وهايدن، وغريتري، وبوربورا.

ثمّ في كلّ موضع، على امتداد الجدران، وفوق الأبواب، وعلى السّقف، عُلّقت سيوفٌ، وخناجر، ومعاولُ، وهراواتٌ مسنّنةٌ، وسواطيرُ، وتُرُسٌ كاملةٌ مشغولةٌ بالذّهب والدّمقس ومرصّعةٌ؛ ومعشباتٌ، وكتلٌ من معادن، وطيورٌ محشوّةٌ بشعرِ الخيلِ، تفرُدُ في تحليقٍ ساكنٍ أجنحَتها بِلَون النّارِ، ومناقيرَها المفتوحة أبدًا.

---

(1) مؤسّسة رولر وبلانشيه تأسّست في باريس سنة 1826 وصارت أشهر صنّاع آلات البيانو.

ولا نحتاجُ قولًا إنّ هذا الفضاء كانَ الأحبَّ إلى نفس ألبير. غير أنّه يومَ الدّعوةِ قد جعلَ، وهو في زينةٍ شبه مكتملةٍ، من صالون الطّابق السّفليِّ مقرَّه الرّئيسيّ. وهناك، على طاولةٍ تُحيط بها على مسافةٍ أريكةٌ واسعةٌ وناعمةٌ، رُصّت كلّ أنواع التّبغ المعروفة من تبغ بطرسبرغ الأصفر حتّى تبغ سيناء الأسود، مرورًا بماريلاند، وبورتوريكو واللاذقية، وكلّ ذلك زاهٍ في أحقاق الخزف المصقول المحبّب إلى الهولنديّين. وبجانب تلك الأحقاق في علب من خشبٍ عطريّ، رُصّت تبعًا لحجومها وجودتها أنواعُ السيجارِ، من البورّوس إلى الرّيغالياس إلى الهافانيّ، إلى المانيلّي؛ ثمّ أخيرًا كان ثمّة دولابٌ مفتوحٌ رصّت فيه مجموعةٌ من الغلايين الألمانية، وقطعٌ من الجبق ذواتِ قبضاتٍ كهرمانية مزيّنةٍ بالمرجانِ، ونراجيلُ مرصّعة بالذّهب، أنابيبُها المصنوعةُ من جلد الماعز تلتوي كثعابين تنتظرُ نزواتَ مدخّنيها. وكان ألبير قد وقف بنفسه على تنظيم -أو بالأحرى على الفوضى المتّسقة- الفضاءِ ليمكّن الضّيوف، بعد القهوة، من ممارسة هوايتهم المعتادة بعد فطورٍ عصريّ، نقصد التأمّلَ خلَالَ الدّخان الذي ينبعث من أفواههم ويمضي صاعدًا إلى السّقف في دوّاماتٍ طويلةٍ عجيبة.

في العاشرة إلا ربعًا دخل عليه خادمٌ. كان غلامًا وصيفًا في الخامسة عشرة من عمره، لا يتحدّث إلا الإنجليزية، وينادي جميع الخدم باسم جون. وبالطّبع في الأيام العادية يكون طبّاخُ القصر تحت تصرّفه، وكذلك يكون صيّادُ الكونت في المناسبات الكبرى. كان الخادم الذي ذكرناه يسمّى جرمان، ويحظى بكامل ثقة سيّده الشّاب، وقد دخل حاملًا في يده حزمةً من الجرائد وضعها على طاولةٍ، وحزمةً من رسائل سلّمها لألبير.

ألقى ألبير نظرةً لا مباليةً على الرّسائل المختلفة، واختار منها رسالتين وضعتا في مظروفين معطّرين خُطّ عليهما بخطّ رقيقٍ، ففتحهما وقرأهما باهتمامٍ ظاهرٍ.

سألَ خادمَه: - كيف وصلت هاتان الرّسالتان؟

- إحداهما وصلت بالبريد، والأخرى أتى بها خادم السيّدة دانغلار.

- أبلِغ السيّدةَ دانغلار بأنّني أقبل دعوتها إلى مقصورتها... مهلًا... أثناء النّهار مُرَّ على روزا، فأخبرها أنّني سألبّي دعوتها على العشاء بعد الأوبرا، واحمِل إليها ستّ قناني نبيذٍ، من نبيذ قبرص وسيريس ومالقة، وبرميلًا من محارِ أوستند (بلجيكا).. خُذ المحار من عند بوريل، وقُل له إنّي أنا من يطلبُه.

- في أيّ ساعةٍ يريد سيّدي أن نقدّم الطّعامَ؟

- كم السّاعة الآن؟

- العاشرةُ إلا ربعًا.

- حسنًا، قدّموا الطّعامَ في العاشرة والنّصف بالضّبط. فقد يضطرُّ دُبراي إلى أن يعود إلى الوزارة... ثمّ إنّها (وهنا راجع ألبير يوميّتَه) السّاعةُ التي ضربها لي الكونت موعدًا؛ وأنا وإن كنت لا أعوّل كثيرًا على التزامه بالموعد، إلا أنّني أريد أن أكون دقيقًا. بالمناسبة، هل تعلم ما إذا كانت الكونتيسة قد استيقظت؟

- إن كان سيّدي الفيكونت يرغب في معرفة ذلك، يسعدني أن أستعلمَ له.

- أجل... افعل ذلك، واسألها أن تقدّم لك مجموعةً من قواريرَ الأشربة وكؤوسها، فمجموعتي غير تامّة، وقُل لها إنّي سأتشرّفُ بزيارتها في الثالثة زوالًا، وإنّني ألتمس إذنها في أن أقدّم لها شخصًا.

خرج الخادمُ، فاستلقى ألبير على الأريكة، ومزّق غلاف جريدتين أو ثلاثًا، وألقى نظرةً على العروض الفنيّة، فتجهّم وجهه إذ أدركَ أنّ العرضَ كان أوبرا وليس باليهًا؛ ثمّ بحث عبثًا في إعلانات منتجات العطور عن مسكّنٍ لألمِ الأسنانِ كان قد وُصف له؛ ثمّ قلب واحدةً بعد أخرى الصّفحات الثلاث الأكثر مقروئيّةً في باريس، وهو يغمغم: «إنّ الجرائد ما انفكّت تزداد إضجارًا».

وفي تلك اللحظة توقّفت عربةٌ خفيفة أمام الباب، وما هي إلا لحظة حتّى أتى الخادم يعلم بقدوم السيّد لوسيان دُبراي؛ وكان هذا شابًا طويلَ القامة، أشقر، شاحبًا، ذا عينين رماديّتين واثقتين، وشفتين رقيقتين باردتين؛ يرتدي زيًا أزرقَ بأزرارٍ ذهبيّة منقوشة، وربطة عنق بيضاءَ، ونظّارةً أُحادِيةً معلّقةً بخيط حرير، كان يثبّتها بين الفينة والأخرى في محجر عينه اليمنى بجهدٍ من عصب حاجبه وعصب وجنته. وقد دخل من غير أن يبتسم أو يتكلّم، دخل بهيئةٍ شبه رسمية.

قال ألبير: - صباح الخير يا لوسيان، صباح الخير. آه! إنّك تخيفني يا عزيزي بدقّتك هذه! وأيّ دقّة! فأنت الذي كنتُ أتوقّع أن يكون آخر الواصلين، ها أنت ذا تصل قبل العاشرة بخمس دقائق، في حين أنّ الموعد النهائيّ هو العاشرة والنّصف! إنّها لمعجزة! هل وقع انقلابٌ في الوزارة؟

أجابه الشّاب بينما يرتاح على المقعد: - كلّا يا عزيزي، اطمئنّ، إنّنا نهتزّ دائمًا، لكنّنا لا نسقط أبدًا، وقد بدأ يترسّخ عندي الظنُّ بأنّنا سنحوز حصانة المنصبِ، من دون أن نغفل أنّ ما يجري في شبه الجزيرة سيوطّد موقعنا تمامًا.

- آه! صحيح، ستطردون دون كارلوس الإسبانيّ.

- كلاّ يا عزيزي، لا تخلط الأمور، إنّما سوف ننقلُه إلى الجانبِ الآخر من حدود فرنسا، ونمنحه ضيافةً ملكيّةً في بورج.

- في بورج؟

- أجل، ليس له أن يشتكي بحقّ الشّيطان! إنّ بورج هي عاصمة الملك شارل السّابع. لكن، ألست تعرفُ ذلك؟ إنّ الخبر قد ذاع منذ أمس، وظهر أثره أوّل من أمس في البورصة، ذاك أنّ السيّد دانغلار (الذي لا أعرف كيف تصله هذه الأخبار في الوقت نفسه الذي تصلنا فيه) قد استغلّ الخبر، وربحَ مليونًا.

- وأنت ربحتَ شريطًا جديدًا، إذ أرى نياشينك قد تزيّنت بشريطٍ أزرق جديد؟

أجاب دُبراي بلامبالاة: - نعم، لقد أرسلوا إليّ شارةَ شارل الثالث.

- هيّا، لا تمثّل دورَ اللامباليّ، واعترف بأنّ الأمرَ قد أسعدك.

- الحقّ أقول، أبهجتني الشّارةُ من حيث هي قطعةُ زينةٍ إضافية، إذ إنّ شارةً مثلها ستبدو أنيقةً جدًا مع بدلةٍ سوداءَ مزرّرة.

قال مورسيرف باسمًا: - وبفضلها يبدو المرء مثل أمير ويلز أو دوق ريشتاد[1].

- هذا إذًا يا عزيزي السّبب الذي جعلك تراني مبكرًا هذا الصّباح.

- تقصد أنّك قد أبكرتَ لأنّك حصلت على شارة شارل الثالث، وأردت أن تبلغني الخبر؟

- كلّا، بل لأنّي قضيتُ اللّيل في إرسال رسائل: خمس وعشرون برقية دبلوماسية. وإذ عدت إلى بيتي هذا الصّباح أردتُ أن أنام؛ لكنّ وجع الرّأس ألمّ بيَ، فنهضت لأركب الحصان ساعةً. وحين بلغت بولونْي، تملّكني الجوع والملل، وهما عدوّانِ قلّما يجتمعان، إذ اتّحدا ضدّي، شكّلا ما يشبه رابطةً كارلو-جمهورية[2]. تذكّرت أنّك تولِم هذا الصّباحَ، فأتيتُ: إنّي جائعٌ، فأطعمني؛ وإنّي ضجِرٌ، فسلّيني.

قال ألبير وهو يرنُّ الجرس مناديًا الخادمَ، بينما لوسيان يقلّبُ الجرائد بطرف عصاه المرصّعة بالتركواز: - إنّه واجبي كمضيف يا عزيزي! جرمان! هاتِ كأسًا من نبيذ سيريس، وبعض البسكويت. وفي انتظار

---

(1) أمير ويلز اللّقب الذي يحوزه أوّل أبناء ملك بريطانيا الذّكور، ودوق ريشتاد هو اللّقب الذي خُلع على ابن نابليون الأوّل من طرف جدّه لأمّه فرانسوا الأوّل النّمساوي.

(2) أي اتّحاد بين الحركة الكارلية في اسبانيا، وهي الحركة التي كانت تسعى إلى إنشاء خطّ حكمٍ منفصل عن حكم آل بوربون والتيّار الجمهوري الفرنسيّ.

ذلك يا عزيزي، دونك هذا السّيجار، المهرّب بطبيعة الحال؛ أدعوك إلى تذوّقه، وأن توصي وزارتك بأن تأتينا بمثله، بدلًا من أوراق الجوز التي تفرض على المواطنين الطّيّبين تدخينَها.

- اللعنة! سأحرص على ذلك. وإن كنت أعلم أنّك، ما إن توفّرها الحكومة حتّى تأنف منها وتبدو في عينيك رديئةً. ثمّ إنّ هذا ليس من مهمّات وزارة الدّاخلية، وإنّما هو منوط بوزارة المالية. فتوَجّه إلى السيّد هومان، في دائرة المداخيل غير المباشرة، بالرّواق أ، المكتب رقم 26.

قال ألبير: - الحقّ أنّ شساعة معارفك لا تدهشني. تفضّل خذ سيجارًا!

قال لوسيان وهو يشعل سيجارًا مانيليًّا من شمعةٍ ورديّةٍ موقدةٍ في شمعدانٍ قرمزيّ، ويستلقي في مقعده إلى الخلف: - آه! عزيزي الفيكونت، ما أسعدك ببطالتك! الحقّ أنّك لا تقدّر ما أنت فيه من نعمة!

أجابه مورسيرف بشيءٍ من سخرية: - وما كنتَ لتفعل أنت، يا عزيزي السّاعي في سلامِ الممالك، لو كنت عاطلًا لا تفعلُ شيئًا؟ كيف! يا سكرتير الوزير الشخصيّ، المنخرط في آنٍ في المؤامرة الأوروبيّة العظيمة والمكائدِ الباريسية الصّغيرة؛ المسؤول عن حماية ملوكٍ، لا بل وحتّى ملكاتٍ، وتوحيد أحزابٍ، وإدارة انتخاباتٍ؛ يا من تقوم من مكتبك، بواسطة يراعك وتلغرافك، بما لم يقُمِ به نابليون، من ساحات معاركه، بسيفه وانتصاراته؛ يا من تملك مداخيلَ بقيمة خمسةٍ وعشرين ألف جنيهٍ خارجَ ما تجنيه من منصبك؛ وحصانًا عرض عليك فيه شاتو رونو أربعمائة لويسيّة، ورفضتَ بيعَه؛ وطوع يديك خيّاطٌ لا يخطئُ؛ وعندك الأوبرا، ونادي الفروسيّة، ومسرح المنوّعات؛ قُل لي كيفَ لا تستطيع، مع كلّ هذا، أن تسرّي عن نفسك؟ حسنًا إذًا، سأسرّيك أنا.

- وكيف؟

- سأعرّفك على شخصٍ جديد.

- تقصدُ رجلًا أم امرأةً؟
- رجلًا.
- أوه! أعرف من الرّجال ما يكفي!
- لكنّك لا تعرفُ البتّة رجلًا مثل هذا الذي أحدّثك عنه.
- من أين أتى إذًا؟ هل من أقصى الدّنيا؟
- ربّما من مكانٍ أبعد.
- آه، اللعنة! أرجو ألّا يكون آتيًا بطعامنا؟
- كلاّ، اطمئنّ، إنّ طعامنا يتحضّرُ في مطابخ والدتي. لكن، هل جُعتَ؟
- أجل، أعترف بذلك، مع ما يحمله من عارٍ الاعترافُ بأمرٍ مماثلٍ. لكنّني تعشّيتُ أمس في بيت السيّد دو فيلفور؛ ولا شكّ أنّك تعرفُ يا صديقي أنّ العشاءَ عند رجال القانون دائمًا ما يكون مُقترًا؛ يبدو كأنّما ينتابهم الأسفُ على دعوتك.
- آه! بحقّ السّماء، تبدي استياءَك من عشاء الآخرين، كأنّما يتعشّى أفخمَ عشاءٍ المدعوُ عندكم أنتم معشر الوزراء.
- أنت محقٌّ، لكنّنا على الأقل لا ندعو النّاس كما اتُّفق؛ ولو أنّنا لم نكن مضطرّين إلى دعوة بعض الأكَلَة ممّن يفكّرون، وخاصّةً ممّن يصوّتون لنا، لتجنّبنا العشاء في منازلنا كلّ التجنّب. ثِق بي.
- حسنًا يا عزيزي، خُذ كأسًا ثانيةً من نبيد سيريس، وبسكويتًا آخرَ.
- بكلّ سرورٍ، إنّ نبيذك الإسبانيّ رائعٌ؛ وها أنت ترى أنّنا أحسنّا صنعًا بمهادنة هذا البلد.
- أجل، لكن ماذا عن الدون كارلوس؟
- ما على الدّون كارلوس إلا أن يشرب نبيذ بوردو، وفي عشر سنين سنُزوّج ابنَه من الملكة الصغيرة.

- ممّا يعني أنّك ستُكافأ بالصّوف الذهبيّ[1] إن كنتَ لا تزالُ بالوزارة.
- أرى يا ألبير أنّك قد قرّرت هذا الصّباح تغذيتي بالدّخان[2].
- إِه! ذاك ما يُمتع المعدة خير متعة؛ ثمّ ها أنا ذا أسمع صوتَ بوشان في بهو البيت؛ سوف تتجادلان، فيسلّيك ذلك عن الطّعام.
- نتجادل فيم؟
- في أمور الجرائد.
أجابه لوسيان باستخفافٍ كبير: - أوه! أتراني أقرأ الجرائد يا عزيزي!
- وهذا سببٌ أدعى إلى الجدال.
وفي تلك الأثناء صاح الخادم معلنًا قدوم السيّد بوشان.
قال ألبير وهو يقوم مستقبلًا الرّجل الشّابَ: - تفضّل، تفضّل أيّها القلمُ الرّهيب! هوذا دُبراي الذي يمقتك من دون أن يقرأ لك، بحسب ما يقوله على الأقلّ.
أجابه بوشان: - إنّه محقّ؛ مثلي تمامًا، أنا الذي أنتقده من دون أن يكون لي علم بما يفعله. صباح الخير حضرة الكوماندور.
أجابَه السكرتير الخاصّ مبادلًا الصحافيّ مصافحةً وابتسامةً:
- آه! تعرفُ على الأقلّ هذا.
أجابه بوشان: - بشرفي.
- وما أخبارُ العالم؟
- أيّ عالمٍ تقصد؟ ثمّة عوالمُ كثيرة في عامِ البركة[3] 1838 هذا.

---

(1) في الميثولوجيا اليونانية، يرتبط برحلة جاسّون الخيالية التي أعاد فيها صوف الكبش الذهبيّ الذي كان قد قُدِّم قربانًا لزوس إنهاءً لمجاعة، وصار التعبير يشير إلى نيل الحظوة الكبيرة والمكافأة العظيمة.
(2) لا يخفى ما يُلمح إليه لوسيان من معنى مزدوج: تغذّيني بالدّخان، أي بالسيجار وبالخيالات والأماني.
(3) تعبير يشير إلى سنة تبدأ من أوّل أيّام الميلاد الموافق للخامس والعشرين من فبراير.

- أقصد عالم النّقد السيّاسيّ، الذي تعدُّ أنت أحد جهابذته.

- يُقالُ إنّكم تبذرون ما يكفي من اللّون الأحمر، لينمو بعض الأزرق[1].

قال لوسيان: - لا بأس! لمَ لا تلتحقُ بصفوفنا يا عزيزي بوشان؟ بهذه الحصافة التي تميّزك، ستراكم ثروةً في ثلاث سنينَ أو أربع.

- الحالُ أنّي لا أنتظرُ إلا شيئًا واحدًا لأتّبع نصيحتك: منصبٌ وزاريّ مضمونٌ لستّة أشهر. والآن، لديَّ سؤال واحدٌ لك يا عزيزي ألبير، إذ ينبغي أن أترك المسكين لوسيان يلتقط أنفاسَه: هل سنتغدّى، أم سنتعشى؟ إنّ المجلس ينتظرني. فكما ترى، مهنتُنا ليست ورديّةً.

- سنتغدّى فقط، ولسنا ننتظر سوى شخصَين، وسنجلس إلى المائدة ما إن يصلا.

سأله بوشان: - وأيّ نوعٍ من النّاس هما ذانك اللذين تنتظرهما؟

- رجلٌ نبيل، ورجلٌ دبلوماسيّ.

- حسنًا إذًا، سنحتاجُ ساعتين على أكثر تقدير للرّجل النّبيل، وساعتين على أبعد تقدير للدبلوماسيّ. سأعود ساعة التّحلية. اترك لي بعضَ الفراولة وقهوة وسيجارًا. سأتناولُ قطعةً مشويةً من ضلع الخروف في المجلس.

- كلاّ يا بوشان، لا تفعل، إنّ النّبيلَ من آل مونمورونسي والدبلوماسيَّ من آل مِترنيخ، لذا أؤكّد لك أنّنا سنتناول الطعام في العاشرة والنّصف بالضّبط؛ وفي انتظار ذلك، افعل مثل دُبراي، وتذوّق نبيذيَ السيريسيّ وبسكويتي.

- سأبقى إذًا، فأنا أحتاج إلى بعض التسلية هذا الصّباح.

---

(1) الأرجح من تعبيره، أنّهم يخوضون الحروب ويريقون الدّماء (الأحمر) لتوسيع فرنسا (الأزرق).

- حالُك إذًا حالُ دُبراي! مع إنّي أتصوّر أنّه حين تحزنُ الوزارةُ، ينبغي أن تفرحَ المعارضةُ.

- آه! ذاك أنّك لا تعرف يا صديقي ما يتهدّدني. سوف أُنصت اليوم إلى خطابٍ يلقيه السيّد دانغلار بمجلس النوّاب، ومساءً، ببيت زوجته، سأحضر تراجيديا يقدّمها أحد أعضاء المجلس الأعلى. ليأخذ الشّيطانُ الحكومة الدّستورية! وبما أنّ الخيار كان في أيدينا، كما يُقال، فكيف آلت بنا الأمور إلى اختيار هذه الحكومة؟

- أتفهّمك. ينبغي أن تدّخر حصّةً من المرح.

قال دُبراي: - لا تقُل سوءًا في حقّ خِطابِ دانغلار، إنّه يصوّت لك، إنّه محسوبٌ على المعارضة.

- وهذا لعمري البلاءُ بعينه! إنّي لأنتظر أن ترسلوه ليلقي خطابًا في لوكسمبورغ حتّى أضحك ما طابَ لي.

قال ألبير لبوشان: - عزيزي، نرى حقًّا أنّ أمور إسبانيا قد انتظمت، إنّ حِدّتَك اليوم طاغيةٌ. تذكّر إذًا أنّ اليومية الباريسية تشير إلى زواجٍ بيني وبين الآنسة يوجيني دانغلار. فلا يسعني إذًا أن أتركك تطعنُ في بلاغةِ رجلٍ قد يخاطبني يومًا قائلًا: «سيّدي الفيكونت، تعلمُ أنّني أعطي ابنتي مليونين».

قال بوشان: - دعك من هذا! إنّ هذا الزّواج لن يتمّ. فالملك قد استطاع جَعْلَه بارونًا، وبوسعه أن يجعل منه عضوًا بالمجلس الأعلى، لكن أبدًا لن يجعل منه نبيلًا. وإنّ الكونت دو مورسيرف نبيلٌ أرستقراطيّ رفيعٌ، فلا أحسبه سيوافق على هذه المصاهرة المبخسة ولو بمليونَين. لا يمكن أن يتزوّج الفيكونت دو مورسيرف إلا ماركيزةً.

أجابه مورسيرف: - ومع ذلك، يظلّ مليونان مبلغًا جيّدًا!

- إنّه رأسمال مسرح بالبولفار أو حديقة النّباتات برصيف لارابيه.

قاطعه دُبراي: - دَعهُ يقول ما شاء يا مورسيرف، وأتِمَّ زواجَك. سوف

تتزوّج بلا رويّةٍ، أليس كذلك؟ فيمَ يهمّك ذلك! الأحرى أن ينقص شعارُ نبالةٍ ويزيدَ صفر على يمين الثروة؛ لديك سبعة شحارير في تُرسك[1]، سوف تعطي زوجتكَ ثلاثةً ويتبقّى لك أربعة. أربعةُ شحارير يعني أنّك تفوق بواحدٍ السّيد دو غيز الذي كاد يكون ملكًا لفرنسا، والذي كان ابن عمّه إمبراطورًا لألمانيا.

أجابه ألبير ذاهلًا: - لعمري إنّك محقٌّ يا لوسيان.

- قطعًا! ثمّ إنّ كلَّ مليونير هو نبيلٌ مثل لقيطٍ، أي إنّ بوسعه أن يكون كذلك.

قال بوشان ضاحكًا: - صه! لا تقل هذا يا دُبراي، فها شاتو رونو، وسيشفيك من هوس المفارقة بضربةٍ من سيف جدّه الأكبر رونو دو مونتوبان[2].

- سوف يعوَجُّ سيفُه، ذاك أنّي صعبُ المراس، صعبُ المراس.

صاح بوشان: - طيّب! ها الوزير يغنّي أغاني بِرانجي[3]، إلى أين نحنُ ماضون يا إلهي؟

وإذّاك صاح الخادم معلنًاوصول ضيفين آخرين: - السيّد دو شاتو رونو! والسيّد ماكسيميليان موريل!

فقال بوشان: - اكتمل العدد إذًا، ونستطيع أن نأكل. لأنّك، إن لم أخطئ التقدير، لم تكن تنتظر سوى شخصين يا ألبير!

همس ألبير دهشًا: - موريل! يا موريل! من هذا؟

لكن قبل أن يكمل ألبير كلامَه أمسك بيده السيّدُ دوشاتو رونو، وهو

---

(1) كانت الشّحارير ترسم على شعار النّبالة وبقدر ما يزداد عددها بقدر ما ترتفع النّبالة، وشعار النّبالة يرسم على التُّرس والأسلحة.

(2) من أبطال أدب العصور الوسطى.

(3) مغنّي اسكيتشات فرنسي (1857-1780)، اشتهر بأغانيه السياسية وحاز صيتًا واسعًا. والمقطع الذي نطق به دُبراي هو لازمةٌ شهيرةٌ من إحدى أغنياته.

شابٌ ثلاثينيٌ وسيمٌ، نبيلُ الهيئة، من رأسه إلى أخمص قدميه؛ أي إنّ له وجه غيشيّ وروح مونتمارتيّ، وقال له: - اسمح لي عزيزي، بأن أقدّم لك السيّد النّقيب بجيش الصبايحية[1] ماكسيميليان موريل، وهو صديقي، علاوة على كونه منقذي. عدا ذلك، يستطيع هو أن يقدّم نفسه على أفضل نحو. حيّي بطلي يا سيّدي الفيكونت.

ثمّ انتحى جانبًا حتّى يبرُز هذا الشّابُ الطّويل النّبيل، ذو الجبهة العريضة، والعين الثاقبة، والشّارب الأسود، الشّاب الذي يذكُر قرّاؤنا أنّنا قابلناه في مارسيليا ضمن ملابساتٍ مأساوية لدرجة أنّه لا يُمكن أن يُنسى. كان يرتدي زيًا فاخرًا، نصفه فرنسيّ ونصفه شرقيّ، يرتديه بأناقةٍ تُبرزُ صدره العريض الموشّح بوسام جوقة الشّرف. انحنى العسكريّ الشّاب بأدبٍ ينطق باللّباقة؛ كان موريل فخمًا في كلّ حركةٍ يقوم بها، لأنّه كان قويًا.

قال ألبير بحفاوة بالغة: - سيّدي، إنّ السيّد البارون دو شاتو رونو يعلمُ مسبقًا مدى السّعادة البالغة التي ستمنحني إيّاها معرفتك؛ أنت صديقه، يا سيدّي، فلتكن صديقنا أيضًا.

قال شاتو رونو: - حسنًا، ولترجُواهُ أن يفعل معكما، إن اقتضت الضّرورة، ما فعله معي.

سأله ألبير: - وماذا فعل؟

قال ألبير: - أوه! الأمر لا يستحقّ الذّكر، إنّما السيّدَ يبالغ.

قال شاتو رونو: - كيف! كيف تقول إنّ الأمر لا يستحقّ الذكر! ألا تساوي الحياة الذِّكر؟ الحقّ أنّك تبالغ في التّفلسف يا سيّدي موريل... ربّما يكون الأمر كذلك بالنّسبة إليك أنت الذي تعرّض حياتك للخطر يوميًا، أما أنا الذي عرّضتها للخطر مرّة واحدةً، ومحض صدفةٍ...

---

(1) فرقة أسستها فرنسا في مستعمراتها بشمال إفريقيا (الجزائر بخاصّة)، كجيش عميل.

- ما أفهمه من كلّ هذا يا سيّدي البارون، هو أنّ السيّد موريل قد أنقذ حياتك.

أجاب شاتو رونو: - أوه! أجل، ذاك ما فعل.

سأله بوشان: - وما كانت المناسبة؟

قال دُبراي: - عزيزي بوشان، تعرف أنّني أموت جوعًا، فلا تُدخلني في قصص.

قال بوشان: - حسنًا، لستُ ضدّ أن نأكل الآن... وليقصّ علينا شاتو رونو القصّة ونحن جلوسٌ إلى المائدة.

قال مورسيرف: - سادتي، انتبهوا إلى أنّ السّاعة لم تتجاوز العاشرة والرّبع، وما زلتُ أنتظر ضيفًا آخرَ.

قال دُبراي: - آه، صحيح، تنتظر الدّبلوماسيَّ.

- هو دبلوماسيٌّ، أو شيءٌ آخر، لا أدري، كلّ ما أعلمه أنّني قد كلّفته بمهمّةٍ دبلوماسيّة ينجزها لحسابي، وقد أتمّها على أكمل نحوٍ، إلى درجة أنّني لو كنت ملكًا لنصّبتُه على الفور فارسًا على حرسي كلّهم، ولحزتُ بفضله في آنٍ الصّوف الذهبيّ والرّباطَ.

قال دُبراي: - طيّب، ما دُمنا لم نجلس بعد إلى المائدة، صُبّ لنفسك يا بارون كأس سيريس مثلما فعلنا نحنُ، وقُصَّ علينا القصّةَ.

- تعرفون جميعًا أنّي كنتُ قد فكّرتُ في الذّهاب إلى إفريقيا.

قال مورسيرف بلباقة: - تلك طريقٌ خطّها لك أسلافُك يا عزيزي شاتو رونو.

- أجل، لكنّي أشكّ في أنّه قد ذهب بغايةِ تحرير مقام المسيح، مثلما فعلوا هم.

أجاب الأرستقراطيّ الشّابُّ: - أنت محقّ يا عزيزي بوشان، إنّما ذهبتُ لأمارس هواية الرّماية. فكما تعلمان صرتُ أنفُر من النّزال، منذ أن أجبرني شاهدايَ اللّذان اخترتهما لتسوية قضيّةٍ على كسر ذراع صديقٍ عزيز... المسكين فرانز ديبيناي الذي تعرفونه جميعًا.

قال دُبراي: - آه، نعم! لقد تنازعتُما فيما مضى... وما كان السّبب؟

قال شاتو رونو: - ليأخذني الشّيطانُ إن كنتُ أذكر! لكن ما أذكره جيّدًا، هو أنّني قد خجلتُ من إخمادِ موهبةٍ كتلك التي أتمتّع بها، فقرّرت أن أجرّب في العرب مسدّساتٍ جديدةً أهديت لي حديثًا. وبالتّالي ركبتُ إلى وهران؛ ومن وهران وافيتُ قسنطينة، ووصلتها مع رفع الحصار تمامًا. فتراجعت كما فعل غيري. ولمدّة ثمانٍ وأربعين ساعةً، احتملتُ مطر النّهار كما ثلج اللّيل؛ لكن في اليوم الثالث مات حصاني بردًا. يا للبهيمة المسكينة! كان حصانًا عربيًا، لكنّه لفرط اعتياده الأغطية والمدفأة في الإسطبل، ما إن واجه عشر درجاتٍ من برد البلاد العربية حتّى هلك.

قال دُبراي: - لهذا كنتَ تريد أن تشتري منّي حصاني الإنجليزيّ، تحسبه يطيقُ برد البلاد العربيّة أكثر ممّا يطيقُها حصانُك العربيّ.

- إنّك مخطئ، فلقد حلفت ألّا أعود إلى إفريقيا.

سأله بوشان: - هل أصبت بالخوف إذًا؟

أجابه شاتو رونو: - الحقّ أنّي أعترف بذلك. وقد كان الوضعُ فعلًا يستحقّ الخوف! قلتُ إذًا إنّ حصاني قد ماتَ؛ فانسحبت على قدميَّ قصدني ستّة عربٍ ركضًا، يريدون قطع رأسي. أرديت اثنين منهم بطلقتين من بندقيّتي، واثنين آخرَين بمسدّسيَّ؛ لكن بقيَ اثنان منهم، وكنت أعزلَ؛ أمسك بي أحدهما من شعري، -ولذا ترونني قصصتُه الآن قصيرًا، فلا أحد يدري ما قد يحدث-، وطوّق الثاني عنقي بياقاطانه[1]، وكنتُ قد أحسستُ ببرودة نصل الحديد، وإذا بالسيّد الذي ترونَه أمامكم، وقد رماهما، فأردى بطلقةٍ من مسدّسه ذاك الذي كان يمسك بشعري، وقصم بسيفه رأسَ ذاك الذي كان يوشك أن يحزّ بسيفه رأسي. لقد أراد هذا

(1) الياقاطان، سيف تركيّ رقيق ومقوّس.

السيّد ذاك اليوم أن ينقذَ حياةَ رجلٍ، وشاءت الصّدفةُ أن يكون الرّجلُ أنا؛ حين أغتني سوف أطلبُ من كلاغمان أو ماروكيتي[1] أن يقيمَ لي نُصبًا يخلّدُ الصّدفةَ.

قال موريل باسمًا: - نعم، لقد كان التّاريخ 5 سبتمبر، أي ذكرى تصادفُ اليوم الذي أُنقذَ فيه والدي بمعجزةٍ؛ وفي كلّ سنةٍ أحاول تخليد تلك الذّكرى بما وسعني من فعل...

قاطعه شاتو رونو: - بطوليٌّ، أليس كذلك؟ الخلاصة؛ لقد كنتُ أنا المختار ذلك اليوم، وليس هذا كلّ شيء. فبعدما أنقذني من حدّ السّيف، أنقذني من البرد، ليس بمنحي نصفَ معطفه، كما كان يفعل القدّيس مارتان، وإنّما أعطانيه كلّه؛ ثمّ أنقذني من الجوع إذ قدّم لي ماذا؟ خمّنوا؟

سأله بوشان: - عجينةً من عند فيليكس؟

- كلاّ، لقد ضحّى بحصانه، فأكل كلٌّ منّا قطعةً بشهيّةٍ مفتوحة. وكانت قاسيةً.

قال مورسيرف ضاحكًا: - تقصد لحمَ الحصان؟

أجابه شاتو رونو: - كلّا، التضحية. وسَل دُبراي هل يستطيع أن يضحيَ بحصانه الإنجليزي في سبيل رجلٍ غريبٍ.

قال دُبراي: - في سبيل رجلٍ غريبٍ، كلّا، لكن في سبيل صديقٍ، ممكن.

قال موريل: - لقد خمّنتُ يومئذٍ أنّك ستصير صديقي يا سيّدي البارون؛ ثمّ إنّي قد قلت لك من قبل إنّني اعتدتُ، سواء اعتبر الأمرُ بطولةً أو تضحيةً أو لم يُعتبر، أن أقوم بتضحية أشكر بها القدر على لطفه بعائلتي فيما مضى.

---

(1) جان باتيست جول كلاغمان (1810-1867) وكارلو ماروكيتي (1805-1867)، نحّاتان فرنسيّان.

واصل شاتو رونو: - إنّ الحكاية التي يشيرإليها السيّد موريل، هي قصّةٌ أخرى مثيرةٌ للإعجاب، لا بدّ أن يحكيها لكم ذات يوم، حين تتقوّى بينكم أواصر الصّداقة؛ أما اليوم، فلنملأ البطونَ وليس الذّاكرة. في أيّ ساعةٍ تتغدّى يا ألبير؟

- في العاشرة والنّصف.

سأله دُبراي وهو يخرج ساعته من جيبه: - العاشرة والنّصف بالضّبط؟

قال مورسيرف: - أوه! لطفًا، امنحوني خمس دقائق أخرى، فأنا أيضًا أنتظر مُنقذًا.

- منقذًا! من هو؟

أجاب مورسيرف: - منقذي أنا، صدقًا! هل تحسبون أنّه لا يمكن إنقاذي أنا أيضًا مثلما يُنقَذُ غيري، أم أنّكم تحسبون أنّ العربَ وحدهم من يقطعون الرّؤوس! إنّ وليمتنا اليومَ تجمُّعٌ للمحسنين، فعلى المائدة سيجالسنا محسنان اثنان إلى الإنسانية، هذا ما أتمنّاه على الأقل.

قال دُبراي: - ما العمل؟ إنّ جائزة مونتيون لا تُمنح إلا لشخصٍ واحد؟

أجابه بوشان: - حسنًا إذًا، سوف نمنحها لشخصٍ ثالثٍ لا يستحقّها، أليس هكذا تفعل الأكاديمية كلّ سنةٍ لتتجاوز الإحراج؟

سأله دُبراي: - ومن أين مَقْدم هذا المنقذ؟ اعذر إلحاحي؛ أعرف أنّك قد أجبت على سؤالي من قبل، لكنّ جوابك كان مبهمًا، فلا أملك إلا أن أعيدَه.

أجابه ألبير: - صدقًا، لا أعلم شيئًا. حين دعوتُه قبل شهرين، كان في روما؛ لكن منذ ذلك الحين، لا أدري أيّ الطرق سلك!

سأله دُبراي: - وهل تظنُّه قادرًا على احترام موعده؟

أجابه مورسيرف: - أعتقد بأنّه قادرٌ على كلّ شيء!

- حذار! لم تبقَ إلا عشر دقائق.

- سأستغلّ الأمر إذًا فأحدّثكم قليلًا عن ضيفي.

قال بوشان: - عفوًا، هل ثمّة، فيما ستقصّه علينا، ما يصلح لكتابة حكايةٍ؟

أجابه مورسيرف: - نعم؛ حكاية من أعجب الحكايات.

- هاتِ ما عندك إذًا؛ يبدو أنّي سأفوّت موعد المجلس، وعليّ أن استدرك الأمر.

- كنتُ في روما، أثناء الكرنفال الماضي.

قال بوشان: - نعرف ذلك.

- أجل تعرفونه. لكن ما لا تعرفونَه، هو أنّ قطّاعَ طُرقٍ اختطفوني.

قال دُبراي: - لا وجود لقطّاع الطّرق.

- بلى، ثمّة قطّاع طرق، ومن أبشع قطّاع الطرق، أقصد من أكثرهم إثارةً للإعجاب؛ لأنّي رأيت فيهم جمالًا يبعث على الرّعب.

قال دُبراي: - هيا يا عزيزي ألبير، اعترف بأنّ طبّاخك أبطأ في تحضير الطّعام، وأنّ المحار لم يصِل من مارين أو أوستند، وأنّك تريد الاستعاضة عن الطّبق بالحكاية، على شاكلة ما فعلت مدام دو مانتينون. اعترف وستجد لدينا العذرَ نحن رفاقك الطيّبين، ونستمع لحكايتك مهما كانت عجيبةً.

- وأنا أقول لك مهما بدت لك قصّتي عجيبةً، إلا أنّها حقيقية من ألفها إلى يائها. لقد اختطفني قطاع الطّرق إذًا، واقتادوني إلى مكانٍ موحشٍ جدًا يسمّى مدافن سان سيبستيان.

قال شاتو رونو: - أعرف هذا المكان، لقد كدتُ أصابُ فيه بالحمّى.

قال مورسيرف: - أمّا أنا فأُصبتُ بما هو ألعَنُ من الحمّى. وقالوا لي إنّي سأظلُ رهينةً إلى أن أُفتدى بفدية، مبلغ زهيد: أربعة آلاف ذهبية رومانية، أي ما قدرُه ستّةٌ وعشرونَ ألفَ جنيه. غير أنّي للأسف كنت قد بلغت نهاية سفري، ونفد منّي المال. كتبت إلى فرانز الذي حضر

معي المغامرة كلَّها، وبوسعكم سؤاله عمّا إذا كنت قد كذبت عليكم في حرفٍ واحدٍ ممّا أقوله؛ قلت إنّي قد كتبتُ إلى فرانز أخبره أنّه إن لم يأتِ في السّادسة مساءً حاملًا الفدية، فسينتهي بي المطافُ بين الشّهداء الممجَّدين الذين كنت أتشرّف بالتواجد بينهم؛ وإنّ السيّد لويجي فامبا -كذلك كان يُدعى زعيمُ خاطفيَّ- سيحرص على تنفيذ وعيده.

قال شاتو رونو: - وقد أتاك فرانز حاملًا الأربعة آلاف ذهبيّة. بحقّ الشّيطان! إنّ ضياع أربعة آلاف ذهبيّة لا تُعدّ مشكلةً حين يكون المرء حاملًا لاسم فرانز ديبيناي أو ألبير دو مورسيرف.

- كلّا، لقد أتى ببساطة، برفقة الضيف الذي ننتظره، والذي أتمنّى أن أعرّفكم عليه.

- آه! صاحبك إذًا أشبه بهرقل الذي قتل كاكوس[1]، أو لعلّه بيرسيوس[2] الذي أنقذ الأميرة أندروميدا؟

- كلّا هو رجلٌ يكادُ يماثلني قامةً.

- أيّ أسلحةٍ كان يحمل؟

- لم يكن يحمل حتّى إبرة حياكة.

- وهل فاوضهم على فديتك؟

- همس في أذن الزّعيم بكلمتَين؛ فأُطلقَ سراحي.

قال بوشان: - لا بل إنّهم اعتذروا له عن أسرك.

أجاب مورسيرف: - ذاك ما حدث بالفعل.

- أوه! هذا الرّجل إذًا أريوستو[3]!

- كلّا، إنّه ليس سوى كونت مونت كريستو.

قال دُبراي: كونت مونت كريستو ليس اسمًا.

---

(1) كاكوس ابن الإله فولكلنوس في الميثولوجيا اليونانية، وهو من فصيل العمالقة.
(2) بطلٌ يونانيّ، قاطع رأس ميدوسا.
(3) لودفيجو أريوستو (1474-1533)، شاعرٌ إيطاليّ من عصر النّهضة.

أضاف شاتو رونو، بثقة من يستطيع إحصاء كلّ النّبلاء الأوروبيّين:
- من منكم يعرف شخصًا باسم كونت مونت كريستو؟
قال بوشان: - لعلّه آتٍ من الأراضي المقدّسة، ربّما تملَّك أحد أسلافه الجلجلة، مثلما امتلك آل مورتمارت البحرَ الميّت.
قال ماكسيميليان: - عفوًا، هل ليَ بأن أُخرجكم من بعض حيرتكم يا سادة؟ إنّ مونت كريستو جزيرةٌ صغيرةٌ، كثيرًا ما سمعت اسمها يتردّد على ألسنة البحّارة ممّن كانوا يشتغلون عند والدي؛ مجرّد حبّة رملٍ وسط البحر الأبيض المتوسّط؛ ذرّةٌ في الفضاء اللامتناهي.
قال ألبير: - أنت محقٌّ تمامًا يا سيّدي. وإذًا، إنّ تلك الحبّة من الرّمل، تلك الذرّة، لها سيّدٌ وملكٌ، وهو الكونت مونت كريستو الذي أحدّثكم عنه؛ وقد اشترى هذا اللقب في موضعٍ ما من توسكانا.
- غنيٌّ إذًا هذا الكونت الذي تتحدّث عنه.
- لعمري، ذلك ما أظنُّ.
- لكنّ ذلك من الأمور التي لا تخفى، على ما أعتقد؟
- هذا ما لا أستطيع الفصل فيه يا دُبراي.
- لا أفهمك.
- هل سبق أن قرأتَ **ألفَ ليلةٍ وليلةٍ**؟
- أيّ سؤالٍ هو بحقّ السّماء!
- طيّب، هل بوسعك أن تحدّد ما إذا كان النّاسُ في ألف ليلةٍ وليلةٍ، أغنياء أم فقراء؟ أن تجزمَ ما إذا كانت حبوبهم قمحًا أم ياقوتًا وألماسًا؟ يبدون في هيئةِ بحّارةٍ بؤساء، أليس كذلك؟ تعاملهم على هذا الأساس، ثمّ فجأةً يفتحون أمامك مغارةً سحرية، فترى كنزًا اشتُريَ من الهند.
- وبعد؟
- وبعد، إنّ الكونت مونت كريستو أحد أولئك البحّارة. حتّى إنّه اتّخذ لنفسه اسمًا اقتبسَه من أجواء ألف ليلةٍ وليلةٍ «السّندباد البحريّ»؛ ويمتلك مغارةً مليئةً بالذّهب.

سأله بوشان: - وهل رأيتَ هذه المغارة؟

- كلّا لم أرَها أنا، لكنّ فرانز رآها. لكن، اكتموا الأمر، فهذا ممّا لا ينبغي أن يُذكَرَ أمامَه. لقد نزل فرانز المغارةَ معصوبَ العينين، وخدمَه خدمٌ خُرسٌ، ونساءٌ تبدو أمامهنّ كليوباترا مجرّد امرأةٍ عادية. غير أنّ أولئك النّساء لا وجود لهنّ فعليًا، لأنّهن لم يظهرن إلا بعد أن تناولَ الحشيش؛ ممّا يعني أنّهنّ قد يكنّ مجرّد تماثيل خيِّل إليه، بفعل الحشيش، أنّها نساء.

نظر الشّبانُ إلى مورسيرف نظرةَ من يريد أن يقول: «آه! عزيزي هل جُننتَ، أم تُراك تسخرُ منّا؟».

قال موريل متفكّرًا: - بالفعل، لقد سمعتُ مِن بحّارٍ شيخٍ يسمّى بِنِيلون، شيئًا مشابهًا لما يحكيه السيّد مورسيرف.

قال ألبير: - آه! جيّدٌ أنّ السيّد موريل يؤيّدني. ربّما أزعجكم أنّه أضافَ إلى المتاهة خيطًا جديدًا؟

قال دُبراي: - عفوًا عزيزي، لكنّ الأشياء التي تحكيها تبدو لا معقولة...

- بحقّ السّماء! هذا لأنّ سُفراءَك وقَناصلَكَ لا يحدّثونك عنها! لا وقت لديهم، يكفيهم أن يتحرّشوا بمواطنيهم المسافرين.

- آه! ها أنت ذا غضبتَ وبدأت تخطئُ في حقّ رجالنا المساكين. إه! يا إلهي! كيف تريد منهم أن يحموك؟ فالمجلس يقضم كلّ يومٍ من رواتبهم؛ إلى درجة أنّنا ما عدنا نجدُ من يعمل. هل تريد أن تصير سفيرًا يا ألبير؟ سأحرص على تعيينك في القسطنطينية.

- كلّا! أتريد أن يرسلني السّلطان إلى المقصلة ما إن أُظهر تأييدي لمحمّد عليّ، أو أن يخنقني حجّابُه.

قال دُبراي: - ها أنت ترى يا عزيزي.

- أجل، لكنّ كلّ ذلك لا يمنع كون الكونت مونت كريستو حقيقيًّا وموجودًا بالفعل!

- الجميع موجودون، يا لها من معجزةٍ!

- الجميع موجودون، بلا شكّ، لكن ليس الجميع ضمن نفس الملابسات. ليس للجميع عبيدٌ سودٌ، وخدُورٌ أميرية، وأسلحةٌ كتلك التي تنصبُ في القصبات، وجيادٌ يساوي الواحدُ منها ستّة آلاف فرنك، وخليلات يونانيّات.

- هل رأيت بأمّ عينيك خليلته اليونانية؟

- نعم، رأيتها، وسمعتها. رأيتُها في المسرح، وسمعتها حين دعاني الكونت للغداء في بيته ذات يوم.

- رجلك الخارق إذًا يتناولُ الطّعام؟

- يا إلهي، يأكل نزرًا قليلًا، إلى درجة أنّه يمكن القول إنّه لا يأكل.

- سترون أنّه مصّاصُ دماء.

- اِسخَر ما طاب لك. ذاك أيضًا كان رأيَ الكونتيسة ج.، التي، مثلما تعلمون، قد عرفت اللورد روثوين.

قال بوشان: - آه! جميل! هوَذا لعمري بالنّسبة إلى رجلٍ غير صحافيّ نظيرُ ثعبان البحر الشّهير عند الجريدة **الدّستورية**[1]؛ مصّاصُ دمّاءٍ! حسنًا!

قال دُبراي: - عينٌ وحشيّةٌ يتقلّصُ بؤبؤها ويتّسعُ بلا حدٍّ؛ جانبٌ من الوجه طويلٌ، جبهةٌ عريضة، بشرةٌ شاحبة، لحيةٌ سوداء، أسنانٌ بيضٌ وحادّة، أدبٌ جمٌّ.

قال مورسيرف: - الأوصاف تنطبقُ عليه تمامًا، وكأنّما ترسمُ له بورتريهًا دقيقًا. نعم، أدبٌ جمٌّ. لطالما جعلني هذا الرّجلُ أرتجفُ؛ ذات يومٍ، وبينما نشاهدُ معًا إعدامًا، خلتُ أنّي سيغمى عليّ، ليس بسبب ما

---

(1) جريدة الدّستورية أو الدّستور، وهي صحيفة فرنسية تأسّست أيّام حرب المائة يوم تحت اسمِ «المستقلّة»، ثمّ تغيّر اسمها إلى الدّستورية بعد الرّجوع الثاني. ويشير الكاتبُ هنا إلى خبر ثعبان الماء العملاق الذي كانت قد نشرته الجريدة ودعّمته، فيشبّه كلامَ ألبير به.

أراه من فعلِ الجلّادِ أماميّ وصيحاتِ المحكومِ، وإنّما ممّا أسمعه من كلام الكونت وهو يعدّد بنبرةٍ هادئةٍ باردةٍ كلّ أشكال التّعذيب في العالم.

سأله بوشان: - ألم يستدرجكَ في خرائب الكولّوسيوم لكي يمتصّ القليل من دمك؟

- أو ألَم يجعلك توقِّع، بعد أن أنقذَك، صكًّا بلونِ النّارِ، تهبُ له بموجبه روحَك، مثلما وهبَ عيسو[1] كاملَ ممتلكاته؟

قال مورسيرف وقد وخزته سخريتهم: - اسخروا يا سادة، اسخروا ما طابَ لكم! حين أتأمّلكم أنتم أيّها البارسيون، مرتادي شارع غان، متنزّهي غابات بولونيا، وأتذكّرُ صديقنا، يغلبُ عليَّ الظنُّ بأنّنا لسنا من نفس الفصيلة.

قال بوشان: - أعتبرُه مدحًا.

قال شاتو رونو: - صديقك الكونت مونت كريستو إذًا رجلٌ شهمٌ في كلّ شيءٍ، باستثناء اتّفاقه مع قطّاع الطّرق الإيطاليّين.

قال دُبراي: - لا يوجد قطّاعُ طرقٍ إيطاليّون.

قال بوشان: - ولا يوجد مصّاصو دماءٍ!

أضاف دُبراي: - وليس يوجدالكونت مونت كريستو أيضًا. بالمناسبة، هي ذي السّاعة العاشرة والنّصف تدقّ.

قال بوشان: - هيّا نتغدّى.

لكن ما كادت دقّات البندول تتوقّف حتّى كان جرمان قد دخل معلنا: «صاحبُ السعادة الكونت مونت كريستو!».

انتفض كلّ الحضورِ رغمًا عنهم، انتفاضًا يشي بما خلّفته في نفوسهم قصّةُ مورسيرف. بل إنّ ألبير نفسَه لم يستطِع أن يكبحَ انفعالًا مباغتًا.

لم يكُن القومُ قد سمعوا صوتَ عربةٍ في الشّارع، ولا خطوًا في الرّدهة؛ حتّى البابُ نفسُه انفتحَ من غير ضجيج.

---

(1) ذُكر في العهد القديم بوصفه أخا يعقوب وابنَ إسحق.

ظهر الكونت عند عتبة الباب، لابسًا زيًا كأبسط ما يكون؛ لكن على بساطته فإنّ حتّى أشدَّ المتأنّقينَ تطلّبًا ما كان ليجد في أناقته ما يعيبه عليه. كلّ شيءٍ كان يفصح عن رِفعَةِ ذوقٍ؛ وكلّ شيء كان صنيعةَ أنامل أرقى الصّناع، إنْ لباسًا أو قبّعةً أو ثوبًا.

تقدّم الكونت باسمًا وسط الصّالون، قاصدًا مباشرة ألبير، الذي سار باتّجاهه، ومدّ له يده بلهفة.

قال مونت كريستو: - إنّ الدّقة في المواعيد هي أخلاق الملوك؛ أظن ذلك ما قالَه أحد ملوكنا. لكنّ المسافرين قلّما يلتزمون بالدّقة، مهما حسُنَت نيّاتُهم. لذا أرجو يا سيّدي الفيكونت أن تعذرني على تأخّري عن موعدك ثانيّتين أو ثلاثًا. إنّ خمسمائة فرسخ ليست بالمسافة الهيّنة التي يمكن قطعُها من غير تأخّرٍ، خاصّةً في فرنسا التي، بحسب ظنّي، تمنعُ جَلدَ خيولِ السّفر.

أجابه ألبير: - سيّدي الكونت، لقد كنت بصدد الإعلان عن زيارتك، لبعض أصدقائي ممّن جمعتُهم بمناسبة الوعد الذي أكرمتني به، ويشرّفني أن أقدّمك إليهم. إنّهم السّادة: الكونت شاتو رونو، الذي تمتدّ نبالتُه حتّى الحجاج الاثني عشر(1)، وكان لأسلافه مقعدٌ بين فرسانِ المائدة المستديرة؛ والسيّد لوسيان دُبراي، السكرتير الخاصّ لوزير الدّاخلية؛ والسيّد بوشان، صحافيّ رهيبٌ، مرعبٌ للحكومة الفرنسيّة، لكنّي أظنّك لا تعرفُه، على شهرته في فرنسا، لأنّ جريدته لا تدخُل إيطاليا. وأخيرًا السيّد ماكسيميليان موريل النقيب في جيش الصبايحية.

وكان الكونت حتّى تلك اللّحظة يسلّم ببرودة إنجليزية، لم تخلُ من لباقة؛ لكن ما إن سمع الاسم الأخير، حتّى تقدّم رغمًا عنه خطوةً إلى الأمام، وعبر وجنتيه الشّاحبتين بريقٌ قرمزيٌّ خاطفٌ.

(1) يقصد الحجاج الذين رافقوا شارلمان في رحلته إلى القدس، وحجّهم موضوعٌ للعديد من الأغاني والنصوص الشعبية القديمة.

قال: - هل يرتدي سيّدي بدلة المنتصرين الفرنسيّين الجدد؟ إنّها بدلة جميلة.

وليس بالمستطاع وصفُ الإحساس الذي يُضفي على صوت الكونت تلك النّبرة العميقة جدًا، ويُشعلُ بريقًا في عينيه الجميلتين الهادئتين الشّفافتين حين لا يكون ثمّة ما يستدعي منها أن تخفِيه.

قال ألبير: - ألم يسبق لك أن رأيت أحد جنودنا بأفريقيا يا سيّدي؟

أجاب الكونت وقد انفرج من كلّ تحفّظ: - البتّة.

- فأزيدك إذًا يا سيّدي: تحت هذه البدلة ينبض قلبٌ من أشجع قلوب الجيش وأكثرها نُبلًا.

قاطعه موريل: - أوه يا سيّدي الكونت!

استأنف ألبير الكلام: - دعني أكمل سيّدي النّقيب... ولقد وقفنا اليومَ على فعلٍ بطوليّ بدر من السيّد موريل، إلى درجةٍ أنّي، وإن كان هذا لقاءنا الأوّل، أرجوه أن يمنحني شرف تقديمه لكم بصفته صديقي.

وبينما هو يستمع إلى كلام ألبير، كان بالإمكان أن نلاحظَ في نظرة مونت كريستو ذاك الثبات الغريب، تلك الحمرة العابرة، وذاك الارتجاف الخفيف في الجفن، التي تشي جميعًا بما في نفسه من انفعال.

قال الكونت: - وفوق ذلك هو قلب نبيل! أنعم وأكرم!

وهذا الإعجاب، الذي كان ينبع ممّا يجول بخاطر الكونت، أكثر ممّا ينبع ممّا قاله ألبير؛ ذاك الإعجاب قد فاجأ الجميع، وفي مقدّمتهم موريل الذي ظلّ ينظر إلى الكونت مونت كريستو بدهشةٍ. لكن في الآن نفسه، كانت نبرة الكونت عذبةً، بل شديدة الحلاوة إن جاز لنا التّعبير، حتّى إنّه ما كان للمرء أن يغضب منها مهما بدت له غريبةً.

قال بوشان لشاتو رونو: - هل يتشكّك؟

فأجابه شاتو رونو، وقد نفذ بنظرته الأرستقراطية الثاقبة إلى كلّ ما يُمكن أن يُنفذ إليه في مونت كريستو: - الحقُّ أنّ ألبير لم يضلّلنا بكلامه، وأنّ الكونت بالفعل شخصيّةٌ فريدة؛ ما قولك يا موريل؟

قال موريل: - الحقّ أنّ نظرتَه صريحةٌ وصوتَه ودودٌ، حتّى إنّه راق لي، على الرّغم من تعليقه الغريب في حقّي.

قال ألبير: - سادتي، إنّ جرمان يُعلِمني بأنّ المائدة جاهزة. سيّدي الكونت، اسمح لي بأن أدلّك على الطّريق.

انتقلوا صامتين إلى حجرة الطّعام، واتّخذ كلّ واحدٍ منهم موضعه.

قال الكونت وهو يمسح يديه: - سادتي، اسمحوا لي بأن أعترف لكم بأمرٍ قد يكون فيه عذرٌ عن كلّ التّصرّفات غير اللائقة التي يمكن أن تصدر عنّي: إنّي غريبٌ، غريبٌ إلى درجة أنّها المرّة الأولى التي أزور فيها باريس. وبالتّالي أنا أجهل الحياة الباريسية كلّ الجهل، فحتّى هذه اللحظة لم أعرف سوى الحياة الشرقية التي تتعارض تمام التعارض مع قواعد السّلوك الباريسية. التمسوا لي العذر إذًا إن ألفيتم في سلوكي شيئًا من النزعة التركيّة، أو النابوليتانيّة، أو العربيّة.

غمغم بوشان: - ما دامَ يقول هذا الكلام، فلا بدّ من أنّه رجلٌ رفيعٌ!

أضاف دُبراي: - سيّدٌ رفيعٌ.

وقال شاتو رونو: - سيّدٌ رفيع ينتمي إلى كلّ البلدان، يا سيّد دُبراي.

40

الغداء

كان الكونت، كما نتذكّر، ضيفًا متّزنًا، معتدلًا في أكله. وقد ذكر ألبير الأمر مُبديًا خشيتَه من ألّا تروق له الحياةُ الباريسية، منذ البداية، من حيث جانبها الماديّ الحتميّ.

قال: – عزيزي الكونت، إنّي أخشى ألّا يروقك الطّعام بشارع هيلدر، بقدرِ ما كان يروقك الطّعامُ بساحة إسبانيا. كان عليّ أن أسألَك عمّا تفضّلُه من أطعمةٍ، فأحضّرَ لك بعضها.

أجاب الكونت باسمًا: – إن كنت تعرفني حقّ المعرفة يا سيّدي، فلن تنشغل بأمرٍ يكادُ يكون مهينًا لمسافرٍ مثلي، مسافر اعتاشَ تواليًا على المعكرونة في نابولي، وعصيدة الذّرة في ميلانو، والأولا بودريدا[1] في بلنسية، والبيلاف (الأرزّ البخاري) في القسطنطينيّة، والكاري[2] في الهند، وأعشاش السّنونو في الصّين. ما من مطبخ مخصوصٍ لمواطنٍ عالميّ مثلي. آكلُ أنّى كان، وأيًّا كان، غير أنّي لا آكلُ إلا قليلًا؛ واليوم أريد أن أبتعد قليلًا عن تقشّفي، وأن آكل ما طاب لي، ذاك أنّ شهيّتي مفتوحةٌ، ولم أذُق طعامًا منذ صباح أمس.

صاح الضّيوف: – ماذا، منذ صباح أمس! لم تأكل منذ أربعٍ وعشرين ساعةً؟

---

(1) أكلة إسبانية تستعمل فيها معظم أنواع اللّحوم، وهي قديمةٌ ومعروفة في حوض البحر المتوسط، ذكرها ثربانتس في الكيخوطي.

(2) في الأصل كاريك، ولعلّها تصحيفٌ للكاري، طعام شعبي يعتبر أشهر الأطعمة الهندية، فيه الكثير من البهارات.

أجاب الكونت مونت كريستو: - كلّا، فقد اضطررت إلى أن أنزاح قليلًا عن طريقي، فأعرّج على نيم حيث استقصيت بعض الأخبار، وخشيةَ أن أصل متأخّرًا عن موعدي لم أتوقّف.

سأله مورسيرف: - وهل أكلت في عربتك؟

- كلّا، لقد نمتُ على عادتي حين أضجرُ وتفترُ همّتي عن القيام بما يسلّيني، أو عندما أجوع وتخونني الشهيّةُ إلى الطّعام.

سأله موريل: - توصي إذًا بالنّوم يا سيّدي؟

- تقريبًا.

- وهل لديك وصفةٌ للنّوم؟

- وصفةٌ لا تخيب.

قال موريل: - ها ما سيكون مفيدًا لنا نحن الأفارقة، الذين لا نجدُ بالعادة ما نأكله، وقلّما نجد ما نشربه.

قال مونت كريستو: - أجل، لكن للأسف فإنّ وصفةً مناسبةً لي أنا الرّجل الذي يعيش حياةً فريدةً، لن تكون مناسبةً لجيشٍ ينبغي أن يكون مستيقظًا ومتأهّبًا متى نوديَ عليه.

سأله دُبراي: - هل بوسعنا أن نعرف ما هذه الوصفة؟

قال مونت كريستو: أوه! يا إلهي، إنّها ليست بالسرّ؛ هي خليط من الأفيون الرّفيع الذي أتيت به بنفسي من كانتون (الصّين) كي أكون على يقين من نقائه، ومن أجود أنواع الحشيش التي تُجتنى في الشّرق، تحديدًا بين دجلة والفرات؛ يُخلط مقداران متساويان من ذينك العنصرين، ثمّ تُصنع منهما عقاقير يتناولها المرء كلّما دعته الحاجةُ إلى ذلك. وما هي إلا عشر دقائق حتّى يبدأ المفعول. واسألوا البارون فرانز ديبيناي، فإنّي أظنُّه قد جرّبها من قبل.

قال مورسيرف: - لقد أخبرني قليلًا عن تجربته، وأظنّه يحفظُ ذكرى جميلة عنها.

قال بوشان بطبعه الصحافيّ المتشكّك: - وهل تحمل معك دائمًا تلك العقاقير؟

أجاب مونت كريستو: - دائمًا.

واصل بوشان آملًا إفحام الغريب: - هل سيكون من غير اللائق أن نطلبَ منك رؤيتَها؟

أجاب الكونت: - كلّا، يا سيّدي.

وأخرج الكونت من جيبه علبةَ حلوى رائعةً نُحتت من زمرّدةٍ واحدة، مقفولةٍ بقفلٍ ذهبيّ، وحين فتحها كشفت عن كُرَيَّةٍ مخضرّةٍ في حجم حبّةِ بازلّاء. كانت رائحةُ الكُريّةِ نفّاذةً لاذعةً. كانت العلبة تحوي أربعًا أو خمسًا، وبإمكانها أن تحوي دستةً. دارت العلبة على المائدة، بيد أنّ الجلوس كانوا مأخوذين بتفحّص العلبة العجيبة أكثر من اهتمامهم بشمِّ الكُريّاتِ أو تأمّلها.

سألَ بوشان: - وهل طبّاخُك هو من يحضّر لك هذه الطّيبات؟

أجابَ الكونت: - كلّا يا سيّدي، لا أسلّمُ متعي الرّفيعةَ إلى أيادٍ لا تكون كُفؤًا لها. أنا كيميائيٌّ جيّدٌ، وأحضّرُ عقاقيري بنفسي.

قال شاتو رونو: - هي ذي زمرّدةٌ رائعةٌ، وإنّها أكبرُ زمرّدةٍ شاهدتُها، مع أنّ أمّي تملك الكثير من المجوهرات العائليّة البديعة.

قال مونت كريستو: - كنتُ أمتلك ثلاثةً منها. أعطيت السيّدَ الأعظمَ واحدةً، فرصّع بها سيفه؛ والثانيةكانت من نصيب قداسة البابا، فزرعها على تاجِه بجانب زمرّدةٍ أخرى، تكادُ تماثلها وإن لم تضاهيها جمالًا، زمرُّدةٍ كان قد أهداها نابوليون إلى سلَفِه بيّوس السّابع؛ واحتفظتُ بالثالثة لنفسي. ثمّ نحتُّها، فنقصت قيمتُها إلى النّصف، لكنّها صارت مناسبةً للاستعمال الذي أردته لها.

نظر الجميعُ إلى مونت كريستو بدهشةٍ؛ كان يتحدّث ببساطةٍ بالغة، إلى درجة أنّه كان إمّا صادقًا وإمّا مجنونًا؛ على أنّ الزمرّدة المستقرّة بين يديه كانت ترجّح كفّةَ الاحتمال الأوّل.

قال دُبراي: - وماذا أعطاك الرّجلانِ مقابلَ هديّتك الرّائعةُ؟

أجاب الكونت: - منحني السيّد الأعظمُ الحريّةَ لامرأةٍ؛ وقداسة البابا العفوَ عن حياةِ رجلٍ. ممّا يعني أنّي لمرّتين في حياتي كنتُ قويًا كأنّما خلقني الرّبُ ملكًا على عرش.

صاح مورسيرف: - وكان بيبينو هو الرّجلَ الذي أعتقتَه، أليس كذلك؟ هو من منحتَه العفوَ؟

أجاب مونت كريستو باسمًا: - ربّما.

قال مورسيرف: - لا يمكن أن يخطر ببالك مقدار السّعادة التي أشعر بها، وأنا أسمعك تقول هذا الكلام! لقد أخبرتُ أصدقائي عنك مسبقًا، فوصفتُك كرجلٍ مذهلٍ، كأحد سَحَرة **ألف ليليةٍ وليلةٍ**؛ كساحرٍ من القرون الوسطى؛ بيد أنّ الباريسيّين أناسٌ يأخذُ بهم التّناقضُ حدَّ اعتبار الوقائع الرّاسخة شطحات خيالٍ، حين لا توافق تلك الوقائعُ ملابسات حياتهم المعتادة. مثلًا، هاك دُبراي الذي يقرأ كلّ يومٍ ما يطبعُه بوشان من أخبار حول سلب مالِ أحد العائدين متأخّرًا من نادي الخيل؛ أو خبر مقتل أربعة أشخاصٍ بشارع سان دُني أو ضاحية سان جرمان؛ أو خبر اعتقال خمسة عشر لصًا أو عشرينَ، في مقهى شارع تامبل، أو في حمّامات جوليان، ومع ذلك يصر السيّدان دُبراي وبوشان على إنكار وجود قطّاع طرقٍ بماريمي (توسكانا)، أو ريف روما، أو سبخات بونتان (جنوبيّ روما). أَخبر أصدقائي بنفسك إذًا يا سيّدي كيف أنّك لو لم تتدخّل لتخليصي من أيدي أولئك الأشرار، لكنت اليوم، على الأرجح، في مدفن سان سيباستيان أنتظر القيامة، بدلًا من أن أدعوهم إلى الغداء اليوم في منزلي المتواضع بشارع هيلدر.

قال الكونت: - باه! ألم تعدني بأنّك لن تأتي على ذكر ما جرى أبدًا؟

صاح مورسيرف: - لست أنا من وعدك يا سيّدي الكونت! ربّما اختلط عليك الأمرُ بيني وبين شخصٍ آخرَ فعلتَ فيه المعروف نفسه

الذي فعلته فيّ. لنتحدّث إذًا في الأمر، فلربّما بحديثك ستكشفُ لي جوانبَ أجهلها أنا نفسي.

قال الكونت باسمًا: - لكن يبدو لي أنّك اضطلعت في مجريات الأمور بدورٍ بارزٍ، يؤهّلُك لأن تكون عارفًا بها قدر معرفتي.

قال مورسيرف: - هل تعدني إن أنا قلتُ كلّ ما أعرفه، بأن تقول أنت كلّ ما لا أعرفُه؟

أجاب الكونت: - صفقةٌ عادلة.

استأنفَ مورسيرف: -حسنًا، لقد وقعتُ بملء إرادتي في فخّ قرويّةٍ[1] خِلتُها إحدى سليلات توليا أو بوبايا[2]. وأنّبهكم إلى أنّي أستعمل كلمة قروية لكي لا أقول فلّاحة. وأزيدكمُ، جهلًا فوقَ جهلٍ، فقد خدعني غلامٌ ظننتُه هيَ. كان غلامًا في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، أمردَ، ناحلَ العود، وحين أخذتني الجراةُ وكدتُ أطبع على كتفه العارية قبلةً، أخرج مسدّسًا ووضع فوهته على حنجرتي، ثمّ بمساعدةٍ من سبعة رجالٍ أو ثمانية، اقتادني، أو بالأحرى جرّني جرًا إلى خرائب سان سيباستيان. وهناك لقيتُ رئيس العصابة، وكان والحقُّ يقال رجلًا متعلّمًا، إذ وجدتُه يقرأ **تعليقات قيصر**، وقد قطع قراءتَه لكي يقول لي إنّه في الغد، عند السّاعة السّادسة صباحًا، إن لم تصلهُ أربعة آلاف قطعة ذهبيّة، فسوف أموت. وإنّ الرّسالة موجودة وهي في حوزة فرانز، وعليها توقيعي، وملحوظةٌ من المعلّم لويجي فامبا. وإن شككتُم في ما أقول بوسعي أن أكتُب إلى فرانز فيصادق على التّوقيعين. هوذا مبلغُ علمي بما جرى. والآن أتى الدّور على الكونت ليكمل بقيّة القصّة، ويبيّن مبلغ التّقدير الذي يحظى به عند عصابة روما، أولئك الذين قلّما يقدّرون أو

(1) يستعمل المؤلّف كلمة كاتادينة أي مزارعة أو قروية بالإيطالية.

(2) توليا، ابنةُ قيصر روما سيريوس توليوس، وبوبينا ابنة نيرون.

يحترمون أحدًا. وأعترف لك يا سيّدي الكونت بأنّ ما جرى ملأَ نفسينا، أنا وفرانز، إعجابًا بك.

أجاب الكونت: - الأمر غايةٌ في البساطة. إنّني أعرفُ السيّد فامبا منذ أكثر من عشر سنين. ذات يومٍ، أيّام كان لا يزالُ راعيًا، مررتُ عليه، وكنتُ تائهًا عن طريقي فهداني السَّبيلَ؛ ومكافأةً له أعطيتُه مبلغًا من ذهبٍ لا أذكر قدرَه، غير أنّه رفض قبول عطيّتي إلا إن قبلتُ عطيّةً منه، وكانت عطيّتُه خنجرًا جميلًا منحوتًا، لا بدّ أنّك قد رأيته ضمن مجموعتي الخاصّة من الأسلحة. ولاحقًا، إمّا لأنّه نسيَ ما كان بيننا من تبادل العطايا، وكان يفترضُ أن يربط أواصر الصّداقة بيننا، أو لأنّه لم يتعرّف عليّ، حاولَ اعتقالي؛ لكنّي أنا من اعتقله بمعيّة اثني عشر رجلًا. وكان بوسعي أن أسلّمَه إلى العدالة في روما، وهي عدالةٌ سريعةُ التّنفيذ، وكانت لتعجّلَ بالقصاص منه هو على وجه التّخصيص. لكنّني لم أفعل شيئًا. وأطلقت سراحه هو ورجالَه.

قال الصحافيّ ضاحكًا: - أطلقتَ سراحَهم شرطَ ألّا يعودوا إلى الجُرمِ. أراهم قد أوفوا بالعهد حقّ الوفاء.

أجاب مونت كريستو: - كلّا يا سيّدي، أطلقت سراحه بشرط بسيط: أن يوقّرني أنا وذويَّ على الدّوام. قد يبدو لكم كلامي غريبًا يا سادتي، أنتم معشرَ الاجتماعيّين، التقدّميّين، الإنسانيّين؛ لكنّني لا أرعى أحدًا، ولا أسعى إلى حماية المجتمع الذي لا يحميني هو بدوره، بل أقول على العموم إنّ المجتمع لا يهتمُّ لأمري إلا بالإزعاج؛ وإذ أزحتُ المجتمعَ والنّاسَ من اهتمامي ولزمتُ الحياد تجاههم، فإنّما أنا أقدّم لهم خدمةً هم مدينون لي بها.

قال شاتو رونو: - خيرٌ وبركةٌ! ها أوّلُ رجلٍ شجاعٍ أسمعه يدعو بإخلاصٍ وشدّةٍ إلى الأنانية: جميل! برافو سيّدي الكونتً!

قال مورسيرف: - على الأقلّ هو صريح؛ لكنّي متأكّد أنّ سيّدي

الكونت قد أخلّ على الأقلّ مرّةً واحدةً بالمبدأ الذي عرضه أمامنا بوصفه مبدأً مُطلقًا.

وكان الكونت قبل ذلك يطالع موريل باهتمامٍ بالغ، حتّى إنّ الشّابَ اضطرَّ مرّتين أو ثلاثًا إلى أن يخفض عينيه أمام نظرةِ الكونت الصّافية الشّفافة. سأله: - وكيف أخللتُ بمبدئي يا سيّدي؟

قال بوشان بحدّة وهو يعبّ دفعةً واحدةً كأسَ شامبانيا:

- أظنُّ يا سيّدي أنّك بتخليصك السيّد مورسيرف الذي لم تكن تعرفه، قد خدمت المجتمعَ والنّاسَ.

صاح مورسيرف: - ها أنت ذا قد وقعت في فخّ الاستدلال يا سيّدي الكونت! مع أنّك من أقوى المناطقة الذين أعرفهم؛ وسوف تقف بنفسك على أنّك وإن ادّعيتَ الأنانيةَ تبقى رجلًا خيّرًا، محبًّا للنّاس. آه يا سيّدي الكونت! تقول إنّك شرقيٌّ، مشرقيّ، ماليزيّ، هنديّ، صينيّ، بربريّ[1]؛ اسمُك العائليّ مونت كريستو، وعمّدت نفسك باسم سندباد البحريّ، ثمّ ها أنت ذا تطأ باريس، فتظهر فيك بالفطرة أشدّ مزايانا أو عيوبنا نحن الباريسيّين، أقصد عيب أو ميزة ادّعاء ما ليس فينا من عيوب، وإخفاء ما فينا من فضائل!

قال مونت كريستو: - عزيزي الفيكونت، إنّي لا أرى فيما قلتُه أو فعلتُه أدنى شيءٍ يستحقّ الثناء الذي خصّصتني به أنت والسّادة. أنت لم تكن غريبًا بالنّسبة إليّ، ما دمت قد تعرّفتُ عليك، وتركتُ لك غرفتين من غرفي، ودعوتك إلى مائدتي، وأعرتُك عربةً من عرباتي، وشهدنا معًا كرنفال الأقنعة بشارع كورسو، وتابعنا معًا من نافذةٍ بساحة بوبّولو الإعدام الذي أثّر فيك بالغ التأثير. أسألكم إذًا يا سادتي، والحالُ هذه، هل كان لي أن أترك ضيفي بين يدي أولئك المجرمين الأشرار كما

(1) بمعنى غير متحضّر (قياسًا إلى الأوروبيّ) وليس بربريّ بمعنى أمازيغيّ.

سمّيتموهم؟ ثمّ إنّك تعلم أنّني إنّما أنقذتُك لحاجة في نفسي، إذ كنت أريد أن أجعل منك مطيّةً لاقتحام عالم الصّالونات الباريسية حين آتي إلى فرنسا. لربّما بدا لك كلامي فيما مضى مشروعًا مبهمًا وغامضًا، لكنّه اليومَ حقيقةٌ واقعةٌ، ولا بدّ أن تخضع لها وإلا أخلفتَ وعدَك.

قال مورسيرف: - وسوف أفي بوعدي؛ غير أنّي أنبّهك يا سيّدي الكونت إلى أنّ أمَلك قد يخيب، أنت المعتاد على الأماكن الغريبة والمشاهد الرّائعة، والآفاق العجيبة. هنا في باريس لن تجد مشهدًا واحدًا من تلك المشاهد التي اعتادتها حياتك المليئة مغامراتٍ؛ فعندنا بركانُ شيمبورازو (الإكوادور) هو حيٌّ مونتمارتر، وقمّةُ الهيمالايا هي هضبة مون فاليريان؛ وصحراؤنا الكبرى هي سهل غرونيل، حيث لا نزالُ نفجّرُ فيها العيون كي تجدَ القبائلُ العابرةُ ماءً. عندنا لصوصٌ، الكثير من اللّصوص، غير أنّ لصوصنا يخشونَ أدنى مُخبرٍ بقدر ما يخشونَ الحاكمَ العامّ؛ في نهاية المطاف تعتبر فرنسا بلدًا مبتذلًا، وباريس مدينةً غارقةً في التحضّر، إلى درجة أنّك لن تجد في مقاطعاتنا الخمس والثّمانين، وأقول خمسًا وثمانين لأنّي استثني من كلامي كورسيكا، مهما بحثتَ، أدنى جبلٍ ليس فيه تلغراف، أو غارًا لم يزرع فيه مفتّشُ شرطةٍ مصباحًا. لا أملك إذًا يا سيّدي الكونت سوى خدمةٍ واحدةٍ أستطيع أن أخدمك بها: أن أقدّمك للنّاس في كلّ مكان. وكذلك سيفعل أصدقائي، بلا شكّ. ثمّ إنّك لا تحتاج حقًّا هذه الخدمةَ، فمع اسمك، ومالك، وعقلك (وهنا انحنى الكونت انحناءةً وفي فمه ابتسامةُ تهكّم خفيفةٌ)، ستقدّمُ نفسكَ بنفسك، وتُفتح أمامك الأبوابُ كلّها. لا أملك لك من منفعةٍ في الواقع سوى أن أُعينك على إيجاد بيت جديد. ولا أجرؤ على أن أدعوكَ للإقامة في بيتي، مثلما سمحت لي بالإقامة في بيتك بروما، فأنا وإن كنتُ لا أدعو إلى الأنانية إلا أنّني أنانيٌّ، لأنّ بيتيَ هذا لا يمكن أن يتحمّل أحدًا آخر سوايَ، حتّى لو كان مجرّد ظلٍّ؛ اللهم إلّا إذا كان ظلّ امرأة.

قال الكونت: - آه! هذا عذرٌ بالزّواج! وبالمناسبة، كنت قد أخبرتني، في روما عن زواجٍ قريب؛ هل عليّ أن أهنّئك على فرحٍ قريب؟

- ما زال الأمر مجرّد مشروع سيّدي الكونت.

قال دُبراي: - ومن يقول مشروعًا، يقول احتمالًا.

قال مورسيرف: - كلّا! إنّ أبي مصرّ عليه؛ وأرجو أن أعرّفكم قريبًا إلى زوجتي، أو على الأقلّ خطيبتي، الآنسة يوجيني دانغلار.

قال الكونت: - يوجيني دانغلار! مهلًا، أليست ابنة البارون دانغلار؟

أجابَه مورسيرف: - بلى، لكنّه بارونٌ محدث!

استأنف الكونت الكلام: - أوه! وفيمَ يهمّ ذلك؟ ربّما قدّم للدّولة خدماتٍ أهّلته إلى استحقاق هذا اللقب!

قال بوشان: - خدماتٍ جليلة. فعلى الرّغم من كونه ليبراليًا، إلا أنّه قد أتمّ للملك شارل العاشر، سنة 1829، قرضًا بقيمة ستّة ملايين، فجعل منه بارونًا ومنحه وسام جوقة الشّرف من درجة فارس، إلى درجة أنّه لا يضع الوسام في جيب صدريّته، مثلما قد يُظنُّ، وإنّما في عروة قميصه.

قال مورسيرف ضاحكًا: - آه! بوشان، يا بوشان، احتفظ بهذا التّصوير للكورسيير والشاريفاري[1]؛ لكن تجنّب أن تتحدّث أمامي بهذه الطّريقة عن حمايَ المستقبليّ.

ثمّ استدار صوب الكونت مونت كريستو قائلًا: - ولكنّك يا سيّدي قد نطقت اسم البارون منذ قليلٍ، نُطقَ العارف به؟

أجاب الكونت بلا مبالاة: - كلّا، أنا لا أعرفه، لكنّي لن أتأخّر، على ما يبدو، في التعرّف إليه، ما دمت أملك رصيدًا مفتوحًا عنده من طرف مؤسّسات **ريتشارد وبلونت** من لندن، و**أرشتاين وإيكيليس** من فيينا، و**طومسون وفرانش** من روما.

---

(1) جريدتان كانتا مختصّتين في فنّ الكاريكاتور.

وإذ نطق الكونت الاسمين الأخيرين حرص على أن ينظر بطرفٍ خفيٍّ إلى ماكسيميليان موريل.

وإن كان مقصدُ الغريبِ إحداثَ أثرٍ في نفس ماكسيميليان موريل، فقد نجح بالفعل في مقصده. لقد انتفض ماكسيميليان كأنّما صعقته الكهرباء.

قال: - **طومسون وفرانش**؟ هل تعرف هذه المؤسّسة يا سيّدي؟

أجاب الكونت بهدوء: - هي مؤسّستي المصرفية المعتمدة في عاصمة العالم المسيحيّ؛ هل تريد أيّ خدمةٍ منهم.

- أوه! سيّدي الكونت، تستطيع أن تعينني في تقصّي أمورٍ لم نستطع حلّها إلى الآن. لقد خدمَت هذه المؤسّسةُ مؤسّستَنا فيما مضى عظيمَ خدمةٍ، ولسببٍ أجهله ينكرون أنّهم قد قدّموا إلينا خدمةً.

قال الكونت منحنيًا: - بالخدمة يا سيّدي.

قال مورسيرف: - لكن، ها نحنُ أولاء، بسبب السيّد دانغلار، قد ابتعدنا عن موضوعنا. كنّا نتباحث مسألة إيجاد منزل لائق بالسيّد الكونت. هيّا يا سادة، لنفكّر معًا أين يمكن أن يقيم هذا القادم الجديد إلى باريس الكبيرة؟

قال شاتو رونو: - في ضاحية سان جرمان؛ سيجد سيّدي الكونت هناك قصرًا صغيرًا جميلًا بين السّاحة والحديقة.

قال دُبراي: - أنت لا تعرف إلا ضاحيتك الكئيبة العابسة المسمّاة سان جرمان، لا تسمع منه يا سيّدي الكونت؛ الأحرى أن تسكن شارع شوسيه دانتان، فذاك مركز باريس الحقيقيّ.

قال بوشان: - عليك بشارع الأوبرا؛ منزلٌ بشرفة. هناك تستطيع يا سيّدي الكونت أن تضع مساند وزرابيّ من فضّة، وتتابع، وأنت تدخّن الجبق أو تتناول عقاقيرك، العاصمةَ كلّها تتحرّك أمام ناظريك.

قال شاتو رونو: - لم تقترح أيّ اقتراحٍ يا موريل، أليست لديك أيّ فكرةٍ؟

أجاب الشّابُ باسمًا: - بلى، عندي اقتراحٌ، لكنّني أنتظر لأرى هل سيميل سيّدي الكونت إلى أحد هذه المقترحات النيّرة التي جُدتم بها عليه. والآن، ما دام لم يُجب، فأظنُّ أنّي أستطيع أن أقدّم له جناحًا في فندقٍ صغيرٍ جميلٍ، استأجرَته أختي منذ سنةٍ بشارع مِسلي.

سأله الكونت مونت كريستو: - لديك أخت؟

- أجل يا سيّدي، عندي أختٌ رائعة.

- متزوّجة؟

- تكاد تكمل سنةَ زواجها التّاسعة.

سأل الكونت مرّة أخرى: - وهل هي سعيدةٌ.

أجابه ماكسيميليان: - أشدّ ما يسع الإنسان أن يسعد. لقد تزوّجت الرّجل الذي كانت تحبّه، الرّجل الذي ظلّ مخلصًا لنا أيّامَ ضيقنا: إيمانويل هيربو.

ابتسم الكونت مونت كريستو ابتسامةً لا تُلحَظ.

واصل ماكسيميليان الكلام: - أسكن هناك أثناء فترة إجازتي؛ وسوف أكون تحت أمرك أنا ونسيبي.

وقبل أن يجد الكونت الوقت للردّ، صاح ألبير: - لحظة! انتبه لما تقوله يا سيّد موريل، تريد أن تحصر مسافرًا مثل السّندبادَ البحريَّ، في إطار حياةٍ عائليّة؛ رجلٌ أتى لزيارة باريس ستجعلُ منه فردًا في عائلة.

أجاب موريل باسمًا: - أوه! كلّا، إنّ أختي في الخامسة والعشرين من عمرها، ونسيبي في الثلاثين. إنّهما شابّان، مرحان، وسعيدان؛ ثمّ إنّ سيّدي الكونت سيقيم في شقّته، ولن يلتقيَ مضيفيه إلا إن شاء أن ينزل إليهم.

قال الكونت مونت كريستو: - شكرًا سيّدي، شكرًا، سأكتفي بزيارة أختك ونسيبك إن شرّفتني بذلك؛ لكنّي لن أقبل أيّ عرضٍ من العروض التي تفضّلتم بها يا سادة، لأنّ مكان إقامتي هنا جاهزٌ.

صاح مورسيرف: - كيف! هل ستقيم في فندق؟ سيكون الأمر كئيبًا بالنّسبة إليك.

سأله الكونت: - هل كنتُ كئيبًا في فندق روما؟

قال مورسيرف: - بحقّ السّماء! في روما، أنفقتَ خمسين ألف بياسترا لكي تؤثّثَ جناحًا؛ لكنّني لا أحسبك مستعدًا لأن تنفق كلّ مرّةٍ مبلغًا مماثلًا في تجديد الأثاث.

أجاب مونت كريستو: - ليس هذا ما يمنعني من الإقامة بفندق؛ وإنّما قرّرتُ أن أتملّك منزلًا في باريس. فأرسلتُ قبل وصولي خادمي، وقد اشترى المنزل وأثّثه.

صاح بوشان: - تقول إذًا، إنّ لديك خادمًا يعرف باريس.

قال الكونت: - إنّه مثلي تمامًا، أوّل مرّةٍ ينزل إلى باريس؛ وهو أسود أخرس.

سأله ألبير وسط ذهول الجميع: - هو عليّ إذًا؟

- أجل يا سيّدي، هو عليّ بعينه. عبديَ النّوبي الأخرس الذي رأيتَه في روما، على ما أظنُّ.

أجابه مورسيرف: - أجل أذكره حقًّا، لكن قُل لي كيف عهدتَ إلى نوبيٍّ بـأن يشتريَ لك منزلًا في باريس، وإلى أخرسَ بأن يؤثّثه؟ لا بدّ أنّ المسكين قد قاسى الأمرّين.

- بل على العكس يا سيّدي؛ أنا متيقّنٌ من أنّه قد اختار كلّ شيءٍ على ذوقي، إذ كما تعرفُ ليس ذوقي بالذّوق الشّائع. لقد وصل منذ ثمانية أيّام؛ ولا بدّ أنّه جابَ المدينة كلّها بحدس كلبٍ جيّدٍ يصيدُ بمفرده؛ هو يعرفُ نزواتي، ورغباتي، وحاجاتي؛ فمؤكدٌ أنّه قد رتّبَ كلّ شيءٍ وفق ما أشاء. كان يعرفُ أنّني سأصل اليوم، فانتظرني منذ التّاسعة عند مدخل فونتينبلو؛ لقد أعطاني هذه الورقة؛ فيها عنواني: هاك، اقرأ.

ثمّ ناول الكونت الشّابَ ورقةً، فقرأ فيها: الشانزيليزيه، رقم 30.

ولم يستطع بوشان أن يخفيَ دهشته: - آه! هوذا مكانٌ مميّز!
وأضاف شاتو رونو: - إقامةٌ أميريّةٌ.
وسأل دُبراي الكونتَ: - كيف! ألا تعرفُ منزلك؟
أجابَ الكونت مونت كريستو: - كلّا، لم أشأ أن أفوّت ساعةَ الموعدِ. رتبت نفسي في العربة، ونزلت منها عند باب الفيكونت.

تبادل الشّبابُ النّظرَ حيارى لا يدرون ما إذا كانت تلك الحقيقةَ أم إنّها تمثيليةٌ من الكونت؛ غير أنّ كلّ ما كان يخرج من فم هذا الرّجل كان يبدو بديهيًا وبسيطًا مهما بلغت درجةُ غرابته، فلا يقع في نفس سامعه الظنُّ بأنّ الرّجلَ يكذبُ. ثمّ، لمَاذا سيكذب؟

قال بوشان: - سنكتفي إذًا بأن نخدمُ الكونت الخدمات الأخرى الصّغيرة التي في استطاعتنا. أنا، بصفتي صحافيًا، سوف أفتح أمامَه أبواب مسارح باريس كلّها.

أجاب الكونت باسمًا: - شكرًا يا سيّدي الكونت، لكنّ مدبّر المنزل قد تكفّل بحجز مقصورةٍ في كلّ مسرح منها.

سأله دُبراي: - وهل مدبّرُ منزلك أيضًا نوبيٌّ أخرس؟

- كلّا يا سيّدي، إنّما هو أحد مواطنيكم؛ على افتراض أنّ الكورسيكيّ يقبل أن يشارك المواطنةَ أحدًا! وأنت تعرفُه يا سيدي مورسيرف.

- أهُوَ السينيور الشّهمُ برتوتشو، الذي كان قد استأجر لنا الشّرفات في روما؟

- أجل، وقد رأيتَه عندي، حين تشرّفتُ بدعوتك إلى الغذاء. إنّه رجلٌ شجاعٌ، كان جنديًا، وأيضًا مهرّبًا بمعنى ما، ومارس من كلّ مهنةٍ قليلًا. ولا أستطيع أن أنكر أنّه كانت له مشاكل بسيطة مع الشّرطة، بسبب أمرٍ تافهٍ، ضربة سكّين، أو شيء من هذا القبيل.

قال دُبراي: - وقد اخترت هذا المواطن العالميّ الشّريف ليكون مدبرَ منزلك؟ كم يسرق منك سنويًا؟

قال الكونت: - لا يسرق أكثر ممّا قد يسرق غيره. أنا على يقين من ذلك. وهو يؤدّي المطلوبَ منه على أكمل وجه، لا يعرف مستحيلًا، لذا أحتفظ به.

وقال شاتو رونو: - وإذًا يا سيّدي، ها أنت ذا تملك، بيتًا جاهزًا، مقرًا فخمًا في الشانزيليزيه؛ ولديك خدمٌ، ومدبر منزل؛ لا ينقصك إذًا سوى خليلة.

ابتسم ألبير، إذ خطرت بباله اليونانية الجميلة التي رآها في مقصورة الكونت بمسرح فال، ومسرح أرجنتينا.

قال الكونت: - عندي أفضل من ذلك، عندي جارية؛ أنتم تستأجرون خليلاتكم من مسرح الأوبرا ومسرح فودفيل، ومسرح فارييتي، بينما أنا اشتريتها من القسطنطينيّة؛ كلّفتني سعرًا أعلى؛ لكن لم يعد لي أن أقلق بهذا الصّدد.

قال دُبراي ضاحكًا: - لكنّك تنسى أنّنا، كما قال الملك شارل، أحرارٌ في قول لا، أحرارٌ بالطّبيعة؛ لذا فإنّ جاريتك ما إن وطئت قدمها أرض فرنسا حتّى صارت حرّةً؟

قال مونت كريستو: - ومن سيخبرها بذلك؟

- أوّل من يلتقيها.

- إنّها لا تتحدّث إلا الرّومايِيك.

- تلك مسألةٌ أخرى إذًا.

سأله بوشان: - لكنّ، هل لنا أن نراها على الأقلّ، أم إنّك بالإضافة إلى الأخرسِ تملكُ خصيانًا[1]؟

- طبعًا لكم أن تروها، فلن أدفع بنزعتي الشّرقية إلى هذا الحدّ. كلّ المحيطين بي يستطيعون تركي متى شاؤوا، وإن تركوني لن يحتاجوني أو يحتاجوا غيري؛ وربّما لهذا السّبب لا أحد منهم يتركني.

---

(1) يقصد العبيدَ الخصيان الذين كان لهم وحدهم الحقُّ في الدّخول على الحريم.

وكانوا قد انتقلوا منذ مدّة إلى تناول التحلية وتدخين السيجار.

قال دُبراي وهو يقوم: - عزيزي، إنّها الثانية والنّصف. ضيفُك لطيفُ المجلس، لكن ما من من صحبةٍ إلا ونتركُها؛ لا بل إنّنا أحيانًا نتركها لأجل صحبة أسوأ. ينبغي أن أعود إلى الوزارة. وداعًا يا ألبير؛ سوف أحدّث الوزير عن الكونت، وينبغي أن نعلم من هو.

قال مورسيرف: - حذار، حتّى أمكرُ النّاس تخلّوا عن محاولة معرفته.

- وكيف ذلك! إنّ لدينا ميزانية ثلاثة ملايين خاصّة بالشّرطة. صحيح أنّنا في الغالب نصرفها مسبقًا؛ لكن، في جميع الأحوال سيبقى لنا بالتّأكيد نحو خمسين ألف فرنك نصرفها في هذه السّبيل.

- وحين تعرفُ من هو، هل ستخبرني؟

قال دُبراي: - أعدك بذلك. إلى اللّقاء يا ألبير؛ أستأذنكم يا سادة.

وإذ خرج دُبراي من الباب، صاح بأعلى صوته: - تقدّم!

وقال بوشان مخاطبًا ألبير: - حسنًا، لست ذاهبًا إلى الدّيوان، لكنّ لديّ أشياء أقدّمها إلى القرّاء أفضل من خُطب السيّد دانغلار.

قال مورسيرف: - لطفًا يا بوشان، لا تزد كلمةً أرجوك؛ لا تسلبني بهجةَ تعريفكم بالسيّد الكونت. ألا ترى أنّه جدير بالاهتمام؟

أجابه شاتو رونو: - لا بل إنّه أكثر من ذلك. إنّه من أروع الرّجال الذين التقيت بهم طيلة حياتي. أتأذن بأن نذهب يا موريل؟

- انتظر فقط أن أعطي الكونت بطاقة زيارتي، آملًا أن يفي بوعده ويزورني في الرّقم 14، شارع مسلاي.

قال الكونت وهو ينحني: - ثق أنّني لن أفوّت فرصة زيارتك يا سيّدي.

وخرج ماكسيميليان موريل مع البارون شاتو رونو، تاركين الكونت مونت كريستو بمفرده مع مضيفه ألبير مورسيرف.

41

التعارف

حين ألفى ألبير نفسه وحيدًا مع الكونت قال له: - والآن، اسمح لي يا سيّدي الكونت أن أضطلع بمهمّة الدّليل، فأُطلعك على عيّنةٍ من مساكن الشّباب. وأنت المعتاد على قصور إيطاليا، سيكون بمثابة دراسةٍ عندكَ حسابُ قدْرِ الأقدام المربّعة التي يسكن فيها شابٌّ باريسيّ يُعتبرُ مسكنُه مسكنًا لا بأسَ به. وأثناء مرورنا من غرفةٍ إلى أخرى، سوف أفتح النّوافذ لتتنشّق الهواء.

وكان الكونت مونت كريستو حتّى تلك اللّحظة قد وقف على صالة الطّعام والصّالون في الطّابق الأرضيّ. فاقتاده ألبير إلى مشغله؛ وهو كما نذكرُ القاعةُ التي جمعت ميوله وهواياته. وقد أبدى الكونت تقديرًا بالغًا لكلّ الأشياء التي راكمها ألبير في تلك القاعة: صناديق عتيقة، خزفٌ يابانيّ، أقمشةٌ شرقية، زجاجٌ بندقيّ، أسلحةٌ من كلّ بلدان العالم، كلّها كانت أشياء مألوفة بالنّسبة إلى الكونت، وبنظرةٍ واحدةٍ استطاع أن يتعرّف على كلّ قطعةٍ، ويحدّد تاريخها وبلدها وأصلها.

كان مورسيرف يحسبُ أنّه سيكون هو الشّارح المفسّر، فإذا به يجد نفسه أمام درسٍ يقدّمه له الكونت، درسٍ في الحفريات وعلم المعادن والتّاريخ الطّبيعي. نزلا إلى الطّابق الأوّل. أدخل ألبير ضيفَه إلى الصّالون. وكان هذا الصّالون مؤثّثًا بلوحاتِ فنّانين معاصرين؛ مناظرُ من رسمِ دوبريه، وُرودٌ طويلة، أشجارٌ فارعة، بقراتٌ تخورُ وسماواتٌ رائعةٌ؛ وفرسانٌ عربٌ من رسمِ دو لاكروا، ببرانيسهم البيضاء الطّويلة،

وأحزمتهم البرّاقة، وأسلحتهم المرصّعة، والأحصنةُ يعضُّ بعضها بعضًا بينما الرّجالُ يمزّقُ بعضهم بعضًا بهراواتٍ من حديد؛ ورسوم مائية لبولانجيه، تصوّر كاتدرائيّة نوتردام الباريسية بتلك القوّة التي تجعل الرّسّامَ ينافسُ الشّاعر؛ كانت ثمّة لوحاتٌ لدياز الذي يجعل الزّهور أجمل من الزّهور، والشّمس أشدّ إشراقًا من الشّمس؛ ورسومٌ لديكامب، عامرةٌ بالألوان مثل رسوم سالفاتور روزا، وإن كانت تفوقها شاعريةً؛ ولوحات من أصباغ الباستيل لجيرو ومولر، تمثّلُ أطفالًا برؤوس ملائكة، ونساءً بملامح العذراء؛ ورسوم تصويرية منتزعة من ألبوم سفر إلى الشّرق، من التي رسمها دوزات في ثوانٍ على ظهر جملٍ أو تحت قبة جامع؛ بالمحصّلة كان ثمّة كلّ ما يمكن، في الفنّ الحديث، أن يمثّل تعويضًا عن الفنّ الذي ضاع واندثر مع القرون الماضية.

وكان فرانز يأمل أن يُري هذه المرّة على الأقلّ المسافرَ الغريبَ شيئًا جديدًا؛ لكنّه دهش إذ رأى الكونت، من دون حاجةٍ إلى البحث عن تواقيع الرّسامين الذين لم يوقّع بعضهم إلا بحروف من اسمه، قد استطاع أن ينسب على الفور كلّ لوحةٍ إلى صاحبها، بحيث كان واضحًا أنّه لا يعرفُ أسماء أولئك الفنّانين فحسب، وإنّما وقف على دراسة أعمالهم وأساليبهم حقّ دراسةٍ.

ومن الصّالون انتقلا إلى غرفة النّوم. وكانت في آنٍ نموذجًا للأناقة وصرامة الذّوق: هناك كان بورتريه واحدٌ فقط، ولكن هذه المرّة بتوقيع ليوبولد روبرت، مشرقًا وسط إطاره الذّهبيّ. وقد أثار هذا البورتريه كامل انتباه الكونت مونت كريستو، إذ خطا ثلاث خطواتٍ سريعةً في الغرفة، وتوقّف أمامَه بغتةً.

كان بورتريه امرأة في الخامسة والعشرين أو السّادسة والعشرين من عمرها، سمراء البشرة، ذات نظرة متوقّدة يحجبها جفنٌ موهنٌ؛ وكانت ترتدي زيّ الصيّادات الكتالانيّات الخلاّب، بمشدّ الصّدر الأحمر

والأسود ودبابيس الذّهب المغروزة في شعرها؛ كانت تراقب البحر، وقدّها الرّشيق يبرز وسط زرقة السّماء واللّجج.

كانت الغرفة مظلمة لذا لم يلحظ ألبير الشّحوب البالغ الذي علا خدَّي الكونت، أو الرّجفة التي اعترت كتفَيْه وصدره.

خيّمت لحظةُ صمت ظلّت خلالها عينا الكونت مسمَّرَتَيْن على ذلك الرّسم.

قال الكونت بصوت هادئ تمامًا: - إنّ لك حبيبةً جميلةً يا سيّدي الفيكونت، وهذا الزيّ، زيّ حفل تنكريّ ولا شكّ، يلائمها تمامًا.

- آه! يا سيّدي الكونت، هي ذي إهانةٌ لا أستطيعُ أن أغفرها لك، إن لم تتمكّن من المماثلة بين هذا البورتريه، وشخصٍ آخر. أنت لا تعرفُ أمّي يا سيّدي الكونت؛ هذه صورتها وسط الإطار؛ وقد رُسمت لها منذ ستّ سنواتٍ أو ثمانٍ. هذا الزيّ زيٌّ متخيَّلٌ على ما يبدو، وإنّ التّشابه بين الصّورة وأمّي كبيرٌ جدًّا، حتّى إنّي لأستطيع الزّعمَ أنّي ما زلت أرى أمّي اليوم كما كانت سنة 1830. لقد طلبَت الكونتيسةُ هذه الرّسمة في فترة من فترات غياب الكونت. لا شكّ في أنّها كانت تحسب أنّها تحضِّر له مفاجأةً سارّةً. لكن العجيب هو أنّ أبي لم يحبّ هذا البورتريه؛ وحتّى بعد وقوفه على جودة العمل وقيمته، فهو كما ترى من أجمل ما رسمه ليوبولد روبرت، لم يغيّر والدي رأيه تجاه اللّوحة. صحيحٌ أنّ والدي من أرقى أعضاء مجلس الضّباط، جنرال ذو صيتٍ حربيّ ذائعٍ، لكن فيما يخصّ الفنون فإنّه يظلّ صاحبَ ذوقٍ متواضع. أمّا أمّي، فعلى النّقيض منه تتمتّع بحسٍّ فنيٍّ رفيع، وترسمُ بطريقةٍ مثيرةٍ للإعجاب، وتقدّر هذا العمل الفنيَّ بحيث لم يكن لها أن تتخلّى عنه نهائيًا، فقررت أن تتركه لي أزيّن به غرفتي، ممّا يجعله بعيدًا عن نظر السيّد دو مورسيرف الذي سأريك بعد قليل صورتَه بريشة غروس. وعفوًا إن كنتُ أثقل عليك بهذا الحديث عن عائلتي، لكن بما أنّك ستلتقي الكونت بعد قليل، فقد أردت

ألّا تسقط في مدح بورتريه والدتي أمامَه. زد على أنّ لهذا البورتريه تأثيرًا حزينًا، فنادرًا ما تقصد أمّي غرفتي من دون أن تقف أمامه وتطالعه، وأندر من ذلك اللّحظات التي تقف فيها أمامه من دون أن تجهش. وإنّ الغمامة العابرة التي أظلمت سماء منزلنا مع ظهور هذه اللّوحة، هي لحظةُ التوتّر الوحيدة في حياة والديَّ، وعدا ذلك هما لا يزالان على وفاق تامّ وإن طال زواجهما وامتدّ عشرين عامًا.

رمى مونت كريستو ألبيرَ بنظرةٍ خاطفةٍ، وكأنّما يتقصّى في كلامه نيّةً خفيّة؛ لكن كان يبدو أنّ الشّاب قد قال ذلك ببساطةٍ وصفاء نيّةٍ.

قال ألبير: - الآن وقد وقفتَ على ممتلكاتي جميعًا يا سيّدي الكونت، اسمح لي أن أضعها، على بساطتها، طوع يديك. اعتبر نفسك في بيتك، وحتّى تشعر براحة أكبر، هلّا رافقتني إلى مقرّ السيّد دو مورسيرف الذي كنتُ قد كاتبتُه من روما أُخبره بما أسديتَه لي من معروف، وأعلمتُه بزيارتِك المرتقبة؛ وأستطيع القول إنّ السيّد الكونت، والسيّدة الكونتيسة، ينتظران بفارغ الصّبر فرصة لقائك وشكرك. أعرف أنّك يا سيّدي رجلٌ متخَمٌ بكلّ شيءٍ، وليست المشاهد العائلية ممّا قد يثير حماسة السّندباد البحريّ. لقد رأيتَ مشاهدَ أعجب! لكن دعني أقدّم لك الحياة الباريسية بدايةً من حياة اللّياقة والزيارات والتّعارف.

انحنى الكونت مونت كريستو من دون أن يفوه بكلمة؛ لقد أظهر قبولًا بدعوة ألبير، من دون حماسة أو تذمّر، كأنّما يقبل إحدى قواعد اللّياقة العامّة الواجبة على كلّ رجلٍ. نادى ألبير خادمه وأمره بأن يذهب فيُعلم السيّد والسيّدة دو مورسيرف باقتراب مجيء الكونت مونت كريستو.

وتبع ألبير والكونت الخادمَ.

في بهو الكونت دو مورسيرف، يُرى أعلى الباب المفضي إلى الصّالون درعٌ، يستشَفُّ من تناسُبها وزخرفةِ الصالة أنّ صاحبها يوليها بالغ الاهتمام.

توقّف الكونت أمام الدّرع، وفحصها باهتمام، ثمّ سأل ألبيرَ: - درعٌ لازورديَّةٌ عليها سبعة شحارير ذهبيّة. هذه بلا شكّ درعُ نبالة عائلتك يا سيّدي؟ باستثناء معرفتي بأجزاء الدّرع، فإنّي لا أستطيع أن أحلّلها وأعرف معناها، فأنا كونت بالصّدفة، صنعتني توسكانا بعونٍ من قيادة سان إتيان، ممّا جعلني أُعتبر سيّدًا رفيعًا، وذلك أمرٌ ضروريٌّ جدًّا بالنّسبة إلى شخصٍ يسافر كثيرًا مثلي. فلكي تتجنّب أن توقفك الجمارك، ينبغي أن تعلّق على عربتك شعارًا ما. أعذرني إذن، إن سألتُك سؤالا مماثلًا.

قال مورسيرف ببساطة من اقتنع: - لا حرج في سؤالك يا سيّدي، وأنت محقٌّ في تخمينك: هذا شعارُ نبالتنا، أسلحتنا التي استحقّها والدي؛ لكنّها كما ترى ملصقةٌ على شارةٍ حمراء حاشيتُها فضيّةٌ، وهو استحقاقُ والدتي. من جهة النّساء أنا إسبانيٌّ، لكن بيت مورسيرف بيت فرنسيّ، هذا ما قيل لي، لا بل إنّه من أعرق بيوت الجنوب الفرنسيّ.

قال الكونت: -أجل، ذاك ما تشير إليه الشحارير. تقريبًا، كلّ الحجّاج المسلّحين الذين ساروا إلى الأراضي المقدّسة فاتحين، اتّخذوا شعارًا لهم، إمّا صُلبانًا، علامةً على المهمّة التي نذروا أنفسهم لها، أو طيورًا مهاجرةً، رمزًا للسّفر الذي كانوا مقبلين على خوضه، وكانوا يأملون أن يُتِمُّوه على أجنحة الإيمان. لا بدّ أنّ أحد أجدادك من جهة الأب قد شارك في إحدى حروبكم الصّليبية، وفرضًا أنّ الأمر يتعلّق بحملة القدّيس لويس فقط، فإنّنا سنبلُغ القرن الثالث عشر، وهو ليس بالشّيء الهيّن.

- هذا ممكن. في مكتب والدي شجرةُ نسبٍ، سوف تخبرنا بكلّ شيء، كنتُ فيما مضى قد علّقت عليها تعليقاتٍ، فأثّلَها هوزييه وجوكور[1]. الآن ما عدت أهتمّ بها؛ ومع ذلك أقول لك يا سيّدي الكونت، إنّ من

(1) مؤرّخان وموسوعيّان فرنسيان اهتمّا بالأنساب، وأثّلاها بمعنى وضعا لها أصولاً وجذورًا، وجعلاها حقيقيةً واقعية.

مهمّاتي كمُرشدٍ لك أن أطلعك على هذه الأمور التي صارت تُولَى بالغ الاهتمام من طرف حكومتنا الشّعبية.

– كان على حكومتكم إذًا أن تختار شعارًا آخر غير تينك العلامتين اللّتين لمحتهما على صروحكم كلّهما، واللّتين لا تحملان أيّ معنى نبالةٍ. أمّا أنت يا فيكونت، فإنّك محظوظ أكثر من الحكومة، إذ إنّ شعارك أجملُ من شعارها، ويُخاطبُ الخيالَ. أجل، إنّك في آنٍ بروفينساليٌّ وإسبانيٌّ؛ وهذا ما يفسّرُ في البورتريه الذي أريتَنيه تلك السُّمرةَ الجميلة التي أثارت إعجابي في وجه الكتالانية النّبيلة.

كان ينبغي للمرء أن يكون أوديبَ أو أبا الهول نفسه، حتّى ينتبه إلى التهكّم الكامن في كلام الكونت، ذاك التّهكم الذي غلّفه بأدبٍ جمٍّ؛ لذا شكره مورسيرف بابتسامةٍ، وتقدّم أمامه كي يفتح له الباب أسفلَ تلك الدّرع، البابُ الذي كان، كما أسلفنا، يفضي إلى الصّالون.

في المكان الأبرز من الصّالون كان ثمّة بورتريه آخر؛ بورتريه رجلٍ عمره بين الخامسة والثلاثين والثامنة والثلاثين، يرتدي بدلة جنرالٍ عسكريّة، وعلى كتفيه نياشين الحرس السّاميين، وقد ربط على عنقه وسام جوقة الشّرف، ممّا يعني أنّه كان برتبة كوماندور، وعلى صدره، جهةَ اليمين، نيشان الضّابط السّامي برتبة المخلّص، وجهة اليسار، صليب الاستحقاق الأكبر لشارل الثالث، ممّا يعني أنّ الرّجل المصوَّر في اللّوحة قد خاضَ حربَيّ اليونان وإسبانيا، وكذلك أنّه قد حازَ رُتبَه وهو يقوم ببعض المهمات الدبلوماسية في ذينك البلدين.

كان مونت كريستو منهمكًا في تفصيل البورتريه بعنايةٍ لا تقلّ عن تلك التي فصّل بها البورتريه السّابقَ، وإذا ببابٍ جانبيّ ينفتح، فيجد نفسه أمام الكونت مورسيرف نفسه. وكان هذا رجلًا بين الأربعين والخامسة والأربعين، لكن يبدو في الخمسين من عمره على الأقلّ. سواد حاجبيه وشعره يقطعان بشكلٍ غريبٍ مع شعره الذي يكاد يكون أبيضَ، مقصوصًا

من الجانبين على موضة الجنود؛ وقد ارتدى زيًا بورجوازيًا، وعقد عند عروته شريطًا يشهدُ كلّ خيطٍ من خيوطه العديدة على الأوسمة التي حازها. دخل الرّجلُ بخطى مهذّبة مع ضربٍ من العجلة. تابعه مونت كريستو يتقدّم نحوه من دون أن يخطو خطوةً واحدة؛ كأنّما قدماه تسمّرتا في الأرضية كما تسمّرت عيناه بوجه الكونت دو مورسيرف.

قال الشّاب: - أبي، لي الشّرف بأن أقدّم لك الكونت مونت كريستو، الصّديق الكريم الذي جادت عليّ به الأقدار في الظروف الصّعبة التي تعلمُ تفاصيلها.

قال الكونت دو مورسيرف، وهو يحيّي الكونت مونت كريستو بابتسامة: - مرحبًا بالسيّد بيننا، [وليعلمنّ] أنّه، إذ أنقذ وريثنا الوحيد، فقد أسدى لهذا البيت معروفًا سنظّل مدينين له إلى الأبد.

وإذ نطق بتلك الكلمات، أشار الكونت مورسيرف إلى الكونت مونت كريستو بالجلوس على أحد الكراسي، وجلس هو في الآن نفسه على كرسيّ آخر، مقابل النّافذة.

أمّا الكونت مونت كريستو، وإن جلس على الكرسيّ الذي عيّنَه له الكونت مورسيرف، ألّا أنّه حرص على الجلوس في موضعٍ يجعله مختفيًا في ظلِّ الأستار المخملية الكبيرة، بحيث يقرأ من مجلسه ذاك على ملامح مضيفه المطبوعة بالتّعب والهموم، قصّةً بأكملها من الأسرار الموجعة التي دوّنها الزّمن على وجهه.

قال السيّد مورسيرف: - حين أبلغنا الخادم بأنّنا سنتشرّف بقدومكم، كانت السيّدة دو مورسيرف، تعتني بزينتها، وسوف تنزل بعد عشر دقائق إلى الصّالون.

قال الكونت مونت كريستو: - إنّه لشرف عظيمٌ بالنّسبة إليّ أن أحظى، منذ اللحظة الأولى لوصولي باريس، بلقاء رجل جديرٍ بصيته الذي طبق الآفاق، رجلٍ يؤكّد، لأوّل مرّة، أنّ السّعد لا يأتي خطأً. لكن

أليس ثمّة بعدُ، في سهول متيجة (الجزائر) أو جبال الأطلس (المغرب)، عصا ماريشال[1] تُمنَح إيّاها؟

أجاب مورسيرف وقد احمرّ قليلًا: - أوه! لقد تركت الخدمة العسكريّة يا سيّدي. كنت على رأس الحملة العسكرية إبّان استعادة بوربون، وكنت أخدم تحت لواء الماريشال بورمون؛ وقد كان بوسعي أن أطمح في منصب أعلى، ومن يدري ما الذي كان يمكن أن يقع لو أنّ الفرعَ البكر كان قد بقيَ متربّعًا على العرش! لكنّ ثورة يوليو، كانت مظفّرة على ما يبدو، إلى درجة أنّها سمحت لنفسها بأن تكون جاحدةً، فلم تعترف بأيّ خدمة قُدّمت إليها خارج الحقبة الإمبراطورية؛ قدّمت استقالتي، إذًا، لأنّ من يكسب نياشينه في ساحة المعركة، يجد صعوبة في الاشتغال داخل الصالونات المخملية؛ تركت السّيف، وخُضتُ غمارَ السّياسة، وكرّست وقتي للصّناعة، ودرست الفنون النّافعة التي كنت أرغب في دراستها أثناء الفترة التي قضيتها بالجيش، لكنّي لم أجد الوقت الكافي لذلك.

أجابه الكونت مونت كريستو: - إنّ مثل هذه الأفكار، يا سيّدي، هي ما يضمن تفوّق أمّتكم على باقي الأمم: فمع أنّك رجلٌ نبيل، سليل بيت كريم، وذو ثروةٍ كبيرة، إلا أنّك فضّلت أن تكسب أولى رُتبك العسكريّة في الظّلّ، وهذا أمرٌ نادر. ثمّ وقد صرتَ جنرالًا، عضو المجلس العسكري، وقائدًا لجوقة الشّرف، قرّرت أن تشرع في تعلّم جديد، من دون أيّ رجاءٍ، أو أجرٍ، سوى رغبتك في أن تكون نافعًا أبناءَ وطنك... آه! يا سيّدي، إنّ هذا لأمرٌ جميلٌ؛ لا بل أقول إنّه لأمرٌ جليلٌ.

كان ألبير ينظرُ إلى مونت كريستو وينصتُ إليه بدهشةٍ؛ إذ لم يألف فيه مثل هذه الآراء.

---

(1) عصا الماريشال، عصا قصيرة مزيّنة بالنّقوش، تعتبر من الإكسسوارات التي يحملها معه الماريشال.

واصل الغريب الكلام، قطعًا لكي يبدّد أثر الغمامة الخفية التي رسمتها كلماته على جبين الكونت مورسيرف: - واأسفًا! نحن في إيطاليا لا تسير عندنا الأمور بالطّريقة نفسها، إنّما ننمو وفق ما يفرضهُ علينا قانون النّوع والجنس، ونحافظُ على ثوبنا كما هو، ويظلُّ قَدْرنا كما هو، وفي الغالب نظلُّ عديمي النّفع طيلة حياتنا.

أجاب الكونت دو مورسيرف: - لكن يا سيّدي، إنّ رجلًا في قدرك، ليست إيطاليا وطنه، ولربّما لن تكون فرنسا جاحدةً بالنّسبة إلى الجميع؛ إنّها تسيء إلى أبنائها، لكنّها تفتح ذراعيها واسعًا للأجانب.

قال ألبير: - إه! يبدو أنّك لا تعرف الكونت مونت كريستو حقّ المعرفة يا والدي. إنّ ما يرضيه يتجاوز العالم؛ إنّه لا يصبو إلى التّشريفات، وإنّما لا يأخذُ منها إلا الأختام على جواز السّفر.

أجاب الغريب: - هو ذا أبلغ تعبير قيل في حقّي.

قال مورسيرف متنهّدًا: - سيّدي الكونت كان سيّد مصيره، وقد اختار الطريق المفروش بالورود.

أجاب الكونت مونت كريستو وعلى شفتيه ابتسامةٌ من تلك التي يستحيلُ لمصوّرٍ أن يصوّرها أو لفيزيولوجيّ أن يحلّلها: - تمامًا.

قال الجنرال وقد أُعجب بأدب الكونت: - لولا أنّي أخشى إتعاب سيّدي الكونت، لأخذته معي إلى المجلس. اليوم تجري أطوار جلسةٍ سيستغربها كلّ من لا يعرفُ نوّابنا الحديثين.

- سأكون ممتنًا لك غاية الامتنان يا سيّدي إن جدّدتَ لي هذه الدّعوة مرّةً أخرى؛ أمّا اليوم فقد وُعدتُ بشرف لقاء سيّدتي الكونتيسة، وإنّي لأنتظرها.

صاح الفيكونت: - آه! هي ذي أمّي!

وبالفعل، لمّا استدار الكونت مونت كريستو بسرعةٍ، أبصر السيّدة مورسيرف في مدخل الصّالون، عند عتبة الباب المقابل للباب الذي

دخل منه زوجها؛ وحين استدار نحوها الكونت، ساكنةً وشاحبةً، تهاوت ذراعها لسبب مجهولٍ، فاستندت إلى المسند المذهّب كي لا تسقط. لقد كانت تقف هناك منذ برهةٍ، فسمعت الكلمات الأخيرة التي نطق بها الزّائرُ القادم من الجانب الآخر للجبل.

وقف مونت كريستو وحيّا الكونتيسة تحيّة حارّة، فانحنت هي أيضًا، صامتةً، بحركةٍ رسميّة.

سألها الكونت: - يا إلهي! ما بك سيّدتي؟ هل تشكين من حرارة الصّالون؟

وصاح الفيكونت وهو يندفع نحو مرسيدس: - ممّا تشكين يا أمّي؟

شكرتهُما معًا بابتسامة، وقالت: - كلّا، فقط انفعلت، إذ رأيت للمرّة الأولى ذاك الذي لولاهُ لكنّا اليوم غارقين في الحداد والدّموع. (ثمّ واصلت حديثها وهي تتقدّم بفخامة ملكة) سيّدي، إنّي مدينة لك بحياة ابني، وإنّي أبارك لك فعلك هذا. والآن أشكرك على السعادة التي خصّصتني بها، إذ منحتني فرصةَ أن أشكُرك مثلما باركتُك، أقصد شكرًا من أعماق القلب.

انحنى الكونت مرّة أخرى، لكنّ انحناءته هذه المرّة كانت أعمق؛ وكان أكثر شحوبًا من مرسيدس.

قال: - سيّدتي، إنّكِ وسيّدي الكونت، تشكرانني بما لا يستحقّه من الشّكر فعلٌ بسيطٌ كذاك الذي فعلتُه. إنّ إنقاذ حياة رجلٍ، وتجنيبَ أب العذابَ، وأمٍّ الألمَ، ليس فعلًا خارقًا، وإنّما هو ما ينبغي أن يقوم به كلّ إنسان.

إزاء هذه الكلمات التي نطقها الكونت مونت كريستو بعذوبة وأدبٍ جمّين، أجابت السيّدة مورسيرف بنبرةٍ عميقة التأثّر:

- محظوظ ابني يا سيّدي أن تتّخذه صديقًا، وإنّي لأشكر الربَّ أن جعل الأمور تسير على هذا النّحو.

رفعت مرسيدس عينيها الجميلتين إلى السّماء، شاكرةً الربَّ شكرًا لا يُحَدّ، حتّى إنّ الكونت قد خيّل إليه أنّه رأى دموعًا تتراقص في عينيها.

دنا منها السيّد دو مورسيرف.

قال: - سيّدتي، لقد اعتذرتُ من السيّد الكونت، لاضطراري إلى تركه، وأرجو أن تجدّدي له اعتذاري. إنّ المجلس يعقد في الثانية، والسّاعةُ الآن الثالثة، وينبغي أن أقول كلمةً هناك.

قالت الكونتيسة بالنّبرة الرّقيقة نفسها: - تفضّل يا سيّدي، سأحرص على أن أنسيَ ضيفَنا غيابَك. (واصلت الحديث وهي تنظر شطرَ الكونت مونت كريستو): سيّدي الكونت، هل ستكرمنا بالبقاء معنا ما بقي من النّهار؟

- شكرًا سيّدتي، تسرّني دعوتك أيّما سرور؛ لكنّي نزلت من عربة السّفر مباشرةً ببابكم، وبالكاد أعرف ظروف إقامتي في باريس. إنّه همّ هيّنٌ، أعلم ذلك، لكنّه يستحق الاهتمام.

سألته الكونتيسة: - ستخصّنا بكرم زيارتك مرّةً أخرى، أتعِدنا بذلك؟

انحنى الكونت من دون أن يحار جوابًا، وكانت انحناءته دليلَ موافقةٍ.

قالت الكونتيسة: - لن أؤخّرك عن مواعيدك إذًا يا سيّدي الكونت، إذ لا أريد أن تصير معرفتي مصدر إزعاج أو مضايقة.

قال ألبير: - عزيزي الكونت، هلاّ تكرّمت عليّ بأن تدعني أردّ لك هنا في باريسَ شيئًا من كرمك الذي خصّصتني به في روما، فأجعل عربتي طوع أمرك إلى أن تتمكّن من تشييد عرباتك الخاصّة.

قال الكونت: - أشكرك على لطفك يا سيّدي الفيكونت، لكنّي أظنُّ أنّ السيّد برتوتشو قد استغلّ خير استغلالٍ السّاعات الأربع والنّصف التي تركتها له، وأنّي سأجد عند الباب عربةً جاهزةً.

وكان ألبير قد اعتاد في الكونت هذه الأمور. كان يعرف أنّه مثل نيرون، يطلب المستحيل، فما عاد يدهشُه منه شيءٌ؛ غير أنّه أراد أن يقف بنفسه على مدى التزام خدم الكونت بأوامره، فرافقه حتّى باب القصر.

لم يخطئ الكونت التّقدير. ما إن برز في ردهة بيت الكونت مورسيرف، حتّى تقدّم خادمٌ راجلًا، -وكان نفسه الخادم الذي حمل بطاقة الكونت إلى الشّابين في روما وأخبرهما برغبة الكونت في زيارتهما-، بحيث ما إن غادر المسافر الرّفيعُ البهو المعمّد حتّى وجد بالفعل عربةً جاهزةً تنتظره.

كانت عربة كوبيه، شغلُ أوراشِ كيلير، وقد رُبطت إليها أفراسٌ، يعلم جميعُ متأنّقي باريس، أنّ السيّد دراك كان قد رفض أمس بيعها مقابل ثمانية عشر ألف فرنك.

قال الكونت لألبير: - سيّدي، إنّي لا أنصحك بمرافقتي حتّى البيت، فلن أجد بانتظاري إلا منزلًا أُعدّ على عجلٍ، وكما تعرف فإنّي لا تربطني علاقةٌ جيّدة بالأشياء المرتجلة التي تعدُّ على عجل. أمهلني إذًا يومًا، وعِدني بأن تلبي دعوتي. فأكون متيقّنًا من عدم الإخلال بواجب الضّيافة.

- ما دمت تطلب يومًا فقط يا سيّدي الكونت، فإنّي على يقين من أنّي لن أجد إن زُرتُك بيتًا، وإنّما قصرًا. أكيدٌ أنّ في خدمتكَ عفريتًا.

قال الكونت وهو يضع قدمه على آخر الدرجات المخملية بمركبته الرائعة: - لعمري، لو صحّ كلامُك لنلت به ودًّا كثيرًا عند السّيدات.

ثمّ إنّ الكونت ارتمى في عربته وأغلق البابَ خلفه، وانطلقت الجيادُ تخبُّ، لكن ليس بسرعةٍ كبيرة، إذ استطاع الكونت أن يلمح وهو يبتعد الحركة الخفية التي هزّت ستار الصالون حيث ترك السيّدة دو مورسيرف.

حين دخل ألبير بيت أمّه وجدها بمخدعها، ممدّة على أريكة مخملية كبيرة. كانت الغرفة بأكملها، غارقةً في الظّل، باستثناء انعكاساتٍ برّاقةٍ هنا وهناك على الجرار الخزف أو على زوايا بعض الإطارات المذهّبة.

لم يكن بوسع ألبير رؤية وجه الكونتيسة الضّائع في قماش شاشٍ لفّت به شعرها كأنّه هالةٌ من بخار؛ لكن بدا له أنّ صوتها كان به تغيّر؛ كما ميّز، بين أريج أزهار الحديقة، رائحة أملاح الخلّ النّفاذة؛ وقد

انتبه الفيكونت، على أحد الأكواب المنقوشة فوق المدفأة، إلى قارورةِ الكونتيسة وقد أُخرجت من غمدها الجلدِيّ.

شعر ألبير بالقلق، فصاح: - هل أنت بخير يا أمّاه؟ هل أصابك مكروه أثناء تواجدي في الخارج؟

- أنا؟ كلّا يا ألبير، لكن، كما تعلم، هذه الورود، وأزهارُ مسك الرّوم، وشجيرات اللّيمون، تطلق في بداية هذا الفصل الحار روائح قويّة يصعب أن نعتادها.

قال مورسيرف وهو يمدّ يده إلى الجرس: - ينبغي إذًا حملُ هذه النّباتات إلى الرّدهة. تبدين في حالٍ غير جيّدة؛ لا بل مُذ دخلت كان يبدو عليك الشّحوب.

- تقول يا ألبير إنّني كنتُ شاحبةً؟

- كنت شاحبةً شحوبًا جميلًا يوافقك يا أمّي، لكنّه يرعبنا أنا وأبي.

سألته مرسيدس بحدّة: - هل حدّثك والدك في ذلك؟

- كلّا، يا سيّدتي، لكنّه، إن تذكّرتِ، كان قد وجّه هذه الملاحظة لك.

أجابت الكونتيسة: - لا أذكر.

دخل خادمٌ لبّى نداء جرس ألبير.

قال الكونت: - خُذ هذه الزّهور إلى البهو أو غرفة الزّينة، إنّها تُمرضُ الكونتيسة.

أطاع الخادمُ الأمر.

ران على المكان صمتٌ طويلٌ، دام طيلة الوقت اللازم لقيام الخادم بالعمل.

وحين أخرج الخادمُ آخر أصيصٍ سألت الكونتيسة ابنَها: - مونت كريستو، أيّ اسمٍ هذا؟ أهُو اسمُ عائلةٍ، أم أرضٍ، أم مجرّد لقب؟

- أظنُّه مجرّدَ لقبٍ يا أمّي. لقد اشترى الكونت جزيرة في أرخبيل توسكانا، وبحسب قولِه فإنّه أسّس عليها فرقةً عسكريةً. تعرفين أنّ

الأمور تجري على هذا النّحو بالنّسبة لسان إتيان في فلورنسا، وسان جورج القسطنطيني في بارما، بل وحتّى بالنّسبة للنّظام المالطي. عدا ذلك، لا يدّعي الرّجلُ أيّ نبالةٍ أو يطمح إليها، ويسمّي نفسه «كونت الصّدفة»، رغم أنّ الجميع في روما يعتبرونه سيّدًا رفيعَ المقام.

قالت الكونتيسة: - إنّه بالغ التّهذيب، على الأقل ذلك ما أوحت إليَّ به اللّحظات القصيرة التي قضاها معنا.

- أوه! يا أمّي! إنّه حقًّا بالغ التّهذيب، إلى درجة أنّه يتجاوز كلّ ما عرفته من تهذيب الأرستقراطيّين ضمن صفوف النّبالة الثلاثة الرّفيعة في أوروبا، أقصد النّبالة الإنجليزية، والنّبالة الإسبانية، والنّبالة الألمانية.

فكّرت الكونتيسة برهة، ثمّ بعد تردُّدٍ قالت:

- عزيزي ألبير، ما سأسألك عنه الآن يهمّني بوصفي أمًّا. هل استشففت الكونتَ من الدّاخل؟ إنّك نافذُ البصيرة، ولك من الحصافة ما يفوق أقرانكَ، فهل ترى أنّ الكونت حقًّا كما يظهرُ؟

- وكيف يظهر؟

- لقد قلت ذلك بنفسك قبل قليل، يظهر أنّه رجلٌ رفيعُ المقام.

- قلت لك يا أمّي إنّ النّاس في روما يعاملونه باعتباره كذلك.

- لكن ما رأيك أنت يا ألبير؟

- أعترف لك بأنّني لم أستطع أن أُكوّنَ رأيًا دقيقًا بخصوصه؛ أظنُّه مالطيًا.

- لا أسألك عن أصله. إنّما أسألك عن شخصه.

- آه! شخصه موضوعٌ آخر؛ لقد رأيت منه من العجائب ما يدعوني إلى أن أقول لك إنّي أنظر إليه كأنّما هو أحد شخوص اللّورد بيرون. أولئك الذين ضربهم القدرُ ضربةً خلّفت فيهم جرحًا لا يبرأ؛ شأن مانفريد، أو لارا، أو فيرنر؛ أو كأنّه بقيّةٌ باقيةٌ من تلك العوائل التي أفلست وضاعت أموالُ أسلافها، فاستعادت المجدَ بعبقريةٍ مغامِرَةٍ أحدثت بينها وبين المجتمع وقوانينه قطيعةً.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّ الكونت مونت كريستو جزيرةٌ وسط البحر الأبيض المتوسّط، خاليةٌ من السّكان، ولا حامية عسكرية فيها، وهي مضربُ لقاءٍ للمهرّبين من كلّ الأوطان، والقراصنة من كلّ البلاد. من يدري ما إذا كان هؤلاء يدفعون لسيّدهم مكوس الإقامة بجزيرته؟

قالت الكونتيسة ساهمةً: - ممكن.

استأنف ألبير الكلام: - لكن، سواء أكان مهرّبًا أم لم يكن، فإنّك ستوافقينني يا أمّي القولَ إنّ الكونت يظلُّ رجلًا مميّزًا، ولا بدّ أن يحصد نجاحًا كبيرًا في صالونات باريس. واليومَ قد دشّن دخوله إلى العالم الباريسي بأن أدهش حتّى شاتو رونو نفسه.

سألته مرسيدس وعلى وجهها أمارات العناية الشّديدة بهذا السّؤال:

- وكم تظنُّ سنَّ الكونت؟

- أظنّه في الخامسة والثلاثين إلى السّادسة والثّلاثين من عمره يا أمّي.

قالت الكونتيسةُ تجيب ألبير وتعبّر في آن عما يعتملُ في نفسها:

- صغيرٌ إلى هذا الحدّ!

- إنّها الحقيقة. ولثلاث مرّات أو أربع، كان قد أخبرني، من دون تفكير مسبق، عن حوادث عاصرها وهو في سنّ الخامسة أو السّادسة أو الثانية عشرة، ولاهتمامي بالتّفاصيل قاربتُ التواريخ وقارنتُها، فوجدتُه صادقًا لم يخطئ منها تاريخًا. إنّ تاريخ هذا الرّجل المتفرّد، العابر للأزمان، هو الخامسة والثّلاثون. إنّي متيقّنٌ من ذلك. ثمّ تذكّري يا أمّي كم كانت عينُه برّاقةً، وشعره أسود، وجبينُه، وإن شحُبَ، خاليًا من التّجاعيد. وتلك علامات طبيعةٍ ليست قويّةً فحسب، وإنّما أيضًا شابّةً.

خفضت الكونتيسة رأسها كأنّما غمرتها لُجّةٌ ثقيلةٌ من الفِكَرِ المريرة.

سألته بتشنّجٍ عصبيّ: - وهذا الرّجل قد اتّخذك صديقًا؟

– أظنّ ذلك يا سيّدتي.

– وهل تحبُّه... أنت أيضًا؟

– إنّه يروقني يا سيّدتي، مهما قال فيه فرانز ديبيناي، الذي صوّره لي كرجلٍ عاد من العالم الآخر.

ندّت عن الكونتيسة حركة رعب.

قالت وقد تغيّر صوتُها: – ألبير، لطالما حذّرتُك من المعارف الجدد. لكنّك صرتَ الآن رجلًا، وتستطيع أن تنصحني أنا نفسي؛ ومع ذلك أكرّر عليك القول: كُن حذرًا!

– لكي يكون التحذير مفيدًا يا أمّي العزيزة، ينبغي أن أعرف ممّا تحذّرينني. إنّ الكونت لا يقامر أبدًا، ولا يشرب إلا الماء المعطّر بقطرةٍ من نبيذٍ إسبانيّ؛ إنّ الكونت غنيٌّ لدرجة أنّه يستطيع إقراضي المال. فما الذي يمكن أن أخشاه إذًا من جانب الكونت؟

قالت الكونتيسة: – أنت محقٌّ، وإنّ مخاوفي لا معنى لها، خاصّةً وأنّ الرّجلَ قد أنقذ حياتك. بالمناسبة، هل أحسن والدُك استقباله يا ألبير؟ ينبغي أن نكون لبقين جدًا مع الكونت. إنّ الكونت دو مورسيرف يكون أحيانًا مشغولًا جدًا، أعماله تؤرقه، ويمكن، من دون أن يريد...

قاطعها ألبير: – لقد استقبله أبي استقبالًا مثاليًا يا سيّدتي. لا بل أزيدُ. لقد بدا مسرورًا مرّتين أو ثلاثًا من إطراءٍ خصّه به الكونت، إطراءٌ جميلٌ ولائقٌ، وكأنّما الكونت يعرف والدي منذ ثلاثين عامًا. (أضاف ألبير ضاحكًا) كلّ سهمٍ من سهام الإطراء تلك لا بدّ أنّه قد دغدغ مشاعر أبي، حتّى إنّهما ما افترقا إلا وقد صارا أعزّ صديقين. لا بل إنّ السيّد دو مورسيرف أراد اصطحابه معه إلى المجلس ليسمع خطابه.

لم تحر الكونتيسة جوابًا. استغرقت في تأمّلٍ عميقٍ حتّى إنّ عينيها أغمضتا قليلًا. والشّابُ، واقفًا أمامها، يتأمّلها بحبِّ الابن لأمّه، ذاك الحبّ الذي يكون أرقّ وأحنّ حين تكون الأمّهات لا يزلن شابّاتٍ

وجميلات. ثمّ إذ رآها تغمض عينيها، أنصت برهةً إلى وقع تنفّسها وهي في سكونها العذب، فحسبها قد نامت؛ فابتعد على أطراف أصابعه، وسحب باب مخدع أمّه برفقٍ.

غمغم هازًّا رأسَه: «يا لهذا الشّيطان! لقد تنبّأتُ له، ونحن في روما، بأنّه سيخلّف بالغ الأثر هنا. إنّي أقيس تأثيره في الميزان الذي لا يخطئ: أمّي. وبما أنّه قد أثّر فيها، فلا بدّ أن يؤثّر في الجميع».

ثمّ نزل إلى إسطبله، وفي نفسه شيءٌ من أسفٍ دفينٍ، لأنّ الكونت مونت كريستو، من غير أن يفكّر حتّى في الأمر، قد وضع يده على أحصنة عربةٍ رائعةٍ، تجعلُ أحصنته هو في درجةٍ ثانيةً قياسًا إليها.

قال: «حقًّا، إنّ الناس غير متساوين؛ ينبغي أن أقول لأبي أن يبسط هذه النّظرية أمام المجلس الأعلى».

42

السيّد برتوتشو

أثناء ذلك كان الكونت قد بلغ منزله؛ استغرق منه الطّريق ستّ دقائق. وكانت تلك الدّقائق الستُّ كافيةً لكي يلحظه نحوُ عشرين من الشّباب الذين يعرفون سعر الأحصنة التي لم يقدِروا هم أنفسهم أن يشتروها، فحرّكوا أحصنة عرباتهم كي يلحقوا العربة ويختلسوا نظرةً إلى السّنيور المذهل الذي اشترى أحصنةً سعرُ كلّ واحدٍ منها عشرة آلاف فرنك.

كان المنزل الذي اختاره عليٌّ، والذي يفترض أن يسكنُه الكونت مونت كريستو في المدينة، يقع يمينَ عقبة الشانزيليزيه، بينَ ساحةٍ وحديقة. مرتفعٌ عالٍ كثيفُ النّبات يحجبُ جزءًا من الواجهة؛ وحول ذاك المرتفع ممشيانِ كأنّهما ذراعان يحيطانه عن يمين وشمال، يقودان العربات من البوابة حتّى رواقٍ مزدوجٍ، في كلّ درجةٍ من درجاته وضعت مزهرية خزف مليئة بالزّهور. وكان لهذا المنزل المعزول وسط فضاءٍ رحبٍ، فضلًا عن مدخله الرّئيس، مدخلٌ ثانٍ يفضي إلى شارع بونتيو.

وقبل حتّى أن ينادي الحوذيَ الحوذيُ البوّابَ، كان السّياج الحديديّ الهائلُ قد تحرّك فوق بكراتِه؛ لقد لُمح الكونت قادمًا؛ وفي باريس، مثلما هو الشّأنُ في روما، أو في أيّ مكانٍ آخرَ، كانوا يخدمونه بسرعة البرق. دخل الحوذيُّ، ودار نصف الدّائرة حول المرتفع، من دون أن يخفّف سرعته، وانغلق السّياج على الفور قبل حتّى أن يتوقّف صرير العجلات على رمل الممشى.

عند الجانب الأيسر من الرّواق توقّفت العربة؛ وظهر رجلان عند

بابَيْه: أحدهما كان عليًّا، الذي كان يبتسم لسيّده بصدقٍ عميقٍ، فيجيبه الكونت بنظرةٍ لا غير.

أمّا ثاني الرّجلين، فقد حيّا الكونت بخنوعٍ وقدّم إليه ذراعه، حتّى يعينه على النّزول من العربة.

قال الكونت وهو يقفز برفقٍ درجات سلّم العربة الثلاث: - شكرًا يا برتوتشو؛ أين الكاتبُ العدل؟

أجابه برتوتشو: - إنّه في الصالون الصّغير، يا صاحب السّعادة.

- وبطاقات التعارف التي طلبت منك أن تطبعها ما إن تعرف عنوان المنزل؟

- لقد تمّ طبعها يا سيّدي الكونت؛ قصدت اليوم أفضل طابعٍ للقصرالملكيّ، فأنجز الطّبعة أمامي، وأوّل بطاقةٍ سُحبت حملتها من فوري، كما أمرتني، إلى السيّد دانغلار، نائب الأمّة، بالرّقم 7 شارع شوسيه دانتان؛ والبقيّةُ موضوعة على مدفأة غرفة نومكم يا صاحب السّعادة.

- حسنًا، كم السّاعة؟

- إنّها الرّابعة.

أعطى مونت كريستو قفّازيه، وقبّعته، وعصاه، الخادمَ نفسَه الذي كان قد تقدّم للنّداء على العربة ببهو منزل مورسيرف، ثم تقدّم إلى الصالون الصّغير، يرافقه برتوتشو ليدلّه على الطّريق.

قال مونت كريستو: - رخامٌ بائسٌ هذا الذي وُضع في البهو، أرجو أن تزيلوا كلّ هذا.

انحنى برتوتشو.

وكما أخبره مدبّرُ المنزل، كان الكاتبُ العدلُ ينتظر في الصالون الصّغير. وكان هذا كاتبًا بالمحكمة الثانية بباريس، عُرف بالنّزاهة، تربّى وسط الشّرف الراسخ المعروف عن الكتّاب العدول بالضّواحي.

سأله الكونت مونت كريستو: - سيادتُكم الكاتب العدل المسؤول عن بيع المنزل الرّيفي الذي أرغب في شرائه؟

أجابه الكاتب العدل: - أجل سيّدي.

- هل عقد البيع جاهز؟

- أجل، سيّدي الكونت.

- هل حملته معك.

- هوَذا.

قال الكونت: - ممتاز. (ثمّ سأل بنبرة من لا يكترث للأمر، متوجّهًا بسؤاله إلى مدبّر المنزل والكاتب في آنٍ) وأين يقع هذا المنزل الذي أنوي شراءه؟

أشار المدبّرُ إشارةً مفادُها أنّه لا يعرف.

نظر الكاتب العدل بدهشةٍ إلى الكونت مونت كريستو، وقال:

- كيف؟ ألا يعرف سيّدي أين يقع المنزل الذي ينوي شراءه؟

أجابه الكونت: - صدقًا، لا أعرف.

- ألا يعرف سيّدي البيت؟

- وكيف لي أن أعرف، بحقّ الشّيطان! إذا ما كانت هذه المرة الأولى التي تطأ فيها قدمايَ باريس؟ لا بل إنّها المرّة الأولى التي أطأ فيها أرض فرنسا.

أجابه الكاتب العدل: - هذه مسألةٌ أخرى إذًا، إنّ المنزل الذي ينوي سيّدي الكونت شراءه يقع في أوتوي.

وإذ نطق الكاتب العدل بتلك الكلمات، علا وجه برتوتشو الشّحوب.

سأل الكونت الكاتبَ العدلَ: - وأين تقع أوتوي هذه؟

فأجابه: - على بعد خطوتين من هنا يا سيّدي الكونت. بُعيد باسّي بقليل، في موضع جذّابٍ، وسط غابة بولونيا.

قال الكونت: -قريبٌ إلى هذا الحد! ولكنّ المكان الذي تتحدّث عنه

لا يقع ضمن نطاق الرّيف! كيف عنّ لك أن تختار لي منزلًا بباب باريس يا سيّد برتوتشو؟

صاح المدبّرُ: - أنا! كلّا، قطعًا، لستُ أنا من كلّفه سيّدي الكونت بشراء هذا المنزل؛ ليحاول سيّدي فضلًا أن يتذكّر، فليسأل ذاكرتَه، ويتفحّص ذكرياته.

قال الكونت: - آه! صحيح؛ لقد تذكّرت الآن! قرأتُ الإعلان في جريدة، وغرّني العنوان الكاذبُ: منزلٌ ريفيّ.

قال برتوتشو بحماسة: - ما زلت لم تشترِه يا سيّدي؛ وإذا ما رغبتَ يا صاحب السّعادة في أن تكلّفني بالبحث، سأجد لك بيتًا أفضل، في أونجيان، أو فونتوناي روز، أو بِلّفيو.

أجابه الكونت غير مبالٍ: - كلّا؛ لا حاجة إلى ذلك ما دام لديّ هذا البيت بأوتوي، فسأشتريه.

فقال الكاتب العدل بحماسة، وقد خشيَ أن يخسر عمولته: - سيّدي محقّ؛ وإنّه عقارٌ جميلٌ: مياه عذبة، أشجار يانعة، سكنٌ مريحٌ، وإن كان مهجورًا منذ زمن؛ هذا من دون أن نذكر الأثاث الذي على قِدمه، قيّمٌ وثمينٌ، ويمكن أن يُباع بسعرٍ غالٍ، خاصّة الآن وقد صار النّاس يميلون إلى اقتناء الأنتيكات. فعذرًا، أحسب سيّدي الكونت ميالًا إلى ذوق عصره.

قال الكونت: - هو سكنٌ مناسبٌ إذًا؟

- لا بل أكثر من مناسب، إنّه رائع يا سيّدي!

- اللعنة! لا ينبغي أن نفوّت مثل هذه الفرصة إذًا! إليّ بالعقد فضلًا يا سيّدي الكاتب.

ثمّ وقّع العقد سريعًا، بعدما ألقى عليه نظرةً خاطفةً تفحّص عبرها موقع العقار، واسم مُلّاكه.

قال: - برتوتشو، أعطِ السيّدَ خمسةً وخمسين ألف فرنك.

خرج مدبّر المنزل بخطواتٍ مضطربة، وعاد حاملًا حزمةً من الأوراق البنكية، عدّها الكاتب العدل بدربةِ الرّجل الذي اعتاد ألّا يأخذ مستحقّاته إلا بعد أن يتيقّنَ من إتمام كلّ شيء قانونيًا.

سأله الكونت: - والآن، هل تمّت كلّ الأمور الشّكلية؟

- جميعها يا سيّدي الكونت.

- هل المفاتيح معك؟

- إنّها عند البوّاب الذي يحرس المنزل؛ لكن ها نسخةً من الأمر الذي وجّهتُه له كي يحرص على إنزالك بعقارك.

- جيّد جدًّا.

ثمّ إنّ الكونت مونت كريستو أشارَ إلى الكاتب العدل أشارةً من رأسه مفادُها: «لم أعد بحاجة إليك».

غير أنّ الموثّقَ النّزيه، قال متردّدًا: - لكن، يبدو أنّ سيّدي الكونت قد أخطأ؛ إنّ المبلغ خمسون فرنكًا لا غير، شاملًا كلّ النّفقات.

- وأتعابك؟

- المبلغ يشملها أيضًا.

- لكن ألم تأتِ إلى هنا من أوتوي؟

- أجل، بكلّ تأكيد.

- ينبغي إذًا أن نعوّضك عن تنقّلك.

ثمّ حيّا الكونت الرّجلَ تحيّةَ من يأذنُ بالانصراف.

خرج الكاتبُ متراجعًا بظهره، وهو يحيي الكونت منحنيًا حتّى ليكادُ يلامسُ الأرض؛ مُذ التحق بهذه الوظيفة لم يصادف قطّ رجلًا في سخاء الكونت.

قال الكونت لبرتوتشو: - رافق السيّدَ إلى الباب.

فخرجَ المدبّر خلف الكاتب العدل.

وما إن صار الكونت وحيدًا، حتّى أخرج من جيبه محفظةً بقفل،

وفتحها بمفتاح كان يضعه في عنقه، ولا يفارقه أبدًا. وبعد بحثٍ قصيرٍ، توقّف عند ورقة تحمل بعض الملاحظات، وقارن ما بين الملاحظات والمعلومات الموجودة في العقد، فاستعاد الذكريات:

أوتوي، شارع فونتين، رقم 28؛ هو كذلك! والآن، هل عليّ أن أنتزع الاعتراف بالترهيب الدينيّ أم بالترهيب الجسديّ؟ عمومًا، في غضون ساعةٍ سأعرفُ كلّ شيء.

ثمّ صاح «برتوتشو!»، وهو يقرع، بما يشبه مطرقةً صغيرةً، على جرس يُصدر رنينًا حادًّا شبيهًا بدقّات الطّبلة الإفريقية. «برتوتشو!»

ظهر المدبّر عند العتبة.

قال الكونت: - سيّد برتوتشو، ألم تُخبرني من قبل أنّك قد جُبت فرنسا؟

- أجل، يا صاحب السّعادة، جُبت بعض المناطق الفرنسيّة.

- أنت تعرف إذًا، بلا شكّ، ضواحي باريس؟

- كلّا، يا صاحب السّعادة، أجاب المدبّر بشيء من الاضطراب العصبيّ، الذي عزاه الكونت، وهو الخبير بالانفعالات البشريّة، إلى قلقٍ حادٍّ.

قال الكونت: - مزعجٌ أنّك لم تزُر قطّ ضواحي باريس، لأني أنوي تفقّد عقاري الجديد هذه المساء، ولقد كانت صحبتك لتكون مفيدة لي.

صاح الخادم وقد تبدّل لون سحنته النّحاسيّ إلى شحوبٍ: - إلى أوتوي! أنا، أذهب إلى أوتوي!

- أسألك إذًا، ما العجب في أن ترافقني إلى أوتوي؟ حين سأنتقل للعيش هناك، سيكون عليك أن تأتي معي ما دُمتَ جزءًا من هذا البيت.

خفض برتوتشو بصره أمام نظرة سيّده المستبدّة، وظلّ ساكنًا لا ينبس بكلمة.

قال الكونت، بالنّبرة نفسها التي لا بدّ أنّ لويس الرّابع عشر قد قال

بها جملته الشّهيرة «كدتُ أنتظر»: - ما الذي حلّ بك؟ هل عليَّ أن أدقّ الجرس مرّة ثانية، حتّى تجهّز لي العربة؟

وبقفزةٍ واحدة انتقل برتوتشو من الصالون الصّغير إلى البهو، وصاح بصوت أجشّ:

- خيول صاحب السّعادة!

كتب الكونت رسالتين أو ثلاثًا، ولحظة كان يختم الرّسالة الأخيرةَ، عاد المدبّر قائلًا:

- إنّ عربة صاحب السّعادة تنتظر بالباب!

أجابه الكونت: - وإذًا، ارتدي قفّازَيْك وقبّعتك.

صاح برتوتشو: - هل سأرافق سيّدي الكونت؟

- بلا شكّ، يجبُ أن تعطي تعليماتك للخدم، ما دُمت أنوي العيش هناك.

لم يسبق لأحدٍ أن اعترض على أمرٍ من أوامر الكونت؛ وما كان للمدّبر أن يخرق هذه القاعدة، فتبع، بلا أدنى اعتراضٍ، سيّدَه الذي صعد إلى العربة وأشار له أن يتبعه. جلس المدبّرُ باحترامٍ على المقعد الأماميّ.

43

منزل أوتوي

لاحظ الكونت أنّ برتوتشو أثناء نزوله من الرّواق، كان قد رسم العلامة التي يرسمها الكورسيكيّون، أي رسم الصّليب في الهواء بإبهامه، ولمّا اتّخذ موضعه في العربة تلا بصوتٍ خفيضٍ صلاةً قصيرةً. وأيّما شخصٍ لاحظَ النّفور الغريب الذي أبداه المدبّر من الجولة التي قرّرها الكونت خارج باريس، كان ليُشفق عليه؛ لكن، على ما يبدو، كان ثمّة فضولٌ قويٌّ يمنع الكونت من إعفاء برتوتشو.

بعد عشرين دقيقة كانوا في أوتوي. وطيلة الطّريق لم ينفكّ قلقُ المدبّر يتعاظمُ. وإذ دخلوا القرية، تكوّم برتوتشو على نفسه في ركن العربة، وأخذ يفحص بانفعالٍ محمومٍ كلّ المنازل التي كانوا يمرّون من أمامها.

قال الكونت آمرًا وهو يثبّتُ نظرته القاسية على مدبّر المنزل: - أوقف العربة في شارع فونتين، الرّقم 28.

تعرّق وجه برتوتشو؛ لكنّه أطاع الأمر، فأخرج رأسه من العربة صائحًا بالحوذيّ: - شارع فونتين، الرّقم 28.

كان الرّقم 28، يقع أقصى القرية. وأثناء رحلة ذهابهم هبط اللّيل، أو بالأحرى سحابةٌ سوداءٌ مشحونةٌ بالكهرباء، كانت تضفي على تلك الظّلمة المبكّرة مظهرَ ومهابةَ مشهدٍ دراميّ.

توقّفت العربة، وهرع الخادم إلى العربة يفتح بابَها.

قال الكونت: - وإذًا يا سيّد برتوتشو، ألن تنزل؟ ستبقى في العربة؟ ما الذي يشوّشك هذا المساء، بحقّ الشّيطان؟

هرع برتوتشو إلى باب العربة، وأحنى كتفه للكونت، الذي استند عليه نازلا درجات السّلم الثلاث.

قال الكونت: - اطرُق الباب، وأعلمهُم بوصولي.

طرق برتوتشو البابَ، فانفتح وبرز منه البوّاب.

سأله: - ما الخطب؟

قال الخادمُ: - لقد وصل سيّدك الجديد أيّها الفاضل.

ومدّ البوّابَ بوثيقة البيع التي أبرمها الكاتب العدل.

سأله البوّاب: - المنزل بيع إذًا، والسيّد هو من سيسكنه؟

قال الكونت: - نعم يا صديقي، وسأحرص على ألّا تتأسّف لفقدان سيّدك القديم.

قال البوّاب: - أوه يا سيّدي، لن آسف له حقًا، لأنّنا نادرًا ما كنّا نراه؛ ومنذ سنواتٍ خمس لم تطأ قدماه هذا المكانَ، والحقّ أقول، لقد أحسن صنعًا إذ باع منزلًا لا يفيده في شيء.

سأله الكونت: - وأيّ الأسماء كان يحمله سيّدك القديم؟

- كان اسمه الماركيز دو سان مِران؛ إنّي على يقين يا سيّدي من أنّه لم يبع المنزل بما كلّفه إيّاه شراؤه.

استأنف الكونت كلامه: - الماركيز دو سان مِران! يبدو لي اسمًا مألوفًا؛ الماركيز دو سان مِران...

وبدا أنّه ينبشُ في ذاكرته.

استأنف البوّاب كلامه: - إنّه شيخٌ نبيل، أحد خدّام آل بوربون الأوفياء؛ كانت له ابنةٌ وحيدة، تزوّجها السيّد فيلفور الذي شغل منصب وكيل الملك في نيم ثمّ بعدها بفرساي.

ألقى الكونت مونت كريستو نظرةً، وقعت على برتوتشو فألفته أكثر شحوبًا من الجدار الذي يستند إليه كيلا يسقط.

سأل الكونت البوّابَ: - وهذه البنت، ألم تمت؟ إخالُ أنّني سمعت أمرًا مشابها.

– نعم يا سيّدي، لقد ماتت منذ عشرين سنةً، ومنذ ذلك الوقت لم نرَ السيّد الماركيز العزيز أكثر من مرّاتٍ ثلاث.

قال الكونت، آخذًا في الاعتبار حالة الانهيار التي بدت واضحةً على برتوتشو، فلم يشأ أن يشدّ أكثرَ الحبلَ الذي يخنُقه:

– شكرًا، شكرًا! هات نورًا أيّها الرّجلُ الكريم.

– هل أرافقك يا سيّدي؟

– كلّا، لا حاجة لذلك، سيضيء لي الطّريقَ برتوتشو.

أرفق الكونت كلامَه ذاك بقطعتين ذهبيّتين، فجّرتا في الأجواء الكثير من الشّكر والزّفرات.

قال البوابُ بعدما بحثَ عبثًا عند جوانب المدفأة وفوق الأخشاب الملاصقة لها: – آه، يا سيّدي، ليست عندي شموعٌ.

قال الكونت: – هات يا برتوتشو أحد القناديل من العربة وأرني الغرف.

أطاع المدبّر من دون أيّ اعتراض؛ لكن، كان يسهل أن يلاحظَ الملاحظُ، من اضطراب يده الممسكة بالقنديل، ما تكلّفه تلك الطّاعةُ.

مرّا من طابقٍ سفليٍّ فسيحٍ، إلى طابق أوّلَ مكوّنٍ من صالونٍ وحمّامٍ وغرفتَي نومٍ. وعبر إحدى الغرفتين بلغا سلّمًا حلزونيًّا.

قال الكونت: – ها سلّمٌ يستطيع الواحدُ إخلاء البيت منه، إنّه عمليٌّ. أضئ لي الطّريق يا سيّد برتوتشو؛ تقدّم، ولنرَ إلى أين سينتهي بنا هذا السلّم.

قال برتوتشو: – سيّدي، إنّه يقود إلى الحديقة.

– وكيف عرفت ذلك، فضلًا؟

– أقصد أنّه يفترض به أن يقود إلى الحديقة.

– حسنًا، لنتأكّد من الأمر.

أطلق برتوتشو زفرَةً وتقدّمَ. وكان السلّم بالفعل يفضي إلى الحديقة.

في الباب الخارجيّ، توقّف المدبّر.

قال الكونت: - هيّا، يا سيّد برتوتشو!

لكن الرّجل الموجَّه الكلامُ إليه، كان مصعوقًا، ذاهلًا، مدمّرًا. عيناه الزّائغتان تدوران حوله كأنّما تبحثان عن آثار ماضٍ رهيبٍ، ويداه المتشنّجتان بدتا كأنّهما تسعيان إلى دفع تلك الذّكريات الرّهيبة.

ألحّ عليه الكونت: - وإذًا!

صاح برتوتشو وهو يضع القنديل عند ركن الجدار الدّاخليّ: - كلّا يا سيّدي! لن أذهب أبعدَ! مستحيل!

أجابه الكونت بصوته الذي يستحيل عصيانُه: - ماذا يعني هذا؟

صاح المدبّر: - ولكنّك ترى يا سيّدي أنّ الأمر غير طبيعيّ بالمرّة؛ أن تكون ستشتري منزلًا في باريس، فتشتريه في أوتوي؛ وأن يكون منزل أوتوي ذاك هو تحديدًا المنزل رقم 28 في شارع فونتين. لو أنّني أخبرتُك بكلّ شيءٍ ونحنُ بعدُ في البيت، لما ألححت عليّ في مرافقتك. لكنّني كنتُ آملُ أن يكون المنزلُ الذي اشتراه سيّدي الكونت منزلًا آخر غير هذا. كأنّما عدمت أوتوي المنازلَ، لتضطرّ إلى شراء منزل جريمة القتل!

توقّف الكونت بغتةً وقال: - أوه! أوه! أيّ كلمة شنيعة تلك التي نطقتَ بها الآن! أيّها الشّيطان، أيّها الكورسيكيّ الأصيل! كالعادة غارقٌ في الأوهام والخرافات! هيّا، أمسك المصباح، ولنقم بجولة في الحديقة؛ فمعي لن تشعر بالخوف، ذاك ما أرجوه على الأقلّ!

حمل برتوتشو المصباح وأطاع سيّده.

وإذ انفتح البابُ كشفَ عن سماءٍ شاحبةٍ، يجاهد القمر فيها مصارعًا بحرًا من الغيوم التي تغطّيه بأمواجها المظلمة، فيضيئها لحظةً، ثمّ لا يلبث أن يغيب في أغوار اللانهاية.

أراد المدبّرُ أن يسلك شمالًا.

قال الكونت: - ما الجدوى من تتبّع هذه المماشي؟ إنّ أمامنا أرضيةَ عشبٍ جميلةً.

مسح برتوتشو العرق الرّاشحَ من جبهته، وأطاع أمر سيّده. لكن ما إن نزل الأرضية العشب حتّى واصل المسير شمالًا. أمّا الكونت مونت كريستو فسار يمينًا، وإذ بلغ حزمةَ أشجارٍ توقّف.

لم يستطع المدبّر المقاومة، فصرخ: - ابتعد يا سيّدي، ابتعد، إنّك في الموضع بالضّبط.

- أيّ موضع؟

- الموضع نفسه الذي شهد سقوطَه.

قال الكونت ضاحكًا: - عزيزي السيّد برتوتشو، عد إلى رشدك، رجاءً؛ لسنا هنا في سارتين أو كورسيكا. وهذا ليسَ دغلًا، وإنّما هو حديقةٌ إنجليزيةٌ لم يُعتنَ بها كما ينبغي، لكن لا ينبغي أن نفتريَ عليها لهذا السبب.

- سيّدي، تحرّك من هناك! تحرّك من هناك! أرجوك!

قال الكونت: - أظنّك بدأت تفقد صوابك يا مايسترو برتوتشو؛ إن كان الأمر كذلك، فقُل، حتّى أتمكّن من وضعك في مصحٍّ قبل أن يحدث لك مكروه.

قال برتوتشو: - واأسفًا يا صاحب السّعادة! واأسفًا! لقد حدث المكروه.

وكان يهزّ رأسَه، ويشبك يديه بشكلٍ كان ليدفع الكونت إلى الضّحك، لو لا أن ذهنَه كان مشغولًا في تلك اللّحظة بغايةٍ أهمّ، جعلته يولي اهتمامه أدنى التّفاصيل التي تفصح عنها حالُ الرّجل المفزوع.

قال الكونت: - أستطيع أن أقول ببساطةٍ إنّ من ارتجافك، وتصلّب ذراعيك، وزوغان عينيك، يبدو أنّ أحد الشّياطين قد تلبّسك؛ لكنّني لطالما لاحظتُ أنّ أعند شيطان يتلبّسُ الإنسانَ هو السرُّ. أعرف أنّك

كورسيكيٌّ، وأعرفُك متكتّمًا تجترُ قصص فانديتا[1] قديمة، وكنتُ لأغضّ الطّرف عن هذا في إيطاليا، لأنّ الأمور في إيطاليا سالكةٌ. أمّا في فرنسا فغالبًا ما لا يتسامحون في القتل. ثمّة الدّرك الذين يهتمون بكشف الحقيقة، والقضاة الذين يحاكمون المجرمين، والمقاصل التي تنتقم للقتيل.

ضمّ برتوتشو يديه، وإذ لم يترك المصباح من يده، فقد أنار الضوءُ وجهه المصدوم.

تفحّص مونت كريستو خادمَه بالنّظرة نفسها التي كان قد تفحّص بها عذاب أندريا في روما؛ ثمّ بنبرةٍ ارتجف لها مجدّدًا المدبّرُ المسكين، قال:

- لقد كذب عليّ إذًا القسّ بوزوني حين بعث بك إليّ، بعد رحلته إلى فرنسا سنة 1829، مع رسالة توصية يفصّل فيها مزاياك الرّفيعة؟ حسنًا، سأكاتب القسّ؛ سأحمّله مسؤولية مكفولِه، وسأعرف منه أخبار مسألة القتل هذه. لكنّي أحذّرك يا سيّد برتوتشو، حين أعيش في بلدٍ ما، فإنّ من عادتي الالتزام بقوانينه، ولا نيّة عندي أن أقع في مشكلات مع العدالة الفرنسية بسببك.

صاح برتوتشو وقد بلغ حالًا من اليأس: - أوه! لا يا صاحب السّعادة، لا تفعل ذلك أرجوك. ألستُ أخدمك بإخلاصٍ؟ لطالما كنتُ رجلًا شريفًا، وفعلتُ الخيرَ ما استطعتُ.

- لا أنكرُ ذلك، لكن لماذا أنت متوترٌ إلى هذه الدّرجة بحقّ الشّيطان؟ هذه إشارةٌ سيّئةٌ. إنّ الضّمير المرتاحَ لا يجعلُ خدودَ رجلٍ تشحبُ هذا الشّحوبَ، ولا يديه ترتجفانِ هذه الرّجفة...

أجاب برتوتشو متردّدًا: - لكن، يا سيّدي الكونت، ألم تقل لي بنفسك

---

(1) يأتي تفصيلُها في الفصل التالي.

إنّ القسّ بوزوني الذي استمع إلى اعترافي بسجن نيم، قد نبّهك إلى أنّ لي ذنبًا كبيرًا أُلام عليه؟

- بلى، لكنّه إذ أرسلك إليّ قائلًا إنّك ستكون مدبّر منزلٍ ممتازًا، فقد ظننتُ أنّك قد تورّطتَ في السّرقة، وهذا كلّ ما في الأمر!

- أوه، يا سيّدي الكونت!

- أو لأنّك كورسيكيٌّ، فإنّك لم تستطع مقاومة الرّغبة في صناعةِ جلدٍ، مثلما يقالُ في هذه البلاد كنايةً عن تخريبِ جلدٍ[1].

صاح برتوتشو مرتميًا على قدمَي الكونت: - أجل يا سيّدي، أجل يا سيّدي الطيّب، الحقيقةُ هي ما ذكرتَ! إنّه انتقامٌ، أقسمُ على ذلك، انتقامٌ ولا شيء غير ذلك.

- فهمتُ. لكن ما لا أستطيع فهمَه: لمَ هذا المنزل تحديدًا هو ما يرعبك إلى هذا الحد؟

- لكن يا سيّدي، ألا ترى أنّ رعبيَ طبيعيٌّ، ما دام هذا المنزل هو الذي شهد الانتقام؟

- ماذا! منزلي!

أجاب برتوتشو بسذاجة: - أوه يا سيّدي! لم يكن المنزل آنذاك منزلَك.

- وبيت من كان إذًا؟ أظنُّ أنّ البوّابَ كان قد قال إنّه كان في ملكية الماركيز دو سان مِران. ما الذي دفعك، بحقّ الشّيطان، إلى الانتقامِ من السيّد دو سان مِران؟

- أوه! لم يكن هو المقصود بالانتقام يا سيّدي، وإنّما شخصٌ آخر.

قال الكونت متظاهرًا بالاستغراق في التّفكير: - هذه صدفةٌ غريبةٌ إذًا.

---

(1) حرفيًا «صناعةُ جلدٍ» أو «صناعة جلد أحدهم»؛ في الفرنسية تعني الانتقام أو القتل، فيبرز الكاتب التّضاد هنا بين الجملة ومدلولها.

أن تجد نفسك، دونما تدبير مسبق، في منزلٍ شهدَ واقعةً تثير فيكَ كلّ هذا الفزع.

-إنّ القدَر يا سيّدي هو الذي يحرّك كلّ شيء، إنّي على يقينٍ من ذلك: بدءًا تشتري في أوتوي دون غيرها، ومن دون المنازل جميعها تقع على المنزل الذي ارتُكبت فيه جريمة القتل؛ ثمّ تنزل إلى الحديقة عبر السلالم التي نزل منها، وتقفُ في الموضع عينه الذي عالجتُه فيه بضربتي؛ وعلى بعد خطوتين من شجرة الدلب تلك توجد الحفرة التي دفنَ فيها الطّفلَ: لا أعتقد أنّ الأمر صدفة، وإلا لتشابهت، في هذه الحال، الصدفةُ والعنايةُ الإلهية.

- حسنًا يا سيّدي الكورسيكيّ، لنفترض أنّها العناية الإلهية إذًا؛ وإنّي ما زلتُ أفترض كلّ ما يُراد لي أن أفترضَه؛ ثمّ إنّ النفّوس المضطربة ينبغي دومًا أن يتساهل معها المرءُ. هيّا، استجمع نفسكَ واحكِ ليَ ما وقع.

قال برتوتشو هازًّا رأسَه: - لم يسبق لي أن حكيت الواقعة إلا مرّةً واحدة، حكيتُها للقس بوزوني. إنّ مثل هذه الأشياء لا يبوح بها المرء إلا معترفًا لقسٍّ.

- طيب يا عزيزي برتوتشو، هل تفضّلُ أن أعيدَك إلى القسّ الذي حضرَ اعترافك؛ سترتبط وإيّاهُ برباطٍ دينيّ، وتتحدّثان في أسراركما. أمّا أنا فأخشى ما أخشاهُ الآنَ، أن آويَ رجلًا يخافُ أشباحًا؛ لا أقبل على رجالي أن يجبُنوا عن التّنزّهِ ليلًا في حديقتي. ثمّ أعترفُ بأنّني لا أرحّبُ بزيارة مفتّشِ شرطةٍ هنا. إذ، لعلمك يا سيّد برتوتشو، إذا ما كنّا في إيطاليا ندفع للشّرطة لتصمُت، فإنّنا في فرنسا لا ندفع للشّرطة إلا بعد أن تتكلّم. اللعنة! كنتُ أظنُّك كروسيكيًا بعض الشّيء، ومهرّبًا كبيرًا، ومدبّرًا حاذقًا، لكن يبدو لي أنّ كنانتك لا تزالُ مليئةً بأسهمٍ كثيرةٍ يا سيّد برتوتشو.

صاح المدبّرُ، وقد صعقه التّهديدُ في كلامِ الكونت: - أوه، يا سنيور! لستُ أطمحُ إلا إلى البقاء في خدمتك، لذا سأتكلّم، سأعترف لك بكلّ شيء؛ فإن فارقتُك، فإنّما سأفارقك إلى المقصلة.

قال مونت كريستو: - حسنًا، إن كان الأمر هكذا فالمسألةُ مختلفة؛ لكنّني أنبّهك من البداية، إن كنتَ ستكذبُ، فحريٌّ بك أن تلزم الصّمتَ.

- كلّا يا سيّدي، أقسم لك بخلاص روحي، أنّني سأخبرك بكلّ شيء، ذاك أنّ الأب بوزوني نفسه لم أخبره إلا جزءًا من سرّي. لكن، أرجوك أن تبتعد أوّلًا عن شجرة الدّلب تلك؛ انظُر، إنّ القمر سيضيء تلك الغمامة، وأنت تقفُ هناك، متلفّعًا بالمعطف الذي يحجب قامتَك عنّي، والذي يشبه المعطف الذي كان يرتديه السيّد دو فيلفور...

صاح الكونت مونت كريستو: - ماذا تقول! هل كانَ السيّدَ دو فيلفور...

- هل كنت تعرفُه يا صاحبَ السّعادة؟

- وكيلُ الملكِ السّابقُ في نيم؟

- أجل.

- الذي تزوّج ابنة الماركيز دو سان مِران؟

- هو بعينه.

- واشتهرَ في سلك القضاء بكونه أنزه القضاة، وأكثرهم حزمًا وصرامةً؟

- بلى يا سيّدي، إنّ للرّجل سمعةً لا سبيل إلى الطّعن فيها...

- وإذًا؟

- إنّه رجلٌ فاسد.

قال الكونت مونت كريستو متعجّبًا: - مستحيل!

- يبدو لك ما أقوله مستحيلًا، لكنّها الحقيقة بعينها.

- حقًّا؟ وهل لديك الحجّةُ على ما تقول؟

- كانت لديّ، على الأقلّ.

- وأضعتَها أيّها الأخرق؟

- أجل، لكن إن بحثتُ جيّدًا، قد أجدها.

قال الكونت: - الحقّ أقول، إنّ الأمر بدأ يثير اهتمامي يا سيّد برتوتشو، فاحكِ لي كلّ شيءٍ!

وانطلق الكونت إلى أحد الكراسي يقتعدها، وهو يرجّع لحنًا من ألحان لالوتشا[1]؛ بينما يتبعه برتوتشو مستعيدًا ذكرياته.

ظلّ برتوتشو واقفًا أمام سيّده.

(1) أوبرا «لوتشا دي لامارمور»، كتبها الموسيقي الإيطالي غايتانو دونيزيتي سنة 1835، بإلهام من «عروس لامرمور»، للسير والتر سكوت.

44

الفونديتا[1]

سأل برتوتشو الكونتَ: - من أين يودُّ سيّدي الكونت أن أبدأَ الحكاية.
أجابه الكونت: - ابدأها من حيث شئتَ، ما دُمت لا أعلمُ منها شيئًا.
- لكنّني أحسبُ أنّ الأب بوزوني قد أخبرك يا صاحب السّعادة...
- أجل، أخبرني بعض التّفاصيل، لكن مرّت على ذلك سبع سنواتٍ أو ثمانٌ، فما عُدتُ أذكر شيئًا.
- أستطيعُ إذًا يا صاحب السّعادة، من غير أن أخشى إصابتك بالملل...
- هيا يا سيّد برتوتشو، ستحلُّ محلَّ أخبار المساء.
- تعود تفاصيل الحادثة إلى سنة 1815.
- آه! وسنة 1815 ليست البارحةَ!
- كلّا يا سيّدي، ومع ذلك لا تزال الذكريات كلّها حاضرة في ذهني كأنّما نحن الآن في اليوم التالي لما وقع. كان لديّ أخ أكبر يعمل في خدمة الإمبراطور. وقد صار ملازمًا في الفيلق المكوّن حصرًا من كورسيكيين. أخي هذا كان صديقي الوحيد؛ تيتّمنا معًا، أنا في سنّ الخامسة وهو في الثامنة عشرة، فربّاني تربيةَ الأبِ ابنَه. وقد تزوّج سنة 1814، تحت حُكم البوربونيّين؛ وما إن عاد الإمبراطور من جزيرة إلبا، حتّى التحق أخي بخدمته مرّةً أخرى؛ ثمّ وقد أصيب إصابةً خفيفةً في معركة واترلو،

(1) تشير القواميس الفرنسية إلى أنّ أصل كلمة la vendetta إيطاليٌّ، ويشيرُ إلى حالة من الكراهية والعداء بين عائلتين أو شخصين، لا يوقفها إلّا الموت. والمعنى الذي يهمّنا هنا، أنها عادة كورسيكيّة: انتقام لا ينتهي إلّا بالثأر أو الموت.

انسحبَ مع الجيش خلف نهر لوار.

قاطعه الكونت: - لكنّك تحكي لي الآن قصّة الأيّام المائة، وهي قصّةٌ معروفة، حكيتها لي من قبلُ.

- عفوًا يا سيّدي، لكنّ هذه التّفاصيل مهمّةٌ جدًا بالنّسبة إلى ما سيأتي. وقد وعدتني بأن تصبر عليَّ.

- وإنّي حافظٌ لوعدي، هيا، أكمل!

- ذات يوم وصلتنا رسالةٌ؛ وعليّ أن أُخبرك أنّنا كنّا نسكن قرية روليانو الصّغيرةَ، أقصى رأس كورسيكا. كانت الرّسالةُ من أخي، أخبرنا أنّ الجيشَ سُرِّحَ وأنّه عائدٌ عبر شاتورو، وكليمون فيرون، وباي، ونيم؛ ورجاني، إن كنت أملك بعض المال، أن أرسله إليه في نيم، عند صاحب نُزل من معارفنا تربطني به علاقاتٌ.

قاطعه الكونت: - علاقاتُ تهريب.

- طبعًا، يا سيّدي الكونت، ليس لنا غيرها.

- قطعًا، هيا أكمل.

- كنتُ أحبُّ أخي حبًّا جمًّا يا صاحب السّعادة؛ لذا قرّرت ألّا أرسل إليه النّقود، وإنّما أن أحملها إليه بنفسي. وكانت بحوزتي ألفُ فرنكٍ، تركت منها خمسمائةٍ لأسونتا، زوجة أخي؛ وحملت الباقي، واتّخذتُ سبيلَ نيم. كانت الأمور ميسّرةً، إذ كنت أملك مركبًا وكان عليّ أن أشحن بضاعةً في البحر؛ فكان كلّ شيءٍ يوافقُ ما عزمتُ عليه. لكن ما إن حمّلتُ البضاعة، حتّى عارضَتنا الرّياحُ، بحيث قضينا أربعة أيّام أو خمسة، من غير أن نتمكّن من دخول نهر رون. ثمّ أخيرًا تمكّنا من دخوله؛ فصعدناه حتّى بلغنا آرل؛ فتركت المركب بين بلغارد وبوكير، واتّخذت طريقَ نيم.

- سنبلُغ قصّتنا، أليس كذلك؟

- بلى يا سيّدي، وسترى بنفسك أنّني لم أخبرك إلا التّفاصيل الضّرورية. على أنّ مسيري إلى نيم صادفَ الوقتَ الذي وقعت فيه مجازر

الجنوب المعروفة. كان هناك ثلاثةُ لواءاتٍ يحملون أسماء تريستايون، وتروفيمي، وغرافان، يذبحون في الشّوارع كلّ من يشكّون في أنّه يعتنق البونابرتية. ولا ريب في أنّ سيّدي الكونت قد سمع بهذه الاغتيالات؟

- وصلتني أخبارُها مبهَمةً، فقد كنتُ آنذاك بعيدًا جدًا عن فرنسا. واصل.

«حين دخلت نيم، كنتُ حرْفيًا، أمشي غائصًا في الدّماء؛ إذ في كلّ خطوة يخطوها المرء يتعثّر بالجثث. كان القتلةُ، وقد انتظموا عصاباتٍ، يقتلون وينتزعون الأحشاءَ ويحرقون.

ولمرأى تلك المذبحة تملّكني الفزعُ، لكنّي لم أفزع لشخصي، فأنا في نهاية المطاف لست سوى صيّادٍ كورسيكيّ بسيطٍ، وليس لي ما أخشاهُ. لا بل على العكس، تلك الأوقاتُ هي أوقات الازدهار بالنّسبة لنا، نحنُ معشرَ المهرّبين. إنّما كنتُ خائفًا على أخي، أخي جنديَ الإمبراطورية، العائدَ من جيش لوار ببدلته ونياشينه، وكنتُ محقًّا في خوفي عليه.

هرعت عند صاحبنا، ربِّ النزل. وهواجسي لم تخطئ: لقد دخل أخي نيم عشيّة اليوم السّابق، وعند البابِ الذي أتى صاحبَه سائلًا الضّيافةَ قُتل. سألت القاضيَ والدّاني سعيًا إلى معرفة القتَلة، لكن لا أحد جرؤ على إفشاء أسمائهم، لفرط ما كانوا مُهابي الجانب. خطرت ببالي إذّاك العدالة الفرنسيّة التي طالما أُخبرتُ عنها، تلك التي لا تهابُ أحدًا، فقصدتُ وكيل الملك».

سأله الكونت متصنّعًا اللامبالاة: - ووكيل الملك هذا كان يسمّى فيلفور؟

- أجل يا صاحب السّعادة؛ كان قد قدم حديثًا من مارسيليا، حيث كان يشغل منصب نائب وكيل الملك. وقد ترقّى بفضل حماسته. ويقال إنّه أحد أوائل من أعلنوا للحكومة عودة الإمبراطور من جزيرة إلبا.

استأنف مونت كريستو: - وإذًا، قصدته.

- نعم، وقلتُ له: سيّدي إنّ أخي قد قُتل أمس في أزقّة نيم، ولستُ أعرفُ لقاتله هويّةً، وتلك مهمّتكم. أنتم هنا رأسُ العدالة، والعدالة هي من ينبغي أن تنتقم لمن لم يستطيعوا عن أنفسهم دفاعًا.

سألني وكيل الملك: - من كان أخوك هذا؟

- ملازمًا بفيلق كورسيكا.

- كان جنديًا بجيش الغاصب إذًا؟

- جنديًا بالجيوش الفرنسية.

ردَّ عليّ: - وهل استعملَ سيفَه، ومات بالسّيف؟

- كلّا يا سيّدي، لقد مات مطعونًا بخنجر.

أجابني رجل العدل: - وما الذي تريد منّي أن أفعلَه؟

- لقد قلت لك: أريدُ منك أن تنتقم له.

- أنتقم له ممّن؟

- من قتلته.

- وهل أعرف أنا قتلتَه؟

- ابحث عنهم.

- ولمَ أفعل ذلك. لا بدّ أنّ أخاك قد تشاجرَ، ومات في نزالٍ. إنّ كلّ الجنود السّابقين يتورّطون في تجاوزاتٍ، كان يُغَضُّ عنها الطّرفُ تحت حكم الإمبراطورية، لكن الآن ما عاد مسموحًا بها. والحالُ أنّ ناس الجنوب لا يحبّون الجنود، ولا التجاوزات.

أجبتُه: - سيّدي، لست أرجو عدالتكم، لأجلي. فأنا إمّا أن أبكي أو أنتقم لنفسي. لكنّ أخي كانت له زوجةٌ. وإذا ما أصابني مكروه أنا الآخر، فإنّ هذه المخلوقة الضّعيفة ستموت جوعًا، لأنّ عمل أخي وحده من كان يطعِمُها. ساعدها في أن تحصل على إعانةٍ صغيرة من الحكومة.

أجابني السيّد دو فيلفور: - لكلّ ثورةٍ مآسيها؛ وأخوك كان ضحيّة لهذه الثورة؛ إنّها مأساتُه الشّخصية، والحكومة ليست مدينةً لأسرتكم

بشيء. ولو أنّنا أخذنا في الاعتبار الانتقامَ من كلّ ما فعله جنود الغاصب بجنود الملك، فلربّما كان أخوك اليوم محكومًا بالإعدام. إنّ ما حدث أمرٌ طبيعيّ، وهذه هي قوانين القصاص.

صحت به: - كيف يعقل أن تكلّمني على هذا النّحو، وأنت رجلُ قضاء!

أجابني السيّد فيلفور: - أقسم بشرفي أنّ كلّ الكورسيكيّين حمقى؛ لا بل لا يزالون يعتقدون بأنّ ابن منطقتهم إمبراطور. لقد أخطأتَ الزّمن يا عزيزي؛ كان عليك أن تأتي لتخبرني بهذا قبل شهرين. اليومَ فاتَ الوقت؛ انصرف إذًا، وإلا صرفتُك بطريقتي الخاصّة.

«نظرتُ إليه لحظةً متأمّلًا ما إذا كان لي ما أرجوه إن واصلت التوسّل إليه. كان الرّجلُ من حجرٍ.

دنوتُ منه، وقلت له بصوت مخنوقٍ: - حسنًا إذًا! ما دمت تعرف الكورسيكيّين حقّ المعرفة، فإنّك بلا ريب تعلم أنّهم يَفون بكلّ كلمة يقطعونها. بما أنّك ملكيٌّ فإنّك ستعتبر قتل أخي البونابرتيّ أمرًا جيّدًا؛ حسنًا؛ أقول لك إنّي أنا أيضًا بونابرتيّ، وأعلن عليك أمرًا: سأقتُلك. منذ هذه اللحظة قد أعلنتُ عليك الفونديتا. إلزم الحذر، واحترس ما أمكنكَ، لأنّنا حين نتواجَه في المرّة المقبلة، ستكون قد حانت ساعتُك.

وإذ قُلت ما قُلتُه، وقبل أن يفيق من ذهوله، كنت قد فتحت البابَ وهربت».

قال الكونت مونت كريستو: - آه! آه! أنت يا سيّد برتوتشو، بسحنتك الصّادقة هذه، تفعل هذه الأفاعيل، وتفعلها لمن؟ لوكيل الملك! عيب! وهل كان على الأقلّ يعرف معنى تلك الكلمة: **الفونديتا**؟

«كان يعرفها حقّ المعرفة، حتّى إنّه، منذ تلك اللّحظة، ما عاد يخرج بمفرده، وتحصّن ببيته، مُطلقًا ورائيَ المنقّبين. ولحسن الحظّ أنّي أحسنتُ الاختباءَ فلم يعثر عليّ. ثمّ ما لبث أن ركبه الرّعبُ؛ وصار

يخشى البقاء في نيم؛ فطلب نقله؛ وبما أنّه كان صاحب نفوذٍ، فقد عُيِّن في فرساي؛ لكنّك تعلم، أنّ لا مسافةَ تثني كورسيكيًا عن تنفيذ وعيدٍ أقسمه على عدوّه. لذلك لم تستطع عربتُه، على سرعتِها، أن تسبقني، طيلة الطّريق بأكثر من نصفِ يوم، رغم أنّني كنت أسير على قدميَّ.

«ولم يكن المهم بالنّسبة لي أن أقتُله، ذاك أنّ فرصة قتله لاحت لي غير ما مرّة؛ لكن كان ينبغي أن أقتله من دون أن أُكتشف، وتحديدًا من دون أن يُلقى عليّ القبض. لأنّ نفسي لم تعد ملكًا لي، وإنّما صرتُ مسؤولًا عن زوجة أخي. صرفت ثلاثة أشهر أترصد السيّد دو فيلفور؛ طيلة تلك الأشهر الثلاثة، لم يخطو خطوةً إلا ونظرتي تترصّدُه حيثما حلّ أو ارتحل. وفي نهاية المطاف اكتشفت أنّه يأتي خلسةً إلى أوتوي؛ تبعتُه، ورأيتُه يدخل المنزل حيث نحن الآن؛ على أنّه بدلًا من أن يلج البيت، ككلّ النّاس، من بوابة الشّارع الكبيرة، فإنّه كان يأتي على ظهر الحصان، أو في العربة، فيترك الحصان أو العربة في النزل، ثمّ يدخل البيت من الباب الصّغير الذي تراه هناك».

هزّ الكونت مونت كريستو رأسَه إشارةً إلى أنّه يستطيع، على الرّغم من العتمة، تمييز المدخل الذي يقصده برتوتشو.

«ما عُدتُ أحتاج البقاء في فرساي، مكثتُ في أوتوي، وأخذت أتقصّى الأخبار. إذا ما كنت أريد أن أصيدَه، فهذا أفضلُ مكانٍ أنصبُ فيه الفخّ.

«كان المنزل، مثلما أخبرك البوّاب يا صاحب السّعادة، ملكًا للسيّد دو سان مِران؛ حمي دو فيلفور. وبما أنّ السيّد دو سان مِران كان يسكن مارسيليا، فإنّ هذا المنزل الرّيفي كان بلا فائدة بالنّسبة إليه. وقيل إنّه كان قد أجّره حديثًا إلى أرملةٍ شابةٍ لا يُعرف لها اسمٌ سوى البارونة. والحقّ أنّي ذات مساءٍ، بينما أسترق النّظر من فوق السور، أبصرتُ شابةً حسناء، تتنزّه وحيدةً في الحديقة التي لا تشرفُ عليها أيّ نافذةٍ من الخارج؛

كانت تكثر النّظر جهة الباب الصّغير، فأدركتُ أنّها كانت تنتظر ذاك اليوم مجيء السيّد دو فيلفور. وحين اقتربَت منّي بما يكفي لكي أتبيّن ملامحها رغم العتمة، رأيتُها فتاةً حسناء في الثامنة عشرة من عمرها أو التّاسعة عشرة، طويلة القامة، شقراءَ. وبما أنّها لم تكن ترتدي سوى روبٍ خفيف ولا شيء يحجبُ قدّها، فقد استطعت أن ألاحظ أنّها كانت حاملًا، لا بل إنّ حملها قد بدا لي متقدّمًا. وما هي إلّا لحظاتٌ، حتى فُتح الباب الصّغير؛ ودخل منه رجل. وهرعت الشّابة إلى لقائه بأسرع ما في استطاعتها؛ تحاضنَا، وتبادلا القبلَ ثمّ دخلا المنزل معًا. ولم يكن الرّجل سوى السيّد دو فيلفور. وقدّرتُ أنّه ساعة خروجه، خاصّة إن كان الوقت ليلًا، ينبغي أن يعبر وحيدًا طولَ الحديقة».

سأله الكونت: - وهل علمتَ اسم المرأة؟

- كلّا يا صاحب السّعادة؛ وسترى بنفسك أنّي لم أُعطَ الوقت الكافيَ لمعرفته.

- أكمل.

استأنف برتوتشو الكلام: «في ذلك المساء، كنت أستطيع قتل وكيل الملك؛ لكنّي لم أكن أعرف بعد الحديقةَ بكلّ تفاصيلها. كنت أخشى ألا أتمكّن من قتله بضربةٍ واحدة، أو أن يستجيب إلى صراخه أحدهم، فلا أستطيع الهرب. أجّلت التنفيذ، وحتّى لا يفلت منّي شيء، أستأجرت غرفة تطلّ على الشارع الذي يمتد على جانبه سور الحديقة.

ثلاثةَ أيّام بعد ذلك، حوالى السّاعة السّابعة مساءً، لمحتُ خادمًا يغادر المنزل على ظهر حصانٍ ويسلك ركضًا الاتّجاه المفضي إلى طريق سِفر؛ خمّنت أنّه يقصد فرساي. ولم أكن مخطئًا. وبعد ساعاتٍ ثلاث عاد الرّجل مغطّى بالتّراب؛ كان قد أدّى مهمّته.وبعد عشر دقائق، فتح بابَ الحديقة رجلٌ آخر، كان راجلًا ومتلفّعًا بمعطف، ثمّ أقفل البابَ خلفه.

نزلت مسرعًا. وإن كنت لم أرَ وجه فيلفور، لكنّي تعرّفته من خفقانِ

قلبي. عبرتُ الشّارعَ، وتمكّنت من بلوغ صوّةٍ تقع عند زاوية السّور، الصوّة نفسها التي كنت قد استندت إليها للنّظر في الحديقة أوّل مرّة. ولكن هذه المرّة لم أكتفِ بالنّظر، وإنّما أخرجت مديتي من جيبي، وتأكّدت من أنّ نصلها حادٌّ، ثمّ قفزت الجدار.

أوّل ما حرصت عليه هو أن أهرع إلى الباب؛ كان قد ترك المفتاح عالقًا بالقفل من جهة الباب المطلّة على الدّاخل، وذلك بعدما حرص على إدارته في القفل مرّتين.

لم يكن ثمّة إذن ما يعيقُ فراري من هذه الجهة. شرعت في دراسة الموقع. كانت الحديقة على شكل مستطيل؛ تنبسط فيها أرضيّةٌ من العشب الإنجليزيّ النّاعم؛ وعند زوايا الأرضية ترتفع أشجارٌ عظيمةٌ مورقة تتخلّلُها زهور الخريف. ولكي يذهب السيّد فيلفور من المنزل إلى الباب الصّغير، أو من الباب الصّغير إلى المنزل، إمّا داخلًا أو خارجًا، كان لزامًا عليه أن يمرّ من أمام إحدى تلك الشجرات الكثيفة.

كنّا في نهاية سبتمبر؛ كانت الرّيح تهبُّ قويةً؛ وخلَال غيوم كثيفة تنزلقُ سريعًا في السّماءِ، يضيء قمرٌ شاحبٌ، من حين إلى آخر، رملَ المماشي التي تقود إلى المنزل، من دون أن يقدر نوره على اختراق ظلمة الأشجار الكثيفة التي يمكن أن يلجأ إليها رجلٌ من غير أن يخشى انكشاف أمره.

اختبأت في الشّجرة التي يفترض أن يمرّ بقربها فيلفور؛ وما كدت أصعدها، حتّى هيّئ لي أنّ وسط هبّات الرّيح التي تنحني لها الأشجار فوق جبيني، كانت تتناهى إليّ أنّاتٌ. غير أنّك تعرف يا سيّدي الكونت، أو بالأحرى لا تعرف، أنّ من يكمن لارتكاب جريمةٍ يخيّل إليه أنّه يسمع أنين صيحاتٍ مكتومةٍ في الفضاء. مرّت ساعتان، خلت فيهما أنّني سمعت غير ما مرّة تلك الأنّات. ثمّ انتصف اللّيل.

وقبل أن يذوي رنين البندول، لمحت شعاعًا يضيءُ نوافذ الدّرج الخفيّ الذي سلكناهُ قبل قليل. وانفتح البابُ، وظهر مجدّدًا الرّجل ذو

المعطف. حانت اللّحظةُ الرّهيبة؛ غير أنّي كنت قد حضّرتُ نفسي لهذه اللّحظة منذ مدّةٍ، فلم أرتجف. أخرجت السكّين وشهرتُها وتأهّبتُ.

كان الرّجل يتقدّم نحوي رأسًا؛ وبقدر ما كان يقترب وسط الفضاء المكشوف، كان يبدو لي أنّه يحمل سلاحًا في يده. لم أخشَ مقاومةً منه، وإنّما خشيت أن أفشل. وحين لم يعد يفصل بيننا سوى خطواتٍ، أدركت أنّ ما كنت أحسبُه سلاحًا لم يكن سوى مجرفة. لكن لم أستطع أن أتبيّن لمَ كان السيّد فيلفور يحمل بيده مجرفةً، حتّى توقّف في موضع معشوشب، وأخذ يحفر الأرضَ. إذّاك فقط تنبّهت إلى أنّه كان يحمل شيئًا تحت معطفه، ووضعهُ على العشب لتتحرّر حركاته أكثر.

وأعترف أنّ غضبي إذّاك بدأ يخالطُه بعض الفضول: أردتُ أن أعرف ما يصنعه فيلفور هناك؛ ظللتُ ساكنًا، نفَسي مكتوم؛ وأنتظر.

ثمّ خطرت ببالي خاطرةٌ، ما لبثت أن تأكّدت حين رأيت وكيل الملك يخرج من معطفه صندوقًا صغيرًا طوله قدمان وعرضه ستّ بوصاتٍ أو سبع. أمهلتُه حتّى وضع الصندوق في الحفرة التي أحدثها، وأهال عليه التّراب، ثمّ داس التراب ليمحوَ آثارَ فعلته اللّيليّة؛ وإذّاك انقضضت عليه وغرزت في صدره نصل سكّيني وأنا أقول:

أنا جيوفاني برتوتشو! موتُك لأخي، وكنزُك لأرملته؛ أرأيت، إنّ انتقامي أشدّ وأكملُ ممّا كنتُ أتصوّر.

لا أدري إذا ما كان حقًّا قد سمع كلماتي؛ وأحسب أنّه لم يسمعها، لأنّه هوى من دون أن يطلق أدنى صرخة؛ وانبجس دمه نافورةً حارّةً غطّت يديَّ ووجهي؛ لكنّني كنت نشوانَ، كنت في حال هذيان؛ وبدلًا من أن يلهبني دمُه، أراحني. وفي ثانيةٍ استخرجت، بواسطة المسحاة، الصندوق الذي كان قد دفنه، ثمّ أعدتُ التّرابَ مرّةً أخرى كي لا أثير شكوكًا، ورميت المجرفة من فوق الجدار، ثمّ اندفعت عبر الباب، وأغلقته من الخارج بإحكامٍ، وأخذت المفتاح معي».

قال مونت كريستو: – حسنًا! أرى أنّها جريمةُ قتلٍ، مع سرقة.

أجابه برتوتشو: – كلّا يا صاحب السّعادة، إنّها فَونديتا، مع استعادة حقٍّ.

– هل كان المبلغ يستحقُّ على الأقلّ؟

– لم يكن مالًا.

– آه! تذكّرت، ألم تذكر طفلًا؟

– نعم يا صاحب السّعادة. ركضت حتّى بلغت النّهر، وهناك جلست على منحدر، وإذ كنت متلهّفًا على معرفة ما يحويه الصندوق، فقد عالجت قفلَه ًبمديتي.

«في لفّةٍ ناعمةٍ كان ثمّة طفلٌ وُلد للتوّ، وجهه مزرقٌ، ويداهُ بنفسجيّتان، ممّا يشير إلى أنّه قد توفي مخنوقًا بالحبل الملتفّ على عنقه؛ لكن إذ لم يكن قد صار بعدُ باردًا، فقد تردّدتُ في أن ألقي به في الماء الجاري عند قدميَّ. ولوهلةٍ هُيّئَ لي أنّي قد أحسست نبضًا خفيفًا عند منطقة القلب؛ نزعت من رقبته الحبل الذي كان يلفّها؛ ولأنّي كنت قد عملت ممرّضًا في مستشفى باستيا، فقد فعلت ما يمكن أن يفعله أيّ طبيبٍ في وضع كذلك الذي كنت فيه. أقصد أنّي عمدت إلى نفخ الهواء في رئتيه، وبعد نحو ربع ساعةٍ من الجهد المضني، رأيته يتنفّس، وسمعتُ صرخةً تنطلق من صدره. وبدوري، صحتُ، لكنّ صيحتي أنا كانت صيحة فرح. لقد أيقنت أنّ الربّ لم يلعنّي، إذ قيض لي أن أُحيي روحًا بعدما قتلتُ أخرى!

سأله الكونت مونت كريستو: – وماذا صنعتَ بالطّفل؟ لقد كان حملًا ثقيلًا بالنّسبة إلى رجلٍ هارب.

– نعم، لذا لم تخطر ببالي لحظةً فكرة الاحتفاظ به. على أنّي كنت أعرف أنّ في باريس ملجأ توضع فيه تلك المخلوقات المسكينة. وعند مخرج المدينة قلتُ إنّي قد وجدت هذا الطّفلَ في الشّارع، واستفسرتُ عمّا عسايَ أفعل. كان الصّندوق يشهدُ بصدقي؛ وقماط ثوب الباتست

يدلّ على أنّ الطّفل ابن عائلةٍ ثرية؛ والدّم الذي كان يغطّيني قد يكون دم الطّفل، كما قد يكون دم شخصٍ آخر. لم يعترض على كلامي أحدٌ، ودلّوني على الملجأ الواقع أعلى شارع «الجحيم»، وبعدما حرصت على أن أشطر اللفةَ التي كان الطّفل ملفوفًا فيها إلى نصفين، بحيث يظلّ أحد الحرفين المنقوشَيْن عليها في الجزء الذي يلفّ الطفل، بينما يبقى الحرف الثاني في الجزء الذي أحتفظ به؛ بعدما حرصت على ذلك، وضعته عند باب الملجأ وقرعت الجرس، ثمّ أطلقت ساقيَّ للرّيح. وبعد خمسة عشر يومًا كنت قد عدت إلى روغليانو (كورسيكا)، وقلت لأسونتا:

«طيبي خاطرًا يا أختاه؛ لقد مات إسرائيل، لكنّي انتقمت لموته».

طالبتني بتفسيرٍ لكلامي، فحكيت لها ما وقع.

قالت: «جيوفاني، كان عليك أن تحمل الطّفل معك؛ كنا سنعوّضه عن الأبوين اللذين فقدهُما؛ ونسمّيه بينيديتو (المبارك)، وإنّ الله سيكافئنا على حسن صنيعنا».

وجوابًا على كلامها، اكتفيتُ بأن مددت لها نصف اللفة الذي احتفظت به، والذي كان هو الحجّة التي ستمكّننا بالمطالبة بالطّفل إن تحسّنت أحوالنا.

سأله الكونت: - وما كان الحرفان المرسومان على القماط؟

- حرفا H وN يعلوهما شعارُ بارونٍ.

- أحسبُ، وليغفر لي الربُّ يا سيّد برتوتشو، أنّك قد خدمتَ في سلك النّبالة، أين تعلّمت كلّ هذه الأمور؟

- تعلّمتُها في خدمتك، حيث يتعلّم المرء كلّ شيءٍ يا سيّدي الكونت.

- أكمل، كلّي فضول لمعرفة مسألتين اثنتين.

- أيّ مسألتين يا سيّدي؟

- ما كان من أمر الصبيّ، ألم تقل لي إنّه كان صبيًا يا سيّد برتوتشو؟

- كلّا يا صاحب السّعادة، لم أذكر هذا الأمر[1].
- آه، ربّما توهّمتُ ذلك.
- كلّا لم تتوهّم، فقد كان الطّفلُ حقًّا صبيًا؛ لكنّك قلتَ يا صاحب السّعادة إنّك تريد معرفة أمرين، فما الأمر الثاني؟
- الأمر الثاني هو الجريمة التي كنت مسجونًا بسببها في سجن نيم، حين طلبتَ قسًا لتعترف أمامه فأرسلوا إليك القسّ بوزوني.
- ربّما تكون هذه القصّة طويلةً جدًا يا صاحب السّعادة.
- لا بأس، السّاعة بالكاد بلغت العاشرةَ. تعرفُ أنّني لا أنامُ، وأفترض أنّ لا رغبة لك في النّوم الآن.
انحنى برتوتشو مطيعًا واستأنف القصّة.
«ثمّ إنّي؛ سعيًا إلى نسيان الذكريات التي تحوطني من جهة، وتلبيةً لاحتياجات أرملة أخي من جهةٍ ثانية؛ اندفعت بضراوة في ميدان التهريب الذي صار أيسرَ بفضل تساهل القانون، كما يحدث دائمًا عقب كلّ انتفاضة. وسواحلُ الجنوب، على وجه التّحديد لم تكن الحراسة فيها مشدّدة، بسبب القلاقل الدّائمة التي تهزّ حينًا أفينيون، وتارةً نيم، وطورًا أوزيس. وقد غنمنا ذاك الضّرب من الهدنة الذي منحتنا إيّاه الحكومة لكي نوسّع شبكتنا، فنعقدَ صلاتٍ مع السّاحل بأكمله. ومنذ أن قُتل أخي في شوارع نيم، لم أرغب في أن أدخل تلك المدينة. وكان صاحب النزل الذي تجمعنا به علاقات عمل، قد لاحظ أنّنا ما عدنا نقصدُه، فأتانا وأنشأ فرعًا لنزله في طريق بلغارد إلى بوكير، عند علامة جسر غارد. فصار لنا، سواء ناحية أيغمورت أو مارتيغ أو بوك، نحو اثني عشر مستودعًا نودع فيها بضاعتنا، أو نختبئ فيها من الدّرك ورجال الجمارك إذا ما اقتضى

(1) في الفرنسية كلمة «طفل» محايدة، لذلك فإنّ جنس الطّفل في بداية سرد برتوتشو لا يمكن أن يتوضّح تلقائيًا.

الأمر. إنّ التهريب مهنةٌ مدرّةٌ للرّبح، متى ما انخرط فيها المرء بذكاءٍ وحذر؛ أمّا أنا، فصرت أعيش في الجبل بعدما صار لي دافعٌ مضاعفٌ لخشية الجمارك والدّرك في آنٍ، إذ إنّ كلّ مثولٍ أمام العدالة قد يجرّ معه تحقيقًا، والتحقيق دائمًا تقصٍّ في الماضي، وفي ماضيّ أنا يمكن أن يعثروا على ما هو أخطر من سجائر مهرّبة أو براميل خمر من دون تصريح. ولأنّي كنت أفضّل الموت ألفَ مرّةٍ على الاعتقال، فقد قمت بأشياء مذهلة، أشياء برهنت لي غير ما مرّةٍ على الحرص المفرط على أجسادنا هو العقبة الفعلية الوحيدة أمام تحقيق مشاريعنا التي تحتاج قرارات سريعة وتنفيذًا صارمًا وحازمًا. فالحال، متى تخلّى المرء عن التّعلّق بحياته لم يبقَ نظيرًا لغيره من البشر، أو بالأحرى هم من لا يستطيعون أن يكونوا نظراءَه؛ ومتى ما أقدم المرء على اتّخاذ هذا القرار تضاعفت قواهُ واتّسع أُفقه».

قاطعه الكونت: - تتفلسف يا سيّد برتوتشو! يبدو أنّك قد خضت في كلّ التّجارب؟

- أوه! عفوك يا صاحب السّعادة!

- كلّا، كلّا، فقط أقول إنّ العاشرة والنّصف ليلًا تعدُّ وقتًا متأخّرًا على التّفلسف. على أنّي لا أستطيع أن أبدي أيّ اعتراضٍ، ما دمتُ أرى فلسفتك صائبةً، وليست هذه حالُ كلّ الفلسفات.

- حسنًا، هيا أكمل.

«صارت رحلاتي تمتدّ أكثر فأكثر، وتصبح مثمرةً أكثر فأكثر. وكانت أسُونتا هي من يدّخر المالَ، فما فتئت ثروتُنا تنمو. وذات يومٍ، أثناء انطلاقي في رحلةٍ، قالت:

- اذهب، وحين عودتك ستجد مفاجأةً.

سألتُها، لكن عبثًا، رفضت أن تخبرني بشيءٍ، فانصرفتُ.

دامت الرّحلةُ ستّة أسابيعَ؛ ذهبنا إلى لوك نحمّلُ الزّيتَ، وليفورنو

نأخذُ قطنًا إنجليزيًا؛ وقد تمّت الرّحلةُ بلا مشكلات، فحقّقنا مكاسبَ، وعُدنا فرحين. ولحظة عودتي إلى المنزل، كان أوّل ما وقع عليه بصري، في الموضع الأبرز من غرفةِ أسونتا، مهدٌ فاخرٌ قياسًا إلى ما سواه من أثاث الشقّة، وفي المهد كان طفلٌ في شهره السّابع أو الثامن. أطلقت صرخة فرح. ذاك أنّ لحظات الحزن الوحيدة التي كانت تهجم عليّ، منذ وفاة وكيل الملك، هي تلك التي كنت أتذكّر فيها أني تخليت عن هذا الطّفل. إذ لم أكن أشعر بأيّ ندمٍ على قتل وكيل الملك.

لقد خمّنت المسكينة أسونتا كلّ شيء، فاستغلّت غيابي، وحملت نصف ثوب اللّفة، ودوّنت، خشيةَ النّسيان، اليوم والسّاعة المحدَّدَين، اللذين تُرك فيهما الطّفل عند باب الملجأ؛ ثمّ قصدت باريس، وطالبت بنفسها بالطّفل. لم يعترض على طلبها أحدٌ، وأعيدَ إليها الطّفل.

«آه! أقرُّ يا سيّدي بأنّني حين رأيتُ المخلوقَ المسكين نائمًا في مهده، اتّسع صدري، ودمعت عيناي. وصحتُ:

«أسونتا، الحقُّ أنّك امرأةٌ كريمةٌ، وإنّ الربَّ سيباركك».

قال مونت كريستو: - أمّا هذا، فليس صائبًا صوابَ فلسفتك، إنّما هو فقط اعتقادٌ وإيمانٌ.

«وا أسفًا! إنّك محقٌّ يا سيّدي الكونت. لقد كان هذا الطّفلُ هو من سخّرَهُ الربُّ لعقابي. لم يسبق للطّبيعة المنحرفة أن عبّرت عن نفسها في سنّ مبكّر، مثلما فعلت في ذاك الطّفل. على الرّغم من أنّه لا يمكن القول إنّه قد تربّى تربيةَ سوءٍ، فزوجة المرحوم أخي، كانت تعامله كأميرٍ صغير. كان شابًا مليحَ الوجه، عيناه زرقاوان زرقةً صافيةً، أشبه ما تكون بزرقة الزّخارف الفخارية الصينية التي تتناغمُ كلّ التّناغم مع اللّون الأبيض؛ غير أنّ شعره الشّديد الشّقرة كان يضفي على وجهه سحنةً غريبةً، ممّا يزيدُ نظرتَه حدّةً وابتسامته مكرًا. ثمّة للأسف مثلٌ يقول إنّ الأصهبَ إمّا أن يكون خيّرًا كلّ الخير، أو شريرًا كلّ الشّر؛ ولم يكذب المثل معَ

بينيديتو، ومنذ طفولته المبكّرة أبدى سوءَه. صحيحٌ أيضًا أنّ لطف أمّه الزّائد به، قد شجّعه على بداية الانحراف؛ فالطّفلُ الذي كانت أختي المسكينة تقصدُ سوق المدينة، الواقع على بعد أربعة فراسخ أو خمسٍ، لتشتري له بواكير الفاكهة، ولذيذَ المسكّرات، كان يفضّلُ على برتقالِ بالما ومصبّراتِ جنوة، كستناءَ الجار، فيقتحم سياجَه ليسرقها، وكذلك التّفاحَ المجفّف في جُرنه، مع أنّ بُستاننا بكستنائه وتفاحه كان طوعَ يدِه.

وذات يومٍ، وكان سنُّ بينيديتو خمسة أعوامٍ أو ستًا، اشتكى جارُنا فاسيليو اختفاءَ لويسية من حافظة نقوده. ولم يكن الرّجلُ، على عادة سكّان بلدتنا، يَحرز محفظتَه أو مجوهراته، إذ كما تعلم يا صاحب السّعادة، ليس في كورسيكا لصوص. ظنّنا أنّه قد أخطأ العدّ، لكنّه كان يقول إنّه واثقٌ من الأمر. يومها كان بينيديتو قد غادرَ المنزل منذ الصّباح، وتركَنا في قلقٍ بالغٍ، وحين عاد مساءً، كان يسحب خلفَه قردًا ادّعى أنّه قد وجده مقيّدًا إلى جذع شجرة.

وقبل ذلك بشهر كان شغفُ الولدِ السّيّءِ الحصول على قرد. كان قد مرَّ في روغليانو مهرّجٌ يصطحب معه العديد من تلك الحيوانات، ولا بدّ أنّ حركاتها التي أبهجته كثيرًا، قد هجست له بتلك النّزوة الفاسدة.

قلتُ له: - لا قرودَ في غابتنا، وخاصّةً قردٌ بسلسلة؛ اعترف إذن، كيف حصلت على هذا.

أصرّ بينيديتو على كذبته، وزادها تفاصيل تشهدُ بقوّة مخيّلته أكثر ممّا تشهد بصدقه؛ أخذت أضحكُ؛ وهدّدته، فتراجع خطوتين إلى الخلف ثمّ قال:

- لا يحقّ لك أن تهدّدني، فأنت لستَ أبي.

كنّا نجهل من ذا الذي باح له بهذا السرّ الخطير الذي كتمناه عنه بعنايةٍ بالغة؛ على أيّة حالٍ أرعبني جوابُه، حتّى إنّ يدي ظلّت معلّقةً في الهواء عاجزةً، ثمّ ما لبثتُ أن أنزلتها من دون أن أعاقبَ المذنبَ؛ انتصر الولدُ

عليَّ، وأعطاه انتصاره جرعةَ حماسةٍ حتّى إنّه منذ تلك اللّحظة صار يستولي على نقودِ أستونا كلّها، وهي التي كان حبّها له يزداد بقدر ما ينقُص استحقاقُه الحبَّ؛ كان يصرف النّقودَ في نزواته التي لم تكن أختي تستطيع لها محاربةً، وحماقاته التي لم تكن تقدر لها صدًّا. حين أكون في روغليانو تسير الأمور على نحوٍ لا بأس به؛ لكن ما إن أغادر البيت حتّى يصير بينيديتو هو سيّده، وكلّ شيءٍ ينتقل إلى الأسوأ. وما كاد يبلغ الثانية عشرة من عمره حتّى كان قد اصطفى لنفسه أصدقاء، في الثامنة عشرة من عمرهم أو العشرين، من أشرّ ما أنجبت باستيا وكورسيكا؛ واقترف حماقاتٍ صبيانية -تستحقّ وصفًا أعظم وقعًا-، أنذرَنا جرّاءها رجالُ السّلطة.

كنت مرعوبًا؛ فكلّ شيءٍ يوحي بسوء المنقلب. وكنت على وشك أن أضطرّ إلى ترك كورسيكا، لأخوض حملةً مهمّة. فكّرت مليًا، وتجنّبًا لوقوعِ شرٍّ عظيمٍ، قرّرتُ أن أصطحب معي بينيديتو. حسبتُ أنّ حياة المهرّبين القاسيةَ، والانضباط الحازم على متن المراكب، سيغيّرُ من طبعه الجانح إلى الفساد، على اعتبار أنّه لم يفسد بعدُ.

انتحيتُ ببنيديتو جانبًا وكشفتُ له ما عزمت عليه، مزيّنًا اقتراحي بكلّ ما من شأنه أن يغريَ طفلًا في الثانية عشرة من عمره. لكنه تركني أتحدّث حتّى أنهيت كلامي، ثمّ قهقه ضاحكًا، وقال:

- هل جُننتَ يا عمّي؟ (كذلك كان يناديني حين يكون في مزاجٍ رائقٍ) تريد منّي أن أبدّل الحياة التي أحياها بالحياة التي تحياها أنت؟ حياة الكسل النّاعمة مقابل حياة الكدّ المفروض! أقضي الليل في البرد، والنّهار في الحرّ، دائمَ الاختباء؛ وكلّما ظهرتُ واجهتني البنادق، وكلّ هذا مقابل حفنةٍ من نقود! النّقودُ، عندي منها ما أشاءُ. كلما طلبت من أمّي أستونا أعطتنيها! ها أنت ترى إذًا أنّني سأكون مغفّلًا إن أنا قبلتُ عرضَك.

أذهلتني جرأتُه وتفكيره. انصرف بينيديتو إلى اللّعب مع رفاقه، ورأيته من بعيد يتحدّث إليهم مشيرًا إليّ كما قد يشير المرء إلى أحمق».

غمغم الكونت: - نعمَ الولد!

واصل برتوتشو: «آه! لو أنّه على الأقلّ كان ابني، أو ابن أخي، لأعدتُه إلى سواء السّبيل، لأنّ الضّمير يمدّنا بالقوّة. لكن ما إن أفكّر في أنّني سأضرب طفلًا قتلتُ والدَه، حتّى يصيبني العجزُ.

وجّهت لأختي نصائح طيبة، وهي التي كانت تتصدّى للدفاع عن الصبيّ الشقيّ كلّما تجادلنا حوله؛ ولأنّها طالما شكت لي اختفاء مبالغ مالية مهمّة، فقد أرشدتُها إلى مكانٍ تقدر أن تخبِّئ فيها ثروتنا الصّغيرة. أمّا أنا فكنت قد حسمت أمري. كان بينيديتو يحسن القراءة والكتابة والحساب، لأنّه حين كان يروق له أن يعملَ، كان يتعلّم في يومٍ، ما يتعلّمه غيره في أسبوع. قلت إنّني كنت قد حسمتُ أمري؛ سأجد له عملًا ككاتبٍ على إحدى السّفن ذات المسارات الطّويلة، ولن أخبره بشيء، إنّما آخذه معي ذات صباحٍ وأحمله على متنها؛ هكذا، بعد أن أوصي القبطان به، سيصير مصيره كلّه بين يديه. وإذ حسمت أمري، انطلقتُ نحو فرنسا.

كانت عملياتنا كلّها هذه المرّة ستجري في خليج ليون، وقد صارت العمليات أعقد فأعقد، إذ كنّا في سنة 1829. الأوضاع قد استتبّت، وبالتّالي صار عمل خفر السّواحل أشدّ انتظامًا وصرامةً من ذي قبل. وقد ازدادت الحراسة في تلك الفترة بسبب معرض بوكير الذي افتُتح لتوّه.

بدأت حملتُنا بغير مشكلات. رسَوْنا بقاربنا، وكان قعره مزدوجًا، بحيث نخزّنُ فيه بضاعتنا المهرّبة؛ قلتُ رسونا بقاربنا وسط عدد من المراكب التي كانت تحفّ ضفّتي الرّون، من بوكير إلى آرل. وإذ وصلنا هناك بدأنا نفرغ ليلًا حمولتنا المحظورة، ونوصلها إلى المدينة بوساطةٍ من بعض عملائنا، أو بعض أصحاب الأنزال ممّن نتّخذ أنزالهم

مستودعاتٍ. ولا أدري هل أعمانا النّجاح عن الحذر، أم غُرّرَ بنا؛ المهمُّ، ذات مساءٍ، حوالى السّاعة الخامسة، قبيل وجبة المساء، هرع نحونا النوتيُّ المتعلّمُ مرعوبًا يقول إنّه قد لمح فرقةً من الجمركيّين تتّجه نحونا. ولم تكن الفرقة تحديدًا هي ما يخيفنا، خاصّةً في هذا الوقت حيث حملاتٌ بأكملها تجوب ضفاف الرّون؛ لكن ما أخافنا هو قول الولدِ إنّ تلك الفرقة تتقدّمُ متخفيّةً، كأنّما لا تريدُ أن يُكتشف أمرها. وما هي إلا لحظةٌ حتّى كنّا واقفين متأهّبين، لكن كان الوقتُ قد فات؛ لقد أحاطوا بالقارب الذي كانوا يقصدونه: قاربنا. وبين الجمركيّين لمحتُ دركيّين؛ وعلى الرّغم من شجاعتي أمام أيّ قوّةٍ من قوات النّظام، كنتُ أجبن أمام الدّرك؛ نزلت إلى العنبر، وانسللت من منفذٍ، ثمّ ألقيت بنفسي في النّهر، وسبحتُ تحت الماء، لا أتنفّس إلا بين الفينة والأخرى، بحيث بلغتُ من دون أن يراني أحدٌ خندقًا للتوّ قد أُحدثَ. كان الخندق يربط بين نهر الرّون والقناة، ويمتدّ من بوكير إلى إيغمورت. وإذ بلغتُ الخندقَ أمِنتُ على نفسي، فقلتُ أستطيع أن أواصل السّباحة من غير أن يلمحني أحد. بلغتُ القناة من دون أيّ حادث، ولم أكن قد اخترت تلك الطّريق عبثًا؛ لقد سبق أن أخبرتُك يا صاحب السّعادة عن صاحب نزل في نيم أقام نزلًا صغيرًا على طريق بلغارد إلى بوكير».

قال الكونت: - نعم، أذكر ذلك جيّدًا. كان الرّجلُ الشّهمُ شريكك.

«أجل يا سيّدي؛ لكنّ الرّجلَ منذ سبع سنواتٍ أو ثمانٍ كان قد ترك محلَّه لرجلٍ كان سابقًا خيّاطًا في مرسيليا، وأفلسَ فأرادَ أن يجرّب حِرفةً أخرى. ولاً أحتاج قولًا إنّ اتّفاقنا مع صاحب النّزل الأوّل قد تجدّدَ مع صاحبه الجديد؛ كان إذًا هذا الرّجلُ هو من أنوي أن أطلب عنده اللّجوء».

سأل الكونت وقد بدا عليه استعادةُ بعض الاهتمام بقصّة برتوتشو:

- وما اسمُ هذا الرّجل؟

«كان اسمه غاسبار كادروس، وكان متزوّجًا من امرأةٍ من قرية

كاركونت، ولا نعرف لها اسمًا غير نسبتها إلى قريتها؛ كانت امرأةً مسكينةً مصابة بحمّى المستنقعات، وما انفكّ مرضها يتفاقمُ. أمّا الرّجلُ فكان صنديدًا قويًا، سنّه ما بين الأربعين والخامسة والأربعين، وقد أبان لنا غير ما مرّةٍ عن شجاعته وحصافة عقله».

- وتقول إنّ هذه الحوادث وقعت نحو سنة...

- 1829 يا سيّدي الكونت.

- أيّ شهر؟

- شهر يونيو.

- بدايته أو نهايته؟

- يوم 3 مساءً.

قال الكونت: - آه! الثالث من يونيو 1829... حسنًا، أكمل.

«كنت إذًا أنوي طلب اللّجوء عند كادروس؛ لكنّني، كعادتي حتّى في الظّروف العادية، لم آته من الباب الرّئيسي المطلّ على الطّريق، إذ لم أشأ أن أحيد عمّا تقرّر بيننا من عادات، فقفزت من فوق سياج الحديقة، وتسللت زاحفًا بين أشجار الزيتون والتّين البريّ، فبلغت، محاذرًا أن يكون عند كادروس نزلاءٌ فيرونَني. غرفةٌ علويةٌ لطالما قضيتُ فيها لياليَ مريحةً كأنّني أقضيها على أوثر الأسِرّة. ولم يكن يفصل تلك الغرفة العلوية عن الغرفة المشتركة بالطّابق الأرضيّ إلا حاجزٌ من خشبٍ أُحدِثَت فيه ثقوبٌ تمكّننا من رصد الجوار. كنت أنوي، إن كان كادروس وحيدًا، أن أعلمه بقدومي، وأتمّ عنده الوجبة التي قطعها عليّ ظهور الجمركيّين، وأن أستغلّ العاصفة التي تتحضّر كي أعود إلى ضفاف الرّون فأستعلم من أمر المركب وما وقع لطاقمه. انسللت إذًا إلى العليّة، وخيرًا فعلتُ، إذ في تلك اللّحظة بالضّبط دخل كادروس برفقة رجلٍ غريب.

لزمتُ الصّمتَ وانتظرتُ، ليس لكي أتلصّص على مضيفي، وإنّما

لأنّني لم أكن أستطيع غير ذلك؛ ثمّ إنّها ليست المرّة الأولى، فقد ألفيت نفسي في مثلِ هذا الوضع مرّاتٍ عدة من قبل.

كان الرّجلُ المرافقُ لكادروسَ بالطّبع غريبًا عن جنوب فرنسا. كان أحد تجّار المعارض ممّن يأتون بوكير لاقتناء المجوهرات، وطيلة شهر المعرضِ الذي يستقطب التّجار والمنقّبين من كلّ بلدان أوروبا، كانت تُعقد صفقاتٌ تبلغ أرباحها أحيانًا مائة ألفٍ أو مائة وخمسين ألف فرنك. وكان كادروس أوّل الدّاخلين، وقد دخل مسرعًا. ثمّ إذ رأى الصالة فارغةً كالعادة، وليس فيها إلا الكلبُ حارسًا، نادى زوجتَه.

قال: – هيه! أيّتها الكاركونتية، إنّ الرّاهب الأمين لم يخدعنا؛ الجوهرة حقيقية.

«سُمعت صيحةُ سعادةٍ، وعلى الفور تقريبًا اهتزّ الدّرج تحت خطواتٍ أثقلها الوهن والمرضُ. وسألته المرأة الشّاحبة كجثّة: – ماذا تقول؟

– أقول إنّ الجوهرة حقيقيةٌ، وها أحدُ أفضل جواهريِّي باريس، مستعدٌ أن يعطينا نظيرها خمسين ألف فرنك. لكن، لكي نتأكّد من أنّ الجوهرةَ فعلًا ملكٌ لنا، يريد منك أن تحكي له، مثلما حكيت له أنا، المعجزة التي أوقعتها في أيدينا. في انتظار ذلك، استرح يا سيّدي من فضلك، وبما أنّ الجوَّ حارٌّ، فسآتيك بما ينعشك.

«تفحّص الجواهريُّ النّزل، والفقرَ البيّن على شكل هذين اللّذين يريدان بيعه جوهرةً تبدو كأنّما خرجت من خزنة أمير.

وسعيًا إلى استغلال غياب الزّوج بحيث لا يؤثّر على زوجته بأيّ إشارةٍ، فيطابق بين الرّوايتين. قال: – احكي يا سيّدتي.

قالت السيّدة بسرور: – آه! يا إلهي! إنّها برَكةٌ من السّماء لم نكن نتوقّعها. تصوّر يا سيّدي العزيز، أنّ زوجي كانت تربطه سنة 1814 أو 1815 علاقةٌ ببحّارٍ يسمّى إدمون دانتس، وهذا الفتّى المسكين، الذي نسَيه كادروس تمامًا، لم ينسَ هوَ كادروسَ، وقد أوصى له بعد موته بالجوهرة التي رأيتَها.

سألها الجواهريُّ: - وكيف حصل الفتى على تلك الجوهرة؟ هل كان يملكها قبل دخوله السّجن؟

- كلّا، يبدو أنّه قد تعرّف في السّجن على إنجليزيّ فاحش الثراء؛ وإذ كانا رفيقَيّ السّجن، ومرضَ الإنجليزيُّ، واعتنى به دانتِس في مرضه، فقد ترك له الجوهرةَ ساعة مغادرته السّجنَ عرفانًا. غير أنّ المسكين دانتِس كان أقلّ حظًا من أخيه الإنجليزيّ، ومات في السّجن، لكنّه قبل وفاته استودع الجوهرة عند الأبّ الشهم الذي زارنا هذا الصّباحَ، وأوصاهُ بأن يسلّمنا إيّاها.

غمغم الجواهريّ: -إنّ الرّوايتين متطابقتان، وفي نهاية المطاف قد تكون القصّة حقيقية وإن صَعُب تصديقها. لم تبقَ إذًا إلا مسألة السّعر الذي لم نتّفق عليه.

قال كادروس: - كيف! لم نتّفق! لقد ظننتك وافقت على السّعر الذي طلبتُه.

أجابه الجواهريّ: - يعني، أنا اقترحتُ أربعينَ ألف فرنك.

صاحت الكاركونتية: - أربعون ألفًا! لن نبيعها قطعًا مقابل هذا المبلغ. لقد أخبرنا الرّاهبَ أنّها تساوي خمسين ألف فرنك، من دون حساب الخاتم.

سأله المستجوِبُ العنيد: - وما اسم هذا الرّاهب؟

أجابته المرأة: - الأب بوزوني.

- هو أجنبيّ إذًا؟

- إنّه إيطالي، من نواحي مانتوفا على ما أظنّ.

قال الجواهريّ: - أرني الجوهرة، أريد أن أفحصها مرّةً أخرى، لا يمكن أن نصدُق الحكمَ على حجر كريمٍ من نظرةٍ واحدة.

«أخرج كادروس من جيبه كيسًا جلديًا أسودَ، وفتحه ثمّ ناوله الجواهريّ. ولمرأى الألماسة، التي كانت كبيرة كحبّة بندق، وما زلتُ

أذكرها إلى اليوم كأنّني أراها أمامي؛ قلتُ لمرآها، برقت عينا الكركونتية بريق جشع».

قاطعه مونت كريستو: - وماذا تقول أنت في هذا الأمر يا سيّدي المتلصّص؟ هل تصدّق حكايتهما العجيبة؟

- أجل يا سيّدي؛ لم أكن أعتبر كادروس شخصًا سيّئًا، وكنت أحسبه عاجزًا عن القيام بأيّ جرمٍ، حتّى لو كان مجرّد سرقة.

- هذا من رِفعة قلبك، وليس من عِظَمِ تجربتك يا سيّد برتوتشو. وهل عرفت هذا المدعو إدمون دانتِس الذي كانوا يتحدّثون عنه؟

- كلّا يا صاحب السّعادة، كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها باسمه، ولم أسمع به من بعدها إلا مرّةً وحيدةً، يوم زارني الأب بوزوني في سجن نيم.

- حسنًا! واصل.

«أخذ الجواهريّ الخاتم من يدَي كادروس، وأخرج من جيبه ملقطًا رقيقًا من فولاذ وميزانًا صغيرًا من نحاسٍ؛ ثمّ أزاح مخالب الذّهب التي كانت تشدّ الألماسة إلى الخاتم، وأخرجها من محجرها، ووزَنَها بعناية.

قال: - سأعطيكم خمسة وأربعين ألفًا، لكنّني لن أزيد عليها فلسًا، ثمّ إنّي لم أحمل معي غيرها، إذ ارتأيتُ أن الألماسة لا تساوي غيرها.

قال كادروس: - إن كانت هذه هي المشكلة، فبوسعي أن أرافقك حتّى بوكير، فتعطيني الخمسة آلاف الباقية.

قال الجواهريّ وهو يعيد إلى كادروس خاتمه: - كلّا، إنّ الألماسة لا تساوي أكثر من ذلك، هذا فضلًا عن كوني منزعجٌ قليلًا لأنّ تفحّصها الآن قد كشف لي عيبًا فيها لم أكن قد انتبهت إليه في المرّة الأولى؛ لكن، لا يهمّ، كلمتي واحدة وقد قلتُ خمسة وأربعين ألفًا، ولن أبدّل رأيي.

قالت الكاركونتية بحدّة: - على الأقلّ أعِد الألماسة إلى خاتمها.

قال الجواهري: - حقّك.

ثمّ أعاد الألماسة في الخاتم ووضعها في الكيس.
قال كادروس: - حسنًا سأبيع الألماسةَ إلى شخصٍ آخرَ.
أجابه الجواهريّ: - ولكنّ شخصًا آخرَ لن يكون متساهلًا كما تساهلتُ أنا. غيري لن يكتفي بالمعلومات التي أخبرتَه بها؛ فليس من الطّبيعيّ أن يمتلك رجلٌ مثلك ألماسةً بقيمة خمسين ألف فرنك؛ سيقصدُ رجال السّلطة، وينبغي إذّاك إيجاد الأب بوزوني، ونادرون هم الرُّهبان الذين يعطون ماسات بقيمة ألفي لويسية؛ ستضع السّلطة يدها على الألماسة، ويرسلونك إلى السّجن، وإن ثبتت براءتُك سوف يخرجونك من السّجن بعد ثلاثة أشهر أو أربعة، وسوف يختلسون خاتمك، ويعطونك حجرًا مزيّفًا يساوي ثلاثة فرنكاتٍ بدلًا من ماستك التي تساوي خمسين ألفًا، لا بل إنّها قد تساوي خمسةً وخمسين ألفًا، لكنّك يا صديقي لن تخالفني الرّأي في أنّ شراءها ينطوي على مجازفةٍ عظيمة.
تبادل كادروس وزوجته النّظر.ثمّ قال كادروس: - كلّا يا سيّدي، لسنا أغنياء بما يكفي لنضحي بخمسة آلاف فرنك.
قال الجواهريّ: - كما تشاء يا صديقي، لكنّني ـرتُ معي النّقود كما اتّفقنا.
«وأخرج من جيبه حفنة من قطع ذهبية برقت لمعانها في عينَي كادروس المذهولتين، ومن جيبٍ آخرَ حزمة أوراقٍ بنكية.
«كان يبدو أنّ نَفسَ كادروس مضمارٌ لمعركةٍ شرسة: كان بديهيًا أنّ كيس الجلد الذي ما انفكّ يقلّبه في يديه لا يوافقُ قيمةً المبلغ الهائل المعروض أمام عينيه.
استدار صوب امرأته، وسألها بصوتٍ خفيض: - ما قولك؟
- أعطِه، أعطه؛ فإن عاد إلى بوكير من دون الألماسة، سيبلّغُ عنّا! وعلى قوله، من يدري هل نستطيعُ أن نجد الأب بوزوني مرّةً أخرى؟
قال كادروس: - حسنًا خُذ الألماسة مقابل خمسة وأربعين ألف فرنك؛ لكنّ زوجتي تريد سلسلةً ذهبية وأنا حلقَيْ فضّة.

«أخرج الجواهريّ من جيبه علبةً طويلة ومسطّحة كانت تحوي عيّناتٍ كثيرة من الحليّ التي طلبها كادروس.

قال: - تفضّلا، أنا رجلٌ عمليٌّ؛ اختارا.

«اختارت المرأةُ سلسلة ذهبيةً تساوي قيمتها حوالى خمس لويسيات، واختار زوجُها حلقَي فضّة قيمتُهما نحو خمسة عشر فرنكًا.

قال الجواهريّ:- أرجو أن تكونا راضيين.

غمغم كادروس: - لقد قال الرّاهبُ إنّها تساوي خمسين ألف فرنك.

أجابه الجواهريّ وهو يسحبُ الألماسة من يده: - هات! ما أفظعك من رجل! أعطيتُك خمسةً وأربعين ألف فرنك، أي مدخولًا قيمتُه ألفان وخمسمائة جنيه، أي ثروةٌ أنا نفسي أحلم بها؛ ورغم ذلك لست راضيًا.

قال كادروس بصوت متحشرجٍ: - والخمسة وأربعونَ ألف فرنك، أين هي؟

أجابه الجواهريّ: - هي ذي.

«ثمّ عدّ له فوق الطّاولة خمسة عشرة ألفًا ذهبًا وثلاثون ألفًا ورقًا بنكيًا.

قالت الكاركونتية: - مهلًا، انتظرا أن أشعل المصباح، بدأ الظّلام يحلُّ، ويمكن أن نخطئ.

«وبالفعل، كان اللّيل قد حلَّ أثناء نقاشهم، ومع اللّيل أتت العاصفةُ التي كانت قد أرسلت نُذرها منذ نصف ساعةٍ. كان صوت الرّعد يدوي خافتًا في البعيد؛ لكن لم يكن يبدو على الجواهريّ، ولا على كادروس أو الكاركونتية، الاهتمامُ، إذ كانوا ثلاثتهم مسلوبين بشيطان الرّبح. أنا نفسي، كنت أحسُّ فتنةً غريبةً أمام منظر كلّ ذاك الذّهب وتلك الأوراق النّقدية. كنت أحسبني أحلم، وكما يحدث في الحلم، ظللتُ مسمّرًا لا أستطيع حراكًا. وعدّ كادروس الذّهب والأوراق، وأعاد عدّها، ثمّ ناولها زوجتَه فعدّتها، وأعادت عدّها. وأثناء ذلك كان الجواهريّ يتفحّص ألماسته في أشعّة المصباح، فيصدر الحجرُ بريقًا يجعله يغفل عن ذاك

الذي بدأت العاصفة تطلقه لاهبةً به النّوافذَ. سأل الجواهريُّ صاحبَ النّزل: - حسنًا، هل أحصيت نقودك؟

- نعم، ناوليني المحفظة أيّتها الكاركونتية، وهاتِ كيسًا.

قصدت الكاركونتية دولابًا وعادت تحمل محفظةً جلديةً بالية، فأخرجا منها رسائل قديمة متّسخة، ووضعا مكانها الأوراق البنكية، وكيسًا كان يضمّ قطعتين أو ثلاثًا من فئة ستّة جنيهاتٍ، لا شكّ أنّها كلّ مدخرات الزّوجين البائسين.

قال كادروس: - على الرّغم من أنّك قد تكون حرمتنا دستةً من آلاف الفرنكات، لكن هل تريد أن تتعشّى معنا؟ إنّها دعوةٌ صادقة.

قال الجواهريّ: - شكرًا، تأخّر الوقتُ، وينبغي أن أعود إلى بوكير؛ ستقلق زوجتي عليّ. (ثمّ أخرج ساعتَه) اللّعنة! السّاعة توشك أن تبلغ التّاسعة، لن أصل بوكير إلا منتصف اللّيل. وداعًا يا أبنائي؛ إن زاركم رهبانٌ على شاكلة بوزوني، فلا تنسياني.

قال كادروس: - بعد ثمانية أيّامٍ لن تكون في بوكير، لأنّ المعرض ينتهي بعد أسبوع.

أجابه الجواهريّ: - أجل، لكن لا مشكلة في الأمر؛ أكتبا لي في هذا العنوان: باريس، إلى السيّد جوانيس، القصر الملكي، معرض بيير، الرّقم 45. وسأتحمّلُ مشقّةَ السّفر إن كان الأمر يستحقّ.

دوّى الرّعدُ، مصحوبًا ببرقٍ وهّاجٍ إلى درجة أنّه محا نور المصباح.

قال كادروس: - أوه! أوه! هل ستذهب في هذا الطّقس؟

قال الجواهريّ: - أوه! أنا لا أخافُ الرّعد.

سألته الكاركونتية: - واللّصوص؟ إنّ الطّرقات أيّام المعرض تكون عامرةً بهم.

أجابه: - أمّا اللّصوص فلهم هذان.

وأخرج من جيبه مسدّسين صغيرين معبّأين بالرّصاص.

قال: - ها كلبان، ينبحان ويعضّان في آنٍ. لقد أعددتُهما لأوّل شخصين تسوّل لهما نفسيهما الاقتراب من ألماستك أيّها الأب كادروس.

تبادل كادروس وزوجته نظراتٍ كالحةً. يبدو أنّ أفكارًا رهيبةً كانت قد راودتهما معًا في الآن نفسه.

قال كادروس: - حسنًا، طريق السّلامة!

أجابه الجواهريّ: - شكرًا!

ثمّ تناول عصاه التي كان قد أسندها إلى خزانةٍ عتيقة، وانصرف. لكن في اللّحظة التي فتح فيها الباب، هبّت ريحٌ شديدةٌ كادت تطفئ المصباح.

قال: - أوه! يا له من طقسٍ جميلٍ، سأقطع فيه فرسخين!

قال كادروس: - ابقَ، واقضِ اللّيلة هنا.

وقالت الكاركونتية بصوتٍ راجفٍ: - نعم، ابقَ، سنعتني بك.

- كلّا، ينبغي أن أنام في بوكير. وداعًا!

تحرّك كادروس على مهلٍ حتّى عتبة الباب.

قال الجواهريّ وقد صار خارج المنزل: - لم أعد أميّز أرضًا ولا سماءً، أيّ طريقٍ ينبغي أن أسلك، يمينًا أم يسارًا؟

قال كادروس: - يمينًا؛ لن تخطئ الطّريق، فهي محفوفةٌ بالأشجار من الجانبين.

أجابه صائحًا بصوت يكاد يضيع في البعيد: - حسنًا، ها قد رأيت الطّريق.

قالت الكاركونتية لزوجها: - أقفل الباب، فأنا لا أحبّ أن يظلَّ البابُ مفتوحًا أثناء العاصفة.

أجابها وهو يغلق الباب بإحكامٍ: - خاصة حين يكون في المنزل هذا القدر من النّقود. أليس كذلك؟

دخلَ وقصد الدّولاب، فأخرج منه الكيس وحافظة النّقود، ثمّ جعلا يعدّان نقودهما معًا للمرّة الثالثة. ولم أشهد طيلة حياتي تعبيرًا مماثلًا

للتّعبير الذي كان يعلو ذينك الوجهين في ضوء المصباح الشّحيح. المرأة على وجه التّحديد كانت بشعة؛ تضاعفت تلك الرّجفة المحمومة التي كانت ترجّها عادةً. وجهها الباهت ازداد شحوبًا؛ عيناها مغارتان مضيئتان.

قالت بصوت مكتوم: - قُل لي: لمَ دعوتَه إلى قضاء اللّيلة هنا؟

أجابها كادروس منتفضًا: - لكي... لكي لا يضطرّ إلى أن يقطع الطّريق حتّى بوكير في هذا الطّقس.

قالت المرأة وعلى وجهها تعبير يستحيل وصفه: - آه! ظننتُك فكّرت في شيءٍ آخرَ.

صاح كادروس: - يا امرأة! يا امرأة! لمَ تخطر ببالك مثل هذه الأفكار؟ ولمَ لا تحتفظين بها لنفسك إن خطرت لك؟

قالت الكاركونتية بعد برهة صمت: - سيّان! أنت لست رجلًا.

قال كادروس: - ماذا تقصدين؟

- لو كنت رجلًا، لما تركتَه يغادر.

- يا امرأة!

- أو ربّما لن يصل إلى بوكير.

- يا امرأة!

- إنّ الطّريق طويلة، وهو مضطرّ إلى اتّباعها، بينما ثمّة طريقٌ مختصرة عند القناة.

- حذار يا امرأة، إنّك تُغضِبين الرّب، اسمعي...

«وبالفعل سُمع دويُّ رعدٍ مرعبٍ، خالطَه برقٌ مزرقٌّ أضاءتَ له الغرفةُ، ثمّ بدأت العاصفة تذوي تدريجيًا، مبتعدةً، كأنّها أسفةٌ، عن المنزل الملعون.

قالت الكاركونتية وهي ترسم علامة الصّليب: - باسم المسيح!

وفي اللّحظة نفسها، وسط الصّمت الرّهيب الذي يتلو عادةً دويَّ

الرّعد، تناهى صوتُ طرقٍ على الباب. وانتفض كادروس وزوجته فزعين.

صاح الرّجلُ وهو ينهض من مجلسه لامًّا الذّهب والأوراق في كتلة واحدةٍ على الطّاولة، وواضعًا يديه فوقها: - من؟

أجابه صوتٌ: - إنّه أنا!

- من أنت؟

- جوانيس الجواهريّ، بحقّ السّماء!

قالت الكاركونتية بابتسامةٍ شنيعة: - حسنًا، ما قولُك؟ ها هو الرّبُ قد أعاده إلينا.

«تهاوى كادروس على كرسيّه شاحبًا لاهثًا. أمّا الكاركونتية فقامت وبخطوٍ سديدٍ قصدت البابَ وفتحته.

قالت: - حسنًا، ادخُل يا عزيزي السيّد جوانيس.

قال الجواهريّ وماء المطر يترقرق على ملابسه: - لعمري إنّ الشّيطان يبدو مصرًا على ألّا أعود هذا المساء إلى بوكير. خيرُ الحماقات أقصرُها يا سيّدي كادروس؛ لقد عرضتَ عليّ الضّيافة، وقد قبلتُها وعدتُ لأنام عندكم.

غمغم كادروس كلماتٍ وهو يمسح العرق المتصبّب عن جبينه. أمّا الكاركونتية فقد أغلقت الباب خلف الجواهريّ بإحكامٍ.

45

وابلُ الدّم

«لمّا دخل الجواهريُّ، ألقى نظرةً متقصّيةً حولَه؛ لكن، على ما يبدو، لم يكن ثمّة ما يوقظ في نفسه الرّيبة إن لم يكن مرتابًا، ولا ما يعزّزها في نفسه إن كان مرتابًا.

«كان كادروس لا يزال يمسك بين يديه أوراقه البنكية وذهبه. ابتسمت الكاركونتية لضَيفها ما وسعتها الابتسامةُ.

قال الجواهريّ: - آه! آه! يبدو أنّك خشيت أن تكون قد أخطأتَ في عدّ النّقود، فعُدتَ إلى عدّها بعد رحيلي.

قال كادروس: - كلّا؛ لكنّ الحدث الذي جعلنا نكسب هذه النّقود لم يكن متوقّعًا، حتّى أنّنا لم نستطع تصديقَه؛ وحين لا نضع الدّليل الماديّ أمام بصرنا، يهيّأ لنا أنّنا نحلم.

ابتسم الجواهريُّ. وسألهما: - هل عندكما نزلاءُ؟

أجابه كادروس: - كلّا، لا نؤجّر غرفنا للمبيت؛ فنحن قريبون من المدينة، ولا أحد يقف عندنا.

- سأزعجكما إذًا أيّما إزعاج.

قال كادروس بلطف: - تزعجنا! أنت يا سيّدي! كلّا، أقسم لك.

- حسنًا، أين ستضيّفانني؟

- في الغرفة هناك بالأعلى.

- أليست تلك غرفتكما؟

- لا مشكلة، عندنا سريرٌ آخر في الغرفة المجاورة.

«نظر كادروس إلى امرأته بدهشةٍ. أخذ الجواهريّ يدندنُ لحنًا، بينما يدفئ ظهرَه على نار حطب أوقدته الكاركونتية في المدفأة ليجفّفَ الضّيفُ نفسَه. وفي أثناء ذلك، وضعت على طاولةٍ، كانت قد مدّت عليها شرشفًا، بقايا طعامٍ شحيحٍ، وأضافت إليه ثلاث بيضاتٍ طريّة.

«وكان كادروس قد أعاد النّقود إلى الحافظة، والذّهب إلى الكيس، وأعاد كلّ شيءٍ إلى الدّولاب. وجعل يذرع الغرفةَ طولًا وعرضًا، متفكّرًا، وبين الفينة والأخرى يرفع رأسَه صوب الجواهريّ الذي كان يدخّن بجانب الموقد، وكلّما جفَّ منه جانبٌ أدار الجانبَ الآخرَ.

قالت الكاركونتية وهي تضع قنّينة خمرٍ على الطّاولة: - متى ما أردتَ أن تأكلَ فإنّ العشاءَ جاهز.

سألها جوانيس: - وأنتما؟

أجابه كادروس: - أنا، لن أتعشى.

وسارعت الكاركونتية إلى القول: - لقد تعشّينا قبل قليل.

قال الجواهريّ: - سوف أتعشّى وحدي؟

أجابته الكاركونتية بتلهّفٍ لم تعتده حتّى مع زبائنها: - نحن سوف نخدمك.

من حين إلى آخر كان كادروس يرميها بنظرةٍ خاطفةٍ كالبرق.

تواصلت العاصفة. فقالت الكاركونتية: - هل تسمع العاصفة؟ هل تسمعها يا سيّدي؟ خيرًا فعلتَ إذ عُدتَ.

قال الجواهريّ: - هذا لا يمنع أنّني سأنصرفُ إن هدأت العاصفة.

قال كادروس وهو يهزّ رأسه: - إنّها المسترال (ريح الشّمال)، سوف تتواصلُ العاصفة إلى الغد.

ثمّ زفرَ. فقال الجواهريّ وهو يجلس إلى المائدة:

- كان الربّ في عون من هم بالخارج.

أمّنت الكاركونتية على كلامه: - أجل، سيقضون ليلةً شنيعةً.

بدأ الجواهريُّ يتعشّى، والكاركونتية تخدمُه بأكمل عنايةٍ؛ وهي الخاملةُ الكثيرةُ التذمّر، صارت نموذجًا يحتذى في النّشاط واللّباقة. ولو أنّ الجواهريّ كان يعرفها من قبلُ، للاحظَ الفرقَ فتيقّظت في نفسه الشّكوك. أمّا كادروس فلم يكن ينبس بكلمة، وظلّ يذرع الغرفة لا يجرؤ حتّى على النّظر إلى ضيفه. وحين فرغ الضّيف من طعامه، ذهب كادروس بنفسه إلى الباب وفتحه.

قال: - أظنّ أنّ العاصفة بدأت تهدأ.

لكن، وكأنّما أرادت العاصفة أن تكذّبَه، دوّى في تلك اللّحظة نفسها رعدٌ رهيبٌ اهتزّ له المنزلُ، وهبّت ريحٌ يخالطُها المطرُ فأطفأت المصباحَ.

أقفل كادروس البابَ؛ وأوقدت زوجته شمعةً من الموقد المحتضر.

قالت: - لعلّك مُتعبٌ؛ لقد وضعت على السّرير ملاءات بيضاء، اصعد لتنام، طابت ليلتك.

«انتظر جوانيس قليلًا حتّى يرى هل تهدأ العاصفة. وحين أيقن أنّ الرّعد والمطر ما انفكا يزدادان قوّةً، تمنّى لضيفيه ليلةً طيّبةً وصعد الدّرج.

مرّ من فوق رأسي، وسمعت الدّرجات تهتزّ تحت خطواته.

كانت الكاركونتية تتابعه بعين شرهة، بينما كادروس يولي له ظهره ولا ينظر جهته البتّة.

«إنّ كلّ هذه التّفاصيل التي أستعيدها لا تبدو لي غريبةً ما دامت قد حدثت أمام عينيّ؛ كلّ ما جرى طبيعيٌّ، وباستثناء قصّة الألماسة التي بدت لي غير حقيقية كان كلّ شيءٍ عاديًا. ولأنّني كنت أنا أيضًا منهكًا من التّعب، وأنوي أن استغل توقّف العاصفة، ما إن تتوّقف، لكي أنطلقَ، فقد عزمت على أن أنام سويعاتٍ، وأرحل في جوف اللّيل.

كنت أسمع في الغرفة تحتي الجواهريّ، يتّخذ كلّ استعداداته لينعم ما أمكنه بلَيلة هانئة. وما لبث السّرير أن صرّ تحت ثقل بدنه. لقد نام.

شعرت بعينيّ تغمضان رغمًا عنّي، وبما أنّني لم أتوقّع ما يريب، فلم أقاوم النّوم؛ ألقيت نظرةً أخيرةً داخل المطبخ. كان كادروس جالسًا إلى طاولةٍ مديدة، على مقعدٍ من تلك المقاعد الخشبية التي تحلّ في الأنزال القروية محلَّ الكراسي. كان يولينا ظهرَه، فما استطعت أن أتبيّن سيماءَه؛ ثمّ حتّى لو أنّه استدار لما أمكنني تبيّن وجهه إذ كان يضعه بين راحتيه.

تأمّلته الكاركونتية برهةً، ثمّ هزّت رأسَها وأقبلت تجلسُ إزاءَه.

«وفي تلك اللّحظة شبّت النّارُ المحتضرة في بقيّةٍ من عودٍ ناشفٍ كانت قد نسيَته؛ أضاء الدّاخلَ المظلم ضوءٌ أشدُّ وهجًا... ظلّت الكاركونتية تحدّق في زوجها، وإذ لم يغيّر الرّجلُ من وضعه مدّت إليه يدها المعقوفة ومسّت جبينه.

«انتفض كادروس. بدا لي أنّ المرأة تحرّك شفتيَها، لكن إمّا أنّها كانت تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ، أو أنّ حواسي قد خدّرها الوسن، فلم أسمع ما تقوله. حتّى إنّني لم أكن أرى إلا عبر ضباب، وبذاك الشكّ الذي يسبق النّومَ، وفيه نخالُ أنفسنا قد بدأنا حلمًا. ثمّ ما لبثت عينايَ أن انغلقتا، وغبت عن الوعي.

«كنتُ غارقًا في النّوم وإذا يستلّني منه صوتُ طلقة مسدّس، أعقبتها صيحةٌ رهيبة. سمعت بعد ذلك وقعَ خطواتٍ مترنّحةٍ على أرضية الغرفة، ثمّ هوت على الدّرج كتلةٌ جامدةٌ، فوق رأسي بالضّبط. ولم أكن قد استعدتُ وعيي بالكامل.

«سمعتُ أنّاتٍ، ثمّ صيحاتٍ مكتومة كتلك التي تصاحبُ نضالًا. ثمّ صيحةٌ أخيرة، أطولُ من سابقاتها، انتهت إلى أنينٍ، أخرجتني تمامًا من سباتي. فاستندت إلى ذراعي، وفتحت عينيّ، واستطعت تمييز الغرفة في الظّلام، ثمّ رفعت يدي إلى جبيني إذ شعرت بأنّ قطراتٍ دافئة تنزل عليه خلالَ شقوق خشب الغرفة فوقي.

«تلا الضّجيج المرعب صمتٌ مهولٌ. سمعت وقع خطوات رجلٍ

يمشي فوق رأسي؛ هزّت الخطواتُ الدّرج. نزل الرّجل إلى الطّابق السّفليّ، دنا من المدفأة وأوقد شمعةً.

كان الرّجل كادروس؛ كان وجهه شاحبًا وقميصه معفّرًا بالدّم. وإذ أوقد الشّمعة عاد يرتقي الدّرج مسرعًا، وتناهت إليّ مجدّدًا خطواته الحثيثة القلقة.

لحظة بعد ذلك نزل. كان يمسك الحُقّ في يده؛ تأكّد من أنّ الألماسة فيه، وفكّر لحظةً في أيّ جيب سوف يخفيها؛ ثمّ إذ ارتأى بأنّ جيبه ليس مخبأ جيدًا، فقد لفّها في منديله وربطه حول عنقه.ثمّ هرع إلى الدولاب، سحب منه أوراقه النّقدية وذهبه، فوضع هذه في جيب سرواله الصّغير، وتلك في جيب قميصه، ثمّ أخذ قميصين أو ثلاثةً، وانطلق إلى الباب، ثمّ اختفى في الظّلام.

«إذّاك صار كلّ شيءٍ واضحًا بالنّسبة إليّ؛ لُمت نفسي على ما وقع كأنّني أنا من ارتكب الجرمَ. خيّل إليّ أنّني أسمع أنّات. قد يكون الجواهريّ الشّقيّ لا يزال حيًا؛ ربّما إن مددتُ له العونَ أصلحُ جزءًا من الضّرر الذي تسبّبتُ فيه. أسندت كتفيّ إلى أحد الألواح التي تفصل مخدعي عن الغرفة السفلى؛ تهاوت الألواح تحتي، فألفيت نفسي وسط المنزل.

هرعتُ إلى الشّمعة، وانطلقت أرتقي الدّرج؛ كان ثمّة جسدٌ يعيق الطّريق: جسد الكاركونتية.

«طلقةُ المسدّس التي سمعتُها كانت قد أُطلقت عليها. وفضلًا عن ذلك كانت رقبتها مذبوحةً من الوريد إلى الوريد، وبالإضافة إلى لجّة الدّم المتدفّقة من جرحَيها، كان فمُها أيضًا يسيلُ دمًا. لقد ماتت. خطوتُ من فوق جسدها.كانت الغرفة في حالٍ من الفوضى: أثاثٌ زُحزح من مكانه؛ وعلى الأرض الأستار التي تعلّق بها الجواهريّ المسكين. هو نفسه كان ملقىً أرضًا، رأسُه مسنَدًا إلى الجدار، غارقًا في بركة من الدّم

تسيل من ثلاث طعناتٍ عريضةٍ تلقّاها في صدره. أمّا الطّعنة الرّابعة، فبقي مغروسًا فيها سكّينُ مطبخ كبير، لا يُرى منه إلا مقبضه.

«دستُ بقدمي المسدّس الثّاني الذي لم تنطلق رصاصته، ربّما لأنّ باروده كان مبلولًا. ودنوتُ من الجواهريّ؛ وبالفعل لم يكن قد مات بعد. وممّا أحدثته من ضجيج، خاصّةً انهيار أرضية الحجرة، فتح عينيه الفزعتين، وتمكّن لبرهةٍ من أن يحدّق فيّ، وحرّك شفتيه كأنّما يريد أن يتكلّم، ثمّ مات.

«أمام هول المشهد، كدتُ أجنُّ؛ ولمّا لم يعد بإمكاني أن أُنقذ أحدًا، لم أعد أفكّر إلّا في أمرٍ واحدٍ: الهرب. هبطت الدّرج، غارزًا أصابعي في شعري، مطلقًا صيحة رعب.

«في الطّابق السفليّ، كان ثمّة خمسة جمركيّين أو ستّة، ودركيّين أو ثلاثة: فيلقٌ مسلّحٌ بأكمله. اعتقلوني؛ ولم أحاول حتّى أن أقاوم، لم أكن أتحكّم في نفسي. حاولت أن أتكلّم، لكنّني لم أطلق إلا صيحاتٍ مبهمة.

«رأيتُ رجال الجمارك والدّرك يشيرون إليّ بالبنان؛ خفضت عينيَّ فانتبهت إلى أنّني كنت معفّرًا بالدّم. إنّ المطر الدّافئ الذي شعرت به ينهال عليّ عبر خشبات الأرضية، لم يكن إلا دم الكاركونتية.

«أشرت بسبّابتي إلى المكان الذي كنت مختبئًا فيه.

سأل دركيٌّ: - ماذا يقصد؟

- إنّه يشير إلى المكان الذي تسلّل منه.

وأشار بيده إلى المنفذ الذي كنت قد عبرت منه بالفعل.

إذّاك أدركتُ أنّهم يظنّونني القاتلَ. فاستعدت صوتي وقوّتي؛ فانفلتُّ من بين أيدي الرّجلين اللّذين كانا يمسكانني، وأخذت أصرخ:

- لستُ أنا! لستُ أنا!

تقدّم دركيّان شاهرَين قربينتَيهما.

قالا: - إن تحرّكت مرّةً أخرى، سنقتلك.

صحت بهما: - ولكنّني أقول إنّني لستُ القاتل!

- سوف تحكي حكايتك الطّريفة أمام قضاة نيم. في انتظار ذلك، هيّا معنا؛ وإن كان من نصيحة نوجّهها إليك فهي هذه: لا تحاول المقاومة!

«ولم تكن المقاومة نيّتي، كان الذّهول والرّعب قد قوّضا كياني. صفّدوا يديَّ، وربطوني إلى ذيل حصان، واقتادوني إلى نيم.

«كان قد تعقّبني جمركيٌّ أثناء فراري، وفقد أثري عند أرجاء النزل، فشكّ في أنّني سأقضي ليلتي هناك؛ فقصد رفاقه يعلمهم، فلمّا جاؤوا سمعوا طلقة الرّصاصة، ووصلوا ليجدونني غارقًا وسط كومةٍ من الحجج التي تدينني. أدركت من فوري أيّ مشقّة سأواجهها لإثبات براءتي. لذا لم أهتمّ إلا بأمرٍ واحدٍ: كان أوّل طلبٍ أطلبه من قاضي التّحقيق هو أن يبحث عن راهبٍ يدعى بوزوني، كان قد توقّف عند نزل غارد خلال النّهار. فإن كان كادروس قد اخترع هذه القصّة، ولا وجود للرّاهب، فلا شكّ في أنّني ضعتُ، اللّهم إلا إن ألقي القبض على كادروس فاعترف.

«مرّ شهران بُذل خلالهما كلّ الجهد في البحث عن الرّاهب بوزوني، ولا يسعني إلا أن أشكر القاضي على جهده. كنتُ قد فقدت كلّ أملٍ. ولم يُعثر لكادروس على أثر. وحُدّد تاريخ محاكمتي في الدّورة القادمة. وإذا يومَ الثامن من سبتمبر، أي ثلاثة أشهر وخمسة أيّام بعد الواقعة، يظهرُ الرّاهب بوزوني، بعدما فقدت كلّ أملٍ في ظهوره، ويقف أمام السّجان قائلًا إنّه قد عَلِم أنّ ثمّة سجينًا يريد لقاءه. قال إنّه عرف ما وقع في مارسيليا، وهرع يلبّي رجائي.

«لا شكّ أنّك تدرك بأيّ حماسةٍ لقيتُه؛ حكيتُ له ما شهدتُه، وخضتُ موضوع الألماسة بحذر؛ وضدًا على توقّعي، كانت القصّة حقيقيةً من ألفها إلى يائها، بل وأمّن على كلامي قائلًا إنّه يصدّقني. وإذّاك جرفتني طيبتُه، وتقديره لأخلاق أبناء بلدي، وفكّرتُ في أنّ غفران الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها لن أناله إلا من شفتيه الكريمتين، فأخبرتُه

تفاصيل ما كان قد وقع منذ سنواتٍ هنا بمنزل أوتوي. وما فعلتُه بشكلٍ عفويٍ أثمر نتائج كتلك التي كان ليثمرها ما قد أفعله بحسابٍ: اعترافي بالجريمة الأولى جعله يوقن بأنّني لم أقترف الجريمة الثانية. ثمّ تركني بعد أن وعدني بأنّه لن يألو جهدًا في سبيل إقناع قضاتي ببراءتي. وقد تيقّنتُ منصدق اهتمامه، إذ لاحظتُ أن سجني صار يلينُ تدريجيًا، ثمّ علمتُ بأنّ محاكمتي تأجّلت إلى ما بعد الدّورة القادمة.

وأثناء ذلك شاء القدر أن يُلقى القبضُ على كادروس في الخارج، فأُعيد إلى فرنسا. اعترف بجريمته، ونفى أن تكون عن سبق إصرار وترصّد، أو بتحريض من امرأته. حُكم عليه بالمؤبّد، وأُطلق سراحي أنا.

قال مونت كريستو وإذّاك أتيتني حاملًا رسالةً من الأب بوزوني؟

- أجل يا صاحب السّعادة، كان يبدو مهتمًا بي للغاية.

قال لي: - إنّ التّهريب سيدمّر حياتك؛ إن خرجت من هنا، اتركه.

سألتُه: - لكن يا أبتِ، كيف أعيشُ وأصرف على زوجة أخي؟

قال: - إنّ أحد أبناء بلدي الأتقياء يقدّرني، وقد كلّفني بأن أجد له رجلًا ثقةً. هل تريدُ أن تعمل معه؟ سوف أوصيه بك.

صحت: - آه يا أبتِ، ما أطيبك!

- لكنّك ستقسم لي ألّا تعود إلى الجرم.

بسطت يدي لأقسمَ.

قال لي: - لا تحتاج أن تقسم، إنّي أعرف الكورسيكيّين وأحبّهم؛ ها توصيتي.

ثمّ كتب الأسطر التي سلّمتُك إيّاها يا صاحب السّعادة، فقبلت أن تُشغّلني عندك». والآن أسألك: طيلة المدة التي عملت فيها عند صاحب السّعادة، هل بدر منّي ما أستحقّ عليه لومًا؟

أجاب الكونت: - كلّا، وأعترف عن طيب خاطر: نِعمَ الخادمُ أنت يا برتوتشو، وإن كنت تفتقد الثقة فيّ.

- أنا يا سيّدي الكونت!

- أجل، أنت. كيف تكون لك أختٌ وابنٌ متبنّى، ولم تحدّثني عنهما ولا مرّةً!

- وا أسفًا يا صاحب السّعادة! بقي أن أخبرك بالقسم الأشدّ حزنًا من حياتي.

«لقد انطلقت من فوري إلى كورسيكا. كنت متلهّفًا إلى أن أصل فأواسي زوجة أخي وأطمئنها؛ لكن حين وصلت إلى روغليانو وجدت المنزل في حدادٍ: وقعت واقعةٌ رهيبةٌ، لا يزالُ الجيران يحفظون ذكراها! كانت أختي المسكينة، بباعثٍ من نصائحي، تقاوم متطلّبات بينيديتو، الذي كان في كلّ وقت وحين يطالبُ بالحصول على المال المخزون بالبيت. وذات صباح هدّدها، واختفى النّهار بأكمله. فظلّت تنتظره ساهرةً لم تنَم. ولمّا عاد في الحادية عشرة مساءً، كان بصحبة رفيقين من رفاق السّوء. مدّت يديها إليه معانقةً، لكنّهم انقضوا عليها جميعًا، وصاح أحدهم -وأرتجفُ كلّما تخيّلت أن يكون الصّائحَ الطّفلُ اللّعين-: «لنلاعبها لعبةَ التحقيق، ولابد لها أن تعترف بالموضع الذي تخبئ فيه مالها».

«يومئذٍ كان جارنا فاسيليو في باستيا؛ وحدها زوجتُه بقيت بالبيت. ولم يكن أحدٌ سواها يستطيع أن يرى أو يسمع ما يجري ببيت أختي. أمسك اثنان منهما بالمسكينة أسونتا، وهي تبتسم لجلّاديها، إذ لم تكن تعي أنّ بوسعهم اقتراف جُرم في حقّها. أغلق الثالث الأبواب والنّوافذ، ثمّ انضمّ إلى رفيقيه؛ وعملوا ثلّاثتهم على كتم الصرخات التي كان الرّعبُ ينتزعها من المسكينة. قرّبوا قدمَي أسونتا من الموقد الذي كانوا يعوّلون عليه في جعلها تقرّ بمخبأ كنزنا الصّغير؛ لكن، في خضمّ مقاومتها، نشبت النّار بثيابها فأطلقوا سراحها، خشية أن تنشب النّار فيهم هم أيضًا. انطلقت المسكينة صوب الباب والنّار تلتهمها، لكنّ الباب كان مغلّقًا. فهرعت

إلى النّافذة، لكنّ النّافذة كانت مقفلة. إذّاك سمعت الجارة صرخات رهيبة: كانت صرخات أسونتا وهي تطلب النّجدة. ثمّ ما لبث صوتها أن خمد؛ وانقلبت الصّرخاتُ أنّاتٍ؛ وفي اليوم التالي، وبعد ليلةٍ من الرّعب والقلق جرُؤت زوجة فاسيلي على الخروج، وأعلمت القاضي ففتح البابَ. وجدوا أسونتا، وقد احترق نصف جسدها، ولكنّها لا تزال تتنفّس؛ وقد كُسرت أقفال الخزانات، واختفت النّقود. أمّا بينيديتو، فقد غادر روغليانو، ولم يعد إليها قطّ؛ ومنذ ذلك اليوم ما رأيته، ولا حتّى سمعت عنه خبرًا.

«وبعد تلك الحوادث الرّهيبة، قصدتُك يا صاحب السّعادة. وما كانت ثمّة حاجة لأن أذكر لك بينيديتو ما دام قد اختفى، ولا أختي لأنّها ماتت».

سأله الكونت مونت كريستو: - وما قولُك فيما وقع؟

- أقول إنّها عقوبة الجرم الذي اقترفتُه. آه! إنّ آل فيلفور أولئك تجري في عروقهم اللّعنة.

أمّن الكونت على كلام برتوتشو هامسًا بصوتٍ كئيب: - بلى، ذلك ما أعتقد.

استأنف برتوتشو الكلام: - والآن، هل أدركت يا صاحب السّعادة لمَا هذا المنزل الذي لم أعُد إليه منذ تلك الواقعة، وهذه الحديقة التي وجدتُ نفسي فيها بغتةً، وهذا الموضع الذي قتلت فيه رجلًا، قد خلّفت جميعًا في نفسي كلّ هذه العواطف الكئيبة التي ودِدتَ أن تعرفَ مصدرها؛ فمن يدري قد يكون السيّد دو فيلفور راقدًا الآن تحت قدميَّ، في الحفرة التي كان قد حفرها لابنه.

قال مونت كريستو وهو يقوم من مقعده: - الحقّ أنّ كلّ شيءٍ واردٌ؛ (ثمّ أضاف هامسًا) بما في ذلك ألّا يكون وكيل الملك قد مات. لقد أحسن الرّاهب بوزوني صنعًا إذ بعث بك إليّ. وأحسنت صنعًا إذ قصصت عليّ حكايتك، فهكذا لن تظلّ في نفسي ريبةٌ منك. أمّا ذلك

الاسمُ على غير مسمّى: بينيديتو، فهل حاولت أن تتقصّى أثره؟ ألم تحاول معرفة ما كان من أمره؟

– كلّا، ولو علمتُ مكانَه، لما قصدتُه، وإنّما كنتُ لأفُرَّ منه كما يُفرُّ من الطّاعون. كلّا، لحسن الحظّ لم يصادفني ذكره أبدًا. أتمنّى أن يكون قد مات.

قال الكونت: – لا تأمَل؛ إنّ الأشرار لا يموتون ببساطةٍ، لأنّ الربّ، على ما يبدو، يرعاهم ليجعل منهم أداةَ انتقامه.

قال مدبّر المنزل: – لتكن مشيئةُ الرّب. إنّما أطلب أنا شيئًا واحدًا: ألّا أراه ما حييت. (ثمّ واصل خافضًا رأسَه): الآن، قد صرت تعلم كلّ شيء يا سيّدي الكونت؛ أنت قاضيَّ في هذه الدنيا، مثلما سيكون الربُّ قاضيَّ هناك في السّماء؛ ألن تمنّ عليَّ بكلام يريحني؟

– إنّك محقّ، أستطيع أن أقول لَك، ما سيقوله الأب بوزوني: إنّ الرّجل الذي طعنتَه، أي فيلفور، يستحقّ عقابًا على ما فعله بك، وربّما أيضًا على ما فعله بغيرك. أمّا بينيديتو، إن كان لا يزال حيًّا، فإنّه سيكون آلةَ انتقامٍ إلهيّ، ثمّ يُعاقَب بدوره. أمّا أنت يا برتوتشو، فلا جريرةَ تُلامَ عليها سوى واحدة؛ سَل نفسكَ لِمَاذا، بعد أن خلّصتَ الصبيَّ من براثن الموت، لَم تُعده إلى أمّه: ذاك جرمك الوحيدُ يا سيّد برتوتشو.

– أجل يا سيّدي، ذاكَ هو جُرمي، وإنّه لجرمٌ فعليّ، لأنّي كنتُ جبانًا. لمّا أعدتُ الرّضيع إلى الحياة، لم يكن عليّ أن أفعل إلا شيئًا واحدًا، أن أفعل ما قُلتَه أنتَ، أن أردَّه إلى أمّه. لكن، لكي أتمكنّ من ذلك، كان لزامًا عليّ القيام بأبحاث، فأثير الانتباه إليّ، ولربّما سلّمت نفسي؛ لم أكن أرغب في الموت، وكنت أتشبّث بالحياة بسبب أختي، وبسبب تلك الرّغبة التي تعتمل في نفوسنا نحن البشر، رغبة أن يكون انتقامنا كاملًا: أن ننتصر ونظلّ سالمين؛ ومن يدري، لربّما كنتُ في نهاية المطاف أتشبّث بالحياة حبًّا في الحياة نفسها. أوه! أنا لست شجاعًا كما كان أخي!

أخفى برتوتشو وجهه بين يديه، ورمقه مونت كريستو بنظرة طويلة لا يُسبر غورُها.

ثمّ بعد لحظة صمتٍ، زادها الوقتُ والمكان مهابةً، قال الكونت بنبرة شجيّة ليست مألوفةً منه:

– حتّى ننهيَ كما يليق هذا الحديث الذي لن نعود إليه مرّة أخرى، احفظ كلامي هذا جيّدًا يا سيّد برتوتشو، كلامي الذي سمعتُه مرارًا من الأب بوزوني نفسه: لكلّ داء علاجان، الزمن والصّمت. والآن يا سيّد برتوتشو، دعني أتجوّل وحيدًا للحظةٍ في هذه الحديقة. إنّ ما يشكّل بالنّسبة إليك، أنت المشارك في الواقعة الرّهيبة، إحساسًا أليمًا؛ سيشكّل بالنّسبة إلي شعورًا يكاد يكون عذبًا، شعورًا يُضاعف عندي قيمةَ المكان. فقد اشتريتُ حديقةً، حسبتُها مجرّد قطعة أرضٍ مسوّرة، وإذا هي تتحوّل بغتةً إلى حديقةٍ ملأى بالأشباح التي لم يَرِد ذكرُها في عقد البيع. على أنّي أحبّ الأشباح، فلم يسبق أن سمعت أنّ الأموات قد فعلوا في ستّة آلاف سنةٍ، ما يفعله البشرُ، من شرورٍ، في يومٍ واحد. عُد إذًا يا سيّد برتوتشو، اذهب لتنامَ هانئًا. وإن كان القسّ الذي سيشهد احتضارك أقلّ تسامحًا من القسّ بوزوني، فاطلُبني إن كنتُ لا أزالُ حيًا، لأقول لك كلماتٍ تهدهدُ روحك في اللّحظة التي تكون فيها متأهّبةً لخوض ذاك السّفر الشّاق الذي نسمّيه الأبدية.

انحنى برتوتشو تحيّةً للكونت، ثمّ ابتعد مطلقًا زفرة.

ظلّ الكونت بمفرده. تقدّم خطواتٍ وهمس مناجيًا نفسه: – هنا، قرب شجرة الدلب هذه، الحفرة التي وُضع فيها الطّفل؛ وهناك، الباب الصّغير الذي نلج منه إلى الحديقة؛ وعند تلك الزّاوية، الدّرج الخفيّ المؤدّي إلى غرفة النّوم. لا أظنّني أحتاج إلى أن أسجّل كلّ هذه المعلومات، لأنّ هنا أمام عينيّ، وحولي، وتحت قدميّ، التصميمُ الدّقيق، التّصميم الحيّ.

وبعدما قام الكونت بجولةٍ أخيرة في حديقته، قصد عربته؛ أمّا

برتوتشو، الذي كان يتابع سيّده السّرحانَ، فقد صعد، من دون أن ينبس بكلمةٍ، إلى جانب الحوذي.

وسلكت العربة مجدّدًا طريق باريس.

وفي المساء نفسه، ما إن وصلوا إلى منزل الشانزيليزيه، حتّى زار الكونت كلّ مرافق المكان، كما يمكن أن يفعل رجلٌ عاش فيه سنواتٍ طوالًا. كان يسير في المقدّمة، ولا مرّةَ فتح بابًا بالخطأ، أو صعد درجًا أو سلك مسلكًا يوصله إلى موضع غير الموضع الذي كان يقصده. وكان عليٌّ رفيقَه في هذا التفقّد اللّيليّ. أصدر الكونت أوامر عديدة لبرتوتشو، بخصوص مَرافق البيت وغرفه، ثمّ أخرج ساعتَه وقال للخادمّ النّوبيّ:

- إنها الحادية عشرة، وهايدي على وصولٍ. هل أعلمت الوصيفات الفرنسيات؟

أشار عليٌّ بيده إلى الجناح المخصّص للجميلة الإغريقية، وكان معزولًا تمامًا وبابه محجوبًا ببساطٍ، بحيث يمكن أن يزور المرء المنزل بأكمله من غير أن يشكّ في أنّ ثمّة خلف البساط صالونًا وغرفتين مشغولتين؛ قلنا إنّ عليًّا قد أشار بيده إلى الجناح، وبسط ثلاثة أصابع إشارةً إلى الرّقم ثلاثة، ثمّ أسند وجهه مائلًا إلى كفّه، وأغمض عينيه إشّارة إلى النّوم.

قال الكونت المعتادُ على تلك اللّغة: - آه! هنّ ثلاثٌ ينتظرن في غرفة النّوم، أليس كذلك؟

حرّك عليٌّ رأسه من الأعلى إلى الأسفل علامة التّأكيد.

واصل الكونت: - ستكون السيّدة متعبةً، ولا بدّ أنّها تريد النّوم؛ جنّبوها الكلامَ. على الوصيفات الفرنسيات أن يكتفين بتحيّة سيّدتهنّ، ثمّ ينصرفن؛ واحرص على ألّا تتواصل الوصيفة الإغريقية مع الوصيفات الفرنسيات.

وما لبثَ أن سُمع نداء البوّاب؛ وفُتح الباب الحديدي، وسارت عربةٌ

في الممشى، ثمّ توقّفت عند العتبة. نزل الكونت؛ كانت البوابة مفتوحةً؛ مدّ يده إلى شابةٍ جميلة تتلفّع بعباءة حريرية خضراء موشّاة بالذّهب تغطّي رأسها.

أمسكت الشّابة اليد التي مُدّت إليها، ثمّ قبّلتها بحبٍ يمازجُه الاحترامُ؛ وتبودلت كلماتٌ، رقيقة من طرف المرأة، وعذبة ورزينة من جهة الكونت؛ كلمات بتلك اللغة الرنّانة التي أنطق بها الشّيخُ هوميروس أفواهَ آلهتِهِ.

ثمّ إنّ السّيدة الشّابة، التي لم تكن سوى اليونانية الحسناء، صديقة الكونت مونت كريستو بإيطاليا، اقتيدت إلى مقرّها، يسبقها عليٌّ حاملًا مشعل شمعٍ ورديًا؛ ثمّ انسحب الكونت إلى الجناح الذي اختصّ به نفسَه.

وبعد منتصف الليل بنصف ساعة، انطفأت كلّ الأنوار بالمنزل، وصار بالإمكان القول إنّ الجميع نيام.

46

الرّصيد اللامحدود

في اليوم التالي، حوالى السّاعة الثانية بعد الزوال؛ توقّفت أمام بيت الكونت مونت كريستو عربةٌ يجرّها حصانان إنجليزيان رائعان؛ رجلٌ في ثيابٍ زرقاء، مزرّرة بأزرار من حريرٍ من نفس اللّون، وسترة تحوطها سلسلةٌ ذهبية عظيمة، ويرتدي سروالًا بندقيّ اللّون؛ شعرُه أسودُ مرسلٌ حتّى ليكاد يغطّي حاجبيه، ويوشك المرءُ أن يظنَّ أنّه شعرٌ طبيعيٌ لو لا أنّه يتباينُ مع التّجاعيد التي عجز الرّجل عن إخفائها. إنّه رجلٌ بين الخمسين والخامسة والخمسين من العمر، يحاول أن يبدوَ في الأربعين. أطلّ برأسه من باب العربة التي رُسم عليها تاجُ بارون، وأرسل خادمه يسأل البوّاب عمّا إذا كان الكونت مونت كريستو موجودًا.

في انتظار الردّ، أخذ الرّجلُ يتفحص بعناية بالغة، حتّى لكادت تصير وقاحةً، المنزلَ من الخارج، وما يمكن رؤيتُه من الحديقة، وكسوة بعض الخدم الذين يمكن أن يُلمحوا وهم يتحرّكون. كانت عينُ الرّجل متيقّظةً، لكن في اتّجاه المكر لا الذّكاء. وكانت شفتاه رقيقتين، إلى درجة أنّهما تنسحبان إلى داخل فمه بدلًا من أن تطلاّ على الخارج؛ ثمّ، إن عظمتا الوجنتين البارزتين العريضتين، علامة مؤكّدة على طبيعة الخدّاع، والجبين المضغوط والقذال المنتفخ الذي يتجاوز أذنيه الأرستقراطيّتين، كلّ ذلك يتضافر ليصنع سيماءً منفّرةً لهذا الشّخص الذي قد يجدُ فيه بعضُ السّوقة جاذبيةً، بفضل الحصانين الرّائعين، والألماسة الهائلة التي تزيّنُ قميصه، والشّريط الأحمر الذي يمتدّ من عروةٍ إلى أخرى، على امتداد زيّه.

دقّ صبيُّه على زجاج البوّاب وسأله:
- أليس هذا بيت الكونت مونت كريستو؟
أجابه البوّاب: - بلى، إنّ صاحب السّعادة يسكن هنا؛ لكن...
ثمّ استفسر عليًّا بنظرةٍ، فأشار له عليّ إشارة نفيّ.
سأل الصبيُّ: - ولكن...؟
قاطعه البوّابُ: - ولكنّ زيارة صاحب السعادة غير ممكنة.
- في هذه الحال، هاكَ بطاقة زيارة سيّدي: البارون دانغلار. قدّمها إلى الكونت مونت كريستو، وقُل له إنّ سيّدي عرَّج عليه في طريقه إلى المجلس، ليحظى بشرف مقابلته.
قال البوّابُ: - أنا لا أستطيع الحديث مع صاحب السّعادة، خادمُه سيتكلّف بالأمر.
ثمّ عاد الخادم إلى العربة.
سأله دانغلار: - ماذا إذًا؟
كان الخادم تقريبًا يجرُّ أذيال العار من الدّرس الذي تلقّاه، وأخبر سيّده بجواب البوّاب.
فقال السيّد: - أوه! أميرٌ إذًا هذا السيّد الذي ينادونه صاحب السّعادة، ولا يستطيع أن يتحدّث إليه إلا خادمُه؛ لا يهمّ، فما دام لديه رصيد عندي، فلا شكّ في أنّي سأقابله حين يعوزه المال.
ثمّ إنّ دانغلار انكفأ داخل عربته، صائحًا في الحوذيّ بحيث كان من الممكن سماع صوته من الجهة الأخرى للطّريق:
- إلى مجلس النّواب!
وعبر مَطَلٍّ من جناحه، كان الكونت مونت كريستو، الذي أُخطِر في الوقت المناسب، قد راقب البارون، وتفحّصه، بواسطة منظارٍ جيّد، متمعّنًا فيه تمعّنا لا يقلّ عن ذاك الذي كان دانغلار قد فحص به المنزل والحديقة وكسوة الخدم.

قال بنبرةٍ تنضح قرفًا، وهو يعيد المنظار في غمده العاجيّ: - قطعًا، إنّه مخلوقٌ بشعٌ هذا الرّجل. أليست تُعرفُ الحيّةُ بالجبهة المسطّحة، والعُقابُ بالجمجمة المنتفخة، والطّائرُ الحوّامُ بالمنقار الحادّ؟ ثمّ صاح: «عليّ!»؛ ودقّ الجرّس النّحاسيّ مرّةً، فظهر علي. قال الكونت: «نادي برتوتشو يا علي».

وفي اللحظة نفسها دخل برتوتشو.

قال المدبّر: - هل طلبني صاحب السّعادة؟

- أجل. هل رأيت الحصانين اللذين توقّفا منذ قليل أمام منزلي؟

- أجل يا سيّدي، إنّهما غايةٌ في الجمال.

قال مونت كريستو وهو يهزّ حاجبه: - كيف، وقد طالبتك بأروع أحصنةٍ في باريس، أرى في باريس حصانين آخرين لا يقلّان روعةً عن أحصنتي، وليسا في إسطبلي؟

تقطيبة حاجبيّ الكونت ونبرةُ صوته القاسية دفعت عليًّا إلى أن يخفض رأسَه.

قال الكونت مخاطبًا عليًا باللّغة العربية، وبرقّة لا يتوقّعها المرءُ في صوته ولا في وجهه: - ليست غلطتك يا عليّ الطّيب؛ أنت لا خبرة لك بالخيول الإنجليزية.

استعادت ملامح عليّ وَداعتها.

أجابه برتوتشو: - سيّدي الكونت، إنّ الحصانين اللذين تقصدهُما ليسا للبيع.

هزّ مونت كريستو كتفيه، وقال: - اعلم يا سيّدي مدبّر المنزل، أنّ كلّ شيء للبيع؛ كلّ شيء يمكن أن يُباع لمن يعرف كيف يقدّر ثمنه.

- لقد اشترى السيّد دانغلار الحصانين بستّة عشر ألف فرنك، يا سيّدي الكونت.

- كان عليك إذًا أن تعرض عليه اثنين وثلاثين ألفًا؛ إنّه مصرفيٌّ، والمصرفيّ لا يضيع البتّة فرصةَ مضاعفة رأسماله.

سأله برتوتشو: - هل سيّدي جادٌ في كلامه؟

نظر الكونت إلى مدبّر منزله نظرةَ المندهش من جرأته على طرح هذا السّؤال.

قال: - لديّ زيارةٌ أقوم بها هذا المساء؛ أريد أن أجد الحصانين مشدودين إلى عربتي، وعليهما عُدّة جديدة.

انسحب برتوتشو محيّيًا؛ لكن لمّا بلغ الباب توقّف.

قال: - في أيّ ساعةٍ ينوي صاحب السّعادة القيام بزيارته تلك؟

أجابه مونت كريستو: - في الخامسة.

أجاب برتوتشو مجازفًا: - أنبّه عناية صاحب السّعادة إلى أنّ السّاعة الآن الثانية.

اكتفى الكونت بأن قال: - أعرف!

ثمّ استدار شطر عليّ، وقال: - اعرض الخيول كلّها على السيّدة، وقُل لها أن تختار ما يناسبها لعربتها، وأن تخبرني عمّا إذا كانت تريد العشاء معي: في هذه الحال، قدّم الطّعام في جناحها؛ هيّا؛ وعند عودتك أرسل إليّ الخادم.

وما كاد عليّ يختفي حتّى ظهر الخادم.

قال الكونت: - سيّد باتيستان، مرّ عامٌ منذ التحاقك بخدمتي؛ وهي المدّة التي أختبر فيها خدمي عادةً: إنّك مناسبٌ لخدمتي.

انحنى باتيستان.

- بقي أن أعرف، هل أناسبك أنا.

أجاب باتيستان متلهّفًا: - أوه! يا سيّدي الكونت.

قاطعه الكونت: - انتظر أن أنهي كلامي. إنّك تكسب في السّنة ألفًا وخمسمائة فرنك، أي ما يعادل راتب ضابطٍ أمين وشجاع، ضابطٍ يخاطر بحياته كلّ يوم؛ لديك مكتبٌ يتمنّى مثلَه كثير من رؤساء المصالح، أولئك التّعساء المشغولون على الدّوام، وعلى الرّغم من أنّك خادمٌ إلّا أنّ لك

خدمًا يعتنون بملابسك وحوائجك. وفضلًا عن الألف وخمسمائة فرنك التي تربحها في السّنة، تختلس من النّقود التي تشتري بها أدوات زينتي، ما يقاربُ ألفًا وخمسمائة فرنكٍ أخرى في السّنة.

- أوه! يا صاحب السّعادة!

- لستُ أتذمّرُ يا سيّد باتيستان، ما تفعله يبقى في حدود المعقول؛ غير أنّي أريد أن يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ. لن تجد في أيّ مكانٍ وظيفةً كهذه التي قادك حظّك السّعيد إليها. لا أضرب خدمي، ولا أشتمهم، ولا أغضب، وأسامح الأخطاء لكن لا أتسامح مع الإهمال أو النّسيان. أوامري بالعادة وجيزةٌ، لكنّها واضحةٌ ودقيقة؛ أفضّل أن أكرّرها مرّتين، أو ثلاثةً، على أن تؤوّلَ تأويلًا خاطئًا. أنا غنيٌّ بما يكفي لأعرف كلّ ما يعنُّ لي أن أعرفَه، وأنا شديد الفضول، أنبّهك إلى هذا الأمر. فإن علمتُ أنّك تكلّمت عنّي، إن خيرًا أو شرًّا، أو علّقت على أفعالي، أو راقبت سلوكي، فسوف تخرج على الفور من بيتي. لا أنذرُ خدمي إلا مرّةً واحدةً؛ وها قد أنذرتُك، هيّا انصرف!

انحنى باتيستان، وخطا خطوتين أو ثلاثًا وهو ينسحب.

فاستأنف الكونت الكلام: - بالمناسبة، نسيت أن أخبرك بأنّني أودع كلّ سنةٍ مبلغًا من المال لخدمي، من يغادرونني يخسرونَه، ومن يبقون سوف يتقاسمونَه بعد وفاتي. ها قد مرّت سنةٌ على التحاقك بخدمتي، وها قد بدأت ثروتُك، فلتُنمِّها.

إنّ ما ذكرَه الكونت، لم يُحدث أيّ أثرٍ في عليّ، إذ إنّ الخادم النّوبيّ لا يفقه في الفرنسية كلمةً، لكنّه أحدث في باتيستان أثرًا سيفهمه أولئك الذين درسوا سيكولوجيا الخادم الفرنسيّ.

قال الخادم: - سأحرص على الالتزام بكّل كلمة قلتها يا صاحب السّعادة؛ ثمّ إنّي سأتّخذُ السيّد عليًا نموذجًا أحتذيه.

قال الكونت ببرودة كالرّخام: - أوه! كلّا، إنّ للسيّد عليّ الكثير من

العيوب؛ لا تتّخذ عليًا نموذجًا، فعليّ استثناء، هو لا يأخُذ أجرًا، فهو ليس خادمي وإنّما هو عبدي، كلبي، وإن أخلّ بواجبه لن أطردَه، وإنّما سأقتله.

جحظ باتيستان مذهولًا.

قال الكونت: - هل تشكّ فيما أقول؟

ثمّ إنّه أعاد على مسمع عليٍّ نفس الكلام الذي قاله بالفرنسية لباتيستان.

أنصت عليٌّ لكلام سيّده، وابتسم، ثمّ جثا على ركبته وقبّل يد الكونت بتبجيل.

بلغ ذهول باتيستان منتهاه، فأشار له الكون أنِ انصرف، ولعليّ أنِ اتبعني. انتقلا معًا إلى المكتب، وهناك تحدّثا مطوّلًا.

في السّاعة الخامسة رنّ الكونت ثلاث مرّاتٍ جرسَه. رنّةٌ لعليّ، ورنّتان لباتيستان، وثلاث لبرتوتشو.

دخل المدبّرُ.

قال الكونت: - حصانيَّ!

أجاب برتوتشو: - إنّهما مقيّدان إلى العربة يا صاحب السّعادة. هل سأرافقك يا سيّدي الكونت؟

-كلّا، سيرافقني الحوذيّ وباتيستان وعليّ، وهذا كلّ ما في الأمر.

نزل الكونت، ورأى عربته وقد شُدّ إليها الحصانان اللذان أُعجب بهما صباحًا، حين رآهما مشدودين إلى عربة دانغلار.

ولمّا مرّ بقربهما، ألقى عليهما نظرةً، وقال: - إنّهما حقًّا جميلان! أحسنتَ صُنعا إذ اشتريتهما، وإن تأخّرتَ في ذلك.

قال برتوتشو: - لقد اقتنيتُهما بمشقّةٍ يا سيّدي الكونت، وكلّفاك غاليًا.

سأله الكونت وهو يهزّ كتفيه: - أليسا جميلين على الأقل؟

أجابه برتوتشو: - إن رضيتَ يا صاحب السّعادة، فالدّنيا ترضى. إلى أين مقصدُك يا صاحب السّعادة؟

إلى شارع شوسيه دانتان، عند السيّد البارون دانغلار.

كان حديثهما ذاك يجري أعلى عتبات المنزل؛ وخطا برتوتشو خطوةً نازلًا أولى العتبات، فاستوقفه الكونت:

- مهلًا يا سيّد برتوتشو. أحتاج أرضًا على شاطئ البحر، بمنطقة النورماندي، لنقُل على سبيل المثال: بين لوهافر وبولونيا. لديك متّسع من الفضاء، كما ترى. وينبغي أن يشتمل هذا المِلكُ على ميناء صغير، وخليج صغيرٍ حيث يمكن أن ترسُوَ حرّاقتي[1]؛ فهي تحتاج خمس عشرة قدمًا من العمق. وينبغي أن تبقى دائمًا على أهبة الانطلاق، ليلًا أو نهارًا، بحيث متى ما أعطيتُها الإشارة تنطلق. اسأل كلّ الموثّقين عن عقارٍ بهذه المواصفات؛ وحين تجدُه، اذهب لمعاينته، فإن أعجبك اشتره باسمِك. لا بدّ أنّ حرّاقتي في طريقها الآن إلى فيكامب (النورماندي)، أليس كذلك؟

- بلى يا صاحب السّعادة، في اللّحظة نفسها التي تركنا فيها مرسيليا، حرصتُ على أن تنطلق هي مبحرةً.

- واليخت؟

- اليخت، لا يزالُ راسيًا في مارتيج (فرنسا) كما أمرتَ.

- حسنًا! تَواصَل بين الفينة والأخرى مع القائدَين المسؤولين عنه، حتّى لا يغفلا.

- والمركبُ البخاريُّ؟

- الموجود في شالون (فرنسا)؟

- نعم.

- نفسُ ما أمرتُ به بالنّسبة للمركبَيْن الشّراعيَّين.

---

(1) الحرّاقة أو الفرقيطة، سفينة حربية دون الفرقاطة وفوق القوارب الدورية، تمتاز بالسّرعة والقدرة على المناورة.

- حسنًا!

-ما إن تشتري العقار الذي أخبرتُك به، سوف أقوم بجولتين على نطاق عشرة أميالٍ، في طريق الشّمال، وفي طريق الجنوب.

- بإمكانك الاعتماد عليّ يا صاحب السّعادة.

أشار الكونت إشارة رضا، ونزل الدرجات، وقفز في عربته، فمشى فانطلق به الحصانان الرّائعان عدوًا، ولم تتوقّف العربة حتّى بلغت منزل المصرفيّ.

كان دانغلار يترأسّ مجلسًا عُقد للتباحث في شأن سكّة حديد، حين أُعلم بزيارة الكونت مونت كريستو. وقد كانت الجلسة على وشك الانتهاء، فلمّا أُعلمَ بوصول الكونت، قام مخاطبًا الحضور، ومعظمهم من الشّخصيات المعتبرة في هذه الوزارة أو تلك:

- سادتي، عفوًا لأنّي مضطرٌ إلى أن أستأذن منكم على هذا النّحو؛ لكن تصوّروا أنّ مؤسّسة **طومسون وفرانش** قد وجّهت إليّ شخصًا يُسمّى الكونت مونت كريستو، وفتحَت له حسابًا لا محدودًا. وهي أكبر دعابة سمحَ شركائي الأجانب لأنفسهم بها تُجاهي. لعمري إنّ الفضول قد أخذ منّي كلّ مأخذٍ؛ فمررت اليوم على الكونت المزعوم في منزله. إن كان الرّجلُ كونتًا بالفعلِ، فلابدّ أنّه ليس غنيًّا. لكنّ الرّجل قال إنّه لا يقابل أحدًا. فما قولكم في هذا؟ أليس السيّد مونت كريستو يتصرّفُ كأصحاب الجلالة أو النّساء الجميلات. على العموم، منزله الواقع بالشانزيليزيه بدا لي جيدًا. ولكن (أضاف ضاحكًا بابتسامته الشّنيعة) حين يتعلّق الأمر برصيد لا محدود، فلا يمكن للمصرفيّ إلّا أن يكون متطلّبًا. ربّما لا يعرفون هناك، مع من يتعاملون؛ يضحك كثيرًا من يضحك أخيرًا.

وبعدما أنهى البارون كلماته تلك التي فخّمها حتّى انتفخَ لها منخاراه، ترك ضيوفه وانتقل إلى صالون أبيض-ذهبيّ، ذاك الصالون الذي كان موضع الأحاديث في شارع لاشوسيه دانتان.

وكان ذاك الموضعَ الذي أمر بأن يُدخَل إليه الزائر، حتّى يُبهرَه من الوهلة الأولى.

كان الكونت واقفًا يتأمّل نسخًا من أعمال ألباني وفاتورّي[1]، قد اقتناها المصرفيُّ ظنًّا منه أنّها أصلية، وبغضّ النّظر عن كونها نسخًا مقلّدةً، فإنّها كانت لا تتناغم مع أزهار الهندباء الذّهبية المتعدّدة الألوان التي تزيّن السّقف.

وللوقع الذي صدر عن دخول دانغلار، استدارَ الكونت.

حيّا دانغلار بتحيّة خفيفةٍ من رأسه، وأشار إلى الكونت بأن يجلس على الأريكة الخشبيّة المذهّبة والمغطّاة بثوب السّاتان الأبيض الموشّى بالذّهب.

جلس الكونت.

- هل السيّد مونت كريستو نفسه هو من أتشرّف بالحديث إليه الآنَ؟

أجابه مونت كريستو: - وهل من أتشرّف بالحديث إليه أنا، هو السيّد البارون دانغلار، فارس جوقة الشّرف، وعضو مجلس النّواب؟

تلا مونت كريستو كلّ الألقاب المكتوبة على بطاقة الزيارة الخاصّة بالبارون.

أحسّ دانغلار بالصّفعة، فعضّ شفتيه.

قال متداركًا: - عذرك يا سيّدي لأنّي لم أناديك من البداية بلقبك الذي أُعلمت به؛ لكن كما تعلمُ، نحنُ نعيش تحت حكم حكومةٍ شعبية، وأنا ممثّلٌ لمصلحة الشّعب.

أجاب مونت كريستو: - بحيث نزعتَ الألقاب عن الآخرين، واحتفظتَ لنفسك بلقبك.

أجاب دانغلار باستخفاف: - آه! لستُ أهتمُّ أصلًا لهذا اللّقب يا

---

(1) هما على الأرجح الرسّامان الإيطاليّان فرانتشيسكو ألباني وجوفاني فاتورّي.

سيّدي؛ لقد منحوني لقب بارون ووسام جوقة الشّرف لخدماتٍ أسديتُها، لكن...

- ولكنّك تنازلت عن ألقابك، مثلما فعل السيّدان مونمارنسي ولافاييت؟ إنّهما نموذجان يستحقّان أن يُحتذى بهما.

قال دانغلار منزعجًا: - ليس كذلك تمامًا؛ لكن بالنّسبة للخدم، كما تعلم...

- نعم، تتّخذ لقب «سيّدي» مع خدمك ورجالك؛ ومع الصحافيّين «السيّد دانغلار»، ومع مفوّضيك «مواطن». إنّها فروقٌ لطيفةٌ تناسبُ تمامَ المناسبة الحكمَ الدّستوريّ. أتفهّمك تمامًا.

عضّ دانغلار شفتيه. أدرك أنّه لن يستطيع مقارعة الكونت في هذا المضمار، فحاول الرّجوع إلى المضمار الذي يتقن اللّعب فيه.

قال منحنيًا: - سيّدي الكونت، لقد توصّلتُ برسالة إخطار من مؤسّسة طومسون وفرانش.

- يسعدني ذلك يا سيّدي البارون. واسمح لي أن ألقّبك كما يلقّبك رجالُك، فهذه للأسف عادةُ بلداننا التي لا يزال يسود فيها لقب بارون، ربّما لأنّها لم تعد تصنع بارونات. يسعدني ذلك يا سيّدي البارون، إذ لن أحتاج إذًا إلى تقديم نفسي بنفسي، وهو أمرٌ دائمًا ما يكون محرجًا. قلت لي إذًا إنّك تلقّيت رسالةَ إخطارٍ؟

- نعم؛ لكنّي لا أخفيك أنّني لم أفهم معناها جيّدًا.

- باه!

- حتّى إنّني تشرّفت بالمرور على منزلك لأسألك بعض الشّروح.

- تفضّل يا سيّدي، ها أنا أمامك، ومستعد لأن أسمعك.

قال دانغلار: - إنّ هذه الرّسالة التي أحملها معي (أخذ يتفحّص جيوبه). أجل، ها هي: هذه الرّسالةُ، تفتحُ للسيّد الكونت مونت كريستو رصيدًا لا محدودًا في مؤسّستي.

- طيّب، ما الذي تراه غير واضح في الرّسالة يا سيّدي البارون؟
- لا شيء، يا سيّدي، باستثناء كلمة **لا محدود**..
- أليست الكلمة فرنسية؟ فكما تعلم إنّ كتبَة الرّسالةِ أنجلو-ألمانيّون.
- أوه! لُغويًا لا مشكل في الكلمة، لكن المشكل في الحسابات.
قال مونت كريستو متصنّعًا السّذاجة ما أمكنه: - هل **طومسون وفرانش** مؤسّسة غير موثوقة؟ إن كان الأمر كذلك فهذه مشكلة يا سيّدي البارون، لأنّني وضعت عندهم بعض المال.
أجاب دانغلار بابتسامة شبه ساخرة: - بلى، هم موثوقون جدًا؛ لكن كلمة **لا محدود** تظلُّ في مجال المال كلمةً فضفاضةً جدًا.
قال مونت كريستو: - فضفاضة بشكلٍ **لا محدود**، أليس كذلك؟
- هذا ما قصدتُه بالفعل يا سيّدي. ومن يقول **فضفاضًا** يقولُ **شكًّا**، وعلى رأي الحكيم: حين تشكُّ امتنِعْ.
قال مونت كريستو: - ممّا يعني أنّ في حال أقدمت مؤسّسة **طومسون وفرانش** على ارتكاب حماقةٍ، فإنّ مؤسّسة **دانغلار** لن تتبعها في حماقتها.
- كيف يا سيّدي الكونت؟
- طبعًا، فلا شكّ أنّ السيّدين **طومسون وفرانش** لا يحصران أعمالهما بأرقام، أمّا السيّد دانغلار فله أرقامٌ لا يتجاوزها؛ إنّ سيّدي البارون حكيمٌ كما قال منذ قليل.
أجاب المصرفيُّ بغطرسة: - سيّدي، لم يسبق لأحدٍ أن أحصى خزائني.
أجاب مونت كريستو ببرودة: يبدو أنّني سأحوز شرف البدء.
- من أوحى لك بهذا؟
- التفسيرات التي تطلبها منّي، والتي لا يمكنني أن أفسّرها إلا باعتبارها تردّدًا...
عضّ دانغلار شفتيه؛ هذه المرة الثانية التي يهزمه فيها هذا الرّجل،

وقد هزمه هذه المرّة في مضمارٍ يعَدُّ مضمارَه. فلم يكن لسخريته المؤدّبة إلّا أن تُتَاخم الوقاحة. أمّا مونت كريستو فكان يبتسم أعذب ابتسامةٍ، ويحافظ على طابعٍ من السّذاجة يوظّفه لصالحه.

قال دانغلار بعد برهة صمت: – طيّب يا سيّدي، سأحاول أن أكون دقيقًا، فأقول لك حدّد المبلغ الذي تريدُه منّي.

أجابه مونت كريستو عازمًا على ألّا يخسر بوصةً من المساحة التي كسبها في مضمار النّقاش: – سيّدي، ما دُمت قد طلبت رصيدًا غير محدودٍ لديك، فمعناهُ أنّي لا أعرفُ المبلغ الذي قد أحتاجه.

ظنَّ المصرفيُّ أنّ وقت الحسم قد حانَ، فتراجع إلى الخلف في مقعده، وبابتسامةٍ متغطرسة ثقيلة قال:

– أوه! لا تتردّد في طلب ما تشتهي يا سيّدي؛ سترى أنّ المبلغ الذي قد تقدّمه مؤسّسة دانغلار، وإن كان محدودًا، يستطيع أن يرضي أيّ متطّلبات، حتّى وإن طلبت مليونًا...

قاطعه مونت كريستو: – فضلًا؟

كرّر دانغلار: – قلتُ مليونًا.

قال الكونت: – وما الذي سأفعله بمليون؟ بحقّ السّماء يا سيّدي، لو كانت حاجتي في مليونٍ لما فتحتُ حسابًا لمبلغ تافهٍ كهذا. مليون؟ أنا دائمًا أحمل مليونًا معي في محفظتي أو لوازم سفري.

ثمّ إنّ مونت كريستو أخرج من دفترٍ صغيرٍ يحوي بطاقات زياراته، صكّين قيمةُ كلّ واحدٍ منهما خمسمائة ألف فرنكٍ، يُدفعان فورًا لحاملهما.

إنّ رجلًا مثل دانغلار لا ينبغي وخزُه، وإنّما ضربُه ضربةً قاضيةً. وقد كانت الضّربة قاضيةً: ترنّح المصرفيّ وأحسّ بالدّوار؛ حدّق في الكونت بعينين مذهولتين، جحظ بؤبؤاهما جحوظًا مرعبًا.

أضاف مونت كريستو: – حسنًا، أعترف، سيّدي البارون، بأنّك لا

تثق بمؤسّسة **طومسون وفرانش**؟ يا إلهي! إنّه أمرٌ طبيعيّ! وقد اتّخذتُ احتياطاتي، على قلّة خبرتي بعالم الأعمال. ها رسالتان أُخريان مماثلتان لتلك التي وُجّهت إليك: إحداهما من مؤسّسة Arestein&Eskoles في فيينا، للبارون دو روتشيلد؛ والثانية من مؤسّسة Baring في لندن، للسيّد لافاييت. اقطع في الأمر يا سيّدي، وسوف أتوجّه إلى هذا أو ذاك.

قضيَ الأمرُ، هُزم دانغلار؛ فتح باضطرابٍ بادٍ رسالتَي ألمانيا ولندن اللتين مدَّهما له الكونت بأطراف أصابعه، وفحص التوقيعين بتمعّن كان ليكون مهينًا للكونت، لولا أنّه على دراية بذهول المصرفيّ.

قال دانغلار، وهو يقف محيّيًا قوّة الذّهب التي تجلّت في الرّجل الجالس أمامه: - أوه يا سيّدي! لديك هاهنا ثلاثة تواقيع تساوي الملايين. ثلاثة أرصدة لا محدودة من طرف مؤسّساتنا الثلاث! لتغفر لي حرصي يا سيّدي الكونت، وهو حرصٌ وإن زالَ لا يزول معه الذّهول.

أجابه الكونت بأدب جمٍّ: - أوه! لا يمكن للذّهول أن يصيب مؤسّسةً بحجم مؤسّستكم! وعليه، سيكون بمقدورك أن تر اليّ بعض النّقود، أليس كذلك؟

- آمر يا سيّدي الكونت؛ أنا بخدمتك!

استأنف الكونت كلامه: - حسنًا إذًا، الآن وقد زال بيننا اللّبس.. لقد زال بيننا اللّبس، أليس كذلك؟

صاح المصرفيُّ: - أوه! يا سيّدي الكونت! لم يكن بيننا أصلًا أيّ لبس!

- كلّا يا سيّدي، إنّما فقط كنتَ تريدُ حجّةً، فأعطيتك حجّةً. الآن وقد زال توجّسك، لنُقل كبدايةٍ إنّني أحتاج، بعد إذنك، كمبلغ عامٍّ للسّنة الأولى: ستّة ملايين.

قال دانغلار مُختنقًا: - لتكن مشيئتك، ستّة ملايين!

أضاف مونت كريستو تلقائيًا: - إن احتجتُ أكثرَ، سأطلبُ؛ لكنّني لا

أنوي البقاء في فرنسا أكثر من سنة، ولا أعتقد أنّني سأتجاوزُ هذا المبلغ في سنة... سنرى على أيّة حال... أرجو أن ترسل إليّ بدايةً خمسمائة ألف فرنكٍ، سأكون في بيتي حتّى منتصف النّهار، فإن لم أكن، فسوف أترك وصلًا عند مدبّر منزلي.

ستصلُك النّقود غدًا مع السّادسة صباحًا. هل تريدها في شكل ذهبٍ أم أوراق نقدية، أم قطعًا نقدية؟

- أريد نصفها ذهبًا ونصفها الآخر أوراقًا نقديّة، رجاء.

ثمّ قام الكونت.

قال دانغلار: - أودّ أن أعترف لك بأمرٍ يا سيّدي الكونت؛ كنت أظنّني محيطًا بكلّ الثروات الهائلة في أوروبا، لكنّني اكتشفت أنّني أجهل ثروتك، مع أنّها تبدو ثروةً معتبرة؛ هل هي ثروة حديثة؟

- بل قديمةٌ جدًا، إنّها أشبه شيءٍ بكنزٍ عائليٍّ كان ممنوعًا علينا مسّهُ، فتراكمت أرباحه وتضاعف رأسماله؛ ومنذ بضع سنواتٍ فقط انتهى أمد الوقف الذي حدّده الواصي: منذ سنواتٍ قليلةٍ إذًا بدأتُ أستعمل ثروتي، فلا غرابة في جهلك بها. ثمّ إنّ الأيام القليلة القادمة ستبدي لك ما كنت تجهله.

وصاحبَ كلماته تلكَ ابتسامةً من تلك الابتسامات الشّاحبة التي كانت تُفزع فرانز ديبيناي.

قال دانغلار: - بذوقك وهمّتك يا سيّدي الكونت، سوف تَنشر في العاصمة رفاهيّةً تسحقُنا بها كلّنا، نحن أصحابَ الملايين البسطاء؛ وبما أنّك تبدو لي من هواة الفنّ، إذ لمّا ذخلت عليك كنت تتأمّل اللّوحات، فإنّي أرجوك أن تسمح لي بإطلاعك على مجموعتي: كلّها لوحاتٌ قديمةٌ، وكلّها لفنّانين مشاهير؛ فأنا لا أحبُّ الفنّانين الحديثين.

- أنت محقّ يا سيّدي، إنّ الفنّانين الحديثين يجمعهم عيبٌ واحدٌ: لم يمنحهم الزمانُ الفرصةَ بعدُ ليصيروا فنّانين قدماء.

- هل لي أن أريك تماثيل من نحت ثوروالدسن، وبارتولوني، وكانوفا، وكلّهم فنّانون أجانب؟ فكما ترى لا يعجبني الفنّانون الفرنسيّون.

- من حقّك ألّا تكون منصفًا تجاههم يا سيّدي، فهم مواطنوك.

- لكن كلّ هذا سنتركه إلى وقت لاحقٍ، بعد أن تتعمّق أواصر المعرفة بيننا؛ أما اليوم، فأريد، بعد إذنك، أن أقدّمك إلى السيّدة البارونة دانغلار؛ واعذرني على تعجّلي سيّدي الكونت، لكنّ زبونًا مثلك يعدّ تقريبًا فردًا من أفراد العائلة.

انحنى مونت كريستو، إشارةً على قبوله دعوة المصرفيّ.

دقّ دانغلار الجرس، فظهر خادمٌ يرتدي ملابس زاهية.

سأله دانغلار: - هل السيّدة البارونة في مخدعها؟

فأجابه الخادم: - أجل، يا سيّدي.

- وحدها؟

- كلّا يا سيّدي، لديها زوّار.

- لن يزعجك أن أقدّمك إلى البارونة في حضرة شخصٍ آخر يا سيّدي الكونت؟ لستَ تخفي هويّتك؟

أجاب الكونت باسمًا: - كلّا يا سيّدي، لستُ أخصّ نفسي بهذا الشّرف.

«من لديها؟ أهو السيّد دُبراي؟»، سأل دانغلار بسذاجةٍ جعلت الكونت مونت كريستو يبتسم داخليًا، إذ اطّلع على سرّ من أسرار بيت المصرفيّ.

أجابه الخادم: - نعم يا سيّدي البارون، إنّه السيّد دُبراي.

أشار المصرفي بإشارة من رأسه، ثمّ استدار نحو الكونت قائلًا:

- إنّ السيّد لوسيان دُبراي صديقٌ منذ أمدٍ طويل؛ وهو السكرتير الشخصيّ لوزير الدّاخلية؛ أمّا زوجتي فإنّها بزواجها منّي قد تنازلت، لأنّها تنتمي إلى أسرة عريقةٍ: إنّها سيّدة من سرفيير، أرملة الكولونيل الماركيز دو نارغون.

- لم أحظَ بشرف لقاء البارونة، لكنّني سبق أن التقيت السيّد لوسيان دُبراي.

قال دانغلار متعجّبًا: - وأين التقيتَه؟

- في بيت السيّد مورسيرف.

- آه! أنت تعرف هذا الفيكونت الصّغير إذًا؟

- نعم لقد التقينا في روما، أيّام الكرنفال.

- آه! بلى، بلى، لعلّي سمعت أشياء عن مغامرةٍ فريدة وقعت له مع عصابة من اللّصوص في إحدى الخرائب! وقد خرج منها بمعجزة. أحسب أنّه حكى لزوجتي وابنتي شيئًا من هذا القبيل عقب عودته من روما.

عاد الخادم قائلًا: - إنّ السيّدة البارونة بانتظار سيادتكما.

فقال دانغلار مخاطبًا الكونت: - اسمح لي بالتّقدم أمامك، لأريَك الطّريق.

- حسنًا سأتبعك.

47

الرّماديّان المدنّران[1]

عبَر البارون، والكونت في إثره، صفًا من المقصورات المميّزة بفخامتها المفرطة وبذخها المبتذل، حتّى بلغا مخدع السيّدة دانغلار، وكان غرفةً على شكل مثمّنٍ، مُدَّت بالسّاتان الورديّ، وغطّاها الشّاشُ الهنديّ؛ وكانت الأرائك من خشبٍ عتيقٍ مذهَّب وقُماشٍ عتيق؛ وفوق الأبواب عُلقت لوحاتٌ على نمط ما يرسمه بوشيه؛ ثمّ لوحتان جميلتان من صباغة الباستيل في إطارين دائريّين، منسجمتان مع باقي الأثاث، ممّا يجعل من مخدع السيّدة المكانَ الوحيد الذي يتّسمُ ببعض الذّوق في المنزل كلّه؛ الحقّ أنّ المخدع قد أفلت من التّصميم العامّ الذي اتّفق عليه البارون دانغلار مع مهندسه المعماريّ، وهو أحد أشهر وأرفع الشّخصيات في الإمبراطورية، ثمّ تكلّفت البارونةُ والسيّد دُبراي بتأثيثه. وكان السيّد دانغلار، بذوقه الميّال إلى العصور القديمة، يشمئزّ من هذا المكان الضّيق، والذي لم يكن مرحبًا به فيه لولا أنّه احتجَّ بتقديم شخصٍ ما إلى البارونة؛ الحقيقةُ إذًا أنّ دانغلار لم يكُن المقدِّمَ، وإنّما كان المقدَّمَ، وكانت البارونة تستقبله بمزاجٍ يراوحُ بين القبول والرّفض بحسب ما إذا كان الشّخص القادمُ معه يروقها أو لا يروقها.

كانت السيّدة دانغلار التي لا يزال جمالها مبعث تقديرٍ، وإن بلغت السّادسة والثلاثين من عمرها، جالسةً إلى البيانو الذي كان تحفةً من

---

(1) الحصان المدنّر، حصانٌ أرقط، به نُكتٌ يخالف لونُها لونَ سائر جلده.

الخشب المطعَّم، بينما السيّد لوسيان دُبراي جالسٌ إلى طاولةٍ يقلّب ألبومًا.

أثناء ذلك وجد لوسيان الوقت ليحكي للبارونة أشياء كثيرةً بخصوص الكونت. ونذكرُ الأثر البالغ الذي خلّفَه الكونت في جلسائه عند مورسيرف؛ ولم يكن ذاك التأثير قد زالَ بعد عن دُبراي، وظهرَ جليًا فيما أمدّ به البارونة من معلومات. بلغ فضول السيّدة دانغلار إذًا منتهاهُ بعد ما أضافه لوسيان من أخبارَ إلى ما كان قد حكاه لها من قبلُ مورسيرف. ولم يكن الجلوس إلى البيانو والألبوم إلا حيلة من تلك الحيل التي يُلجَأ إليها إخفاءً للاهتمام. استقبلت البارونة إذًا دانغلارَ بابتسامةٍ، وهو شيءٌ لم يعتَدهُ منها. أمّا الكونت فقد ردّت على تحيّته بانحناءةٍ احتفالية، لكن باحترامٍ بالغٍ. وتبادل لوسيان مع الكونت تحيّة من سبق أن جمعهما تعارفٌ، ومع دانغلار حركةً فيها حميمية.

قال دانغلار: - اسمحي لي سيّدتي البارونة بأن أقدّم لك الكونت مونت كريستو، الذي وجّهه إليّ عملائي في روما مع أرفع التّوصيات. ليس لي أن أقول عنه سوى كلمة واحدة، وهي كلمة كافية لتجعل منه محبوب النّساء جميعهنّ: لقد جاء إلى باريس بنيّة البقاء فيها سنةً، وأثناء هذه السّنة ينوي صرف ستّة ملايين؛ يترتّب على ذلك سلسلةٌ بأكملها من الحفلات الرّاقصة، ودعوات العشاء، التي أتمنّى ألّا ينسى سيّدي الكونت دعوتنا إليها، مثلما لن ننسى نحن دعوته إلى كلّ حفلة نقيمها.

وعلى الرّغم من أنّ التّقديم كان مدحًا مبتذلًا، إلا أنّ مجيء رجلٍ إلى باريس ليصرف في سنةٍ ثروةَ أميرٍ، كان شيئًا غير مألوفٍ، فرمت السّيّدة دانغلار الكونت بنظرةٍ لا تخلو من اهتمامٍ.

سألته: - ووصلتَ يا سيّدي؟...

- صباح أمس يا سيّدتي.

- وأتيتَ، على ما قيل لي، من أقصى العالم؟

- أتيت هذه المرّة من قادِش (إسبانيا) فقط يا سيّدتي.
- أوه! لقد أتيت في موسم فظيع يا سيّدي؛ إنّ باريس لا تُطاق صيفًا؛ لا حفلات راقصة ولا اجتماعات، ولا احتفالات. الأوبرا الإيطالية تُعرض في لندن، والفرنسية تعرض في كلّ مكانٍ إلا باريس؛ أمّا المسرح الفرنسيّ، فكما تعرف لم يعد يُعرض في أيّ مكانٍ. لم يبقَ لنا من تسليةٍ سوى بعض السّباقات البائسة في مضمار مارس ومضمار ساتوري. هل ستشارك في سباق الخيول يا سيّدي الكونت؟
أجابها مونت كريستو: - أنا يا سيّدتي، سأفعل كلّ ما يفعله النّاس في باريس، وإنّي سعيد لأنّ لديَ من يعلّمني العادات الفرنسيّة، كما يليق.
- أَأنت من عشّاق الخيل يا سيّدي الكونت؟
- لقد قضيت جزءًا من حياتي في الشّرق، وكما تعلمين يا سيّدتي، فإنّ أهل الشرق لا يقدِّرون سوى شيئَين: أصلَ الخيول الكريمَ، وجمالَ النّساء.
قالت البارونة: - آه يا سيّدي! أما كان أَولى بك أن تُقدّم النّساء على الخيل؟
- ها أنت ترين يا سيّدتي، أنّني كنت محقًا حين أبديت رغبتي، قبل قليل، في أن يكون لي معلّمٌ يدلّني على قواعد السّلوك الفرنسيّة.
إذّاك دخلت وصيفةُ البارونة المقرَّبةُ، ودنت من سيّدتها، وأسرّت لها بكلمات.
شحبت السيّدة دانغلار، وقالت: - مستحيل!
أجابتها الوصيفة: - ومع ذلك، هي الحقيقةُ لا غير.
استدارت البارونة شطرَ زوجها، وسألته:
- هل صحيحٌ يا سيّد؟
أجابها متسائلًا وقد بدا عليه اضطرابٌ واضح: - ماذا يا سيّدتي؟
- ما أخبرتني به هذه الفتاة...

- وبماذا أخبرتك؟

- قالت إنّ الحوذي حين أراد أن يربط حصانيَّ إلى عربتي، لم يجدهُما في الإسطبل؛ ماذا يعني ذلك؟ إنّي أسألك.

قال دانغلار: - أصغي إليّ يا سيّدتي.

- أوه! أنا مُصغيةٌ، كلّي فضولٌ لسماع ما ستقوله؛ سأجعل السيّدَيْن قاضيَين بيننا، وسأبدأ بأن أبسط أمامهما الموضوع: سيّدايَ، إنّ للسيّد دانغلار عشرة خيولٍ في إسطبله؛ وبين خيوله العشرة ثمّة اثنان في ملكي؛ حصانان جميلان، أجمل ما في باريس من أحصنة؛ تعرف يا سيّدي دُبراي: حصاناي الرّماديّان المدنّران! حسنًا، في الوقت الذي طلبت فيه منّي السيّدة فيلفور استعارة عربتي، فوعدتُها بأن أعيرها إيّاها لتذهب غدًا إلى الغابة، ها حصاناي قد اختفيا! لا بدّ أنّ السيّد دانغلار قد رأى فيهما ربحَ بضعةِ آلافٍ من الفرنكات، فباعهما. ما أشنعها من فصيلةٍ، فصيلةُ السّماسرة يا إلهي!

أجابها دانغلار: - سيّدتي إنّ الحصانَين كانا سريعَيْن جدًا، ولم يكن عمرهما يتجاوز بعد أربع سنوات. لقد كانا يلقيان في نفسي خوفًا عظيمًا عليك.

قالت له: - أنت تعلم أنّني ألحقتُ بخدمتي، منذ شهرٍ، أفضل حوذي في باريس. إلا إذا كنتَ قد بعتَه هو أيضًا مع الحصانين.

- عزيزتي، سأجد لك حصانين مماثلين، حصانين أجمل، لكن سأشترط أن يكونا وديعين، هادئين، لا يزرعان في نفسي مثل تلك المخاوف.

هزّت البارونة كتفيها بازدراءٍ واضح. بدا أنّ دانغلار لم ينبه إلى ما في حركة زوجته من قلّة احترام، واستدار نحو الكونت قائلًا:

- الحقّ أنّي آسفٌ لأنّي لم أعرفك من قبل يا سيّدي الكونت؛ هل تهيّئُ منزلك؟

- أجل.

- كنت لأبيعك الحصانَيْن. تصوّر أنّي بعتُهما بثمن بخسٍ؛ لكن كما قلتُ، كنتُ أريد التخلّص منهما. هما حصانان يصلحان للشّباب.

أجابه الكونت: - شكرًا يا سيّدي؛ لقد اشتريت هذا الصّباح حصانين جيّدين وبثمنٍ مناسب. اُنظُرْ يا سيّد دُبراي، فأنت من هوّاة الخيل؛ ما رأيك؟

أخذ دُبراي يقترب من النّافذة، بينما دانغلار يدنو من زوجته.

قال لها بصوتٍ خافت: - تصوّري يا سيّدتي أنّ أحدهم قد اقترح عليّ مبلغًا هائلًا مقابل الحصانين. لا أدري من المجنون الساعي في خراب ماله الذي أرسل لي صباح اليوم مدبِّر منزله؛ المهمّ أنّي كسبت فيهما ستّة عشر ألف فرنك؛ لا تنكّدي وسوف أعطيك منها أربعة آلاف لك، وألفين ليوجيني.

رمت السيّدة دونغلار زوجها بنظرةٍ ماحقة.

صاح دُبراي: - أوه! يا إلهي!

فسألته البارونة: - ماذا هناك؟

- إنّ عينيَّ لم تخدعاني، هما فعلًا حصاناك، حصاناك مربوطَيْن إلى عربة الكونت.

صاحت البارونة: - حصاناي الرّماديَّان المدنّران!

ثمّ تقدّمت صوب النّافذة. وقالت: - إنّهما هما حقًّا.

ذهل دانغلار. بينما تصنّع الكونت مونت كريستو الدّهشة، قائلًا: - حقًّا؟

غمغم المصرفيّ: - إنّه أمرٌ لا يصدَّق!

همست البارونة في أذن دُبراي بكلمتَين، فاقترب من الكونت مونت كريستو وهمس إليه بدوره: - إنّ السيّدة البارونة تسألك عن السّعر الذي باع لك به زوجها الحصانين.

أجابه الكونت: - لا فكرة لديّ حقًّا؛ لقد كان الحصانان مفاجأةً من مدبّر منزلي... وقد كلّفاني نحو ثلاثين ألف فرنك، على ما أعتقد.

حمل دُبراي الرّد إلى البارونة. بينما كان دانغلار من الذّهول والشّحوب، حتّى إنّ الكونت بدا مشفقًا عليه.

قال الكونت: - انظر كم هنّ جاحداتٌ هؤلاء النّساء. إنّ ما فعلتَه لأجل البارونة، لم يحرّك فيها أدنى ذرّة اهتمام. الحقّ أنّ كلمة جاحدة ليست هي الوصف الدّقيق، وإنّما حمقاء. لكن ما العمل، إنّهنّ يحببن دائمًا ما يسبّبُ الأذى؛ لذا فإنّ الأريح دائمًا أن تترك المرأة تتبع هوى رأسِها، فإن كسرَتْه لم تلُم إلا نفسَها!

لم يُجب دانغلار بشيء، إذ كان يتوقّع مشهدًا فظيعًا على وشك أن يقع؛ كانت البارونة قد قطّبت حاجبيها، وشأنهما شأن حاجبَيّ الإله جوبيتر الأولمبي، كانا ينذران بعاصفة؛ ودبراي، الذي استشعر تعاظم العاصفة التي تتهيّأ، ادّعى أنّ لديه أشغالًا وانصرف. أمّا مونت كريستو، الذي لم يرِد تضييع المكانة التي يروم كسبها، إن هو أطالَ البقاءَ، فقد حيّا السيّدة دانغلار وانسحب، تاركًا البارون في مهبّ عاصفة غضب زوجته.

فكّر الكونت في نفسه وهو ينسحبُ: - حسنًا! لقد حقّقتُ ما أردتُه؛ ها بين يديَّ مفتاح سلامِ المنزلِ، وبضربةٍ واحدةٍ سأكسب قلب السيّد وقلب السيّدة؛ أي حظٍّ هذا! لكنّهما لم يقدّماني إلى السيّدة يوجيني التي كان ليسعدني التعرّف عليها. لكن، (وارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة المميّزة)، ها نحن في باريس، ولدينا ما يكفي من الوقت... نترك لقاء يوجيني إلى وقت لاحقٍ إذًا!...

ثمّ صعد الكونت إلى عربته وقصد منزله.

ساعتان بعد ذلك، توصّلت السيّدة دانغلار برسالة جميلة من الكونت مونت كريستو، يخبرها فيها بأنّه لا يريد أن يبدأ حياته في باريس بإحزانِ امرأةٍ جميلة، ورجاها أن تقبل استعادة الحصانين.

وكان على الحصانين نفس العدّة التي رأتها عليهما صباحًا، لكن في قلب كلّ وردة من الوردات المعلّقة على آذانهما، ثُبّتت ماسةٌ.

كما توصّل السيّد دانغلار بدوره برسالةٍ من الكونت، يرجوه فيها أن يقبل هديّتَه إلى زوجته، والتي [قد] تمثّل نزوة مليونير؛ وأن يغفر له أسلوبه الشّرقي في إرسال الحصانين.

ومساءً ذهب الكونت إلى أوتوي رفقة عليّ.

وفي اليوم التالي، حوالى السّاعة الثالثة، دخل علي إلى مكتب الكونت الذي كان قد استدعاه برنّةٍ من الجرس.

قال الكونت: - عليّ، لطالما ردّدت على مسامعي دِقّتك في رمي الأنشوطة؟

أشار علي بالموافقة، ووقف بفخر.

قال الكونت: - حسنًا!... هل تستطيع أن توقف ثورًا بأنشوطتك؟

أجاب عليّ مؤكدًابحركةٍ من رأسه.

- نمرًا؟

كرّر عليّ الحركة نفسها.

- أسدًا؟

حاكى عليّ حركة رجلٍ يرمي أنشوطةً، ثمّ قلّد زئيرًا مخنوقًا.

قال مونت كريستو: - حسنًا، فهمت: لقد اصطدتَ أسدًا؟

وقف عليٌّ وقفةَ المعتدّ بنفسه.

- لكن هل تستطيع إيقاف حصانين يركضان؟

ابتسم عليّ.

- حسنًا إذًا، أصغي إليّ؛ بعد قليل ستمرّ عربة يجرّها حصانان رماديّان مدنّران، هما نفساهما الحصانان اللذان كانا هنا أمس. عليك أن توقف هذه العربة أمام باب منزلي، حتّى لو كلّفك الأمر أن تنسحق تحت عجلاتها.

نزل عليّ إلى الشّارع، ورسم خطًا على البلاط أمام الباب؛ ثمّ دخل المنزل، وأرى الخطّ للكونت الذي كان يتابعه بعينيه.

ربّت الكونت على كتف علي، وكانت تلك طريقته في أن يشكره. ثمّ انصرف النّوبيُّ إلى تدخين جبقه عند الصّوَّة التي تحدّد زاوية المنزل والشّارع، بينما دخل الكونت خليَّ البال.

حوالى السّاعة الخامسة، أي السّاعة التي كان الكونت ينتظر مرور العربة فيها، بدأت ترتسم عليه علامات نفاد الصّبر: كان يذرع الغرفة المطلّة على الشّارع، متسمّعًا ما يجري بين الفينة والأخرى، ومن حين إلى آخر يقترب من النّافذة، فيلمح عليًا ينفث دخان تبغه بانتظامٍ يوضّح أنّ النّوبيَ كان شديد التيقّظ لمهمّته.

فجأةً تردّد صرير عربةٍ بعيد، ما انفكّ يزداد اقترابًا بسرعة البرق؛ ثمّ ظهرت عربةٌ يحاولُ حوذيُّها عبثًا إيقاف الحصانين اللذين يجرّانِها، حرونَين هائجَيْن، يقفزان باندفاعٍ أهوج.

وداخل العربة، امرأةٌ شابّة وطفلٌ في السّابعة أو الثامنة من عمره، متعانقَيْن، وقد أفقدهما الخوف القدرة على الصّراخ؛ وكان يكفي أن تمرّ العجلة فوق حجرٍ، أو يعترض العربة غصنُ شجرةٍ، لكي تتحطّم أشلاءً. كانت العربة ملتزمةً وسطَ الطّريق، ومن كلّ جانبٍ تتعالى أصواتُ الرّعب من حناجر من كانوا يتابعونها قادمة.

وبغتةً أخرج عليٌّ من جيبِه الأنشوطة، ورمى بها الحصان الأيسرَ، فالتفّت ثلاث لفّاتٍ حول قائمتيه الأماميّتين؛ فانجرف الحصانُ ثلاث خطواتٍ أو أربعًا بتأثيرٍ من الزّخم، لكن ما إن تخطّى تلك الخطوات الثلاث أو الأربع، حتّى انهارَ، سقط فوق إشارة الاتّجاه فحطّمها، وشلّ حركة الحصان الآخر الذي ظلّ واقفًا يجاهدُ كي يواصلَ الرّكض؛ استغلّ الحوذيّ لحظة التوقّف تلك، لينزل أسفل مقعده، بيد أنّ عليًّا كان قد سبقه وسارع إلى القبض على منخرَي الحصان بأصابعه الحديديّة، فاستلقى الحيوان، وقد صرعه الألم، بجانب صاحبه.

وقد احتاج كلّ ذلك من الوقت ما تحتاجه رصاصةٌ لتصيب هدفها.

ومع ذلك كان الوقت كافيًا ليخرج رجلٌ من المنزل الذي وقع قبالته الحادثُ، وانطلق متبوعًا بعددٍ من خدمه. وحين فتح الحوذيّ الباب، أخرج الرّجل -الذي لم يكن سوى الكونت مونت كريستو- من العربة المرأة التي كانت تتشبّث بإحدى يديها بالمقعد، بينما تضمّ إلى صدرها باليد الأخرى طفلَها المغمى عليه. حملهما مونت كريستو معًا إلى الصّالون، ووضعهما على أريكة.

قال: - لا تخشي شيئًا يا سيّدتي، لقد نجَوتِ.

استعادت المرأةُ وعيها، وردًّا على كلام الكونت قدّمت ابنها وفي عينها نظرةٌ أبلغ من كلّ صلاة.

كان الطّفل لا يزال فاقدًا الوعيَ.

قال الكونت وهو يفحص الولد: - أجل يا سيّدتي، أفهم؛ لكن اطمئنّي، لم يحدث له مكروه، إنّما هو الخوف فقط ما جعله في هذه الحال.

صاحت الأمّ: - أوه! لست تقول هذا يا سيّدي لطمأنتي فقط؟ انظر إليه كم هو شاحبٌ! ولدي طفلي! إدواردي! أجب أمّك؟ آه! يا سيّدي! هلاّ طلبت لي طبيبًا. أُعطي كلّ ثروتي لمن يعيد إليّ ابني!

أشار مونت كريستو بيديه إشارةً يطمئن بها الأمّ المصدومة؛ ثمّ فتح صندوقًا وأخرج منه قارورةً موشّاةً بالذّهب، فيها سائلٌ أحمر كالدّم قطّرَ منه قطرةً واحدةً فقط بين شفتَي الطّفل.

فتح الطّفل عينيه على الفور وإن لم يزايله الشّحوب.

لفرط فرحتها دخلت الأمّ فيما يشبه الهذيان.

صاحت: - أين أنا؟ ولمن أدين بكلّ هذه السّعادة بعد كلّ تلك المعاناة؟

أجابها الكونت: - أنت يا سيّدتي عند أسعد الرّجال إذ استطاع أن يجنّبك مأساةً.

- أوه! اللعنة على الفضول؛ باريس كلّها تتحدّث عن حصانَي السيّدة دانغلار الرّائعَين، وقد أصابني الجنون فوددت في أن أجرّبهما.

صاح الكونت بدهشة برع في تصنُّعها: - كيف! هل هذان الحصانان، هما حصانا البارونة دانغلار؟

- أجل سيّدي؛ هل تعرفُها؟

- السيّدة دانغلار؟... والآن قد تضاعف شرفي وسعادتي لإنقاذك من الهلاك الذي كاد يودي بك فيه ذانك الحصانان؛ لأنّ هلاكك كان سيكون بسببي؛ فلقد اشتريت الحصانين أمس من البارون، لكنّ البارونة بدت شديدة الأسف عليهما، فأعدتُهما إليها أمس راجيًا منها أن تقبلَهُما.

- أنت إذًا الكونت مونت كريستو الذي حدّثتني هِرمين كثيرًا عنه؟

أجابها الكونت: - أجل يا سيّدتي.

- أنا يا سيّدي، السيّدة هِلواز دو فيلفور.

حيّاها الكونت تحيّةَ من يجهل تمامًا الاسمَ الذي نُطق أمامَه.

استأنفت هِلواز كلامها: - أوه! كم سيكون السيّد فيلفور مدينًا لك! لأنّك أنقذت حياتنا معًا؛ أنقذتَ حياة زوجته وابنه؛ فقطعًا، لولا خادمك الكريم، لمتنا أنا وابني.

- ما زلت أرتجف إلى الآن يا سيّدتي من صدمة الخطر الذي رأيتكما فيه!

- أوه! أرجو أن تعدني بأن تكافئ الرّجل الشّهم الذي أنقذني بما يستحقّه.

أجابها الكونت مونت كريستو: - سيّدتي، لا تفسدي عليًّا أرجوك، لا بالمديح ولا بالمكافآت. تلك عاداتٌ لا أريده أن يتعلّمها. عليٌّ عبدي؛ وإذ أنقذ حياتك وهو في خدمتي، فإنّما فعل واجبه.

- ولكنّه خاطرَ بحياته.

- سيّدتي، لقد أنقذتُ حياتُه، وبالتّالي هي ملكٌ لي.

صمتت السيّدة دو فيلفور: ربّما كانت تفكّر في هذا الرّجل الذي يحدث في النّفوس من أوّل لقاء هذا التّأثير البليغ. واستغلّ الكونت لحظة الصّمت تلك ليتأمّل كما يحلو له الطّفل الذي كانت أمّه تغمره بالقبل. كان قصيرًا، عليلًا، أبيض كالأطفال الصُّهب، ومع ذلك فإنّ غابةً كثيفةً من شعر أسود عصيّة على كلّ مشط تغطّي جبهته المستديرةَ ثمّ تنزل على كتفيه محدّدةً وجهَه، ممّا يزيد من حيوية عينيه المفعمَتين بالمكر الكامن والأذى اليافع؛ فمه الذي بالكاد استعاد حمرتَه، كانَ دقيقَ الشّفتين واسعًا؛ إنّ ملامح هذا الطّفل الذي لم يتجاوز الثامنة بعد كانت تبدو كملامح طفلٍ في الثانية عشرة من عمره على الأقل. وكان أوّل ما قام به، أن تخلّصَ من عناق أمّه بحركةٍ عنيفة، واتّجه يفتح الصّندوق الذي أخرج منه الكونت قارورة الإكسير؛ ثمّ من غير أن يطلب رأي أحدٍ، وعلى طريقة الأطفال المدلّلين المعتادين على أن تنفّذَ كلّ طلباتهم، بدأ يفتح القوارير.

قال الكونت بحدّة: - لا تلمس هذه القوارير يا صديقي، إنّ بعض السوائل فيها خطيرةٌ جدًا، ليس فقط إن شربتها وإنّما أيضًا إن استنشقتها.

شحبت السيّدة فيلفور، فكفّت يدَ ابنها، وضمّته إليها؛ لكن ما إن هدأ روعها حتّى رمقت الصّندوق بنظرةٍ خاطفةٍ لكن معبّرة، لم يغفلها الكونت.

وفي تلك اللّحظة دخل عليٌّ.

ندّت عن السيّدة دو فيلفور حركة فرحٍ، وقرّبت إليها ابنها أكثرَ، وهي تقول:

- هل رأيت هذا الخادم الطيّب يا إدوارد. لقد كان شجاعًا إذ أنقذنا والعربة التي كادت تتحطّم. يجب أن تشكره لأنّ لولاه لكنّا الآن ميّتَيْن.

مطّ الطّفل شفتيه، وأشاح بوجهه مزدريًا الخادمَ.

ثم قال: - إنّه قبيحٌ جدًا.

ابتسم الكونت وكأنّما الطّفل قد حقّق للتوّ رجاءً كان يرجوه؛ أمّا السيّدة فيلفور فقد وبّخت ابنها توبيخًا خفيفًا، ما كان قطعًا ليُرضيَ جون جاك روسو، لو أنّ الصغيّر إدوارد كان يدعى إيميل[1].

قال الكونت مخاطبًا عليًّا بالعربية: - أرأيت! هذه المرأة رجت طفلها أن يشكرك على إنقاذك حياتهما، لكنّه ردّ بأنّك قبيحٌ جدًا.

أشاح عليٌّ لحظةً برأسه الفطن، ونظر إلى الصبيّ دونما تعبير ظاهر؛ لكن رجفةً واحدةً من منخريه بيّنت للكونت أنّ العربيّ قد طُعن في قلبه.

قالت السيّدة دو فيلفور وهي تقوم لتغادر: - سيّدي الكونت، هل هذا المنزل الذي تقيم فيه بالعادة؟

أجابها الكونت: - كلّا يا سيّدتي، هو شبه منزلٍ مؤقّت اشتريتُه: أقيم عادةً بشارع الشانزيليزيه رقم 30. لكنّي أرى أنّك قد استعدت توازنك، وتريدين المغادرة. سآمُر بأن يقيّد الحصانان إلى إحدى عرباتي، وسوف يتشّرفُ عليّ، (أضاف وهو يبتسم للطّفل) هذا الخادم القبيح جدًا، بأن يوصلكما إلى بيتكما، بينما يبقى حوذيّكما هنا ليصلح العربة. وما إن ينهي عمله حتّى توصله إحدى عرباتي مباشرة إلى بيت السيّدة دانغلار.

قالت السيّدة دو فيلفور: - لكنّني لن أجرؤ على أن أركب مرّة أخرى عربةً يقودها ذانك الحصانان.

- أوه! سوف ترين يا سيّدتي كيف سيتحوّلان في يد عليٍّ إلى حملين وديعَيْن.

وبالفعل، دنا عليٌّ من الحصانين اللّذين أوقفا بمشقّةٍ على قائمتيهما. وكان يمسك في يده منشفةً صغيرةً مضمّخةً بالخلّ المعطّر؛ ومسح بها خطمَي الحصانين وأصداغهما المليئة بالعرَق والزّبَد، وعلى الفور بدآ ينفخان لثوانٍ بصخبٍ وينتفضان بكامل بدنَيْهما.

(1) يشير طبعًا هنا إلى كتاب «إميل أو في التربية» لجون جاك روسو. وقد أعادت دار التنوير نشره.

ثمّ وسط حشدٍ من النّاس كان قد لمّهم أمام الباب ضجيجُ الحادثة وحطامُ العربة، شدّ عليٌّ الحصانين إلى عربة الكونت، وأمسك بزمامهما، وركب على المقعد، وأمام دهشة الحضور الذين كانوا شهودًا على سقوط الحيوانين كأنّما ضربتهما عاصفةٌ، كان الخادمُ مجبرًا على أن يستعمل سوطَه بقسوةٍ، لكي يتحرّكا، ومع ذلك لم ينل من الرماديَّين المدنّرين، وقد صارا الآن أبلهين جامدين ميّتين، أكثر من هرولةٍ بسيطة حتّى إنّ السيّدة دو فيلفور احتاجت قرابة ساعتين لكي تبلغ ضاحية سان أونوري.

وما إن بلغت بيتها حتّى كتبت هذه الرّسالة إلى السيّدة دانغلار:

عزيزتي هرمين:

لقد أُنقذت للتّو أنا وابني، بمعجزةٍ، من طرف المدعو الكونت مونت كريستو الذي تحدّثنا عنه كثيرًا أمس، وما كنت أظنُّ أنّني سألتقيه اليوم. أمس حدّثتني عنه بحماسةٍ لم أستطع إزاءها أن أكبح السّخرية التي أملاها عليّ عقليَ الصّغير، لكنّني اليوم أرى أنّ حماستك لم تفِ الرّجل حقّه. لقد حرن حصاناك في شارع رانيلاغ، كأنّما أصابهما السّعار، وكنّا نوشك لا محالةَ نتمزّق أشلاءً، أنا وعزيزي إدوارد، ما إن تصطدم العربة بأوّل شجرةٍ في الطّريق أو أوّل حاشيةٍ من حواشي القرية، وإذا برجلٍ عربيّ، زنجيّ، نوبيّ، رجل أسود على العموم، من جملة خدم الكونت، ينطلق بإشارةٍ منه، على ما أحسب، فيوقف اندفاع الحصانين، مجازفًا بأن يتحطّم هو نفسه، وبمعجزةٍ نجا. وإذّاك هرع إلينا الكونت، وأعاد ابني إلى الحياة. وفي عربته عدت إلى المنزل؛ أمّا عربتُك فسوف تعود إليك غدًا. سوف تجدين حصانَيْك واهنين، فكأنّما ذهلا بعد الحادث؛ كأنّهما لم يغفرا لنفسيهما استسلامهما لترويضِ رجلٍ. ولقد أوصاني الكونت بأن أقول لك إنّ يومين من الرّاحة لا يُطعمان فيها إلا تبنًا وشعيرًا، كفيلة بأن تجعلهما يستعيدان العافية التي كانت لهما قبل الحادث.

وداعًا! لا أشكرك على جولتي، لكنّي حين أفكّر مليًا أرى أنّ من الجحود ألّا أفعل، لأنّ بسببها استطعت أن أرى الكونت مونت كريستو، وقد بدا لي هذا الغريب، فضلًا عن الملايين التي يحوزها، مسألةً جديرةً بالبحث والتقصّي، وإنّي لعازمةٌ على تقصّيها مهما كلّفني الأمر، حتّى لو اضطررت إلى أن أعيد نزهتي إلى الغابة بواسطة حصانَيْكِ.

لقد تحمّل إدوارد الحادث بشجاعة كبيرة. لقد أغمي عليه، لكن قبل الإغماء لم يصدر صيحةً، وبعده لم يذرف دمعة. قد تقولين مرّةً أخرى إنّ عاطفة الأمومة تعميني؛ لكنّي أؤكّد لك أن في هذا الجسد النّحيل الهشّ روحًا من حديد.

عزيزتنا فالانتين تقول أمورًا كثيرةً في حقّ كريمتك يوجيني؛ قبلاتي الحارّة.

هلواز دو فيلفور

ملحوظة: تدبّري بأيّ طريقةٍ لقاءً يجمعني عندك بالكونت مونت كريستو، أريد لقاءَه. فضلًا عن أنّي أقنعت السيّد دو فيلفور بزيارته؛ وأتمنّى أن يردّ لنا الزّيارة.

وفي المساء، كان حادث أوتوي هو الموضوع المهيمن على كلّ الأحاديث: فحكاه ألبير لوالدته، وشاتو رونو في نادي الجوكي، ودُبراي في صالون الوزير، وحتّى بوشان قدّم للكونت تحيّةً في جريدته عبارةً عن مقالٍ من عشرين سطرًا يصف الحادث، مقال أنزل الغريبَ النّبيلَ بمنزلة البطل في عيون كلّ نساء الوسط الأرستقراطي.

وقصد كثيرٌ من النّاس السيّدة دو فيلفور طالبين مواعيدَ، ليتسنّى لهم، متى ما التقوا بها، سماع الأحداث من فمها مباشرة.

أمّا السيّد دو فيلفور، فكما قالت هلواز، قد ارتدى مساء اليوم نفسه زيًّا أسودَ، وقفازين أبيضين؛ حلّتَه الأجمل؛ وركب عربته، وسار بها حتّى باب المنزل رقم 30 في الشانزيليزيه.

48

إيديولوجيا

لو كان قُيّض للكونت مونت كريستو أن يعيش منذ زمن طويل داخل العالم الباريسي، لكان قدّر سعيَ السيّد دو فيلفور إليه، أيّما تقدير.

كان السيّد دو فيلفور مكينًا لدى البلاط، بغضّ النّظر عمّن يحكمُ. سواء كان الحاكمُ من الفرع الأكبر أو الفرع المتوسّط، أو كان رئيس الحكومة ليبراليًا أو محافظًا. كان مشهورًا بحنكته السياسية، شهرةَ من لم يخفقوا قطّ؛ يكرهه الكثيرون، ويدافع عنه البعض بضراوةٍ، من دون أن يحبّه أحدٌ حقًا؛ وكان يتبوأ مراتب عليا في سلك القضاء، ويتشبّث بمراتبه تلك تشبّث هارلاي أو مولِه[1]؛ وصالونه، الذي أعادت إحياءَه زوجتُه الشّابة وابنتُه من زيجته السّابقة، والتي بالكاد تبلغ ربيعها الثامن عشر، قُلنا إن صالونَه ذاك كان أحد أكثر الصالونات صرامة في باريس، حيث يستطيع المرء أن يلاحظ تزاوج عبادة التقاليد ودين اللياقة.

اللّباقة الباردة، التقيّد المطلق بقوانين الحكومة، احتقار عميق للتّنظير والمنظّرين، كراهية عميقة للإيديولوجيّين، تلكم كانت أركان حياة السيّد دو فيلفور في بيته أو أمام النّاس.

لم يكن السيّد دو فيلفور مجرّد قاضٍ، بل كان تقريبًا دبلوماسيًا. علاقاته مع البلاط القديم، تلك العلاقات التي كان يتحدّث عنها دائما

---

(1) يقصد على الأرجح ماتيو مولِه (1781–1855) وهو رجل سياسة فرنسي تقلّد العديد من المناصب في الدّولة؛ أمّا اسمُ هارلاي، أشيل هالاري، فحمله نوّابٌ كثيرون بالبرلمان الفرنسي منذ نهاية القرن السّادس عشر.

بفخرٍ، ضمنت له تقدير البلاط الجديد، ولأنّه كان يعرف أشياء كثيرةً، فلم يكن يوقَّرُ جانبه فحسب، وإنّما أيضًا كان يُستشارُ من حين إلى آخر. ربّما لم تكن الأمور لتكون على هذا النحو لو كان من الممكن التخلّص من السيّد دو فيلفور؛ لكنّه كان يتحصّن بحصنٍ منيع، شأنَ أولئك السّادة الفيوداليّين المتمرّدين على ملوكهم. وكان حصنُه هو وظيفة وكيل الملك التي كان يفيد منها خير إفادة، والتي ما كان ليتركها إلا لِيُنتخبَ نائبًا، فينتقل من الحياد إلى المعارضة.

وكان السيّد دو فيلفور بالجملةِ مُقّلًا في الزيارات. زوجته كانت تنوب عنه في هذه المهمّة. وكان ذاك أمرًا مقبولًا في الأوساط الاجتماعية، يعلّقُه النّاسُ على مشجب انشغالات القاضي الكثيرة، بينما هو في الواقع ليس إلا ضربًا من التكبّر، يستمدّ أصوله من المبدأ الأرستقراطي: **تظاهر بتقدير نفسك، وسوف تحصل على التقدير**، وهو لعمري مبدأٌ مفيدٌ في زماننا هذا أكثر ممّا هو مفيدٌ مبدأ الإغريق: **اعرف نفسكَ بنفسك**، الذي عوّضناه في زمننا هذا بالمبدأ الأقلّ صعوبة وأكثر نفعيّة، مبدأ: **اعرف الآخرين**.

بالنّسبة إلى أصدقائه، كان فيلفور حاميًا قويًّا، وبالنّسبة إلى أعدائه كان خصمًا صامتًا، لكن شرسًا؛ أمّا المحايدون فكانوا يرونَ فيه تمثال القانون وقد تجسّدَ رجلًا: هيئةٌ متغطرسة، سيماءٌ جامدة، نظرةٌ باردةٌ كامدة، أو فاحصةٌ وقحة، ذلكم كان الرّجل الذي بَنته أربعُ ثوراتٍ واحدةً بعد أخرى، ثمّ نصَّبَته وثبّتته فوق قاعدته.

كان السيّد دو فيلفور مشهورًا بكونه الرّجلِ الأقل فضولًا والأقل ابتذالًا في فرنسا؛ كان يقيم سنويًا في منزله حفلًا راقصًا، ولا يظهر فيه إلا ربع ساعةٍ، أي خمسًا وأربعين دقيقة أقلّ من ظهور الملك نفسه في حفلاته؛ ولم يكن يُرى قطّ في المسارح، ولا في الحفلات الموسيقية، ولا في أيّ مكانٍ عامٍّ، أحيانًا فقط كان يلعبُ الورق، وإذّاك يُختارُ له

منافسون جديرون بمستواه: سفراءٌ، أو رؤساء أساقفة، أو أمراء، أو رؤساء دولٍ، أو بعض أرامل النّبلاء.

ذاك كان الرّجل الذي توقّفت عربته، منذ قليل، أمام باب بيت الكونت مونت كريستو.

وقد أعلن الخادم عن وصول السيّد دو فيلفور في اللّحظة التي كان فيها الكونت منحنيًا على طاولة كبيرة، منكبًا يتابع على خريطةٍ مسارًا يربط سان بطرسبورغ بالصّين.

دخل وكيل الملك بالخطوات الرّاسخة نفسها التي كان يدخل بها إلى المحكمة. كان الرّجل نفسه، أو بالأحرى تتمّةَ الرّجل نفسه، الذي عرفناه من قبل نائبًا لوكيل الملك في مارسيليا. إنّ الطّبيعة العنيدة في اتّباع مسارها، لم تستثنه من قوانينها: من النّحول انتقل إلى الضّمور؛ ومن الشّحوب إلى الصّفرة؛ عيناه الغائرتان تحوّلتا إلى مغارتين، والنّظارة ذات الإطار الذهبيّ، تبدو كأنّها جزءٌ من وجهه؛ وما عدا ربطة عنقه البيضاء، كان لباسه بكامله أسودَ، لا يكسر سوادَه الجنائزيَّ إلا الشّريط الأحمر الرّفيع الذي يمرّ من عروته كأنّما هو خيط دمٍ رسمته ريشةٌ.

وعلى الرّغم من مدى تحكّم الكونت مونت كريستو في نفسه، إلّاأنّه لم يستطع، وهو يردّ التحيّة، أن يكبح نفسه من أن يتأمّل، بفضولٍ بارزٍ، الحاكمَ الذي كان متحدّيًا بطبعه، وغير مستعدٍ بالفطرة لتصديق أيّ شيء؛ قلنا كانَ -لطبعه المتحدّي- لا يرى في الغريب النّبيلِ -وكذلك صار يسمّى الكونت مونت كريستو- أميرًا من أمراء الكرسي الرّسولي أو سلطانًا من سلاطين **ألف ليلةٍ وليلةٍ**، بقدر ما يُرى فيه فارسًا من فرسان الأعمال أتى يغزو أرضًا جديدة، أو مجرمًا منفيًا.

قال فيلفور بتلك النّبرة الصاخبة التي يتحدّث بها القضاة في جلساتهم الشفوية، والتي لا يستطيعون أو لا يريدون التخلّي عنها أثناء أحاديثهم اليومية: - سيّدي، إنّ المعروف الذي أسديتَه أمس لزوجتي وابني،

يفرض عليّ أن آتي بنفسي لأشكرك. وها قد جئتُ أخلي ذمّتي من هذا الواجب، وأعبّر لك عن عميق امتناني.

وبينما ينطق القاضي تلك الكلمات لم تفقد نظرته القاسية شيئًا من غطرستها المعتادة. وقد نطق عباراته تلك بصوت الحاكم العام، وبصلابة العنق والكتفين التي تدفع متملّقيه، كما قلنا، إلى اعتباره تمثالَ القانون الحيَّ.

أجابه الكونت ببرود جليديّ: - إنّي سعيد لأنّي استطعت أن أحفظَ لأمٍّ ابنَها؛ إذ يُقال إنّ الأمومة أقدس شعورٍ؛ وهذا الشّعور وحده يجعلك في حلٍّ من كلّ واجب تجاهي؛ ولا أنكر أنّ مجيئك لتأدية واجبك يشرّفني، إذ أعرف أنّه شرفٌ لا يمنحه السيّد فيلفور لأيّ كان، لكنّه مهما علا قيمةً فلا يمكنه أن يعادل بالنّسبة إليّ ما أشعر به من رضًا داخليٍّ.

ذهل فيلفور من الجواب الذي لم يكن يتوقّعه، وانتفض انتفاضة الجنديّ الذي يستشعر أثر الضّربة تحت ترسه؛ انطوت شفته المستكبرة مبيّنةً أنّ الرّجلَ لم يكن في البداية يحسب الكونت مونت كريستو سيّدًا نبيلًا متحضّرًا.

أجال فيلفور بصره في المكان باحثًا عن شيءٍ يعلّق عليه المحادثة التي هوَت، ويبدو أنّها انكسرت إذ هوت.

أبصر الخريطة التي كان الكونت مونت كريستو يتفحّصها لحظةَ دخل عليه، فاستأنف الكلام:

- هل تهتمّ بالجغرافيا يا سيّدي؟ إنّها لعمري دراسةٌ غنيّةٌ، خاصّة بالنّسبة إليك، أنت الذي يقال إنّك قد زرت من البلدان قدرَ ما هو موجودٌ على هذه الخريطة.

أجابه الكونت: - نعم يا سيّدي، لقد أردت أن أطبّق على البشر، حشودًا، ما تطبّقه عليهم أنت كلّ يومٍ، فُرادى؛ أقصد دراسةً فسيولوجية، ممّا قد يمكّنني، على حسب زعمي، من أن أطبّق بعد ذلك نتائج الكلّ

على الجزء، بأيسر ممّا لو سعيتُ إلى تطبيق نتائج الجزء على الكلّ. وتلكم مسلّمةٌ رياضية قوامها الانطلاق من المعلوم إلى المجهول، وليس من المجهول إلى المعلوم... لكن، اجلس أوّلًا يا سيدي، أرجوك.

وأشار الكونت بيده إلى مقعدٍ، كان على وكيل الملك أن يتجشّم بنفسه عناء التقدّم نحوه، بينما لم يكن على الكونت سوى أن يترك نفسه يهوي على المقعد نفسه الذي كان يجلس عليه حين دخل عليه السيّد دو فيلفور. وبهذا الشّكل ألفى الكونت نفسه مستديرًا نصف استدارةٍ شطر ضيفه، ومُوليًا ظهره إلى النّافذة، بينما ساعده يستند إلى الخريطة الجغرافية التي كانت في تلك اللحظة موضوع حديثهما؛ حديثهما الذي كان مماثلًا لأحاديث الكونت في بيتَي مورسيرف ودانغلار، وإن اختلف المحادَثُ والموضوع.

استأنف فيلفور الكلام بعد برهة صمتٍ التقط فيها أنفاسه كرياضيٍّ يواجه خصمًا عنيدًا: - آه! إنّك تتفلسف يا سيّدي، والحقّ أقول لك، لو كان لي ما لديك من الفراغ لشغلت نفسي بشغلٍ أكثر بهجةً.

ردَّ الكونت: - أنت محقٌّ يا سيّدي، وليس الإنسانُ بالنّسبة إلى من يدرسُه بالمجهر الشّمسيّ إلّا يرقةً قبيحةً. لكنّك قد قلت، على ما يبدو لي، إنّه لم يكن لديّ شيءٌ أشغل به نفسي. حسنًا، لنرَ، هل لديك أنت ما تشغل به نفسك؟ هل تقوم بشيء؟ أو بالأحرى هل ما تقوم به يستحق أن يعتبر شيئًا ذا قيمة؟

تضاعف ذهول فيلفور إزاء الضّربة الثانية القاسية التي وجّهها إليه خصمه الغريب؛ منذ مدّةٍ طويلةٍ لم يسمع رجل القضاء مفارقةً بهذه القوّة، أو بالأحرى، وكي نكون دقيقين، هذه هي المرّة الأولى التي يسمع فيها شيئًا مماثلًا.

انطلق وكيل الملك متصدّيًا للإجابة، قال:

- سيّدي، أنت غريبٌ، وقد قلتَ بنفسك، على ما أظنّ، إنّك قد

قضيت جزءًا من حياتك في بلدان الشّرق؛ فلستَ تعرفُ ما تتّسم به العدالة الإنسانية التي تتمّ بتسرّعٍ واستعجالٍ في تلك الأقطار البربريةِ، من حذرٍ وتعقيد عندنا نحن.

- بلى يا سيّدي؛ وهذا ما تشير إليه العبارة العتيقة pedeclaudo[1]. أعرف كلّ ذلك، إذ إنّ العدالة كانت هي الميدان الذي انصبّ عليه اهتمامي أساسًا، وقد قارنت مجرى العدالة في كلّ بلدٍ من البلدان مع العدالة الطّبيعية؛ وينبغي أن أقول يا سيّدي إنّ عدالة تلك الأقوام البدائية، أي عدالة الانتقام هي أكثر ما بدا لي موافقةً لهوى الربّ.

- لو تبنّينا هذه العدالة التي تتحدّث عنها يا سيّدي، لتبسّطت الأمور كثيرًا، وما عاد لرجال العدالة، كما أسلفتَ، شيءٌ يفعلونَه.

- قد يحدث ذلك يومًا ما، تعلمُ أنّ الاختراعات البشرية تسير من الأعقد إلى الأبسط، وأنّ البسيط هو دومًا الأقرب إلى الكمال.

قال وكيل الملك: - في انتظار ذلك، نحنُ نحتكمُ إلى قوانين الدّولة، مع ما تنطوي عليه هذه القوانين من موادّ متناقضة يعود أصلها إلى تقاليد الغال، والقوانين الرّومانية والعادات الإفرنجية؛ على أنّك لن تخالفني القول في أنّ معرفة كلّ تلك القوانين يتطلّبُ جهدًا عقليًا مضنيًا، وبعد كسبها وحفظها ينبغي بذلُ جهدٍ أكبر لكي لا ننساها.

- أتّفق معك يا سيّدي؛ وأزيدُ أنّ هذا الجهد الذي تتحدّث عنه أنت بالنّسبة إلى القانون الفرنسيّ، قد تطلّب الأمر منّي أنا القيام به إزاء قوانين كلّ الدّول. أعرف القوانين الإنجليزية، والتركية، واليابانية، والهندية، قدر معرفتي بالقوانين الفرنسية؛ كنتُ محقًّا إذًا في أن أقول نسبيًا (فكما تعلم كلّ شيء نسبيٌّ يا سيّدي) إنّ ما كان يشغلني كبيرٌ جدًا قياسًا إلى ما يشغلك، وما تعلّمتَه أنت ليس بالشّيء الذي يُذكر مقارنةً بما تعلّمتُه أنا.

---

(1) يشير إلى المثل اللاتيني «العِقابُ يسير أعرجَ في أثر الجريمةَ».

تساءل فيلفور مندهشًا: - لكن ما الفائدة من تعلّم كلّ هذا؟

ابتسم مونت كريستو وأجاب: - حسنًا يا سيّدي، يبدو أنّه على الرّغم من كلّ ما قيل لي عن تفوّقك، إلا أنّك ترى كلّ شيءٍ من وجهة نظرٍ ماديةٍ مبّسطةٍ عن المجتمع، وجهة نظرٍ تبدأ من الإنسان وتنتهي عند الإنسان، أي وجهة النّظر الأضيق والأشدّ انحسارًا التي استطاع الذّكاء البشري بلوغها.

قال فيلفور وذهوله يتعاظم: - فسّر لي يا سيّدي، فأنا لا أدرك جيّدًا ما ترمي إليه...

- أقول يا سيّدي إنّكم لفرط ما تدقّقون النّظر إلى التّنظيم الاجتماعي للدّول، لا ترَون إلا تروسَ الآلة، وتغفلون العامل الأسمى الذي يحرّكها، أقول إنّكم لا تدركون أمامكم وحولكم إلا أصحاب المناصب الذين عُيّنوا من طرف الوزراء أو الملك، أمّا أولئك الرجالُ الذين وضعهم الربّ فوق أصحاب المناصب، واختارهم لإنفاذ مهمّةٍ بدلًا من شُغل منصبٍ، هؤلاء يقصرُ نظركم عن رؤيتهم. وهذا من خصائص البشر الذين جُبلت أعضاؤهم على البلادة والنّقص. ألم يحسب طوبيا[1] الملاكَ الذي أتى يردّ إليه بصرَه رجلًا عاديًا؟ واعتبرت الأممُ أتيلا[2]، القادمَ لسحقها، مجرّد فاتحٍ مثل غيره من الفاتحين، وكان لا بدّ لهذا وذاك من أن يفصح عن هويّته حتّى يدرك العامّة معدنَه الإلهي، فصاح الأوّل: *أنا ملاك الربّ*، والثاني: *أنا مطرقة الإله*.

قال فيلفور وذهوله ما فتئ يتعاظمُ، وكذلك ظنّه بأنّه إزاء عالمٍ أو مجنون: - تظنُّ إذًا يا سيّدي أنّك واحدٌ من هذه الكائنات الخارقة التي ذكرتَها؟

---

(1) سفر طوبيا المسيحيّ.

(2) الملك أتيلا الهوني.

أجاب مونت كريستو ببرود: - وما المانع؟

قال فيلفور مذهولًا: - عفوك يا سيّدي، أرجو أن تغفر لي أنّني حين قصدتُك لم أكن أحسب لقاء رجلٍ تتجاوز مداركُه ومعارفُه مداركَ ومعارفَ عامّة النّاس. وهذا ليس بالمألوف لدينا، نحن المساكين الذين أفسدتنا الحضارة، إذ لم نعتد أن يُضيِّع النّبلاء من أصحاب الثروات الهائلة، من أمثالك، وقتهم في تأمّلات اجتماعية، وخيالات فلسفية، وُضعت للتنفيس عن أولئك الذين حرمهم القدَرُ ثرواتِ الدّنيا.

استأنف الكونت الكلام: - هل بلغت إذًا يا سيّدي المكانةَ الرّفيعة التي بلغتها من غير أن تصادف استثناءاتٍ، وأَلست تسعى إلى شحذ نظرك بحيث يصير قادرًا على أن يخمّن من نظرةٍ واحدةٍ أيّ الرّجال قد وقع عليه؟ أليس أَوْلى برجل القضاء بدلًا من أن يكون المطبِّق الأمثل للقانون، أو المؤوِّل الأمهر لثغراته؛ أقولُ أليس الأولى له أن يكون مسبارًا يجرّبُ القلوبَ، أو محَكًا يختبر ذهب النّفوس الذي لا يوجد خلوًا من نسبةٍ ما من الشّوائب؟

قال فيلفور: - سيّدي، إنّ كلامك يجعلني في حيرة، إذ لم يسبق لي قطّ أن سمعت كلامًا مماثلًا.

- ذاك أنّك حبست نفسك على الدّوام في دائرة الشّروط العامّة، ولم تجرؤ على أن تحلّق بجناحيك في الأفلاك العليا التي عمَّرها الرّبُ بالكائنات الخفية أو الخارقة.

- وتظنُّ يا سيّدي أنّ تلك الأفلاك موجودةٌ، وأنّ الكائنات الخارقة تختلط بنا نحن البشر؟

- وما المانع؟ أتُراك تُبصرُ الهواء الذي تتنفّسه وتتوقّفُ حياتك عليه.

- نحن إذًا لا نرى هذه المخلوقات التي تحدّثني عنها؟

- بلى، تراها حين يريد لها اللّه أن تتجسّد، تلامسها، وتحاذيها، وتحدّثها وتجيبك.

قال فيلفور باسمًا: - آه! أقرّ بأنّي أفضل أن أكون على علمٍ متى ما اتّصل بي أحد تلك الكائنات.

- لقد تمّ لك ما أردتَ يا سيّدي، إذ أعلمتُك قبل قليلٍ، وها أنا ذا أعلمُك مجدّدًا.

- تقصد نفسك؟

- أنا واحد من تلك المخلوقات الاستثنائية، أجل يا سيّدي، وأظنُّ أنّ لا إنسانَ إلى الآن قد ألفى نفسه في مكانة مماثلةٍ لمكانتي. إنّ ممالك الملوك تحدُّها الجبالُ أو الأنهار، أو اختلافُ القواعد أو تحوّل اللّغة. أمّا مملكتي أنا فكبيرةٌ كبر العالم، فلستُ إيطاليًا ولا فرنسيًا ولا هنديًا ولا أمريكيًا ولا إسبانيًا: أنا مواطنٌ عالميّ. لا بلد يستطيع أن يدّعي أنّه كان مسقط رأسي، والربُّ وحدَه يستطيع أن يحدّد في أيّ أرضٍ أموتُ. أتبنّى كلّ العادات، وأتكلّمُ كلّ اللّغات. قد تحسَبني فرنسيًا يا سيّدي، إذ أتحدّث الفرنسية بنفس درجة السّلاسة والصّفاء التي تتحدّثها بها أنت؟ طيّب! إنّ عليًّا، خادمي النّوبي، يظنّني عربيًا؛ وبرتوتشو، مدبّر منزلي يحسبني من روما؛ وهايدي، جاريتي تظنّني إغريقيًا. تتفهمُّ إذًا أنّني، إذ لا أنتمي إلى أيّ بلد، ولا أطلب حماية أيّ حكومةٍ، ولا أعتبر أيّ إنسانٍ أخًا، لا تعترضني أو توقفني أيّ من العقبات التي توقف الأقوياء أو العراقيل التي تعترض الضّعفاء. ليس لي إلا خصمان. أقول ليس لي إلا خصمان ولا أقول لم يهزمني إلا شيئان، إذ بالمثابرة أقارعهما. خصمايَ: المسافة والزّمان. أمّا خصمي الثالث، وهو الوحيد الحتميُّ الرّهيبُ، فهو شرطي البشريُّ الذي يجعلني فانيًا. وحده الموت يستطيع أن يوقفني وأنا في طريقي إلى تحقيق ما أصبو إليه، عدا ذلك، فقد حسبتُ حساب كلّ شيء. ما يسمّيه النّاس تدابير القدر، أي الإفلاس، والتغيّر، والأشياء غير المتوقّعَة، قد حسبت حسابها جميعًا؛ وحتّى إن طالني بعضها، فلا واحد منها يستطيع أن يقضي عليّ. ما لم أمُت، فسأكون دومًا ما أريد لنفسي أن أكونه؛ لذلك قلتُ لك ما لم يسبق لك أن سمعتَه، حتّى من أفواه الملوك، لأنّ الملوك

يحتاجونك، والنّاسُ يهابونكَ. من ذا الذي، في هذا المجتمع المنظّم بسخافةٍ، لا يقول لنفسه: «ربّما أقف يومًا ما أمام وكيل الملك!».

– لكن يا سيّدي أنت نفسك قد تقول هذا، إذ ما دمتَ مقيمًا في فرنسا، فأنت تخضع بالضّرورة للقوانين الفرنسية.

أجابه مونت كريستو: – أعلم ذلك يا سيّدي. لكنّي حين أعزم على السفر إلى بلد من البلدان، أشرع، بطرقي الخاصّة، في دراسة كلّ النّاس الذين لديهم ما أرجوه أو ما أخشاه، وأتمكّن من معرفتهم معرفةً قد تفوق معرفتهم بأنفسهم. وهذا يجرّنا إلى نتيجةٍ مفادُها، أنّ وكيل الملك الذي قد أتعامل معه، أيًا كانَ، سيكون في حيرة أكثر منّي.

قال فيلفور بعد تردّد: – ممّا يعني يا سيّدي، أنّه نظرًا لضعف الطّبيعة البشرية، كلّ إنسانٍ معرّضٌ لأن يرتكب... أخطاءً؟

أجاب مونت كريستو بلا مبالاة: – أخطاء... أو جرائم.

استأنف فيلفور الكلام بصوت متحشرج: – وأنّك وحدك الكاملُ، بين النّاس الذين لا تعتبرهم إخوانًا، على حسب قولك؟

أجاب الكونت: – لا أقول إنّني كاملٌ؛ أنا حصينٌ، وهذا كلّ ما في الأمر. لكن لنحسم هذه المحادثة إن لم تكن تروقك يا سيّدي؛ لستُ مهدَّدًا بعدالتك، ولا أنت مهدّدٌ بنفاذِ رؤيتي.

خشي فيلفور أن يبدو مستسلمًا، فسارع إلى القول: – كلّا، كلّا؛ إنّ هذه المحادثة النّبيهة التي تكاد تكون مهيبةً، قد رفعتني فوق المستويات المعتادة؛ نحن الآن لا نتحدّث وإنّما ندافع عن أطروحات. لكنّك تعلم كم أنّ اللاهوتيّين على كراسي السّوربون، أو الفلاسفة في جدالاتهم، يقولون أحيانًا حقائق قاسيةً. هبنا الآن نمارس اللاهوت الاجتماعيّ أو الفلسفة اللاهوتية، سأقول لك هذه الحقيقة وإن بدت لك قاسية: أخي، أنت ضحيّةُ الغطرسة؛ قد تكون فوق الجميع، لكنّ الرّبَ فوقَك.

أجاب الكونت بنبرةٍ عميقة ارتجف لها فيلفور لا إراديًا: – الربُّ فوق الجميع يا سيّدي. أنا متغطرسٌ إزاء بني البشر، أولئك الثعابين

المتأهّبين كلّ وقتٍ للانقضاض على من يتجاوزهم من دون أن يسحقهم تحت قدميه. لكنّني أخلع غطرستي أمام الربّ الذي أخرجني من العدم ليصيّرني ما أنا عليه.

قال فيلفور: - لشدّ ما أنا معجبٌ بك يا سيّدي الكونت (وكانت هذه المرّة الأولى التي يستعمل فيها فيلفور هذه الصياغة الأرستقراطية إزاء الغريب الذي لم يكن يناديه حتّى اللّحظة إلا بـ«سيّدي»)؛ أجل، أقولها لك، إن كنتَ حقًّا قويًّا، وحقًّا متفوّقًا، حقًّا منيعًا، وهي كلّها عباراتٌ، كما تفضّلتَ، تكاد تعني الشّيء نفسه، فما أروع ذلك؛ إنّه قانون السيّادة. لكن هل لي أن أسألك عمّا إذا كان لديك طموحٌ ما؟

- بلى، يا سيّدي، عندي طموحٌ.

- أيّ طموح؟

- أنا أيضًا يا سيّدي، شأني شأن أيّ إنسانٍ آخر، قد اختطفني الشّيطان ذات مرّةٍ وحملني إلى أعلى جبل على الأرض؛ وهناك أراني العالم بأكمله، ومثلما خاطب المسيحَ فيما مضى من الزّمان، قال لي: «حسنًا يا ابن الإنسان، ما الذي تريدُه لتعبدني؟». فكّرتُ مليًّا، إذ بالفعل، منذ زمنٍ طويلٍ وطموحٌ رهيبٌ يفترس قلبي؛ ثمّ أجبته: «اسمع، لطالما سمعتُ عن القدر، لكنّني لم يسبق لي أن قابلته، ولا صادفتُ ما يشبهه، حتّى إنّني ميّالٌ إلى الاعتقاد في أنّه غير موجود؛ أريد أن أصير أنا القدر، إذ لا أرى أجمل ولا أقوى ولا أهيَب في هذا العالم من القدرة على الثواب والعقاب». لكنّ الشّيطان خفض رأسَه وقال متنهّدًا: «إنّك مخطئٌ، القدرُ موجود؛ لكنّك لا تراه، فهو ابن الربّ، ومثله مثل أبيه هو لا مرئيٌّ. ولم ترَ ما يشبهه لأنّه يحرّك تُروسًا لا تُرى، ويسلك مسالك مظلمة؛ كلّ ما أملكه لك، هو أن أجعلك أحد أدوات القدر». صفقةٌ ناجزة؛ قد أخسرُ روحي، لكن فيمَ يهمّ ذلك؛ حتّى لو عرضت عليّ الصفقة مجدّدًا سوف أعقدُها.

نظر فيلفور إلى الكونت مونت كريستو بذهولٍ عظيم، ثمّ قال:

- سيّدي الكونت، هل لديك أقارب؟

- كلّا، إنّي وحيدٌ في هذا العالم.

- خير لك!

تساءل الكونت: - لِمَ؟

- لأنّك كنت ستشهد منظرًا كفيلًا بأن يحطّم كبرياءك. تقول إنّك لست تهابُ إلا الموت؟

- لا أقول إنّي أهابه، أقول إنّه وحده يستطيع إيقافي.

- والشّيخوخة؟

- سوف أُتمُّ مهمّتي قبل أن تدركني الشّيخوخة.

- والجنون؟

- لقد نجوت من الجنون، وأنت تعرف القاعدة: non bis in idem[1]؛ هي قاعدةٌ قانونية، وبالتّالي مألوفة عندك.

استأنف فيلفور الكلام: - ثمّة يا سيّدي ما يستحقُّ أن نخشاه أكثر من الشّيخوخة والجنون: ثمّة مثلًا السّكتة التي تضربك من دون أن تفنيك، مع ذلك تنهي حياتك كلّها. بعدها تظلّ أنت أنت، ومع ذلك لا تكون أنت أنت؛ وبعدما كنت مثل أرييل تضاهي الملاكَ، ها أنت مثل كاليبان تداني البهيمة[2]؛ وهذا التّحولُ يعبّر عنه النّاس ببساطة بكلمة تافهة تسمّى: السّكتة. أدعوك، رجاءً، يا سيّدي الكونت، إلى بيتي لنُكمل فيه هذا الحديث؛ أريد أن أريك والدي، السيّد نوارتييه دو فيلفور، أحد أشد يعاقبة[3] الثورة الفرنسية ضراوةً؛ أي جزءٌ من تلك الحركة الأشدّ

---

(1) حرفيًا تعني «ليس الشّيء نفسه مرّتين»، واصطلاحًا تستعمل في المجال القانوني بمعنى «لا يعاقب المرءُ على الجرم الواحد مرّتين».

(2) أرييل من الشّخصيات الملائكية في القبّالا اليهودية، وكاليبان شخصية وحشية من شخوص مسرحية العاصفة لشكسبير.

(3) اليعقوبية، تيارٌ سياسيّ كان يؤمن بسموّ إرادة الشعب فوق كلّ إرادة، ويرفض تقسيم جمهورية فرنسا.

حماسةً التي جُعلت في خدمة التّنظيم الأشدّ صرامةً؛ رجلٌ، وإن لم يرَ كلّ الممالك التي رأيتها أنت يا سيّدي، إلا أنّه ساهم في زعزعة إحدى أقوى هذه الممالك؛ رجلٌ مثلك يا سيّدي كان يدّعي أنّه مبعوثٌ، ليس من عند الربّ وإنّما من عند الكائن الأسمى، ليس من طرف العناية الإلهية وإنّما من طرف القدر. وكان كافيًا، يا سيّدي، أن ينقطع شريان دمويّ في أحد فصوص الدّماغ لكي يتحطّم كلّ ذلك؛ ولم يحتَج حدوث ذلك إلى يومٍ، أو حتّى ساعة، وإنّما فقط ثانية واحدة. البارحة فقط كانَ السيّد نوارتييه، اليعقوبي السّابق، والسناتور السّابق، والكربوناريّ[1] السّابق، يضحك هازئًا بالمقصلة، يضحك هازئًا بالمدافع، يضحك هازئًا بطعنات السّكاكين، ويلعب بالثّورات كيفما شاءَ؛ السيّد نوارتييه الذي لم تكن فرنسا بالنّسبة إليه أكثر من رقعة شطرنج هائلة، يمكن أن يمحو منها القلاع والفرسان، في سبيل «مات الملك»، في سبيل أن يُقلبَ الملك؛ وبين عشيّة وضحاها تحوّل السيّد نوارتييه، ذاك الرّجل المهابُ الجانب، إلى هذا المسكين نوارتييه، هذا الشّيخ المشلول، المتروك رهن إرادة أوهن أهل هذا المنزل، أقصد حفيدتَه فالانتين؛ صار جثّة خرساء وباردة، تعيش في انتظار أن يحلّلها الزّمن.

قال مونت كريستو: «واأسفًا يا سيّدي! ليس هذا المشهد بالغريب عن عينيَّ أو عن فكري. لي معرفةٌ بالطبّ يا سيّدي، ومثلي مثل زملائي في المهنة، قد بحثتُ غير ما مرّة عن النّفس في المادة الحيّة والمادّة الميّتة؛ ومثلها مثل القدر ظلّت النّفس خفيّة عن عينيَّ، وإن كانت حاضرة في قلبي. منذ سقراط وسينيكا والقدّيس أوغسطينوس وفرانز غال، ما انفكّ المؤلّفون يعبّرون نثرًا وشعرًا عمّا تفضّلتَ بوصفه؛ وأظنّ أنّ آلام الأب لا بدّ أن تخلّف عميق الأثر في نفس ابنه. سوف آتيك يا سيّدي، ما دمت

---

(1) الكاربوناريون، أو مشعلو الفحم، جماعة سرية إيطالية تأسست في بداية القرن التاسع عشر، وكانت تحمل أهدافًا قومية وتحرّرية.

تريد منّي أن أتأمّل هذا المشهد الذي لا بدّ أنّه ينشر ظلال حزنه على بيتك.

- كان الأمر ليكون كذلك بلا ريب، لو لا أنّ الله لم يعوّضني عن ذلك خيرًا. مقابل الشّيخ الذي يجرّ ساقَيْه نازلًا صوب القبر، طفلان يلجّان الحياة: فالانتين، صبيّةٌ رُزقتُها من زواجي الأوّل بالآنسة رينيه دو سان مِران، وإدوارد، الولد الذي أنقذتَ حياتَه.

سأله الكونت مونت كريستو: - وما الذي تستخلصه من هذا التعويض يا سيّدي؟

- أخلص، يا سيّدي، إلى أنّ والدي الذي انساق خلف أهوائه، قد ارتكب بعضًا من تلك الشّرور التي تُفلتُ من قبضة العدالة البشرية، لكن لا تُخطئُها عدالة السّماء!... وأنّ الرّب، الذي لم يرد أن يصاب سوى المذنبُ، لم يُنزل عقابه بسواه.

أطلق مونت كريستو، والبسمة على شفتيه، من أعماق قلبه زأرةً لو قيّض لفيلفور سماعها لولّى هاربًا.

قال القاضي الذي كان قد وقف من مدّة وأخذ يتكلّم واقفًا:

- وداعًا سيّدي؛ أتركك وقد أخذت عنك ذكرى تقدير، لا بدّ وأن تكون مفيدة لك حين تعرفُني أكثر، فأنا لست بالرّجل الهيّن الشّأن، مهما كان هذا الأمر لا يهمّك. ثمّ إنّك قد كسبت في السيّدة فيلفور صديقةً أبديّة.

حيّا الكونت ضيفه مكتفيًا بمرافقته حتّى باب مكتبه، ثمّ قصد فيلفور عربته مسبوقًا بخادمين كانا قد هرعا إلى فتح الباب بإشارةٍ من سيّدهما.

وحين اختفى وكيل الملك قال الكونت وهو يستلُّ من صدره ابتسامةً ظلّت مكبوتةً: «حسنًا، يكفينا من هذا السّمّ، فقد أترع به قلبي؛ هلمَّ نصنع الآن التّرياق».

ثمّ رنّ الجرس رنّةً فظهر عليّ.

قال له الكونت: - سأصعد عند السيّدة؛ لتكن العربة جاهزةً خلال نصف ساعةٍ!

49

هايدي

نتذكّرُ معارف الكونت الجدد، أو بالأحرى القدامى، القاطنين بشارع مسلاي: ماكسيميليان وجولي وإيمانويل.

وكان رجاؤه في الزّيارة الطّيّبة التي سيقصدهم فيها، ولحظات البهجة التي سيغنمها من رفقتهم، وريح الجنّة التي قد تتسلّلُ إلى الجحيم الذي ألقى بنفسه فيه طواعيةً؛ قلنا كان كلّ ذلك قد نشر في وجه الكونت، ما إن غادره فيلفور، سكينةً وألقًا، حتّى إنّ عليًّا لما هرع إلى خدمته بعدما سمع رنّة الجرس، ورأى وجه الكونت مشرقًا بفرح قلّما يشهده، انسحبَ على أطراف أصابعه كاتمًا أنفاسه، كأنّما يخشى أن يُجفل بحركته الخواطر الطّيّبة التي تخيّلها تحوم حول سيّده.

كان الوقتُ الزّوالَ، وقد اختصّ الكونت من وقته ساعةً يصعد فيها عند هايدي؛ وكان جليًا أنّ الفرح لا يمكنه أن يقتحم بغتةً روحه التي طال انكسارُها، وأنّه يحتاج إلى أن يتهيّأ لاستقبال العواطف العذبة، مثلما ينبغي أن تتحضّرَ الأنفس عادةً لاستقبال المشاعر العنيفة.

كانت اليونانيّة الشّابة تقيم، كما أسلفنا، في جناح مخصوصٍ منفصل عن جناح الكونت. وكان جناحُها مؤثّثًا بأكمله تأثيثًا مشرقيًا؛ أي إنّ الأرضية كانت مغطّاةً بزرابي تركية سميكة، والأقمشة المطرّزة تنزل على امتداد الجدران، وفي كلّ غرفةٍ أريكةٌ واسعةٌ تحتل محيط الحجرة مع أكوام من وسائد ينقلها المستعملُ كما شاءَ.

كانت في خدمة هايدي ثلاث نساءٍ فرنسيات، ورابعةٌ إغريقية. الفرنسيات الثلاث يبقين في الحجرة الأولى، متأهبات لتنفيذ أوامر

الخادمة اليونانية ما إن ترنّ جرسًا من ذهب؛ وكانت هي تتقن الفرنسية بما يكفي لتنقل رغبات سيّدتها للوصيفات الثلاث اللّواتي أمرهنّ الكونت أن يتصرّفن مع هايدي تصرُّفهنّ مع ملكة.

كانت الشّابة في الغرفة الأقصى من جناحها، أي في ما يشبه خِدرًا دائريًا، لا يُضاءُ إلّا من أعلى، ولا يتسلّلُ إليه ضوء النّهار إلا عبر زجاج ورديٍّ. كانت مضطجعةً أرضًا على وسائد من مخملٍ أزرقَ موشّىً بالفضّة، مائلةً إلى الخلف على الأريكة، وقد أحاطت رأسها بذراعِها اليمنى النّاعمة، بينما تمسك بيسراها أنبوب نرجيلةٍ مرنًا لا يسمح للدّخان أن يبلغ شفتيها إلا مُعطّرًا بماء الجاوي.

وإنّ وضعها ذاك، الطّبيعيّ في بلاد الشّرق، كان ليبدو بالنّسبة إلى فرنسيّة وضعًا فاضحًا.

أمّا زينتُها، فقد كانت زينة نساءِ إبيروس (اليونان/ ألبانيا)، أي سراويل من مخمل أبيض مطرّز بزهور وردية، تكشفُ عن قدمين صبيّتين، كان النّاظر إليهما ليحسبهما قُدّتا من رُخام جزيرة باروس (بحر إيجه)، لولا أنّه يراهما تتحرّكان في نعلٍ مستدير الرّأس، مطرّزٍ بالذّهب والجواهر؛ وسترة بخطوط عريضةٍ زرقاءَ وبيضاء، وكمّين طويلين شُقّا لتبرز منهما الذّراعان، وعُرىً من فضّةٍ أزرارُها جواهرُ؛ ثُمّ صدارٌ في قلبه فتحةٌ تكشفُ العنق وأعلى الصّدر، ويُعقد بماساتٍ. وكان الخطُّ الفاصل بين أعلى السّراويل وأسفل الصّدار مخفيًا تحت حزامٍ زاهي الألوان ومزيّنٍ بشراريب حريرٍ من تلك التي تتهافت عليها متأنّقاتُنا الباريسيات.

وكانت تعتمر قبّعةً صغيرة من الذّهب مزيّنةً بجواهر، وقد أمالتها إلى أحد جانبَي رأسها، وعلى الجانب الآخر وضعت وردةً طبيعيةً أرجوانية اللّون في شعرها الذي اشتدّ سوادَه حتّى كاد يبدو أزرق.

أمّا جمال الوجه، فكان الجمالَ الإغريقيَّ في كماله، عينان واسعتان سوداوان وناعمتان، وأنفٌ مستقيم، وشفتان ريّانتان وأسنانٌ كاللؤلؤ. ثمّ

فوق ذلك كلّه زهرةُ الشّباب التي تنشر على كلّ التّفاصيل ألقها وعطرها؛ فهايدي في التّاسعة عشرة أو العشرين من عمرها.

طلب مونت كريستو الخادمة الإغريقية، وسألها الإذن في الدّخول على هايدي. وجوابًا على طلبه أشارت هايدي إلى خادمتها أن ترفع الزربية المعلّقة على الباب الذي يؤطّرُ الشّابةَ المضطجعة كأنّما هو إطارُ لوحة. تقدّم مونت كريستو.

قامت هايدي مستندة إلى ذراعها الممسك بالنّرجيلة، ومدّت للكونت يدها وهي تستقبله بابتسامة. قالت بلغتها الرّنانة، لغات بنات اسبرطة وأثينا: - لمَ تطلبُ الإذن في الدّخول عليَّ؟ ألست سيّدي وأنا جاريتك؟

ابتسم مونت كريستو بدوره.

قال: - هايدي، لعلمكم...

قاطعته اليونانية الشّابة: - لمَ تضع الكلفة بيننا، وتخاطبني بضمير الجمع؟ هل ارتكبتُ خطأً ما؟ في هذه الحال ينبغي أن تعاقبني، لا أن تخاطبني بضمير الجمع بدلًا من ضمير المفرد.

استأنف الكونت كلامَه: - هايدي، تعرفين أنّنا في فرنسا، وبالتّالي أنت حرّة.

سألته الصبية: - حرّة في ماذا؟

- حرّة في أن تتركيني.

- أتركك!... ولماذا أتركك؟

- وما أدراني أنا؟ سوف نلتقي الكثير من النّاس.

- لا أريد أن ألتقي أحدًا.

- فإن التقيت بين الشّباب الوسيمين الذين سنلتقيهم أحدًا، فراقَك، لن أظلمك...

- لم يسبق لي أن رأيت أوسم منك، ولا أحببت رجلًا سوى أبي وأنت.

قال مونت كريستو: - أيّتها الطّفلة المسكينة، هذا لأنّك لم تكلّمي رجلًا سوانا أنا وأبيك.

- حسنًا، وهل أحتاج الحديث إلى غيركما؟ أبي كان يسمّيني **فرحتَه**، وأنت تسمّيني **محبوبتك**، وأنتما معًا تسميّانني **طفلتكما**.

- هل تتذكّرين والدك يا هايدي؟

ابتسمت الصّبيّة. ثم قالت وهي تضع يدها على عينها ثمّ قلبها: - إنّه هنا، وهنا.

سألها الكونت مبتسمًا: - وأنا، أين؟

- أنت في كلّ مكان.

أخذ مونت كريستو يد هايدي ليقبّلها؛ لكنّ الطّفلة البريئة سحبت يدها وقدّمت له جبينها.

قال: - والآن يا هايدي، تعرفين أنّك حرّة، سيّدةٌ، ملكة؛ أنت حرّة في أن تلبسي ما شئتِ؛ ابقِ هنا ما طاب لك، واخرجي متى شئت؛ ستكون تحت تصرّفك عربةٌ جاهزةٌ دائمًا، ويرافقك عليٌّ وميرتو؛ لكنّني أسألك شيئًا أرجوك.

- قُل.

- احفظي سرَّ ولادتك، لا تقولي حرفًا عن ماضيك؛ لا تذكري أبدًا اسم أبيك الشّهير، أو أمّك المسكينة.

- لقد أخبرتُك يا سيّدي، أنّني لن أرى أحدًا.

- أصغي إليّ يا هايدي؛ ربّما لن تكون حياةُ الخلوة هذه مناسبةً لباريس. واصلي تعلّم نمط حياتنا في بلدان الشّمال، مثلما فعلتِ في روما، وفلورنسا، وميلانو، ومدريد؛ سيفيدك ذلك سواءً قرّرتِ العيش هنا، أو العودة إلى بلاد الشّرق.

رفعت الصبيّة إلى الكونت عينين مبلّلتين، وقالت:

- تقصدإن عُدنا إلى الشّرق ياسيّدي، أليس كذلك؟

- أجل يا ابنتي، تعرفين أنّني لست أنا من سيتركك. ليست الشّجرةُ من تترك الزّهرة، وإنّما الزّهرة من تترك الشّجرة.

- لن أتركك أبدًا سيّدي، لأنّني من دونك لن أعيش.

– يا مسكينة، بعد عشر سنواتٍ سأكون شيخًا، وأنت بعد شابّة.
– أبي كانت له لحيةٌ طويلةٌ بيضاء، ولم يمنعني ذلك من أن أحبّه؛ أبي كان في السّتّين من عمره، وكان يبدو لي أجمل من كلّ الرّجال.
– حسنًا، لننتظر ونرَ؛ هل ستألفين المكان هنا؟
– هل سأظلُّ أراك؟
– كلّ يوم.
– أيُّ سؤالٍ هو إذًا يا سيّدي؟
– أخشى أن تملّي.
– كلّا يا سيّدي؛ لأنّني صباحًا سأفكّر في أنّك ستزورني؛ ومساءً سأتذكّرُ زيارتك؛ ثمّ، حين أظلُّ وحدي، ترافقني ذكرياتي العظيمة، أستذكر لوحاتٍ هائلةً، أسترجع مناظر خلاّبة في خلفيّتها جبال أليمبوس وبندوس؛ ثمّ إنّ قلبي عامرٌ بثلاثة أحاسيس لا أنشغل عنها إلى الملل: الحزنُ، والحبُّ، والعرفان.
– أنت يا هايدي حقًا ابنةُ إبيروس الكريمة الشّاعرية، وواضحٌ أنّك سليلة عائلة الإلهات التي منشأُها بلادُك. اطمئنّي إذًا يا ابنتي، سأحرص على ألا يضيع شبابُك، لأنّي أحبّك كابنتي، مثلما أنت تحبّينني كأبيك.
– أنت مخطئٌ يا سيّدي؛ لا أحبّك حبّي لأبي؛ حبّي لك من مستوى آخر. لقد مات أبي وما متُّ، لكن إن مُتَّ أنت متُّ معك.
مدّ الكونت يده للصبيّة وعلى شفتيه ابتسامةٌ مفعمةٌ بالعطف؛ قبّلتها كعادتها.
ثمّ إنّ الكونت، وقد صار مستعدًّا للقاء موريل وعائلته، انطلق يهمس بأبيات بندار:
«الشّبابُ زهرةٌ ثمرتُها الحبُّ... ما أسعد الخمّارَ الذي يقطفها بعدما راقبها تنضجُ على مهل».
كانت العربةُ جاهزةً كما أمرَ. وكالعادة انطلقت العربة عدوًا.

50

عائلة موريل

بلغ الكونت الرّقم 7، بشارع مسلاي، في دقائق معدودة.

كان البيت أبيضَ، بهيجًا، أمامَه ساحةٌ فيها حزمتا زهورٍ جميلة. ولمّا فتح البوابُ له الباب عرفَه الكونت؛ كان ذاك الشّيخ كوكليس. لكن، بما أنّ الرّجل، كما كنّا قد رأينا من قبل، لم يكن يملك إلا عينًا واحدةً، وقد وهنَ بصرُها مع الزّمن أيّما وهنٍ، فلم يتعرّف هو على الكونت.

ولكي تتوقّف العربات أمام المدخل، كان عليها أن تلفّ لتتجنّبَ نافورةَ ماءٍ في فسقيّة من صخرٍ، نافورة بهيّة أثارت الكثير من الغيرة في الحيّ، وهي السّبب في تسمية المنزل قصر فرساي الصّغير. وفي حوض الفسقية يسبح سربٌ من الأسماء الصّفراء والحمراء.

كان المنزل المرتفع فوق طابقٍ من المطابخ والأقبية، يتألّفُ، فضلًا عن الطّابق الأرضيّ، من طابقين ودورٍ علويّ؛ وكان الشّابان قد اشترياه مع ملحقاته: مشغلٌ هائلٌ موزّعٌ على جناحين، أحدهما في أول الحديقةِ والثّاني في أقصاها. ومن أوّل نظرةٍ تصوّرَ إيمانويل الملحق تصوّرًا خاصًا؛ فعزل المنزلَ ونِصفَ الحديقة، ورسم خطًا؛ أي بنى جدارًا يفصل مسكنه عن المستودع، فأجّر المستودع بجناحيه والجزء من الحديقة المتّصل به؛ فصار بمبلغِ الإيجار يعيشُ محصّنًا مثله مثل ملاّك أفضل القصور بضاحية سان جرمان.

كانت غرفة الطّعام من خشب السّنديان، والصالون من خشب الماهوجني والمخمل الأزرق؛ وغرفة النّوم من خشب اللّيمون المغطى

بالدّمقس الأخضر؛ وفضلًا عن ذلك كان ثمّة مكتبٌ لشغل إيمانويل الذي لم يكن يشتغل، وصالون موسيقى لجولي التي لم تكن موسيقيّةً.

الطّابق الثّاني كان بأكمله مخصّصًا لماكسيميليان: وكان نسخةً مطابقةً لمسكن أخته. وحدها غرفة الطّعام حُوِّلَت صالة بلياردو يستقبل فيها أصدقاءه.

وكان في مدخل الحديقة يراقب تنظيفَ حصانه مدخِّنًا سيجارًا، حين توقّفت عربةُ الكونت بالباب.

فتح كوكليس الباب، كما قلنا، ونزل باتيستان من مقعده وسأل عمّا إذا كان السيّدان هِربو والسيّد موريل يستطيعان استقبال الكونت مونت كريستو.

صاح موريل وهو يرمي سيجاره وينطلق في استقبال زائره: - الكونت مونت كريستو! أجل، نستطيع استقبالَه! أشكرك ألف مرّة يا سيّدي الكونت لأنّك لم تنسَ وعدك.

صافح الضّابطُ الشّابُ الكونتَ بحفاوة أبانت عن أنّه كان يُنتظر بفراغ الصّبر وسوف يُستقبلُ بلا إبطاءٍ. وقال: - تعال يا سيّدي، تعال! سوف أُعلن عن وصولك، ذاك أنّ رجلًا من طينتك لا يمكن أن يُعلنَ عنه خادمٌ. إنّ أختي في حديقتها تقطع ورودًا ذابلةً؛ وأخي يقرأ جريدتيه المفضّلتين، **الصّحافة والنِّقاش**، على بعد ستّ خطواتٍ منها، إذ حيثما كانت السيّدة هِربو يكون السيّد إيمانويل ضمن نطاق أربعة أمتار من موضع تواجدها، والعكسُ صحيح، كما يُقال في مدرسة البوليتكنيك.

لوقع الخطى رفعت شّابةٌ رأسَها، وكانت بين العشرين والخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي روبًا من الحرير وتعتني بشجيرة ورد نوازيتا.

تلك المرأة كانت صغيرتنا جولي، وقد صارت، كما خمّن وكيل مؤسّسة **طومسون وفرانش**، مدام إيمانويل هِربو.

ولمّا رأت الشّابةُ الغريبَ، أطلقت صيحةً. ضحك لصيحتها ماكسيميليان.

قال: - لا تزعجي نفسك يا أختي، صحيح أنّ الكونت لم يأتِ باريس إلا منذ يومين أو ثلاثة، لكنّه يعرف ما المرأة العصرية في منطقة ماريه، فإن لم يكن يعرف، ستعرّفينَه.

قالت جولي: - آه! يا سيّدي، خيانةٌ هذه من أخي، أن يأتي بك هكذا من دون أن يعلمنا بقدومك... بنِيلون!... بنِيلون!...

كان الشّيخُ منهمكًا في تقليب شريطٍ من ورد الصّين، فغرز مجرفته في التّراب، واقترب حاملًا قبّعته في يده، ومخفيًا ما أمكنه مضغة تبغ محشورة في أغوار وجنته. خصلاتٌ بيضٌ تزيّنُ كالفضّة فروةَ رأسه التي لا تزال كثيفة؛ بينما بشرتُه الملوَّحة، وعينه الثّاقبة تدلّان على بحّارٍ عتيق، لوّحته شمسُ الاستواء ودبّغته رياحُ العواصف.

قال: - أحسبُك ناديتني يا آنسة جولي، وها أناذا.

وكان بنيلون قد ألف المناداة على ابنة ربِّ عمله بالآنسة جولي، وما استطاع أن يتخلّى عن عادته ويناديها بالسيّدة هِربو.

قالت جولي: - بنيلون، اذهب إلى السيّد إيمانويل فأعلمه بهذه الزّيارة الطيّبة، بينما أخي يرافق السيّد.

ثمّ استدارت شطر الكونت مونت كريستو قائلةً: - سوف يسمح لي السيّد بأن أغيب دقيقة، أليس كذلك؟

ومن دون أن تنتظر ردّ الكونت، انطلقت خلف أجمة نباتاتٍ ودخلت المنزل عبر ممشى جانبيّ.

قال الكونت: - آه يا عزيزي موريل! يزعجني أن أقف على ما أحدثتُه في بيتكم من فوضى.

أجابه ماكسيميليان ضاحكًا: - انظُر هناك يا سيّدي، هل ترى الزّوجَ يبدّل سترتَه بسترة رودنجوت؟ أوه! الحقُّ أنّك معروف في مسلاي، وقد أُعلن عن قدومك قبل أن تصل.

قال الكونت معبّرًا عمّا يجول في خاطره: - تبدو عائلتك سعيدةً يا سيّدي.

- آه يا سيّدي الكونت، أؤكّد لك، وكيف لا؟ لا ينقصهما شيءٌ ليكونا سعيدين: إنّهما شابّان، فرحان، متحابّان، وإنّ الخمسة وعشرين ألفًا التي يكسبانها سنويًا تبدو لهما أكبر من ثروة روتشيلد.

أجاب الكونت بلطفٍ بالغ أصاب قلب موريل كأنّما سمعه من فم والده: - ومع ذلك تظلّ خمسةً وعشرون ألفًا مبلغًا بسيطًا؛ لكنّ الشّابين العزيزين لن يظلّا عند هذه النّقطة، وإنّما سيصيران بدورهما مليونيرَين. هل السيّد صهرك محام... طبيب؟..

- كلّا، إنّه تاجرٌ وقد استلم مؤسّسة المرحوم والدي، الذي توفيَ مخلّفًا ثروةً تقدّر بخمسمائة ألف فرنك؛ آل إليّ نصفُها، والنّصف الباقي إلى أختي، إذ كنّا طفليه الوحيدين. وزوجها الذي تزوّجها وليس في رأسماله غير نبل أخلاقه وفطنته الحادّة وسمعته الطيّبة، أراد أن يملك قدر ما تملكه زوجته. فاشتغل حتّى جمع مائتين وخمسين ألفَ فرنكٍ؛ وكانت ستُّ سنوات كافيةً ليبلغ مرادَه. ولا أقدر أن أصف لك يا سيّدي الكونت المنظر المؤثّر، منظر الشّابين المجِدَّين، المتلاحمين، اللذين وضعا كلّ طاقتهما في سبيل جمع تلك الثروة، واللّذين مع ذلك لم يبخلا على نفسيهما، ولا أرادا أن يغيّرا العادات التي ألِفاها في منزل الوالدين، فأنفقا ستّ سنواتٍ في جمع ما قد يجمعه المقتِّر في سنتين أو ثلاث، وإلى اليوم لا تزال سيرتهما تتردّدُ مدائحَ في مارسيليا. المهم، ذات يومٍ أتى إيمانويل إلى زوجته بعدما أنهى دفع ما عليه من أقساطٍ، وقال:

«جولي، ها آخر حزمة من مائة فرنكٍ أعطانيها كوكليس، وهي تمامُ المائتين وخمسين ألف فرنك التي حدّدناها سقفًا لأرباحنا. فهل ستقنعين بهذه الثروة القليلة التي ينبغي أن نعيش بها من الآن؟ اسمعي، إنّ المؤسّسة تُجري صفقات سنوية قيمتها مليون فرنك، ونستطيع أن نجني

أربعين ألف فرنك. ولو أردنا أن نبيع تجارتنا، فسوف نجني ثلاثمائة ألف فرنك في ساعةٍ، فها رسالةٌ من السيّد دُلوناي يقترح فيها علينا هذا المبلغ مقابل ضمّ أعمالنا إلى أعماله. فانظري ما تفعلين.

وأجابته أختي: - إنّ مؤسّسة موريل يا صديقي لا يمكن أن يديرها إلا واحدٌ من آل موريل. أليس الأحرى بنا أن نكسب ثلاثمائة ألف فرنكٍ، ونجنّبَ اسمَ أبي تقلّبات الزّمن؟

أجابها إيمانويل: - بلى، ذلك ما فكّرتُ فيه؛ لكنّني أردت معرفة رأيك.

- حسنًا يا صديقي، ها قد أمّنا مداخيلنا، وقضينا ديوننا؛ بوسعنا إذًا أن ننهي المسألة: نغلقُ حساباتنا عند هذا الحدّ ونقفل المؤسّسة.

وذلك ما تمّ بالفعل في اللّحظة نفسها. كانت السّاعةُ الثالثة. وفي الثالثة والرّبع أتى زبونٌ يتعاملُ معهما في حمولة سفينتين، ممّا كان سيُكسبهما خمسة آلاف فرنكٍ خالصةً.

فقال له إيمانويل: - سيّدي، أرجو أن تتوجّه إلى زميلنا السيد دُلوناي. أمّا نحنُ، فقد أوقفنا نشاطنا.

سأله الزّبون مندهشًا: - منذُ متى؟

- منذ ربع ساعة.

(واصل ماكسيميليان مبتسمًا): هكذا يا سيّدي إذًا صار مدخول أختي وصهري خمسة آلاف فرنك؟.

وما كاد ماكسيميليان ينهي حكايته، وقلب الكونت ما انفكّ يرتاح، حتّى ظهر إيمانويل، مرتديًا قبّعةً وسترةَ رودنجوت. حيّا زائره تحيّةَ من يدرك حقًّا قدرَه. ثمّ بعد أن جال بالكونت في الحديقة المزهرة، أدخلَه إلى المنزل.

كان الصالون مضمّخًا بزهور حُشرت حشرًا في مزهرية يابانية هائلة. وكانت جولي قد تأنّقت في ملبسها وتسريحة شعرها (أنجزت كلّ ذلك

في وقت قياسيّ: عشر دقائق)، ووقفت تستقبل الكونت بباب الصّالون.

كان صوتُ قوقأة الطّيور يتناهى من قنٍّ مجاورٍ؛ وأغصانُ الخرمال الأبنوسيّ والأكاسيا تحفُّ بأعذاقِها الستائر الزرقاء المخملية. كلّ ما في هذا المأوى الصّغير يتنفّسُ الهدوءَ، بدءًا من زقزقة العصافير وصولًا إلى ضحكات ساكنيه.

وما إن دخل الكونت إلى المنزل حتّى تطبّع بجوّ السّعادة المهيمن عليه؛ لذا، ظلّ صامتًا ساهمًا، ناسيًا أنّ مضيفِيه يترقّبون وصلَ الحديث الذي انقطع بعد كلمات التّرحيب.

تنبّه إلى الصّمت الذي يكاد يكون غير لائقٍ، فانتزع نفسه بجُهدٍ من خيالاته، وقال: - سيّدتي، اعذريني لما ترينه فيّ من تأثّر، أنتِ المعتادةُ على هذه السّعادة؛ أمّا أنا فهذه المرّة الأولى التي أطالع فيها الرّضا متجسّدًا في وجهِ إنسانٍ؛ لذا ترينني لا أشبع من التملّي فيكما أنت وزوجك.

أجابته جولي: - نحن سعداء بالفعل يا سيّدي؛ لكنّنا عانينا من قبلُ كثيرًا؛ وقلائلُ هم من دفعوا مقابل سعادتهم ثمنًا كالذي دفعناه.

ارتسمت على محيّا الكونت أمارات الفضول.

قال ماكسيميليان: - أوه! هي قصّةٌ عائلية طويلة، مثلما قال لك شاتو رونو يومَ جمعَتا دعوة مورسيرف؛ أمّا أنت يا سيّدي الكونت، وقد شهدتَ مناظر بؤس وفرحٍ مذهلة، فلا أظنّك تجد ما يشفي فضولك في لوحةٍ بسيطة كلوحتنا. على أنّنا، كما قالت جولي، قد عانينا آلامًا لا تطاقُ، وإن كان الإطار الذي احتواها ضيّقًا...

سأله الكونت: - وهل أبدلكم الرّبُ آلامكم، بما يمحوها ويسلّيكم عنها، مثلما يفعل بالعادة مع الجميع؟

قالت جولي: - أجل يا سيّدي، يمكن أن نقول ذلك؛ إذ كافأنا الربّ بما لا يكافئ به إلا عباده المُخلصين؛ أرسلَ إلينا ملاكًا.

تضرّجت وجنتا الكونت، وسعل محاولًا إخفاء تأثّره في منديله.

قال إيمانويل: - إنّ من وُلدوا في سريرٍ من حرير، وما اشتهوا شيئًا في حياتهم، لا يعرفون معنى سعادة العيش؛ مثلما لا يعرف قيمةَ السّماء الصّافية، من لم يواجه عاصفةً في عرض البحر.

وقف الكونت، ومن دون أن يردَّ، إذ خشيَ أن تفضح نبرةُ صمته عواطفَه، وأخذ يذرع الصّالون على مهلٍ.

قال ماكسيميليان، وهو يتابع الكونت بنظرته: - تبتسمُ لكفاحنا يا سيّدي؟

أجاب الكونت شاحبًا وهو يحبس نبضات قلبه بيدٍ، بينما يدهُ الأخرى تشير إلى كرةٍ من كريستالٍ تحتها صرّةٌ من حرير موضوعةٌ على وسادة من مخملٍ أسود: - كلّا، كلّا، فقط أتساءلُ ما هذه الصّرةُ التي تحوي على ما يبدو ورقةً وماسّةً ثمينةً.

اتّخذت سحنة ماكسيميليان تعبيرًا جادًّا، وقال: - هذا يا سيّدي أثمن كنوز العائلة.

أجاب مونت كريستو: - فعلًا، تبدو ماسةً ثمينةً.

- أوه! إنّ أخي يا سيّد الكونت لا يتحدّث عن قيمة الحجر الكريم، وإن كانت هذه القيمة لا تقلّ عن مائة ألف فرنك؛ إنّما فقط يريد أن يقول إنّ ما تحويه الصرّةُ هي متعلّقاتٌ تخصُّ الملاك الذي حدّثناك عنه منذ قليل.

قال مونت كريستو وهو ينحني: - هذا ما لا أستطيع فهمَه، ولا السّؤال عنه؛ اعذرني على فضولي يا سيّدتي.

- إنّه فضولٌ خيّرٌ يا سيدي الكونت، إنّك لتُسعدنا إذ تمنحنا مرّةً أخرى مناسبةً لنستعيد هذه الذّكريات المبهجة. لو أنّنا كنّا نخفي تلك الذّكرى، لما وضعنا الصّرة هنا على مرأى الجميع. أوه! إنّنا لنودّ أن ننشرها في العالم بأسره، عسى إشارةً من ملاكنا يكشفُ لنا بها عن نفسه.

قال مونت كريستو بصوتٍ مخنوق: - آه! حقًّا!

قال ماكسيميليان وهو يرفع كرة الكريستال ويأخذ الصرّة فيقبّلها بتبجيلٍ: - هذه الصّرة يا سيّدي قد لامستها يدُ رجلٍ أنقذ والدي من الانتحارِ ومؤسّستَنا من الإفلاس واسمَ عائلتنا من العار؛ رجلٌ بفضل يده البيضاء صار بوسعنا نحنُ، الأبناء المنذورين للبؤس والشّقاء، أن نسمع النّاس يهلّلون لسعادتنا ونجاحنا. هذه الرّسالة (وأخرج ماكسيميليان من الصرّة ورقةً) كتبها الرّجلُ المجهولُ بيده يومَ اتّخذ والدي قرارًا في لحظة يأسٍ، والألماسةُ عطيةٌ منه إلى أختي.

فتح مونت كريستو الرّسالةَ وقرأها بتعبير سعادةٍ لا يوصفُ، كان المكتوبَ الذي اطّلع عليه قرّاؤنا من قبل، والذي أُرسل إلى جولي موقّعًا من طرف السّندباد البحريّ.

قال الكونت: - تقولُ الرّجل المجهول؟ ظلّ الرّجل مجهولًا إذًا بالنّسبة إليكم؟

قال ماكسيميليان: - أجل يا سيّدي، لم نتشرّف البتّة بمصافحة يده؛ لم نألُ جهدًا في التّضرع إلى الربّ أن ينعم علينا بذلك؛ لكنْ ثمّة لغزٌ لم نستطع إدراكه إلى الآن؛ لقد تمّ كلّ ذلك بتدبيرٍ من يدٍ قويّةٍ خفيّةٍ، وكأنّما اضطلع به ساحرٌ.

قالت جولي: - أوه! أنا لم أفقد الأمل في أن أتمكّن يومًا ما من تقبيل تلك اليد، مثلما أقبّلُ الصرّةَ التي لمَستها. منذ سنواتٍ أربعٍ، كان بِنيلون في تريستي: بِنيلون يا سيّدي هو بحّارٌ شجاعٌ، هو الرّجلُ الذي رأيتَه حاملًا مجرفةً، والذي صار بستانيًا بعدما كان رئيسَ بحّارةٍ. قلتُ إنّ بِنيلون كان في تريستي، فرأى إنجليزيًا يريد الصّعود إلى يخت، فعرفه، كان الرّجلَ الذي زار أبي يوم 5 يونيو 1829، وكتبَ ليَ هذه الرّسالة يوم 5 سبتمبر. يؤكّد بحّارُنا أنّه كان نفس الرّجل، لكنّه لم يجرؤ على الحديث إليه.

قال مونت كريستو ساهمًا، وقلقه يتعاظم كلّما أنعمت فيه جولي النّظر: - إنجليزي! تقولين، إنجليزي؟

أجاب ماكسيميليان: - أجل، إنجليزيٌ كان قد زارنا بوصفه وكيلًا لمؤسّسة **طومسون وفرانش** بروما. ولهذا انتفضتُ أنا، حين سمعتُك في بيت مورسيرف تقول إنّ السيّدَيْن **طومسون وفرانش** هما مصرفيّاك. بحقّ السّماء يا سيّدي، لقد جرت هذه الأحداث سنة 1829؛ فهل تعرف الإنجليزي؟

- لكن، ألم تقل لي إنّ مؤسّسة **طومسون وفرانش** قد أنكرت على الدّوام صلتها بما قُدم لكم من خدمة؟

- بلى.

- ألا يمكن أن يكون هذا الإنجليزي إذًا رجلًا سبق أن أسدى إليه والدكم معروفًا، وما كلّ ما فعله إلا ذريعة لردّ هذا المعروف؟

- كلّ شيءٍ واردٌ يا سيّدي، في هذه الحال، حتّى المعجزةُ واردة.

سأله مونت كريستو: - وما كان اسم هذا الإنجليزيّ؟

قالت جولي وهي تواصل التفرّس في الكونت: - لم يترك لنا من اسمٍ غير ذاك الذي وقّع به رسالتَه: السّندباد البحريّ.

- وهذا بالطّبع ليس اسمًا، وإنّما لقبًا اتّخذه لنفسه.

أمعنت فيه جولي النّظر محاولةً أن تدرك وتتفحّص شيئًا من نبرةِ صوته.

واصل الكونت الكلامَ: - حسنًا، ألم يكن رجلًا في طول قامتي تقريبًا، ربّما أطول بقليل، وأنحفَ جسمًا، يخنق نفسه على الدّوام بربطة عنقٍ وسترةٍ مزرّرةٍ بأكملها، ويحمل دائمًا قلمًا في يده؟

صاحت جولي وعيناها تبرقان فرحًا: - أوه! إنّه هو! أنت تعرفه إذًا؟

- كلّا إنّما أفترضُ. إذ أعرفُ شخصًا يسمّى اللورد ويلمور، كان مشهورًا بأعمال خيرية من هذا القبيل.

- يفعل الخير من دون أن يكشف عن نفسه!

- إنّه رجلٌ غريبُ الأطوار، لا يؤمن بالعرفان.

صاحت جولي بنبرةٍ رفيعة وهي تشبك ذراعيها: - أوه! وبماذا يؤمن؟

قال مونت كريستو وقد هزّته نبرةُ صوتها حتّى أغوار نفسه: - حتّى الزّمن الذي عرفتُه فيه، لم يكن يؤمن بذلك؛ لكن لربّما قد رأى مذّاك دلائل أقنعته بوجود العرفان.

سأله إيمانويل: - وهل تعرف هذا الرّجل يا سيّدي؟

وصاحت جولي: - أوه! إن كنت تعرفه يا سيّدي، فهل تستطيع أن تقودنا إليه، أن ترينا إيّاه، أن تقول لنا أين هو؟ ما رأيُك يا ماكسيميليان، وأنت يا إيمانويل؛ إن قابلناه فلا بدّ أن يؤمن بذاكرة القلب.

أحسّ مونت كريستو بدمعتين تتشكّلان في مقلتيه، تحرّك خطواتٍ أخرى في الصّالون.

قال ماكسيميليان: - بحقّ السّماء يا سيّدي! إن كنت تعرفُ شيئًا عن هذا الرّجل، فلا تخفيه عنّا.

قال مونت كريستو وهو يكبت تأثّرَ صوته: - للأسف! إن كان الرّجلُ الخيّر هو اللورد ويلمور، فأخشى أنّكم لن تقابلوه أبدًا. لقد قابلته منذ سنتين أو ثلاث في باليرمو وكان في طريقه إلى بلدان بعيدة، بلدانٍ أعجب؛ ولا أظنّه يرجع من رحلته أبدًا.

صاحت جولي فزعة: - آه يا سيّدي، ما أقساك!

ثمّ غزت الدّموع عينيها.

قال مونت كريستو بصوتٍ عميقٍ وهو يتأمّل الألماستين السائلتين النّازلتين على خدّي جولي: - سيّدتي، لو أنّ اللورد ويلمور قد رأى ما رأيتُه هنا، لزادت محبّته للحياة، إذ إنّ الدّموع التي تذرفينها كانت لتصالحه مع بني البشر.

ثمّ مدّ يدَه إلى جولي، فمدّت إليه يدها، وقد سحرتها نظرةُ الكونت ونبرتُه.

قالت وهي تتمسّك بآخر أملٍ: - لكن، هذا اللورد ويلمور، ألم يكن لديه بلدٌ، أو عائلةٌ، أو أقارب، أو أحد يعرفه؟ ألن يكون بمقدورنا أن...؟

قال الكونت: - أوه! لا تبحثي يا سيّدتي، لا تبني خيالاتٍ عذبة على كلمة أفلتت منّي. مؤكّدٌ أنّ اللّورد ويلمور ليس الرّجل الذي تبحثين عنه: لقد كان صديقي، ويأتمنني على أسراره، وما كان ليخفيَ عنّي شيئًا مماثلًا.

- ألم يخبرك بشيء؟

- كلّا.

- ولا أيّ كلمة يمكن أن تجعلنا نفترض...؟

- ولا كلمة.

- ومع ذلك عيّنته بالاسم قبل قليل.

- آه! كما تعلمين... في مثل هذه الحالات، نلجأ إلى التّخمين.

قال ماكسيميليان مادًا للكونت يدَ العون: - أختاه، يا أختاه! إنّ سيّدي الكونت محقٌّ. تذكّري ما كان يقوله لنا أبونا: «إنّ الرّجل الذي أسعدنا، ليس إنجليزيًا».

انتفض الكونت، وقال بانفعال: - ماذا كان والدك يقول يا سيّدي موريل؟

- كان والدي يا سيّدي، يرى فيما وقع معجزةً. كان يظنُّ المحسنَ الذي جاءنا، قد خرج من قبر. آوه! كانت خرافةً بيّنةً، لا أحد منّا صدّقها، ومع ذلك ما رغبت قطّ في أن أدمّر هذا الاعتقاد الرّاسخ في قلبه النّبيل! وكم مرّةً سمعته يهمس في حلمه باسم صديقٍ عزيز، صديقٍ فقدَه؛ وحين دنا أجله، واقترب من الأبدية، فأشرقت بنورها نفسُه، صار الظنُّ يقينًا، فقال لي قبيل أن تفيض روحه: ماكسيميليان، لقد كان إدمون دانتِس!

ولمّا سمع الكونت تلك الكلمات، صار شحوبُه الذي ما انفكّ يتعاظمُ، رهيبًا. لقد انسحب الدّم من جسده كلّه إلى قلبه، وإذ انحبس الكلامُ في حلقه، أخرج ساعته كأنّما تأخّر عن موعدٍ، وحمل قبّعته، وحيّا السيّدة هِربو تحيّة عجلى، ثمّ صافح إيمانويل وماكسيميليان.

قال: - اسمحي لي يا سيّدتي أن أزورك بين الفينة والأخرى. لقد أحببت منزلك، وأدينُ لك بحسن الاستقبال، فهذه المرّة الأولى، منذ سنواتٍ، التي أرتاح فيها حتّى يفوتني الوقت.

وخرج مسرعًا.

قال إيمانويل: - أيّ رجلٍ فريدٍ هذا الكونت مونت كريستو!

قال ماكسيميليان: - أجلْ، لكنّ له قلبًا طيّبًا، وأنا متأكّدٌ من أنّه يحبّنا.

وقالت جولي: - وأنا أيضًا! لقد أصاب صوتُه قلبي، ومرّتين أو ثلاثًا خلتُ أنّي سمعته من قبل.

51

بيراموس وثيسبي[1]

عند ثُلثي المسافة نحوَ ضاحية سان أونوريه، خلف قصرٍ بارزٍ بين المساكن المعتبرة في ذاك الحيّ الغنيّ، يمتدّ بستانٌ فسيحٌ تتجاوز أشجارُ الكستناء الكثيفة فيه جدرانَه العالية كأسوارِ مدينة، وحين يحلّ الرّبيعُ تُسقِطُ زهورها الوردية والبيضاء في أصيصَين من حجر مخدّد وُضعا متوازيين على عمودين مربّعين ثبّتَ إليهما سياجٌ من حديد يرجعُ إلى زمن لويس الثالث عشر.

إنّ هذا المدخل قد أُقفلَ وما عاد يُستعملُ، على الرّغم من نبات الغرنوقي الرّائع الذي ينبث في الأصيصَيْن، مطلقًا في الرّيح أوراقَه الرّقشاء وزهورَه الأرجوانية، وذلك مُذ أن قرّر ملّاك القصر، منذ مدّةٍ طويلةٍ، أن يحصروا عقارَهم في مبنى القصر، والحديقة المزروعة أشجارًا والمطلّة على الضّاحية، والحديقة التي يغلّقها السيّاجُ الذي كان فيما مضى يطلّ على بستانٍ رائعٍ مساحتُه فدّانٌ ملحق بالعقار. لكن إذ رسمَ شيطانُ المضاربة خطًّا، نقصدُ شارعًا، أقصى البستانِ، واتّخذ هذا الشّارع اسمًا، حتّى قبل أن يُنشأَ، بفضل لافتةٍ صقيلة، فقد ظُنَّ أنّ بالإمكان بيع البستانِ ليُبنى عليه ويحوّل إلى حيٍّ ينافس هذا الشّريان الباريسيّ الذي نسمّيه ضاحية سان أونوريه.

لكن حين يتعلّق الأمر بالمضاربة، فإنّ الإنسان يفكّرُ والمالُ يقرّر؛ وقد مات الشّارعُ المذكورُ وهو لا يزالُ في المهد؛ وبعد أن دفع مشتري

(1) أسطورة عاشقين ماتا معًا، وتَنسُبُ الأسطورةُ إلى دمهِما لون التوت الأحمر.

البستان ثمنه كاملًا، لم يستطع أن يبيعَه بالسّعر الذي كان يطمح إليه، فظلّ ينتظر ارتفاع قيمته التي لا بدّ، طال الزّمن أو قصُر، أن تعوّضه خسارَته الماضية وركودَ رأسماله؛ وفي انتظار ذلك اكتفى بتأجير أرضه المسيَّجة إلى بستانيّين بمبلغ خمسمائة فرنكٍ في السّنة. يعني أنّه قد وظّف ماله بنسبة نصف من واحد بالمائة، وهو مبلغٌ هزيلٌ بالنّسبة إلى عصرنا الحالي الذي يوظّفُ فيه أشخاصٌ أموالهم بنسبة خمسين بالمائة ويرَون أنّها، مع ذلك، لا تحقّقُ أرباحًا تذكر.

على أنّ سياج الحديقة التي كانت فيما مضى تطلُّ على البستان، قد صارَ، كما قلنا، مغلقًا، ونخر الصّدأُ مفصلاته؛ لا بل أكثر من ذلك: لكي لا يتسلّل الفلاّحون الحوَشُ بنظراتهم السّوقية إلى داخلِ الحرم الأرستقراطيّ، فقد سُمّرت إلى قضبانِ السيّاج ألواحٌ ترتفعُ بطول ستّ أقدامٍ. صحيحٌ أنّ الألواح ليست متراصّةً بإحكام، وأنّ بالإمكان اختلاس النّظرِ من بينها؛ لكنّ منزلنا هذا منزلٌ صارمٌ ولا يخشى المتلصّصين.

وفي البستان، بدلًا من الملفوف والجزر والفجل والبازلاء والبطّيخ، تنمو أغصانُ برسيم طويلة، وهي الأمارةُ الوحيدة الشّاهدة على أنّهُ لا يزال ثمّة من يفكّر في هذا المكان المهجور. وإنّ بابًا صغيرًا واطئًا، ينفتحُ على الشّارع المفترض، هو المدخل إلى هذه الأرض المسيّجة التي تركها مكتروها لعقمها، فصارت منذ ثمانية أيّامٍ لا تعود على صاحبها حتّى بذاك النّصف بالمائة الذي ذكرناه.

بجانب القصر، تجلّلُ الجدارَ أشجارُ الكستناء التي ذكرناها، ولا يمنع وجودُها أشجارًا أخرى مورقةً ومزهرةً من أن تحشر بين فرجاتها أغصانها المتعطّشة إلى الهواء. وفي ركن حيث تصير الأوراق كثيفةً إلى درجة أنّها بالكاد تسمح للضوء باختراقها، ثمّة مصطبة حجريّة واسعة ومقاعد حديقة تشكّل مكانًا مثاليًا للاجتماع أو الخلوة بالنّسبة إلى بعض سكان القصر الواقع على بعد مائة خطوة؛ مكانٌ بالكاد يلمح خلال جدار الخُضرة المحيط به. وإنّ اختيار هذا الملاذ الغامضِ إنّما يبرّره

غيابُ الشّمس، والانتعاشُ الدّائمُ، حتّى في أشدّ أيّام الصّيف حرارةً، وتغريدُ العصافير، والبعد عن المنزل والشّارع، أي الابتعاد عن الضّجيج والعيون.

قُبيل حلول مساء يومٍ من أشدّ الأيامِ حرارةً ممّا جاد به الرّبيع على سكان باريس، كان على المصطبة الحجَريّة كتابٌ وسلّة أدواتٍ ومنديل باتيست[1] شُرع في تطريزه؛ وغير بعيد عن المصطبة، قرب السياج، كانت تقفُ امرأةٌ أمام الألواح، تنظر عبر شقٍّ منها إلى الحقل القفر.

وفي الوقت نفسه تقريبًا، انغلق باب هذا الحقل من دون صوتٍ يذكر، وظهر شابٌّ طويل القامة متينُ البنية، يرتدي سترةً من القماش الخام، وقبّعة من المخمل؛ لكنّ له شاربًا ولحية وشعرًا أسود يبالغ في الاعتناء به، ممّا يتنافرُ جميعًا مع لباسه الشّعبيّ؛ وبعدما ألقى نظرة خاطفةً حواليه، فتأكّد من أنّ لا أحد يراقبُه، عبَر من الباب، ثمّ أقفله خلفَه، وتقدّم بخطى مسرعة صوب السّياج.

لمرأى الشّخص الذي كانت تنتظره –ولكن قطعًا ليس بهذا الزيّ– ارتعبت الشّابة وارتمت إلى الخلف.

ومع ذلك، فإنّ الشّاب بنظرته التي لا يحملها إلا عاشقٌ، كان قد رأى عبر شقوق الباب الفستان الأبيض يتماوج ورأى أيضًا الحزام الأزرق، فانطلق صوب السياج، وألصق فمه بإحدى الفتحات قائلًا:

– لا تخافي يا فالانتين، إنّه أنا.

دنت الصبيّة، وقالت: – أوه يا سيّدي! لمَ أتيت اليوم متأخّرًا جدًا؟ أما علمت أنّنا على وشك أن نتعشى، وأنّني احتجت الكثير من الدبلوماسية وسرعة البداهة لكي أتخلّص من زوجة أبي التي تراقبني، وخادمتي التي تتجسّس عليّ، وأخي الذي يزعجني، وآتيَ إلى هذا المكان وأشتغل بهذا التّطريز الذي كان يفترض أن أتّمه منذ زمنٍ طويلٍ؟ ثمّ، بعد أن تعتذر عن

---

(1) قماش ناعمٌ من الكتان أو القطن، ظلّ يحظى بتقدير خاصّ لعدّة قرون.

تأخيرك، ستقول لي ما خبر هذا الزيّ الجديد الذي راق لك ارتداؤه، وكان السبب في ألّا أتعرّف عليك.

قال الشّاب: - عزيزتي فالانتين، أنت في مرتبةٍ أعلى من حبّي، حتّى أنّني لا أجرؤ على البوحِ لك به، ومع ذلك كلّما رأيتُك لا أستطيع أن أثني نفسي عن قول: «أعشقُك»، حتّى أحسّ بصدى الكلمة يداعب شغاف قلبي. والآنَ، أشكرك على توبيخك، إنّه توبيخ لطيف، لأنّه بالنّسبة إليَّ الحجّة... ليس على أنّك كنت تنتظرينني، فهذا ما لا أستطيع ادّعاءَه، وإنما على أنّك كنت تفكرين بي. تريدين أن تعرفي سبب تأخيري، وغاية تنكّري في هذا الزيّ؛ سأخبرك بهما، وأرجو أن تعذريني إذّاك؛ لقد اخترت أن أتنكّر في هيئة معيّنة...

- تتنكّر في هيئةٍ معيّنة!... ما الذي تقصده يا ماكسيميليان؟ هل وضعنا مريحٌ إلى هذه الدّرجة حتّى تتحدّث عنه مازحًا؟

- أوه! ليحفظني الرّب من المزاح في ما أعتبره حياتي؛ لكنّني تعبت من الرّكض عبر الحقول، وتسلّق الجدران، فزعًا من الصورة التي زرعتِها في نفسي حين أخبرتني أنّ والدك قد يمسك بي فيحاكمني محاكمةَ لصٍّ، ممّا قد يلطّخ سمعة الجيش الفرنسي بأكمله. كما خشيتُ أن أوقظ الشّكوك إن ظللتُ أحوم في المنطقة، حيثُ لا قلعة أحاصرها أو حصنَ أدافع عنه؛ فجعلت من نفسي سبّاخًا[1] بدلاً من قبطان صبايحية، وارتديت الزيّ المناسب لوظيفتي الجديدة.

- أيّ جنون هذا!

- بالعكس، إنّه، على ما أحسب، أعقل تصرّف قمت به في حياتي، لأنّه يمنحنا أمانًا تامًّا.

- كيف ذلك؟ اشرح ليَ الأمر!

- حسنًا، لقد قصدتُ مالك هذا البستان؛ وإذ كان عقد إيجاره

---

(1) زارع بقول في السباخ.

للمستأجرين السّابقين قد انتهى أمدُه، فقد استأجرتُه. كلّ هذه الأرض المسيّجة هي الآن في ملكيتي؛ لا شيء يمنعني من أن أبنيَ كوخًا وسط التّبن، وأعيش على بعد عشرين خطوةً منك! لا تتخيّلي مقدار سعادتي يا فالانتين. هل تدركين معنى أن يكون في مقدور الإنسان شراء سعادته وفرحه؟ مستحيلٌ، أليس كذلك؟ حسنًا، أقول لك إنّ كلّ هذه السّعادة والفرح والرّضا، كلّ هذه الأشياء التي كنتُ لأعطي نظيرَها عشر سنواتٍ من عمري، قد كلّفتني... خمّني؟ خمسمائة فرنكٍ في السّنة، أدفعها على ثلاث دفعاتٍ. ترين إذًا أنّه لم يعد لدينا ما نخشاه. أنا الآن إذًا في بيتي، أستطيع أن أضع سلّمًا لصق سور حديقتي، وأنظرَ من فوقه؛ وأستطيع، من دون أن أخشى مباغتةً من أحد، أن أردّد على مسامعك «أحبّك»، طالما لم يجرحك أن تسمعي هذه الكلمة من فم عاملٍ يرتدي سترةً ويعتمر قبعة.

أطلقت فالانتين صرخة دهشة مرحة؛ ثمّ ما لبثت أن قالت بنبرةٍ حزينة، كأنّما غمامةٌ حسودٌ أتت بغتةً تحجبُ شعاع الشّمس الذي يغمر قلبها:

- واأسفًا يا ماكسيميليان! الآن سنصير أكثر حريّةً؛ وسنفرط في استغلال الأمان الذي ننعم به؛ وحريّتنا ستودي بنا.

- كيف تقولين هذا يا عزيزتي، كيف تقولينه لي أنا الذي مُذ عرفتُك وأنا أُثبت لك كلّ يوم أنّني قد جعلتُ حياتي وفكري تابعَيْن لحياتك وفكرك؟ كيف أجعلكِ تثقين بي؟ تعرفين أن سعادتي بقربك، أليس كذلك؟ وحين قلت لي إنّك تشكّين في أنّ خطرًا يتهدّد حياتك، ألم أجعل نفسي فداءً لك، لا أرجو جزاءً سوى سعادةِ أن أخدمك؟ هل سبق أن جعلتُك، ولو بكلمة أو بتصرّف بسيط، تندمين على اختياري من بين كلّ أولئك الذين كان سيسعدهم الموت في سبيلك؟ لقد قلتِ لي يا صغيرتي إنّك مخطوبةٌ إلى السيّد إبيناي؛ وإنّ أباك هو من قرّر هذا الارتباط، أي إنّ الارتباط كان واقعًا لا محالة؛ لأنّ كلّ ما يقرّره السيّد فيلفور، لا بدّ وأن يحدث. بقيت في الظلّ أرقبُ، لا إرادتي أو إرادتك، وإنّما ما ستقرّرُه الأحداثُ، والقدّر، أو الربّ. لقد أحببتني يا فالانتين،

أشفقتِ عليَّ وبحتِ لي بحبّك؛ أشكرك على ما قلته من كلامٍ عذب، ولا أطلب منك سوى أن تكرّريه عليّ بين الفينة والأخرى، لأنّهُ ينسيني كلّ شيء.

- كلامي هو ما شجّعك يا ماكسيميليان؛ وهذا ما يجعل حياتي في آنٍ عذبةً وشقيّة، حتّى إنّي كثيرًا ما أسأل نفسي ما الأفضل لي: الحزنُ الذي كانت تسبّبه لي فيما مضى زوجة أبي، وتفضيلُها الأعمى لولدها، أم السّعادة المحفوفة بالخطر التي أتذوّقُها بلقائك.

صاح ماكسيميليان: - محفوفة بالخطر! كيف لك أن تقولي كلمة بهذه القسوة والظّلم؟ هل رأيت من قبلُ عبدًا أشدّ طاعةً منّي؟ لقد سمحتِ لي يا فالانتين بأن أكلّمك أحيانًا، لكنّك منعتني من أن أتبعك؛ وقد أطعتُ أوامرك. ومنذ وجدتُ السّبيل إلى أن أتسلّل إلى هذا البستان، فأتحدّث إليك عبر هذا الباب، وأكون بقربك حتّى من دون أن أراك، هل حدث أن طلبت منك أن تسمحي لي بأن ألمس ولو طرف ثوبك عبر هذه القضبان؟ هل سبق أن تجرّأتُ على خطوةٍ أقفزُ بها على هذا الجدار الهيّن أمام فتوّتي وقوّتي؟ لم أتذمّر قطّ من صرامتك، ولا عبّرتُ عن رغبةٍ؛ التزمتُ بكلمتي كأنّي فارسٌ من فرسان الأزمنة الماضية. أقرّي بهذا على الأقل، حتّى لا أراك ظالمةً.

قالت فالانتين وهي تخرج طرف إصبع من أصابعها بين لوحين، فيلثمه ماكسيميليان بشفتيه: - صحيح أنّك رجلٌ صادقٌ؛ لكنّك تصرّفت بما فيه خيرٌ لك يا عزيزي ماكسيميليان؛ فإنّك تعلمُ أنّ العبد حين يصير متطلّبًا، يخسر كلّ شيء. لقد وعدتني بأن تكون لي صديقًا وأخًا، أنا التي لا أصدقاءَ لي، وأبي يهملني، وزوجة أبي تضطهدني، ولا من يواسيني إلا شيخٌ مشلول، أخرس، جامدٌ، لا يستطيع حتّى أن يشدّ على يدي، ولا أن يخاطبني إلا بعينيه، ولا حرارة تدفئني إلا حرارةُ قلبه النّابض حبًّا لي. سخريةُ قدرٍ مريرةٍ جعلتني ضحيّةَ من هم أقوى منّي، ولم تجعل لي من صديقٍ أو مساندٍ إلا جثة! أوه يا ماكسيميليان! أقول لك إنّني حقًّا تعيسةٌ،

وإنّك محقٌّ في أن تحبّني لأجلي وليس لأجل نفسك.

قال الشّاب بتأثّرٍ عميق: - فالانتين، لن أقول إنّي لا أحبُّ سواك، فأنا أحبّ أختي وزوجها، لكنّه حبٌّ هادئٌ ووديعٌ، لا يشبه في شيٍ ما أحمله لك من مشاعرَ. حين أفكّر فيك، يهتاجُ دمي، وينتفخ صدري، ويفيضُ قلبي؛ لكنّ هذه القوّة وهذه الحماسة، وهذه القدرة الخارقة، سأقصرها جميعًا على حبّك إلى أن يحين اليوم الذي تطلبين منّي فيه خدمةً، فأجعلها جميعًا في خدمتك. سوف يغيب السيّد فرانز ديبيناي عامًا آخرَ، على ما يقال؛ وفي عام يمكن أن تخدمنا الكثير من الحوادث، وأن تدعمنا الكثير من الصّدف! لَنأمل إذًا، ما دام الأمل طيّبًا وعذبًا! لكن في انتظار ذلك، دعيني أسألك يا فالانتين: ماذا كنت أنت بالنّسبة إليّ؟ تمثال فينوس التّقية، الجميل والبارد. في مقابل إخلاصي وطاعتي، وتعفّفي، بماذا وعدتني أنت؟ بلا شيء؛ ماذا أعطيتني؟ القليل. تحدّثينني عن خطيبك السيّد ديبيناي، وتتنهّدين مشفقةً من فكرة أن تكوني يومًا له. قولي يا فالانتين، أهذا كلّ ما في نفسك؟ ماذا! أنا أهبك حياتي، وروحي، وأدنى نبضٍ في قلبي؛ جعلت نفسي كلّها فداءً لك، وحين أهمس لك بأنّني سأموت إن فقدتُك، لا يُحدِث كلامي فيك أثرًا، لا يرهبك أن تصيري زوجة شخصٍ آخر! آه يا فالانتين، لو أنّني كنت مكانك، لو أنّ أحدًا أحبّني مثلما أحبُّك أنا، لكنت مائة مرّة قد أخرجت يدي من بيت قضبان هذا السيّاج، ولشدّدت بها على يد المسكين ماكسيميليان قائلةً: «أنا لك يا ماكسيميليان، لك وحدك، سواء في هذا العالم، أو في عالمٍ غيره».

لم تقل فالانتين شيئًا، لكنّ الشّاب سمعها تشهق وتبكي.

أثّر بكاءَها فورًا في ماكسيميليان فصاح: - أوه يا فالانتين! إنسي كلامي إن كان فيه ما يجرحك!

قالت: - كلّا! لكن ألا ترى أنّني مخلوقة مهيضةُ الجناح، متروكة في بيت يكاد يكون غريبًا بالنّسبة إليّ، لأنّ أبي صار تقريبًا شخصًا غريبًا

عنّي؛ ومنذ عشر سنواتٍ ما انفكّت إرادتي تنسحق، يومًا عن يوم، وساعةً عن ساعة، ودقيقة عن دقيقة، تحت الإرادة الحديدية التي ترهقني؟ لا أحد يعرف أنّني أعاني، ولم أخبر أحدًا سواك. في الظّاهر، وأمام أعين الجميع، كلّ شيءٍ على ما يرام، والجميعُ يعاملونني برفق؛ لكن في الواقع الجميعُ يناصبني العداء. يقول النّاس إنّ السيّد فيلفور شديد الجديّة والقسوة، فلا يمكن أن يبدي العطف لابنته؛ لكنّها على الأقلّ رزقت بزوجة أبٍ هي بمثابة أمٍّ ثانية بالنّسبة إليها. لكنّهم مخطئون، أبي يتركني بلامبالاة، وزوجة أبي تكرهني بضراوةٍ تزيدها رعبًا الابتسامةُ الأبديّة التي تحجب بها كُرهها.

- تكرهك! أنت يا فالانتين! من يقدر على كرهك؟

- للأسف! يا صديقي، إنّي مضطرّةٌ إلى أن أعترف بأنّ كراهيّتها تلك تنبع من شعورٍ يكادُ يكون طبيعيًّا: إنّها تحبّ ابنها، أخي إدوارد.

- ثمّ؟

- ثمّ وإن بدا غريبًا ربطُ ما سبق بمسألة النّقود، إلا أنّني أعتقد أنّ كراهيتها نابعةٌ من هنا. بما أنّها لا تملك مالًا، وأنا غنيّةٌ أصلًا بما ورثتُه عن أمّي، وستتضاعف ثروتي بما سيؤول إلي من أموال السيّد والسيّدة دو سان مِران، فإنّي أعتقد بأنّها تحسدني! أوه يا إلهي! لو كان لي أن أعطيها نصف هذه الثروة، وأصير في بيت السيّد دو فيلفور مثل بنتٍ في بيت أبيها، لما كنتُ لأتردّد لحظةً في ذلك.

- أيّتُها المسكينة!

- أجل، أشعر بأنّني مقيّدةٌ، وفي الوقت نفسه أشعر بأنّني ضعيفة، إنّ الحبال التي تقيّدني، تبدو لي أنّها هي ما يدعمني، وأخشى أن أقطعها. ثمّ إنّ والدي ليس الرّجل الذي تُعصى أوامرُه بغير عقابٍ. إنّه قويٌّ ضدّي، وسيكون قويًا ضدّك، بل وضدّ الملك نفسه. ماضيه النّزيه يحميه، ووضعه الرّفيعُ يحصّنه. أوه! يا ماكسيميليان! أقسم لك أنّني لا أرغب في

خوض هذا الصّراع لأنّي أخشى أن تُكسر فيه أنتَ أيضًا.

أجابها ماكسيميليان: - حلمك يا فالانتين، لمَ كلّ هذا اليأس؟ لمَ ترين المستقبل دائمًا بهذا السّواد؟

- آه يا صديقي، لأنّني أقيسه على الماضي.

- حتّى وإن لم يكن لي انتماءٌ أرستقراطيٌّ رفيع، فإنّ نقاطًا كثيرةً تربطني بالعالم الذي تعيشين فيه؛ مضى ذاك الزّمن الذي كانت فيه فرنسا بلدين في بلدٍ واحدٍ؛ لقد ذابت العائلات الملكية الرّفيعة في العائلات الإمبراطورية. تزوّجت أرستقراطيةُ الرّماح نبالةَ المدفع. وأنا أنتمي إلى الطّبقة الثانية. ينتظرني في السّلك العسكريّ مستقبلٌ مشرقٌ، ثروتي محدودة لكنّها تضمن استقلالي؛ وسمعةُ أبي مقدّرةٌ باعتباره أحد أشرف التّجار الذين عرفهم بلدُنا. أقول بلدُنا يا فالانتين، لأنّك تقريبًا مارسيليّةٌ.

- لا تحدّثني عن مارسيليا يا ماكسيميليان، تكفي هذه الكلمة لأتذكّر أمّي، الملاك الذي أسِف لرحيله الجميعُ، والذي بعدما اعتنى بابنته طيلة مقامه القصير على الأرض، لا يزال يسهر عليه -هذا ما أرجوه- من مقامه الأبديّ هناك في السّماء. أوه! آه يا ماكسيميليان، لو كانت أمّي حيّةً لما كان ثمّة ما أخشاه! كنت سأخبرها بحبّنا، وكانت ستحمينا.

- واأسفًا يا فالانتين! لو أنّها كانت حيّةً لما عرفتُك، إذ بقُربها ستكونين سعيدةً؛ وفالانتين السّعيدةُ لن تنظر إليّ إلا من قمّة الازدراء!

صاحت فالانتين: - آه! يا صديقي، إنّك أنت من يظلمني... لكن، قُل لي...

قال ماكسيميليان إذ رأى تردّدها: - ماذا تريدين أن أقول لك يا فالانتين؟

واصلت الشّابةُ الكلام: - قُل لي، هل فيما مضى طالَ شيءٌ من الفتور علاقةَ والدي بوالدك؟

أجابها: - كلّا، على حدّ علمي، فعلى الرّغم من أنّ والدك كان مواطنًا متعصّبًا لآل بوربون، ووالدي مخلصًا للإمبراطور، إلا أنّ العلاقة بينهما

لم تشهد أيّ شنآن. لكن، لمَ هذا السّؤال يا فالانتين؟

- سأخبرك، إذ ينبغي أن تعرف كلّ شيء. يومَ تسميتك ضابطًا بجوقة الشّرف، نُشر الخبر في الجريدة. كنا يومئذٍ في غرفة جدّي، نوارتييه، وكان معنا أيضًا السيّد دانغلار، تعرف المصرفي الذي كاد حصاناه يقتلا أخي وزوجة أبي أوّل أمس؟ كنتُ أقرأ الجريدة لجدّي بصوتٍ مرتفع، بينما والدي وضيفه يتحدّثان في زواج الآنسة دانغلار. فلما أن بلغتُ المقال المخصّص لك، وقد كنتُ قرأتُه من قبلُ، إذ أتيتَ تبشّرني بالخبر منذ صباح اليوم السّابق؛ قلتُ، لمّا بلغتُ الفقرة المخصّصة لك، كنتُ سعيدةً جدًا... وعلى الرّغم من خوفي أن تُفضح مشاعري إن نطقتُ اسمك بصوتٍ مرتفع، إذ خفتُ أن يؤوَّل صمتي تأويلًا سيئًا، إلا أنّني استجمعتُ قوّتي وقرأتُ بأعلى صوتي.

- عزيزتي فالانتين!

- وما إن نطقتُ اسمك حتّى التفت إليّ أبي. كنت شبه موقنةٍ (لحمقي!) أنّ اسمك وقع كالصّاعقة على رؤوس الحاضرين، حتّى خلتني رأيتُ والدي ينتفض (بالنّسبة لوالدي كان ما رأيتُه مجرّد توهّم)، بل حتّى السيّد دانغلار. وقال والدي: «موريل، مهلًا! (ثمّ قطّب حاجبَه) أليس أحد آل موريل بمارسيليا، وواحدًا من أولئك البونابرتيّين الشّرسين الذين سببوا لنا الكثير من المشكلات سنة 1815؟». وأجاب دانغلار: «بلى، أظنُّ أنّه ابن التاجر السّابق».

قاطعها ماكسيميليان: - حقًّا! وما كان ردُّ والدك يا فالانتين؟

- أوه! قال كلامًا فظيعًا، لا أجرؤ على ذكره.

قال ماكسيميليان مبتسمًا: - بل قولي.

- لقد واصل والدي مقطّبًا حاجبَه: «إنّ إمبراطورهم هو من كان يعرف أين يضعهم، أولئك المتعصّبين. كان يسمّيهم أبدان المدافع، وذاك الاسم الوحيد الذي كانوا يستحقونه. وإنّي لأتابع مبتهجًا موقف الحكومة منهم، إذ تستعيدُ مبدأ إمبراطورهم. إن كانت وظيفتهم تتلخّص

في حراسة الجزائر، فليفعلوا ذلك، حتّى وإن كان الأمر يكلّفنا الكثير».

قال ماكسيميليان: - الحقّ أنّها سياسةٌ وحشيةٌ. لكن لا ينبغي أن تخجلي ممّا قاله السيّد فيلفور؛ فأبي، الرّجل الشّهم، أيضًا كان يردّد دائمًا: «لمَ لا ينشئ الإمبراطور، المشهور بإنجازاته الرّائعة، فيلقًا من القضاة والمحامين، ويرسلهم إلى الصّفوف الأمامية؟». ترين إذًا يا عزيزتي أنّ الأحزاب متساويةٌ في حلاوة التّفكير وطلاوة التعبير. لكن، ماذا قال السيّد دانغلار؟

- أوه! أخذ يضحك ضحكته الخبيثة التي أجدها شريرةً؛ ثمّ قاما من فورهما وانصرفا. إذّاك فقط انتبهت إلى أنّ جدّي كان شديد الاضطراب. وأقول لك يا ماكسيميليان إنّني وحدي أستطيع إدراك اضطراب ذاك المسكين المشلول، وقد شككتُ في أنّ الحديث الذي دار أمامه (إذ ما عادوا يقيمون للمسكين وزنًا، وصاروا يتحدّثون كما شاؤوا أمامه)، قد أثّر فيه أيّما تأثير، إذ أساؤوا الكلام في إمبراطوره، والمشهور عن جدّي أنّه كان متعصّبًا للإمبراطور.

قال ماكسيميليان: - الحقّ أنّ جدّك من ألمع الأسماء في سماء الإمبراطورية. لقد كان سيناتورًا، وكما تعلمين، أو ربّما لا تعلمين، شاركَ في جميع المؤامرات التي تمّت في عهد الرّجوع.

- أجل، أسمعهم أحيانًا يهمسون بهذه الأشياء التي تبدو لي غريبةً جدًا: الجدّ بونابرتيٌّ، والأب ملكيّ؛ المهم، عُدت إلى جدّي. فأشار لي بعينيه إلى الجريدة.

قلت له: - ما الذي تريده يا بابا؟ هل أنت سعيد؟

أشار لي بعينه أنْ نعم.

- سعيدٌ بما قاله أبي؟

- أشار لي نافيًا.

- بما قاله السيّد دانغلار؟

- أشار لي مرّةً أخرى نافيًا.

- سعيدٌ إذًا لأنّ السيّد موريل (لم أجرؤ على قول ماكسيميليان)، حصل على وسام جوقة الشّرف؟

- أشار برأسه موافقًا.

- هل تصدّق الأمر يا ماكسيميليان؟ كان سعيدًا لأنّك سُمّيتَ ضابطًا بجوقة الشّرف، هو الذي لا يعرفك. ربّما في الأمر ضربٌ من الجنون، إذ يقال إنّ جدّي يعود إلى الطّفولة، لكنّني أحبّ رأيَه.

فكّر ماكسيميليان: - عجيب! والدُك يكرهني، بينما جدّك... ما أعجبَ أمورَ الحبّ والكراهية!

صاحت فالانتين بغتةً: - اصمت! اختبئ، اُهرب؛ إنّهم قادمون!

انقضّ ماكسيميليان على مجرفةٍ وأخذ يقلب بها بضراوةٍ نباتات الفصّة.

صاح صوتٌ من خلف الأشجار: - آنستي، آنستي؛ آنسة دو فيلفور الجميع يبحث عنك؛ ثمّة زيارةٌ في الصّالون.

قالت فالانتين وقد أخذ منها الاضطراب كلّ مأخذ: - زيارة! من الزائر؟

- رجلٌ رفيعٌ، أميرٌ على ما يُقال، الكونت مونت كريستو.

صاحت فالانتين بأعلى صوتِها: - أنا قادمة!

وعندما ذُكر اسم الكونت مونت كريستو، انتفض من الجانب الآخر للسّياج الرّجُل الذي تودّعه فالانتين كلّ مرّةٍ، بقولها: «أنا قادمة!».

قال ماكسيميليان وهو يستند إلى جاروفه متفكّرًا: «أنّى يعرفُ الكونت مونت كريستو السيّدَ فيلفور؟».

52

علم السّموم

بالفعل كان السيّد الكونت مونت كريستو هو من أتى إلى منزل السيّدة دو فيلفور، بنيّة ردّ الزيارة التي كان قد خصَّهُ بها وكيل الملك؛ ومن البيّن أنّ المنزل بأكمله قد هاج لذكر اسم الكونت.

إنّ السيّدة دو فيلفور، التي كانت تجلس في الصالون حين أُعلن عن وصول الكونت، قد استدعت طفلَها على الفور، ليشكر الكونت مجدّدًا على صنيعه؛ وإدوارد الذي ما انفكّ يسمع اسمَ الرّجل العظيم يتردّد في المنزل منذ يومين، هرعَ إلى لقائه، ليس طاعةً لأمّه، ولا ليشكر الكونت، وإنّما بدافع الفضول، ولكي يقوم بمعاينة من تلك المعاينات التي تنتهي دائمًا بحماقة تجعل أمّه تقول: «يا للطّفل السّيئ! لكن ينبغي أن أسامحه لأنّه يملك شخصيةً عظيمةً!».

وبعد المجاملات الأولى المعتادة، استفسر الكونت عن السيّد دو فيلفور.

قالت: - إنّ زوجي مدعوٌ إلى العشاء عند السيّد المستشار؛ لقد خرج منذ قليل، وإنّي على يقين من أنّه سيأسف أيّما أسفٍ لأنّه حُرم شرفَ رؤيَتِك.

وكان قد سبق الكونتَ إلى الصّالون زائران اثنان، وقد تفرّسا فيه مليًا قبل أن ينسحبا بعد برهة زمنية معقولة بحسب ما تفرضه قواعدُ اللّياقة ودوافع الفضول.

قالت السيّدة دو فيلفور موجّهةً الكلام إلى ابنها إدوارد: - بالمناسبة،

ما الذي تفعله أُختُك فالانتين؟ أعلموها بزيارة السيّد الكونت حتّى تتشرّف بلقائه.

سألها الكونت: - لديك ابنةٌ يا سيّدتي؟ لا بدّ أنّها لا تزالُ طفلةً!

أجابته المرأة الشّابة: - إنّها ابنة السيّد دو فيلفور؛ ابنتُه من زوجته الأولى، وهي صبيّة يافعةٌ وجميلة.

قاطعا الصّغير إدوارد: - لكنّها كئيبة!

قال ذلك وهو ينتف ريشةً من ذيل طائر مكاو رائعٍ؟ نتفها ليزيّنَ بها قبّعتَه، وصاح الطّائرُ، فوق مجثمه الذّهبيّ، من الألم.

اكتفت السيّدة فيلفور بأن قالت: - صه يا إدوارد!

ثم أكملت: -الصبيُّ الطّائش شبه محقٍّ فيما يقوله؛ وهو لا يردّد إلا ما سمعني أقوله مرّاتٍ بألم، ذاك أنّ الآنسة فيلفور على الرّغم من كلّ ما نفعله في سبيل تسليتها، تظلُّ صاحبة مزاج كئيبٍ وصموت يؤذي كثيرًا جمالَها. لكن، لمَ تأخّرَت كلّ هذا الوقت؟ انظر لما تأخّرت أختُك يا إدوارد.

- تأخّرت لأنّهم يبحثون عنها.

- وأين يبحثون عنها؟

- عند جدّي نوارتييه.

- وتظنُّ أنّها ليست عنده؟

أجاب إدوارد مترنّمًا: - لا، لا، لا، لا، لا، ليست عنده.

- وأين هي؟ إن كنت تعرف، أخبرني.

- إنّها تحت شجرة الكستناء الكبيرة.

واصل الولد الشّرير الكلام، وهو يقدّم، على الرّغم من صيحات أمّه، ذباباتٍ حيّةً للببّغاء الذي كان يبدو مولعًا بهذا النّوع من الطّرائد.

مدّت السيّدة فيلفور يدها لتقرع الجرس، حتّى تخبر الخادمة بالموضع الذي قد تجد فيه فالانتين، وإذا بالصبيّة تدخل. كانت تبدو حزينةً، والحال لو أنّ أحدًا تملّى فيها لميّز في عينيها آثار الدّموع.

إنّ فالانتين التي، بباعثٍ من وتيرة السّرد، قد قدّمناها لقرّائنا من دون أن نعرّفهم بها، فتاةٌ طويلةُ الجسم ناحلتُه، في التّاسعة عشرة من عمرها، شعرها كستنائيٌّ فاتحٌ، وعيناها زرقاوان غامقتان، تتحرّك الهوينا مطبوعةً بما كان يطبعُ أمّها من شمائل؛ وإنّ يديها البيضاوين، وجيدَها اللؤلؤي، ووجنتيها المرمريّتين اللّتين تضمّخُهما ألوانٌ خاطفة، كلُّ ذلك يمنحها هيئةَ أولئك الحسناوات الإنجليزيات اللّواتي لطالما شبّههُنّ الشّعراءُ بالبجعات.

دخلت الصبيّةُ إذًا، وأبصرت قرب أمّها الغريبَ الذي سمعت عنه الكثير، فحيَّت دونما ابتسامة متكلّفة، ومن غير أن تخفض عينيها، حيّت بلطفٍ ضاعف من اهتمام الكونت بها.

وقف الكونت.

قالت السيّدة وهي تنحني فوق أريكتِها مشيرةً بيدها إلى فالانتين: - إنّها الآنسة دو فيلفور ابنة زوجي.

قال الطّفل مهرِّجًا وهو يرمي أخته بنظرة ماكرة: - والسيّد الكونت مونت كريستو، ملك الصّين، وإمبراطور كوشين-شين (في فيتنام حاليًا).

هذه المرّة شحُبت السيّدة دو فيلفور، وكادت تستشيط غضبًا ضدّ هذه الآفة العائلية المسمّاة إدوارد؛ بيد أنّ الكونت ابتسم وبدا أنّه ينظر إلى إدوارد بلطف، فانقلب غضبُ الأمّ إلى حماسةٍ وفرحٍ غامرين.

قال الكونت محاولًا إعادة ربط أواصر الحديث، وهو ينقُل نظرته تواليًا بين السيّدة والآنسة: - لكن يا سيّدتي، أَلم يسبق لي أن تشرّفتُ برؤيتكُما، أنت والآنسة، في مكانٍ ما؟ كنتُ أفكّر في الأمر منذ جئتُ؛ ولمّا دخلت الآنسة أوقَدَت في ذهني شرارة ذكرى مبهمة، واعذراني على هذا التّعبير.

قالت المرأة: - لا أظنّ ذلك يا سيّدي، إنّ الآنسة فيلفور لا تحبّ الاختلاط بالنّاس، ويندُر أن تخرجَ.

- لا أقصد أنّني رأيتكما هنا يا سيّدتي، أنتما وصاحبيَ اللّعوب. ذاك أنّ المجتمع الباريسي مجهولٌ عندي تمامًا؛ فأنّا لم أزر باريس للمرّة الأولى إلا منذ أيّامٍ قليلة. كلّا، إن سمحتِ لي أن أتذكّر.... مهلًا...

وضع الكونتٍ يده على جبينه كأنّما يستدعي ذكرياته:

كلّا، لقد رأيتكما في الخارج... رأيتكما في... لا أتذكّر... لكن يبدو لي أنّ ذكرى رؤيتكما ترتبط عندي ارتباطًا وثيقًا بشمسٍ مشرقة واحتفالٍ ديني... كانت الآنسة تمسك ورودًا؛ والطّفلُ يركض خلف طاووس في حديقة، وأنت يا سيّدتي كنت تحت تعريشةٍ...

قالت السيّدة دو فيلفور: - كلّا يا سيّدي، على أنّني متأكّدة من أنّني لو كنت قد قابلتُك في أيّ مكانٍ، لظلّت ذكراك راسخةً في ذاكرتي.

قالت الصبيّة بخجلٍ: - ربّما رآنا سيّدي الكونت في إيطاليا.

أجاب الكونت: - نعم، في إيطاليا... ممكن.. سبق أن سافرتِ إذًا إلى إيطاليا يا آنستي؟

- نعم، لقد سافرتُ أنا والسيّدة، قبل سنتين. خشيَ الأطباءُ على صدري، وأوصوني بهواء نابولي. وقد مررنا ببولونيا وبيرّوجا وروما.

صاح الكونت مونت كريستو: - آه! أنت محقّة يا آنستي. لقد كانت إشارتك البسيطة كافيةً لأستعيد الذكرى بكلّ تفاصيلها. لقد حدث ذلك في بيرّوجا، يوم عيد الرّب، في حديقة فندق البريد، حيث جمعتنا الصّدفة جميعًا، أقصدُ أنت والآنسة وولدُك وأنا، ومُنحت شرف رؤيتكم.

قالت السيّدة دو فيلفور: - إنّي أذكر تمامًا بيرّوجا، وفندق البريد، والحفلة التي تقصدُها؛ لكنّي حاولت جاهدةً تقليب ذكرياتي، -وإنّي لخجلى من ضعف ذاكرتي-، فلم أتذكّر أنّي حظيتُ بشرف رؤيتك يا سيّدي.

قالت فالانتين وهي ترفع عينيها الجميلتين إلى الكونت: - ولا أنا أتذكّرُ.

قال إدوارد: - آه! أنا أتذكّرُ.

استأنف الكونت كلامه: - سأعينك على التذكّر يا سيّدتي. كان يومًا حارًّا حارقًا؛ وكنت تنتظرين الأحصنة التي أبطأت بسبب الاحتفال. توغّلت الآنسةُ في الحديقة، ثمّ غاب ابنك في إثر الطّائر.

قال إدوارد: - وقد أمسكت به يا أمّي وانتزعت من ذيله ثلاث ريشاتٍ.

- وأنت يا سيّدتي بقيتِ تحت تعريشة الكروم؛ ألا تذكرين، حين كنتِ جالسةً على مصطبة حجرية، وكانت الآنسة دو فيلفور والسيّد ابنك غائبين؛ ألا تذكرين حديثًا طويلًا جمعك مع أحدهم؟

قالت السيّدة وقد تضرّج وجهها خجلًا: - بلى، بلى، أذكر حديثي مع رجلٍ متلفّعٍ في معطف صوفيّ... أعتقد أنّه كان طبيبًا.

- بالضّبط يا سيّدتي؛ والرّجل لم يكن سوايَ؛ كان قد مرّ على إقامتي بذلك الفندق خمسة عشر يومًا، عالجتُ فيها خادم الغرفة من الحمّى ومُضيفي من داء اليَرقان، فصار الجميع ينظرون إليّ باعتباري طبيبًا عظيمًا. تحدّثنا طويلًا يا سيّدتي، وفي أشياء مختلفة: الرّسّامَين بيروجينو ورافاييل، الأخلاق، الأزياء، مياه توفانا الشّهيرة التي يدّعي الكثيرون أنّهم لا يزالون يحفظون سرّها.

قالت السيّدة فيلفور في شيءٍ من قلق: - آه! صحيحٌ، الآن تذكّرتُ.

واصل الكونت كلامه بأريحيّةٍ كبيرة: - لا أتذكّر كلامك بالتّفصيل يا سيّدتي، لكنّني أذكر أنّك إذ خلتني، كما خالني الجميعُ، طبيبًا، فقد استفسرت منّي عن صحّة الآنسة دو فيلفور.

- لكنّك كنت بالفعل طبيبًا يا سيّدي، ما دمت استطعت علاج ذينك المريضين.

- سيجيبك موليير أو بومارشيه يا سيّدتي بأنّني، تحديدًا لأنّني لست طبيبًا، لم أُداوي مرضايَ، وإنّما هم أنفسهم تداووا؛ حسبيّ أن أقول لك إنّني درست الكيمياء دراسة عميقة بما يكفي، كما درستُ الأحياء، لكن فقط دراسةَ هاوٍ... تفهمين.

في تلك اللّحظة دقّت السّاعةُ السّادسة.

قالت السيّدة دو فيلفور، وقد بدا عليها الاضطراب: - إنّها السّادسة؛ ألن تذهبي يا فالانتين لترَي ما إذا كان جدّك جاهزًا للعشاء؟

قامت فالانتين، وحيّت الكونت، ثمّ غادرت الغرفة من دون أن تنبس بكلمة.

وقال الكونت حين غابت فالانتين: - يا إلهي! هل بسببي صرفتِ الآنسة دو فيلفور يا سيّدتي؟

أجابت السّيّدة سريعًا: - مطلقًا يا سيّدي؛ وإنّما هي السّاعة التي نعطي فيها السيّد نوارتييه الوجبة الحزينة التي تقيم أودَ وجوده الحزين. أتعرفُ يا سيّدي أيّ حالةٍ بائسة يوجد فيها والدُ زوجي؟

- أجل، سيّدتي، لقد حدثّني بذلك السيّد دو فيلفور: إنّه مشلولٌ على ما أحسبُ.

- واأسفًا! إنّك محقّ، فالعجوز المسكين لا يتحرّك أدنى حركة. وحدها النّفس لا تزال يقظةً داخل تلك الآلة البشريّة، بل حتّى النّفسُ شاحبةٌ ومضطربة وعلى وشك أن تنطفئ. لكن، عذرًا يا سيّدي لأنّي شغلتُك بمآسي بيتي؛ لقد قاطعتُك حين كنت تقول إنّك كيميائيّ بارع.

ردّ الكونت بابتسامة: - أوه! لم أكن أقول ذلك يا سيّدتي؛ بل على العكس، إنّما أردت أن أدرس الكيمياء لأنّي كنتُ مجبرًا على العيش في الشّرق، فسعيتُ إلى أن أتّخذ سيرةَ الملك ميثراداتس منهاجًا.

صاح الشقيّ الصّغير، وهو منهمك بقصّ صورٍ من ألبومٍ رائع: - **ميثراداتس ملك البنطس!** هو الرجلُ نفسه الذي كان يتغذّى كلّ صباحٍ بفنجان سمٍّ بالقشدة.

فصاحت به السيّدة دو فيلفور وهي تنتزع من يده الألبوم: - إدوارد! أيّها الشقيّ! إنّك لا تطاقُ، أنت تزعجُنا. اتركنا، واذهب إلى أختك فالانتين عند جدّك السيّد نوارتييه.

قال إدوارد: - الألبوم...

- الألبوم؟

- نعم، أريد الألبوم...

- لمَ قصصتَ الرّسومَ؟

- أتسلّى.

- هيا، انصرف!

صاح الولد وهو يتكوّمُ في أريكةٍ كبيرةٍ على عادته في ألّا يستسلم البتّة: - لن أذهب ما لم تعطني الألبوم!

- هاك! واتركنا وشأننا.

أخذ الطّفلُ الألبوم، وذهب صحبة أمّه.

تابع الكونت السيّدة دو فيلفور بنظراته، وفي نفسه يقول: «لنرَ إذا ما كانت ستُغلق البابَ خلفَ الصّبيّ».

وبالفعل أغلقت السيّدة دو فيلفور الباب بعناية خلف طفلها؛ تظاهر الكونت بأنّه لم يلحظ ذلك.

ثمّ، بعد أن جالت ببصرها في المكان، عادت المرأة الشّابة لتجلس على أريكتها.

قال الكونت بتلك الطّيبة التي ألفناها فيه: - اسمحي لي سيّدتي بأن أنبّهك إلى أنّك تعاملين بقسوة هذا الولد المرح.

أجابته السيّدة فيلفور بوسطية الأمّ التي تميّزها: - ينبغي ذلك يا سيّدي.

قال الكونت: - حين ذكر ميثراداتس، فإنّما كان يتلو من كورنيليوس نيبوس، وقد قاطعتِه أثناء استشهادٍ يؤكّد أنّ معلّمه لم يُضع معه وقتًا، وأنّ ابنك حقًا يسبقُ سنّه.

قالت الأمّ وقد شعرت ببعض الإطراء: - الحقّ يا سيّدي الكونت أنّه يتعلّم ما يشاءُ بسهولةٍ. ولا عيب فيه إلّا أنّه عنيدٌ؛ لكن، بمناسبة ما قاله،

هل تعتقد يا سيّدي أنّ الملك ميثراداتس قد لجأ إلى تلك الحيلة، وأنّها نفعته؟

- أجل أعتقد ذلك يا سيّدتي، لدرجة أنّي أنا نفسي لجأت إليها لأحميَ نفسي من التسمّم في نابولي وباليرمو وإزمير، أي لجأت إليها في ثلاث مناسباتٍ كنتُ لأفقد فيها الحياة لولاها.

- ونفعتك الحيلة؟

- كلّ النّفع.

- أجل، صحيحٌ؛ أذكرُ أنّك حكيت لي شيئًا من هذا القبيل في بيرّوجا.

قال الكونت بدهشةٍ أتقن تصنّعها: - حقًا! لا أذكر ذلك!

- كنتُ قد سألتك هل السّموم تؤثّرُ بالطّريقة نفسها في أهل الشّمال وأهل الجنوب، وأجبتني بأنّ مزاج الشّماليّين الخامل لا يتقبّلُ السمّ بالطّريقة نفسها التي تتقبّلها بها طبيعةُ الجنوبيّين الحارّة.

قال مونت كريستو: - صحيحٌ؛ لقد شاهدتُ روسًا يلتهمون، من دون مشكلات، عناصر نباتية كانت لتقتل نابوليتانيًا أو عربيًا.

- تظنُّ إذًا أنّ النّتيجة ستكون مؤكّدةً علينا نحن، أكثر من أبناء الشّرق، وأنّه وسط عواصفنا وزوابعنا قد يتلاءم المرء مع امتصاص السمّ، بأيسرَ ممّا قد يتلاءمُ به من يقطنُ في مناخٍ حارٍ؟

- قطعًا؛ لكنّه لن يكسب مناعةً إلا ضدّ السمّ الذي سوف يعتاد عليه.

- فهمتُ؛ وكيف تعتاد أنت على السمّ، أو بالأحرى كيف اعتدت عليه؟

- الأمر غاية في البساطة. لنفترض أنّك تعرفين مُسبقًا السمّ الذي سيستعمل ضدّك... ولنفترض أنّ السمّ هو... البروسين، على سبيل المثال...

قالت السيّدة فيلفور: - أظنُّ البروسين يستخلص من الجوز المقيّئ.

- بالضّبط يا سيّدتي؛ يبدو لي أنّ ليس ثمّة ما يمكن أن أعلّمك إيّاه؛ أحيّيك، ندُر أن نجد هذا النّوع من المعارف لدى النّساء.

قالت السيّدة فيلفور: - أوه! أعترف لك، عندي شغفٌ قويٌّ بالعلوم الغامضة، العلوم التي تخاطبُ الخيال كالشّعرِ، وتعبّرُ عن نفسها بالأرقام كمعادلة رياضية. واصل الحديث رجاءً: إنّ ما تقوله يثير اهتمامي كثيرًا.

قال الكونت: - ولنفترض أنّ السمّ هو... البروسين، على سبيل المثال... وأنّك تأخذين منه ميليغرامًا في اليوم الأوّل، ثمّ ميليغرامين في اليوم الثاني، وإذًا، عند اليوم العاشر ستأخذين سنتيغرامًا منه؛ وبعد عشرين يومًا، إذا ما رفعنا الجرعة ميليغرامًا آخر، سنصل إلى ثلاثة سنتيغرامات، أي جرعةً تستطيعين تحمّلُها من دون مشكلات، بينما ستكون جرعةً خطيرةً بالنّسبة إلى من لم يتّخذ الاحتياطات التي اتّخذتِها أنت. وفي نهاية المطاف، بعد شهر، وأنت تشربين الماء في نفس القارورة التي يشرب منها الشّخص الذي تريدين تسميمه، فيموت هو، بينما لن تشعري أنت سوى بأوجاع خفيفة تدّل على أنّ الماء كان يحوي عنصرًا سامًّا.

- ألا تعرف ترياقًا آخر غير هذا؟

- كلّا، لا أعرف.

بدت السيّدة دو فيلفور حالمةً: - كثيرًا ما قرأتُ، وأعدتُ قراءةَ، قصّة ميثراداتس، وكنت أعتبرها مجرّد خرافة.

- كلّا يا سيّدتي، على خلاف عادة التّاريخ، هذه القصّة حقيقية. لكنّ ما تقولينه لا يبدو مجرّد نزوةٍ طارئة، ما دُمتِ قد سألتني أسئلةً مماثلةً منذ سنتين، وقلت لي إنّ قصّة ميثراداتس تشغل بالك منذ زمنٍ طويل.

- صحيحٌ يا سيّدي، لقد كان المجالان اللّذان استأثرا باهتمامي أكثر من غيرهما، في شبابي، هما علم النّبات وعلم المعادن؛ ولمّا علمت أنّ استعمال النّباتات الطبيّة قد يفسِّر في الغالب تاريخ الشّعوب بأكمله،

وحياةَ الأفراد في الشّرق، مثلما تفسّر الورود تاريخ الحبّ، فقد أسفتُ لأنّي لم أكن رجلًا حتّى أصير من طينة فلامل أو فونتانا أو كاباني[1].

قال مونت كريستو: - خاصّة يا سيّدتي وأنّ الشّرقيّين لا يكتفون بجعل السمّ دواءً، كما فعل ميثراداتس، وإنّما يجعلون منه أيضًا خنجرًا؛ العلم لا يكون بين أيديهم وسيلةً للدّفاع فقط، وإنّما أيضًا أداةً للهجوم؛ فالوسيلة الأولى سلاحُهم ضدّ آلامهم، والأداة الثّانية ضدَّ أعدائهم؛ بالأفيون، ونبات القار، ونبات ستّ الحسن، ونبات الوردية، ينوّمون أولئك الذين يريدون أن يوقظوهم. ليس في النّساء المصريات والتركيات والإغريقيات، مِن أولئك اللّواتي تسمّوهنّ هنا نساءً صالحات، مَن لا تعرفُ من الكيمياء ما من شأنه أن يذهل طبيبًا، أو من علم النّفس ما يمكن أن يُفزعَ قسًّا.

قالت السيّدة دو فيلفور وقد جعلت هذه المحادثة عينيها تتّقدان بنارٍ غريبةٍ: - حقًّا!

فواصَلَ الكونت: - أجل يا سيّدتي، إنّ مسرحيات الشّرق السريّة تعقد وتحلّ على هذا النّحو، بدءًا من النّبتة التي تجعل المرء عاشقًا، إلى النّبتة التي تقتُله؛ بدءًا من الشّراب الذي يفتّح أبواب السّماء، وصولًا إلى الشّراب الذي يلقي بالإنسان في الجحيم. ثمّة لطائفُ من كلّ نوعٍ، بقدر ما ثمّة نزواتٌ وغرائب في الطّبيعة البشريّة والفيزيائية والأخلاقيةٍ؛ لا بل قد أزيدُ: إنّ فنّ أولئك النّسوة الخميائيات يبلغ من الرّفعةِ درجةً بحيث إنّهن يستطعن أن يوفِّقن غاية التّوفيق بين العلاج والأذى، وبين حاجتهنّ إلى الحبّ ورغبتهنّ في الانتقام و...

قاطعته المرأة الشّابة: - تلك المجتمعات الشّرقية التي قضيتَ فيها

(1) تقصد على الأرجح: الخيميائيّ والأديب الفرنسيّ نيكولا فلاميل (1368-1397)؛ والطّبيب وعالم الأحياء الإيطاليّ جاكومو فونتانا (1393-1455) والطّبيب والفسيولوجيّ الفرنسي بيير جان جورج كاباني (1757-1808).

جزءًا من حياتك يا سيّدي، هي إذًا عجيبةٌ كما تصوّرُها الحكايات القادمة من بلدانها الجميلة؟ هناك، يمكن أن تقتل إنسانًا ولا تخشى العقاب؟ فهي إذًا أشبه شيءٍ ببغداد أو البصرة كما يصوّرهما السيّد غالان[1]؟ والسّلاطين الذين يحكمون تلك المجتمعات، ويمثّلون ما نسمّيه هنا في فرنسا حكومةً، هم على شاكلة هارون الرّشيد وجعفر البرمكيّ، لا يغفرون للقاتل بالسمّ فقط، بل يجعلون منه وزيرًا أوّلَ إن كانت جريمته عبقرية، لا بل يكتبونَ حكايته بحروف من ذهب حتّى تسلّيهم في ساعات ضجرهم؟

- كلّا يا سيّدتي، إنّ هذا العالم الغرائبيّ لم يعد موجودًا حتّى في الشّرق. هناك أيضًا يوجد مفوّضو الشّرطة، وقضاة التّحقيق، والمدّعون العامّون، وخبراءُ؛ لكنّهم يوجدون بأسماء أخرى وفي أزياءَ أخرى. ويُشنَقُ المجرمون، وتضربُ أعناقهم، ويخوزَقون؛ لكنّ أصحابنا المحتالين الأذكياء، استطاعوا أن يخدعوا العدالة البشرية بفضل تركيباتٍ ماهرة. أمّا عندنا نحنُ، فإنّ الأبله الذي يتلبّسُه شيطانُ الكراهية أو الجشع، ويريد أن يدمّر عدوًا، أو يتخلّص من قريب، فإنّه يقصد البقّال، ويقدّم نفسه باسمٍ مزيّف يفضحه أكثر ممّا كان ليفضحه اسمه الحقيقيّ، وبحجّة التخلّص من الجرذان التي تحرمُه النّومَ، يطلبُ خمسة غراماتٍ من الزّرنيخ أو ستّة، وإن كان ذكيًا فإنّه يشتريها متفرّقةً من عند خمسة بقّالين أو ستّة، وبالتّالي لا يكشف أمرَه إلا خمسةُ أشخاصٍ أو ستّة! وحين يجتمع له مطلوبُه، يسقي عدوَّه أو قريبَه جرعةً من الزرنيخ تكفي لقتل ماموث أو ماستودون[2]، ومن غير تفكير أو تدبير يدفع ضحيّته إلى الصّراخ صراخًا يستنفر الحيَّ بأكمله. ثمّ يأتي طوفانٌ من رجال الشّرطة والدّرك، فيرسلون في طلب الطّبيب،

(1) المستشرق الفرنسيّ أنطوان غالان(1646-1715)، مترجم ألف ليلةٍ وليلةٍ إلى الفرنسية.

(2) من فصيلة الماموث، يسمّى كذلك الصنّاجة.

فيشرِّح الجثّة، ويغرف من الأمعاء والمعدة الزّرنيخَ بالملعقة. وغداة ذلك تكتب الصّحف خبر الجريمة ذاكرَةً اسمَ القاتل والقتيل. ومساء نشر الخبر يأتي البقّال أو البقّالون قائلًا أو قائلين: «أنا من باع له الزّرنيخ»؛ يلقى القبض على المجرم الأحمق، ويُحبس، ويستجوبُ، ويواجَهُ، ويحاكَمُ، فيدانُ ثمّ يرسَلُ إلى المقصلة؛ أو إذا كان المجرمُ امرأةً من الطّبقة الرّفيعة، فإنّها تُسجنُ مدى الحياة. هكذا تفهمون أنتم أهل الجنوبِ الكيمياءَ يا سيّدتي. على أنّ ديرو[1] كان قويًا، ينبغي أن أقرَّ بهذا.

قالت المرأة ضاحكةً: - وما الحيلة يا سيّدي! نعملُ ما في وسعنا. لا يملك الجميع سرّ آل ميديتشي أو آل بورجا.

قال الكونت هازًّا كتفيه: - والآن، هل ترغبين في أن أخبرك من أين أتت هذه الحماقة كلّها؟ أتت من مسرحكم؛ في مسرحكم دائمًا ما نرى أو نقرأ أناسًا يشربون محتوى قارورة أو يعضّون على حجر خاتم، فيسقطون جثًثا هامدةً: خمس دقائق بعد ذلك تنزل السّتارة؛ ويتفرّقُ الجمهور. نجهلُ تتمّة الجرائم؛ لا نرى أبدًا مفوّض الشّرطة بوشاحه، ولا العريف ورجاله الأربعة؛ لذلك يتوهّمُ بعض ضعاف العقول أنّ الأمور تجري كما في المسرحيات. لكن، حاولوا أن تخرجوا من فرنسا قليلًا، وتقصّدوا حلب أو القاهرة، أو فقط نابولي أو روما، وسوف ترَونَ في الأزقّة النّاس يسيرون مستقيمين ويانعين؛ فإن لامسكم الشّيطان الأعرجُ بمعطفه[2]، فقد يقول لكم: «إنّ هذا الرّجلَ، [أو ذاك] قد سُمِّمَ منذ ثلاثة أسابيع، وسوف يموت في غضون شهر».

قالت السيدة دو فيلفور: - لقد وجدوا إذًا سرّ مياه توفانا الشّهيرة التي كان يُقال إنّها مفقودة في بيرّوجا.

---

(1) أنطوان-فرانسوا ديرو (1777-1744)، قاتل فرنسي شهير كان يسمّم ضحاياه.
(2) يشير دوما هنا إلى قصّةٍ أثيرة عنده، هي قصّة الشّيطان الأعرج لآلان رينيه لوساج.

- بحقّ السّماء يا سيّدتي، هل ثمّة شيءٌ يضيعُ في عالم البشر؟ إنّ الصّنائع تنتقلُ وتجوب العالم؛ إنّ الأشياء تغيّرُ أسماءها، فيُخطئها العوّامُ وهذا كلّ ما في الأمر؛ لكنّ النّتيجة تظلُّ هي هي، والسمّ يفعل فعله في هذا العضو أو ذاك؛ فهذا يؤثّرُ في المعدة، وذاك في الدّماغ وآخرُ في الأمعاء. السمُّ يحدث سعلةً، والسّعلة التهابًا في الصّدر، أو مرضًا آخرَ من الأمراض المصنّفة في كتب العلم على أنها مرض، وعلى الرّغم من أنّ الأطباء يشخّصونَه إلا أنّه يظلُّ قاتلًا؛ فإن لم يكن قاتلًا، صارَ كذلك بسبب العلاجات التي يلجأ إليها الأطبّاء السذّج الذين هم في الغالب الأعمّ كيميائيون سيّئون؛ والنّتيجةُ إنسانٌ قُتل بطريقةٍ قانونية لا تستطيعُ الشّرطة إزاءَها شيئًا، مثلما كان يقول كيمائيٌّ رهيبٌ من أصدقائي في صقلية، رفيعُ المقام أدلمونتي الطّبرميني[1]، وكان قد تعمّق في دراسة تلك الظواهر الوطنيّة.

قالت المرأة التي بدت جامدة لفرط انتباهها: - إنّه لأمرٌ مرعبٌ، لكنّه يستحقّ الإعجاب؛ أعترف لك بأنّني كنت أظنُّ تلك القصص كلّها من بنات خيال القرون الوسطى؟

- بلا شكّ، لكنّها لا تزالُ تُطوّرُ وتهذَّبُ إلى أيّامنا هذه. ماذا تتصوّرين دورَ الزّمان، والتّشجيع، والميداليات، والصلبان التّقديرية، وجوائز مونتيون، اللهمّ إلا قيادة المجتمع صوب المزيد من الكمال؟ غير أنّ الإنسان لن يصير كاملًا إلا متى صار بوسعه أن يخلقَ ويُفني، مثلما يفعل الربُّ، وها قد قطع نصف الطّريق نحو غايته.

قالت السيّدة فيلفور محاولةً إعادة الحديث إلى الموضوع الذي يهمّها: - بحيث إنّ سموم آل بورجا وآل ميديتشي، وآل رينيه، وآل

---

(1) نسبة إلى مدينة تاورمينا الإيطالية، وسمّاها العربُ طبرمينة؛ واسم العالم على الأرجح اختراع من عند دوما.

روجييري، ثمّ لاحقًا على الأرجح سمَّ البارون ترانك التي فاضت بها المسرحيات المعاصرة والرّوايات...

أجابها الكونت: - كانت أعمالًا فنيّة، يا سيّدتي، لا أقلّ ولا أكثر. فهل تعتقدين بأنّ العالِم الحقَّ سوف يتوجّه بابتذالٍ إلى العوام؟ كلّا. إنّ العلم يعشقُ لغة الارتداد والإنجازات الصّعبة والخيال إن جاز لنا التّعبير. هكذا قام رفيعُ المقام الأب أدلمونتي، الذي ذكرتُه لك قبل قليل، بتجارب مذهلة بهذا الصّدد.

- حقًّا!

- أجل، وسوف أذكر لك واحدةً. كان يملك حديقةً جميلةً مليئةً بالخضار والزّهور والفاكهة؛ ومن بين الخضار اختار ما بدا له مقبولًا أكثرَ، لنقلُ مثلًا حبّةَ ملفوف. ظلّ لمدّة ثلاثة أيّام يسقي الملفوفة بمحلول زرنيخ؛ وفي اليوم الثالث أصاب الملفوفة ذبولٌ وفسادٌ، فكان أوانُ قطافها قد حان؛ بالنّسبة إلى الجميع كانت تبدو ناضجةً ومقبولة. وحده الأب أدلمونتي كان يدري أنّها مسمومة. حمل الملفوفة إلى بيته وجاء بأرنبٍ -وكان الرّاهب أدلمونتي يملك مجموعةً من الأرانب والقطط والخنازير الغينية لا تقلُّ كثرةً وتنوّعًا عن مجموعته من الخضار والزّهور والفواكه-؛ قلنا إذًا إنّ الرّاهب أدلمونتي قد جاء بأرنب، وأطعمه ورقةً من الملفوفة، فمات. أيّ قاضي تحقيقٍ، أو وكيل ملك، فكّر يومًا في أن يقاضيَ السيّد ماجِندي، أو السيّد فلورِنس[1]، على ما قتلاه من أرانب أو خنازير غينيا أو من القطط؟ لا أحد. مات إذًا الأرنبُ من غير أن تهتمّ العدالةُ لأمره. ثمّ طلب الرّاهبُ أدلمونتي من طبّاخته إفراغ أحشاء الأرنب، ورمَى مصرانه في الزّبل. وفي الزّبل كانت دجاجةٌ،

(1) فرانسوا ماجندي (1855-1782)، وبيير فلورنس (1867-1794)، كلاهما طبيبٌ وعالم أحياء فرنسيّ.

نقرت المصران، فمرضت بدورها وماتت. وحين كانت تنازعُ، حلّق فوقها عقابٌ (في بلاد أدلمونت الكثير من العقبان)، انقضّ العقابُ على الدّجاجة وحملها إلى صخرةٍ فأكلها. بعد ثلاثة أيّام قضاها العقابُ عليلًا، انتابه دوار وهو محلّقٌ في السّماء؛ دار في الفراغ، ولنفترض أنّه سقط في مَسمَكةٍ... وكما تعلمين فإنّ أسماك الحنقليس أو الكراكي الرّمحيّ أو الموراييه تأكل بشراهةٍ، لذا انقضّت على العقاب ونهشته... لنفترض الآن أنّك قدّمت سمكةً من تلك الأسماك التي سُمّمت، بالدّرجة الرّابعة، سوف يتسمّم ضيفُك بالدّرجة الخامسة، ويموت بعد ثمانية أيّام بعد أن يقاسي آلامًا في الأمعاء وأوجاعًا في القلب، وخراجًا في باب المعدة. سيتمّ تشريحه ويقول الأطبّاء: «إنّ الميت قد قضى بسبب ورم في الكبد أو حمّى التيفوئيد».

قالت السيّدة فيلفور: - لكنّ اجتماع كلّ هذه الملابسات التي سردتَها لا يمكن أن يحدث بالضّرورة، إذ إنّ سلسلة الأسباب قد يكسرها أبسط حادثٍ؛ قد لا يحلّق العقابُ فوق الدّجاجة المحتضرة، أو لا يسقط في المَسمَكة.

- آه! وهذا سرّ الصّنعة بالنّسبة لكيميائيٍّ كبيرٍ من الشّرق ينبغي توجيه الصّدفة؛ وإنّهم ينجحون في ذلك.

كانت السيّدة فيلفور تصغي إليه حالمةً. قالت: -ولكنّ الزّرنيخ لا يمّحي؛ مهما كانت الطّريقة التّي تشرّبه بها الجسد، فإنّ آثاره ستظهر إن أعطي الميت منه كميّةً كافيةً لقتله.

صاح مونت كريستو: - وهذا تحديدًا ما قلتُه للطيّب أدلمونتي. فابتسم وأجابني بمثلٍ صِقلّيٍّ، مثلٍ يتشاركه الفرنسيون مع الصقليّين على ما أظنّ: «يا ولدي، إنّ العالَمَ لم يُخلق في يوم واحدٍ، وإنّما في سبعة؛ عُد يومَ الأحد». وقد عُدت الأحد التّالي؛ وبدلًا من أن أجده يسقي الملفوف بالزّرنيخ، كان يسقيه بمحلولٍ ملحٍ من الأسطركن والإستركنين، بلُغة

العلماء. وهذه المرّة لم يبدُ على الملفوفة أدنى أثر من فسادٍ، ولم يأنفها الأرنب، ومات بعد أكلها بخمس دقائقَ؛ ونقرت الدّجاج مصران الأرنب، وفي اليوم التّالي نفقت؛ وهذه المرّة حللنا نحنُ محلّ العقبان، فأخذنا الدّجاجة وشرَّحناها. وإذا قد اختفت كلّ الأعراض الخاصّة، ولم تبقَ إلا الأعراض العامّة. لم يكن ثمّة أيّ عرضٍ دالٍّ في أيّ عضوٍ من الأعضاء؛ تهيّجٌ في الجهاز العصبيّ وسكتة دماغية، ولا شيء غير ذلك. سُمّمَت الدّجاجة لكنّها توفيت بسكتة دماغية. أعلم أنّها حالةٌ نادرةٌ عند الدّجاج، لكنّها شائعةٌ عند البشر.

بدت السيّدة دو فيلفور حالمةً أكثر فأكثر.

قالت: - خيرٌ أنّ هذه العناصر السّامة لا يمكن أن يصنعها إلا الكيميائيون، وإلّا فإنّ نصف البشر سيسمّمون النّصف الآخر.

أجابها الكونت بلامبالاة: - لا يصنعها إلا الكيميائيون، أو المهتمّون بالكيمياء.

قالت السيّدة فيلفور وهي تجاهد في إخراج نفسها من أفكارها: - في نهاية المطاف تبقى الجريمة جريمةً حتّى لو دُبّرت بعلمٍ. وإن أفلتت من تحقيق البشر، فلن تُفلتَها عينُ الربّ. إنّ الشّرقيّين أقوى منّا في مجابهة الضّمير، ولا يعترفون بالجحيم، وهذا كلّ ما في الأمر.

- من الطّبيعي أن ينشأ هذا الوازع في نفسٍ شريفةٍ كنفسك، لكن سرعان ما سيجتثّه التفكيرُ العقلانيّ. إنّ هذا الجانب السيّئَ من الفكر البشريّ ستلخّصُه دومًا المفارقة التي كتبها جون جاك روسو: «الصينيُّ الذي نقتُله بحركةٍ من إصبعنا، من مسافة خمسة آلاف فرسخ[1]» إنّ

(1) نسبها بلزاك في الكوميديا الإنسانية إلى جون جاك روسو؛ مفادها تحليلُ منشأ الأخلاق البشرية: «ماذا لو كان باستطاعتك أن تقتل صينيًا في الطّرف الآخر من العالم، بحركة بسيطة من إصبعك، علمًا أنّ في موته منفعة كبيرة لك. هل ستقتله؟». وقد ذكر المفارقة كذلك ديدرو، وحلّلها أيضًا فرويد.

الإنسان يمضي حياته في فعل أشياء مماثلة، ويفني تفكيره في تخيّلها. لن تجدي إلا قليلًا من البشر ممّن يقدِمون على غرز سكّين في قلب واحدٍ من بني جنسهم، أو يدسّون له كميّة من الزّرنيخ مثل تلك التي ذكرناها آنفًا. فذاك ما يمثّل انحرافًا وحماقةً. ولكي يصل المرء إلى هذه الدّرجة ينبغي أن يغلي الدّم في جسده ليبلغ ستًّا وثلاثين درجة، ويبلغ نبضه تسعين نبضة، فتتجاوز النّفسُ حدودها المعتادة؛ لكن إن انتقلنا من الكلمة إلى اللّفظ العامّ المشترك، على عادة ما يُفعل في الفيلولوجيا، فإنّما أنتِ تقومين بانزياحٍ؛ وبدلًا من أن ترتكبي جريمةً شنيعةً، فإنما أنت تزيحينَ من طريقك شخصًا مزعجًا، وتفعلين ذلك من غير صدام، أو عنف، ومن غير أن تلجأي إلى تلك الوسائل المؤلمة، التي تجعلُ الضحيّةَ شهيدًا، وتجعل الفاعلَ جلّادًا بكلّ ما تحمله الكلمة من قوّة؛ إذا لم يكن ثمّة دمٌ، ولا صراخ، ولا تشويه، وخاصةً إذا لم تكن توجد تلك المباشرةُ المورِّطةُ، إذّاك سوف تنجين من عدالة البشر التي تقول: «لم يحدث ما من شأنه أن يُحدث اضطرابًا في سير المجتمع!». كذلك يفعل أهل الشّرق، وهكذا ينجحون؛ أهل الشّرق، أولئك الجادّون الرّزينون الذين لا يعيرون مسألة الزّمان كبير اهتمام حين يتعلّق الأمر بملابساتٍ بالغة الأهميّة.

قالت السيّدة فيلفور بصوتٍ متأثّر وشهقةٍ مخنوقة: - لكن، يبقى الضّمير!

قال الكونت: - نعم، لحسن الحظّ يبقى الضّمير، وإلا لكنّا أشقياء من دونه. بعد كلّ فعلٍ قاسٍ نقدم عليه، نلجأ إلى ضمائرنا، فتعيننا بألف مبرّر وحدنا نحكم على صدقه؛ وإنّ تلك الأسباب التي يقدّمها لنا الضّمير، كافيةٌ لكي تمنحنا راحةَ النّوم، لكنّها أبدًا لن تكون كافيةً لتمنحنا الحياةَ أمام محكمة. ولنا مثلٌ في رتشارد الثالث، لا بدّ أنّه قد قال لنفسه، بعد قتل طفلَي إدوارد الرّابع: «إنّ هذين الطّفلين هما ابنا ملكٍ قاسٍ مضطهِد،

وقد ورثا عنه رذائله التي وحدي استطعتُ كشفها في ميولهما المبكّرة؛ إنّ هذين الطّفلين يحولان دون سعادة الشّعب الإنجليزي». كذلك خدم الضّمير اللّيدي ماكبث التي أرادت، وإن بلسان شكسبير، الحكمَ لابنها وليس لزوجها. آه! إنّ الحبّ الأموميّ، بما هو فضيلةٌ كبرى، ودافعٌ قويٌّ، يمكنه أن يغفر أيّ ذنبٍ؛ لذا، فإنّ اللّيدي ماكبث بعد موت دونكان كانت لتشقى لولا ضميرها.

كانت السيّدة دو فيلفور تمتصّ بشراهةٍ تلك الحكم الرّهيبة والمفارقات المفزعة التي يرسلها الكونت بتلك السّخرية البريئة التي تميّزُه.

ثمّ بعد برهة صمتٍ قالت: - أتدري يا سيّدي الكونت أنّك خطيبٌ بليغٌ، وأنّك تنظر إلى العالم بوضوحٍ أكبرَ! هل لأنّك لاحظتَ البشريةَ عبر الأنابيق وأوعية التّقطير، استطعتَ أن تكوِّن عنها هذا الحكم؟ إذ إنّك محقٌّ في حكمك، وأنت كيميائيٌّ عظيمٌ، لن أنسى ذاك الإكسير الذي كنت قد أعطيت منه ابنيَ، فأعدته على الفور إلى الحياة...

قال الكونت: - أوه! لا ينبغي أن تثقي بالإكسير كلّ هذه الثّقة، إنّ قطرةً منه أعادت إلى الحياة الطّفلَ المحتضر، لكنّ ثلاث قطرات كانت كافيةً لكي يتدفّق الدّم في رئتيه حتّى يشتدّ نبض قلبه؛ وستّ قطراتٍ كانت ستوقف تنفّسه، وتُدخله في إغماءٍ أشدّ من ذاك الذي كان يعانيه؛ وعشرة كانت لتصعقه. هل تذكرين يا سيّدتي كيف أبعدته عن تلك القوارير التي كاد يلمسها؟

- هو إذًا سمٌّ رهيب؟

- أوه يا إلهي! كلّا! لنسلّم أوّلًا بهذا الأمر: إنّ كلمة سمّ لا وجود لها، لأنّنا نستخدم في الطبّ السّموم الأشدّ فتكًا، فنصيّرها، بالاستعمال الرّشيد، أدويةً شافيةً.

- أيّ شيءٍ هو إذًا؟

- إنّه مستحضرٌ علميٌ صنعه صديقي، رفيع المقام الأب أدلمونتي، وعلّمني استخدامَه.

قالت السيّدة فيلفور: - أوه! لا بدّ أنّه مضادٌّ جيّدٌ للتشنّج.

أجابها الكونت: - مضادٌ رفيعٌ يا سيّدتي، وقد رأيتِه بنفسك، كما أنّني قد استعملته غير ما مرّة (وأضاف ضاحكًا) ولكن بحذر بالغ.

أجابته السيّدة دو فيلفور بالنّبرة نفسها: - أعتقد ذلك. أمّا أنا، الشّديدة العصبيّة والمعرّضة دائمًا للإغماء، فإنّني أحتاج طبيبًا مثل أدِلمونتي ليخترع لي وسائل أتنفّس بها، ويهدِّئ خوفي من أن أموت مختنقةً في يومٍ من الأيّام. في انتظار ذلك، وبما أنّ صديقك الرّاهب لن يستطيع علىً الأرجح القدوم حتّى باريس لأجلي، ويصعب أن أجد في فرنسا طبيبًا مماثلًا له، فإنّني ألجأ إلى المضادات التي يصفها لي السيّد بلانش، كذلك يفيدني ما يصفه لي هوفمان من نعناعٍ وقطرات. انظُر، ها العقاقير التي صنّعها لأجلي؛ إنّها جرعةٌ مضاعفة.

فتح مونت كريستو العلبة الصدفية التي عرضتها المرأة أمامه، واستنشق رائحة العقاقير مثلما قد يفعل هاوٍ يقدّر مثل تلك المستحضرات.

قال: - إنّها رائعة، لكنّها تتطلّب بالضّرورة البلع، وتلك وظيفةٌ يستحيل أن يقوم بها الشّخص الفاقد الوعي. لهذا أفضّل مستخلصي.

- بالتّأكيد، أنا أيضًا أفضّله، خاصّة بعدما وقفت بنفسي على أثره؛ لكنّه بالضّرورة سرٌّ، ولست متطفّلةً إلى حدّ أن أسألك عنه.

قال مونت كريستو وهو ينهضُ: - وأنا يا سيّدتي من اللباقة، بحيث أستطيع أن أُطلعك عليه.

- أوه يا سيّدي!

- فقط تذكّري دائمًا: قليلٌ منه دواءٌ، وكثير منه سمّ. قطرةٌ تعيدُ الحياةَ، كما رأيتِ؛ وخمس قطراتٍ أو ستّ تقتل حتمًا، وبطريقةٍ رهيبة، خاصّة وأنّها إن وُضعت في كأس نبيذٍ لن تغيّر البتّة من طعمه. لكن لأتوقّف عند هذا الحدّ يا سيّدتي وإلا بدوت كمن يحرّضك.

دقّت السادسة والنّصف، وأُعلمت السيّدة دو فيلفور بوصول إحدى صديقاتِها لتناول العشاء معها.

قالت: - لو أنّها فقط كانت المرّة الثالثة أو الرابعة التي أراك فيها يا سيّدي الكونت، وليس الثانية؛ ولو أنّك شرّفتني بصداقتك، بدلًا من أن أكون فقط امرأةً مدينةً لك، فسأصرّ على أن تبقى للعشاء معنا، من دون أن أخشى رفضك دعوتي.

أجابها الكونت: - أشكر لك كرمك يا سيّدتي، إنّي ملتزمٌ بموعدٍ لا يمكن أن أُخلفَه. لقد وعدت أميرةً إغريقيّة صديقةً، بأن أرافقها إلى حفل أوبرا، إذ لم يسبق لها أن حضرت حفلًا مماثلًا، وتعوّل عليّ في تحقيق رغبتها.

- حسنًا يا سيّدي، ولا تنسَ وصفتي.

- كيف أنساها يا سيّدتي! أن أنساها يعني أن أنسى ساعة الحديث التي جمعتنا، وهذا مستحيل.

ظلّت السيّدة دو فيلفور حالمةً.

قالت في نفسها: - ها رجلٌ غريبٌ، يبدو لي أنّ اسمَه الحقيقيّ أدلمونتي.

أمّا بالنّسبة إلى الكونت، فقد تجاوزت النّتائج كلّ توقّعاته. وقال يحدّث نفسه بينما ينصرفُ: «هي ذي أرضٌ خصبة؛ إنّي على يقين من أنّ الزرع الذي ننثره فيها لا يُجهض».

وفي اليوم التّالي أوفى الكونت بوعده وأرسل الوصفة المطلوبة.

53

روبير الشّيطان[1]

كانت الأوبرا خير حجّة يمكن أن يحتجّ بها الكونت، خاصّة أنّه كان ثمّة حفلٌ موسيقيٌّ ذاك المساء في الأكاديمية الملكية للموسيقى. بعد طولِ غيابٍ عاد لفاسور[2] بدور برترام[3]، وكالعادة فإنّ عمل المايسترو الذي يُعتبرُ موضة العصر، قد اجتذب كلّ الطّبقة المخملية في باريس.

ومثل جميع الشّباب الأثرياء كان مورسيرف يملك مقعده الخاص في مقدّمة المسرح، بالإضافة إلى عشر مقصورات يملكها أشخاص من معارفه، يستطيع أن يقصدهم في طلب مقعدٍ، من دون أن نغفل مقعدَه في مقصورة الشّباب المتأنّقين. وكان شاتو رونو يملك المقعد المجاور لمقعد مورسيرف. أمّا بوشان، فباعتباره صحافيًا، كان يتسيّدُ المكانَ، ويستطيع أن يجلس حيثما شاء.

وذاك المساء كانت تحت تصرّف لوسيان دُبراي مقصورة الوزير، فتركها للكونت مورسيرف الذي عرضها على أمّه فرفضتها، فأرسل يعرضها على دانغلار قائلًا إنّه قد يمرّ مساءً على البارونة وابنتها، إن قبلتا المقصورة التي يعرضها عليهما. ولم يكن لدى السّيّدتين من دافعٍ للرّفض. لن تجد مولعًا بالمقصورات المجّانية أكثرَ من أصحاب الملايين.

---

(1) أوبرا ألفها لأوبرا باريس الموسيقي الألماني جاكومو مايرابي، من نصّ ليوجين سكرايب عن حكاية تعود إلى القرون الوسطى.
(2) مغنّي الأوبرا الفرنسيّ نيكولا-بروسبير لفاسور (1791- 1871).
(3) شخصية فارس في الأوبرا المذكورة.

أمّا دانغلار فقد اعتذر قائلًا إنّ مبادئه السيّاسية ومركزه بوصفه نائبًا للشّعب يمنعانه من استعمال مقصورةٍ وزارية. فكتبت البارونة إلى لوسيان تطلب منه أن يأتي لاصطحابها ما دامت لا تستطيع أن تذهب هي ويوجيني بمفردهما.

الحقُّ أنّ ذهاب المرأتين بمفردهما إلى الأوبرا كان ليبدو مستهجنًا؛ أمّا أن تذهب الآنسة دانغلار مع أمّها وعشيق أمّها فلن يعيب أحدٌ ذلك: خذ العالم كما هو ببساطةٍ.

ارتفعت السّتارة كالعادة عن صالة شبه فارغة. إنّها عادةٌ أخرى من عادات الموضة الباريسية، أن تحضر العرض بعد أن يبدأ، فتكون النّتيجة أنّ المشهد الأول كلّه يمضي والمشاهدونَ الواصلون لا يتابعونَ العرض أو يسمعونَه، وإنّما ينظرون إلى من يأتي بعدهم ويسمعون أصوات الأبواب والأحاديث.

قال ألبير فجأةً وهو يرى مقصورةً في الصفّ الأوّل تُفتَح:

- انتظر! إنّهاالكونتيسة ج...!

سأله شاتو رونو: - ومن تكون الكونتيسة ج هذه؟

- أوه! هذا مثالٌ لما لا يمكن أن أغفره لك من أسئلةٍ يا سيّدي البارون؛ أتسألني من تكون الكونتيسة ج؟

قال شاتو رونو: - آه! أنت محقٌّ، أليست تلك البندقيّةَ الجميلةَ؟

- بلى.

وفي تلك اللّحظة لمحت الكونتيسة ج ألبير فبادلته تحيّةً وابتسامةً.

قال شاتو رونو: - هل تعرفها؟

- أجل، لقد عرّفني إليها فرانز في روما.

- هلاّ تفضّلت فأسديتَ إليّ في باريس المعروف الذي أسداه إليك فرانز في روما؟

- حبًّا وكرامة.

صاح الجمهور: - ششششش!
أكمل الشّابان حديثهما غير آبهَين برغبة الحضور في سماع الموسيقى.
قال شاتو رونو: - كانت في مضمار مارس لسباق الخيول.
- اليوم؟
- نعم.
- آه! كانت ثمّة سباقاتٌ. هل راهنت؟
- راهنت بمبلغ بائس، خمسين لويسية.
- ومن فاز؟
- نوتيلوس. وقد راهنت عليه.
- لكن، ألم تكن ثمّة ثلاثة سباقات؟
- أجل. كانت ثمّة جائزة جوكي النّادي، كأسٌ ذهبيّة. وحدثَ شيءٌ غريب.
- أيّ شيء؟
صاح الجمهور: - صه!
كرّر ألبير: - أيّ شيء؟
- فاز بالجائزة حصانٌ وجوكي مجهولان تمامًا.
- كيف؟
- أوه! يا إلهي! لم ينتبه أحدٌ إلى حصانٍ كان مقيّدًا باسم فامبا وجوكي باسم جوب، وإذا ينبري للسّباق جوادٌ أسمر وجوكي لا يتجاوز حجمه قبضة اليد؛ حتّى إنّ المنظّمين اضطروا إلى أن يحشوا جيوبه بعشرين رطلًا من الرّصاص، لكنّ ذلك لم يمنعه من أن يصل بثلاث مراحل قبل أرييل وباربارو اللّذين كانا مشاركين أيضًا في السّباق.
- ولم يُعرف صاحبُ الجواد والجوكي؟
- كلّا.
- قُلت إنّ الحصان كان مقيّدًا باسم...

- فامبا.

قال ألبير: - إذًا، أنا متقدّمٌ عليكم، إذ أعرف صاحب الجواد.

صاح الجمهور للمرّة الثالثة: - صمتًا!

هذه المرّة كان صوتُ الاحتجاج مرتفعًا حتّى إنّ الشّابين انتبها إلى أنّهما المقصودان. استدارا إلى الخلف لحظةً، كأنّما يبحثان داخل الحشد عن رجلٍ يحمّلانه مسؤولية الفعل الذي بدا لهما قلّة ذوقٍ؛ لكن لا أحد من الجمهور أعاد الاحتجاج، فاستدارا نحو خشبة العرض.

وفي تلك اللّحظة فُتحت مقصورة الوزير، واتّخذ مقعدَه فيها كلّ من السيّدة دانغلار وابنتها ولوسيان دُبراي.

قال شاتو رونو: - آه! ها أُناسٌ من معارفك يا فيكونت. كفّ عن اختلاس النّظر إلى اليمين، إنّك مراقَبٌ.

التفت ألبير، فصادفت عيناه بالفعل عينيّ البارونة دانغلار، فحيّته بحركةٍ من مروحتها. أمّا الآنسة أوجيني فبالكاد قبلت أن تخفض عينيها السّوداوين إلى المنصّة السّفلية.

قال شاتو رونو: - الحقّ يا عزيزي أنّنا إن استثنينا أن يكون الأمرُ سوء تفاهم، لا أرى ما الذي لا يعجبك في الآنسة دانغلار. إنّها إنسانة جميلة.

قال ألبير: - جميلةٌ جدًا، لا شكّ في ذلك؛ لكنّني لا أخفيك أنّني، في ما يخصّ الجمال، أفضّل شيئًا أنعم، وأرقّ، وأكثر أنثويّة.

قال شاتو رونو، وكان في سنّه الثانية والثّلاثين ممّا يمنحه هيئةً أبويةً قياسًا إلى مورسيرف: - هكذا هم الشّباب، لا يقنعون أبدًا بما لديهم. كيف يا عزيزي، يقدّمون إليك خطيبةً على مثال إلهة الصّيد ديانا، ومع ذلك لست راضيًا!

- هذا مربط الفرس؛ كنت أفضّل لو مُنحتُ خطيبةً على مثال فينوس

ميلوس أو فينوس كابوا[1]. إنّ الإلهة ديانا المحاطة دائمًا بالحوريات تخيفني قليلًا، وأخشى أن تعاملني معاملتَها أكتيون[2].

والحالُ أنّ نظرةً واحدةً إلى الصبيّة كانت تكفي لتفسير الشّعور الذي أفصح عنه مورسيرف. كانت الآنسة دانغلار جميلة، لكنّ جمالها كان شيئًا ما، كما وصفه مورسيرف، جامدًا: كان شعرها أسود جميلًا، لكنّ تجعّدَه الطّبيعيّ كان ينذرُ بتمرّده على كلّ من يريد أن يفرض عليه إرادتَه؛ وعيناها، السّوداوان سوادَ شعرها، كان يحدُّهما حاجبان رائعان، لا يعيبهما إلا عيبُ واحدٌ: كانا أحيانًا يقطّبان، حتّى ليندهش المرءُ كيف لنظرةِ امرأةٍ أن تحملَ كلّ هذه الصّرامة؛ أنفُها كان حسَنَ التّقويم، أبعادُه دقيقةٌ دقّة الأبعاد التي كان لينحتَ بها مَثَّالٌ تمثالَ الإلهة جونو. وحده فمها كان مفرط الكبر، لكنّه كفّرَ عن كبره بأسنان جميلة تزيدُ من بهاء شفتيها القرمزيّتين اللّتين تتباينان مع شحوبِ بشرتها؛ ثمّ تكتملُ تلك الهيئة الصارمةُ التي كانت ترهب مورسيرف قليلًا، بخالٍ عند جانب فمها، كبيرٍ بعض الشّيء قياسًا إلى النّزواتِ المماثلة التي اعتادتها الطّبيعةُ. عدا ذلك، كان كلّ ما يتعلّق بشخصية الآنسة يوجيني يتوافق مع الوجه الذي وصفناه. كانت، مثلما عيّنها شاتو رونو، إلهةَ الصيّد ديانا، لكن مع شيءٍ من الصّرامة والمتانة في جمالها. أمّا التربيةُ التي تلقّتها، فإن كان ثمّة ما يُعابُ عليها، فهو أنّها مثل بعض ملامح هيئتها قد مالت في جوانب منها إلى تربية الجنس الآخر. الحقُّ أنّها كانت تتكلّم لغتين أو ثلاثًا، وتحسنُ الرّسمَ، وتنظم أبياتًا وتؤلّف موسيقى؛ وكانت شغوفًا بهذا الفنّ الأخير، تدرسُه مع إحدى رفيقاتها، وهي صبيّةٌ فقيرةٌ لكنّها تملك كلّ المؤهّلات

---

(1) إشارة إلى تمثالي فينوس، الأوّل بجزيرة ميلوس اليونانية، والثاني بكابوا الإيطالية.

(2) حوّلته الإلهة ديانا (أرتميس بحسب التسمية اليونانية) إلى أيّلٍ، فالتهمته كلابُهُ إذ لم تتعرّف عليه.

لكي تصير مغنيّةً ممتازةً. يُقالُ إنّ مؤلّفًا موسيقيًا كبيرًا يحيطُ الصبيّة الفقيرة بعنايته، ويكفُلها، ويعلّمُها آملًا في أن يجني يومًا من صوتها ثروةً. وهذا الاحتمالُ، نقصد احتمالَ أن تظهر الآنسةُ لويز دارميلي -كذا كان اسمُ الصبيّة- يومًا ما على المسرح، هو ما يجعل الآنسة دانغلار، وإن استقبلتها في بيتها، لا تظهرُ معها في الأماكن العامّة. فضلًا عن ذلك، فإنّ لويز، وإن لم تكن تحتلُّ مكانة الصّديقة في منزل المصرفيِّ، إلا أنّها كانت تنعم بوضعٍ أرقى من وضع المعلّمات العاديات.

لحظاتٍ بعد دخول السيّدة دانغلار إلى مقصورتها، نزلت السّتارة، ونظرًا إلى طول الاستراحات ممّا يسمح للمتفرّجين بأن يتجوّلوا بين المقصورات مدّة نصف ساعةٍ، فقد تبلبلت صفوف المنصّة.

كان مورسيرف وشاتو رونو أوّل الخارجين. ولوهلةٍ ظنّت السيّدة دانغلار أنّ عجلةَ ألبير في الخروج إنّما لكي يأتي لتحيّتها، فمالت على أذن ابنتها تهمس لها بالأمر، فاكتفت الصبيّة بأن هزّت رأسَها مبتسمةً؛ وفي اللّحظة نفسها، وكأنّما سعيًا إلى إثبات رأي أوجيني، ظهر مورسيرف في مقصورة بجانب الصفّ الأوّل. وكانت تلك مقصورة الكونتيسة ج...

مدّت إليه الكونتيسةُ يدها بأريحيّةٍ من يجمعُها به قديمُ معرفةٍ، وقالت: – آه! هذا أنت يا سيّدي المسافر؛ سعيدةٌ بأنّك تذكّرتني، وأسعدُ لأنّك خصصتني بزيارتك الأولى.

قال ألبير: – هل تظنّين يا سيّدتي لو أنّني علمتُ بقدومك إلى باريس، وعرفتُ عنوانك، هل كنتُ لأبطئ عنك كلّ هذا الوقت. لكن، اسمحي لي أوّلًا أن أقدّم لك البارون شاتو رونو، صديقي، وهو أحد قلائل النّبلاء الباقين في فرنسا، وقد أخبرني أنّك كنتِ اليوم في سباق الخيول بمضمار مارس.

حيّا شاتو رونو الكونتيسة.

قالت الكونتيسة بحماسة: – آه! هل حضرتَ السّباقَ يا سيّدي؟

- نعم يا سيّدتي.

واصلت السيّدة ج...: - وإذًا، هل تستطيع أن تخبرني يا سيّدي بمالك الجواد الذي فاز بجائزة نادي الجوكي؟

أجابها شاتو رونو: - كلّا يا سيّدتي، لقد سألت ألبير منذ قليل السؤالَ نفسَه.

سألها ألبير: - هل تصرّين يا سيّدتي؟

- على ماذا؟

- على معرفة مالك الجواد؟

- كلّ الإصرار.تصوّر...أقصد هل تعرفه يا سيّدي الفيكونت؟

- سيّدتي، كنت ستحكين شيئًا: قلتِ لي تصوّر...

- آه، نعم، تصوّر يا سيّدي أنّ الجواد الأسمر الجميل والجوكي الصّغير ذا القبّعة الوردية، قد نالا ودّي من أوّل نظرةٍ، فتمنّيت أن يفوزا كأنّني راهنت عليهما بنصف ثروتي؛ لذا حين رأيتهما يتخطّيان خطّ النّهاية متقدّمَين على باقي المشتركين بثلاث مراحل انخرطت في نوبةٍ تصفيقٍ مثل مجنونة. تخيّل إذًا مبلغ دهشتي حين عدتُ إلى منزلي فوجدتُ الجوكي الصّغير ينتظرني أمام الباب! ظننتُ لأوّل وهلةٍ أنّه ينزل معي في نفس المكان، لكنّني حين دخلت المنزل ودلفت إلى الصّالون كان أوّل ما وقع عليه بصري الكأس الذهبية التي فاز بها الجواد والجوكي المجهولان. وفي الكأس ورقةٌ كتب فيها الكلمات الآتية: إلى الكونتيسة ج...، لورد روثوين.

قال مورسيرف: - هو ذاك!

- كيف هو ذاك!ماذا تقصد؟

- أقصد أنّه اللّورد روثوين بشخصه.

- أيّ لورد روثوين؟

- اللّورد روثوين صاحبُنا، مصّاص الدّماء، الرّجل الذي رأيناه في مسرح أرجنتينا.

صاحت الكونتيسة: - حقًّا! هو إذًا هنا؟
- تمامًا!
- وهل تقابله؟ تستقبله؟ تذهب عنده؟
- إنّه صديقٌ حميم، وحتّى السيّد شاتو رونو قد تشرّف بالتّعرّف عليه.
- وكيف عرفتَ أنّه هو صاحب الجواد؟
- جوادُه يحمل اسمَ فامبا...
- نعم، وإذًا؟
- وإذًا، ألا تذكرين اسمَ زعيم العصابة التي كانت قد اختطفتني؟
- آه! نعم.
- والتي أنقذني الكونت من بين أيديها بمعجزة؟
- أجل.
- كان اسمُ الزّعيم فامبا. ترَين إذًا، إنّه هو!
- لكن، لمَ أرسل إليّ تلك الكأس؟
- أوّلًا يا سيّدتي، لأنّني حدّثتُه كثيرًا عنك؛ ثمّ لأنّه بلا شكّ قد أسعده أن يصادف مواطنةً له في فرنسا، خاصّة أنّها تعاطفت مع جواده.
- أرجو أنّك لم تخبره شيئًا من الحماقات التي قلناها في حقّه!
- لا أجرؤ على الكذب، فكما رأيتِ لقد وقّع رسالته باسم اللّورد روثوين...
- فظيع! لا بدّ أنّه عاتبٌ جدًا عليّ.
- هل تصرّفه معك تصرُّف عدوّ؟
- كلّا، أقرُّ بذلك!
- حسنًا!
- هو إذًا في باريس؟
- أجل.
- وأيّ أثر خلّفه في المدينة؟

قال ألبير: - كان هو مدار الحديث مدّة ثمانية أيّامٍ، ثمّ أتى تتويجُ ملكة إنجلترا، وسرقةُ جواهر الآنسة مارس، فتغيّر موضوعُ الحديث.

قال شاتو رونو: عزيزي، نرى أنّ الكونت صديقك، فتُعامله على هذا الأساس. لا تصدّقي ما يقوله ألبير يا سيّدتي الكونتيسة، ليس مؤكّدًا في كلامه كلّه إلا كونُ الكونت حقًّا في باريس. دشّن الكونت مونت كريستو مقامَه في باريس، بأن أرسلَ إلى السيّدة دانغلار حصانَيْن قيمتُهما ثلاثون ألف فرنك؛ ثمّ أنقذ حياةَ السيّدة فيلفور؛ ثمّ فاز على ما يبدو بسباق نادي الجوكي. وأزيدُ أنا على ما قاله مورسيرف، بأنّ الكونت لا يزال هو موضوع الحديث في باريس، وسوف يبقى كذلك شهرًا على الأقلّ ما دام مستمرًا في هذه الحياة الغريبة التي يبدو أنّها بالنّسبة إليه حياةٌ اعتيادية.

قال مورسيرف: - ممكن؛ في انتظار ذلك، من الذي شغل مقصورةَ سفير روسيا؟

سألته الكونتيسة: - أيّ مقصورة؟

- المقصورة بين أعمدة الصفّ الأوّل؛ تبدو لي قد جُدّدَت تمامًا.

قال شاتو رونو: - هل كان ثمّة أحدٌ أثناء المشهد الأوّل؟

- أين؟

- في تلك المقصورة.

قالت الكونتيسة: - كلّا، لم أرَ أحدًا؛ لنعُد إذًا إلى موضوعنا السّابق، هل تظنُّ أنّ صديقك الكونت مونت كريستو هو من فاز بالسّباق؟

- أنا على يقين من ذلك.

- وهو من أرسل إليّ بالكأس؟

- بلا أدنى شكّ.

قالت الكونتيسة: - ولكنّني لا أعرفُه، وبي رغبةٌ قويّةٌ في أن أعيدها إليه.

- أوه! لا تفعلي؛ وإلا أرسل إليك كأسًا أخرى مصنوعةً من حجر السّفير أو منحوتةً في الياقوت. تلك عاداتُه، وينبغي أن نقبله كما هو.

في تلك اللّحظة تردّد الجرسُ معلنًا بأنّ المشهد الثاني على وشك أن يبدأ.

قام ألبير لكي يعود إلى مقعده.

سألته الكونتيسة: - هل سأراك مرّةً أخرى؟

- إن سمحتِ لي، سوف أعود إليك بين المشاهد لأرى ما إذا كنت تحتاجينني في أمرٍ ما بباريس.

قالت الكونتيسة: - سيّدايَ؛ أستقبل أصدقائي مساء كلّ سبت بشارع ريفولي رقم 22.

حيّا الشّابان الكونتيسة، ثمّ خرجا.

وحين عادا إلى الصّالة وجدا الجمهور واقفًا والعيون كلّها معلّقةً صوب نقطةٍ واحدة؛ نظرا في الاتّجاه الذي ينظر فيه الجميع، فتوقّفا عند المقصورة التي كانت مقصورة السّفير الرّوسي سابقًا. رجلٌ بين الخامسة والثّلاثين والأربعين من عمره، في لباسٍ أسود، دخل إلى المقصورة بصحبةِ امرأةٍ في زيٍّ شرقيّ. كانت المرأةُ آيةً في الجمالِ، وزيّها ينمّ عن غنىً فاحشٍ، فما كان إلا أن تعلّقت بها الأنظارُ كما قلنا.

قال ألبير: - إنّه الكونت مونت كريستو برفقة يونانيّته.

وبالفعل لم يكن الدّاخلان إلا الكونت وهايدي.

وما هي إلا لحظةٌ حتّى صارت الشّابةُ موضوع اهتمامٍ، ليسَ الصالة السّفلى فحسب، وإنّما المسرح بأكمله؛ مالت النّساء برؤوسهنّ خارج المقصورات كي يتأمّلن شلّالَ الجواهر يتلألأ في نور الثريّات.

ومرّ المشهد الثّاني وسط همهماتٍ مكتومة تدلّ على أنّ الجماعات كانت مشغولةً بحدث عظيم. لم يفكّر أحدٌ في أن يصرخ: «صمتًا». ذلك أنّ هذه الشّابة الفتيّة البالغة الحسن، والمبهرة، كانت العرضَ الأكثر مدعاةً للاهتمام.

وهذه المرّة أشارت البارونة دانغلار إلى مورسيرف إشارة واضحةً

بأنّها تريدُ أن تراه في الفاصل المقبل. وكان مورسيرف من التّهذيب بحيث لا يمكن أن يبطئَ في تلبية طلبٍ مماثلٍ. وما إن انتهى المشهد حتّى هرع عند البارونة. فحيّا السيّدتين وصافح دُبراي.

استقبلته البارونة بابتسامةٍ عذبة، ويوجيني ببرودها المعتاد.

قال دُبراي: - لعمري إنّك الآن أمام رجلٍ استُنزفَ، ويطلُب عونَك. إنّ البارونة ما انفكّت تقصفني بالأسئلة، وتريد أن تعرف كلّ شيءٍ عن الكونت: من أين أتى؟ ما أصلُه؟ والحقُّ أقول، أنا لستُ كاليوسترو[1] لأعرف كلّ ذلك. لذا قلتُ لها: «سَلي مورسيرف، فهو يعرف عن الكونت كلّ شيء». وإذّاك أشارت إليك تطلبك.

قالت البارونة: - أليس غريبًا أن يكون في حوزة المرء رصيدٌ سريٌّ يبلغ نصف مليونٍ، ولا يكون محيطًا بهذه الأخبار؟

قال لوسيان: - صدّقيني يا سيّدتي، لو كنتُ أملك نصف مليونٍ لكان لي أمورٌ أخرى أصرفُه فيها، أمورٌ أولى من تقصّي أخبار الكونت مونت كريستو الذي يبدو لي لا شيءَ يميّزُه سوى أنّ ثروتَه ضعف ثروةِ سُلطانٍ. لكنّني تركتُ الكلمة لصديقي مورسيرف، فانظري معه أمرَ الكونت.

- إنّ سلطانًا ما كان ليرسل إليّ حصانين سعرُهما ثلاثون ألف فرنكٍ، وفي آذانهما أربع ألماساتٍ قيمةُ كلّ واحدة منها خمسة آلاف فرنك.

قال مورسيرف ضاحكًا: - أوه! إنّ الألماس هو هوسَه. أظنُّه مثل بوتمكين يحمل منها دائمًا في جيوبه، وأينما حلَّ ينثرُها مثلما كان الصّبيُّ المسمّى في الحكاية عقلة الأصبع ينثر الحصى.

قالت السيدة دانغلار: - ربّما عثر على منجمٍ؛ هل تدري أنّ لديه رصيدًا غير محدودٍ عند مؤسّسة البارون؟

أجابها ألبير: - كلّا، لا أدري؛ لكنّ الأمر لا يفاجئني.

---

(1) المغامرُ والمؤلّف الإيطالي جوسّيبي بالزامو (1743-1795).

- وأنّه قد أخبر السيّد دانغلار بأنّه ينوي البقاء في باريس سنةً يصرفُ خلالها ستّةَ ملايين؟

- هو إذًا شاهُ إيران يُسافرُ متنكّرًا.

قالت يوجيني: - وتلك المرأة يا سيّدي لوسيان، هل لاحظتَ كم هي جميلةٌ؟

- الحقُّ يا آنستي لا أرى أفضل منك حكَمًا يعدلُ في حكمه على جمال بناتِ جنسك.

قرّب لوسيان منظاره من عينه.

قال: - امرأةٌ مليحة!

- وهذه المرأة، هل تعرف من هي يا سيّدي مورسيرف؟

أجابها ألبير: - آنستي، أعرفها تقريبًا، مثلما أعرفُ الشّخص الغامض الذي نتحدّث عنه. إنّ المرأة إغريقيةٌ.

- يسهل استنتاج ذلك من لباسها؛ ولستَ تخبرني هنا إلا ما يعرفه الحضور جميعهم.

قال مورسيرف: - آسفٌ لأنّي لم أكن دليلًا جيّدًا؛ هذا مبلَغُ علمي؛ لكنّني أعرفُ أنّها موسيقيّةٌ، إذ سمعتُ مرّةً بينما أتغدى عند الكونت صوتَ آلة غُزلة، لا يمكن أن تكون عازفتُها إلا هي.

سألته السيّدة دانغلار: - صديقك الكونت إذًا يستقبل النّاس؟

- يستقبلهم استقبالًا مذهلًا، أقسم لك.

- ينبغي أن أدفع بالسيّد دانغلار ليدعوَه إلى عشاءٍ أو حفلٍ راقص حتّى يردّ لنا الدّعوة.

قال دُبراي ضاحكًا: - كيف؟ ستذهبين عنده؟

- لمَ لا؟ أذهب عنده برفقة زوجي!

- لكنّ الكونت الغامض يبدو رجلًا أعزب.

أجابته البارونة وهي تضحك بدورها وتشير إلى الإغريقية الحسناء:

- كلّا، ها أنت ترى!

- هذه المرأة جاريتُه، بحسب ما قاله لنا هو نفسه. أتذكر ما قاله لنا أثناء الغداء يا مورسيرف؟

قالت البارونة: - لا تنكر يا عزيزي لوسيان بأنّ لها مظهر أميرة!

- إنها من أميرات ألف ليلةٍ وليلةٍ!

- لن أقول من أميرات ألف ليلةٍ وليلة؛ لكن ما الذي يجعل الأميرات أميرات يا عزيزي؟ الجواهر، وصاحبتُنا مغطّاةٌ بها.

قالت أوجيني: - بشكلٍ مفرط؛ كانت ستكون أجمل من دون المجوهرات، إذ ستكشف عن جيدها ومعصمَيها، وهي جميلةٌ على ما يبدو من هيئتها.

قالت السيّدة دانغلار: - آه! يا للفنّانة! تريان كيفَ تتحمّس؟

قالت يوجيني: - أحبُّ كلّ ما هو جميل.

قال دُبراي: - ما رأيُك إذًا في الكونت؟ يبدو أنّه لا بأس به!

أجابت يوجيني وكأنّما لم يخطر ببالها بعد أن تتأمّل الكونت: - الكونت؟ يبدو شاحبًا.

قال مورسيرف: - تمامًا، وفي شحوبه السرُّ الذي نبحث عنه. إنّ الكونتيسة ج... تظنُّه مصّاص دماء.

سألته البارونة: - هل عادت إذًا الكونتيسة ج...؟

قالت يوجيني: - إنّها في المقصورة الجانبية هناك، تقريبًا المقصورة المقابلة لنا؛ إنّها تلك المرأة ذات الشّعر الأشقر الرّائع.

قالت السيدة دانغلار: - أوه! أجل؛ أتدري ما ينبغي أن تفعل يا مورسيرف؟

- أمرُك يا سيّدتي.

- ينبغي أن تذهب عند الكونت وتأتي به إلينا.

قالت يوجيني: - لماذا؟

- حتّى نتحدّث إليه؛ ألا يثيرك الفضول لرؤيته؟

- كلّا.
غمغمت البارونة: - ما أغربك من صبيّة!
قال مورسيرف: - سوف يأتي على الأرجح من تلقاء نفسه. انظري، ها قد لمحك ويحيّيك.
ردّت البارونة على الكونت التحيّة، مرفقةً بابتسامةٍ عذبة.
قال مورسيرف: - حسنًا، أتطوّعُ؛ سأترككم لأرى ما إذا كان بوسعي أن أقابل الكونت.
- الأمرُ بسيط: اذهب إلى مقصورته.
- لكنّني لم أقدّم نفسي.
- لمن؟
- للإغريقية الجميلة.
- هي جاريةٌ، بحسب قولك؟
- لكنّكِ ارتأيتِ أنّها أميرةٌ... أتمنّى أن يخرج الكونت حين يراني خرجتُ.
- ممكن. هيّا!
- سأذهب.
حيّا مورسيرف الحضور وخرج. وبالفعل، حين مرّ من أمام مقصورة الكونت فُتح البابُ؛ قال الكونت كلماتٍ عربيّة لعليٍّ الذي كان واقفًا في الرّواق، ثمّ أمسك بذراع مورسيرف.
أغلق عليٌّ الباب ووقف أمامهُ، وحولَ الخادم النّوبيّ تجمهرَ جمعٌ من الحضور.
قال مونت كريستو: - الحقُّ أنّ باريسكُم مدينةٌ غريبةٌ، وباريسيِّكم شعبٌ فريد. كأنّما هي المرّة الأولى التي يشاهدون فيها نوبيًا. انظُر إليهم يتزاحمون حول المسكين عليّ الذي لا يفهم لماذا يفعلون ذلك. أقول لك إنّ باريسيًّا لو قُيِّضَ له بالمقابل أن يزور تونس أو القسطنطينية أو بغداد أو القاهرة، فلن يتجمهر النّاسُ حولَه.

- لأنّ الشّرقيّين رجالٌ عقلاءُ ولا يجتمعون ليبصروا إلا ما يستحقّ النّظرَ؛ لكن صدّقني، إنّ عليًّا لا يحظى بهذا الاهتمام إلا لكونه من رجالك، ولأنّك موضوع السّاعة.

- حقًّا! ومن أنعم عليّ بهذا التّشريف؟

- أنعمت به على نفسك؛ تُهدي حصانين بقيمة ألف لويسيّةٍ؛ تنقذ حياةَ زوجةِ وكيل ملك؛ وتشارك، تحت اسم المايجور براك، في السّباقات بخيلٍ كريمةٍ وجوكي لا يفوق حجمه حجم قرد ويستيتي؛ ثمّ تفوز بكأسٍ ذهبٍ وترسلُ بها إلى امرأةٍ جميلة.

- من حكى لك كلّ هذه الحماقات، بحقّ الشّيطان؟

- الأولى عرفتُها من السيّدة دانغلار التي تتحرّق إلى استقبالك في مقصورتها، أو بالأحرى نتحرّق جميعًا إلى ذلك؛ والثانية من صحيفة السيّد بوشان؛ والثّالثة بنتُ خيالي. لمَ سمّيت حصانك فامبا، ما دمتَ تريد أن تبقى مجهولًا؟

- آه! أنت محقٌّ! قلّةُ حرصٍ منّي! لكن أخبرني، ألا يأتي الكونت مورسيرف أحيانًا إلى الأوبرا؟ لقد بحثت عنه بعيني، ولم ألمحهُ في أيّ مكانٍ.

- سيأتي هذا المساء.

- أين؟

- في مقصورة البارونة على ما أظنّ.

- وهل الشّابةُ الجميلةُ التي معها، ابنتُها؟

- نعم.

- أهنّئك.

ابتسم مورسيرف.

- سنتكلّم في كلّ هذا لاحقًا. ما رأيك في الموسيقى؟

- أيّ موسيقى؟

- الموسيقى التي سمعتها قبل قليل.

- أقول إنّها موسيقى جميلة جدًا قياسًا إلى كونها موسيقى ألّفها موسيقيٌ بشرٌ، وغنّتها طيورٌ بلا ريشٍ وتسير على قدمين كما قال المرحوم ديوجين[1].

- آه! يبدو لي يا عزيزي الكونت أنّ بوسعك أن تسمع متى شئت من موسيقى الفردوس.

- الأمر تقريبًا كذلك. حين أريد أن أسمع موسيقى رائعة يا سيّدي الفيكونت، موسيقى لم تقع مثلها بأُذن بشرٍ، أنامُ.

- نِعمَ المكانُ للنّوم يا عزيزي الكونت؛ نَم يا عزيزي الكونت، نم ما طاب لك، فالأوبرا لم تُنشأ إلا لننامَ فيها.

- كلّا يا عزيزي، إنّ جوقَكُم صاخبٌ جدًا. لكي أنام النّوم الذي أحدّثك عنه، أحتاجُ الهدوء والصّمت، ثمّ أن أهيئ نفسي له...

- آه! تقصد الحشيش المعلوم؟

- بالضّبط يا فيكونت. حين ترغب في سماع الد يقى تعال للعشاء عندي.

قال مورسيرف: - لقد سمعت شيئًا منها حين دعوتني للغداء!

- في روما؟

- نعم.

- آه! كانت تلك غُزلة هايدي. إنّ المسكينة المنفية تتسلّى أحيانًا بأن تعزف لي ألحانًا من بلادها.

لم يلحّ الفيكونت في الكلام؛ وصمت الكونت من جهته.

وفي تلك اللّحظة رنّ الجرس.

---

(1) إشارة إلى سخرية ديوجين الكلبي من تعريف أفلاطون للإنسان، والحكاية شائعة معروفة في تاريخ الفلسفة.

قال الكونت وهو يعود إلى مقصورته: - هل تبلّغُ عذري؟
- لمَن؟
- للكونتيسة ج... أن أرسلتُ لها أشياء من طرف صديقها مصاصّ الدّماء.
- والبارونة؟
- قُل لها إنّني سأتشرّف بالمرور عليها لتحيّتها خلال السّهرة.
بدأ المشهد الثالث. وأثناء المشهد الثالث وصل الكونت مورسيرف، والتحق بالسيّدة دانغلار كما وعدَ. ولم يكُن الكونت من النّوع الذي يلفت الأنظار بحضوره؛ لذا لم ينتبه إلى وصوله أحد باستثناء أولئك الذين يشاركونه المقصورة.
على أنّ الكونت مونت كريستو قد لمحَه، وعبرت شفتيه ابتسامةٌ خفيفة.
أمّا هايدي فما كانت تنتبه إلى شيءٍ ما دامت السّتارة مرتفعة، إذ كانت كجميع النّفوس ذات الطّبائع الفطرية تحبُّ كلَّ ما يخاطب السّمع والبصر.
ومرّ المشهد الثالث كالعادة؛ وأدّت الآنساتُ نوبليه وجوليا ولورو مقاطعهنَّ الغنائية المعتادة؛ وتحدّى روبرت ماريو أميرَ غرناطةَ؛ وفي نهاية المطاف كما تعلمون قام الملك المظفّر بجولة في القاعة يستعرضُ معطفه المخمليّ، ممسكًا بيد ابنته؛ ثمّ نزلت السّتارة وعلى الفور تفرّق الحضور على البهو والأروقة.
غادر الكونت مقصورته، وبعد لحظةٍ ظهر في مقصورة البارونة دانغلار.
ولم تستطع البارونة أن تمنع نفسها من إطلاق صيحة دهشةٍ يخالطُها الفرح.
صاحت: - آه! تعال يا سيّدي الكونت! إنّني متلهّفةٌ لأن أشكرك وجهًا لوجهٍ، بعدما شكرتُك كتابةً.

قال الكونت: - أوه يا سيّدتي! ما زلت تتذكّرين تلك الهدية التّافهة؟ أنا نسيتُها.

- أجل يا سيّدي، لكن ما لا يُنسى هو إنقاذُك في اليوم التالي حياةَ صديقتي السيّدة دو فيلفور وابنها من الموت بسبب الحصانَيْن ذاتهما.

- وفي هذا أيضًا لا أستحقُّ ثناءك يا سيّدتي؛ إنّ عليًّا، خادمي النوبيّ هو من أنقذهما.

قال الكونت مورسيرف: - وهل عليٌّ هذا، هو من أنقذ ابني من بين أيدي العصابة بروما؟

ردّ مونت كريستو وهو يصافح يد الجنرال: - كلّا يا سيّدي الكونت، هذه المرّة الشّكر لي؛ لكنّك شكرتني من قبل، وإنّ شكرك لي مرّةً أخرى يخجلني. شرّفيني يا سيّدتي البارونة بالتّعرف على الآنسة ابنتك.

- أوه! هي تعرفك، أو تعرف اسمك على الأقلّ، فمنذ ثلاثة أيّام لا حديث لنا سواك. (ثمّ أضافت وهي تستدير صوب ابنتها) يوجيني، أقدّم لك الكونت مونت كريستو!

انحنى الكونت، وأومأت الآنسة دانغلار برأسها إيماءة خفيفة.

قالت يوجيني: - برفقتك يا سيّدي الكونت امرأةٌ رائعةٌ؛ هل هي ابنتُك؟

أجاب الكونت، وقد أدهشه ثقة البنت وصراحتها: - كلّا، هي يونانيةٌ مسكينة أكفُلُها.

- واسمُها؟...

- هايدي.

غمغم الكونت مورسيرف: - يونانية!

أجابته السيّدة دانغلار: - أجل؛ وقُل هل سبق أن رأيت في بلاط علي باشا الألباني، الذي خدمتَه بأمانة، امرأةً تلبس مثل هذا الزيّ الرّائع الذي نراهُ أمامَنا.

سأل مونت كريستو: - آه! هل خدمتَ في يوانينا يا سيّدي الكونت؟

أجابه مورسيرف: - كنت مفتّشًا عامًّا في فيالق الباشا، وأعترف أن جزءًا من ثروتي هو من عطايا القائد الألباني الشّهير.

ألحّت السيّدة دانغلار: - انظُر يا كونت!

تمتم مورسيرف: - أين؟

قال مونت كريستو: - هناك!

ثمّ أمسك بذراع الكونت ومالا معًا خارج المقصورة.

وفي تلك اللّحظة كانت هادي تبحث عن الكونت بعينيها، فوقع بصرها على وجهه الشّاحب بجانب وجه مورسيرف. ففعلت فيها رؤيتُهما فعل رأس ميدوزا؛ تقدّمت خطوةً إلى الأمام كأنّما تريد أن تلتهمهما معًا بنظرتها، ثمّ على الفور تراجعت إلى الخلف وأطلقت صيحةً واهنة، سمعها من كانوا حولها، ومن جملتهم عليّ الذي فتح الباب فورًا.

قالت يوجيني: - انظُر يا سيّدي الكونت، ما الذي حدث لمكفولتك؟ يبدو أنّها ليست على ما يرام.

قال الكونت: - نعم، لا تبدو على ما يرام؛ لكن لا تفزعي يا آنسة، إنّ هايدي عصبيّةٌ جدًّا، وبالتّالي حسّاسةٌ جدًّا تجاه العطور. إنّ عطرًا لا تحبّه يكفي لكي يُفقدها الوعي؛ لكن (أضاف وهو يخرج من جيبه قارورة) عندي الدّواء.

وبعد أن حيّا البارونة وابنتها بتحيّةٍ واحدةٍ وحيدة، صافح الكونت مورسيرف والسيّد دُبراي وغادر مقصورة السيّدة دانغلار.

وحين دخل إلى مقصورته، كانت هايدي لا تزال شاحبةً؛ وما كادت تلمحه حتّى أمسكت بيده.

لاحظ الكونت أنّ يد الشّابة كانت رطبةً ومتجمّدة في آنٍ.

سألته: - من ذاك الذي كنت تحادثه يا مولاي؟

أجابها الكونت: - كنت أحادِث الكونت مورسيرف الذي كان في خدمة والدك العظيم، والذي يقرُّ بأنّه مدين له بثروته.

صاحت هايدي: - آه! اللّعين! إنّه هو من باعه إلى الأتراك؛ وثروته هي ثمن خيانته. ألم تكن تعرف يا مولاي؟

قال مونت كريستو: - لقد سمعت نُتفًا من هذه القصّة في إيبيروس، ولكّنني أجهل التّفاصيل. هيّا يا ابنتي، سوف تحكين لي هذه التّفاصيل، لا بدّ أنّها مثيرة.

- أوه! نعم، هيّا بنا، هيّا؛ أحسب أنّي قد أموت إن بقيت مدّةً أطولَ أمام هذا الرّجل.

ثمّ قامت هايدي بسرعةٍ، فتلفّعت ببرنُسها المصنوع من الكشمير والمزيّن باللؤلؤ والمرجان، وخرجت بسرعةٍ لحظةَ رُفع السّتار.

قالت الكونتيسة ج... لألبير، وكان قد عاد إليها: - أرأيتَ هذا الرّجل، إنّه لا يفعل أبدًا شيئًا كما يفعله الآخرون؛ لقد أنصت بخشوعٍ لمشهد روبير الثالث، ثمّ ها هو يخرجُ في بداية المشهد الرّابع.

54

الصّعود والهبوط

أيّامًا بعد ذلك، أتى ألبير دو مورسيرف لزيارة الكونت مونت كريستو في منزله بالشانزيليزيه، وكان المنزل آنذاك قد اتّخذ هيئةَ القصر، تلك الهيئة التي يحرص الكونت، بفضل ثروته، على أن يتّخذها كلّ مسكنٍ يحلّ به، حتّى وإن كانت إقامتُه فيه عابرةً.

لقد أتى ألبير يجدّد شكرَ السيّدة دانغلار التي كانت قد أرسلت إليه رسالةً موقّعةً باسم البارونة دانغلار، واسمها قبل الزّواج: «هرمين دو سيرفيو».

وكان الشّابُ مرفوقًا بلوسيان دُبراي الذي أتى يعضّد كلام صديقه بثناءٍ لم يكن رسميًا بالتّأكيد، لكن بفضل دقّةِ ملاحظته، استطاع الكونت أن يُدرك مصدرَه.

وقد بدا للكونت أنّ لوسيان أتى مدفوعًا بشعورِ فضولٍ مزدوج، وأنّ نصف هذا الشّعور آتٍ من شارع لاشوسيه دانتان. كان الكونت يفترضُ، واثقًا من صدق افتراضه، أنّ السيّدة دانغلار، إذ لم يكن بقدورها أن تأتي بنفسها فترى بعينيها كيف يكون منزلُ رجلٍ يهدي خيولًا بقيمة ثلاثين ألفَ فرنكٍ، ويصطحب إلى الأوبرا جاريةً يونانيةً تضعُ جواهر قيمتُها مليونٌ؛ قد كلّفت العينين اللتين اعتادت أن ترى عبرهما بأن يأتيا بمواصفات المنزل من الدّاخل.

لكن الكونت لم يُظهر أدنى شكّ في الارتباط بين زيارة لوسيان وفضول البارونة.

سأل الكونت ألبير دو مورسيرف: - هل تربطك علاقة دائمةً بالبارون دانغلار؟

- نعم يا سيّدي الكونت؛ ألا تذكرُ ما قلتُه لك؟

- ما زال الأمرُ قائمًا إذًا؟

- أكثر من أيّ وقتٍ مضى، إنّه اتّفاقٌ ناجز.

وإذ قدّرَ لوسيان بأنّ كلامَ الرّجلين على هذا النّحو يمنحُه الحقّ في أن يظلّ على الحياد، فقد وضع على عينيه نظارته المصنوعة من الصّدف، وأخذ يتجوّل في الغرفة متفحّصًا الأسلحة واللّوحات.

قال مونت كريستو: - آه! لكن بالنّظر إلى كلامك لم أظنَّ أنّه أمرٌ وشيك.

- وما العمل؟ إنّ الأمور تسير في غفلةٍ منّا؛ وبينما نحن في غفلةٍ عنها، تدبّرُ هي وتفكّر؛ وحين ننتبهُ نندهشُ إذ نرى المسافة التي قطعَتها. أبي والسيّد دانغلار خدما معًا في إسبانيا، أبي في الجيش ودانغلار في المؤن. وهناك استطاع كلّ من أبي، بعدما أفلس بسبب الثورة؛ ودانغلار، الذي لم يكن يملك شيئًا؛ أن يبنيا أسسهُما؛ أبي وضع أسس ثروته السياسية والعسكريّة، وهي ثروةٌ عظيمة، والسيّد دانغلار وضعَ أسس ثروته السيّاسية والمالية، وهي ثروةٌ هائلة.

قال الكونت: - أجل، أجل، أعتقد أنّ السيّد دانغلار قد حدّثني في ذلك أثناء زيارتي إلى بيته؛ (ثمّ أكملَ وهو ينظر بطرفٍ خفيّ إلى لوسيان الذي كان يتصفّح ألبومًا) وإنّ الآنسة يوجيني جميلةٌ؛ اسمها يوجيني بحسب ما أذكر؟

أجابه ألبير: - جميلةٌ جدًا، بل فاتنة الجمال، لكنّي لا أستحسن جمالها. لا أراني كفؤا له!

- تتحدّث وكأنّك قد صرتَ زوجها.

تأوّه ألبير وهو يلتفت بدوره ليرى ما يصنعُ لوسيان.

قال الكونت خافضًا صوتَه: - أوَتعلمُ، تبدو لي غير متحمّس لهذا الزّواج!

- إنّ الآنسة دانغلار أغنى منّي بكثير، وهذا الأمر يخيفني.

- يا له من سبب وجيه! ألستَ أنت أيضًا غنيًا؟

- إنّ أبي يملك مدخولًا يقارب أربعين ألف جنيه، وسوف يعطيني منها إن تزوّجتُ عشرةَ آلافٍ أو اثني عشر.

قال الكونت: - الحقُّ أنّه مبلغٌ زهيدٌ، خاصّةً في باريس؛ غير أنّ المال ليس كلّ شيءٍ في هذا العالم، من الجيّد أنّ ثمّة أشياء أخرى كالاسمِ الرّفيع والمكانة العالية. إنّ اسمك شهيرٌ، ومكانتك رفيعةٌ، ثمّ إنّ السيِّد مورسيرف جنديٌّ، ومحبّبٌ هذا الجمعُ بين نزاهة بايار وفقر دوغسكلان[1]؛ إنّ الزّهد هو الشّعاعُ الأجمل الذي يمكن أن يزينَ سيفًا نبيلًا. على خلافك، أرى أنا أنّ هذه المصاهرة موفّقةٌ جدًا: الآنسة دانغلار سوف تمنحك الغنى، وأنت سوف تمنحها النّبالة!

هزّ ألبير رأسه وجعل يتفكّرُ. ثم قال: - ثمّة شيءٌ آخرُ...

قاطعه الكونت: - أعترف لك بأنّني عاجزٌ عن إدراك سبب رفضك لهذه الشّابة الغنية الحسناء.

قال مورسيرف: - أوه! يا إلهي! إنّ هذا الرّفض ليس من جانبي!

- ومن جانب من إذًا؟ ألم تقُل إنّ والدك يبارك هذا الزّواج ويرغب فيه؟

- من جانب والدتي، وإنّ والدتي ذاتُ نظرةٍ لا تخطئ. إنّها غير مرتاحةٍ لهذا الزّواج، لديها تحفّظٌ تُجاه آل دانغلار.

قال الكونت بنبرةٍ متصنّعة بعض الشّيء: - أوه! الأمر مفهوم؛ إنّ

---

(1) المقصودان على الأرجح: بيير تيراي الملقّب بارون بايار (1476/ 1475 - 1524) فارسٌ ذاع صيته إبّان الحروب الإيطالية بين القرنين الخامس عشر والسّادس عشر؛ وبرتران دو غيسكلان (نحو 1320- 1380) نبيلٌ بروتوني، وشخصيّة بارزة في الجزء الأوّل من حرب المائة عام.

السيّدة مورسيرف، وهي التميّزُ والأرستقراطية والرّهافة مجسّدةً، تتردّد في أن تصافح يدًا سوقيةً ثقيلةً وفظةً: هذا طبيعيّ.

قال ألبير: - لا أدري ما إذا كان هذا هو السّبب؛ لكن كلّ ما أعرفُه، هو أنّ هذا الزّواج إن تمّ قد يجعلها تعيسةً. وكان المفروض أصلًا أن نجتمع منذ ستّة أسابيعَ لنحدّد التّفاصيل، لكنّ أوجاع الرّأس ألمّت بي...

قال الكونت باسمًا: - أوجاعٌ حقيقية؟

- كانت حقيقية بالفعل! إنّه الخوف بلا ريب... فأجّلنا الموعد شهرين. لا شيء يدعو إلى العجلة؛ لم أبلغ بعد الحادية والعشرين، ويوجيني للتوّ بلغت ربيعها السّابع عشر؛ غير أنّ مهلة الشّهرين تنقضي الأسبوع القادم. وينبغي أن ننتقل إلى التّنفيذ. ولا يمكن أن أصف لك يا عزيزي الكونت حجم انزعاجي... آه! ما أسعدك بحريّتك!

- طيّب، كُن أنت أيضًا حرًّا؛ ما الذي يمنعك؟

- أوه! إن لم أتزوّج الآنسة دانغلار سيصاب والدي بخيبة كبيرة.

قال الكونت وهو يهزّ كتفيه بطريقة فريدة: - تزوّجها إذًا.

- أجل؛ لكن في هذه الحال لن تصاب أمّي بالخيبة، وإنّما بالألم.

- لا تتزوّجها إذًا.

- سوف أرى، سأحاول، وسوف أجد لديك النّصح، أليس كذلك؟ وإن أمكنك سوف تخرجني من هذا المأزق إن أمكنك. كيلا أُحزن أمّي العزيزة أظنُّ ألا مناص لي من أن أُفسد علاقتي بالكونت.

أدار الكونت وجهه، وقد بدا عليه التأثّر.

ثمّ قال موجّهًا كلامَه إلى دُبراي الذي كان جالسًا على أريكةٍ أقصى الصالون، ممسكًا بيمناه قلمًا وبيُسراه كرّاسًا: - ما الذي تفعلهْ أنت؟ هل تضع رسمًا أوّليًا انطلاقًا من عمل بوسّان[1]؟

---

(1) نيكولا بوسّان (1665-1594)، رسّام فرنسيّ، يعدّ أهمّ ممثّل لتيار الكلاسيكيّة، وقد كان متأثّرًا في بداية أمره بالإيطالي تيتيان.

أجابه بهدوء: - أنا أضعُ رسمًا أوّليًا؟ أحبُّ الرّسم إلى درجة أنّني لا يمكن أن أرتكب في حقّه ذلك؛ كلّا، أنا في الواقع أقوم بما يضّادُ الرّسمَ، أنا أخطّ أرقامًا.

- أرقامًا؟

- نعم، أحسبُ، والأمرُ يعنيك بطريقة غير مباشرة سيّدي الفيكونت؛ أحسب كم ربحت مؤسّسة دانغلار من ارتفاع بورصة هايتي مؤخّرًا: لقد ارتفع السّهم في ثلاثة أيامٍ من مائتين وستّة إلى أربعمائة وتسعة؛ وكان المصرفي الحصيف قد اشترى الكثير منها بسعر مائتين وستة. لقد ربح نحو ثلاثمائة ألف جنيه.

قال مورسيرف: - ليس هذا بأفضل إنجازاته؛ ألم يربح هذه السّنة مليونًا من سندات إسبانيا؟

قال لوسيان: - أصغِ يا عزيزي، هوذا الكونت مونت كريستو سيقول لك كما يقول الإيطاليّون:

Danaro e santia

MetàdellaMetà[1]

وهذا أصلًا كثيرٌ. لذا حين يخبرني أحدهم بمثل هذه القصص، فإنّني أكتفي بأن أهزّ كتفيّ.

قال مونت كريستو: - هل ذكرتُما هايتي؟

- أوه! هايتي أمرٌ آخر؛ هايتي هي لعبةُ الإكارتيه على طاولة المضاربات الفرنسيّة. قد يحبُّ المرء البويّوت، ويعزّ بالويست، ويشغف بالبوسطن[2]، ويملَّ من كلّ ذلك؛ ولكنّه لا بدّ أن يرجع إلى الإيكارتيه: إنّها المقبّلات التي نعود إليها دائمًا. لذا باع السيّد دانغلار أمس بأربعمائة

(1) المالُ والقداسةُ، نصفُ النّصفِ.

(2) أسماء ألعاب ورق.

وستّة، وكسبَ ثلاثمائة ألف فرنك؛ ولو أنّه انتظر إلى اليوم، حيث هبطت القيمة إلى مائتين وخمسة، لكان خسر عشرين أو خمسةً وعشرين ألفًا، بدلًا من ربح ثلاثمائة ألف فرنك.

سأله الكونت مونت كريستو: - ولمَ هبطت القيمة من أربعمائة وتسعة إلى مائتين وستة؟ اعذرني لجهلي بحيل البورصة.

أجاب ألبير ضاحكًا: - لأنّ الأخبار تتوالى ولا تتشابه.

صاح الكونت: - آه! بحقّ الشيطان! إنّ السيّد دانغلار يقامر بثلاثمائة ألف فرنكٍ في يومٍ واحد! هو إذًا فاحش الثراء؟

صاح لوسيان بحماسة: - ليس هو من يقامر، إنّها السيّدة دانغلار؛ هي امرأةٌ مُجازِفَةٌ جدًا.

قال مورسيرف بابتسامة: - لكنّك عاقلٌ يا لوسيان، وبما أنّك خير من يعرف عدم استقرار الحوادث، بحكم أنّك مصدرُها، فلا ريب في أنّك تكبح مجازَفاتها.

أجابه لوسيان مُستفهمًا: - أنّى لي أن أنجح في ذلك، إذا كان زوجُها نفسه لا يستطيع؟ إنّك تعرف طبع البارونة؛ لا أحد يستطيع التأثير فيها، ولا تأتمر إلا بأوامر نفسها.

قال ألبير: - آه! لو كنت في مكانك!

- لو كنت في مكاني!

- لو كنت مكانك لشفيتُها؛ واعتبرتُ الأمر معروفًا أسديه لصهرها المقبل.

- وكيف تستطيع ذلك؟

- ذاك أمر سهلٌ بحقّ السّماء! سوف ألقّنها درسًا.

- درسًا؟

- أجل إنّ مركزك كسكرتير للوزير يمنحك سلطةً كبيرةً فيما يخصّ الأخبارَ؛ لا تكاد تفتح فمك حتّى ينطلق العملاء من فورهم إلى تحليل كلامك.

غمغم لوسيان: - لا أفهم.

أجابه الشّاب بسذاجةٍ: - مع أنّ الأمر واضحٌ! أخبرها ذات صباحٍ بخبرٍ مذهلٍ، معلومة وصلتك بالتّلغراف ولا أحد سواك يعرفها؛ مثلًا: إنّ هنري الرّابع قد شوهد أمس عند غابرييلا[1]؛ وزيارته تلك سترفع الأسهم؛ إذّاك ستضارب البارونة على هذا الأساس، وتخسرُ لا محالة حين يكتب بوشان اليوم التّالي في جريدته: «تروجُ أخبارٌ زائفةٌ بأنّ الملك هنري الرّابع قد شوهد أمس عند غابرييللا، ولا أساس لصحّة هذا الخبر، إذ إنّ الملك هنري الرّابع لم يغادر بونتنوف.

أخذ لوسيان يضحك على مضض. والكونت مونت كريستو، وإن بدا غير مكترث، إلا أنّه لم يفلت كلمةً من الحديث، لا بل إنّ عينه الثّاقبة قد قرأت ما يشبه السرّ في الانزعاج المكتوم الذي ألمّ بسكرتير الوزير.

وكانت نتيجةُ هذا الانزعاج الذي لم ينتبه إليه ألبير، أن أوجز لوسيان زيارتَه، واستأذن في الانصراف، فاقتاده الكونت إلى الباب وهو يهمس إليه بكلمات، أجاب عنها: - على الرّحب والسّعة يا سيّدي الكونت، أنا موافق.

عاد الكونت إلى الشّاب مورسيرف. وقال له: - أسألُك، بعد تفكيرٍ، ألا تظنُّ أنّك قد أسأتَ إذ تحدّثت عن حماتك بذاك النّحو أمام دُبراي.

قال مورسيرف: - رجاءً لا تسمّيها حماتي مرّةً أخرى.

- أحقًا تُعارض الكونتيسة زواجكَ إلى هذه الدّرجة؟

- نعم، إلى درجة أنّ البارونة نادرًا ما تزورنا في بيتنا؛ أمّا أمّي فلا أعتقد بأنّها قد ذهبت أكثر من مرّة واحدةٍ إلى بيت السيّدة دانغلار.

قال الكونت: - وهذا ما يشجّعني على أن أحدّثك بكلّ صراحة: إنّ السيّد دانغلار هو مصرفيَّ، والسيّد دو فيلفور غمرني بأدبه وهو يشكرني

---

(1) غابرييللا ديستري عشيقة الملك هنري الرّابع المفضّلة.

على المعروف الذي شاءت الصُدفة أن أسديه إليه. وأتصوّر الكمّ الهائل من الدّعوات والولائم التي ستتبعُ ذلك. ولأحظى بشرف السّبق، أفكّر في أن أقيم وليمةً في بيتي الرّيفي، أدعو إليها السيّد والسيّدة دانغلار، والسيّد والسيّدة فيلفور. فإن دعوتُك وسيّدي الكونت وسيّدتي الكونتيسة دو مورسيرف؛ ألن يبدوَ الأمر أشبه بموعدٍ لتثبيت الزواج؟ أو على الأقلّ ألن تنظر الكونتيسة مورسيرف إلى الأمر كذلك، خاصّة إذا ما شرّفني البارون دانغلار باصطحاب ابنته معه؟ ولعلّ ذلك قد يثير حفيظة والدتك ضدّي، وهذا ما لا أريده بالمرّة؛ لا بل إنّي لحريصٌ على رضاها، وأرجو أن تخبرها بذلك كلّما عنّت لك فرصةٌ.

قال مورسيرف: - صدقًا، أشكر لك صراحتك يا سيّدي الكونت؛ وأقبل طلبك. تقول إنّك حريصٌ على رضا والدتي، والحقّ أنّك حزت عندها كلّ الرّضا.

سأله مونت كريستو باهتمام: - أتظنُ ذلك؟

- بل متيقّنٌ من ذلك. حين تركتَنا في المرّة السّابقة، تحدّثنا عنك ساعةً، ولي عودةٌ إلى ما قلناه عنك. فإن علمت والدتي بحرصك على رضاها، فسوف تكون ممتنّةً لك لا محالة. لكن لا أخفيك أنّ والدي لن يكون سعيدًا بذلك.

ضحك الكونت، وقال: - حسنًا، ها قد أعلمتُك. لكن، أظنُّ أنّ والدك لن يكون وحدهُ الغاضبَ؛ سوف يعتبرني السيّد والسيّدة دانغلار رجلًا مفتقدًا للّباقة. فهما يعرفان أنّنا صديقان، وأنّك أقدم معارفي في باريس، فإن لم يجدانك عندي، فسوف يتساءلان لما لم أدعوك. فكّر إذًا مسبقًا في حجّة مقبولة تغيب بها عن الحفل، وأرسل إليّ اعتذارك في رسالة. فكما تعلم لا يقبل المصرفيّون إلا الوثائق المكتوبة.

قال ألبير: - لا بل إنّي سأفعل أكثر من ذلك. إنّ أمّي ترغب في الذهاب لاستنشاق هواء البحر. متّى حدّدت موعد دعوة العشاء؟

- يوم السّبت.

- حسنًا، اليومَ الثلاثاء؛ غدًا سنسافر، وفي اليوم التالي سوف نكون في مقاطعة تريبور. أوَتعلم يا سيّدي الكونت أنّك رجلٌ طيّبٌ جدًا، تسعى في راحة النّاس؟

- أنا! في الواقع أنت تثني عليّ بأكثر ممّا أستحقّ؛ كلّ ما في الأمر أنّني أرغب في أن أكون لطيفًا معك.

- متى ترسلُ الدّعوات؟

- اليوم.

- حسنًا! سوف أركض إلى بيت السيّد دانغلار، وأعلمه بأننا سنترك باريس غدًا، أنا وأمّي. أنا وأنت لم نتقابل، وبالتّالي لا علم لي بالعشاء الذي تنظّمُه.

- ما أحمقك! ألم يرَكَ السيّد دُبراي عندي هنا؟

- آه! بلى.

- بالعكس، لقد التقينا ودعوتك مباشرةً بلا رسمياتٍ، فاعتذرت منّي لأنّك مضطرٌّ إلى الذهاب إلى تريبور.

- حسنًا، اتفقنا. لكن أنت، هل ستأتي للقاء والدتي قبل غدٍ؟

- قبل غدٍ، صعبٌ؛ ثمّ إنّي سآتيكم وأنتم منشغلون بالتّحضير للسّفر.

- حسنًا، ما عليك إلا أن تفعل ما هو أفضل من ذلك. حتّى اللّحظة كنت رجلًا لطيفًا، فما ضرّكَ لو صرت مهيبًا.

- وماذا عليّ أن أفعل لأصير كذلك؟

- ماذا عليك أن تفعل؟

- نعم، أنا أسألك.

- أنت اليومَ حرٌّ كالهواء؛ تعالَ إذًا للعشاء معي؛ وليمةٌ ضيّقةٌ، أنا وأنت ووالدتي فقط. بالكاد لمحتَ والدتي، وهذه فرصةٌ لتتأمّلها عن قرب. إنّها امرأةٌ رائعةٌ، وإن كان ثمّة ما أتحسّر عليه، فهو عدم وجود نسخةٍ عنها

أصغر منها بعشرينَ عامًا؛ أقسم لك لو أنّ الأمر كذلك لما تأخّرت في أن أتزوّج آنسةً، فأخلع عليها لقب فيكونتيسة مورسيرف. أمّا أبي، فلن تجده بالبيت، لديه اجتماع هذا المساء، وسوف يبيت عند رئيس المجلس. تعال، وسوف نتحدّث في السّفر. أنت الذي جُبت العالم بأكمله، سوف تحكي لنا مغامراتك؛ وتقصّ علينا خبر اليونانية الجميلة التي رافقتك إلى الأوبرا، تلك التي تسمّيها جاريتك، وتعاملُها كأميرة. سوف نتحدّث بالإيطالية والإسبانية. هيّا، اقبل دعوتي؛ وسوف تكون أمّي شاكرةً لك.

قال الكونت: - ألف شكرٍ على دعوتك الكريمة، لكنّي مضطرّ للاعتذار. لستُ حرًّا كما تظنُّ، وإنّما عندي التزامٌ. عندي موعدٌ على قدر بالغٍ من الأهميّة.

- آه! حذار؛ لقد عرّفتني قبل قليل كيف يتخلّصُ المرء من دعوة تُسبّب له حرجًا. تلزمني حجّةٌ. لستُ مصرفيًا كالسيّد دانغلار، لكنّني مثله لا أصدّق بسهولةٍ.

قال الكونت: - لذا سوف أقدّم لك حجّة!

ثمّ قرع الجرس.

قال مورسيرف: - همم! هذه المرّة الثانية التي ترفض فيها العشاء مع والدتي. هو إذًا موقفٌ يا سيّدي الكونت!

انتفض الكونت، وقال: - أنت لا تعتقد حقًّا في ذلك؛ ثمّ ها حجّتي قد أتت.

ودخل عليهما إذّاك باتيستان ووقف عند الباب منتظرًا.

قال الكونت مخاطبًا مورسيرف: - لم أكن على علمٍ بزيارتك، أليس كذلك يا سيّدي؟

- إنّك رجُل مذهلٌ يا سيّدي الكونت، بحيث لا أستطيع أن أقطع في ذلك.

- لنقل على الأقل إذًا، إنّه ليس بوسعي أن أخمّن أنّك سوف تدعوني إلى العشاء.

- هذا على الأقل أمرٌ راجحٌ.

- حسنًا، اسمع... ماذا قلتُ لك يا باتيستان حين استدعيتُك إلى مكتبي هذا الصّباح؟

أجاب الخادمُ: - أن أُغلق باب بيت سيّدي الكونت، ما إن تدقّ السّاعة الخامسة.

- ثمّ؟

قال ألبير: - أوه! يا سيّدي الكونت...

- كلّا، كلّا، إنّي مصرٌّ على أن أقطع مع صفة الغموض التي ترميني بها يا سيّدي الفيكونت. ليس من السّهل أن يعيش المرء أبدًا في ثوبِ مانفريد(1). أريد أن أعيش في منزلٍ من زجاج. ثمّ... أكمل يا باتيستان.

- ثمّ، ألّا أدع أحدًا يدخل إلا الرّائد بارتولوميو كافالكانتي وابنه.

- أسمعت يا سيّدي الفيكونت: السيّد الرّائد بارتولوميو كافالكانتي أحد أعرق نبلاء إيطاليا، حتّى إنّ دانتي كان بمثابة هوزييه(2) بالنّسبة إليه... هل تذكرُ الأنشودة العاشرة من **الجحيم**، أم لا تذكرها؟ وابنُه شابٌ لطيفٌ، من سنّك تقريبًا، ويحمل نفس لقبك، أي فيكونت، ويريد دخول عالم باريس بملايين والده. والرّائد سيأتي هذا المساء بابنه أندريا، **الكونتينو**، كما يُقال للفيكونت في إيطاليا. سيعهد الأب بابنه إليّ، وسأقدّم له يد العون إن كان يستحقّ. وسأعوّل على مساعدتك، أليس كذلك؟

---

(1) الشّخصية الرّئيسة في مسرحية اللورد بايرون التي تحمل الاسم نفسَه.

(2) يقصد على الأرجح شارل هوزييه (1640-1732) وكان مستشارًا لملك فرنسا؛ كذلك كان دانتي صديقَ الشّاعر غويدو كافالكانتي ونجيَّهُ. والمذكور في الأنشودة العاشرة من الجحيم هو شبح والده كافالكانته كفالكانتي.
يقول دانتي (بترجمة كاظم جهاد):
فرأيتُ إلى جانبه شبحًا يبرز/ مكشوفًا إلى الذّقن، أعتقدُ/ إنّه كان يقف على ركبتيه.
تطلّع حولي كما لو ليرى/ إنْ كان يرافقني غيري؛/ ثمّ بعدَما زاوَلَه كلّ شكّ،
قال لي باكيًا: - إنْ كان علوّ عبقريّتكَ يُتيح لك/ أن تمرّ
بمحْبسنا الأعمى هذا،/ فأينَ هو ابني؟ ولمَ يا ترى لا يرافقك؟

قال ألبير: - بلا شك! صديقٌ قديم لك هذا الرّائد كافالكانتي؟

- كلّا، إنّه سيّدٌ شهم، شديد التّهذيب والتّواضع والتكتّم، من حفنةٍ من آخر من تبقّى من سلالة الأسر العتيقة في إيطاليا. قابلته مرّاتٍ عديدة، سواء في فلورنسا، أو بولونيا، أو لوكا، وقد أرسل إليّ يخبرني بقدومه. إنّ المعارف الذين يجمعك بهم السّفر متطّلبون جدًا. يطالبونك كلّ مرّةٍ بأن تكافئهم على الصّداقة التي أبدوها لك بمحض الصّدفة! المهمّ إنّ هذا الرّجل الطيّب الرّائد كافالكانتي يعود لزيارة باريس بعدما لم يرَها من قبلُ إلا مرّة واحدةً، تحت حكم الإمبراطورية، وكان في طريقه إلى صقيع موسكو. سوف أقدّم له عشاءً فخمًا، وسوف يعهدُ إليَّ بابنه؛ وسوف أعده بأن أرعاه؛ ثمّ أتركُ الشّاب يفعل ما يحلو له من حماقاتٍ، ونكون متخالصين.

قال ألبير: - رائع! أرى أنّك يا سيّدي نِعمَ النّاصح المخلص. وداعًا إذًا، سوف نعود يوم الأحد. وبالمناسبة، لقد وصلتني أخبارُ فرانز.

- آه! حقًّا! هل لا يزال مستمتعًا في إيطاليا؟

- أظنّه كذلك؛ غير أنّه يتحسّر على ذهابك. يقول إنّك كنت شمس روما، وإنّ سماءها أظلمت بعدك. ولا أدرى ما إذا كان سيصل حدّ القول إنّ السّماء تمطر.

- هل تراجع إذًا صديقك فرانز عن رأيه فيَّ؟

- بالعكس، لا يزال مصرًا على أنّك رجلٌ مذهل؛ ولهذا يتحسّرُ عليك.

قال الكونت: - إنّه شابٌ لطيف! وقد شعرت نحوه بمودّة قويّة، منذ المساء الأوّل الذي رأيته فيه يبحث عن عشاءٍ كيفما كان، وتلطّفَ بقبول دعوتي. هو، على ما أظنُّ، ابن الجنرال ديبيناي؟

- تمامًا.

- وهو نفسه المسكين الذي اغتيل سنة 1815؟

- على يد البونابرتيين.
- أجل! إنّه شابٌ عزيزٌ عندي! أليس ينتظره هو أيضًا مشروعُ زواجٍ؟
- بلى، يفترض أن يتزوّج الآنسة دو فيلفور.
- حقًّا؟
أجاب ألبير ضاحكًا: - مثلما يفترض أن أتزوّج أنا الآنسة دانغلار. يعهدُ إلي بابنه
- تضحك...
- نعم.
- لماذا تضحك؟
- أضحك لأنّه يبدو لي أنّ هذا الزّواج قائمٌ على المودّة نفسِها القائمِ عليها زواجي والآنسة دانغلار. لكن يا عزيزي الكونت ها نحن نتحدّث عن النّساء، كما تتحدّث النّساء عن الرّجال؛ إنّه أمرٌ غير مقبول!
قام ألبير.
- هل ستنصرف؟
- سؤالٌ وجيه! منذ ساعتين وأنا أزعجك، ولباقتك تسألني هل سأنصرف! الحقّ يا سيّدي الكونت، أنت هو أكثر النّاس تأدّبًا على الأرض! وخدمك أيضًا، كم هم منضبطون! خاصةً السيّد باتيستان! لم يسبق لي قطّ أن حظيتُ بخادمٍ مثله. إنّ خدمي جميعًا يبدون كأنّما يتّخذون المسرحَ الفرنسيّ مثالًا، ولأنّ ليس لديهم ما يقولونه إلا كلمة واحدة، فإنّهم يردّدونها دائمًا كأنّما على خشبة مسرح. فإن أردت التّخلي عن خدمات باتيستان فأرجوك أن تمنحني الأولوية.
- حاضر يا فيكونت.
- مهلًا، ثمّة مسألة أخرى: بلّغ تحيّاتي ضيفكَ اللّوكاويَ[1] المتكتّم، أقصد السيّد كافالكانته كافالكانتي؛ وإذا كان يريد حقًا أن يثبّت أقدام ابنه

---

(1) نسبة إلى مدينة لوكا، من إقليم توسكانا بإيطاليا.

في باريس، فليجد له زوجةً ثريّةً، نبيلةً من جهة الأمّ على الأقّل، وبارونةً من جهة الأب. وستكون قد خدمتني أنا أيضًا.

أجابه مونت كريستو: - أوه! أوصلتَ إلى هذا الحد؟

- أجل.

- أوه! أوه! لا تقطع في كلّ شيء[1].

صاح مورسيرف: - آه لو تعلم، يا سيّدي الكونت، أيّ خدمةٍ ستقدّمها إليّ بذلك، وكم سيزداد حبّي لك إن ساعدتني على البقاء عازبًا، ولو لعشر سنواتٍ أخرى.

أجابه الكونت بنبرةٍ رزينة: - كلّ شيء ممكن.

ثمّ استأذن الكونت من ألبير، وعاد إلى مكتبه وهو يدق الجُلجل ثلاث مرّاتٍ، فدخل عليه برتوتشو.

قال الكونت: - سيّد برتوتشو، أنت على علمٍ بأنّي سأقيم وليمةً يوم السّبت بمنزل أوتوي.

سرت في برتوتشو رجفةٌ خفيفة، وقال: - حسنًا يا سيّدي.

واصل الكونت كلامه: - إنّي بحاجةٍ إليك. أريد أن يُعدّ كلّ شيءٍ على أمثل وجه. إنّ ذلك المنزل جميلٌ جدًّا، أو على الأقلّ، يمكن أن يكون جميلًا جدًّا.

- ينبغي أن نغيّر كلّ شيء حتّى نصل إلى هذه النّتيجة يا سيّدي الكونت، فالستائر قد تقادمت.

- غيّر إذًا كلّ شيء، باستثناء ستار الدمقس الأحمر في غرفة النّوم؛ لا تغيّره.

انحنى برتوتشو.

---

(1) قد تكون هذه إشارة من دوما إلى مسرحية ألفريد دو موسيه التي عنوانها بهذا المثَل (1836) الذي معناه أنّ المرء لا ينبغي أن يقطع في كلّ شيءٍ، إذ يظلّ ثمّة دائمًا هامشٌ للشكّ؛ خاصةً أنّ أجواء المسرحية مشابهة لما يعيشه ألبير.

- ولا ينبغي كذلك أن تمسّ الحديقة؛ أمّا الفناء فاصنع فيه ما تشاء؛ لا بل أحبّذُ أن تقلبَ شكله تمامًا.

- سأفعل كلّ ما في جهدي إرضاءً لسيّدي الكونت؛ وسيزيد اطمئناني إن أفصح لي سيّدي الكونت عمّا يعتزم تقديمه على العشاء.

- الحقّ يا سيّد برتوتشوُ، مُذ أتيتَ إلى باريس، صرتَ تبدو لي مشوشًا، ترتجفُ؛ كأنّك ما عدت تعرفني؟

- أقصد يا صاحب السّعادة، من تعتزم استقبالهم على العشاء!

- لا أدري بعد، ولا حاجة بي إلى أن أعرف. لوكولوس يتعشّى عند لوكولوس[1]، وهذا كلّ ما في الأمر.

انحنى برتوتشو.

---

(1) كان لوكولوس أرستقراطيًا وجنرالاً رومانيًا، والقول المنسوب إليه يعني أنّ الإنسان ينبغي أن يعامل نفسه كضيفٍ عزيز، ويقدّم لنفسه أفضل وليمة.

55

الرّائد كافالكانتي

لم يكذب الكونت، ولا باتيستان، حين أخبرا ألبير دو مورسيرف بزيارة الرّائد اللّوكاوي التّي اتّخذها الكونت حجّة لرفض دعوة العشاء.

لما دقّت السّاعة السّابعة، وكان السيّد برتوتشو قد انطلق إلى أوتوي منذ ساعتين، تنفيذًا لأوامر الكونت، توقّفت عند باب القصر عربة أجرةٍ؛ وبدت كأنّما فرّت خجلانة بعدما أنزلت قرب السّياج رجلًا في نحو الثانية والخمسين من عمره، يرتدي سترة رودنجوت خضراء موشّاةً بطرز البراندبورغ الذي يبدو أنّه لا يتقادم في أوروبا. كان يرتدي أيضًا سروالًا فضفاضًا من نسيجٍ أزرق، وحذاءً طويلًا لم يبلَ بعدُ، وإن لم يكن لمّاعًا بما يكفي وباطنه سميكٌ بعض الشّيء، ويضع قفّازين من الجلد السويديّ، ويعتمر قبّعة تُشاكلُ قبّعةَ دركيّ، وكانت ياقتُه سوداءَ يحفّها برباطٍ أبيَض، لولا أنّ صاحبَنا قد تعمّد وضعَه لخالَه النّاظرُ إليه نيرًا في عنقه. ذلكم كان الزيّ الخلاّب الذي أتى فيه الشّخصُ الذي دقّ جرس السيّاج سائلًا عمّا إذا كان في منزل الكونت مونت كريستو بالرّقم 30 من شارع الشانزيليزيه، والذي ما إن أكّد له البوّابُ أنّه في المكان المناسب حتّى دخل وأغلق البابَ خلفَه ثمّ توجّه إلى درج العتبة.

إنّ رأسَ الرّجُلِ الصّغيرَ والمربّعَ، وشعره الأشيب، وشاربه الرّماديّ الكثّ، كانت علاماتٍ هاديةً بالنّسبة إلى باتيستان الذي كان قد بيّن له الكونت صفةَ الزّائر ونعتَه، فخرج ينتظره عند باب المدخل. وما إن نطق الرّجلُ باسمه أمام الخادم الفطِنِ حتّى كان الكونت مونت كريستو قد أُعلم بوصوله.

أُدخل الغريب إلى أبسط صالون بالقصر. كان الكونت ينتظره واستقبله ضاحكًا مستبشرًا.

قال: - مرحبًا بك يا سيّدي، كنت بانتظارك.

قال اللّوكاويّ: حقًّا، كنت تنتظرني يا صاحب السّعادة؟

- أجل، لقد أُعلمتُ بوصولك اليومَ في السّاعة السّابعة.

- أُعلمتَ بوصولي؟ يعني كنت تعرفُ أنّني آتٍ؟

- تمامًا.

- آه! خير إذًا! كنت أخشى أن يكون هذا الأمرُ قد أُغفلَ.

- أيّ أمر؟

- أن تُعلَمَ.

- أوه! على الإطلاق!

- لكن هل أنت متأكّدٌ من أنّك غير مخطئ؟

- متأكّد.

- متأكّد من أنّني أنا من كنت تنتظره اليوم في السّابعة مساءً؟

- نعم متأكّد؛ ولا بأسَ في أن نتأكّد مرّةً أخرى.

قال اللّوكاويّ: - أوه! إن كنت تقول إنّك تنتظرني فلا حاجة للتّأكد.

قال مونت كريستو: - بلى! بلى!

بدا اللّوكاويّ قلقًا بعض الشّيء.

قال مونت كريستو: - لنرَ إذًا، ألستَ سيّدي الماركيز بارتولوميو كافالكانتي؟

ردّد اللّوكاويُّ مبتهجًا: - بارتولوميو كافالكانتي، بلى، أنا هو.

- رائدٌ سابقٌ بالجيش في النّمسا؟

سأله العسكريّ الشّيخُ في استحياءٍ: - هل كنتُ رائدًا؟

قال مونت كريستو: - أجل، كنتَ رائدًا. ذلكم هو الاسم الذي نطلقه في إيطاليا على الرّتبة التي كنتَ تحتلّها.

قال اللّوكاويّ: - حسنًا، يكفيني هذا، تفهم...
- ثمّ إنّك لم تأتِ من تلقاء نفسك.
- أوه! بالطّبع.
- ألم تُرسَل إليّ من طرف شخصٍ ما؟
- بلى.
- أرسلكَ إليّ المبجّل الأب بُوزوني، أليس كذلك؟
صاح الرّائد متهلّلًا: - بلى.
- وهل حمّلَك رسالةً؟
- نعم، ها هي.
- هاتها بحقّ الرّب!
أخذ الكونت الرّسالة، وشرع يقرأ فيها. وكان الرّائدُ ينظرُ إلى الكونت بعينين وسَّعتهُما الدّهشةُ، ينقلُهما بفضول بين أركان الصّالون، ثمّ لا يلبث أن يعيدهما صوب الكونت.
«بلى، بلى هذا كلامُ الرّاهب الطّيّب...**السيّد الرّائد كافالكانتي، مواطن شريفٌ من لوكا، ينحدر من سلالة آل كافالكانتي بفلورنسا، ويملك ثروةً تُقدّر عائداتُها بنصف مليون»**.
رفع مونت كريستو عينيه من على الورقة وحيّا الرّائد.
قال: - يا إلهي! نصف مليونٍ يا عزيز كافالكانتي!
سأله اللّوكاويّ: - هل ذكر نصفَ مليون؟
- ذكرها بالحرف. ولا أحد أعلم من الأب بوزوني بثروات أوروبا.
قال اللّوكاوي: - لتكن نصف مليون إذًا؛ وإن لم أكن بشرفي أظنُّ أنّ ثروتي تبلغ هذا القدر.
- لأنّ لديك مدبّر منزلٍ يسرقُك يا سيّدي كافالكانتي؛ كلّنا مررنا في هذه المرحلة!
قال اللّوكاويّ بلهجةٍ حازمة: - لقد أنَرتني يا سيّدي؛ سوف أطردُ المحتال.

واصل مونت كريستو القراءة:

«ولا ينقصه سوى شيء واحدٍ ليكون رجلًا سعيدًا...».

قال الرّائد اللّوكاوي زافرًا بحسرة: - أه يا إلهي، شيء واحدٌ فقط!

- أن يستعيد ابنًا عزيزًا.

- ابنًا عزيزًا؟

«خُطف في طفولته، إمّا من طرف أحد أعداء عائلته النّبيلة، أو من طرف بعض الغجر»؟

قال اللوكاوي وهو يطلق زفرةً حرّى ويرفع عينيه إلى السّماء:

- كان عمرُه خمس سنواتٍ يا سيّدي!

علّق الكونت: - يا للأب المسكين!

ثم واصل القراءة: **«لقد أعدتُ إليه الأملَ، وأعدتُ إليه الحياة، يا سيّدي الكونت، حين قلت له إنّك تستطيع أن تعينَه على إيجاد هذا الابن المفقود»**.

أخذ اللوكاويّ ينظر إلى الكونت مونت كريستو وقد اكتسى وجهه بتعابير قلقٍ لا سبيل إلى وصفِها.

قال الكونت: -أستطيع ذلك.

تنبّه الرّائد: - آه! لقد كانت الرّسالة إذًا صادقةً؟

- وهل شككتَ في الأمر يا عزيزي بارتولوميو؟

- كلّا، مطلقًا! وكيف أشكّ في كلامِ رجلٍ رزينٍ، رجلٍ متديّنٍ مثل الأب بوزوني؟ لن أستطيع ذلك ولو على سبيل الدّعابة. لكنّك لم تقرأ لي الرّسالة كلّها يا صاحب السّعادة.

قال مونت كريستو: - آه، نعم، ثمّة حاشيةٌ على الرّسالة.

ردّد اللّوكاوي:- نعم، ثـ...مّـ...ة حاشيةٌ.

«وحتّى لا أسبب متاعب للرّائد كافالكانتي، وأضطرّه إلى نقل أمواله وإيداعها عند مصرفيّه، فقد أرسلتُ إليه صكًّا بألفي فرنك من أجل

مصاريف سفره، وأوجّهه إليك لتعطيه مبلغ ثمانية وأربعين ألف فرنكٍ تدينُ لي بها».

كان الرّائد يتابع قلِقًا بعينيه الكونت وهو يقرأ الحاشية.

اكتفى الكونت بأن قال: - طيّب!

غمغم اللّوكاويّ: - لقد قال طيّب. (ثمّ استأنف بصوتٍ عالٍ) وإذًا يا سيّدي...

سأله الكونت: - وإذًا؟...

- وإذًا، الحاشية...

- ماذا عن الحاشية؟...

- هل توافق على ما في الحاشية موافقَتَك على باقي الرّسالة؟

- بكلّ تأكيد. أنا والأب بوزوني تجمعنا معاملاتٌ؛ ولا أدري ما إذا كان مبلغ ثمانية وأربعين ألفًا هو ما بقي في ذمّتي له، لكن أنا وهو لا نتحاسبُ على مبالغ تافهة. أنت إذًا تبدي اهتمامًا بالغًا لهذه الحاشية يا سيّدي كافالكانتي؟

أجاب اللّوكاويّ: - أعترف لك بأنّني لثقتي في توقيع الرّاهب بوزوني لم أحمل معي أيّ نقودٍ؛ فإن لم أحصل على ما تعدني به الحاشيةُ، سأصير في مأزقٍ بباريس.

قال مونت كريستو: - وهل رجلٌ مثلك قد يجدُ نفسه في مأزقٍ في أيّ أرضٍ كان!

قال اللّوكاويّ: - طبعًا، إن كان في أرضٍ لا يعرف فيها أحدًا.

- لكنّ الجميع يعرفُك.

- نعم الجميع يعرفني، ولهذا...

- أكمل جملتك يا سيّدي كافالكانتي.

- ولهذا سوف تعطيني الثمانية وأربعين ألفًا؟

- متّى ما شئتَ يا سيّدي!

أخذ الرّائدُ يديرُ عينين مذهولتين.
قال الكونت: - لكن، اجلس يا سيّدي، لا أدري أين ذهب عقلي حتّى تركتُك واقفًا ربع ساعةٍ.
- لا تهتمّ للأمر.
سحب الرّائد مقعدًا، وجلس عليه.
قال الكونت: - والآن هل تريد أن تتناول شيئًا يا سيّدي؟ كأسًا من نبيذ سيريس، أو بورتو، أو أليكانتي؟
- أليكانتي، بعد إذنك، هو نبيذي المفضّل.
- عندي منه نبيذٌ رفيعٌ. مع قليلٍ من البسكويت، أليس كذلك؟
- مع قليل من البسكويت ما دمتَ مصرًّا؟
رنّ الكونت الجرس، فظهر باتيستان.
سأله بصوتٍ خفيض: - وإذًا؟...
أجابه الخادمُ بصوتٍ مماثلٍ: - الشّابُ هنا.
- طيّب؛ أين أدخلتَه؟
إلى الصّالون الأزرق، كما أمرتني يا صاحب السّعادة.
- ممتاز. أحضر لنا بعضًا من نبيذ أليكانتي وقليلًا من البسكويت.
انصرف باتيستان.
قال اللّوكاويّ: - الحقّ أنّي أتعبتُك يا سيّدي، وهذا ما يسبّب لي الحرج.
أجابه الكونت: - لا تقل ذلك!
دخل باتيستان حاملًا الكؤوس والنّبيذ والبسكويت.
ملأ الكونت كأسًا وأفرغ في الكأس الثانية قطراتٍ فقط من السّائل القرمزيّ الذي كانت تحويه القارورة المغطّاةُ بنسيج العنكبوتِ وأماراتِ القِدَم التي تشهدُ بعتاقة النّبيذ أكثر ممّا تشهدُ بالشّيخوخة التّجاعيدُ على وجه الإنسان.

لم يتردّد الرّائد، فتناول الكأس المليئة وقطعة بسكويت. أمر الكونت باتيستان بوضع الصينية طوعَ يد الضّيف الذي كان قد شرع في تذوّق المزيج بطرف شفتيه، ثمّ ارتسمت على وجهه شمائلُ الرّضا، وأدخل البسكويت في الكأس برهافة.

قال مونت كريستو: - هكذا إذًا يا سيّدي، أنت تسكنُ لوكا، وأنت ثريٌّ، وأنت نبيلٌ، وتتمتّع بتقدير الجميع؛ جمعتَ إذًا كلّ أسباب السّعادة.

قال الرّائدُ وهو يغمس البسكويت في النّبيذ: - جميعها يا صاحب السّعادة، جميعها قطعًا.

- ولا ينقص سعادتك لتكتملَ إلا سببٌ واحدٌ؟

قال اللّوكاويّ: - إلا سبب واحد!

- أن تعثر على ولدك؟

قال الرّائد وهو يتناول بسكويتًا آخر: - آه! ذاك ما ينقصني.

رفع اللوكاويُّ عينيه وجاهد ليطلق تنهيدة.

قال مونت كريستو: - والآن يا عزيزي السيّد كافالكانتي، لننظر في أمر هذا الطّفل المفقود! فعلى حسب علمي بقيت أنت طيلة حياتك عازبًا.

قال الرّائد: - كان الجميع يظنُّ ذلك يا سيّدي الكونت، وأنا نفسي كنتُ...

قاطعه الكونت: - وأنت نفسك كنت تدعم هذه الشّائعة؛ هكذا تغطّي على إثم ارتكبتَه في شبابك، إثمٍ لم تكن تريد لأحدٍ أن يعرفه.

استقام اللّوكاويّ في جلسته، واتّخذ هيئةً أشدّ رزانةً واعتدادًا، وفي الآن نفسه خفض عينيه استحياءً، إمّا لكي يستجمع قوّتَه، وإمّا ليحرّك مخيّلته؛ من دون أن يغفل النّظر من تحت إلى الكونت الذي كانت ابتسامته النّمطية على شفتيه تنمّ عن فضولٍ بريء.

قال الرّائد: - نعم يا سيّدي، لقد أردتُ أن أخفي خطيئتي تلك عن الجميع.

قال مونت كريستو: - لكنّك لم تفعل ذلك لأجل نفسك، لأنّ الرّجال فوق هذه الأمور.

قال الرّائد وهو يهزّ رأسَه مبتسمًا: - أوه! كلّا، بالطّبع لم أفعل ذلك لنفسي.

- وإنّما فعلتَه لأجل أمّه.

صاح اللّوكاويّ وهو يتناول بسكويتًا ثالثًا: - فعلت ذلك لأجل أمّه! لأجل أمّه المسكينة!

قال الكونت وهو يصبّ لضيفه كأسًا ثالثةً: - اشرب يا عزيزي السيّد كافالكانتي؛ إنّ التأثّر يكاد يخنقك.

غمغم اللّوكاويّ وهو يحاول أن يوجّه إرادته للتّحكّم في غدّته الدّمعية، حتّى يبلل طرف عينه بدمعةٍ زائفة: - لأجل أمّه المسكينة!

- التي كانت تنتمي إلى إحدى أكبر العوائل الإيطالية، أليس كذلك؟

- إنّها أرستقراطية من فيسولي (توسكانا)، أرستقراطية من فيسولي يا سيّدي.

- واسمُها؟

- ترغب في معرفة اسمها؟

قال مونت كريستو: - أوه! يا إلهي! لا داعي لأن تخبرني، فأنا أعرفه.

قال اللّوكاوي وهو ينحني تحيّةً: - سيّدي الكونت يعرف كلّ شيء!

- أوليفيا كورسيناري، أليس كذلك؟

- بلى، أوليفيا كورسيناري.

- وهي ماركيزة؟

- ماركيزة.

- وانتهى بك المطاف إلى أن تزوّجتها رغم معارضة عائلتها؟

- يا إلهي! نعم، لقد انتهى بي المطاف إلى ذلك.

- وهل تحمل معك الوثائق القانونية؟

سأله اللّوكاويّ: - أيّ وثائق؟
- عقد زواجك من أوليفيا كورسيناري، ووثيقة ميلاد الطّفل.
- وثيقة ميلاد الطّفل؟
- وثيقة ميلاد أندريا كافالكانتي، ابنك؛ أليس اسمه أندريا؟
- أظنّ ذلك.
- كيف! تظنُّ ذلك؟
- اللّعنة! لا أستطيع التّأكيد، لقد أضعته منذ زمن بعيد.
قال مونت كريستو: - معك حقّ. المهم، معك هذه الوثائق كلّها؟
- سيّدي الكونت، بكلّ أسفٍ أخبرك أنّني لم أحمل الأوراق معي، إذ لم أُعلم بضرورة حملها معي.
قال مونت كريستو: - آه! اللعنة!
- أهي مهمّةٌ إذًا؟
- لا غنىً عنها!
حكّ اللّوكاوي جبينَه.
قال: - آه! بحقّ باخوس! لا غنىً عنها!
- قطعًا، إذا ما تمّ التّشكيك هنا في صحّة الزّواج، أو صدق نسب الطّفل!
قال اللّوكاويّ: - صحيحٌ، قد تُثار شُكوك.
- وسيكون أمرًا سيّئًا بالنّسبة إلى الشّاب!
- سيكون أمرًا خطيرًا.
- مثلًا، قد يمنع عنه زواجًا جيّدًا.
- يا للهول!
- في فرنسا، صارمون في هذه الأشياء؛ الأمور لا تجري كما في إيطاليا؛ لا يكفي أن تذهب إلى قسّ فتقول له: «نحن نحبُّ بعضنا، فاجمعنا برابطة الزّواج». إنّ الزّواج في فرنسا مدنيٌّ، ولكي تتزوّجَ زواجًا مدنيًا تحتاج وثائق هوية.

- وهنا المصيبة: لا أحمل معي تلك الوثائق.
قال مونت كريستو: - لحسن الحظّ أنّها عندي.
- عندك أنت؟
- نعم.
- تقول إنّها عندك؟
- نعم هي عندي.
قال اللّوكاوي متهلّلًا بعدما اعتراه القلق من أن تضيع الثمانية وأربعون ألفًا بسبب غياب الوثائق: - آه! هذا خبرٌ سعيد! بلى إنّه خبرٌ سعيد، لقد تداركتَ ما أغفلتُه أنا!
- ليس بوسع المرء أن يفكّر في كلّ شيءٍ، لكن لحسن الحظّ فكّر الأب بوزوني بدلًا منك في هذا الأمر.
- كما ترى، هذا الأب العزيز!
- رجلٌ حريصٌ.
قال اللّوكاويّ: - رجلٌ عظيمٌ؛ وهل أرسل إليك الوثائق؟
- نعم، ها هي ذي.
ضمّ اللّوكاويُّ ذراعيه علامة امتنان.
- لقد تزوّجتَ أوليفيا كورسيناري في كنيسة سان بولدومونتي كاتيني؛ وهذه شهادةُ القسّ.
قال الرّائدُ وهو يتأمّل الوثيقة باندهاشٍ: - أجل، هي بشرفي!
وها هي شهادة ميلاد الطّفل أندريا كافالكانتي، من عند كاهن سارافيزا.
قال الرّائد: - كلّ شيءٍ قانوني.
- خُذ إذًا وثائقك، فليس لي ما أفعله بها أنا؛ سوف تعطيها ابنَك، ويحتفظ بها بعناية.
- أظنُّ ذلك!... لأنّه إن أضاعها...

سأله الكونت: - إن أضاعها؟
استأنف اللّوكاوي كلامَه: - إن أضاعها سوف نضطرٌّ إلى أن نكتُب إلى هناك، طالبين غيرها.
قال الكونت مونت كريستو: - وهذا أمرٌ صعبٌ.
أجابه اللّوكاوي: - يكاد يكون مستحيلًا.
- أنا مطمئنٌ لأنّك تدرك قيمة هذه الوثائق.
- نعم، إنّي أراها لا تقدّر بثمن.
قال الكونت: - أمّا الآن وقد اطمأننّا على الوثائق، ماذا عن أمّ الشّاب؟
ردّد الرّائدُ قلقًا: - ماذا عن أمّ الشّاب...
- ماذا عن الماركيزة كورسيناري؟
قال اللّوكاوي وقد بدا القلق يتعاظمُ في نفسه: - يا إلهي! هل سنحتاج إليها؟
أضاف الكونت: - كلّا، لن نحتاج إليها، ثمّ ألم..؟
- بلى، بلى، إنّها...
- ردّت إلى الطّبيعةِ وديعتَها؟
قال اللّوكاوي بحماسٍ: - نعم، للأسف!
واصل الكونت: - علمتُ بذلك؛ لقد ماتت منذ عشر سنين.
قال الرّائد وهو يخرج من جيبه منديلًا مزيّنًا بمربّعاتٍ، فيمسح به عينيه تواليًا، اليسرى ثمّ اليمنى: - وما زلتُ أبكي موتَها يا سيّدي.
قال الكونت: - وما العمل يا سيّدي؟ مصيرنا جميعًا إلى الموت. تفهم الآن يا سيّدي كافالكانتي أنّه لا حاجة لأن يعرف النّاسُ في فرنسا أنّك لم تر ابنك منذ خمس عشرةَ سنةً. إنّ النّاس هنا لا تحبُّ قصص الأطفال الذين يخطفهم الغجر. إنّما أنت أرسلتهُ ليدرس في معهدٍ بضواحي المقاطعة، وتريدُه الآن أن يستكمل تربيته في العالم الباريسيّ. ولهذا تركتَ فياريتجو (ضواحي لوكا) التي صرت مقيمًا بها منذ وفاة زوجتك. يكفي أن تقول هذا.

- تظنُّ ذلك؟
- بالتّأكيد.
- حسنًا إذًا.
- فإن عُرف خبرُ الفراق بينك وبين ابنك...
- آه! نعم. ماذا أقول؟
- إنّ مربيًا خائنًا، اشترى ذمّتَه أعداءُ عائلتك...
- تقصد آل كورسيناري؟
- طبعًا... قد اختطف ابنك سعيًا إلى بتر سلالتك، ومحو اسمك.
- صحيحٌ، ما دام هو ابني الوحيد.
- أمّا وقد اتّفقنا على كلِّ شيءٍ الآن، وجدّدنا ذكرياتك، فلن أطيل عليك الانتظار؛ لا بدّ أنّك تدري أنّنا لم نأتِ بك إلى هنا، إلا وقد حضّرتُ لك مفاجأةً؟

سأله اللّوكاويُّ: - مفاجأة سارّة؟

أجاب الكونت: - آه! أرى أنّ عين الأب لا تخطئُ، ولا قلبُه يخطئ!

قال الرّائد: - هممم!

- إمّا أنّ أحدًا قد سرّب لك الخبر، أو أنّك أحسست بوجوده.
- من تقصد؟
- طفلك، ابنُك، عزيزك أندريا.

قال اللّوكاوي متبلّدًا كلّ التبلّد: - لقد خمّنتُ ذلك؛ هو إذًا هنا؟

قال الكونت: - هنا قريبًا منك؛ حين دخل الخادمُ منذ قليل أخبرني بأنّه قد وصل.

قال الرّائدُ وهو يشدّ عند كلّ كلمة ينطقها على وَشْي البراندبورغ بمعطفه: - آه! عظيمٌ! آه! عظيمٌ!

قال الكونت: - سيّدي العزيز، أُدركُ مدى تأثّرك، ينبغي أن تأخذ وقتك لتهدأ؛ كما ينبغي أن نهيئ الشّاب للّقاءِ الذي طالما حلم به، لأنّي أحسب أنّه لا يقلُّ عنك اشتياقًا.

قال كافالكانتي: - أعتقد ذلك.

- حسنًا، بعد ربع ساعةٍ سنكون طوع أمرك.

- هل ستأتيني به إذًا يا سيّدي؟ وصلت بك الطّيبة حدّ أن تقدّمه إليّ بنفسك؟

- كلّا يا سيّدي، لا أريد أن أحشر نفسي بين أبٍ وابنه، سوف تكونان بمفردكما يا سيّدي الرّائد؛ لكن اطمئنَّ، في حال لم ينطقِ الدّمُ، فلا داعيَ للقلق: سيدخل ابنك من هذا الباب. إنّه شابٌّ حسنُ الوجه، أشقر، مفرطٌ في الشّقرة ربّما، شديد التّهذيب؛ سوف ترى بنفسك.

قال الرّائد: - بالمناسبة، تعلم يا سيّدي الكونت أنّني لم أحمل معي إلا الألفي فرنك التي أعطانيها الأب الطيّب بوزوني. وسافرت مباشرة، و...

- وتحتاج نقودًا... أنت محقٌّ يا سيّدي كافالكانتي. تفضّل مقدّمًا ها ثمانية أوراق من فئة ألف فرنك.

برقت عينا الرّائد كجمرتين.

قال الكونت: - ما زلتُ مدينًا لك بأربعين ألفًا.

قال الرّائدُ وهو يدسّ المال في جيب معطفه الدّاخليّ: - هل تريد وصلًا بالمبلغ يا صاحب السّعادة؟

أجابه الكونت: - ولمَ؟

- حتّى تتخالصَ والأب بوزوني.

- حسنًا، حين أُسلّمك الأربعين ألفًا الباقية أعطني وصلًا بالمبلغ كلّه. لا معنى لاتّخاذ هذه الاحتياطات حين يتمّ التّعامل بين أناسٍ شرفاء.

- أجل، لا معنى لها بين الشّرفاء.

- والآن، بقيت عندي كلمةٌ لك يا سيّدي الماركيز.

- تفضّل.

- تسمح لي بأن أقدّم لك نصيحةً بسيطة، أليس كذلك؟

- بلى؛ ولا أسمح بها فقط، وإنّما أطلُبها.

- يستحسن أن تتخلّص من هذا المعطف البولنديّ.

أجاب الرّائد وهو يتأمّل ملابسه بشيءٍ من الرّضا: - حقًّا!

- أجل، إنّ مثل هذا المعطف لا يزال يُلبس في فياريدجو؛ أمّا في باريس، فعلى الرّغم من أناقته، إلّا أنّ الدّهر قد عفّى عليه منذ زمنٍ طويل.

قال اللّوكاويّ: - إنّه أمرٌ مزعجٌ!

- أوه! إن كنتَ متشبّثًا به إلى هذا الحدّ فيمكنك أن تستعيدَه حين تهمّ بالانصراف.

- وماذا سأرتدي؟

- أيّ شيءٍ تجده في حقائبك!

- حقائبي؟ ليس عندي غير مشجبٍ.

- ولا بدّ أنّك حملته معك. ما سببُ الانزعاج إذًا؟ ثمّ إنّ جنديًا سابقًا لا بدّ أنه يحبّ التنقّل خفيفًا.

- وهنا المشكلة...

- ولأنّك رجلٌ حريصٌ، فقد أرسلت حقائبك قبلك. وقد وصلت أمس إلى فندق الأمراء بشارع ريشيليو. فهناك حجزتَ لإقامتك.

- وفي الحقائب؟

- أحسب أنّك قد حرصت على جعل خادمك يضع فيها كلّ ما سوف تحتاج إليه من ملابس: ثياب المدينة، البدلة الرسمية. وفي المناسبات المهمّة يستحسن أن ترتدي البدلة الرّسمية. ولا تنسى وضع صليبك. إنّ النّاس في فرنسا تتهكّم من الصّليب، لكنّها لا تزال تلبسه.

قال الرّائد الذي ما انفكّ ينتقل من ذهولٍ إلى ذهولٍ أكبر: - تمام، تمام، تمام!

قال مونت كريستو: - والآن ليحفظ الربّ قلبك من قوّة العاطفة، تهيّأ يا عزيزي السيّد كافالكانتي للقاء ابنك أندريا.

وبعدما حيّا بتحيّة لطيفةٍ اللّوكاوي المبتهج، انسحب الكونت مونت كريستو خلف الحائط المنجّد.

56

أندريا كافالكانتي

دخل الكونت إلى الصالون المجاور، الصّالون الذي كان باتيستان قد أطلق عليه اسم الصّالون الأزرق، حيث كان قد سبقه شابٌ ذو هيئة حيويّة، يرتدي ملابس على قدرٍ من الأناقة، وكانت قد أنزلته عربةُ أجرةٍ أمام باب القصر، قبل نصف ساعة. ولم يجد باتيستان صعوبةً في التّعرّف عليه؛ فقد كان الشّابُّ كما وصفَه له سيّدُه: طويلًا، أشقرَ الشّعر، أصهب اللّحية، أسود العينين، مُحمرَّ البشرة، أبيضَ الجلدِ لمّاعَه.

وحين دخل الكونت إلى الصالون كان الشّاب جالسًا بلا مبالاة على إحدى الأرائك، شاردًا يضرب على حذائه بعصًا صغيرة مذهّبة الرّأس.

وما إن رأى الكونت مونت كريستو حتّى وقف بسرعة.

قال: - سيّدي، الكونت مونت كريستو؟

أجابه الكونت: - نعم، وأحسب أنّي أتشرّف بالحديث إلى الفيكونت أندريا كافالكانتي؟

شدّد الشّاب، وهو يقرن كلاماته بتحيّة ملؤها الأريحيّة: - الفيكونت أندريا كافالكانتي.

قال الكونت: - يفترض أنّك تحمل رسالةَ توصيةٍ إليَّ؟

- لم أذكر لك أمرها بسبب التّوقيع الذي بدا لي غريبًا.

- السّندباد البحريّ، أليس كذلك؟

- تمامًا. وبما أنّني لم أعرف «سندبادًا» غير سندباد **ألف ليلةٍ وليلةٍ**...

- حسنًا، هذا واحدٌ من سلالته، وهو صديقٌ فاحشُ الثّراء، إنجليزيٌّ

شديد التميّزُ، شبه مجنونٍ، واسمه الحقيقيُّ اللّورد ويلمور.

قال أندريا: - آه! اتّضحت الصّورة إذًا. هو إذًا نفس الإنجليزيّ الذي عرفتُه... في... أجل، حسنًا!... تحت أمرك يا سيّدي الكونت.

أجابه الكونت باسمًا: - إذا ما كنتَ صادقًا فيما تفضّلت به عليَّ، فأرجو ألّا يبخل عليّ كرمُك ببعضٍ من التفاصيل التي تخصّك وتخصّ عائلَتك.

ردّ الشّاب بطلاقةٍ تشهد على قوّة ذاكرته: - على الرّحب والسّعة. أنا، كما تفضّلتَ بالقول، الفيكونت أندريا كافالكانتي، ابن الرّائد بارتولوميو كافالكانتي، سليل آل كافالكانتي، العائلة المدوّن اسمُها في الدّفتر الذهبيّ لمدينة فلورنسا. وعلى الرّغم من أنّ عائلتي غنيّةٌ جدًّا، إلى درجة أنّ مدخول والدي يبلغ نصف مليونٍ، إلا أنّ المِحنَ عصفت بنا؛ وأنا نفسي تعرّضتُ، حين كنت في الخامسة أو السّادسة من عمري، إلى الخطف من طرف مُربِيَّ الخائنِ، ومنذ خمس عشرة سنةً ما رأيتُ الرّجلَ الذي وهبني الحياةَ. ومُذ بلغتُ الرّشدَ، وصرت حرًّا وسيّدَ نفسي، وأنا أجوب الأرض بحثًا عنه، لكن عبثًا. ثمّ وصلتني تلك الرّسالة من صديقك السّندباد، يعلمني فيها بأنّ والدي في باريس، ويشير عليّ بأن أتّصل بك لاستعلم أخبارَه.

قال الكونت، وهو يتأمّل بِرِضًا غامضٍ السحنة الحيوية، التي يطبعها جمالٌ شبيه بجمال الملاك اللّعين: - الحقّ يا سيّدي، إنّ كلّ ما تقوله مثير للاهتمام، وخيرًا فعلت إذ اتّبعت كلام صديقي السّندباد، لأنّ والدَك بالفعل هنا، وهو يبحث عنك.

ومنذ دخل الكونت الصّالون، يركّز بصره في الشّابَ، وقد قدّر فيه ثبات النّظرة وحزم النّبرة؛ لكن لما أسمعَه هذه الكلمات العادية: «**والدَك بالفعل هنا، وهو يبحث عنك**»، انتفضَ الشّابُ وصاح:

- أبي! أبي هنا؟

أجابه الكونت: - بالتّأكيد، والدك، الرّائد بارتولوميو كافالكانتي.
وعلى الفور تبدّدت أمارات الذّعر التي كست ملامحَ الشّاب.
قال: - نعم، بالفعل! الرّائد بارتولوميو كافالكانتي. وتقول يا سيّدي الكونت إنّ والدي العزيز هنا؟
- نعم يا سيّدي. لا بل أضيفُ: إنّي تركته للتوّ؛ ولشدّ ما أثّرت فيّ الحكاية التي قصّها عليّ، حكاية ولدِه العزيز الذي فقده منذ زمن بعيد؛ حتّى إنّ آلامه ومخاوفه وآماله يمكن أن تؤلِّفَ قصيدةً مؤثّرةً. ثمّ إنّه قد تلقّى ذات يوم أخبارًا مفادُها أنّ خاطفي ولدِه يقترحون إعادتَه مقابل مبلغ كبير. ولأنّ لا شيءَ يوقف الأب الطيّب عن نجدة ابنه، فقد أرسل المبلَغ إلى حدود بييمون مع جواز سفرٍ مختومٍ بتأشيرةٍ إلى إيطاليا. أنت كنتَ في جنوب فرنسا على ما أظنُّ؟
أجاب أندريا بنبرةٍ منزعجةٍ: - أجل يا سيّدي، كنت في جنوب فرنسا.
- كان يفترض أن تنتظرك عربةٌ في نيس؟
- أجل يا سيّدي؛ وقد قادتني من نيس إلى جنوة، ومن جنوة إلى تورينو، ومن تورينو إلى شامبيري، ومن شامبيري إلى بون دو بوفوازان، ثمّ من بون دو بوفوازان إلى باريس.
- ممتاز! وكان هو يأملُ في أن يلتقيك خلال الرّحلة، إذ سلك الطّريقَ نفسَها التي سلكتَها أنت، لا بل لهذا الغرض تحديدًا رُسم مسارُ رحلتك على النّحو الذي ذكرتَه.
قال أندريا: - لكنّي أشكّ في أنّ أبي العزيز لو كان التقى بي، لما عرفني؛ إذ تغيّرَ شكلي مُذ فارقتُه.
قال مونت كريستو: - أوه! إنّ الدمَ يحنُّ.
قال الشّابُ: - أوه! نعم؛ لم أفكّر في أنّ الدّم يحنُّ.
واصل الكونت كلامَه: - والآن، ثمّة شيءٌ واحدٌ يقلق الماركيز كافالكانتي: ما الذي فعله ابنُه مُذ فارقَه؛ كيف عاملك مختطفوك؛ هل

عاملوك بما يليق بمكانة والدك؛ هل لقيت منهم ما يخلّفُ في نفسك أذىً، وإنّ أذى النّفس لأشدّ مائة مرّةٍ من ألم الجسم؛ وهل تأذّت ووهنت الملَكاتُ التي أنعمت بها الطّبيعةُ عليك؛ وهل لا تزال تستطيعُ أن تشغل في المجتمع المكانةَ التي تستحقُّها.

تمتم الشّابُ مذهولًا: - سيّدي، أرجو ألّا يكون قد وصلك عنّي ما...

- أنا لم أسمع بك إلا من عند صديقي ويلمور، الرّجل الخيّر. علمت منه أنّه قد وجدك في وضع سيّئ. ولم يخبرني ما ذاك الوضعُ، ولا أنا سألتُه عنه: أنا لستُ فضوليّاً. بما أنّ شقاءكَ قد أثار اهتمامه، فمعنى ذلك أنّك تستحقُّ الاهتمام. أخبرني أنّه يرغب في أن يعيد إليك المكانة التي تستحقُّها، وأنّه سوف يبحث عن أبيك ويجده؛ وقد بحث عنه ووجدَه على ما يبدو، ما دام والدُك الآن هنا؛ ثمّ إنّه قد أعلمني أمس بوصولك، وأعطاني تعليماتٍ بخصوص أموالك؛ وهذا كلّ ما في الأمر. أعرفُ أنّ صديقي ويلمور شخصٌ فريدٌ، لكن بما أنّه في الآن نفسه رجلٌ ثقةٌ، وغنيٌّ كمنجم ذهبٍ، ويستطيع بالتّالي أن يمارس فراداتِه تلك من غير أن يُفلِسَ، فقد اتّبعتُ تعليماته. والآن، رجاءً، لا تعتبر سؤالي إساءةً: أريد أن أعرف ما إذا كانت المصائبُ التي تعرّضت إليها، والتي لن تنقص البتّة من تقديري لك، قد أثّرت عليك بحيث صرتَ غريبًا عن العالم الذي يُفترضُ أن تعود إليه، أقصد عالمكَ الأصليّ، الذي يؤهّلك إليه اسمُك وثروتُك.

أجاب الشّاب الذي استعاد شكيمتَه بينما يتحدّث الكونت: - سيّدي، لا تقلق بهذا الشّأن. إنّ مختطفيّ، الذين أبعدوني عن والدي، وكانوا ينوون بيعي إليه لاحقًا، قد حسبوا حسابهم، فارتأوا أنّهم لكي يجنوا منّي ربحًا كبيرًا ينبغي أن يحفظوا قيمتي المعنويةَ، لا بل أن يرفعوها إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا؛ فكان أن تلقّيتُ تربيةً رفيعةً. لقد عاملني لصوص الأطفال مثلما كان يُعامَلُ في آسيا الصّغرى العبيدُ الذين يريدُ

أسيادهم أن يجعلوا منهم نحويّين وأطبّاء وفلاسفة، حتّى يبيعونَهم بثمنٍ باهظ في سوق روما.

ابتسم مونت كريستو راضيًا؛ إنّ السيّد أندريا كافالكانتي قد فاق، على ما يبدو، كلّ توقّعاته.

واصل الشّابُ الكلام: - ثمّ إن كان ثمّةَ ما يعيبُ تربيتي، أو يُخالفُ مألوفَ القواعدِ في هذا المجتمع، فسوفَ يُغفرُ لي متّى ما أُخذت في الاعتبار الملابساتُ التي اكتنفت ولادتي ونموّي.

قال الكونت بلا مبالاة: - حسنًا، لك أن تفعل ما تشاءُ، لأنّك السيّدُ، والأمرُ أمرُك؛ لكنّني أعاهدُك على أنّني لن أقول حرفًا عن حياتك. إنّ حكايتَك روايةٌ، والعالمُ المحبُّ للرّوايات المكتوبة على أوراقٍ صُفرٍ بين دفّتَي سِفْرٍ، لن يستحسنَ في المقابل روايةً يرى فصولَها تجري أمامَه مشخّصةً في كائنٍ حتّى وإن كان هذا الكائنُ في حلاوتك. هوذا العائقُ الذي سمحت لنفسي أن أبسطَه أمامَك يا سيّدي الفيكونت. ما إن تحكي لشخصٍ حكايتك المؤثّرة، حتّى تنطلقَ في المجتمع مشوّهةً. سوف تكون مجبرًا على أن تسلك مسلك أنتوني[1]، وإنّ زمن أنتوني قد ولّى. لربّما تحرز نجاحًا في جلب الأنظار إليك، لكن ليس جميع النّاس يحبّون أن يكونوا مركزًا للأنظارِ وهدفًا للتّعليقات. قد تتعبُ.

قال الشّابُ وقد شحب مرغمًا تحت أنظار الكونت: - أظنُّ أنّك محقٌّ يا سيّدي الكونت؛ إنّه عائقٌ خطيرٌ.

- أوه! لكن في الآن نفسه لا ينبغي أن نبالغ في تقديره؛ إذ لا ينبغي أن يتجنّبَ المرءُ الوقوع في خطأٍ بالوقوع في حماقةٍ. كلّا، إنّما يلزم فقط وضعُ خطّةِ سلوكٍ والتقيّد بها؛ وبالنّسبة إلى رجلٍ حصيفٍ مثلك، فإنّ من

(1) الرّاجح أنّ دوما هنا يحيل على المسرحية التي كتبها سنة 1831، وظروف بطلها مشابهةٌ لظروف بطلنا هذا، إذ كلاهما فقد أبويه صغيرًا.

السّهل اتّباع تلك الخطّة، ما دامت تخدم مصالحك؛ ينبغي أن تحارب كلّ ظلالٍ قد يرخي بها على حاضركَ ماضيكَ الأسوَدُ، تُحاربها بكسبِ شهاداتِ خيرٍ وعقدِ صداقاتٍ رفيعة.

كان يبدو أنّ أندريا أعيته الحيلةَ.

قال الكونت: - أعرض نفسي عليك طواعيةً راعيًا وكفيلًا؛ لكن من عادتي أن أحذر حتّى من أقرب أصدقائي؛ لذا فإنّي سأقوم هنا بدورٍ يخالف طبيعتي، مثلما يقول أصحابُ التراجيديات، وأخشى أن أنفخَ في قربةٍ مثقوبة.

قال أندريا بحماسة: - لكن يا سيّدي الكونت، إن أخذنا في الاعتبار اللّورد ويلمور الذي أوصاك بي...

واصل الكونت: - أجل، بالتّأكيد؛ غير أنّ اللّورد ويلمور لم يُخفِ عنّي أنّك عشتَ طفولةً عاصفةً بعض الشّيء. (ثمّ أضاف إذ رأى الحركة التي ندّت عن الشّاب) أوه! لستُ أطلب منك اعترافاتٍ؛ ثمّ إنّنا قد أتينا بوالدك الماركيز كافالكانتي من لوكا، حتّى لا تشعر بأنّك محتاجٌ إلى أيّ كان. سوف تراه بنفسك، إنّه رجلٌ على درجةٍ من القسوة والصّرامة؛ لكنّها مسألةٌ مفهومةٌ متى ما أخذنا في الاعتبار خدمته العسكرية في النّمسا مُذ كان في الثامنة عشرة من عمره. فنحن عمومًا غير متطلّبين حين يتعلّقُ الأمرُ بالنّمساويّين. وأؤكّد لك أنّ السيّد كافالكانتي هو بالجملة أبٌ رائعٌ.

- آه! كلامك يثلج صدري يا سيّدي؛ لقد افترقت عن والدي منذ زمن بعيدٍ، وما ظلّت لديّ أيّ ذكرى عنه.

- ثمَّ إنّ الثروةَ العظيمة تعوّض أشياء كثيرة.

- والدي إذًا ثريّ حقًّا يا سيّدي؟

- مليونير... دخله خمسمائة ألف جنيه.

تساءل الشّاب بقلقٍ: - سأصير إذًا في وضعٍ... مرفّه؟

- مرفّه جدًا سيّدي العزيز؛ سيخصّص لكَ مبلغ خمسين ألف جنيه في السّنة، طيلة المدّة التي تمكث فيها بباريس.

- في هذه الحال، سأظلّ في باريس حتّى نهاية عمري.
- من يدري ما قد يجدُّ يا سيّدي؟ إنّ العبدَ في التفكير، والرّب في التدبير.
أطلق أندريا تنهيدةً.
قال: - وطيلة الوقت الذي سأبقى فيه بباريس... ولا يعرضُ عارضٌ يبعدني عنها، سوف تظلّ طوعَ يدي النّقود التي ذكرتَها؟
- أوه! طبعًا!
سأل أندريا قلقًا: - يقدّمها لي أبي؟
- أجل، لكن يضمنها اللّورد ويلمور الذي فتح لك حسابًا بقيمة خمسة آلاف فرنكٍ شهريًا عند السيّد دانغلار، وهو أحد ثقاة المصرفيّين في باريس.
سأل الشّابُ قلقًا: - وهل ينوي والدي البقاء بباريس طويلًا؟
أجابه الكونت: - أيّامًا فقط. خدمته لا تسمح له بأن يغيب أكثر من أسبوعين أو ثلاثة.
قال أندريا، وقد بدا سعيدًا بهذا الرّحيل المستعجل: - أوه! أبي العزيز!
قال الكونت متظاهرًا بالتّأثر: - ثمّ إنّي لا أريد أن أؤخّر ولو ثانية لحظةَ لقائكما. أأنت مستعدٌ لمعانقة الرّجل الكريم السيّد كافالكانتي؟
- لا شكّ في ذلك، هذا ما أرجوه؟
- حسنا إذًا! ادخُل إلى الصالون يا صديقي، وستجد والدك بانتظارك.
حيا أندريا الكونت مونت كريستو تحيّةً حارّة، ثمّ دلف إلى الصالون.
شيّعه الكونت بنظرته، ثمّ إذ اختفى الشّابُ، دفع بُرغيًا مثبّتًا في لوحة، فظهرت مكانَه فرجةٌ مخبّأةٌ بعنايةٍ، تسمح بالتلصّص على الصالون.
أغلق أندريا الباب خلفه، وتقدّم نحو الرّائد الذي وقف ما إن سمع وقع الخطوات المقتربة منه.

قال أندريا بصوتٍ عالٍ رغبةً في أن يسمعه الكونت من وراء الجدار:
-آه يا سيّدي، يا أبي العزيز، أأنت فعلًا من أحسبُ؟
قال الرّائد بصوت رزينٍ: - أهلًا بابني العزيز.
قال أندريا وهو لا يزال ينظر صوب الباب: - بعد سنين الفراق الطويلة، ما أسعدني اليوم بلقائك!
- لقد طال الفراق حقًّا!
استأنف أندريا الكلام: - ألن نتعانقَ يا والدي؟
قال الرّائد: - كما تحبّ يا بنيّ.
وتعانق الرّجلان مثلما يُتعانق في المسرح الوطنيّ الفرنسي، أيّ بوضع الرّأس على كتفِ من نعانقه.
قال أندريا: - ها قد اجتمعنا مرّةً أخرى!
فردّد الرّائد: - ها قد اجتمعنا.
- اجتماعًا لا فراقَ بعده؟
- أجل؛ وأحسب أنّك قد صرت الآن تعتبر فرنسا بمثابة وطنك الثاني يا بنيّ؟
أجابه الشّاب: - الحقّ أنّه لا رغبةلديّ في أن أترك باريس.
- وأنا، كما تفهم لا أستطيع العيش خارج لوكا. وبالتّالي، سأعود إلى إيطاليا ما إن أستطيع ذلك.
- لكن قبل أن تغادر باريس يا أبي، هل ستعطيني الوثائق التي أستطيع بها إثبات الدّم الذي أنحدر منه؟
- بلا أدنى شكّ، لأنّني أتيت تحديدًا لهذا السّبب، وتعبت في سبيل الوصول إليك وإعطائك الوثائق، حتّى لا تضيع منّي وأفني ما تبقّى من حياتي بحثًا عنك.
- وأين الوثائق؟
- هي ذي.

أمسك أندريا بلهفةٍ عقد زواج والده، وشهادة ميلاده هو، وبعدما فتح الوثيقتين بلهفةٍ متوقّعةٍ في ابنٍ بارٍّ، قرأ السّطور بسرعةٍ وخبرة تشهدان على تمتّعه في آنٍ بالنّظرةِ الدّربة والانتباه اليقظ. وحين فرغ من تفحّص الوثيقتين، أضاءت جبينه لمحةُ فرحٍ لا توصف؛ ونظر إلى الرّائد بابتسامةٍ غريبة، ثمّ قال بنبرةٍ توسكانية سليمةً: - حسنًا، يبدو أن إيطاليا تعيش حالةً من التسيّب...؟

تنبّه الرّائد، وتساءل: - لمَ تقول هذا؟

- لأنّ بوسع المرء في إيطاليا أن يزيّف أوراقًا مماثلةً من دون أن يُعاقب. لو أنّك فعلت نصف هذا في فرنسا يا أبي العزيز، لأُرسلتَ إلى سجن تولون تقضي فيه خمس سنوات.

أجاب اللّوكاويّ وهو يحاول أن يتلبّس هيئةً مهيبة: - عفوًا؟

قال أندريا وهو يضغط على ذراع الرّائد: - عزيزي السيّد كافالكانتي، كم أعطوك لتمثّل دورَ والدي؟

أراد الرّائد أن يتكلّم، لكنّ أندريا قاطعه بصوت خافت: -هش! سأعطيك مثالًا عن الثقة: لقد عرضوا عليّ خمسين ألف جنيه في السنّة مقابل أن أكون ابنك، وبالتّالي يمكن أن تفهم أنّ ليس في مصلحتي أن أُنكر بنوّتي لك.

نظر الرّائد حولَه بقلق.

قال أندريا: - اطمئنّ، إنّنا بمفردنا، ثمّ إنّنا نتكلّم بالإيطالية.

قال اللّوكاوي: - حسنًا! لقد أُعطيت أنا خمسين ألف فرنك دفعةً واحدة.

قال أندريا: - هل تؤمنُ بقصص الجنيّاتِ يا سيّدي كافالكانتي؟

- لم أكن أصدّقها، لكن الآن صار لزامًا عليّ التّصديقُ.

- أُعطيتَ إذًا حُججًا دامغةً؟

أخرج الرّائد من جيبه حفنةً من القطع الذهبية:

- المسألةُ واضحةٌ كما ترى.
- تظنُّ أنّ بوسعنا الوثوق بالوعود التي قُطعت لنا؟
- أثق في ذلك.
- وتثق في أنّ هذا الكونت الشهم سيفي بها؟
- كلّ الثّقة؛ لكن كما تعلم، لكي نبلغ هذا الهدف ينبغي أن نؤدّي دورَيْنا.
- وكيف؟
- أنا أؤدّي دور الأب الرّؤوف...
- وأنا دور الابن البارّ.
- ما داموا هُم يريدون أن تكون سليلي...
- من تقصد بـ«هُم»؟
- اللّعنة! وما أدراني أنا؟ أولئك الذين كتبوا إليك: ألم تصلكَ رسالةٌ؟
- بلى.
- من طرف من؟
- من شخصٍ يدعى الرّاهب بوزوني.
- وهل تعرفه؟
- كلّا.
- وماذا كانت تقول الرّسالة؟
- لن تغدر بي؟
- طبعًا لا، إنّ مصلحتنا واحدةٌ.
- اقرأ إذًا الرّسالة.
ثمّ مدّ الرّائدُ رسالةً إلى الشّاب.
أخذ أندريا يقرأ بصوتٍ خفيض:
أنت رجلٌ فقيرٌ، وتنتظرك شيخوخةٌ شقيّةٌ. فهل تريد أن تصير غنيًا، أو أقلّه غير محتاجٍ لأحدٍ؟

اِذهب من فورك إلى باريس، فاقْصِد الكونت مونت كريستو بشارع الشانزيليزيه، الرّقم 30، واسأل عن ابنك الذي رُزقتَه مع الماركيزة كورسيناري وخُطف منك في سنّ الخامسة. إنّ اسم ابنك أندريا كافالكانتي.

وحتّى لا تشكّك في حسنِ نيّة كاتب هذه الأسطر وسعيِه في خيرِكَ، تجد مرفقًا بالرّسالة:

1- صكًّا بقيمة ألفين وأربعمائة جنيه توسكانيّ، تصرفه عند السيّد غوزّي في فلورنسا؛

2- رسالة توصية إلى السيّد الكونت مونت كريستو، أوصيه فيها بأن يعطيك مبلغ ثمانية وأربعين ألف فرنكٍ.

احرص على أن تكون عند الكونت يوم 26 مايو في السّابعة مساءً.

توقيع: الأب بوزوني.

- هذا هو.

سأله الرّائد: - كيف، هذا هو؟ ما الذي تقصده؟

- أقصد أنّني توصّلتُ برسالة مماثلة تقريبًا.

- أنت؟

- نعم، أنا.

- من طرف الأب بوزوني؟

- كلّا.

- ومن طرف من؟

- من عند إنجليزيّ يسمّى اللّورد ويلمور، ويلقّبُ نفسه بالسّندباد البحريّ.

- ولست تعرفُه إلا بقدر ما أعرفُ أنا الأب بوزوني؟

- تمامًا؛ على أنّني أتقدّمك بخطوةٍ.

- هل التقيتَه؟
- أجل، مرّةً واحدة.
- أين؟
- آه! هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به؛ ستصير معرفتُك مكافئةً لمعرفتي، ولا فائدةَ في ذلك.
- ورسالتُك، ما كان مضمونَها؟
- هاك، اقرأ!
«أنتَ فقيرٌ، وينتظرك مستقبلٌ بائس. هل تريد أن تحصل على اسمٍ، وتكون حرًا وغنيًا؟».
قاطع أندريا الرّائدَ متأرجحًا على عقبَي حذائه: - بحقّ السّماء! أهذا سؤالٌ ينتظرُ جوابًا!
واصل اللّوكاويُّ القراءةَ:
«اركب خيول المراسلة التي سوف تجدها جاهزةً حين تخرج من نيس عبر بوابة جنوة. واتّخذ طريق تورينو، وشامبري، ثمّ بون دو بوفوازان. واحرص على أن تكون في بيت الكونت مونت كريستو، بشارع الشانزيليزيه، يوم 26 مايو، في السّاعة السّابعة مساءً، واسألْهُ عن والدك.
أنت ابنُ الماركيز بارتولوميو كافالكانتي والماركيزة أوليفيا كورسيناري، وذاك ما تشهدُ به الوثائق التي سيعطيك إيّاها الماركيز، والتي ستسمح لك بأن تقدّم نفسك إلى المجتمع الباريسي باسمِ أندريا كافالكانتي.
أمّا بالنّسبة لمصاريفك، فقد حُددت لك خمسون ألف فرنكٍ لتعينك على حياتك الجديدة.
تجدُ مرفقًا بالرّسالة صكًا بقيمة خمسة آلاف فرنكٍ، تصرفُه عند السيّد فِرِّيا، وهو مصرفيٌّ في نيس؛ ورسالةَ توصيةٍ إلى الكونت مونت كريستو المكلّف بتدبير احتياجَاتك.

السندباد البحريّ».

لمّا أنهى الرّائدُ القراءَةَ قال: - همم! جميلٌ جدًا!

- أليس كذلك؟

- هل قابلت الكونت؟

- للتوّ فارقتُه.

- وهل أمّنَ على ما في الرّسالة؟

- حرفيًا.

- هل لديك فكرةٌ عمّا يجري؟

- صدقًا، لا أدري.

- ثمّة من يمكر.

- في جميع الأحوال، ليسَ أنا ولا أنت؟

- كلّا، بالتأكيد.

- وإذًا، من...؟

- ليكن من كان، أليسَ كذلك؟

- تمامًا، ذاك ما أردتُ قولَه: لنلعب اللعبة حتّى النهاية، ولنتآزر.

- فليكن، وسترى أنّي كفؤ لمؤازرتك.

- لم أشكّ في ذلك لحظةً يا أبي العزيز.

- أنت تشرّفني يا ولدي العزيز.

اختار الكونت هذه اللحظة الدّخول إلى الصّالون. ولوقع خطواتِه ارتمى كل من الرّجلين في حضن الآخر؛ فوجدهما الكونت متعانقين.

قال الكونت: - حسنٌ! يبدو أنّك قد وجدتَ الابن الذي يرتضيه قلبُك يا سيّدي المركيز؟

- آه! يا سيّدي الكونت، أكاد اختنق من الفرح.

- وأنت أيّها الشّاب؟

- آه! يا سيّدي الكونت، إني أغصّ بالسعادة.

قال الكونت: – ما أسعدك من أبٍ! وما أسعدك من ابن!

قال الرّائد: – شيءٌ واحدٌ فقط يحزنني: ضرورة أن أرحل عن باريس قريبًا.

قال الكونت: – آه يا سيّد كافالكانتي، أرجو ألّا ترحل قبل أن أتشرّف بتقديمك لبعض الأصدقاء.

قال الرّائد: – أنا طوعُ أمرك يا سيّدي الكونت.

– والآن أيّها الشّاب أَسِرَّ بما لديك.

– لمن؟

– لوالدك؛ أخبره عن وضعك الماليّ.

قال أندريا: – آه! إنّك تلمس الوترَ الحسّاس.

قال مونت كريستو: – هل تسمع يا سيّدي الرّائد؟

– بالتّأكيد أسمعه.

– أجل، لكن هل تفهمه؟

– كلّ الفهم.

– هذا الطّفلُ المسكين، يقول إنّه بحاجةٍ إلى المال.

– وما العمل؟

– أن تعطيَه مالًا!

– أنا؟

– نعم، أنت.

انحشر مونت كريستو بين الرّجلين، وقال لأندريا وهو يدسّ في يده حزمةً من أوراق نقدية:

– تفضّل!

– ما هذا؟

– هذا جوابُ أبيكَ.

– جوابُ أبي؟

- أجل، ألم تلمّح إلى أنّك تحتاج نقودًا؟
- بلى. ثمّ؟
- ثمّ! لقد كلّفني بأن أعطيك هذه النّقود.
- هذا جزءٌ من مخصّصاتي السّنوية؟
- كلّا، إنّما هذا فقط لكي تستقرّ بباريس.
- أوه! والدي العزيز!
قال مونت كريستو: - صمتًا، ألا ترى أنّه لا يريد أن يبيّنَ لك أنّ النّقود قد أتت من عنده.
قال أندريا وهو يدسُّ النّقود في جيب سرواله: - أقدّر له لباقته!
قال الكونت: - حسنًا، الآن بوسعكما أن تنصرفا.
سأله كافالكانتي: - ومتى نتشرّف برؤيتك مرّةً أخرى يا سيّدي الكونت؟
فأمّنَ أندريا على سؤال والده: - آه! متى نحظى بهذا الشّرف؟
- يوم السّبت إن رغبتُما في ذلك... بلى... السبت أقيم وليمةً في منزلي بأوتوي، شارع لافونتين، الرقم 28، يحضرُها العديد من الضيوف، ومن بينهم السيّدُ دانغلار، مصرفيُّكُما؛ سأعرّفكما عليه، ينبغي أن يعرفكما معًا حتّى يعطيكُما نقودكما.
سأله اللّوكاويّ هامسًا: - هل ألبس زيَّ السّهرة؟
- زيُّ السّهرة: بدلة رسمية، صليب، سراويل قصيرة.
سأله أندريا: - وأنا؟
- أوه! أنت يمكنك أن تلبس ببساطةٍ: سروالًا أسودَ، وحذاء طويلًا مبرنقًا، وصدارًا أبيض، وقميصًا أسود أو أزرق، وربطة عنقٍ طويلةً؛ خُذ ملابسك عند بلان أو فيرونيك. فإن لم تكن تعرف عناوينهما، سوف يأخذك إليهما باتيستان. بالنّظر إلى أنّك شابٌ ثريٌّ، كلّما انتهجت البساطة في ملبسك، كان الأثر أقوى. وإن أردتَ شراء خيولٍ، فالتمسها

عند دُفدو؛ أو أردت عربةَ فايتون[1]، فاطلُبها عند باتيست.
قال الشّاب: - في أيّ ساعةٍ نستطيع الحضور؟
- حوالى السّاعة السادسة والنّصف.
قال الرّائد وهو يمدّ يده إلى قبّعته: - حسنًا، سنكون في الموعد.
حيّا كافالكانتي وابنُه الكونت وخرجا. دنا الكونت من النّافذة، ورآهما يعبران الفناء متعانقين.
قال: - الحقّ، هذا نموذجٌ لرجلين بائسين! مؤسفٌ أنّهما ليسا بالفعل أبًا وابنَه!
وبعد أن تقلّبَ برهةً في فِكَرٍ مظلمةٍ، أضاف:
- هيّا إلى بيت آل موريل؛ أظنُّ أنّ القرف يثير اشمئزازي أكثر ممّا تفعل الكراهية.

(1) عربة سياحية صغيرة.

57

حقلُ البرسيم

ينبغي أن يسمح لنا قرّاؤنا بأن نعيدهم إلى الحقل المتاخم لمنزل السيّد دو فيلفور، فنعيد وإيّاهم، خلفَ السيّاج الذي اجتاحته أشجارُ الكستناء، اللّقاءَ بشخصيتين سبق أن تعرّفنا عليهما.

وكان ماكسيميليان هذه المرّة أوّل من وصلَ. وكان هو من وضع عينه لصق السيّاج الخشبيّ مترصّدًا في الحديقة العميقة خيالًا بين الأشجار، ووقْع نعلٍ من حرير على رملِ الممشى.

وأخيرًا سُمع الوقع المرغوبُ، لكن بدلًا من خيالٍ برز خيالان وتقدّما يقتربان. لقد أبطأت فالانتين عن المجيء بسبب زيارة السيّدة دانغلار والآنسة يوجيني لمنزلهما، زيارةٌ استمرت إلى ما بعد وقتِ الموعد الذي كانت قد ضربتُه هي لماكسيميليان. وكيلا تخلف موعدها اقترحت الشّابة على الآنسة دانغلار أن تقوما بجولة في الحديقة، حتّى يتسنّى لماكسيميليان الوقوف على سبب تأخّرها الذي لا بدّ أن يؤلمَه.

أدرك الشّابُ كلّ شيءٍ بسرعة البديهة التي تميّز العشّاق، فارتاح قلبُه. ثمّ إنّ فالانتين، من غير أن تبلغَ مرمى صوتِه، وجّهت مسار النّزهة بحيث يتمكّن ماكسيميليان من أن يتابعها تمرّ وتمرّ؛ وفي كلّ مرّة تمرُّ فيها، كانت تلقي بنظرةٍ خفيّة إلى الجانب الآخر من السيّاج، فيلتقطُها حبيبُها؛ نظرة تقول له:

«صبرًا، يا صديقي، ها أنت ترى أنّ الخطأ ليس خطأي».

وبالفعل كان ماكسيميليان يتصبّرُ مزجيًا الانتظار في تأمّل التّباين بين

الفتاتين: الشّقراء ذات العينين الواهنتين والقوام المنحني كصفصافة جميلة، والسّمراء ذات العينين المتّقدتين والقوام المنتصب كشجرة حور؛ ولا نحتاج قولًا إنّ المقارنة بين الشّابتين كانت تصبُّ، -على الأقلّ في قلب الشّابِ-، في صالح فالانتين.

وبعد نصفِ ساعةٍ من التنزّه ابتعدت الفتاتان. أدرك ماكسيميليان أنّ زيارة السيّدة دانغلار قد بلغت نهايتها.

وبالفعل، ما هي إلا لحظات حتّى ظهرت فالانتين بمفردها. وخشية أن تلحقها نظرةٌ متلصّصةٌ، كانت تمشي على مهل؛ وبدلًا من أن تقصد السياج رأسًا، ذهبت تجلسُ أوّلًا على مقعدٍ، بعدماً تفحّصت من دون أن تثير الانتباه كلّ حزمةٍ من الأشجار، وغاصت ببصرها في المماشي والممرّات جميعها. ثمّ إذ فرغت من تدابيرها الاحتياطية، هرعت إلى السيّاج.

قال صوتٌ: - صباح الخير يا فالانتين.

- صباح الخير يا ماكسيميليان؛ لقد جعلتك تنتظر كثيرًا، لكنّك رأيت السّبب؟

- أجل لقد رأيت الآنسة دانغلار؛ لم أكن أظنّها صديقتك.

- ومن قال إنّها صديقتي يا ماكسيميليان؟

- لا أحد؛ لكنّني استنتجت ذلك من الطّريقة التي كنتما تتأبّطان بها ذراعَي بعضكما بعضًا، وتتحدّثان بها. كان الأمر أشبه برفيقتين في مأوى المسنّين تتناجيان.

قالت فالانتين: - الحقّ أنّنا بالفعل كنّا نتناجى، كانت هي تسرّ إليّ بنفورها من الزّواج من السيّد دو مورسيرف؛ وأنا أخبرها بأنّ زواجي من السيّد ديبيناي يبدو لي كالمصيبة.

- يا عزيزتي فالانتين!

واصلت الشّابةُ: - وذاك هو السبب يا صديقي في مظهر التّآلف بيننا؛ بينما أحدّثها عن الرّجل الذي لا أحبّه كنت أفكّر في الرّجل الذي أحبّه.

- ما أطيبك يا فالانتين؛ لديك شيءٌ لن تملكه الآنسة دانغلار أبدًا: تلك الجاذبية المتعذّرة الوصف التي هي للمرأةِ مثل العطرِ للوردة، والنّكهةِ للثّمر؛ إذ لا يكفي الوردةَ أن تكون جميلةً أو الثمرةَ أن تكون جذّابةً.

- إنّ حبّك لي هو ما يجعلك تراني كذلك يا ماكسيميليان.

- كلّا يا فالانتين، أقسمُ لك. كنتُ أتأمّلكما قبل قليل، وبشرفي أقول لك إنّني، وإن أقررتُ بجمال السيّدة دانغلار، لا أفهم كيف يمكن أن يقع في حبّها رجلٌ.

- إنّما حكمتَ بذلك يا ماكسيميليان لأنّني كنت بجانبها، فعطّلتُ قدرتَك على الإنصاف.

- كلّا... لكن أخبريني... هو مجرّد سؤالٍ أملاه الفضول، ومنطلقُه أفكارٌ كوّنتُها عن الآنسة دانغلار.

- أوه! من دون أن أعرف تلك الأفكار، يمكنني أن أقول إنّها ظالمةٌ، فنحنُ معشر النّساء المسكينات لا يمكن أن ننتظرَ إنصافًا في أحكامكم علينا.

- على أساس أنّكن منصفاتٌ بعضُكنَّ تُجاه بعض!

- لأنّ أحكامنا تكاد دائمًا تحكمها الأهواء. لكن، لنعُد إلى سؤالك.

- هل لأنّ الآنسة دانغلار تحبُّ شخصًا آخر، تخشى الزّواج من السيّد دو مورسيرف؟

- لقد قلت لك يا ماكسيميليان إنّني لست صديقةً ليوجيني.

قال موريل: - لعمري إنّ الفتيات يفضين بأسرارهنّ بعضهنّ إلى بعضٍ، وإن لم يكنّ صديقات؛ اعترفي بأنّك قد استفسرت منها عن هذا الأمر. ها، إنّي أراك تبتسمين.

- إن كان الأمر هكذا يا ماكسيميليان، فلا فائدة إذًا من سياج الألواح الذي يفصل بيننا.

- هيّا، ما الذي قالته لك؟

أجابته فالانتين: - قالت إنّها لا تحبُّ أحدًا؛ إنّ الزّواج يرعبها، وإنّ سعادتَها في أن تعيش حياةً حرّةً مستقلّةً، وإنّها تتمنّى تقريبًا أن يفقد والدُها ثروته لتستطيع أن تصير فنانةً تعيش من الفنّ مثل صديقتها الآنسة لويز دارميلي.

- آه! رأيت!

سألته فالانتين: - علامَ يدلُّ هذا؟

أجابها ماكسيميليان باسمًا: - لا شيء.

- لماذا إذًا تبتسم بدورك؟

أجابها: - آه! ها أنت ترين أنّك أيضًا تختلسين النّظر.

- هل تريد منّي أن أبتعد؟

صاح ماكسيميليان فزعًا: - يا إلهي!

قالت فالانتين بنبرةٍ حزينةٍ: - أجل يا ماكسيميليان، أنت محقٌّ، ما أتعسني من صديقةٍ! وأيّ حزنٍ أنشره على حياتك أنت الذي خُلقت لتكون سعيدًا يا ماكسيميليان! إنّني لا أكفّ عن لوم نفسي على هذا.

- وما المشكل يا فالانتين إن كنت أنا أجد سعادتي في هذا؛ ما دام انتظاري الأبديّ ينتهي بأن أراك خمس دقائق، وبأن أسمع من فمك كلمتين، وبأن تترسّخ في قلبي القناعة بأنّ الرّب لم يخلق قلبين متناغمين تناغُمَ قلبَينا، وجمعهما بما يشبه المعجزة، لكي يفرّقَ بينهما!

- حسنًا، شكرًا، نرجو ذلك يا ماكسيميليان. هذا الأمر يجعلني نصفَ سعيدة.

- ما الخطب يا فالانتين، لمَ أنت مستعجلةٌ بالذّهاب؟

- لا أدري، إنّ السيّدة دو فيلفور تريد أن تطلعني على قرارٍ تزعمُ أنّه يتعلّقُ بجزءٍ من ثروتي. آه! لو يأخذونَ ثروتي كلّها، ويتركونني وشأني حرّةً؛ فأنا غنيّةٌ أكثر ممّا ينبغي! سوف تحبّني حتّى وإن صرتُ فقيرة يا موريل، أليس كذلك؟

- أوه! سأحبّك دائمًا؛ وما همّني الفقر أو الغنى، ما دامت عزيزتي فالانتين بقربي، ولا أخشى أن يسلبني إيّاها أحدٌ! لكن ألا يمكن أن يكون الخبر يا فالانتين متعلّقًا بزواجك؟

- لا أظنُّ ذلك.

- أصغِ إليَّ يا فالانتين، ينبغي ألّا تفزعي، لأنّني ما حييتُ لن أتزوّجَ غيرَك.

- وهل تظنُّ أنّ كلامك هذا يريحني يا ماكسيميليان؟

- آسف! معك حقٌّ، أنا فظٌّ... هل قلتُ لك إنّني المرّة الماضية التقيت السيّد دو مورسيرف؟

- التقيته؟

- نعم، وكما تعلمين فإنّ فرانز صديقَه.

- نعم، وماذا؟

- لقد وصلته رسالةٌ من فرانز يخبره فيها بقربِ وصولِه.

شحبت فالانتين وأسندت ذراعها إلى السيّاج.

قالت: - آه! يا إلهي! إن كان الأمرُ كذلك...! كلّا، لأنّ في هذه الحال لن يصل الخبر عن طريق السيّدة دو فيلفور.

- لماذا؟

- لماذا! لا أدري... لكنّني أرى السيّدة دو فيلفور غير متحمّسة لهذا الزّواج، وإن لم تُعارضه!

- يبدو إذًا أنّني سأحبُّ السيّدة دو فيلفور يا فالانتين.

أجابته فالانتين بابتسامةٍ حزينة: - أوه! لا تتسرّع في الحكم يا ماكسيميليان.

- في نهاية المطاف، إن كانت غير متحمّسة لهذا الزّواج، فربّما لأنّها متحمّسةٌ لأسماء أخرى.

- ليس هذا يا ماكسيميليان؛ السيّدةُ دو فيلفور لا تدفعُ عنّي الأزواجَ وإنّما تدفعُ الزّواجَ.

- كيف؟ الزّواج! ما دامت تكره الزّواج إلى هذا الحدّ، لماذا إذًا تزوّجت؟

- لم تفهمني يا ماكسيميليان؛ عندما كنت قد اقترحتُ، منذ سنةٍ، أن أعتزل بديرٍ، رحّبت بالفكرة؛ حتّى إنّها أقنعت والدي بالفكرة، ولم يُثْنِني عن الفكرة سوى جدّي المسكين. لا يمكنك أن تتصّور أيّ حبٍّ يحمله لي هذا الشيّخُ المسكين الذي، وليسامحني الربُّ إن كنت مخطئةً، لا يحبُّ سوايَ. لو رأيتَه حين أعلمتُه بقراري، وتعبير العتاب في عينيه، واليأسَ النّازل مع الدّموع المنهمرة على خدّيه الجامدين. لقد شعرتُ حين رأيتُه بما يشبه النّدم وارتميت عند قدميه أصيحُ: «آسفة! آسفة! يا جدّي! ليفعلوا بي ما شاؤوا، لكنّني أبدًا لن أفارقك». إذّاك رفع عينيه إلى السّماء!... بوسعي أن أحتمل الكثير من الألم يا ماكسيميليان، لقد عوضتني نظرةُ جدّي عمّا سأشهدُه من ألم.

- عزيزتي فالانتين، أنتِ ملاكٌ! ولا أدري ما فعلتُه لأستحقّ حبّك، أنا الذي أمضيتُ عمري في ضربِ البدو يمينًا وشمالًا، اللّهم إلّا إن كان الرّبُ يعتبرهم كُفّارًا! لكن، قولي يا فالانتين ما مصلحةُ السيّدة دو فيلفور في ألّا تتزوّجي؟

- ألم تسمعني حين قلتُ لك قبل قليل إنّني غنيّةٌ يا ماكسيميليان، غنيّةٌ جدًا؟ لقد ورثتُ عن أمّي إيراداتٍ تقاربُ خمسين ألف جنيهٍ؛ ويُفترض أن يخلّف لي جدّي وجدّتي، الماركيز والماركيزة دو سان مِران، مبلغًا مماثلًا؛ ويبدو أنّ السيّد نوارتييه ينوي جعلي وريثه الوحيد. والنّتيجةُ أنّ أخي إدوارد، الذي لا يأملُ بأيّ ثروةٍ من جهة أمّه السيّدة دو فيلفور، هو فقيرٌ قياسًا إليّ. فإن التحقت بسلك الرّهبنة، فإنّ ثروتي كلّها تتركّز في يد والدي السيّد دو فليفور، ثمّ تؤول لولدها.

- أوه! غريبٌ هذا الجشع في امرأةٍ شابة وجميلة!

- لاحظ يا ماكسيميليان أنّها لا تسعى في مصلحتها، وإنّما في مصلحة

ابنها، وأنّ ما تلومَها عليه باعتباره عيبًا، قد يكون، من وجهة نظر الحبّ الأموميّ، فضيلةً.

- وماذا لو تخلّيت عن جزءٍ من ثروتك لهذا الصبيّ؟

- وكيف تستطيع أن تقترح اقتراحًا مماثلًا لامرأة ليس في فمها إلا كلمة الزّهد؟

- عزيزتي فالانتين، لقد ظلَّ حبّي لك دائمًا مقدّسًا، وككلّ الأشياء المقدّسة، غطّيتُه بحجابٍ وغلّقتُ عليه في قلبي؛ لا أحد إذًا يعلم بأمر هذا الحبِّ، لم أخبر أحدًا، لم أخبر حتّى أختي. فهل تسمحين لي يا فالانتين بأن أفصح بهذا الحبّ لصديق؟

انتفضت فالانتين. وقالت: - تُخبر صديقًا؟ أوه! يا إلهي! مجرّد سماع هذا الكلام منك يجعلني أرتجف! صديق؟ أيّ صديق هذا؟

- أصغي إليّ يا فالانتين، هل سبق أن أحسست تجاه أحدهم بتلك المودّة الجارفة التي تجعلك، وإن كانت تلك المرّة الأولى التي تلتقينه فيها، تشعُرين تُجاهه بألفة كبيرةٍ، وكأنّما تعرفينه منذ زمنٍ طويل، فتسألين نفسَك متى وأين عرفتِه؛ حتّى إذا أعيتك الحيلة في تذكّر الزّمان والمكان، تقتنعين بأنّك قد عرفته في عالمٍ آخر سابقٍ على عالمنا، وأنّ المودّة التي تحسّينها تجاهه الآن ما هي إلا ذكرى تستيقظُ؟

- نعم.

- ذاك ما أحسستُه من المرّة الأولى التي رأيت فيها هذا الرّجل الخارق.

- رجلٌ خارق؟

- نعم.

- رجلٌ تعرفه منذ زمنٍ بعيدٍ إذًا؟

- بالكاد أعرفه منذ ثمانية أيّام أو عشرة.

- وتسمّي رجلًا لم تعرفه إلا منذ ثمانية أيّام صديقًا؟ أوه! يا ماكسيميليان، كنت أحسبُك متطلّبًا فيما يخصُّ كلمة صديق.

- أنت محقّةٌ من النّاحية المنطقية يا فالانتين؛ لكن مهما قلتِ لن يتغيّر الشّعور الذي أحسّ به تجاهه. أحسب أنّ هذا الرّجل ستكون له يدٌ في كلّ خيرٍ أصيبه في مُقبلِ أيّامي، حتّى إنّي لأحسب نظرتَه العميقة تعرفُ ويدَه القويّةَ تدبِّرُ.

قالت فالانتين باسمةً: - لديه إذًا علمٌ إلهيٌّ؟

قال ماكسيميليان: - أقسم يا فالانتين أنّني أحيانًا أميل إلى الاعتقاد في طابعه الإلهي.. الخيّر خاصّةً.

قالت فالانتين بنبرةٍ حزينة: - أوه! عرّفني إذًا إلى هذا الرّجل يا ماكسيميليان، ليطلعني على ما يخبّئه الزّمنُ. هل سأعوَّضُ بالحبِّ عمّا قاسيتُه من آلام.

- آه يا صديقتي المسكينة! ولكنّك تعرفينه!

- أنا؟

- أجل، الرّجل الذي أنقذ زوجة أبيك وولدها.

- الكونت مونت كريستو؟

- هو بعينه.

- أوه! لا يمكنه أن يكون صديقي، لأنّه صديقٌ حميمٌ لزوجة أبي.

- الكونت، صديقُ زوجة أبيك يا فالانتين؟ إنّ غريزتي لا تخطئُ في هذه النّقطة؛ أنا متأكّد من أنّك مخطئة.

- أوه! لو تعلم يا ماكسيميليان! لم يعد إدوارد هو من يحكم المنزل، وإنّما الكونت. السيّدة دو فيلفور تتبعه، ترى فيه مجمع المعارف البشرية؛ ووالدي معجبٌ به، أقول لك والدي معجبٌ به، ويرى فيه أبلغَ المفكّرين؛ وإدوارد يحبّه، على الرّغم ممّا تبثّه فيه عيناه السّوداوان من رعب، يركض إليه ما إن يراه، فيفتح له يدَه ليضع فيها الكونت دائمًا لعبةً رائعةً. يمكن القول إنّ الكونت مونت كريستو ليس هنا في بيت أبي، ولا هو في بيت السيّدة دو فيلفور، وإنّما في بيته.

– وإذًا، يا عزيزتي فالانتين، ما دامت الأمور على هذا النّحو، فلا بدّ أنّك قد شعرت، أو ستشعرين قريبًا، بما يخلّفه حضوره من أثرٍ. لقد التقى ألبير دو مورسيرف في إيطاليا، وأنقذه من أيدي قطّاع الطّرق؛ ثمّ التقى السيّدة دانغلار فمنحها هديّةً ملكيّة؛ ومرّت من أمام بيته زوجة أبيك وابنها، فأنقذهما خادمُه النّوبيُّ من موتٍ محقّق. لا بدّ أنّ الرّجل قد حُبيَ القدرة على تطويع الأمور. لم أقابل قطّ رجلًا اجتمعت في ذوقه البساطةُ والفخامةُ. إنّ ابتسامتَه شديدةُ العذوبة، حتّى إنّه حين يبتسم لي أنسى ما يجده الآخرون في ابتسامته من مرارةٍ. أوه! قولي لي يا فالانتين، هل سبق أن ابتسم في وجهك كما يبتسم لي؟ إن فعلَ لأسعدَك.

أجابته الشّابة: – أنا! أوه! يا إلهي! إنّه لا ينظر إليّ، وإن التقت عينانا صدفةً يشيح عنّي. إمّا أنّه ليس كريمًا، أو أنّه لا يملك النّظرة التي تدّعيها له، أقصد النّظرة القادرة على أن تنفذ إلى عمق القلوب؛ فلو أنّه كان كريمًا ورأى ما أنا عليه من الوحدة والحزن في هذا المنزل، لاستغلّ نفوذَه ليحميني؛ ولو أنّه يضطلع بدور الشّمسِ كما تقول، لأدفأ قلبي بشعاعٍ من أشعّته. تقول إنّه يحبّك يا ماكسيميليان؛ آه يا إلهي! ما يدريك؟ إنّ الرِّجال يتهلّلون في وجه ضابطٍ بطول خمس أقدامٍ وستّ بوصات مثلك، رجل يتقلّدُ سيفًا كبيرًا وشاربًا طويلًا، لكن قد يسحقون بلا رحمةٍ صبيّة مسكينةً تبكي.

– أوه! إنّك مخطئةٌ يا فالانتين، أقسم لك!

– إن كان الأمر على خلاف ما أزعُم يا ماكسيميليان، لو أنّه فقط عاملني بدبلوماسيةٍ من يسعى إلى أن يتمكّن في منزلنا، لكان شرَّفني ولو لمرّة واحدة بالابتسامة التي تمدحُها أنت؛ لكن، لا، لقد تأمّلني فرآني بائسة لا أنفعه بشيءٍ فلم يعرني اهتمامًا. ومن يدري، لعلّه قد يضطهدني كَسبًا لمودّة أبي وأخي والسيّدة دو فيلفور؟ ألم تقل لي إنّني امرأةٌ لا تستحقُّ أن تُحتقر بلا سبب؟ (وإذ رأت تأثير ما تقوله في وجه

ماكسيميليان، واصلت) آه! آسفة، إنّني أرمي الرّجل بكلام لم أكن حتّى أظنُّ أنّ قلبي مليءٌ به. أنا لا أنكر التأثير الذي حدّثتني عنه، لا بل أقول إنّه يمارسه عليّ أنا نفسي. لكنّه تأثيرٌ ضارٌّ ومزعجٌ بالنّسبة إليّ.

قال موريل متنهّدًا: - حسنًا؛ لننهِ هذا الموضوع! لن أخبره بشيء.

- واأسفًا يا صديقي! أرى أنّي قد آذيتُك. وليتني أستطيع أن أمدّ يدي فأشدّ بها على يدك وأطلب صفحك! حسنًا، أنا لا أطلب إلا أن تقنعني؛ قل لي: ما الذي فعله لك هذا الكونت مونت كريستو؟

- سؤالك مزعجٌ يا فالانتين، فهو لم يفعل لي أيّ شيءٍ ظاهر. لذا قلت لك إنّ مودّتي له، مودّةٌ غريزية، لا تتأسّسُ على سببٍ وجيه. وهل فعلت لي الشّمسُ شيئًا؟ كلّا، كلّا؛ إنّها تدفئني، وتنيرُني بأشعّتها، وهذا كلّ شيء. هل فعل لي هذا العطرُ أو ذاك شيئًا؟ كلّا؛ لكنّ رائحتَهُ تبهج حواسي. ليس لي ما أقوله. إن سُئلتُ لماذا أمدح هذا العطرَ، فلن أجدَ جوابًا؛ إنّ صداقتي للكونت غريبةٌ شأنها شأن صداقته لي. صوتٌ خفيٌّ يهمس لي إنّ في هذه الصّداقة المتبادلة وغير المتوقّعة شيئًا ما يتجاوز الصّدفة. أرى ترابطًا تامّا بين أفعالي وأفكاري، حتّى أبسط الأفعالِ وأخفى الأفكار. قد تضحكين من كلامي يا فالانتين، لكن منذ أن عرفت هذا الرّجل، صار ينتابني شعور غريب بأنّه هو مصدر كلّ ما يقع لي. مع أنّني عشت ثلاثين سنةً من دون أن أحتاج إلى كنفه؛ أليس كذلك؟ لكن، تأمّلي: لقد دعاني إلى العشاء في بيته السّبت المقبل؛ إلى هنا كلّ شيءٍ عادي، أليس كذلك؟ ثمّ ماذا؟ حسنًا، لقد علمتُ أنّ والدك وأمّك مدعوّان أيضًا. سوف تكون مناسبةً للقائهما، ومن يدري ما الذي قد يسفر عنه اللّقاء؟ قد تبدو هذه ملابسات بسيطة وعادية، لكنّني أرى فيها شيئًا مبهرًا؛ استمدُّ منها ثقةً عجيبة. أقول لنفسي إنّ الكونت، هذا الرّجل الفريد الذي يخمّن كلّ شيء، قد رتّب للّقاء بيني وبين السيّد والسيّدة فيلفور، وأقسم لك إنّني أحيانًا أحاول أن أقرأ في عينيه ما إذا كان قد كشف حبّي.

قالت فالانتين: - يا صديقي العزيز، سوف أعتبرك بصّارًا، وسأخشى على سلامة عقلك لو كنت أسمع منك مثل هذا الكلام فقط. ألا ترى في لقائك بوالديّ غير ذلك؟ فكّر قليلًا. إنّ والدي الذي لا يقبل تقريبًا أيّ دعوةٍ، كاد يرفض عشر مرّاتٍ دعوة الكونت، لولا أن أقنعته السيّدة دو فيلفور التي في المقابل تتحرّق لزيارة الكونت ورؤية كيف يعيش الرّجل الفاحش الثّراء. كلّا يا عزيزي ماكسيميليان، لا تظنّ أنّ بوسعي أن ألتمس العون إلا عندك أنت وجدّي المسكين، جدّي الجثّة! أو طيف أمّي الرّاحلة!

- أرى أنّك محقّةٌ فالانتين، وأنّ المنطق يشهد لك؛ لكنّ صوتك العذبَ الذي يسحرني ويؤثّر فيّ كلّ التأثير، لم يقنعني هذه المرّة.

أجابته: - ولا صوتك أقنعني، ولا أخفيك. إن لم يكن لديك مثالٌ آخر تدعم به...

قال ماكسيميليان متردّدًا: - عندي مثالٌ آخر؛ لكن أعترف أنّه أكثر عبثًا من الأوّل.

قالت باسمة: - لا بأس.

واصل موريل: - ومع ذلك، هو مثالٌ ليس بأقلّ حسمًا بالنّسبة إليّ أنا الرّجل الميّال إلى العاطفة والإلهام، الرّجل الذي منذ عشر سنواتٍ قضاها في الخدمة، يدين بحياته لذاك الإلهام الدّاخليّ الذي يوحي إلى المرء بحركة إلى الأمام أو إلى الوراء لكي تخطئهُ الرّصاصة التي كان يفترض أن تقتله.

- عزيزي ماكسيميليان، لمَ لا تعزو فضل الإفلات من الرّصاص إلى صلواتي؟ حين تكون هناك، لا أصلّي للربّ وأمّي لأجلي، وإنّما لأجلك.

قال موريل باسمًا: - أجل، منذ أن عرفتُك صارت صلواتك تنجيني من الرّصاص؛ لكن قبل أن أعرفك من كان مُنجيَّ يا فالانتين؟

- حسنًا ما دمت لا تريد أن تنسب إليّ فضلًا أيّها الشّرير، فلنعد إلى المثال الذي تقول أنت نفسك إنّه يبدو لك لا معقولًا.

- حسنًا، انظري من خلال الألواح، وأبصري هناك عند تلك الشّجرة، الحصان الجديد الذي جئتُ على ظهره.

صاحت فالانتين: - أوه! يا له من حيوانٍ جميل! لمَ لم تأتِ به قرب السيّاج؟ كنتُ لأحدّثَه فيصغي إليَّ.

قال ماكسيميليان: - إنّها كما ترَين مطيّةٌ باهظة الثّمن. وتعرفين يا فالانتين أنّ ثروتي أنا محدودة، وبالتّالي أنا ممّن يصرفون باعتدال. وكنت قد رأيتُ عند تاجر خيولٍ هذا الجواد الجميل الذي أسميتُه «مدية»، فسألته عن ثمنه، فأجابني: أربعة آلاف وخمسمائة فرنك؛ وكان أن امتنعتُ عن شرائه، وغادرتُه عن قلبٍ حزينٍ، لأنّه كان قد نظرَ إليّ برقّة، وداعبني برأسه وداوَرني وغازلني بغنجٍ لا مثيل له. وفي اليوم نفسه استقبلت بمنزلي أصدقاء: السيّد دو شاتو رونو والسيّد دُبراي وخمسة أو ستّةٌ من رفاق السّوء الذين لا تعرفينهم، لحسن حظّك، حتّى بالاسم. واقترحوا أن نلعب الورق؛ وأنا لا ألعب أبدًا، إذ كما تعرفين لست غنيًا بما يكفي لأسمح لنفسي بالخسارة، ولا فقيرًا لدرجة أن أشتهي الرّبحَ. لكنّهم كانوا ضيوفي، فتفهمين أنّني لم أكن أملك إلا أن أبعث في طلب الورق. وما إن جلسنا إلى مائدة اللّعب حتّى حضر الكونت مونت كريستو.شرعنا في اللّعب، فبدأتُ أفوزُ؛ بالكاد أستطيع أن أبوح لك بهذا يا فالانتين: فزتُ بخمسة آلاف فرنك. وافترقنا مع منتصف اللّيل. ولم أطق صبرًا، فركبت عربةً وانطلقتُ إلى تاجر الخيول. قرعت بابه مضطربًا محمومًا؛ ولا بدّ أنّ من فتح لي الباب قد ظنّني مجنونًا. وما كاد يفتح لي الباب حتّى اقتحمته. دخلتُ إلى الإسطبل وتفحّصت صفّ الخيول. ويا لَسعادتي، كان مدية هناك يمضغ القشّ. تناولت سرجًا، فأسرجته به، ثمّ ألجمتُه، وبدا متهيّئًا لهذه العملية! ثمّ بعدما بسطتُ الأربعة آلاف وخمسمائة فرنك أمام التّاجر المذهول، عدتُ من فوري، أو بالأحرى قضيت اللّيل أتجوّل في الشانزيليزيه. وأصدقك يا فالانتين،

لقد لمحتُ النّور مضاءً في نافذة الكونت، ويخيّل إليّ أنّني لمحتُ ظلَّه خلف السّتائر. والآن أستطيع أن أقسم أنّ الكونت كان عالمًا برغبتي في الحصان، فتعمّد الخسارة أمامي.

قالت فالانتين: - عزيزي، الحقُّ أنّ خيالك واسعٌ... ولن يطول بك الوقت في حبّي... إنّ رجلًا يشعرُ على هذا النّحو، لن يطمئنّ إلى علاقة رتيبةٍ كتلك التي تنتظرك بقربي... لكن، يا إلهي! ها هم ينادونني... هل تسمع؟

قال ماكسيميليان من شقّ السيّاج الضيّق: - أوه! يا فالانتين ناوليني إصبعك الصّغير أقبّله.

- ألم نقل يا ماكسيميليان إنّنا سنكون صوتين وخيالين بعضنا لبعضٍ!

- كما يحلو لك يا فالانتين.

- هل سيسعدك أن أفعل ما تطلبُه؟

- نعم، نعم!

صعدت الصبيّة فوق المقعد ولم تدخل إصبعها من الفتحة، وإنّما مدّت يدها بأكملها من فوق السيّاج.

أطلق ماكسيميليان صيحةً، وأمسك على الفور اليد المحبوبة ووضع عليها شفتيه الحارقتين؛ لكن بالكاد أمسك اليد ووضع عليها شفتيه حتّى فرّت فالانتين، مرعوبةً ربّما من الإحساس الذي شعرت به.

58

السيّد نوارتييه دو فيلفور

إليكم ما حدث في بيت وكيل الملك بعد رحيل السيّدة دانغلار وابنتها، وأثناء المحادثة التي نقلناها للتوّ.

كان السيّد دو فيلفور قد دخل عند أبيه، وفي إثره السيّدةُ دو فيلفور؛ أمّا فالانتين، فنعرفُ أين كانت.

وبعد أن حيّا الدّاخلانِ الشّيخ، وصرفا باروا، الخادمَ المسنَّ الذي أمضى في خدمة نوارتييه خمسًا وعشرين سنةً، اتّخذا موضعهما بجانبَيّ الشّيخ.

كان السيّد نوارتييه جالسًا على كرسيّه الكبير المتحرّك الذي يوضعُ فيه صباحًا ويرفع منه مساءً؛ كان يجلسُ أمام مرآةٍ تعكس له الجناح بأكمله، وتسمح له بأن يرى كلّ من يدخل أو يخرج، أو يتحرّك حولَه. أخذ ينظرُ، جامدًا كجثّة، بعينيه الفطنتين المتوقّدتين إلى ابنه وزوجته اللّذين تشي طريقة دخولهما المهيبة بأنّهما سيعلنان عليه خبرًا غير متوقّع.

وكان السّمع والبصر الجذوتين الوحيدتين اللّتين لا تزالان توقدان وميضًا في ذاك الجسد الهامد الذي غاصت ثلاثةُ أرباعه في القبر. لا بل إنّ حاسّةً واحدةً من الحواس لا تزال تستطيع أن تفصح للخارج بما يعتمل داخلَ الرّجل من حياةٍ: تلك هي حاسةُ البصر الشّاهدة على الحياة الجوانية، الحاسةُ التي تضيءُ مثلَ نور من تلك الأنوار البعيدة التي تُعلِم المسافرَ الضّائع في الصّحراء ليلًا بأنّه لا يزال ثمّةَ كائنٌ بشريّ متيقّظٌ وسط ذلك الصّمت وتلك العتمة.

وفي عين الشّيخ نوارتييه السّوداء التي يعلوها حاجبٌ أسودُ، رغم أنّ

فروة رأسه الغزيرة والطويلةَ بحيثُ تجلّلُ كتفيه، كانت بيضاء بالكاملِ؛ قلنا في عينه تلك، على شاكلة ما يحدثُ في الأعضاء التي يشحذُها المرء بالدّربة على حسابِ غيرها من الحواس، تركَّزَ كلّ النّشاط والسّداد والقوّة والذّكاء التي كانت فيما مضى منتشرةً في سائر الجسد والرّوح. صحيحٌ أنّ الرّجلَ قد حُرمَ حركةَ الذّراع، وصوتَ الكلام، وتهيّؤَ الجسد للفعل، لكنَّ العينَ القويّة قد قامت مقام ذلك كلّه. صار يأمرُ بعينيه؛ ويشكر بعينيه؛ كان جثّةً بعينين حيّتين، ولا شيءَ كان يضاهي رعبًا الوجهَ الجامدَ الذي يتّقدُ جزؤه العلويُّ أحيانًا بشرارة الغضب، أو يقدح بوميض الفرح. وثلاثة أشخاصٍ فقط كانوا قادرين على فهم كلام المشلول المسكين: فيلفور، وفالانتين، والخادم الطيّبُ الذي ذكرناه آنفًا. ولكن بما أنّ فيلفور لم يكن يرى أباه إلا نادرًا، ولنقل بلا مواربة إنّه لم يكن يراه إلا متى لم يجد عن الأمر مندوحةً؛ وإن رآه لا يبذل جهدًا في فهمه، فإنّ سعادة الشّيخ كانت محصورةً في حفيدته فالانتين؛ وقد استطاعت الحفيدةُ بالصّبر والحبّ والتّفاني أن تبلغ مرتبةً في فهم جدّها، بحيث صارت تدرك من نظرة عينه فقط كلّ ما يفكّر فيه نوارتييه. فكانت تردّ على لغته الـ التي لا يستطيع فهمها أحدٌ سواها، بلغةٍ ضاجّةٍ، لغةٍ تستثمر فيها صوتَها وبدَنها وروحها بالجملة، بحيثُ تنشأ حواراتٌ حيّةٌ ما بين الصبيّة اليافعة والشّيخ الجامد الأشبه ما يكون بفخّارٍ يكادُ يتفتّتُ غبارًا، والذّي بالرّغم من وضعه ذاك كان لا يزالُ يتمتّع بعلمٍ وافرٍ وبصيرةٍ خارقة وإرادةٍ لا تقلّ قوّةً عن نفسِه المسجونة في مادّة ما عادت تقدر على تطويعها.

لقد عالجت فالانتين إذن مشكلة فهم ما يفكّر فيه الشّيخ حتّى تستطيع إيصال أفكارها هي إليه؛ وبفضل دراستها المعمّقة في أسلوبِ تعبيره، ندُر ألّا تخمّنَ من المحاولة الأولى ما تريدُه تلك الرّوح الحيّةُ أو يحتاجُه الجسدُ نصف الميّت. أمّا الخادمُ، فبما أنّه، كما أسلفنا، قد أمضى في خدمة نوارتييه عشرين عامًا، فقد كان يعرفُ كلّ عاداته، حتّى إنّ الشّيخ نادرًا ما يحتاج إلى أن يسأله أمرًا.

لم يكن فيلفور إذًا بحاجة لا إلى هذا ولا إلى تلك، لكي يبدأ مع أبيه الحديث الغريب الذي قصده فيه، إذ كما قلنا كان وكيل الملك أيضًا ملمًّا بطريقة التّواصل مع أبيه؛ وإن لم يكن يتحدّث إليه فليس مردّ ذلك إلى الجهل بسبيل التّواصل، وإنّما إلى الضّجر واللامبالاة. ترك إذًا فيلفور فالانتين تنزل إلى الحديقة، وأبعدَ باروا، ثمّ بعد أن اتّخذ موضعه عن يمين أبيه، وجلست امرأتُه عن شمالِ الشّيخ، قال:

- سيّدي، لا تعجب أن غابت فالانتين أو صرفتُ باروا، فالحديث الذي أريدُك فيه ليس من قبيل الأحاديث التي يمكن أن تحضرها صبيّةٌ أو خادم؛ نريد أنا والسيّدة فيلفور أن نطلعك على خبر.

وأثناء هذه الدّيباجة التي مهّد بها فيلفور إلى الحديث ظلَّ وجه نوارتييه جامدًا بينما عينُ ابنه تبدو كأنّما حاولت النّفاذ فيه حتّى أعماق قلبه.

واصل وكيل الملك بنبرته الباردة التي يبدو أنّها لا تقبل أن يُعترَض عليها: - إنّ القرار الذي سنبلغك به أنا والسيّدة دو فيلفور، لا نشكُّ في أنّه سيلقى عندك الموافقة.

ظلّت عين الشيّخ ساكنة. كان ينصتُ وفقط.

استأنف فيلفور: - سنزوّجُ فالانتين.

ولو أنّ الوجهَ كان وجهَ شمع لما ظلَّ في جمودِ وجه الشّيخ.

واصل فيلفور: - سيتمُّ الزّواج بعد ثلاثة أشهر.

ظلّت عينُ الشّيخ ساكنة. بادرت السيّدة دو فيلفور إلى الكلام، فسارعت تقول: - حسبنا أنّ هذا الخبر يهمّك يا سيّدي؛ خاصّة أنّ فالانتين لطالما بدت محطّ عطفك؛ لم يبقَ لنا إذًا إلا أن نطلعك على اسم الشّاب الموعود أن يتزوّج بها. إنّه أحد أشرف الشّباب الذين يمكن أن تطمح إلى الزّواج منهم؛ إنّه شابٌّ اجتمعت له الثروة، والنّبالة، والذّوق الرّفيع. ثمّ لا بدّ أنّ اسمه ليس بالغريب عنك. إنّه السيّد فرانز دو كونيل، بارون إيبيناي.

بينما كانت زوجتُه تتكلّمُ، كان السيّد دو فليفور يُمعن النّظر في أبيه بأكبر قدرٍ من العناية. وحين نطقت السيّدة دو فيلفور اسم فرانز، ارتجفت العينُ التي يعرفُها الابنُ حقّ المعرفة، واتّسع الجفنان كأنّهما شفتان تريدان أن تطلقا كلمةً، لكن بدلًا من الكلام أطلقا وميضًا.

ولأنّ وكيل الملك كان على دراية بما جمع أباه ووالدَ فرانز من عداوةٍ سياسية قديمًا، فقد أدرك سرّ النّار التي اتّقدت في العين والاضطراب الذي اعتراها؛ لكنّه تظاهر بأنّه لم يلحظ شيئًا وواصل الحديث من حيث فصلتُه زوجتُه.

قال: - سيّدي، تعلم أنّ من المهمّ لفالانتين، وقد شارفت ربيعَها التّاسع عشر، أن تستقرَّ في بيتها. غير أنّنا لم ننسَ أمرك في اتّفاقنا، فحرصنا على أن يوافق الزّوجُ، إن لم يستطع أن يعيش بالقرب منّا، أن تعيش أنت بالقرب منهما، فيظلُّ لقاؤك بفالانتين متيسّرًا، ولا تفقد شيئًا من عاداتك، لا بل سيكون لديك ابنانِ، ولدٌ وبنتٌ يرعيانك، بعدما لم يكن عندك إلا بنتٌ واحدة.

صار بريقُ نظرة نوارتييه دمويًا. قطعًا كان يجري في نفس الشّيخِ أمرٌ رهيبٌ؛ قطعًا كانت صيحةٌ تصعدُ من أعماقه إلى حنجرته، وإذ يعجز عن إطلاقها، تخنقه، فيصطبغ وجهه بالحمرة وشفتاه بالزّرقة.

فتح فيلفور بهدوءٍ إحدى النّوافذ، قائلًا:

- إنّ الجوَّ حارٌّ هنا، والحرُّ يؤذي السيّدَ نوارتييه.

ثمّ عاد، لكن من دون أن يجلس.

أضافت السيّدة دو فيلفور: - إنّ هذا الزّواج يسعد السيّد ديبيناي وعائلته؛ وبالمناسبة، عائلته تتكوّن فقط من عمٍّ وعمّة. ذاك أنّ أمّه توفيت ساعة إنجابه، وأباه قُتل سنة 1815، أي لمّا كان في عمره عامان بالكاد؛ فهو إذًا سيّدُ قراره.

قال فيلفور: - اغتيالٌ غامض، ظلّ مرتكبوه مجهولين، ولو أنّ الشّكوك حامت حول الكثيرين.

بذل نوارتييه جهدًا كبيرًا حتّى بدا على شفتيه خيالُ ابتسامة.

واصل فيلفور: – غير أنّ المذنبين الفعليّين، أولئك الذين يعرفون أنّهم قد ارتكبوا جرمًا، أولئك سيسعدهم أن يكونوا مكاننا، أي أن تكون لهم صبيّةٌ يقدّمونها للسيّد فرانز ديبيناي حتّى يدفعوا عن أنفسهم كلّ أثرٍ للشّبهة.

هدأ نوارتييه بقوّةٍ غير متوقّعة؛ ثمّ أجاب بنظرته: «نعم، أتفهّمك»؛ وكانت نظرته تعبّرُ عن ازدراءٍ عميقٍ وغضبٍ متعقّل.

أجاب فيلفور النّظرةَ التي قرأ فحواها، بهزّةٍ خفيفة من كتفيه. ثمّ أشار إلى زوجته أن تقوم.

قالت السيدة دو فيلفور: – والآن، تقبّل يا سيّدي احتراماتي. هل تريد أن أبعث إليك بإدوارد ليحيّيك؟

وكان المألوف أن يعبّر الشّيخُ عن موافقته بغلق عينيه معًا، وعن رفضه بغلقهما وفتحهما مرّاتٍ متتاليةً؛ وإن رغب في شيءٍ رفعهما إلى السّماء. يطلب فالانتين بإغماض عينه اليمنى، وباروا بإغماض اليسرى. فأجاب عرضَ السيّدة فيلفور بأن أغمض عينيه وفتحهما بسرعةٍ مرّاتٍ عديدة؛ وعلى الرّغم من أنّ رفضَه طلب السيّدة دو فيلفور كان متوقّعًا، إلا أنّها عضّت على شفتِها.

قالت:– فأبعثُ لك بفالانتين؟

أجابها الشّيخُ بأن أغمض عينيه علامةَ الموافقة.

حيّا السيّدُ والسيّدةُ فيلفور السيّدَ نوارتييه، ثمّ انصرفا آمرين بأن يُنادى على فالانتين التي كانت على علم مسبقٍ بأنّ ثمّة أمرًا مهمًّا ينتظرها بجانب السيّد نوارتييه.

وبعدما خرجَ وكيلُ الملك وزوجته دخلت على الشّيخ فالانتين، ولونها لا يزال مضرّجًا من الانفعال. ولم تحتج سوى نظرةٍ لتدركَ حجم المعاناة التي يقاسيها جدّها، وكمّ الأشياء التي يُنتظر أن يحكيها لها.

صاحت: – أوه! ما الذي حدث لك يا بابا الطيّب؟ لقد أغضبوك؛ أنت غاضبٌ أليس كذلك؟

أغمض عينيه موافقًا: - نعم!
- غاضبٌ ممّن؟ من أبي؟ من السيّدة دو فيلفور؟ كلّا؛ منّي؟
أشار لها الشّيخُ أن نعم.
فواصلت مندهشةً: - غاضبٌ منّي أنا؟
كرّر الشّيخُ إشارة الموافقة.
صاحت فالانتين: - وما الذي فعلتُه لأستحقّ غضبك يا بابا العزيز؟
لم تلقَ جوابًا، فواصلت: - لم أرَك طيلة النّهار؛ لا بدّ إذًا أنّهم قد أبلغوك بشيءٍ عنّي؟
قالت نظرةُ الشّيخ: - نعم.
- لنرَ إذًا. إلهي... آه! السيّد والسيّدة دو فيلفور قد خرجا لتوّهما من هنا، أليس كذلك؟
- نعم.
- وهما من أخبرك بالشيّء الذي تسبّب في انزعاجك؟ ماذا قالا؟ هل تحبُّ أن أسألهما لأعرفَ، فأعتذر منك؟
أجابت نظرة الشّيخ: - كلّا، كلّا.
- إنّ نظرتك تخيفني. ما الذي قالاه عنّي يا إلهي!
فكّرت قليلًا ثمّ قالت وهي تدنو من الشّيخ خافضةً صوتَها: - أوه! عرفت. ربّما حدّثاك في أمر زواجي؟
أجابتها النّظرةُ الغاضبة: - نعم.
- فهمت؛ تلومني على صمتي؛ لكنّهما أوصياني بألّا أقول لك شيئًا؛ فأنا نفسي لم يخبراني بالأمر، إنّما كشفتُه صدفةً؛ لهذا تردّدت في إطلاعك. سامحني يا بابا العزيز نوارتييه.
استعادت النّظرة ثباتها وهدوءها، وبدا أنّها تقول: «ليس صمتُك فقط ما يحزنني».
سألته الشّابة: - وماذا يحزنك غير ذلك؟ ربّما حسبت يا جدّي أنّني سوف أتخلّى عنك، وأنّ زواجي المرتقب يحوّلني إلى جاحدة؟

أشار الشّيخ: «كلّا».

- هل أخبروك إذًا أنّ السيّد ديبيناي موافق على أن تقيم معنا؟

- نعم.

- لمَ أنت غاضبٌ إذًا؟

اِتّخذت عينا الشّيخ تعبير عذوبةٍ لا حدَّ له.

قالت فالانتين: - بلى، فهمت؛ أنت منزعجٌ لأنّك تحبّني؟

أشار لها الشّيخ أن نعم.

- وتخشى أن يتعسني هذا الزّواج؟

- نعم.

- أنت لا تحبُّ السيّد فرانز ديبيناي إذًا؟

كرّر الشّيخ بعينيه ثلاث مرّاتٍ أو أربع: «كلّا، كلّا، كلّا».

- وهذا ما يحزنك؟

- نعم.

قالت فالانتين وهي تجثو على ركبتيها أمام نوارتييه وتطوّق عنقه بذراعيها: - حسنًا، اصغِ إليّ، أنا أيضًا لا أحبُّ السيّد فرانز ديبيناي.

لمعت عينا الجدّ ببريق فرح خاطف.

- هل تذكر حين أردتُ أن ألتحق بالدّير، فغضبتَ من قراري؟

بلّلت دمعةٌ جفنَ الشّيخ اليابسَ.

واصلت فالانتين: - لقد اتّخذتُ قراري ذاك لأفلت من ذاك الزّواج الذي كان فيه شقائي.

اشتدّ تنفّس نوارتييه وانقلب لهاثًا.

- هذا الزّواج إذًا يحزنك يا أبي العزيز؟ يا إلهي، لو أنّك تستطيع مساعدتي، لو أنّ بمقدورنا معًا أن نُفسد مشروعهم! لكنّك بلا حولٍ ولا قوّةٍ أمامهم؛ إنّ ذهنك متوقّد وإرادتك حازمة، لكن حين يتعلّق الأمر بالصّراع فإنّك واهنٌ، لا بل أشدّ وهنًا منّي؟ وا أسفًا! كنت لتكون لي خير الحامي أيّامَ بأسِك وعافيتك؛ لكن اليوم لم يعد بإمكانك إلّا أن تفهم ما

بي، فتحزن لحزني وتفرح لفرحي. وهذه هي السّعادة الباقية التي أغفل الرّبُ أن يحرمني منها، كما حرمني سواها.

كان لوقع كلماتها تلك في عيني نوارتييه تعبيرُ دهاءٍ عميقٍ، حتّى إنّ الصبية قد حسبت أنّها تقرأ فيهما هذه الكلمات:

«أنت مخطئةٌ، ما زلت أستطيع مساعدتك بالكثير».

ترجمت فالانتين ما تقرأه في عينَي جدّها: - تستطيعُ أن تفعل لأجلي شيئًا يا جدّي؟

- نعم.

رفع نوارتييه عينيه إلى السّماء. وكانت تلك الإشارة المتّفق عليها بينه وبين فالانتين إن كان يريدُ شيئًا.

«ماذا تريد يا جدّي؟

فكّرت فالانتين لحظةً، وعبّرت بصوتٍ مرتفع عن كلّ ما جال بخاطرها، لكنّ الشّيخ كان يجيب كلّ مرّةً على اقتراحاتها نافيًا.

قالت: - ما دُمتُ خرقاء إلى هذه الدّرجة، فلنلجأ إلى الوسائل الكبرى.

بدأت تتلو حروف الأبجدية، حرفًا حرفًا، من الألف إلى الياء، بينما ابتسامتُها تسائلُ عينَ الرّجل المشلول؛ وحين بلغت حرف م، أشار إليها نوارتييه أنْ نعم.

قالت: - آه! الشّيء الذي ترغب فيه يبدأ بحرف م! يجب أن نتوجّه إذًا إلى حرف الميم؟ حسنًا لنرى أيّ تركيبةٍ من حرف ميم تطلُبها: ما، مي، مو؟

أجاب الشّيخ: - نعم، نعم، نعم!

- آه! الكلمة تبدأ بـ: مو؟

- نعم.

التمست فالانتين قاموسًا، وضعته على طاولةٍ أمام نوارتييه. فتحته، وحين ثبّتت نظرة الشّيخ على الصّفحات، بدأت تحرّك أصبعها بسرعة

على الأعمدة من فوق إلى تحت. ومنذُ أن أصيب نوارتييه بدائه الذي عطّل قواهُ، وهو يمارسُ هذا الفعل مع حفيدته، حتّى مَهرا فيه معًا، وصارت الصبيّةُ تخمّن بسرعةٍ ما يفكّر فيه جدّها، وكأنّما يبحث هو بنفسه في القاموس.

حين بلغ أصبعها كلمة موثّق أشار لها أن تتوقّف.

قالت: - موثّق؛ تريدُ موثّقًا يا بابا العزيز؟

أشار لها الشّيخُ بأنّ الموثّق فعلًا هو طلبُه.

سألت الصبيّةُ جدّها: - هل أرسلُ في طلب موثّق؟

فأجابها: - نعم.

- وهل أُخبر أبي؟

- نعم.

- تريدُ موثّقكَ على وجه السّرعة؟

- نعم.

- سوف نرسل في طلبه إذًا، يا أبي العزيز. أهذا كلّ ما تريدُه؟

- نعم.

هرعت فالانتين إلى الجرس ونادت خادمًا فطلبت منه أن يستدعيَ إلى غرفة الجدِّ السيّدَ أو السّيدةَ دو فيلفور.

قالت فالانتين: -هل أنت سعيد؟ نعم.. أظنُّ ذلك. أليس كذلك؟ لم يكن الأمر سهلًا؟

وابتسمت الصبيّةُ لجدّها ابتسامتَها لطفلٍ.

دخل السيّد دو فيلفور يصطحبه باروا.

سألَ الرّجل المشلول: - ما الذي تريدُه يا سيّدي؟

قالت فالانتين: - جدّي يطلبُ موثّقًا.

نظر فيلفور إلى والده نظرةً متسائلةً عن الطّلب الغريب وغير المتوقّع.

قال إشارةً «نعم»، بحزم يبينُ أنّهُ، بمساعدةٍ من فالانتين وخادمه المسنِّ الذي يعرفُ ما يريدُه سيّدَه، جاهزٌ لبدء الصّراع.

ردّد فيلفور: - هل تريدُ الموثّق؟
- نعم.
- لماذا؟
لم يحر نوارتييه جوابًا.
سأله فيلفور مرّةً أخرى: - وفيمَ تحتاجُ موثّقًا؟
ظلّت نظرةُ الرّجل المشلول ساكنةً، وبالتّالي صامتةً، ممّا يعني: «أنا مُصرٌّ في قولي».
قال فيلفور: - تحضّرُ لنا مكيدةً؟ هل الأمرُ يستحقُّ؟
قال باروا بالإصرار المألوف في الخدم الذي قضوا مدّةً طويلةً في الخدمة: - إذا ما كان سيّدي يريدُ موثّقًا، فَلا بدَّ أنّه يحتاجه. لذا سوف أطلب له الموثّق.
ولم يكن باروا يعترف بغير نوارتييه سيّدًا، ولا يقبل أن تُعارض إرادتُه.
قال الشّيخُ: «نعم، أريدُ موثّقًا»، مغمضًا عينيه متحدّيًا، كأنّما يقول: «لنرَ هل ثمّة من سيجرؤ على رفضِ طلبي».
قال فيلفور: - ما دمتَ يا سيّدي تريد موثّقًا، فسوف نأتيك بموثّق؛ غير أنّني سأعتذر له مثلما ستعتذر أنت، لأنّ المشهد سيكون مثيرًا للسخرية.
قال باروا: - لا يهمُّ! سوف أذهبُ في طلب موثّق.
ثمّ خرجَ الخادمُ المسنُّ منتصرًا.

59

الوصية

لحظةَ خرج باروا نظر نوارتييه إلى فالانتين بنظرة من تلك النّظرات الماكرة التي تفصح عن أمور كثيرة. فهمت الصبيّة المراد من النّظرة، وكذالك فهمَه فيلفور، إذ تغضّن جبينُه وقطّب حاجبه.

تناول كرسيًا وجلس عليه منتظرًا في غرفة الرّجل المشلول. نظر إليه نوارتييه بلا مبالاة تامّة؛ وبطرفٍ خفيٍّ أمر فالانتين ألّا تقلق وأن تمكث بالغرفة.

وبعد ثلاثة أرباع السّاعة دخل الخادم وفي إثره الموثق.

وبعد التّحية بادر فيلفور الموثّقَ:- سيّدي لقد استدعاك السيّد نوارتييه دو فيلفور، الماثل أمامك؛ إنّ شللًا عامًّا قد حرمه استعمالَ أطرافه وصوته، ونحنُ فقط، وبمشقّةٍ بالغةٍ، نستطيع أن ندركَ نُتفًا من أفكاره.

بعينه طلب الشّيخُ فالانتين، وكان طلبُه صارمًا آمرًا، حتّى إنّ الصبيّة أجابته من فورها: - أنا يا سيّدي، أفهم كلّ ما يقولُه جدّي.

أضاف باروا: - إنّها تستطيع أن تفهم كلّ ما يقوله، كلّ ما يقوله، كما أخبرتُك ونحن في الطريق يا سيّدي.

قال الموثّقُ متوجّهًا بالكلام إلى فيلفور وفالانتين: - عذرًا يا سيّدي، عذرا يا آنستي، إنّنا هنا أمام واحدةٍ من تلك الحالات التي لا يستطيع موظّفُ العدل أن يزاول فيها مهماته من دون أن يتحمّل مسؤوليةً خطيرةً. إنّ أوّل شروط مصداقية عقدٍ من العقود هو أن يكون الموثّق متأكّدًا من أنّه قد أوّل بأمانةٍ ما يريدُه صاحبه. والحالُ أنّني، أنا، لا أستطيع أن أجزم

في موافقة أو عدمِ موافقة زبونٍ لا يتكلّم؛ وما دمنا لا نستطيعُ أن نبرهن بوضوحٍ، على ما يريده وما يرفضه السيّد نوارتييه، بسبب عجزه عن الكلام، فإنّ عملي سيكون بلا فائدة، لا بل سيكون غير قانونيّ.

خطا الموثّقُ خطوةً لينصرف، فارتسمت على شفتيّ وكيل الملك ابتسامةُ انتصارٍ. ونظر نوارتييه إلى فالانتين بتعبير وجعٍ، حتّى إنّها وقفت في طريق الموثّق.

قالت: - سيّدي، إنّ اللّغة التي أتحدّث بها مع جدّي من البساطة بمكانٍ، وتستطيع تعلّمها بسهولة، ومثلما أفهمها أنا، ستستطيع أنت أيضًا أن تفهمها في ثوانٍ. ما الذي تحتاجُه يا سيّدي ليطمئنّ ضميرك؟

أجابها الموثّق: - إنّ ما هو ضروريّ يا آنسة لكي تتّسم أفعالنا بالمصداقية، هي أن نتيقّن من الموافقة أو عدم الموافقة. قد نتأكّد من أنّ المريض سليمُ الجسد، لكن كيف نتأكّد من سلامته العقلية؟

- حسنًا يا سيّدي، بإشارتين فقط تستطيع أن تتيقّن من أنّ جدّي لم يتمتّع قطّ في حياته بهذا القدر من الحصافة التي يتمتّع بها الآن. إنّ السيّد نوارتييه منذ أن حُرم الصّوت صار يقول نعم بغمضة مع عينيه، ويقول لا بغمضاتٍ متتالية. تعرف الآن ما يكفي لتعقد تواصلًا مع السيّد نوارتييه؛ فلتحاول.

كانت النّظرة التي نظر بها الشّيخُ إلى فالانتين تقطر عذوبةً وعرفانًا، حتّى إنّ الموثّق نفسَه أدركها.

قال: - هل سمعت ووَعيتَ ما قالته حفيدتك يا سيّدي؟

أغمض نوارتييه عينيه وفتحهما بعد لحظة.

- وتصادقُ على ما قالته؟ أي إنّ الإشارات التي حدّدَتها هي بالفعل الإشارات التي تعتمدُها أنت في إيصال أفكارك؟

أغمض الشّيخ مرّةً أخرى: «نعم».

- هل أرسلت في طلبي؟

- نعم.
- لكتابة وصيّتك؟
- نعم.
- ألا تريديني أن أنصرف من دون أن أكتب هذه الوصيّة؟
أغمض المشلول عينيه بسرعةٍ مرّاتٍ عديدة.
سألت الصبيّةُ الموثّق: - حسنًا، هل صرت تفهم الآن؟ هل ضميرك مرتاح؟
لكن قبل أن يجيب، انتحى به فيلفور جانبًا، وقال له:
- سيّدي، هل تظنُّ أنّ رجلًا يستطيع أن يتحمّل ضربةً رهيبةً كتلك التي أصابت جسد السيّد نوارتييه، من غير أن يمتدّ تأثيرها إلى عقله؟
أجابه الموثّقُ: - ليس هذا تحديدًا ما يقلقني يا سيّدي، وإنّما أتساءلُ كيف السّبيل إلى استخراج أفكاره منه حتّى نسأله الموافقة عليها أو رفضها؟
أجابه فيلفور: - ها أنت ترى إذًا أنّ الأمر مستحيلٌ يا سيّدي.
كان الشّيخ وفالانتين يتوقّعان هذا الكلام. سمّر نوارتييه نظرتَه ثابتةً وحازمةً في فالانتين، حتى إنّها اضطرّت للتدّخل فورًا:
قالت: -سيّدي، لا داعي لأن تقلق بهذا الصّدد. مهما بدا لك صعبًا التّواصل مع جدّي، إلا أنّني سأطلعك على طريقة بسيطة تعرف بها أفكارَه بشكلٍ يرفع أيّ لبس. منذ ستّ سنواتٍ وأنا أعتني بجدّي، وليخبرك بنفسه ما إذا كانت قد بقيَت في نفسه، طيلة السّنوات الستّ، رغبةٌ بباعثٍ من قصوري عن فهم مراده؟
أشار نوارتييه: - لا.
قال الموثّقُ: - لنحاول إذًا؛ هل تقبل يا سيّدي الآنسةَ مترجمةً لك؟
أشار المشلول أن نعم.
- حسنًا؛ لنرَ يا سيّدي: ماذا تريد منّي؟ أيّ عقدٍ تريديني أن أحرّرَه؟

تلت فالانتين الحروف كلّها حتّى بلغت حرف الواو، فأوقفتها إغماضةُ نوارتييه.

قال الموثّقُ: - السيّد نوارتييه يقصد كلمة تبدأ بحرف و؛ الأمر واضحٌ.

قالت فالانتين: - مهلًا يا سيّدي! (ثمّ استدارت صوب جدّها) مكملة اللّعبة. وحين وقفت على أوّل أصوات الكلمة المطلوبة، تناولت القاموس، وأمام عيني الموثّق المذهولتين عرضت على جدّها صفحاته.

أوقفتها نظرةُ نوارتييه حين بلغت كلمة «وصية».

صاح الموثّق: - الوصية! الأمر واضحٌ: إنّ السيّد يريد أن يكتب وصيّته.

أكّد نوارتييه: - نعم.

قال الموثّق لفيلفور الذي كان يتابع المشهد مذهولًا: - رائعٌ، أليس كذلك؟

أجاب وكيلُ الملك: - صحيحٌ؛ والأعجبُ منه ما ستكون عليه هذه الوصيّةُ، إذ لا أحسبُ أنّكم ستكتبون بنود العقد كلمةً كلمةً بالاعتماد على طريقة ابنتي. غير أنّني أظنُّ أنّها تبذلُ أكثر من جهدها في تأويل أفكار السيّد نوارتييه دو فيلفور المبهمة، ما دامت الوصيّةُ تهمّها بالأساس.

أشار المشلول: «كلّا، كلّا!».

قال فيلفور: - كيف؟ أليست فالانتين معنيّةً بالوصية؟

أشار نوارتييه: «كلّا!».

قال الموثّق مفتونًا بما يجري، وعازمًا على أن يحكي في كلّ مكان تجربته الرّائعة هذه: - سيّدي، بعد ما شاهدتُه لم يعد ثمّة شيءٌ يبدو لي مستحيلًا. إنّ هذه الوصية ستكون وصيةً محجوبةً، أي وصيّةً يقبلها القانون ويجيزها، شرطَ أن تُقرأ أمام سبعة شهودٍ، ويصادق عليها الموصّي أمامهم، ويُغلقُها الموثّقُ أمامهم. أمّا من حيث الوقت، فلن تحتاج صياغتها أكثر ممّا تحتاجه الوصية العادية إلا بقليل؛ هناك

أوّلًا الصيغُ المحفوظة التي لا تتغيّر، أمّا التّفاصيل فنأخذها من الوثائق الرّسمية ومنكم أنتم الذين تعرفون الموصّي وعايشتموه. ولكي نمنح الوصيّة كامل الصبغة القانونية فسوف أشرك معي زميلًا يشهد عليّ، ويتابع، على غير العادة، عملية الإملاء. (ثمّ واصل متوجّهًا بالكلام إلى الشّيخ) هل أنت راضٍ يا سيّدي؟

أجاب نوارتييه موافقًا، وقد أشرق وجهه لأَنّه أوصل ما يرغب في إيصاله.

تساءل فيلفور - ما الذي ينوي فعله؟، وكان مركزُه يفرض عليه الاحتياط؛ ثمّ إنّه لم يكن يدري شيئًا عن نيات أبيه.

استدار لكي يرسل في طلب الموثّق الثاني الذي حدّدَه الموثّقُ الأوّل؛ غير أنّ باروا، الذي كان قد تابع كلّ شيءٍ واطّلع على رغبة سيّده، كان قد انطلق يطلب الموثّق. فكان أن أرسل وكيل الملك في طلب زوجته.

وما هي إلا ربع ساعةٍ حتّى كان الجميع قد اجتمعوا في غرفة المشلول، ووصل الموثّق الثاني.

تبادل موظّفا العدل بضع كلمات، فاتّفقا. قُرِئ على نوارتييه نموذج وصيّة عادي وعامّ؛ ثمّ لكي يفحص رجاحة عقل الرّجلِ، استدار الموثّق الثاني شطرَه، وقال:

- سيّدي، إنّ من يكتب وصيّتَه، إنّما يكتبها لفائدة طرفٍ ما.

أشار نوارتييه: «نعم».

- هل لديك علمٌ بحجم ثروتك؟

«نعم».

- سوف أتلو عليك أرقامًا تصاعدية، وحين أبلغ الرّقم الصّحيح أوقفني.

«نعم».

كان في التّجربة شيءٌ من مهابةٍ، ذاك أنّ لا أحد من قبل استطاع أن

يشهد، بهذا الوضوح، الصّراع الخفيّ بين الذّكاء والمادّة؛ وعليه كان المشهدُ، كما أسلفنا، مهيبًا، أو أقلّه كان مثيرًا للاهتمام.

تحلّقَ الجمعُ حول نوارتييه، وكان الموثّق الثاني يجلس على طاولةٍ مستعدًا للكتابة؛ بينما الأوّل واقفًا بإزائه يسائلُه:

- ثروتُك تتجاوز ثلاثمائة ألف فرنك، أليس كذلك؟

أشار نوارتييه أنْ نعم.

سأله الموثّق: - هل تملك أربعمائة ألف فرنك؟

ظلّ الشّيخ ساكنًا.

- خمسمائة ألف.

ظلّ على سكونه.

- ستّمائة ألف؛ سبعمائة ألف؛ ثمانمائة ألف؛ تسعمائة ألف؟

أشار نوارتييه أن نعم.

- تملك تسعمائة ألف فرنك؟

- نعم.

سأله الموثّقُ: - في شكل عقارات؟

أشار نوارتييه أن لا.

- في شكل أصول وسندات؟

أشار نوارتييه أن نعم.

- وهل هذه الأصول طوع يدك؟

وبإشارة من عين الشّيخِ خرج الخادم باروا، ثمّ عاد بعد لحظةٍ يحملُ علبةً صغيرة.

سألَ الموثّق: - هل تسمح لنا أن نفتح هذه العلبة؟

أشار الشّيخ أن نعم.

فتحوا العلبة، فوجدوا فيها سجلًا عامًّا مدوّنة فيه أصولٌ بقيمة تسعمائة ألف فرنك.

راجعِ الموثّق مع زميله الأصولَ واحدًا بعد آخر، وكان الحسابُ مضبوطًا كما حدّده السيّد نوارتييه.

قال الموثّق: - الأمر كما حدّده الشّيخُ، ويبدو فعلًا أنّ رجاحة عقله لا يرقى إليها شكٌّ.

ثمّ استدار شطر الرّجل المشلول وقال له: - أنت إذًا تملك رأسمالًا من الأصول قدرُه تسعمائة ألف فرنك؛ وبالشّكل الذي تستثمره به يُفترض أن يعود عليك بأربعين ألف جنيه تقريبًا في السنّة؟

أشار نوارتييه أن نعم.

- لمن إذًا توصي بهذا المال؟

قالت السيّدة فيلفور: - أوه! لا حاجة إلى هذا السّؤال، إنّ السيّد نوارتييه لا يحبُّ إلا حفيدتَه، السيّدة فالانتين دو فيلفور. هي من يعتني به منذ ستّ سنواتٍ؛ لقد استطاعت بتفانيها في العناية بجدِّها أن تستحوذ على عطفه، لا بل قد أقول على عرفانه؛ من العدل إذًا أن تجنيَ ثمارَ إخلاصها.

أطلقت عينُ نوارتييه شرارًا كإشارةً إلى أنّه لم ينطوِ عليه كذبُ السيّدة دو فيلفور وادّعاؤها.

سأله الموثّقُ: - هل توصي بمالك إذًا للآنسة دو فيلفور؟ ظنًّا منه أنّ الأمر قد انتهى، والعقد صار جاهزًا، ولم يبقَ له إلا أن يؤكّد له الموصي موافقته، فيُشهِد عليه الحضورَ.

تراجعت فالانتين خطوةً إلى الخلف، وأخذت تبكي خافضة العينين؛ نظر إليها الشّيخ نظرةً عميقةً مفعمة بالحنان؛ ثمّ وجّه نظرته صوب الموثّق وأغمض عينيه وفتحهما مرارًا بطريقةٍ شديدة الدّلالة.

قال الموثّق: - كلّا؟ ألا تريد أن تجعل من حفيدتك وريثك الوحيد؟

أشار نوارتييه أن لا.

صاح الموثّقُ مندهشًا: - لست مخطئًا. أنت تقولُ لا، أليس كذلك؟

أشار الشّيخ: نعم.

رفعت فالانتين رأسَها؛ كانت مذهولةً؛ ليس لأنّ جدّها حرمها الميراث، وإنّما لأنّها تساءلت عن دافعه لذلك.

لكنّ نوارتييه نظر إليها نظرةً تقطر حنانًا، حتّى صاحت:

- أوه! يا أبي العزيز، أرى أنّك تبعدني من الميراث وتقرّبني من قلبك، أليس كذلك؟

أشارت عينا الشّيخ موافقتين، بإشارةٍ لا يمكن لفالانتين أن تخطئها.

همست الصبيّةُ: - شكرًا! شكرًا!

على أنّ القرار الغريب ولّد في نفس السيّدة دو فيلفور أملًا غير منتظر؛ فدنت من الشّيخ.

سألته: - هل توصي بمالك إذًا لحفيدك إدوارد، يا سيّدي العزيز نوارتييه؟

كانت حركة الرّفض رهيبةً، تكادُ تنطق بالكراهية.

قال الموثّق: - كلا؛ إذًا لابنك السيّد فيلفور الحاضر بيننا؟

أجاب الشّيخ: - لا.

تبادل الموثّقان النّظر مذهولين؛ وشعر فيلفور وزوجته بأنّهما يحمرّان، هو من الخزي وهي من الغضب.

قالت فالانتين: - لكن، ما الذي فعلناه يا أبي؟ ألم تعد تحبّنا؟

مرّت نظرةُ الشّيخ سريعًا على ولده وزوجة ولده، ثمّ استقرّت على فالانتين ترمقها بحنانٍ بالغ.

قالت: - حسنًا يا أبي، إن كنتَ حقًّا تحبّني، فاجعل حبّك ينعكس فيما تفعله الآن. أنت تعرفني حقّ المعرفة، وتعلم أنّني لم أفكّر يومًا في ثروتك. ثمّ يُقال إنّني غنيّةٌ من جهة أمّي، غنيّةٌ جدًا؛ اشرح لنا إذًا موقفك.

ثبّت نوارتييه نظرته الحارقة على يد فالانتين.

قالت:- يدي؟

أجاب نوارتييه: نعم.

ردّد الحضور جميعًا: - يدُها!

قال فيلفور: - آه! ها أنتما تريان يا سيّداي أنّ لا فائدةَ، وأنّ أبي المسكين فاقدٌ عقلَه.

صاحت فالانتين فجأةً: - أوه! فهمت! تقصدُ زواجي، أليس كذلك يا أبي العزيز؟

أجاب المشلول موافقًا ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّةٍ يقول فيها نعم يرتفع جفنُه عن مقلةٍ ترمي بشرر.

- تلومنا على الزّواج، أليس كذلك؟

- نعم.

قال فيلفور: - لكن هذا أمر سخيف.

عارضَه الموثّق قائلًا: - عفوًا يا سيّدي، لكنّ كلّ شيءٍ يبدو لي منطقيًا.

- لا تريدني أن أتزوّج السيّد فرانز ديبيناي؟

قالت عينُ الشيخ: - كلّا، لا أريد.

صاح الموثّقُ: - تحرمُ إذًا حفيدتك من الميراث لأنّها تريد زواجًا لا تريدُه أنت؟

أجاب نوارتييه: - نعم.

- بحيث إنّها إن لم تتمّ هذا الزّواج فستصير وريثتك؟

- نعم.

خيّم إذّاك حول الشّيخ صمتٌ عميق.

انصرف الموثّقان إلى التّشاور؛ فالانتين شابكةً ذراعيها كانت تنظرُ إلى جدّها نظرة امتنانٍ؛ فيلفور يعضّ على شفتيه الرّقيقتين؛ والسيّدة فيلفور عاجزة عن كبت شعور فرحٍ يفيضُ به وجهها رغمًا عنها.

ثمّ كان فيلفور المبادر إلى فضّ الصّمت فقال: - لكنّني أرى أنّني وحدي المخوّل له أن يحكم في مدى مناسبة هذا الزّواج لابنتي؛ أنا وليّ

أمرها، ووحدي لي الحقّ في تزويجها، وأقول إنّها ستتزوّج السيّد فرانز ديبيناي.

هوت فالانتين على أريكةٍ باكيةً.

قال الموثّق للشّيخ: - سيّدي، ما الذي تنوي فعله بمالك في حال تزوّجت الآنسة فالانتين من السيّد فرانز؟

ظلّ الشّيخُ ساكنًا.

- هل تنوي أن توصي به لأحد ما؟

أجاب الشّيخُ: - نعم.

- فردٌ من عائلتك؟

- لا.

- توصي به للفقراء إذًا؟

- نعم.

قال الموثّق: - لكنّك تعلم أنّ القانون يمنعك من أن تحرم ابنك من الميراث كاملًا؟

- نعم.

- لا يمكنك إذًا أن تتبرّع إلا بالجزء الذي يخوّله لك القانون.

ظلّ الشّيخ ساكنًا.

- ما زلت مصرًا على التّبرع بالمال كاملًا.

- نعم.

- لكن بعد موتك سيُطعنُ في الوصية!

- كلّا.

قال السيّد دو فيلفور: - إنّ والدي يعرفُ أنّ إرادته ستكون مقدّسةً عندي؛ ثمّ إنّه يدركُ أنّ مركزي يمنعني من المرافعة ضدّ الشّعب.

ارتسم في عين نوارتييه الانتصارُ.

سأل الموثّقُ السيّدَ دو فيلفور: - ما الذي قرّرتَه يا سيّدي؟

– لا شيء، إنّه قرارٌ اتّخذه أبي، وأبي لن يغيّر أبدًا قرارَه. أسلّم إذًا بالأمر. سوف تخرج التسعمائة ألف فرنكٍ إذًا من أموال العائلة، لكي تُغنيَ المستشفيات؛ لكنّني أبدًا لن أوافق هوى الشّيخ، وسأزوّج ابنتي بما يمليه عليَّ ضميري.

ثمّ انسحب فيلفور مع زوجته تاركًا أباه يملي وصيّتَه كما يحلو له. وفي اليوم نفسه تمّت الوصيةُ؛ وأُرسلَ في طلب الشّهود، فشهدوا على الشّيخ وهو يصادق على مضمونها، ثمّ أُغلق عليها وأودعت عند السيّد ديشان، موثّق العائلة.

60

التلغراف

لمّا عادَ السيّد والسيّدة دو فيلفور إلى جناحهما، علِما أنَّ الكونت دومونت كريستو الذي أتاهما في زيارةٍ، قد أُدخل إلى الصّالون، حيث ينتظرهما؛ ولفرط انفعالها لم تكن السيّدة فيلفور تستطيع أن تدخل على الكونت مباشرةً، فعرجت في طريقها على غرفة نومها؛ أمّا وكيل الملك الذي كان أوثق منها تحكّمًا في نفسه، فقد تقدّم صوب الصالون مباشرةً. لكنّه وإن تحكّم في انفعالاته وملامح وجهه، إلا أنّه لم يستطع أن يطرد عن جبينه الغمامة التي كدّرته، حتّى إن الكونت الذي استقبله بابتسامةٍ باشّةٍ ومشرقةٍ، لم يغفل عمّا يلفُّ وكيلَ الملك من كدر.

قال الكونت بعد التحيّة والمجاملات: - أوه! يا إلهي! ما بك يا سيّدي فيلفور؟ هل أتيتك في لحظةٍ تُحضِّر فيها مرافعاتٍ خطيرةً؟

حاول فيلفور أن يبتسم.

قال: - كلّا يا سيّدي الكونت، ما من ضحيّةٍ هنا غيري. أنا من يخسر القضيّةَ، وإنّ الصدفة والعناد والجنون قد أطلقوا ضدّي لائحة الاتّهام.

سأله مونت كريستو باهتمامٍ بالَغَ في تصنّعه: - ماذا تقصد؟ هل أصابك مكروه؟

أجابه فيلفور بهدوءٍ ملؤُه المرارةُ: - أوه! يا سيّدي الكونت، إنّ الأمر لا يستحقُّ. لا شيء سوى خسارةٍ مالية بسيطة.

قال الكونت: - الحقّ أنّ خسارةً ماليةً تعدّ أمرًا هيّنًا حين يمتلك المرءُ ثروةً هائلةً كثروتك، وروحًا فلسفية مترفّعةً كروحك.

أجاب فيلفور: - ثمّ إنّ مسألة النّقود ليست هي ما أهتمُّ له، وإن كان مبلغ تسعمائة ألف فرنك ليس بالهيّن، وقد يخلّف ضياعه حسرةً، أو على الأقل أسفًا عابرًا. لكنّ ما أصابني حقًا هو حكمُ القدر، أو الصدفة، أو المصير، أو ما لستُ أعرف له اسمًا، أقصد حكم تلك الإرادة القويّة التي حرّكت الضّربة التي أصابتني وقلبت آمالي المالية وربّما دمّرت مستقبل ابنتي، وكلّ ذلك بسبب نزوةٍ من شيخ يهوي عائدًا إلى الطّفولة.

صاح الكونت: - إِه! يا إلهي! ماذا تقول؟ تسعمائة ألف فرنك؟ الحقُّ أنّه مبلغٌ يستحقُّ أن يُؤسفَ عليه حتّى من طرف فيلسوف. وما سبب حزنك هذا كلّه؟

- أبي الذي حدّثتك عنه.

- السيّد نوارتييه؛ حقًّا! لكنّك قلت لي، على ما أذكر، إنّه مشلول بالكامل، وإنّ ملكاته كلّها قد طالها الخراب؟

- أجل، ملكاته الجسدية، إذ لم يعد يستطيع حركةً أو كلامًا، لكنّه لا يزال يفكّر ويريد ويفعلُ كما ترى. لقد تركته منذ خمس دقائق، وهو الآن منهمكٌ في إملاء وصيّته على موثّقَين.

- هو إذًا يتحدّث؟

- يفعل ما هو أهمّ من الحديث، يوصل أفكارَه.

- وكيف؟

- بواسطة نظراته؛ إنّ عينيه لا تزالان حيّتين، وكما ترى تستطيعان أن تقتُلا.

وفي هذه اللّحظة دخلت السيّدة دو فيلفور فقالت:

- يا عزيزي، لعلّك تبالغ في ردّ فعلك؟

قال الكونت وهو ينحني: - سيّدتي...

ردّت السيّدة فيلفور التحيّة بأعذب ابتسامةٍ.

سألها الكونت: - لكن، ما هذا الذي أخبرني به السيّد دو فيلفور؟ وأيّ نكبةٍ غير مفهومة هي؟

قال وكيل الملك هازًّا كتفيه: - غير مفهومة، إنّه الوصف المناسب! نزوةُ شيخ!

- وما من طريقة لثنيه عن قراره؟

قالت السيّدة فيلفور: - بلى؛ وهو قرارٌ بيد زوجي. لكي تكون الوصية في صالح فالانتين، ينبغي أن يعدل زوجي عن قراره.

وإذ رأى الكونت أنّ الزّوجين قد صارا إلى الكلام بالرموز، اتّخذ هيئةً شاردة، وصار ينظر ببالغِ الاهتمام وشديدِ الاستحسان إلى إدوارد المنشغل بصبّ الحبر في مَشرَب الطّيور.

قال فيلفور مجيبًا زوجتَه: - عزيزتي، تعرفين أنّني لا أحبّ أن أبالغ في الوصاية على بيتي، ولا ظننتُ يومًا أنّ مصير العالم معلّق بإشارةٍ من رأسي. غير أنّي أحبُّ أن تُحترَم قراراتي داخل أسرتي، ولا أريد لحُمقِ شيخ أو نزوةِ طفلةٍ أن تهدمَ قرارًا اتّخذتُه ورعيتُه سنواتٍ طويلة في ذهني. إنّ البارون ديبيناي كان صديقي كما تعلمين، ولا أليَقَ لي من مصاهرةِ ابنه.

قالت السيّدة دو فيلفور: - وهل تظنُّ فالانتين متواطئةً معه؟... الحقُّ أنّها لطالما كانت ضدّ هذا الزّواج، ولا أستبعد أن يكون ما شهدناه وسمعناهُ تنفيذًا لخطّةٍ اتّفقا عليها معًا.

قال فيلفور: - صدّقيني يا سيّدتي، لا أحد يستغني بهذه البساطة عن ثروة قيمتُها تسعمائة ألف فرنك.

- قد تتخلّى عن العالم يا سيّدي، ما دامت كانت مستعدّة، منذ سنةٍ فقط، أن تلتحق بالرّهبنة.

واصل فيلفور: - أيًّا يكن، أقول إنّ هذا الزّواج سيتمُّ يا سيّدتي!

قالت السيّدة فيلفور عازفةً على وترٍ ثانٍ: - رغم إرادة والدك؟ هذا أمرٌ خطير!

كان مونت كريستو يتظاهرُ بأنّه لا يسمع شيئًا، ولا يكادُ في الواقع يُفلت من حديثهما كلمةً.

استأنف فيلفور: - سيّدتي، أستطيع أن أقول إنّني لطالما قدّرتُ والدي واحترمتُه، إذ بالإضافة إلى الشّعور الطّبيعي الذي يجمعني به، شعور الابن تجاه أبيه، لطالما قدّرتُ تفوّقه الفكريّ؛ ذاك أنّ الأب دائمًا ما يكون مقدّسًا من جانبين: مقدّسًا من حيث هو واهبنا الحياة، ومقدّسًا من حيثُ هو معلّمُنا؛ لكنّني اليوم مضطرٌّ إلى أن أكفّ عن تقدير حصافته، إذ كيف يعقل أن يحاسبَ الولدَ بذكرى كراهيةٍ جمعته بأبيه؛ سيكون من السّخف إذًا أن أوافقه في نزواته. سأظلّ على احترامي للسيّد نوارتييه، وسأقبل العقاب الماليّ الذي أنزلَه بي، لكنّني أبدًا لن أغيّر قراري. وللعالَم أن يقدّر من منّا كان أرجح عقلًا. والنّتيجة: سوف أزوّج ابنتي للبارونَ فرانز ديبيناي، لأنّ هذا الزّواج يبدو لي جيّدًا ومشرّفًا، ولأنّني في المحصّلة أريد أن أزوّج ابنتي إلى من يحلو لي.

قال الكونت بعدما ظلّت نظرةُ وكيل الملك تستحثّه على إبداء موافقته: - ماذا! تقول إنّ السيّد نوارتييه يحرم الآنسة فالانتين من الميراث لأنّها سوف تتزوّج السيّد فرانز ديبيناي؟

قال فيلفور هازًا كتفيه: - إه! يا إلهي! نعم! هذا هو السبب يا سيّدي!

أضافت السيّدة دو فيلفور: - السبب الظّاهر على الأقلّ.

- بل إنّه السبب الفعليّ يا سيّدتي. ثقي بي، فأنا أعرف أبي حقّ المعرفة.

أجابته المرأة: - حسنًا، لنفترض ذلك. وما الذي يجعل السيّد نوارتييه يعترض على السيّد فرانز ديبيناي دون سواه.

قال الكونت: - الحقُّ أنّني عرفت السّيّد فرانز ديبيناي، أليس هو ابن الجنرال دو كونيل الذي منحه الملك شارل العاشر لقب بارون إيبيناي؟

أجابه فيلفور: - هو بعينه.

- حسنًا، يبدو لي شابًا لطيفًا!

قالت السيّدة دو فيلفور: - لذا أنا على يقين من أنّها مجرّد ذريعة؛ إنّ

المسنّين يكونون متسلّطين في حبّهم؛ أظنّ السيد نوارتييه لا يريد تزويج حفيدته.

قال مونت كريستو: - لكن ألا تعرفان لهذا الكره سببًا؟

- إه! يا إلهي! ومن بوسعه أن يعرف؟

- خلافات سياسية ربما؟

قال فيلفور: - الحقُّ أنّ والدي ووالد السيّد فرانز ديبيناي عايشا الأزمنة العاصفة التي لم أشهد أنا منها إلا أيّامها الأخيرة.

قال مونت كريستو: - ألم يكن والدك بونابرتيًا؟ أظنّك أخبرتني شيئًا مماثلًا.

أجابه فيلفور: - كان والدي يعقوبيًا في المقام الأوّل، وكانت حماسته تخرجُ به عن حدودِ الحذر، وإنّ منصب النّائب الذي خلعه عليه نابوليون لم يغيّر من قناعته شيئًا، إنّما كان بالنّسبة إليه سبيلًا للتخفّي. حين كان والدي يتآمرُ، لم يكن يفعل ذلك خدمة للإمبراطور وإنّما لآل بوربون؛ ذاك أنّ أبي كانت له ميزةٌ: لم يناضل يومًا في سبيل يوتوبيا لا يمكن أن تتحقّق، وإنّما يناضل في سبيل ما هو معقولٌ وممكن. وقد زاوج نضاله في سبيل الممكنِ بطابعه الجبليّ العنيد، حتّى صار لا يصدُّه شيءٌ.

قال مونت كريستو: - ها أنت ترى كيف اجتمع السيّد نوارتييه والسيّد ديبيناي في معترك السّياسة؛ أوَلم يكن البارون ديبيناي أيضًا ملكيًا يتظاهرُ بالبونابرتية، حتّى إنّه اغتيل بعد زيارةٍ لنادٍ بونابرتيّ، استدرجه إليه أعضاؤه ظنًّا منهم أنّهم سيجدون فيه أخًا لهم.

أخذ فيلفور ينظر إلى الكونت شبه مرعوب.

قال مونت كريستو: - هل أنا مخطئ؟

قالت السيّدة دو فيلفور: - كلّا، لا بل إخمادًا للأحقاد القديمة قرّر السيّد فيلفور تزويج ابنته من السيّد فرانز، إذ ارتأى أن يجمع بالحبّ شابين تباغض أسلافهما بسبب السّياسة.

قال مونت كريستو: - يا لها من فكرةٍ جليلة، فكرةٍ خيّرة، لا بدّ أن يهتف لها العالمُ. الحقّ أنّ من الرّائع رؤية الآنسة نوارتييه دو فيلفور تتّخذ اسمَ مدام فرانز ديبيناي.

ارتجف فيلفور ونظر إلى مونت كريستو كأنّما يحاول أن يسبر أغوارَه فيدرك القصد من الكلام الذي نطق به، لكنّ الكونت احتفظ بابتسامته النّمطية الوديعة؛ ومرّةً أخرى لم يستطع فيلفور، على الرّغم من نفاذ بصيرته، أن يرى أبعد من جلدِ الكونت.

واصل فيلفور: - لذا لا أعتقد بأنّ مصيبة فالانتين في فقدان مال جدّها قد تكون سببًا في تعطيل هذا الزّواج؛ لا أظنُّ السيّد ديبيناي يتراجع بسبب هذه الخسارة المالية؛ قد يرى أنّني أساوي أكثر من قيمة المال الذي ضاع، ويتشرّف بمصاهرة رجلٍ فضّل خسارة المال على الإخلال بشرف الكلمة؛ ثمّ سيحسب الأمر، فيرى أنّ فالانتين غنيّةٌ بمال أمّها وما سيتركه لها السّيد والسيّدة دو سان مِران، جدّاها من جهة الأمّ، اللذان يحبّانها حبًّا جمًّا.

قالت السيّدة فيلفور: - واللّذان يستحقان من يحبّهما ويعتني بهما كما اعتنت فالانتين بجدّها نوارتييه؛ وبالمناسبة، إنّهما قادمان إلى باريس في غضون شهرٍ، وستكون فالانتين في حِلٍّ من البقاء بجانب جدّها فيلفور بعد ما فعله بها.

كان الكونت ينصت برضًا إلى الصّوت النّشاز، صوت الأنفَة المجروحة والمصالح الشّخصية المهدورة.

قال بعد برهة صمت: - لكن يبدو لي، وأسألكم العفو مسبقًا عمّا سأقوله: يبدو لي أنّه إن كان السيّد نوارتييه يحرم حفيدته من الميراث بداعي زواجها من رجلٍ كان يكره أباه، فإنّ لا سبب يدعوه إلى أن يعامل بالمثل العزيزَ إدوارد.

صاحت السيّدة فيلفور بنبرةٍ يستحيل وصفها: - أليس كذلك يا

سيّدي؟ أليس هذا الظّلم بعينه يا سيّدي؟ إنّ هذا المسكين إدوارد هو حفيدُ السيّد نوارتييه بقدر ما فالانتين حفيدَته، ومع ذلك لو أنّ الآنسة فالانتين لم تتزوّج السيّد فرانز لأوصى لها السيّد نوارتييه بكلّ أملاكه؛ هذا فضلًا عن أنّ إدوارد، وإن كان يحمل اسم فيلفور إلا أنّه لن يملك حتّى ثلث ثورة فالانتين، حتّى بعد أن تُحرَم من ميراث نوارتييه.

ظلّ الكونت ينصت من غير أن ينبس بكلمة.

استأنف فيلفور الكلام: - لنضرب صفحًا يا سيّدي عن الخوض في هذه القضية البائسة؛ أجل، إنّ أموال العائلة ستؤول إلى الفقراء الذين صاروا اليوم هم الأغنياء حقًا. أجل، إنّ أبي سيكون قد حرمني رجاءً مشروعًا، بغير وجه حقّ؛ لكنّني أنا سأتصرّف تصرّف رجلٍ حصيف، رجلٍ شجاع. إنّ السيّد ديبيناي الذي وعدتُه بأن تكون مداخيل ثروة نوارتييه من نصيبه، سيظلُّ يستلم المبلغَ وإن اضطررت إلى أن أفرض على نفسي أقسى أساليب التقشّف.

واصلت السيّدة فيلفور هامسةً بالفكرة الوحيدة التي تتردّد في قلبها: - لكن، أليس من الأفضل أن نترك الأمر في يد السيّد فرانز ديبيناي يقرّر فيه.

صاح فيفلور: - أوه ستكون تلك مصيبةٌ كبيرة!

ردّد الكونت مونت كريستو: - مصيبة كبرى؟

أجاب وكيل الملك مُليّنًا من نبرتَه: - أوه! أن يبطل زواجٌ، حتّى وإن كان إبطاله لأسباب مالية، أمرٌ يسيء إلى الفتاة وينقص من قدرها؛ ثمّ إنّ إشاعاتٍ قديمة، أردتُ أن أخمدَها، ستعود وتكسب قوّةً ورسوخًا. لكن، كلّا، لا شيء من ذلك سيحدثُ. إن كان السيدُ ديبيناي بالفعل رجلَ شرفٍ، فلن يزيدَه حرمانُ فالانتين من ميراثها إلا تمسّكًا بها؛ وإلا لأبان عن أنّه ما كان يتحرّك إلا بباعثٍ من طمع! كلّا، مستحيل.

قال مونت كريستو وهو يسمِّر نظرتَه في السيّد دو فيلفور: - أظنُّ

يا سيّدي فيلفور أنّني لو اعتبرت نفسي صديقًا للسيّد ديبيناي بما يكفي لأوجِّه النّصح، وما دام سيعود إلى باريس قريبًا لكي يحسم في هذا الأمر، فسوف أعمل ما في وسعي لكي تخرج هذه القضية مخرجًا يُرضي السيّد دو فيلفور.

قام السيّد دو فيلفور واقفًا وقد اجتاحه فرحٌ طافح، بينما اعترى زوجته شحوبٌ خفيفٌ.

قال وهو يشدّ على يد مونت كريستو: - حسنًا، هذا كلّ ما أطلبه، وسيسعدني التماس النّصح عند رجلٍ مثلك. وبما أنّ الجميع هنا يعتبر ما حدث اليوم غير لائق، فلا شيءَ سيغيِّر مشاريعنا.

قال الكونت: - سيّدي، أؤكّد لك أنّ العالم على ظلمه سيوافقُ إرادتك؛ سيفخر بك أصدقاؤك، والسيّد فرانز، وإن اضطرّ إلى الزّواج من الآنسة فالانتين بغير مهرٍ[1]، وهو ما لن يحدث، فسيفخر بالانتماء إلى عائلةٍ تحترم شرف كلمتها حتّى وإن كلّفها الأمر خسارة المال.

وإذ قال الكونت كلماته تلك قامَ مستعدًا للانصراف.

قالت السيّدة فيلفور: - هل ستتركنا يا سيّدي الكونت؟

- أنا مضطرٌّ يا سيّدتي، إنّما أتيت فقط أذكّركم بوعدكم لي ليوم السبت.

- وهل تخشى أن ننساه؟

- من لطفك يا سيّدتي، إنّما خشيتُ أن يكون للسيّد فيلفور مشاغل قاهرة، أو انشغالاتٌ طارئة...

قالت السيّدة دو فيلفور: - لقد أعطاك زوجي كلمتَه يا سيّدي، وها قد وقفتَ بنفسك على استعداده لأن يخسر كلّ شيءٍ مقابل الحفاظ على كلمته.

---

(1) من البيّن أنّ المهر في هذا السّياق ما تمنحه الأسرة لابنتها من مداخيل مالية سنوية تساهم بها في حياتها الزّوجية.

سأله فيلفور: - وهل الدّعوة في منزلك بالشانزيليزيه يا سيّدي؟
أجابه مونت كريستو: - كلّا، وهذا ما يزيد من تقدّيري لإخلاصك في كلمتك. إنّ الدّعوة في الرّيف.
- الريف؟
- أجل.
- وأين في الريف؟ مكان قريب من باريس، أليس كذلك؟
- عند أبواب باريس، على بعد نصف ساعةٍ من حاجز المدينة، في أوتوي.
صاح فيلفور: - أوتوي! آه! صحيح، لقد أخبرتني السيّدة دو فيلفور بأنّك تقيم بأوتوي.
- بشارع لا فونتين!
أجاب فيلفور بصوتٍ مخنوق: - شارع لا فونتين! وأيّ رقمٍ؟
- في الرّقم 28.
صاح فيلفور: - أنت إذًا من اشترى منزل السيّد دو سان مران؟
سأله مونت كريستو: - السيّد دو سان مران؟ المنزل إذًا كان مُلكًا للسيّد دو سان مران؟
أجابت السيّدة دو فيلفور: - نعم، وهل ستصدّقني إن أخبرتك بأمرٍ يا سيّدي الكونت؟
- أيّ أمر؟
- تجد المنزل جميلًا أليس كذلك؟
- بلى.
- زوجي لم يرد قطّ أن يقيم فيه.
قال مونت كريستو: - لا أرى سببًا لذلك يا سيّدي.
أجابه وكيل الملك ضاغطًا على نفسه: - لا أحبُّ أوتوي يا سيّدي.
قال مونت كريستو متصنّعًا القلق: - لستُ أخشى يا سيّدي أن يحرمني هذا النّفور، من زيارتك لي؟

تمتم فيلفور: - كلّا يا سيّدي الكونت... أرجو ذلك... ثِق بأنّني سوف أفعل كلّ ما في وُسعي.

أجابه مونت كريستو: - أوه! لن أقبل منك عذرًا يا سيّدي. سوف أنتظرك يوم السّبت في السّاعة السّادسة، فإن لم تأتِ.. قد أظنُّ أنّ ثمّة قصّةً مرعبةً أو دمويّةً تتعلّق بذاك المنزل.

قال فيلفور بحدّة: - سوف آتي يا سيّدي الكونت، سوف آتي.

قال مونت كريستو: - شكرًا. أرجو الآن أن تأذنا لي بالانصراف.

قالت السيّدة دو فيلفور: - الحقّ أنّك قد قلت إنّك مضطرٌّ للانصراف، وكنتَ على وشك القيام بذلك قبل أن ندخل في موضوع آخر.

قال مونت كريستو: - الحقّ يا سيّدتي، لا أجرؤ على البوح لكما بمكانِ مقصدي.

- قُل يا سيّدي!

- كعادتي في التسكّع، سأقصد مكانًا أرى فيه شيئًا لطالما حلمتُ برؤيته.

- أيّ شيء؟

- التلغراف. ها قد بُحتُ بالأمر على خجلي منه.

ردّدت السيّدة فيلفور: - التلغراف!

- أجل يا سيّدتي، التلغراف. يعرض لي أحيانًا أن ألمح عند ناصية طريق، فوق تلٍّ، في يومٍ مشمسٍ، تلك الأذرع السّوداء المثنِية كأنّها أذرع خنفساء هائلة، ترتفعُ في الفضاء؛ وفي كلّ مرّة ألمح فيها المشهد إلا ويخلّف في نفسي بالغ التأثير، إذ لطالما رأيت في تلك الإشارات الغريبة التي تخترق الهواء بدقّةٍ، فتحملُ مسافةَ ثلاثمائة فرسخ، إرادةَ رجلٍ جالسٍ إلى طاولةٍ، حتّى تُبلّغها رجلًا جالسًا إلى طاولةٍ عند الطّرف الآخر، مرتسمةً في رمادِ غيمةٍ أو زرقة السّماء، غير خاضعةٍ إلا لإرادة ذاك الآمرِ القوّي. قلت رأيتُ في تلك الإشارات فعلَ العفاريت

والجنّيات والأقزام السّاحرة، باختصار فعلَ قوىً غيبية، وكنتُ أضحك. لكن لم تواتني الرّغبة يومًا في أن أرى عن قرب تلك الحشرات الضّخمة ذوات البطون البيضاء، والقوائم السّوداء الرّفيعة، إذ كنت أخشى أن أجد تحت أجنحتها الحجرية الجنيَّ المسمّى بشرًا، الجنّيّ الشدّيد التصلّب والحذلقة، والطّافح بالعلم أو الخداع أو الشّعوذة. ثمّ ها أنا ذات صباحٍ أعلم أنّ محرّك كلّ تلغرافٍ ما هو إلا عاملٌ مسكينٌ يشتغل مقابل ألفٍ ومائتي فرنك في السّنة، ويقضي يومَه بأكمله يراقبُ، ليس السّماء كما يفعل الفلكيّ، ولا الماء كما يفعل الصّياد، ولا الطّبيعة كما يفعل خليُّ البال، وإنّما يراقب الحشرة ذات البطن الأبيض والقوائم السّوداء، ومراسلُه على بعد أربعة أو خمسة فراسخ منه. فانتابتني رغبةٌ كبيرةٌ في أن أنظر عن قربٍ إلى تلك الشّرنقة الحيّة، وأقف على التمثيلية التي تدور أطوارها وسط تلك الصَدَفة حيثُ تجرُّ خيوط اللّعبة.

– وأنت ذاهبٌ إلى هناك؟

– نعم، أنا ذاهب.

– أيّ تلغراف؟ تلغراف وزارة الدّاخلية أو تلغراف المرصد؟

– أوه، كلّا، سوف أجد هناك أناسًا يجبرونني على فهم أشياء أودّ أن أتجاهلها، ويشرحون لي قسرًا ألغازًا لا يفهمونها. اللّعنة! أريد أن أحفظ أوهامي عن الحشرات؛ يكفيني خسارةُ أوهامي عن البشر. لن أذهب إذًا إلى تلغراف وزارة الدّاخلية، ولا إلى تلغراف المرصد. ما أحتاجه هو تلغرافٌ وسط حقل، كي أجد فيه إنسانًا بسيطًا متحجّرًا في قلعته.

قال فيلفور: – أنت رجلٌ فريد يا سيّدي.

– أيّ خطٍ من خطوط التلغراف تنصحني بفحصه؟

– الخطّ الأكثر اشتغالًا حاليًا.

–طيب! خطّ إسبانيا إذًا؟

– بالضّبط. هل تريد رسالةً من عند الوزير كي يشرحوا لك...

قاطعه مونت كريستو: - كلّا، ما دمتُ قد قلت لك إنّني لا أريد أن أفهم شيئًا. ما إن أفهم كيف تجري الأمور حتّى ينتفي عندي شيءٌ اسمه التلغراف، سيتحوّل إلى مجرّد إشارةٍ يبعث بها السيّد دوشاتيل أو السيّد دو مونتاليفي[1]، إلى حاكم بايون (فرنسا)، إشارةٍ مغلّفةٍ بكلمتين يونانيّتين: إنّ الحيوان ذا القوائم السّوداء والكلمةَ المخيفة هما ما أريد أن أحفظهما بكامل صفائهما وبكامل تبجيلي لهما.

- هيّا إذًا، فبعد ساعتين سيهبط اللّيل، ولن تستطيع رؤية شيء.

- اللّعنة، إنّك تخيفني. أين يقع أقرب تلغراف؟

- في اتّجاه بايون؟

- نعم، ليكن في اتّجاه بايون.

- تلغرافُ شاتيون.

- وبعد تلغراف شاتيون؟

- تلغراف برج مونلري، على ما أظنُّ.

- شكرًا، وإلى اللّقاء! يوم السّبت سوف أحكي لكم انطباعاتي.

عند الباب التقى الكونت بالموثّقَين اللّذين كتبا وصيّة حرمان فالانتين من الإرث، وكانت تبدو عليهما أمارات السّعادة لقيامهما بأمرٍ سيجلب لهما الكثير من التّقدير.

(1) تانغي دوشاتيل(1803-1876)، كاميل دو مونتاليفي (1801-1880)، سيّاسيّان فرنسيّان تقلّدا العديد من المناصب الرّفيعة.

61

كيف تُخلّصُ بستانيًا من الزُّغبات[1] التي تلتهم خوخَه.

لم يذهب الكونت مونت كريستو في المساء نفسه كما قال، وإنّما في اليوم التالي. خرج عبر حاجز أونفيرن وسلك طريق أورليان، فتجاوز قرية ليناس من غير أن يتوقّف عند التلغراف الذي كان تحديدًا، في اللّحظة التي مرّ فيها الكونت بجانبه، يحرّكُ أذرعه الطّويلة الهزيلة؛ ثمّ وافى برج مونلري الواقع، كما نعلم جميعًا، في أعلى نقطةٍ من التلّ الذي يحملُ اسمَه.

ولما بلغ الكونت سفحَ التلّ نزلَ من العربة، وعبْرَ مسارٍ دائريّ، عرضُه ثماني عشرة بوصةً، جعلَ يرتقي التّضريس؛ فلمّا بلغ قمّته، أوقفته تحويطةٌ خلَفَت فيها الثمارُ الخضراءُ الزّهورَ الورديـ بيضاءَ.

بحث مونت كريستو عن باب التّحويطة الصّغيرة، وما لبث أن وجدها. كان البابُ مِسْلَفَةً[2] صغيرةً من خشبٍ، تتحرّك على مفصّلاتٍ من خوصٍ، وتنغلقُ بمسمارٍ وخيط. وما هي سوى لحظة حتّى ألمّ الكونت بميكانيزم البابِ، ففتحه.

ألفى الكونت نفسه في بستانٍ صغيرٍ طوله عشرون قدمًا، وعرضه أثنتا عشرة، تحدّها من جهةٍ التحويطةُ التي كانت في جانبٍ منها تلك الآلة العبقرية التي سمّيناها بابًا؛ ومن جهةٍ أخرى البرج القديم الذي تحوطه نباتاتُ اللّبلاب يتخلّلها في كلّ موضعٍ القرنفل واللّفت البريّ.

---

(1) مفردُها زُغبة وهي من فصيلة القوارض تشابه السناجب.

(2) أداة حرثٍ تتألّف من عدّة أسنانٍ أو أقراص، تجرّ على الأرض.

وكان البرج بمظهره المتغضّن والمزهر في آنٍ، يبدو كأنّه جدّةٌ يزورها أحفادُها، وكانت لتحكي لهم حكاياتٍ رهيبة لو أنّها حُبيت بالفعل الصوت والأذنين التي يضفيها المثلُ القديمُ على الجدران.

نعبر البستان تابعين ممشىً من التّراب الأحمر، تحفّه شجيرات بقسٍ عتيقة، ناشرةً ألوانًا كانت لتبهج عين الرّسام دولاكروا الذي يمكن أن نعتبره روبنس المعاصر. كان لهذا الممشى شكلُ 8، ويمضي ملتويًا بحيث يجعل مسارًا من عشرين قدمًا يُقطَعُ في ستين قدمًا. ولم تحظَ فلور، إلهةُ البستانيِّين اللاتينيّين، البشوشةُ النديّةُ، بمعبدٍ أدقَّ وأشرف من هذا الحقل المسيّج.

فالحالُ أنّ في شجيرات الورد العشرين التي تشكّل أرضية البستان، لا توجد ورقةٌ واحدة من أوراقها تحمل، أثر الذّبابة أو خيطًا من خيوط حشرة المنّ التي تقضم النّباتات التي تنمو في أراضٍ رطبة. على أنّ الرّطوبة ليست هي ما ينقص هذا البستان. ذاك ما يفصح عنه بوضوح الترابُ الأسود كالسّخام، وأوراق الأشجار السّميكة؛ ثمّ إنّ الرّطوبة الطّبيعية قد أُشفعت بالرّطوبة المصطنعة، بفضل برميلٍ مليء بالماء الآسن في ركنٍ من أركان البستان، وفي ماء البرميل فوقَ فرشةٍ خضراءَ يقيمُ ضفدعٌ وعلجومٌ، لا بدّ أنّ اختلاف مزاجيهما هو ما يجعلهما يوليان ظهرَيهما بعضهما إلى بعضٍ على الدّوام، كلّ في اتّجاهٍ.

لا عشبَ في المماشي، ولا نبتة ضارّة وسط فرش الزّهور؛ إنّ مُعلّمةً في البستنة ما كانت لتصقل وتشذّب أزهار إبرة الرّاعي والصّبار والوردية في حديقتها، بقدر ما فعل في حديقته البستانيُّ الخفيّ حتى تلك اللّحظة.

توقّف مونت كريستو بعدما أقفل الباب بأن ربطَ الخيط في المسمار، وبنظرةٍ واحدةٍ مسح العقار بأكمله.

قال: «إمّا أنّ رجلَ التلغراف يُشغّلُ بستانيّين بالسّنة، أو أنّه من هواة الزّراعة».

فجأةً اصطدم بشيءٍ كان كامنًا خلف عربةٍ يدوية محمّلةٍ بأوراق

الأشجار. انتصب الشّيء الكامنُ مطلقًا صيحةً تعبّر عن اندهاشه، فألفى مونت كريستو نفسه أمام رجلٍ في الخمسين من عمره يقطفُ ثمار فراولة يضعها فوق أوراق كرْم.

كانت هناك اثنتا عشرة ورقة كرمٍ ومثلها من ثمار الفراولة.

ولما قام الرّجلُ كاد يُسقطُ الفراولة وأوراق الكرم والصّحون.

قال مونت كريستو باسمًا: - هل تجني غلّتك يا سيّدي؟

قال الرّجل وهو يحمل يده إلى قبّعته: - آسف يا سيّدي، لستُ هناك بالأعلى، لكنّني للتوّ نزلتُ.

قال الكونت: - لا تزعج نفسك بأيّ شيءٍ يا صديقي؛ اجنِ ثمارك إن كان لا يزال ثمّة ما يُجتنى منها.

قال الرّجل: -لا تزال ثمّة عشرٌ، إذ جنيتُ إحدى عشرة؛ المجموع واحدٌ وعشرون، ممّا يعني أنّ الغلة هذه السّنة تفوق غلّة السّنة الماضية بخمس حبّات. ولا عجب في ذلك، لقد كان الرّبيع حارًا هذه السّنة، وما تحتاجه الفراولة يا سيّدي هو الحرارة. فها بفضل الحرارة، بدلًا من السّت عشرة حبةً التي حصلت عليها السّنة الماضية، حصلت هذه السّنة كما ترى بنفسك على إحدى عشرةً اجتنيتُها، وها... اثنتا عشرة، ثلاث عشرة، أربع عشرة، خمس عشرة، ستَّ عشرة، سبع عشرة، ثماني عشرة. أوه! يا إلهي! تنقص حبّتان، أمس فقط كانتا هنا، أنا متأكّد، لقد عددتُها بنفسي. لا بدّ أنّ ابن الأمّ سيمون هو من سرقها، لقد رأيتُه يجوب المكان صباح اليوم. آه! يا للشقيّ، يسرقُ في بستانٍ مسيّجٍ! لا يدري أين سيوصله هذا الأمر.

قال مونت كريستو: - إنّه فعلًا أمرٌ خطيرٌ، لكنّك ستغفر له طيشه بسبب صغر سنّه وشهوته إلى الثّمار.

قال البستانيّ: - طبعًا؛ ليس الأمر حقًّا بهذا السّوء! لكن، عفوك مرّةً أخرى، ربّما أنا الآن أؤخّر أحد رؤسائي!

وتفحّص الرّجلُ بنظرةٍ متوجّسة الكونتَ وزيّه الأزرق.

قال الكونت وعلى شفتيه ابتسامتُه التي يستطيع التحكّم فيها بحيث يجعلها مرعبةً أو مطَمئنةً، وقد جعلها هذه المرّة مطمئنةً: - اطمئنّ يا سيّدي، لست مفتّشًا، إنّما أنا فقط مسافرٌ بسيطٌ أتى به الفضول، وها قد بدأ يلوم نفسَه إذ يشعر بأنّه يضيع وقتَك.

قال الرّجل وعلى شفتيه ابتسامةٌ كئيبة: - أوه! وقتي ليس ثمينًا يا سيّدي. لكنّه وقتُ الحكومة، ولا ينبغي لي أن أهدره. لكنّني تلقّيتُ إشارةً تخبرني أنّ بوسعي أن أرتاح ساعةً (وألقى نظرةً إلى السّاعة الشّمسية، إذ كان برج مونلري مجهّزًا بكلّ شيءٍ، بما في ذلك ساعة شمسية)، وكما ترى لا يزال أمامي عشر دقائق، وكانت الفراولة قد نضجت، وإن تركتها يومًا آخر... بالمناسبة، هل تظنُّ يا سيّدي أنّ الزُّغبات تأكلها.

أجاب مونت كريستو بصوتٍ رزين: - الحقّ أقول، ما كنت لأظنّ ذلك يا سيّدي. إنّ مجاورة الزُّغبات أمرٌ سيّئٌ جدًا بالنّسبة إلينا نحن الذين لا نأكلها مثلما كان يفعل الرّومان.

- آه! الرّومان كانوا يأكلونَ الزُّغبات؟

أجاب الكونت: - قرأت ذلك عند بيترونيس[1].

- حقًّا؟ لا أظنُّ طعمها طيّبًا، وإن كان يقال: سمينٌ مثل زُغبة. وليس غريبًا يا سيّدي أن تكون الزّغباتُ سمينة، ما دامت لا تفعل طيلة اليوم إلا النّوم، وحين يجنُّ اللّيل تنطلق لتقضم كلّ ما في طريقها. السّنة الماضية على سبيل الذّكر، كانت عندي أربع مشمشاتٍ، وقد أكلَت واحدةً منها. وكانت عندي ثمرةُ دراقٍ واحدة، واحدة لا غير، فهي فاكهة نادرةٌ كما تعرف، فما تظنّ الزّغبات قد فعلت بها؟ لقد أكلت نصفها من جانب السّور؛ كانت ثمّرةً طيّبةً رائعةً، لم أذق قطّ ثمرةً في حلاوتها.

سأله الكونت: - هل أكلتَها؟

- أكلت النّصف الذي تبقّى منها. وكان رائعًا. آه! اللّعنة، إنّ سادتي

---

(1) كاتب وسياسي روماني من القرن الميلادي الأوّل.

الزّغبات هؤلاء لا يختارون الثمار السّيئة، شأنهم شأنَ ابن الأم سيمون، فهو أيضًا لم يختر أسوأ الفراولات. لكن اطمئن يا سيّدي هذه المرّة، فالأمر لن يتكرّر، وإن اضطررت إلى أن أبيت حارسًا الثمارَ حين تنضج.

كان مونت كريستو قد رأى بما يكفي. إنّ كلّ رجلٍ إلا وله شغفه الذي يعضّ قلبَه، مثلما أنّ لكلّ ثمرةٍ دودتَها؛ وشغف عامل التلغراف كان البستنة. أخذ الكونت يقطف أوراق الكرم التي تحجب الشّمس عن عناقيد العنب، فكسب قلبَ البستانيّ.

قال البستاني: - هل أتى سيّدي لكي يرى التلغراف؟

- أجل يا سيّدي إن لم يكن الأمر مخالفًا للقوانين!

- أوه! ليس ممنوعًا البتّة، ما دام ليس في الأمر أيّ خطر، وما دام لا أحد يعرفُ أو يمكن أن يعرف ما نقولُه.

قال الكونت: - بالفعل، لقد قيل لي إنّكم تردّدون إشارات، أنتم أنفسكم لا تعرفون معناها.

أجاب رجل التلغراف ضاحكًا: - بالتّأكيد، وأنا أفضّل هكذا.

- ولماذا تفضّل هكذا؟

- لأنّني بهذه الطّريقة لا أتحمّل أيّ مسؤولية. أنا مجرّد آلةٍ لا أقلّ ولا أكثر، وما دامت الآلةُ شغّالةً فلا أحد يطلب منها أكثر.

قال مونت كريستو في نفسه: «اللعنة! هل وقعت على رجلٍ بلا طموح! اللعنة! سيكون أمرًا مؤسفًا».

قال البستاني وهو يلقي بنظرةٍ إلى السّاعة الشّمسية: - سيّدي إنّ العشر دقائق موشكةٌ على الانقضاء، فهل تريد الصّعود معي؟

- تفضّل، سأسير خلفك.

دلف مونت كريستو إلى الفناء المجزّأ إلى طوابق ثلاثة؛ الطّابق السّفلي يحوي أدوات زراعة: مجارف ومعازق ومرشّات ماءٍ، موضوعةً لصقَ الحائط. ذلكم كلّ الأثاث.

أمّا الطّابق الثاني فكان هو مسكنَ العاملِ الاعتياديَّ، أو بالأحرى

مسكنه اللّيليّ؛ كان يحوي أوانيَ فقيرة، وسريرًا، وطاولةً، وكرسيّين، ونافورة من الحجر الرّمليّ، بالإضافة إلى بعض الأعشاب الجافّة المعلّقة في السّقف، وقد عرف منها الكونت البازلّاء الحلوة والفاصوليا الإسبانية التي كان الرّجلُ يحفظها في أغشيتها؛ وقد وضع على كلّ منها مُلصَقًا بعنايةِ عالم نباتاتٍ في الحديقة النّباتية.

سأله مونت كريستو: - هل يلزم وقتٌ طويلٌ لدراسة التلغراف، يا سيّدي؟

- ليست الدّراسة ما يستغرق وقتًا طويلًا، وإنّما فترة التّدريب.

- وكم يبلغ الرّاتب يا سيّدي؟

- ألف فرنك يا سيّدي.

- مبلغ هزيل.

- لكن كما ترى يا سيّدي، إنّنا نحصل على مسكن.

تأمّل مونت كريستو الغرفة.

غمغم: «لنأمل ألاّ يتمسّك بمسكنه».

ثمّ انتقلا إلى الطّابق الثالث، وكان غرفة التلغراف. نظر مونت كريستو على التّوالي للمقبضين الحديد اللّذين يحرّك بهما العاملُ الآلة.

قال: - إنّه أمرٌ مثير للاهتمام، لكنّها حياةٌ قد تبدو على المدى البعيد بلا طعم.

- أجل، في البداية يصاب المرء بالصّعر[1] لفرط التطلّع؛ لكن ما إن تمرّ سنة أو سنتان حتّى يعتاد الأمر؛ ثمّ إن لنا ساعات الرّاحة، وأيّام العطل.

- أيام عطل؟

- نعم.

- أيّ أيامٍ؟

---

(1) داء التواء الرّقبة.

- الأيام التي ينتشر فيها الضّباب.
- آه! صحيح.
- تلك عندي أيّام العيد؛ أنزل إلى الحديقة، فأزرع، وأقصّ، وأحزّ، وأجزّ. وعمومًا يمرّ الوقت.
- منذ متى وأنت تعمل هنا؟
- منذ عشر سنواتٍ، فإن أضفت إليها خمس سنواتٍ تحت التّدريب تصير خمس عشرة.
- وسنّك؟..
- خمسة وخمسون عامًا.
- وكم يلزمك أن تقضي في العمل حتّى تحصل على التّقاعد؟
- أوه! خمسٌ وعشرون سنةً يا سيّدي.
- وكم يبلغ المعاش؟
- مائة قطعة.
غمغم مونت كريستو: - يا لبؤس الإنسانية!
فسأله العامل: - ماذا قلت يا سيّدي؟
- أقول إنّه أمر مثير للاهتمام.
- ما هو؟
- كلّ ما تريني إيّاه... ولستَ تفهم أيّ شيءٍ في الإشارات التي ترسلها؟
- لا شيء البتّة.
- ولم تحاول ولا مرّة أن تفهم؟
- لم أحاول قطّ. ما الفائدة في ذلك؟
- مع أنّ ثمّة إشاراتٍ تتوجّه إليك مباشرةً.
- بلا ريب.
- وهذه تفهمها؟
- هذه لا تتبدّل.

- وتقول؟
- **لا جديد... أو لديك ساعة... أو إلى الغد...**
قال الكونت: - هذا ما نسمّيه كلامًا بريئًا؛ لكن، انظُر، أليس مراسلُك يتحرّك.
- آه! صحيح! شكرًا يا سيّدي.
- وماذا يقول لك؟ هل يقول شيئًا ممّا تفهمه؟
- نعم؛ يسألني ما إذا كنتُ جاهزًا.
- وتجيبه؟...
بإشارةٍ أُفهِم بها في آنٍ مراسلي عن اليمين بأنّني جاهزٌ، وأدعو مراسلي عن الشّمال إلى الاستعداد.
قال الكونت: - عبقري!
واصل الرّجل الطّيّب باعتداد: - سترى، بعد خمس دقائق سيتكلّم.
- عندي إذًا بعد خمس دقائق، وهي أكثر ممّا أحتاج. هل تسمح لي يا سيّدي العزيز أن أطرح عليك سؤالًا؟
- تفضّل.
- هل تحبُّ البستنة؟
- أنا شغوف بها.
- وهل ستكون سعيدًا لو أنّك بدلًا من حديقةٍ بمساحة عشرين قدمًا كنت تملك بستانًا بمساحة فدّانين؟
- كنت لأصنع منه فردوسًا أرضيًا يا سيّدي.
- وهل الألف فرنك التي تكسبها تفرض عليك حياةً صعبة؟
- صعبة بالفعل، لكنّني أعيش.
- أجل، لكنّ حديقتك بائسة.
- آه! بالفعل، الحديقة ليست كبيرة.
- زد على ذلك الزّغبات التي تلتهم كلّ شيء.
- تلك مصيبتي.

- قُل لي لو قُدّر لسببٍ ما أن تدير رأسك حين يبدأ مراسلك عن اليمين بإرسال الإشارات، ما الذي سيحدث؟

- لن أراه.

- فإن لم تَرَه؟

- لن أستطيع ترديد الإشارات.

- فإن لم تردّدها؟

- سأعاقب بغرامةٍ لإهمالي.

- كم مبلغ الغرامة؟

- مائة فرنك.

- آه عُشر راتبك، جيد!

قال العامل: - آه!

قال مونت كريستو: - وهل سبق أن حدث لك ذلك؟

- مرّةً واحدةً يا سيّدي، كنتُ منشغلًا بتشذيب شجيرة ورد نوازيتا.

- حسنًا. فإن بدّلت شيئًا في الإشارة، أو أرسلت بدلًا منها إشارةً أخرى؟

- إذّاك سيكون الأمر مختلفًا، سأُطرد من العمل وأفقد معاشي.

- ثلاثمائة فرنك؟

أجل يا سيّدي: - مائة قطعة؛ لكنّك بالتّأكيد تفهم أنّني أبدًا لن أفعل شيئًا مماثلًا.

- حتّى مقابل راتب خمس عشرة سنةً؟ الأمر يستحقُّ، فكّر!

- مقابل خمسة عشر ألف فرنك؟

- نعم.

- أنت تخيفني يا سيّدي!

- باه!

- هل تريد إغوائي يا سيّدي؟

- نعم! خمسة عشر ألف فرنك، تفهم؟

- دعني أرى مراسلي عن اليمين يا سيّدي!
- بالعكس، لا تنظر إليه، وانظر بالأحرى إلى هذا؟
- ما هذا؟
- كيف؟ ألا تعرف هذه الأوراق الصّغيرة؟
- أوراق نقدية!
- مربّعةٌ، وعددها خمسة عشر.
- لمن هي؟
- لك، إن أردتَ.
صاح العاملُ مختنقًا: - لي!
- أوه! يا إلهي، إنّها لك، لا يشاركك فيها أحد.
- سيّدي، ها مراسلي عن اليمين قد بدأ الإرسال.
- دعه يرسل.
- سيّدي، لقد شوَّشت عليَّ، فشردتُ عن الإشارة، سوف أدفع الغرامة.
- ستكلّفك مائة فرنك؛ ترى إذًا أنّ من مصلحتك أخذ الخمسة عشر ألف فرنك.
- سيّدي إنّ مراسلي عن اليمين ينفد صبره، وها هو يعيد إرسال الإشارات.
- دعه يفعل، وخُذ.
وضع الكونت حزمة النّقود في يد العامل.
قال: - والآن لا يزال ثمّة مشكل: إنّ الخمسة عشر ألفًا لن تضمن لك عيشك.
- سأحتفظ بعملي.
- كلاّ، ستفقده؛ لأنّك سترسل إشارة غير تلك التي يرسلها إليك مراسلك.
- أوه يا سيّدي! ما الذي ترمي إليه؟

- مجرّد دعابةٍ...
- سيّدي لن أفعل ذلك إلا إن أُجبرتُ...
- وبالفعل أنوي أن أُجبركَ.

وأخرج مونت كريستومن جيبه حزمة أخرى.

قال: - هذه عشرةُ آلاف أخرى؛ إن أُضيفت إلى الخمسة عشر ألفًا التي وضعتَها في جيبك، سيصير المجموع خمسةً وعشرين ألفًا. بخمسة آلاف فرنك ستشتري منزلًا وفدّانين من أرض؛ وبالعشرين ألفًا الباقية سيكون لك مدخولٌ سنويٌّ قيمته ألف فرنك.

- بستانٌ مساحتُه فدّانان؟
- ومدخولٌ قيمتُه ألف فرنك.
- إلهي! إلهي!
- هيا، خُذ!

ثمّ إنّ مونت كريستووضع المال قسرًا في يد العامل.

- ما الذي يتعيّنُ عليّ فعله؟
- أمرٌ بسيط.
- ما هو؟
- أن ترسل هذه الإشارات.

وأخرج مونت كريستو من جيبه ورقةً خطّت فيها ثلاث إشاراتٍ، مع أرقامٍ توضّحُ التّرتيب الذي ينبغي أن تتّبعه.

- لن يستغرق منك الأمر وقتًا، كما ترى.
- نعم، لكن...
- هكذا ستحصل على ثمار الدرّاق وغيرها.

أصابت الضّربةُ هدفها؛ محمرًّا من الحمّى، يرشحُ العرقَ قطراتٍ كبيرةً، انطلق الرّجلُ ينفّذ الإشارات واحدةً بعد أخرى، على الرّغم من الإشارات المرعبة التي كان يقوم بها مراسله عن اليمين الذي لم يكن يفهم لما هذا التّغيير في الرّسالة، فظنَّ أنّ زميلَه فقد صوابه.

أمّا المراسلُ عن الشّمال، فقد وعى الإشارات وردَّدَها، فوصلت كما هي إلى وزارة الدّاخلية.

قال مونت كريستو: - والآن، ها أنت ذا رجلٌ غنيّ.

- نعم، لكن بأيّ ثمن!

- أصغي إليّ يا صديقي، لا أريدك أن تحسّ بالنّدم؛ ثق بي، أقسم لك أنّك لم تؤذي أحدًا، ونفّذت إرادةَ الربّ.

أخذ عامل التلغراف ينظر إلى الأوراق النّقدية، ويتحسّسها ويعدّها؛ كان شاحبًا، محمرًّا؛ ثمّ هرع إلى غرفته ليشرب كأسَ ماء؛ لكن ما كاد يبلغ النّافورة حتّى أغمي عليه وسط الفاصوليا المجفّفة.

خمس دقائق بعد وصول الرّسالة المبرَقة إلى الوزارة، ربطَ دُبراي أحصنته إلى عربته، وهرع عند السيّدة دانغلار.

قال للبارونة: - هل يملك زوجك سنداتٍ إسبانية؟

- أظنُّ ذلك! نحو ستّة ملايين.

- فليبعها بأيّ سعرٍ كان.

- لماذا؟

- لأنّ دون كارلوس فرّ من بورج وعاد إلى إسبانيا.

- وكيف عرفت؟

هزّ كتفيه: - بحقّ السّماء! كما أعرف كلّ الأخبار.

لم تكرّر البارونة السؤال مرّتين: - هرعت عند زوجها، فهرع بدوره عند وكيله وأمره بأن يبيع كلّ شيءٍ بأيّ سعرٍ كان. ولمّا رُؤي دانغلار يبيع سنداته انخفضت القيمة فورًا. خسر دانغلار خمسمائة ألف فرنك لكنّه تخلّص من سنداته كلّها.

وفي المساء نفسه كتبت صحيفة **لو ميساجيه** (الرسول):

برقية مستعجلة:

لقد أفلت الدّون كارلوس من الرّقابة المفروضة عليه في بورج، وعاد إلى إسبانيا عبر الحدود الكاتالانية. وقد نهضت برشلونة لنصرته.

وطيلة المساء لم تكن الأحاديث تدور إلا حول حصافة دانغلار الذي باع سنداته، ولسعادة المضارب فإنّه لم يخسر إلا خمسمائة ألف فرنك.

أمّا أولئك الذين احتفظوا بسنداتهم، أو اشتروا سندات دانغلار فقد قضوا ليلةً من أسوأ اللّيالي.

وفي اليوم التّالي كتبت صحيفة المونيتور (المراقب):

إنّ الخبر الذي نشرته أمس صحيفة لو ميساجيه، عن هروب الدّون كارلوس، وانتفاضة برشلونة، خبرٌ لا أساس لصحّته.

إنّ الدّون كارلوس لم يترك بورج، وفي شبه الجزيرة[1] يسود هدوء تامّ.

إنّ إشارةً برقيةً، أُسيءَ تأويلها بسبب الضّباب، كانت هي السّبب في انتشار هذا الخبر الخاطئ.

ارتفعت الأسهم مضاعفةً عن السّعر الذي انخفضت إليه.

كان في الأمر خسارةٌ مضاعفةٌ لدانغلار، خسارة القيمة التي أضاعها، وفرصة رفع القيمة التي فوّتَها، والحصيلة: فرق مليون فرنك.

قال مونت كريستو لموريل الذي كان يتواجد في بيته ساعة أُعلن خبر تقلّب البورصة الذي راح ضحيّتَه دانغلار: - حسنًا! لقد اكتشفت للتوّ بخمسةٍ وعشرين ألف فرنكٍ اكتشافًا كنت لأدفع مقابله مائة ألف فرنك.

سأله ماكسيميليان: - وماذا اكتشفت؟

- اكتشفتُ كيف تخلِّصُ بستانيًّا من الزُّغبات التي تلتهم خوخَه.

(1) شبه الجزيرة الإيبيرية.

62

الأشباح

من النّظرة الأولى، وحين يُفحص من الخارج، لا تبدو على منزل أوتوي أيّ سمةٍ من سمات الفخامة، لا شيء ممّا يمكن أن يدلّ على أنّ الاختيار قد وقع عليه ليشهدَ إقامة السيّد العظيم الكونت مونت كريستو؛ لكنّ تلك البساطة كانت تعبّر عن إرادة السيّد نفسه الذي أمرَ بأن يظلّ البيتُ من الخارج على حاله؛ ولكي نقتنع بذلك لم نكن نحتاج إلا أن نلقيَ نظرةً على الدّاخل. الحقّ يقال، ما يكاد البابُ يُفتح حتّى يتغيّر المشهد.

لقد تفوّق السيّد برتوتشو في اختيار الأثاث وسرعة الإنجاز شأنَ دوق أنتان الذي قطع في ليلةٍ واحدةٍ طريقَ أشجارٍ بأكمله كان يعيق الرّؤية أمام لويس الرّابع عشر، استطاع برتوتشو أن يغرس في ثلاثة أيّامٍ فناءً عاريًا بأكمله؛ أشجار حورٍ جميلةٌ، وجمّيزات حُملت بجذورها وتربتها، لكي تُغرسَ، فصارت تظلّل واجهة المنزل الرّئيسيّة، وأمام الواجهة بُدّل البلاطُ الذي كان يحجبُ العشب نفسه، بأرضيةٍ عشبيةٍ كاملة استُقدمت ووضعت صباح اليوم فقط، ولا تزال تتلألأ فيها قطرات الماء الذي رُويت به.

عدا ذلك كانت التعليمات كلّها قد أتت من عند الكونت الذي عيّنَ بنفسه لبرتوتشو عددَ الأشجار وموضع كلّ شجرةٍ منها، كما حدّد مساحة وشكل الأرضية العشب التي ينبغي أن تحلّ محلّ البلاط.

من هذا الجانب صار المنزل مختلفًا، يصعب التّعرف على صورته

السّابقة، حتّى إنّ برتوتشو نفسه ادّعى أنّه لم يعد يتعرّف عليه بعدما صار مغلّفًا بهذا القدر من الخُضرة. ولم يكن المدبّر ليفوّت الفرصةَ فيحدث تغييرًا في الحديقة بدورها، لولا أنّ الكونت قد حذّره من أن يمسَّ الحديقة بأيّ شكلٍ كان. فتعزّى برتوتشو عن المنع بأن غمر بالزّهور الأبهاءَ والسلالمَ والمدفآت.

إنّ ما يشهد على علوّ كفاءة المدبّر وعمقِ معرفة السيّد، نقصد كفاءة الأوّل في أن يَخدُم، والثاني في أن يُخدَم؛ هو أنّ هذا المنزل، المهجور منذ عشرين عامًا، والذي كان إلى حدود أمس فقط غارقًا في الكآبة والظّلمة، ومضمّخًا بتلك الرّائحة الفاترة التي يمكن أن نسميها رائحة الزّمن، قد اتّخذ بين عشية وضحاها سمتًا ضاجًا بالحياة والعطور التي يفضّلها السيّدُ، سمتًا غطّى البيت حتّى درجات السّلالم؛ ذاك أنّ الكونت، ما إن يدخل المنزل، حتّى يجد طوع يده كتبَه وأسلحتَه؛ وتحت بصره لوحاته المفضّلة؛ وفي الأبهاء الكلابُ التي يحبُّ مداعبتها، والطّيور التي يحبُّ غناءها؛ الحالُ أنّ هذا المنزل الذي استيقظ بعد طول رقاد، كما قصر الجميلة النّائمة، صار يحيا، يغنّي، يتفتّح، شأنُه شأن تلك المنازل التي يطول بنا حبّها، وإذ تصيبنا مصيبةٌ تدفعنا إلى تركها، نهجرها مخلّفين فيها جزءًا من روحنا.

خدمٌ يتحرّكون مبتهجين في الفناء الجميل: فهؤلاء يديرون المطابخ، ويتحرّكون منزلقين على سلالم لم توضع إلا أمس، وكأنّما عاشوا في المنزل طيلة حياتهم؛ وأولئك يعمرون المخازن حيث الأدوات قد رُقّمت ورتّبت كأنّما هي موضوعةٌ هناك منذ خمسين سنةً؛ وفي الإسطبل الخيولُ أمام معالِفها تردُّ بالصّهيل على خدَمها الذين يكلّمونها باحترامٍ أكبر من ذاك الذي يكلّمُ به بعض الخدمِ أسيادَهم.

وكانت المكتبة موزّعةً إلى قسمينِ على جانبَيّ الجدار، وتحوي ما يقارب ألفَي مجلّد؛ رفٌّ بأكمله مخصّص للرّوايات المعاصرة، وحتّى

تلك التي صدرت أمس فقط، قد جيءَ بها واتّخذت موضعها إلى جانب مثيلاتها، تتبختر في جلدها الأحمر والذّهبي.ومن الجانب الآخر للمنزل، بالتّوازي مع المكتبة، كانت الدّفيئة[1]، تزيّنُها نباتاتٌ نادرةٌ تُزهر في أصص يابانية واسعة؛ وفي قلب الدّفيئة التي هي في الآن بهجةٌ للعين وللأنف، ثمّة بلياردو يبدو كأنّما فارقه اللّاعبون منذ ساعةٍ فقط، تاركين الكرات تموت فوق بساطه.

غرفةٌ واحدةٌ فقط وقّرها العبقريّ برتوتشو، فلم يغيّر فيها شيئًا. وهذه الغرفة الواقعة عند الرّكن الأيسر من الطّابق الأوّل، والتي يمكن الصّعود إليها عبر السّلم، والخروج منها عبر السلّم الخفيّ، كان يمرّ الخدمُ من أمامِها بفضولٍ، وبرتوتشو برعب.

في السّاعة الخامسة بالضّبط وصل الكونت إلى باب منزل أوتوي، يتبعه عليٌّ. وكان برتوتشو يرتقب هذه الزيارة بنفاد صبرٍ يخالطُه قلق؛ كان يرجو مديحًا من سيّده، ويخشى أن يقطّب حاجبيه.

نزل الكونت إلى البهو، وجاب المنزل بأكمله، ثمّ جال في الحديقة، صامتًا لا يفصح عن أدنى إشارةِ رضا أو استياء.غير أنّه لمّا دخل غرفة النّوم الواقعة في الجهة المقابلة للغرفة المغلقة، مدّ يده إلى دُرْجِ أثاثٍ صغيرٍ من خشب الورد، كان قد ميّزَه في زيارته الأولى.

قال: - هذا الدّرج لا يصلح إلا موضعًا للقّفازات.

أجاب برتوتشو راضيًا: - بالفعل يا صاحب السّعادة، افتحه وستجد فيه قفازات.

وفي باقي الأثاث أيضًا وجد الكونت ما كان ينتظر أن يجده، قوارير، سيجارًا، جواهر.

قال مرّة أخرى: - جيّد!

---

(1) بيت زجاجي يوضع في الحدائق عادةً، وتربّى فيه النّباتات.

انسحب السيّد برتوتشو راضي النّفس، لفرط ما كان التأثّر الذي يخلّفه هذا الرّجل في من هم حولَه، عظيمًا وقويًا وفعليًا.

وفي السّادسة بالضّبط، سُمع وقع حوافر حصانٍ أمام بوابة المدخل. كان القادمُ السيّد النّقيب بجيش الصبايحية، وقد امتطى جوادَه الجديد «مُدية».

كان الكونت ينتظر ماكسيميليان على درجات العتبة وقد علت شفتيه ابتسامة.

صاح موريل: - أنا على يقين بأنّي أوّل الواصلين! تعمّدت ذلك، لأظفر بك لحظةً على انفرادٍ قبل وصول الآخرين. جولي وإيمانويل يبلّغانك ألفَ تحية. أوَتدري كم هوَ رائعٌ هذا المكان! قل لي يا سيّدي الكونت: هل سيُحسن رجالك العناية بحصاني؟

- اطمئن يا عزيزي ماكسيميليان، إنّهم يعرفون ما يفعلون.

- الحقّ أنّه يحتاج تدليكًا. لو تدري أيّ مسافةٍ قطعها! كان كالسّيل الجارف!

أجابه مونت كريستو بنبرة أبٍ يتحدّث إلى ابنه: - وكيف! أليس حصانًا بخمسة آلاف فرنك!

قال موريل بابتسامته الصّريحة: - هل تتحسّر عليها؟

أجاب الكونت: - أنا؟ ليحفظني الرّبُ من الحسرة على المال! إنّما كنت لأتحسّر على الحصان لو لم يكن جيّدًا!

- إنّه جيّدٌ جدًا، حتّى إنّ السيّد دو شاتو رونو، أعرف النّاس بفرنسا، ودُبراي المعتاد على امتطاء خيول الوزارة العربية، لا يزالان يجدّان في إثري، ويقفوهما حصانا البارونة دانغلار اللذان يهرولان هرولةً تَرفع سرعتَهُما إلى ستّة فراسخ في السّاعة.

سأله الكونت: - هم إذًا قادمون في إثرك؟

- نعم، وها هم أولاء قد وصلوا.

وفي تلك اللحظة بالضبط، لاحت قرب سياجِ المنزل، الذي انفتح أمامها، عربةٌ يتصاعد الدّخانُ من مِقرنِها، وحصانانِ تكاد أنفاسهما تنقطع. وعلى الفور دارت العربة دورتها وتوقّفت أمام عتبة الباب، يلحقُها فارسان. وفي لحظةٍ كان السيّد دُبراي قد ترجّل عن صهوة حصانه وتقدم صوب الباب، وهناك مدّ يده إلى البارونة، فلمّا نزلت خصّتهُ بإيماءةٍ لم يلحظها غير الكونت.

غير أنّ الكونت ما كان يفلت شيئًا، وفي تلك الحركة لمح ورقةً بيضاء تكاد تكون، شأنها شأن الإيماءة، غير مرئيةٍ، ورقة انتقلت من يد السيّدة دانغلار إلى يد سكرتير الوزير بيُسرٍ يدلُّ على أنّ هذه عادةٌ مستقرّةٌ بينهما.

وخلف زوجته نزل المصرفيُّ، شاحبًا كأنما لم يخرج من عربته، وإنّما خرج من لحد.

ألقت السيّدة دانغلار في الأرجاء نظرةً خاطفةً مستكشفةً، نظرةً لم يفهم مغزاها سوى الكونت مونت كريستو، نظرةً مسحت بها الحديقةَ، والبهو، فواجهة البيت؛ ثمّ، وهي تكتم انفعالًا خفيفًا، لا شكّ في أنّه كان لينطبع على وجهها لو كان بمقدور وجهها أن يشحُب، قالت مخاطبةً السيّد موريل بينما تصعد عتبات المنزل:

- لو كنت من أصدقائي يا سيدي، لكنت سألتك هل حصانك للبيع.

ابتسم موريل ابتسامةً أقرب إلى التكشير، ثم استدار شطرَ الكونت كأنّما يرجوه إنقاذه من المأزق الذي وقع فيه.

فهمه الكونت، فأجاب السيّدة دانغلار:

- آه! سيّدتي، لمَ لم تتوجّهي بطلبك إليّ أنا؟

قالت البارونة: - لأنّ معك يا سيّدي لا يحقّ للمرء أن يطلبَ شيئًا، إذ لا يوجد أدنى احتمالٍ في أن يُمنعَ ما طلبَهُ. لذلك توجّهتُ إلى السيّد موريل.

أجاب الكونت: - للأسف، أنا شاهدٌ على أنّ السيّد موريل لا يستطيع التخلي عن حصانه لأنّ شرفه مقرونٌ بالحفاظ عليه.

- وكيف ذلك؟

- لقد راهن على أنّه يستطيع ترويض «مدية» في ستّة شهور. تفهمين إذًا لو أنّه تخلّى عن الحصان قبل نهاية الأمد المحدَّد، فلن يخسر الرّهان فحسب، وإنّما سيُعدُّ أيضًا جبانًا؛ إنّ السيّد موريل نقيب في جيش الصبايحية، فلا يستطيع أن يجازف بما يمسّ سمعتَه، حتّى وإن كانت مجازفته في سبيل تحقيق رغبة امرأةٍ جميلةٍ، الشّيء الذي يعدّ في نظري أمرًا مقدّسًا في عالمنا.

قال موريل وهو يرسل إلى الكونت ابتسامة عرفانٍ: - أرأيت يا سيّدتي...

قال دانغلار بنبرةٍ فظّة جاهَد في إخفائها خلف ابتسامةٍ واسعة: - ثمّ إنّه يبدو لي أنّ لديكِ ما يكفي من الأحصنة!

ولم يكن قطّ من عادة السيدة دانغلار أن تترك نظير هذا الهجوم من دون أن تردَّ عليه، لكنّها، وأمام دهشة الشبّان، تظاهرت بأنّها لم تسمع شيئًا، ولم تحر جوابًا.

اِبتسم مونت كريستو للصّمت الذي يشي بإهانةٍ غير لائقةٍ، وهو يشير للبارونة إلى مزهريّتين هائلتين من خزف صينيّ، تتسلّقهما ملتويةً نباتاتٌ بحريةٌ من الكِبَر والإبداع بحيث لا يمكن أن تشهد إلا على أصلهما الطّبيعي، إذ وحدها الطّبيعة قد تحوز هذا الثراء وهذا النّسغ وهذه الرّوح.

كانت البارونة مفتونة. قالت: - إه! بالإمكان أن نزرع هنا شجرة كستناء من حدائق تويلري! كيف أمكن طبخ فخّارٍ بهذا الحجم؟

قال مونت كريستو: - آه!هذا سؤال لا يُطرح علينا نحنُ صنّاع التّماثيل وزجاج المسلين؛ إنّ هذا شغلُ عصرٍ آخر، صنْعَةُ جنٍّ الأرض والبحر.

- كيف ذلك؟ وإلى أيّ عصرٍ قد ينتمي هذا الشّغل؟

- لا علم لي؛ لكنّني سمعت أنّ إمبراطورًا صينيًا قد شيّد فرنًا خاصًا؛ وداخل هذا الفرن طُبخت واحدةً بعد أخرى، اثنتا عشرة مزهريةً مثيلةً

لهاتين. مزهريّتان اثنتان انكسرتا لحدّة النّار؛ وأُنزلت العشر الباقيات إلى عمق ثلاثمائة قامةٍ تحت البحر. والبحرُ الذي كان يعرف المطلوب منه، لفّ حول المزهريات حبائله وشدّ عليها شعَبَه المرجانية وألصق بها أصدافَه؛ ثمّ ترسّخ كلّ ذلك بفعل مائتي سنةٍ من المكوث في الأعماق التي لا يصلها أحدٌ، إذ شاءت الحوادث أن تعصف ثورةٌ بالإمبراطور الذي جرّبَ تلك التجربة، ولم تُخلّف الثورةُ إلا التقرير الذي دوّن طبخَ المزهريات وإنزالها إلى أعماق البحر. بعد مائتي سنةٍ إذًا عُثر على التقرير، ففُكّرَ في استخراج المزهريات. غطس غواصون تحت آلاتٍ صُنعت خصيصًا لهذا الغرض، مستكشفين الخليجَ الذي كانت قد أُنزلت فيه؛ لكن من بين المزهريات العشر لم يُعثر إلا على ثلاث، السبعُ الأخرُ الباقيات اندثرت بعدما حطّمتها اللُّججُ. أحبّ هاتين المزهريّتين، ففي قعرهما أتصوّر أنّ الوحوش الشّائهة، المرعبة، الغامضة، الشّبيهة بتلك التي لا يراها إلا الغوّاصون، قد حدّقت فيها بنظراتها المظلمة الباردة؛ وأنّ أسماكًا لا تعدُّ ولا تُحصى قد لجأت إليها هربًا من أعدائها.

أثناء ذلك كان دانغلار، الذي ليس من هواة العجائب، منهمكًا يقطفُ آليًا زهورَ شجرة برتقالٍ جميلةٍ، زهرةً زهرة. ولمّا فرغ من أمر شجرة البرتقال مال على صبّارةٍ، غير أنّ مزاجَ الصّبارة كان أحدّ من مزاج البرتقالةِ، فوخزَتهُ النّبتةُ بشراسة.

انتفضَ، وفرك عينيه كأنّما خرج من حلم.

قال الكونت مونت كريستو باسمًا: - سيّدي، وأنت من هُواة اللّوحات ومُلاّك الأشياء المذهلة، لا أنصحك بأن تقترب من أشيائي هذه. لكن، ها لوحتان لهوبيما، ولوحةٌ لبول بوتر، وأخرى لميريس، ولوحتان لجرار دوو، ولوحةٌ لرافاييلو، وأخرى لفان ديك، وأخرى لثوربران، وثلاثٌ لموريّو، تستحقُّ جميعًا أن تنعم عليها بنظرتك.

قال دُبراي: - انظر! هذه لوحةٌ لهوبيما أعرفُها.

- آه! حقًا!

- نعم، لقد عُرضت على المتحف.

أجاب مونت كريستو: - المتحف الذي لا يملك مثلها، على ما أظنّ؟

- نعم لا يملك مثلها، لكنّه رفض شراءها.

سأله شاتو رونو: - لماذا؟

- ما أطيبك يا سيّدي! رفض شراءها لأنّ الحكومة ليست غنيّة إلى هذه الدّرجة.

قال شاتو رونو: - آه! عفوًا! منذ ثماني عشرة سنةً وأنا أسمع هذا الكلام يوميًا، ولم أعتده إلى الآن.

قال دُبراي: - سيأتي وقتٌ تعتادُه فيه.

أجابه شاتو رونو: - لا أظنُّ ذلك.

إذّاك صاح باتيستان: - سيّدي الرائد بارتولوميو كافالكانتي! والسيّد الفيكونت أندريا كافالكانتي!

ياقةٌ من السّاتان الأسود لتوّها خرجت من يد الصّانع، لحيةٌ مسرّحةٌ، شاربٌ رماديّ، عينٌ واثقةٌ، بدلة رائدٍ تزيّنُها ثلاثُ شاراتٍ وخمسةُ صلبان؛ بالجملةِ، زيٌّ عسكريٌّ لا يعيبُه عيبٌ، ذلكم كان الزيَّ الذي ظهر فيه الرّائد بارتولوميو كافالكانتي، الأب العطوف الذي نعرفه. وبجانبه كان يتقدّمُ، بملابس زاهيةٍ جديدة، وابتسامة على شفتيه، الفيكونت أندريا كافالكانتي، الابن البارّ الذي نعرفه أيضًا.

كان الشبّان الثلاثة يتحدّثون جميعًا؛ عيونهم انتقلت من الأب إلى الابن، وبالطّبع تسمّرت في الثاني مدّةً أطولَ، فأخذت تتفحّصه بالتّفصيل.

قال دُبراي: - كافالكانتي!

قال موريل: - اسم جميل!

قال شاتو رونو: - نعم، صحيح! هؤلاء الإيطاليون يحسنون اختيار الأسماء، لكنّهم يسيئون اختيار الملابس.

أجابه دُبراي: - أنت متطلّبٌ جدًا يا شاتو رونو؛ إنّ هذه الملابس جديدةٌ ومن يد صانعٍ رفيع.

- وهذا بالضّبط ما أعيبه عليهم. إنّ هذا الرّجل يبدو كأنّه يلبس اليومَ لأوّل مرّةٍ في حياته.

مال دانغلار على الكونت مونت كريستو يسأله: من هذان السيّدان؟

- كما سمعتَ، إنّهما من آل كافالكانتي.

- ما سمعتُه لم يعلمني سوى باسمَيهما، وهذا كلّ شيء.

- آه! نسيت أنّك لست على دراية بنبلائنا الإيطاليين: إنّ من يقول كافالكانتي، يقصد سلالةَ أمراء.

تساءل المصرفيّ: - وهل يملكون ثروةً عظيمةً؟

- هائلة.

- فيمَ يشتغلون؟

- يحاولون إهلاكَ ثروتهم، من دون أن يستطيعوا إلى ذلك سبيلًا. وبالمناسبة، لقد أخبراني، حين زاراني أوّل أمس، بأنّ لديهما حسابًا عندك. حتّى إنّني دعوتُهما لتلتقي بهما. سأعرّفك عليهما.

قال دانغلار: - لكن يبدو لي أنّهما يتحدّثان الفرنسية بطلاقة؟

- الولد قد ترعرع في معهدٍ بالجنوب، ربّما في مارسيليا، أو ضواحيها، على ما أحسب. ستجد فيه فتًى يتّقد حماسةً.

سألته البارونة: - يتّقد حماسةً لماذا؟

- للفرنسيات يا سيّدتي، إنّه مصمّم على الزّواج بامرأةٍ باريسية.

قال دانغلار هازًّا كتفيه: - يا لها من فكرةٍ نيّرة!

نظرت السيّدة دانغلار إلى زوجها نظرةً، لو أنّها نظرت بها إليه في سياقٍ آخر لكانت إنذارًا على نشوء عاصفةٍ. لكنّ المرأة صمتت للمرّة الثانية.

قال الكونت مونت كريستو للسيّدة دانغلار: - لا يبدو البارون اليومَ رائق المزاج؛ هل اقتُرح ليكون وزيرًا؟

- كلاّ، بحسب علمي. أعتقد بالأحرى أنّه راهنَ في البورصة، وخسر مراهنته، ويبحث عمّن يفرغ فيه سخطه.

صاح باتيستان: - السيّد والسيّدة دو فيلفور!

دخل الشّخصان اللّذان أُعلن وصولُهما؛ وعلى الرّغم من الصّلابة المشهود بها للسيّد دو فيلفور، إلاّ أنّ الانفعال كان باديًا عليه. وحين صافحه الكونت أحسّ بيده ترتجف.

قال الكونت مخاطبًا نفسَه وهو يرمق السيّدة دانغلار تبتسم لوكيل الملك وتقبّل زوجتَه: «يبدو أنّ النّساء وحدهنّ يُحسِنّ إخفاء مشاعرهنّ!».

وبعدما فُرغ من مجاملات الاستقبال، لمح الكونت برتوتشو، الذي كان حتّى تلك اللحظة مشغولًا في المكتب، ينسلُّ إلى صالون صغيرٍ مجاورٍ للصالون الذي كان فيه المدعوون.

قصدَه، وسأله: - ماذا تريد يا سيّد برتوتشو؟

- صاحب السّعادة لم يخبرني بعدد المدعوّين.

- آه! أنت محقّ.

- كم عدد أواني المائدة؟

- احسبْ بنفسك.

- هل وصل الجميع يا صاحب السّعادة؟

- نعم.

اختلس برتوتشو النظر من الباب الموارب، بينما الكونت يتأمّله.

صاح مدبّر المنزل: - يا إلهي!

سأله الكونت: - ماذا هنالك؟

- تلك المرأة! تلك المرأة!

- أيّ واحدةٍ؟

- تلك التي ترتدي فستانًا أبيض!وتغمرها الجواهر! الشقراء!

- السيّدة دانغلار؟

- لست أدري اسمها، لكنّها هي يا سيّدي، إنّها هي!

- هي من؟

- امرأة الحديقة! المرأة التي كانت حاملًا! التي كانت تتجوّل في الحديقة منتظرةً!... منتظرةً!...

بقي برتوتشو فاغر الفم، شاحب الوجه، وقد وقف شعره كالإبر.

- منتظرةً من؟

من دون أن ينطق بكلمة، أشار برتوتشو بإصبعه إلى فيلفور، بطريقةٍ تكاد تشاكل تلك التي أشار بها ماكبث إلى بانكو.

ثمّ انفكّ لسانُه أخيرًا، فغمغم: - أوه! يا سيّدي، هل ترى؟

- أرى ماذا؟ أرى من؟

- هو!

- هو! السيّد فيلفور وكيل الملك؟ أراه بلا شك.

- لكن، ألم أقتُله!

- آه! يبدو أنّك قد فقدت صوابَك يا سيّد برتوتشو.

- هو لم يمت إذًا؟

- كلّا، لم يمُت! أنت ترى ذلك: بدلًا من أن تطعنه بين الضلعين السادس والسابع من جهة القلب، على عادة أبناء بلدك، لا شكّ في أنّك قد طعنته أعلى من ذلك أو أدنى؛ ورجال القضاء هؤلاء أرواحُهم ناشبةٌ في أجسادهم؛ أو لربّما لم يحدُث شيءٌ ممّا قصصتَه عليَّ، وليس ذلك سوى حُلم صنعته مخيّلتُك، أو هلوسةٌ خلقَها عقلُك؛ إذ نمتَ من دون أن تهضمَ انتقامك، فأثقلت على معدتك، فأوحت إليك بكابوسٍ، وهذا كلّ ما في الأمر. هيّا، عُد إلى صوابِك، وأكملِ العدَّ: السيّد والسيّدة دو فيلفور، اثنان؛ ثمّ السيّد والسيدة دانغلار، أربعة؛ والسّيّد دو شاتو رونو، والسيّد دُبراي، والسيّد موريل، سبعة؛ ثمّ الرّائد بارتولوميو، ثمانية.

ردّد برتوتشو: - ثمانية!

- مهلًا، مهلًا، كأنّك مستعجلُ الذّهابَ! اللعنة! ها قد نسيتَ أحد ضيوفي. انظر إلى اليسار قليلًا، هناك... السيّد أندريا كافالكانتي، الشّاب الذي يتأمّل لوحة موريّو «السيّدة العذراء»، والذي يستدير شطرنا الآن.

وهذه المرّة كاد يطلقُ برتوتشو صرخةً، وأدها الكونت على شفتَيه.

قال هامسًا: - بنيديتو! يا لتدابير القدر!

قال الكونت صارمًا: - لقد دقّت السّادسة والنّصف يا سيّد برتوتشو؛ وهي السّاعةُ التي أمرتُ بأن يجلس فيها الضيوف إلى المائدة. تعلم أنّي لا أحبّ الانتظار.

ثمّ إنّ الكونت مونت كريستو عاد إلى الصالون حيث ينتظره ضيوفُه، بينما عاد برتوتشو إلى حجرة الطّعام مستندًا إلى الحائط. وما هي إلا خمس دقائق حتّى انفتح بابا الصالون، وظهر برتوتشو، باذلًا جهدًا كبيرًا، وعلى طريقة فاتيل شانتييه(1)، قال:

- المائدةُ جاهزةٌ يا سيّدي الكونت.

مدّ الكونت ذراعَه إلى السيّدة دو فيلفور. وقال:

- سيّدي دو فيلفور، رافق السيّدة البارونة دانغلار، رجاءً.

أطاع فيلفور الأمر، وانتقل الجميع إلى حجرة الطّعام.

---

(1) أحد أهمّ وأشهر منظمي الحفلات في فرنسا القرن السابع عشر، من أصول سويسرية، كان يشتغل في بلاط الملوك والأمراء، وقد اغتيل أثناء تقديمه العشاء في إحدى الحفلات.

63

العشاء

بديهيٌّ أنّ شعورًا مشتركًا كان يهزّ الضّيوف وهم ينتقلون إلى حجرة الطّعام. وسؤالًا موحّدًا يعتمل في صدورهم جميعًا: أي تأثيرٍ عجيبٍ جذبهم جميعًا إلى هذا المنزل؛ ومع أنّهم كانوا جميعًا ذاهلين، وبعضهم حتّى قلقين من التّواجد في المنزل، إلا أنّ لا أحد منهم يريد ألّا يكون فيه.

إنّ العلاقات حديثة العهد، وطبع الكونت الغريب والانعزالي، وثروته المجهولة الهائلة، كلّ ذلك كان يتضافر ليفرض على الرّجال الحذر، وعلى النّساء المنع من دخول هذا البيت الذي ليس فيه امرأةٌ تستقبلهنّ. ومع ذلك تجاوز الرّجال الحذر والنّساء المنع؛ إذ حثّهم الفضول بمهمازه الذي لا يقدر أن يُقاومه أحدٌ.

حتّى آل كافالكانتي، الأب والابن، على الرّغم من صلابة أحدهما ولا مبالاة الآخر، كانا يبدوان مشغولين أن اجتمعا، عند هذا الرّجل الذي لا يعرفان له غايةً، مع هؤلاء النّاس الذين يقابلونهم لأوّل مرّة.

ندّت عن السيّدة دانغلار حركةٌ حين رأت السيّد دو فيلفور يدنو منها، بدعوةٍ من الكونت مونت كريستو، ويمدّ إليها ذراعه؛ أمّا السيّد دو فيلفور، فقد أحسّ نظرته ترتجف من وراء نظّاراته، حين أحسّ ذراع البارونة تحطّ فوق ذراعه.

ولم تغب عن الكونت حركةٌ من تينك الحركتَيْن؛ وكان في مجرّد الجمع بين الشّخصيات ضمن هذا المشهد، ما يكفي ليثير اهتمام الملاحظ.

عن يمين السيّد دو فيلفور جلست السيّدةُ دانغلار، وعن شماله السيّدُ موريل. وجلس الكونت بين السيّدة دو فيلفور والسيّد دانغلار. وباقي المقاعد شغلها دُبراي، جالسًا بين كافالكانتي الأب وكافالكانتي الابن؛ وشاتو رونو، جالسًا بين السيّدة دو فيلفور، والسيّد موريل.

كان الطّعام رائعًا. وقد حرص الكونت مونت كريستو على أن يقلبَ تمامًا الصرامة الباريسية، وأن يثير فضول ضيوفه أكثر ممّا يثير شهيّتهم. كانت وليمةً شرقية، لكن شرقيّة على شاكلة ما يكون في قصص الجنيّات العربية.

كلّ الفواكه التي بوسع أركان العالم الأربعة أن تصبّها طازجة لذيذةً في قرن الوفرة[1] الأوروبيّ، كانت مرصوصةً على شكلِ أهرام في المزهريات الصّينية والكؤوس اليابانية؛ والطّيور النّادرة مع الأجزاء البرّاقة من ريشها؛ والأسماك الهائلةُ ممدّدة على أطباق الفضّة؛ وكلّ أنبذة الأرخبيل، وآسيا الصّغرى، والرأس، في قوارير عجيبة الأشكال تبدو مناظرها كأنّما تزيد النّبيذ نكهةً؛ كلّ ذلك يمرّ، كإحدى تلك الوصفات التي كان أبيسيوس[2] يمرّرها بين ضيوفه، أمام عيون هؤلاء الباريسيّين الذين يدركون كلّ الإدراك أنّ المرء قد يصرف ألف لويسيّة في عشاءٍ يحضره عشرة أشخاصٍ، شرط أن يُقدّم فيه طعامٌ كاللّؤلؤ الذي أكلته كليوباترا، أو شرابٌ كالذّهب المُذاب الذي كان يشربه لورينزو آل مديتشي.

رأى مونت كريستو الذّهول مطبقًا على الجميع، فأخذ يضحك، ساخرًا بصوتٍ عالٍ.

قال: – سادتي، سوف توافقونني الرّأي أنّ المرء حين يبلغ درجةً من

---

(1) تُرجع الرّوايات قرن الوفرة Cornucopia تارةً إلى الميثولوجيا اليونانية، وطورًا إلى الميثولوجيا الرّومانية، وهو رمزٌ لوفرة الطّعام، شاع استعماله في الفنّ.

(2) كابيوس باركوس أبيسيوس، معلّم طبخ روماني شهير (القرن الميلادي الأوّل)، عُرف بابتكار وصفات كان يمرّرها بين ضيوفه.

الثّراء، لا يعود يرى ضروريًا إلا غير الضّروريّ؛ مثلما ستوافقني هاتان السّيّدتان أنّنا حين نبلغ درجةً من السّمو، لا يبقى ثمّة من موضوعيٍّ إلّا الكمال؟ لكن، إن واصلنا استدلالنا، ما العجيب؟ العجيب هو ما لا نفهمه. أيّ خيرٍ نرجوه فعلًا؟ هو الخير الذي لن نستطيع أن نُصِيبَه. لكن، أن أرى أشياء لا أستطيع فهمها، أو أحصل على أشياء يستحيل الحصول عليها، هذا هو ما أوقفتُ حياتي عليه. وأبلغُ مرادي بوسيلتين: المال والإرادة. على سبيل المثال: قد أثابر في ملاحقةِ رغبة، قدْر مثابرتك يا سيّد دانغلار في شقّ طريقِ سكّة حديد جديدة؛ أو مثابرتك يا سيدي فيلفور في إرسال شخصٍ إلى الإعدام، أو مثابرتك يا سيّدي دُبراي في إرساء أمن المملكة، أو مثابرتك يا سيّدي شاتو رونو في نيل إعجاب امرأةٍ؛ أو مثابرتك يا سيّدي موريل في ترويض حصانٍ لم يستطع أحدٌ ركوبَه. ودونكم مثالٌ: هاتان السّمكتان، إحداهما وُلدت على بعد خمسين فرسخًا من سانبطرسبورغ، والثانية على بعد خمسة فراسخ من نابولي: أليس ممتعًا جمعُهما إلى نفس المائدة؟

سأله دانغلار: - وأيّ الأسماك هاتان؟

أجابه مونت كريستو: - دونك السيّد شاتو رونو، الذي أقام في روسيا، يخبرك باسم إحداهما، والسيّد كافالكانتي الإيطالي يخبرك باسم الثانية.

قال شاتو رونو: - هذه على ما أظنُّ سمكة حفش سيبيريّ.

- تمامًا.

وقال كافالكانتي: - وهذه، أظنّ سمكة جلكي.

- هو ذاك. والآن، يا سيّدي دانغلار، سَلِ الرّجُلين أين تُصاد هذه الأسماك؟

قال شاتو رونو: - إنّ الحفش السيبيريّ لا يُصادُ إلا في نهر الفولغا.

وقال كافالكانتي: - لا أعرف إلا بحيرة فوسارو تعطي أسماك جلكي بهذا الحجم.

- والحالُ أنّ بالفعل إحداهما من نهر الفولغا، والثانية من بحيرة فوسارو.

صاح الضّيوف جميعًا: - مستحيل!

قال مونت كريستو: - وهذه تحديدًا متعتي. أنا مثل نيرون: **cupitor**[1]**impossibilium**؛ وها متعتكم أيضًا، في هذه اللّحظة؛ هوذا هذا اللّحمُ الذي قد لا يكون في الواقع بأرفع من الفرخ أو السّلمون، وقد صار في أنظاركم فاخرًا، إذ إنّ أذهانكم تظنُّ الحصول عليه مستحيلًا، وإذا به معروضًا أمامكم.

- لكن كيف استطعتم نقل هاتين السّمكتين إلى باريس؟

- أوه! إلهي! لا أبسط من ذلك: نقلنا كلّ واحدة منهما في برميل مبطّن؛ فواحدٌ مبطّنٌ بالقصب وأعشاب النّهر، والثاني بالأسل ونبات البحيرة؛ ثمّ وضعتا في شاحناتٍ عُدّت لهذا الغرض، فظلّتا على تلك الحال مدّةً: سمكة الحفش اثنا عشر يومًا وسمكة الجلكي ثمانية أيّام؛ وكانتا معًا لا تزالان حيّتين حين عالج طبّاخي بالموت إحداهما في الحليب، والثانية في النّبيذ. لا تصدّق ذلك يا سيّدي دانغلار؟

أجابه دانغلار وعلى شفتيه ابتسامته الثّقيلة: - أشكّ على الأقلّ.

قال مونت كريستو: - باتيستان! هات سمكتَي الحفش والجلكي الأخرين، اللتين جُلبتا في برميلين آخرين، ولا تزالان حيّتين.

جحظت عينا دانغلار، وصفّق الحضور.

دخل أربعة خدمٍ حاملين برميلين مزيّنين بالأعشاب البحرية، في كلّ برميل منهما تخفقُ سمكةٌ شبيهةٌ بواحدةٍ من السّمكتين المعروضتين على المائدة.

سأله دانغلار: - لكن لمَ جلبت سمكتين من كلّ نوع.

---

(1) السّاعي إلى المستحيل.

أجابه مونت كريستو: – لأنّ إحداهما قد تموت، ببساطة.

قال دانغلار: – أنت حقًا رجلٌ مذهل، ومهما قال الفلاسفةُ يظلُّ الثراء شيئًا رائعًا.

قالت السيّدة دانغلار:– الثراء، وقبله الأفكار النيّرة.

– أوه هذا الشّرف لا أستحقّه يا سيّدتي؛ سبقني الرّومان، فكانت هذه ممارسة شائعةً عندهم؛ حتّى إنّ بلين يحكي أنّهم كانوا يرسلون، بنفس الطّريقة، من أوستيا إلى روما، مع قوافل العبيد الأسماكَ التي يسمّونها مولوس، والتي بحسب الوصف الذي يخصّه بها قد تكون على الأرجح سمكة الدنيس. من الرفاهة أن يحصل عليها المرء حيّة، ومن الممتع أن يتابعها تموت إذ تغيّر لونها ثلاث مرّات أو أربعًا، ومثل قوس قزح يذوي تمرّ من ألوان الطّيف كلّها، بعد ذلك نرسلها إلى المطابخ. إنّ احتضارها جزءٌ من شرفها. من لم يرَها حيّةً، بخسها ميّتةً.

قال دوبري: – نعم، لكن لا تفصل روما عن أوستيا إلا سبعة فراسخ أو ثمانية.

أجابه مونت كريستو: – آه! صحيح! لكن أيّ شرفٍ نحوزُه، إن أتينا ثمانية عشر قرنًا بعد لوكولوس، ولم نفعل أفضل منه؟

جحظت عينا السيّدَين كافالكانتي دهشةً، لكنّهما تعقّلا ولم ينبسا بكلمة.

قال شاتو رونو: – كلّ شيءٍ رائعٌ يا سيّدي؛ لكنّ أشدّ ما يدهشني هو المهارة والدّقة اللتين تُقدَّم بهما الخدمة. أليس صحيحًا أنّك لم تشترِ هذا المنزل إلا منذ خمسة أيام أو ستّة؟

أجابه الكونت: – على الأكثر، والحقّ أقول!

– وإذًا! إنّي متأكّد أنّه في غضون تلك الأيام، قد خضع لتحوّل جذريّ؛ إذ، إن لم تخنّي الذّاكرة، كان له مدخلٌ آخر غير هذا، وكان الفناء مبلّطًا وفارغًا؛ واليوم صار الفناء مغطّى بعشبٍ رائعٍ تحفُّه الأشجارُ التي يبدو عمرُها مائة سنة.

أجاب مونت كريستو: - ما العمل؟ إنّي أحبُّ الخضرة والظلَّ.

قالت السيّدة دو فيلفور: - بالفعل، فيما مضى كنّا ندخل عبر بابٍ ينفتح على الطّريق، وذاك اليوم الذي أُنقذتُ فيه بمعجزة، كنت قد أدخلتني إلى المنزل من جهة الطّريق على ما أذكر.

أجاب مونت كريستو: - نعم يا سيّدتي، لكن منذ ذلك الوقت فضّلتُ تغيير المدخل إلى جهةٍ أستطيع أن أنظر منها إلى غابة بولوني.

قال موريل: - في أربعة أيّام! عملٌ مذهل!

قال شاتو رونو: - الحقّ إنّ تحويل منزل قديمٍ إلى منزل جديد أمرٌ معجزٌ؛ ذاك أنّ المنزل كان قديمًا جدًا، لا بل حزينًا جدًا. أذكر أنّ أمّي قد كلّفتني بتفقّده حين عرضه السيّد دو سان مران للبيع منذ سنتين أو ثلاث.

قالت السيّدة دو فيلفور: - السيّد دو سان مِران؟ كان المنزل إذاً في ملكيّته قبل أن تشتريه يا سيّدي الكونت؟

أجابها الكونت مونت كريستو: - يبدو ذلك.

- كيف «يبدو ذلك»! ألا تعرف ممّن اشتريت البيت؟

- صدقًا لا أعرف، إنّ مدبّر المنزل هو من يتكلّف بكلّ التّفاصيل.

قال شاتو رونو: - صحيح أنّه لم يُسكَن منذ ما يزيد على عشر سنين؛ وكم كان مؤسفًا منظر منافذه المغلقة، وأبوابه المقفلة، والأعشاب في الحديقة. والحقّ، لولا أنّه كان في ملكية صهر وكيل ملك، لكان قد عُدّ منزلًا ملعونًا، منزلًا شهد جرائمَ عظيمةً.

تناول فيلفور، الذي لم يكُن قد مَسّ حتّى تلك اللحظة أيًّا من كؤوس النّبيذ الأربع التي كانت موضوعةً أمامَه، فلنا تناول أحدها اعتباطًا وصبّه في جوفه دفعةً واحدة.

انتظر مونت كريستو لحظةً، ثمّ قطع الصّمت الذي تلا كلام شاتو رونو:

- عجيبٌ يا سيّدي البارون، لقد خطرت لي الفكرة نفسُها حين دخلت

هنا أوّلَ مرّة؛ وقد بدا لي المنزل كئيبًا حتّى الرّعب، إلى درجة أنّني لم أكن لأشتريَه لولا أنّ مدبّر المنزل كان قد فعل ذلك. لا شكّ في أنّ الماكر قد حصل على إكرامية من السمسار على بيع المنزل.

غمغم فيلفور محاولًا الابتسام: - غير مستبعدٍ ذلك، لكن صدّقني، لا علاقة لي بتلك الرّشوة. لقد أراد السيّد دو سان مران بيع هذا المنزل الذي يعدّ من إرث حفيدته، لأنّه لو بقي ثلاث سنواتٍ أخرى أو أربعًا، لصارَ خرابًا.

وهذه المرّة أتى الدّور على موريل ليشحب.

استأنف الكونت الكلام: - كانت ثمّة غرفةٌ على وجه التخصيص. آه! يا إلهي! غرفةٌ، وإن كانت بسيطة في مظهرها، عادية كأيّ غرفةٍ أخرى، مفروشة بالدّمقس الأحمر، إلا أنّها بدت لي، لسبب أجهله، مأساويةً إلى أبعد حدٍ.

سأله دُبراي: - لمَ ذلك؟ لمَ بدت لك مأساويّة؟

أجابه الكونت: - وهل بمقدورنا فهم الأشياء التي نحدسها بغريزتنا؟ ألا توجد أماكن نحسّ فيها تلقائيًا أنّنا نتنفّس الحزن؟ لماذا؟ لا ندري؛ ربما بتأثيرٍ من ذكرى، من نزوةِ فكرٍ تحملنا إلى أزمنة أخرى، وأمكنة أخرى، أزمنةٍ وأمكنة ربّما لا تجمعُها أيّ علاقة بالزّمان والمكان الذي نوجد فيه. لشدّ ما كانت تلك الغرفة تذكّرني بغرفة ماركيزة غانج[1] أو ديدمونة. إيه! يا إلهي، بما أنّنا قد فرغنا من الطّعام، ينبغي أن أريكم الغرفة؛ ثمّ ننزل لنحتسي القهوة في الحديقة؛ فبعد العشاء العرضُ.

أشار الكونت إلى الضيوف مستفهمًا. قامت السيّدة دو فيلفور، ومثلها فعل الكونت، ثمّ سار على نهجهم باقي المدعوّين.

---

(1) في كتابه «جرائم شهيرة» (1839–1840)، ذكر دوما جريمة اغتيال الماركيزة غانج بالسّم على يد صِهرَيْها: الرّاهب غانج والفارسُ غانج.

ظلّ فيلفور والسيّدة دانغلار لحظةً جالسين كالمسمَّرَيْن إلى كرسيّيهما؛ بعينيهما كانا يتساءلان، بارديْن، وصامتين، وجامدين.

قالت السيّدة دانغلار: - هل سمعتَ؟

أجابها فيلفور وهو يقوم مادًّا إليها ذراعه: - ينبغي أن نذهب معهم.

كان الجميع قد انتشروا في المنزل، مدفوعين بالفضول؛ إذ كانوا يعتقدون بأنّ الجولة لن تتوقّف عند حدود تلك الغرفة، وإنّما ينبغي استغلال المناسبة لتفقّد المسكن الذي حوّله الكونت مونت كريستو إلى قصر. انطلق الجميع إذًا عبر الأبواب المفتوحة. ومكث الكونت منتظرًا المتخلِّفَيْن عن الجمع؛ ثمّ إذ صار خلف الجميع، ختمَ الكونت المسيرة مبتسمًا ابتسامةً، لو فُهم معناها لأرعبَ الحضورَ أشدّ ممّا يمكن أن ترعبهم تلك الغرفة التي يتأهّبون لدخولها.

بدأ المدعوّون بتفقّد الأجنحة، والغرف المؤثّثة على شاكلة الغرف الشّرقية، حيث لا أَسرّةَ إلا الأرائك والوسائد، ولا أثاث إلا الغلايين والأسلحة؛ والصّالونات المزيّنة بأجمل لوحات م[illegible] الرّسم الكبار؛ والخدور من أقمشة الصّين ذات الألوان الزّاهية، والرسوم العجيبة، والأثواب الرائعة؛ ثمّ بلغوا أخيرًا الغرفة المعلومة.

كانت غرفةً عادية، بلا أيّ شيء مميّز، اللهمّ إلّا أنّها لم تُضأ وإن كان النّهار قد رحل، وأنّها كانت ذات أثاث بالٍ بخلاف باقي الغرف التي اكتست حلّةً جديدة.

وكان ذانك السّببان كافيين لكي تُضفى عليها مسحةٌ من وحشة.

صاحت السيّدة دو فيلفور: - أوه! إنّها حقًا مُخيفة.

حاولت السيّدة دانغلار أن تتمتم بكلماتٍ غير مسموعة.

تبادل الحضور ملاحظاتٍ كثيرةً، أجمعت على أنّ غرفة الدّمقس الأحمر كانت بالفعل مخيفة المنظر. قال الكونت مونت كريستو:

- أليس كذلك؟ تأمّلوا الوضع الغريب الذي وُضع به السّرير، وأيّ

لونٍ كامدٍ دمويّ عليه؛ وانظروا إلى البورتريهين المرسومين بأصباغ الباستيل، وقد أبلتهُما الرّطوبة، ألا يبدو أنّهما يقولان، بشفاههما الباهتة وعيونهما المرعوبة: «لقد رأيت!».

شحب فيلفور، وتهاوت السيّدة دانغلار على كرسيّ كان موضوعًا قرب المدفأة.

قالت السيّدة فيلفور باسمةً: - أوه! كيف واتتكِ الشجاعة أن تجلسي على هذا الكرسيّ الذي ربّما فيه وقعت الجريمة؟

قامت السيّدة دانغلار كالملسوعة.

قال الكونت مونت كريستو: - ثمّ إنّ هذا ليس كلّ شيء.

سأله دُبراي الذي لم يغب عنه ما اعترى السيّدة دانغلار من انفعال:- ماذا هنالك أيضًا؟

أضاف دانغلار: - آه! نعم، ماذا هنالك أيضًا؟ إذ أعترف أنّي حتّى هذه اللّحظة لا أرى شيئًا ذا أهميّة... وماذا عنك يا سيّد كافالكانتي؟

أجابه كافالكانتي: - آه! في إيطاليا، لدينا في بيزا بُرج أوغولان، وفي فيرارا سجنُ تاسّا، وفي ريميني غُرفةُ فرانتشيسكا وباولو.

عقّب الكونت مونت كريستو وهو يفتح بابًا خفيًا متواريًا في نسيج الجدران:- أجل، لكن ليس لديكم مثل هذا السلّم الصغير: أنظروا إليه، وأخبروني رأيَكُم.

قال شاتو رونو ضاحكًا: - يا له من سلّم مخيف!

عقّب دُبراي: - لا أدري ما إذا كان نبيذ سيو هو الذي يصيبني بهذه السّوداوية، ولكنّني أرى هذا المنزل مظلمًا.

أمّا موريل، فمُذ ذُكر أمر ميراث فالانتين، وهو صامتٌ حزينٌ لم ينطق بكلمة.

قال مونت كريستو: -أتتخيّلون صورة عُطيل، أو الراهب غانج، نازلًا هذا السلّم درجةً درجة، في ليلةٍ عاصفٍ، بَهيمةٍ، حاملًا عبئًا يتحرّق إلى أن يواريه عن أعيُن البشر، إن لم يستطع إخفاءه عن عيون الربّ!

هوت السيّدة دانغلار على ذراع فيلفور شبه مغشيٍّ عليها، واضطُرّ هو نفسُه إلى الاستناد إلى الجدار.

صاح دُبراي: - يا إلهي! ما بك سيّدتي؟ ما أشحب لونَك!

وقالت السيّدة فيلفور: - ما بها؟ إنّ ما بها بسيط؛ بها أنّ السيّدَ الكونت مونت كريستو، يقصّ علينا قصصًا رهيبةً، بهدف إرعابنا بلا شكّ!

قال فيلفور: - أجل، أجل. الحقُّ أنّك تخيف السيّدتين يا سيّدي الكونت.

كرّر دوبري سؤاله بصوتٍ هامسٍ: - ما بك؟

أجابته السيّدة دانغلار بجهدٍ: - لا شيء، لا شيء، أحتاج أن أتنفّس الهواء، وهذا كلّ ما في الأمر.

سألها دُبراي وهو يمدّ إليها يده ويتقدّم نحو السلّم الخفيّ: - هل تريدين النّزول إلى الحديقة؟

أجابته: - كلّا، كلّا؛ أفضّلُ البقاء هنا.

سألها الكونت مونت كريستو: - هل ارتعبتِ حقًا يا سيّدتي؟

أجابته السيّدة دانغلار: - كلّا يا سيّدي؛ لكنّ لديك طريقةً في تخيّل الأشياء، تجعلُها تبدو كأنّما هي واقعيّةٌ.

قال الكونت مبتسمًا: - أوه! يا إلهي، كلّ ما أقوله ما هو إلا وليد خيالي؛ إذ ما المانع في أن نتخيّل هذه الغرفة غرفةً عاديةً وطبيعيةً عاشت فيها ربّةُ أُسرةٍ؟ وهذا السّرير بغطائه ذي اللّون الأرجوانيّ سريرًا مرّت منه الإلهةُ لوسينا[1]؛ والسلّمَ الغامض ممرًّا يسلكه بهدوءٍ، كي لا يزعج نومَ المرأة النّفساء، الطّبيبُ أو المُرضعةُ، أو حتّى الزّوجُ نفسه، حاملًا الرّضيع النّائمَ؟...

وهذه المرّة، بدلًا من أن تطمئنّ السيّدة دانغلار للّوحة العذبة التي يرسمها الكونت، أطلقت صيحة وأُغميَ عليها تمامًا.

---

(1) آلهة النّور عند الرّومان، وتحضر ساعة الولادة.

غمغم فيلفور: – إنّ السيّدة دانغلار ليست على ما يُرام؛ ربّما يجدر بنا حملُها إلى عربتها.

قال مونت كريستو: – أوه، يا إلهي! لقد نسيت قارورة الدّواء!

قالت السيّدة فيلفور: – معي قارورتي!

ثمّ مدّت إلى الكونت مونت كريستوقارورة مليئة بسائل أحمر شبيه بذاك الذي جرّبه الكونت على إدوارد فانتفع به الولد.

بينما الكونت يأخذ القارورة من يدها قالت هامسةً: – نعم، لقد جرّبت الخلطة، متّبعةً تعليماتك.

– ونجحت؟

– أظنُّ ذلك.

حملوا السيّدة دانغلار إلى غرفة مجاورة، وصبّ الكونت مونت كريستو بين شفتيها قطرةً من الشرابالأحمر، فاستعادت وعيها.

قالت: – يا إلهي، أيّ حُلمٍ مرعبٍ هو!

ضغط فيلفور بقوّةٍ على معصمها كي يُفهمها بأنّها لم تكن تحلم. بحثوا عن السيّد دانغلار؛ لكنّه، لقلة اهتمامه بالانطباعات الشعرية، كان قد نزل إلى الحديقة، وانخرط في حديث مع السيّد كافالكانتي حول مشروع سكّة حديد تصل مدينة ليفورنو بمدينة فلورنسا.بوجه بدا يائسًا؛ تأبّط مونت كريستو ذراع السيّدة دانغلار واقتادها إلى الحديقة، حيث وجدا السيّد دانغلار يشرب القهوة مع السيّدين كافالكانتي، نقصد الأب وابنَه.

قال: – اصدقيني القول يا سيّدتي، هل أخفتُك؟

– كلاّ يا سيّدي، لكنّك تعلم أنّ الأشياء تؤثّر فينا بحسب استعداد نفوسنا لتقبّلها.

ابتسم فيلفور على مضض، وقال:

– وإذًا، أنت تفهم يا سيّدي، يكفي افتراضٌ، أو خيالٌ...

أجابه الكونت مونت كريستو: - حسنًا! إن شئتَ ألّا تصدّق، فلا تصدّق، لكنّي على يقين من أنّ هذا المنزل كان مسرحًا لجريمة.

قالت السيّدة دو فيلفور: - انتبه لما تقوله، فإنّ معنا وكيل الملك.

أجابها مونت كريستو: - الحقّ أقول، بما أنّ الأمر على هذا النّحو، فسأستغلّ الفرصة لأدليَ ببلاغي.

قال فيلفور: - بلاغك؟

- أجل، وسأفعل ذلك أمام شهود.

قال دُبراي: - الأمرُ مثيرٌ للاهتمام، وإن كان المكان قد شهد بالفعل جريمةً، فهذا خيرُ ما نهضمُ به عشاءَنا.

قال الكونت: - ثمّة جريمةٌ بالفعل. تعالوا إلى هنا يا سادة؛ تعال يا سيّد دو فيلفور، فلكي يكون البلاغ صحيحًا ينبغي أن يُتوجَّه به إلى السلطات المختصّة.

أمسك مونت كريستو بذراع دو فيلفور، وفي الآن نفسه تأبّط بيده الأخرى ذراع السيّدة دانغلار، وسحبهما إلى تحت شجرة الدلب حيث كان الظلّ أشدّ كثافةً.

عندما تبعهم المدعوّون جميعًا، قال مونت كريستو: - انظروا، هنا، في هذا الموضع نفسه (وضرب بقدمه على الأرض)، هنا أردت أن أشبّب الأشجار التي شاخت، فحفرت وأضفت ترابًا؛ وإذًا! بينما يحفر العمّالُ الأرض، اكتشفوا صندوقًا، أو بالأحرى أشلاء صندوقٍ، وفي وسطها كان ثمّة هيكل طفلٍ رضيع. ليس ما أقولُه توهّمًا، على ما أحسبُ؟

شعر الكونت مونت كريستو بذراع السيّدة دانغلار تتصلّب، وبقبضة فيلفور ترتجف.

قال دُبراي: - طفلٌ رضيع! اللعنة! يبدو أنّ الأمور بدأت تنحو منحى الجديّة.

قال شاتو رونو: - وإذًا! لم أكن مخطئًا حين ادّعيت، قبل قليل، أنّ

المنازل كالنّاس لها أرواحٌ، ولها وجوهٌ، وأنّ هيأتها تعكسُ دواخلها. لقد كان هذا المنزل حزينًا لأنّ به ندمًا، وكان به ندمٌ لأنّه كان يخفي جريمةً.

قال فيلفور بما بقيَ فيه من جهد: - أوه! من قال إنّها جريمةٌ؟

صاح مونت كريستو: - أوه! طفلٌ، دُفنَ حيًا في حديقة، أليست جريمةً؟ كيف تسمّي هذا الفعل يا سيّدي وكيل الملك؟

- وكيف عرفت أنّه دُفن حيًّا؟

- ولمَ يُدفن هنا إن كان ميتًا؟ لم تكن هذه الحديقة قطّ مقبرة.

سأل الرّائد كافالكانتي بسذاجة: - ما عقوبة من يقتل طفلًا في هذا البلد؟

أجاب دانغلار: - يا إلهي! تُقطع رأسُه ببساطة.

قال كافالكانتي: - آه! تُقطع رأسُه...

قال مونت كريستو: - ذلك ما أظنُّه... أليس كذلك يا سيّدي فيلفور؟

أجابه فيلفور بنبرةٍ ليس فيها حسُّ نبرةِ بشر: - أجل يا سيّدي الكونت.

ارتأى مونت كريستو أنّ الشّخصيّتين اللتين قد جُهّز لهما هذا المسرح، قد بلغتا وسع ما تقدره طاقتُهما، فلم يرغب في دفعهما أبعد من ذلك. قال:

- يبدو لي أنّنا قد نسينا القهوة يا سادة.

ثمّ اقتاد ضيوفه إلى مائدةٍ نُصبت وسط العشب.

قالت السيّدة دانغلار: - الحقّ يا سيّدي الكونت أنا خجلانةٌ من ضعفي، لكنّ كلّ هذه القصة المرعبة قد صدمتني؛ دعني أجلسُ رجاءً.

ثمّ تهاوت على كرسيٍّ.

حيّاها الكونت، ثمّ دنا من السيّدة دو فيلفور.

قال: - أظنُّ السيّدة دانغلار لا تزال بحاجةٍ إلى قارورتك.

لكن قبل أن تدنو السيّدة دو فيلفور من صديقتها، كان وكيل الملك قد مال على أذن السيّدة دانغلار، وهمس إليها:

- يجب أن نتحدّث.
- متى؟
- غدًا.
- أين؟
- في مكتبي... بالمحكمة إن أردتِ، فهذا آمنُ مكانٍ.
- سآتي.
إذّاك اقتربت السيّدة دو فيلفور.
قالت السيّدة دانغلار محاولةً الابتسام: - شكرًا يا صديقتي العزيزة، لا بأس، أنا بحالٍ أفضل.

64

الشحّاذ

ثمّ إنّ السّهرة تقدّمت؛ وأبدت السيّدة دو فيلفور رغبتها في العودة إلى باريس. وهو ما لم تجرؤ السيّدة دانغلار على إظهاره رغم الضّيق البديهي الذي تعاني منه.

وبطلبٍ من زوجته أشار دو فيلفور بعزمه على المغادرة. وقد فسح مكانًا في عربته للسيّدة دانغلار، حتّى تحظى بعناية زوجته. أمّا السيّد دانغلار، الغارق في حديثٍ حول الصّناعة مع السيّد كافالكانتي، فلم يثر انتباهه أيّ شيء ممّا يحدث.

وحين سأل مونت كريستو السيّدة دو فيلفور عن قارورتِها، لاحظَ ما جرى بين السيّد فيلفور والسيدة دانغلار من حديث هامسٍ، وخمّنَ موضوعه حتّى وإن كان وكيل الملك قد تحدّث بصوتٍ هامسٍ بالكاد سمعته السيّدة دانغلار.

ثمّ أذِن، دونما اعتراضٍ، لموريل ودُبراي وشاتو رونو بالانصراف، ورافق السيّدتين حتّى أصعدهما عربة السيّد دو فيلفور. أمّا السيّد دانغلار، وقد افتتنَ بالسيّد كافالكانتي، الأب، فقد دعاه إلى أن يركب معه العربة.

في حين قصد أندريا كافالكانتي عربته الخفيفة ذات العجلتين، وكانت تنتظره عند الباب، وقد أمسك، واقفًا على أطراف أصابعه، بلجام حصانها الرّصاصيّ العظيمِ، سائسٌ يرتدي ملابس تبرز نمط الموضة الإنجليزية إبرازًا مفرطًا.

لم يكن أندريا قد تحدّث كثيرًا أثناء العشاء، فلأنّه كان فتىً ذكيًا، كان

من الطّبيعيّ أن يخشى التفوّه بحماقة تكلّفه الكثير وسط هؤلاء النّاس الأغنياء الأقوياء، خاصّة وأنّ عينه المتيقّظة قد انتبهت، ليس دونما خوفٍ على الأرجح، إلى وجود وكيل ملكٍ بين الحضور.

ثمّ استأثر به السيّد دانغلار الذي، بعدما ألقى نظرة خاطفةً على الرّائد المُسنِّ ذي الهيئة العنيدة، وابنه الذي لا يزال خجولًا بعض الشّيء، وبعدما وقف على ما يبديه لهما الكونت مونت كريستو من حفاوةٍ، ظنَّ أنّه في حضرة واحدٍ من أصحاب الثروات الفاحشة، وقد أتى إلى باريس كي يعلّم ابنَه الوحيد الحياةَ الحضرية. فكان أن تأمّل المصرفيُّ برضًا لا يوصفُ الماسة الهائلة التي تلمع في خنصر الرّائد، ذاك أنّ الرّائد، وهو الرّجل الحريص المجرّب، خوفًا من أن يحدث حادثٌ يضيع بسببه أوراقه البنكية، قد حوّلها من فورِه إلى شيءٍ قيّمٍ. ثمّ، بعد العشاء، ودائمًا بحجّة المشاريع والأسفار، سأل الأب وابنه عن نمط حياتهما؛ ولأنّ الأب والابن قد أُعلما مسبقًا بأنّ حساباتهما قد فُتحت عند دانغلار، بحيث يحصل الأوّل على رصيد ثمانية وأربعين ألف فرنكٍ مرّةً واحدة، بينما يحصل الثاني على رصيد متجدّد سنويًا، ومبلغُه خمسون ألف جنيه؛ قلنا لعلمهما بما سبق، فقد أبديا للمصرفيّ لطفًا ومودّة، مودّةً فاضت حتّى بدت في تعاملهما مع الخدمِ، ولولا أنّهما أمسكا نفسيهما لصافحا الخدم لفرط ما كان امتنانهما بحاجة إلى مساحةٍ يعبّر فيها عن نفسه.

ثمّ إن شيئًا بخاصّةٍ قد رفع من تقدير، إن لم نقل تبجيل، دانغلار لكافالكانتي. لقد أخلص اللّوكاويُّ لمبدأ هوراثيوس: niladmirari[1]، فاكتفى بأن تكلّم كلامَ الرّجل العارف، مبيّنًا أيّ البحيرات تُصطاد فيها أفضلُ أسماك الجلكي. ثمّ تناول قطعته منها من دون أن يعلّق بكلمة.

---

(1) ـ ألّا تندهش لشيء. «ألاّ تندهش لشيءٍ، هوذا يا نوميكوس السّبيل الوحيد إلى السّعادة». عبارة شهيرة لهوراثيوس ذكرها مونتيني وبليز باسكال في مقالاتهما.

فاستنتج دانغلار أنّ هذا النّوع من الطّعام الفخم مألوف على موائد سليل آل كافالكانتي، والرّاجحُ أنّ الرّجل يطعم في لوكا أسماكَ التروتة التي تُستقدَم من سويسرا، وجراد البحر الذي يستقدم من برتُوني بطرقٍ مماثلة لتلك التي توسّل بها الكونت في استجلاب الجنكي من فوسارو، والحفش من نهر الفولغا. لذا تلقّى بترحيبٍ كبيرٍ كلماتِ كافالكانتي:

- غدًا يا سيّدي سأتشرّف بزيارتك لننظر في أمور الأعمال.

فأجابه: - وأنا يا سيّدي سأسعد بزيارتك.

ثمّ إذّاك اقترح على الرّائد أن يوصله في عربته إلى فندق الأمراء، إن لم يكن ثمّة إزعاجٌ في فصله مؤقّتًا عن ابنه.

أجاب كافالكانتي أنّ ابنه قد اعتاد، منذ أمدٍ بعيدٍ، حياةَ الشّباب المستقلّ؛ وبالتّالي لديه أحصنته وعربته الخاصّة، وبما أنّهما لم يأتيا معًا، فلا ضير في ألاّ ينصرفا معًا.

ركب الرّائدُ إذًا عربةَ دانغلار، وجلس المصرفيّ إلى جانبه، وإعجابه ما فتئ يتعاظمُ بأفكار واقتصاد هذا الرّجل، الذي يعطي ابنه خمسين ألف فرنك[1] في السّنة، أي إيرادات ثروةٍ تقديرُها خمسمائة أو ستمائة ألف جنيه.

أمّا أندريا، فقد جعل، إبرازًا لنفسه، يقرّعُ خادمَه الذي كان ينتظره عند باب المخرج، بدلًا من أن يتقدّم فيحمله من درجات الفناء، ممّا كلّفه ثلاثين خطوةً يمشيها على قدميه.

تلقّى الخادمُ الإهانة بخنوعٍ، وأمسك بيده اليسرى لجام الحصان الذي كان يرفس بقدمه نافد الصّبر، وبيُمناه سلّم إلى أندريا عنان الحصان، فأمسكه الشّابُ، ووضع حذاءه الطّويل المبرنق على سلّم العربة.

---

(1) ذُكر آنفًا أنّ المبلغ خمسون ألف جنيه، والآن خمسون ألف فرنك، والاختلاف من عند دوما.

وفي تلك اللّحظة حطّت على كتِفِه كفٌّ. استدار الشّاب، معتقدًا أنّ السيّد دانغلار أو الكونت مونت كريستو قد نسيَ إخباره بشيء وأتى يخبرُه به قبل انطلاقه.

لكن بدلًا من أن يُلفيَ أحدهُما، لم يلمح سوى وجهٍ غريبٍ، تلفّه الشّمس بهالةٍ، وتحفّه لحيةٌ مسطّرةٌ، وبه عينان تبرقان كالعقيق الأحمر، ويضحك ضحكةً ساخرة في فم تبرقُ داخله اثنتان وثلاثون سنًّا منتظمة، كلّ في موضعها، لا تنقص منها سنٌّ، بيضاءُ، حادّة وجائعةٌ كأنّها أسنان ابن أوى.

منديلٌ بمربّعاتٍ حمراء يغطّي الرّأسَ ذا الشّعر الرّمادي الدّاكن؛ وبلوزةٌ وسخةٌ وممزّقةٌ كأشدّ ما يكون الاتّساخُ والتّمزّقُ تغطّي البدنَ الطّويلَ والنّحيل المعظّمَ إلى درجةٍ لا تبدو فيه إلا العظامُ، كأنّما هو هيكلٌ عظميٌّ يسيرٌ مطقطقًا. ثمّ أخيرًا اليدُ التي وُضعت على كتف أندريا، وكانت أوّلَ ما رآه الشّابُ، وقد بدت له هائلةً. فهل تعرّف الشّابُ على الوجه في ضوء القنديل الذي يحمله خادمُه، أم إنّه فزع فقط من هيئة مخاطبه الرّهيبة؟ لا يسعنا أن نقطع في الجواب؛ لكن الواقع أنّ الشّاب انتفض، وتراجع إلى الوراء بسرعةٍ، قائلًا:

- ماذا تريد؟

قال الرّجل وهو يضع يده على منديله الأحمر:

- اعذرني يا سيّدي البورجوازيّ، يبدو أنّني أزعجك، لكنّي أودّ الحديث إليك.

قال الخادمُ وهو يتحرّك لتخليص سيّده من الرّجل الدّخيل: - لا تَسوُّلَ مساءً.

أجاب الرّجل الغريب بابتسامةٍ ساخرةٍ، أردفها بأخرى مرعبةٍ جعلت الخادم يبتعد على الفور: - لستُ أتسوّل يا بنيَّ، إنّما فقط أريد أن أبلغ سيّدك البورجوازيَ كلّماتٍ تخصّ أمرًا كلّفني به منذ خمسة عشر يومًا تقريبًا.

قال أندريا وقد ضغط على نفسه أيّما ضغطٍ حتّى لا يلاحظ الخادمُ اضطرابَه:

- ماذا تريد؟ هيا أوجز يا صديقي.

قال الرّجلُ ذو المنديل الأحمر هامسًا: - أريد... أريد... أن تجنّبني مشقّة العودة إلى باريس مشيًا على قدميَّ. أنا متعبٌ جدًّا، وبما أنّني لم أتعشّ عشاءً فخمًا كعشائك، فإنّني بالكاد أقف على قدميَّ.

انتفض الشّابُ لنبرة الرّجل الوقحة، وقال: - هيّا، قُل، ماذا تريد؟

- حسنًا! أريد منك أن تُركبني في عربتك الجميلة وتوصلني.

شحب وجه أندريا ولم يحر جوابًا.

فقال الرّجل ذو المنديل الأحمر وهو يدخل يديه في جيبيه ويحدّق في الشّاب بنظرةٍ مستفزّة: - أوه! يا إلهي، إنّها رغبةٌ طرقتني بلا استئذان، هل فهمت يا صغيري بِينيديتو؟

وحين سمع الاسم، انصاع الشّاب بلا تردّد، إذ دنا من السّائس وقال له:

- لقد كلّفت هذا الرّجل بمهمّة، وينبغي أن يبلّغني مآلَها. تمشّى حتّى تبلغ الحاجز وهناك امتطي عربة أجرة لكي لا تصل متأخّرًا.

ابتعد الخادم مندهشًا.

قال أندريا للرّجل ذي المنديل الأحمر: - دعني على الأقلّ أبلُغ مكانًا مظلمًا.

فأجابه الرّجل: - أوه! أنا بنفسي سأقودك إلى مكانٍ جيّد؛ مهلًا.

ثمّ إنّ الغريب أمسك بعنان الحصان وسحب العربة إلى موضعٍ يستحيل، بالفعل، أن يرى فيه أحدٌ التّشريف الذي يخصّه به أندريا.

قال: - أوه! أنا لا أريد أن أركب عربتك طمعًا في مجدٍ؛ إنّما هو فقط التّعب، ثمّ إنّي أريد أن أحدّثك في أمور أعمالٍ.

قال الشّاب: - هيّا، اصعد.

ومن المؤسف أنّ الوقت لم يكن نهارًا، إذ كان سيكون مثيرًا مطالعةُ مشهد الصّعلوك الجالس على الوسائد المزخرفة بجانب الشّاب الأنيق الممسك بزمام العربة.

حرّك أندريا الحصانَ حتّى بلغ به آخر بيوت القرية، من دون أن يقول كلمة لرفيقه الذي كان من جهته يبتسم لازمًا الصمت، وكأنّما هو منتشٍ بركوب عربةٍ بذاك الجمال.

وما إن صارا خارج أوتوي، حتّى تلفّت أندريا حواليه، ليطمئّن إلى أنّ لا أحد يراه أو يسمعه؛ وإذّاك أوقف الحصان وضمّ ذراعيه في مواجهة الرّجل ذي المنديل الأحمر، وقال:

- لمَ أتيتَ تُقلق راحتي؟

- بل أنا أسألك يا ولدي، لمَ لا تثق فيّ؟

- وفيمَ لا أثق فيك؟

- فيم؟ أوَتسألُني؟ لقد قلت لي إنّك مسافرٌ إلى بييمون، ثمّ إلى توسكانا، وبدلًا من ذلك ها أنت ذا في باريس!

- وفيمَ يزعجك ذلك؟

- لا يزعجني بشيء؛ لا بل بالعكس، أحسبُ أنّه أمرٌ سيعينني.

- آه! آه! ها أنت ذا تتسلّق على أكتافي!

- ولمَ الغلط!

- لأنّك مخطئٌ أيّها المعلّم كادروس، أنبّهك!

- يا إلهي! لا تغضب يا صغيري؛ أنت تعرف ما معنى الشّقاء؛ وإنّ الشّقاء يورث الغيرة. أنا كنت أحسبُك في بييمون أو توسكانا، مضطرًا إلى الاشتغال عاملًا أو دليلًا سياحيًا؛ وكنت مشفقًا لحالك، إشفاق الأب على الابن. تدري أنّني ناديتك دومًا ابني.

- ثمّ؟ ثمّ؟

- صبرًا يا شقيّ!

- أنا صابرٌ؛ هيّا أكمل.

- وإذا بي أراك فجأةً تعبر الحاجز المسمّى حاجز الصّلحاء، معك خادم، وعربةٌ، وثيابٌ جديدةٌ زاهية. آه! حقًا! فهل اكتشفت منجمًا، أم اشتريت شحنةً من أموال الصّرف؟

- وهذا ما جعلك، بحسب قولك، غيورًا؟

- كلاّ، أنا سعيدٌ، سعيدٌ جدًا لدرجة أنّني أردت أن أهنّئك بنفسي يا صغيري. لكن، بما أنّني لم أكن أرتدي ملابس لائقة، فقد اتّخذت احتياطاتي، فانتحيت جانبًا وانتظرت حتّى لا أفسد عليك صورتَك.

قال أندريا: - يا لها من احتياطات! أتيتني أمام خادمي.

- وما الحلُّ يا بُنيّ! لقد أتيتك حين استطعت الإمساك بك. إنّ لك حصانًا سريعًا، وعربةً خفيفةً؛ وبالطّبع أنت زلقٌ كإبرة؛ فلو أنّي أضعت فرصة مقابلتك هذا المساء، لربّما أضعت فرصة لقائك إلى الأبد.

- ترى أنّني لا أخفي نفسي.

- أنت محظوظ جدًا، وددتُ لو أقولُ مثل قولك؛ لكنّني مضطرٌ إلى التخفّي. هذا من دون أن نحسب احتمال ألاّ تتعرّف عليّ؛ (ثمّ واصل بابتسامةٍ شريرة) لكنّك تعرّفت عليّ؛ أنت حقًا لطيفٌ.

قال أندريا: - هيّا يا سيّدي، تفضّلوا؛ ماذا تريدون؟

- أما عُدت تُخاطبني بضمير المفرد[1]؟ إنّه لأمرٌ مشينٌ في حقّ صاحبٍ قديم يا بينيديتو. احترس ستضطرّني إلى أن أصير متطلّبًا.

أطفأ التّهديدُ غضبَ الشّاب. هبَّت على ناره ريحُ الإكراه. حرّك حصانَه، وقال:

---

(1) لضمير المخاطب في الفرنسية وجهان، وجه مفرد حميمي TOI، ثمّ ضمير الجمع VOUS ويستعمل لخلق مسافة معينة مع المخاطب، في السياقات الرسمية على سبيل المثال؛ وذاك ما يحاول إبرازه كادروس، أي إنّ أندريا حين انتقل من استعمال ضمير المفرد إلى ضمير الجمع، فقد أوجد مسافةً بينهما.

- عيبٌ منك أنت يا كادروس، أن تعامل رفيقًا قديمًا هذه المعاملةَ، على حسب قولك؛ أنت مارسيليّ وأنا...

- صرتَ تعرفُ أصلكَ الآن؟

- كلاّ، لكنّني ربيت في كورسيكا؛ أنت شيخٌ عنيدٌ؛ وأنا شابٌ صعب المراس. التهديدُ بين أمثالنا سيّئٌ، ويستحسن أن تتمّ الأمور كلّها وديًّا. هل خطأي إن كان الحظُّ لا يزالُ يعاندك، في الوقت الذي ابتسم لي فيه؟

قال كادروس والطّمع يبرق في عينيه: - ابتسمَ لك الحظّ إذًا؛ وهذه إذًا ليست عربةً مستعارةً ولا الخادمُ معارًا، ولا الملابس معارةً؟

أجابه أندريا وما فتئ يشتعلُ: - أوه! ترى بعينيك، وتعرف حقّ المعرفة، ما دمت تبعتني. لو كان على رأسي منديلٌ كهذا الذي تضعه، أو على ظهري بلوزةٌ متّسخةٌ كهذه التي تلبسها، أو في قدميّ نعلٌ مثقوبٌ عند الأصابع كنعلك، لما عرفتني.

- ها أنت ترى أنّك تحتقرني يا صغيري، وأنت مخطئٌ في احتقارك؛ فالآن وقد عثرتُ عليك لا أحد يمنعني من أن أرتدي ملابس جميلةً كغيري، إذ أعرفُ طيبة قلبك. فإن كنت تملك لباسين، ستعطيني واحدًا؛ ألم أكن أعطيك أنا حصّتي من الحساء والفاصوليا، حين كاد يقتلك الجوع؟

قال أندريا: - صحيح.

- أيّ شهيّة كانت لك! أمازلتَ تتمتّعُ بشهيةٍ كبيرة؟

قال أندريا ضاحكًا: - بالطّبع.

- لا بدّ أنّك أكلت الكثير عند هذا الأمير الذي غادرتَ منزلَه منذ قليل!

- ليس أميرًا، وإنّما هو فقط كونت.

- كونت؟ ثريٌّ، أليس كذلك؟

- بلى، لكن حذارِ، لا يبدو رجلًا متساهلًا.

- أوه! يا إلهي! ارتح بالًا! لا مشاريع عندي لصديقك الكونت، وسوف أتركك تنفرد به. (ثمّ أضاف وعلى شفتيه تلك الابتسامة الشّريرة التي رسمتها شفتاه من قبلُ) لكن، ينبغي أن أحصل على مقابلٍ لهذا، فهمتَ!

- هيّا قُل، ماذا تريد؟

- أظنّ أنّ مائة فرنك في الشّهر...

- ماذا؟

- مائة فرنكٍ في الشّهر ستعينني على الحياة...

- مائة فرنك؟

- حياةَ شظفٍ، لكن...

- لكن، كم...

- لكن بمائة وخمسين فرنك سأعيش حياةً سعيدةً.

أجابه أندريا: هاك مائتين...

ووضع في كفّ كادروس مائة لويسية ذهبية.

قال كادروس: - حسنًا!

- اقصِدِ البوّابَ مطلع كلّ شهر، وسيعطيك منّي مثلها.

- ها أنت تهينني مرّةً أخرى!

- كيف؟

- تضع بيني وبينك الخدم؛ كلّا، لا أريد أن أتعامل مع غيرك.

- حسنًا، ليكن ما تريد؛ تعال مطلع كلّ شهر، واطلبني؛ وطالما أحصل على مخصّصاتي المالية، أنت أيضًا ستحصل على مخصّصاتك.

- حسنًا! حسنًا! أرى أنّي لم أخطئ التّقدير، أنت ولدٌ شهمٌ، وإنّها لبركَةٌ أن يصيب الحظُّ السّعيد أناسًا أخيارًا مثلك. هيّا، قصَّ عليّ خبر حظّك السّعيد.

سأل كافالكانتي كادروسَ: - وفيمَ يهمّك أن تعرف؟
- طيّب! ها أنت تبدي عدم الثّقة مجدّدًا!
- كلاّ. حسنًا، لقد عثرت على أبي.
- أبوك الحقيقي؟
- اللّعنة! ما دام يدفع...
- ما دام يدفع، ستصدّقه، وتشرّفُ اسمَه؛ هذا العدل! وما اسمُ أبيك؟
- الرّائد كافالكانتي.
- واكتفى بك؟
- إلى حدود السّاعة يبدو أنّني أكفيه.
- ومن ساعدك في العثور على أبيك المزعوم؟
- الكونت مونت كريستو.
- الرّجل الذي خرجتَ من منزله؟
- أجل.
- أقول لك؛ حاول أن تدخلني عنده بصفتي أحد أقاربك، ما دام يشغل منصبًا رفيعًا.
- حسنًا سأكلِّمه عنك؛ لكن في انتظار ذلك، ماذا تنوي أن تفعل؟
- أنا؟
- نعم، أنت.
قال كادروس: - ما أطيبك إذ تهتمُّ لأمري.
قال أندريا: - ما دُمت أنت تهتم لأمري، فيبدو لي أنّ من حقّي أنا أيضًا أن أعرف بعض المعلومات.
- حقٌّ... سوف أكتري غرفةً في منزلٍ جيّد، وألبس ملابس لائقة، وأحلق ذقني كلّ يومٍ، وأذهب لقراءة الجرائد في المقهى. ومساءً سأدخل

إلى عرضٍ من العروض المسرحيّة مع كبيرِ المصفّقين[1]، وسأتظاهر بأنّني خبّازٌ متقاعدٌ، هوذا حلمي.

- حسنا، كلّ هذا جيّد! إن أردت أن تنفّذ مشروعك وتتحلّى بالحكمة، فكلّ شيءٍ سيمضي على خير ما يرام.

- حاضر يا سيّدي بوسويه[2]!... وأنت ماذا ستصير؟... أحد نوّاب فرنسا؟

قال أندريا: - إه! إه! ومن يدري؟

- قد يكون الرّائد كافالكانتي كذلك... لكنّ وراثة المناصب لم تعد سارية في فرنسا للأسف!

- لا سياسة يا كادروس!... والآن وقد حصلت على ما تريدُه، وقد وصلنا، اقفز من عربتي، واختفِ.

- كلاّ، يا صديقي العزيز!

- كيف كلّا؟

- فكّر قليلًا يا صغيري، بهذا المنديل على رأسي، وقدميّ شبه الحافيتين، ولا وثائق هوية معي، وفي جيبي مائة قطعة نابوليونية ذهبية، من دون أن أحسب ما كان عندي من قبل، ممّا يجعل مجموع النّقود عندي مائتي فرنك؛ لا بدّ أن أُوقفَ عند الحاجز؛ فإن أوقِفت سأضطرُّ إلى القول إنّك أنت من أعطاني القطع النابوليونية ويباشرون التّحقيقات؛ فيعلمون أنّني غادرت تولون بلا إذن، فينقلونني من سَرية إلى سَرية، حتّى يبلغوا بي ساحل المتوسط. وهناك أعود مجدّدا الرّقم 106، لا غير،

(1) كانت وظيفة شائعة قديمًا في المسارح الأوروبية، يحضر المصفقون يقودهم رئيس، ووظيفتهم منح صيتٍ للمسرحيات والممثلين، بحيث يصفقون بشكلٍ محسوبٍ في لحظات مسرحية بعينها.

(2) يقصد الواعظ الفرنسيّ الشّهير جاك بنين بوسويه (1627 - 1704)

ووداعًا يا حلمي في أن أصير خبازًا متقاعدًا! كلّا يا بنيّ! أفضّل أن أبقى في العاصمة معزّزًا مكرّمًا.

قطّب أندريا حاجبيه؛ كان كأنّما أهينَ باعتباره لا يستحقُّ أن يدّعي البنوّة للرّائد كافالكانتي. فتوقّف لحظةً، أجال بصره في نظرةٍ خاطفةٍ حوله، ولمّا أنهى بصرُه المستكشفُ رسمَ دائرةٍ، نزلت يده بهدوءٍ في جيب صداره، وبدأ يداعبُ كابس أمان مسدّسِ جيب.

لكن، أثناء ذلك، لم يكن كادروس قد أغفل حركةً من حركات رفيقه، فمدّ يده خلف ظهره، وفتح بهدوءٍ مديةً إسبانية طويلةً كان يحملها معه على الدّوام، تحسّبًا لأيّ حادث.

كان الصّديقان، كما نرى، كُفُؤين ليفهم كلّ منهما الآخر، وقد تفاهما؛ استل أندريا يدَه مسالمةً من جيبه، ورفعها حتّى شاربه الأصهب، فأخذ يداعبه برهةً.

قال: - حسنًا يا كادروس، ستكون إذًا سعيدًا؟

قال صاحب نزل جسر غار وهو يعيدُ سكّينه إلى جعبته: - سأبذل قصارى جهدي في سبيل ذلك.

- حسنًا، هيّا، لنعُد إلى باريس. لكن كيف ستجتاز الحاجز من غير أن تثير الشّكوك؟ يبدو لي أنّك بهذا الزيّ ستثير الشّكوك في العربة أكثر ممّا كنت لتفعل لو كنت راجلًا.

قال كادروس: - مهلًا، سترى.

ثمّ تناول قبّعة أندريا، ووضع على ظهره الشَّملةَ ذات الياقة الواسعة التي تركها في مكانها الخادم الذي صرفه أندريا، ثمّ اتّخذ موضعه كخادمٍ يقودُ سيّدُه عربتَه بنفسِه.

قال أندريا: - وأنا، هل سأسير ذًا برأسٍ عارٍ؟

أجابه كادروس: - إنّ الرّيح شديدةٌ، حتّى إنّها قد تكون أطارت قبّعتك.

قال أندريا: - هيّا إذًا، لننهِ الأمرَ.

قال كادروس: - ما الذي يوقفك؟ لستُ أنا على ما أرجو؟

قال كافالكانتي: صه!

اجتازا السياج من دون مشكلات.

وعند أوّل شارع عرَضيّ، أوقف أندريا حصانه، فقفز كادروس إلى الأرض.

قال أندريا: - حسنًا، ماذا عن معطف خادمي وقبّعتي؟

أجابه كادروس: - آه! هل تريدني أن أصاب بالزّكام؟

- وأنا؟

- أنت لا تزالُ شابًا، أما أنا فقد أدركتني الشّيخوخة؛ إلى اللّقاء يا بينيديتو!

وتوغّل في الزّقاق، حيث اختفى.

قال أندريا متحسِّرًا: - واأسفًا! ليس بوسع المرء أن يحوز سعادةً كاملةً في هذا العالم!

65

مشهدٌ من الحياة الزّوجية

عند ساحة لويس الخامس عشر، افترق الشّبانُ الثلاثة، بحيث اتّخذ موريل طريقَ الجادات، وشاتو رونو طريق جسر الثورة، واتّبع دُبراي الرّصيف.

قصد كلّ من موريل وشاتو رونو، على الأرجح، بيته الأسريّ، كما يُقالُ في الخطب البليغة بمنصّة مجلس النّواب، أو في المسرحياتِ المكتوبة جيّدًا بمسرح ريشيليو؛ لكن تلك لم تكن حالُ دُبراي. إذ لمّا بلغ مكتب متحف لوفر، انعطف يسارًا، وعبر من قوس كاروسيل هرولةً، ثمّ سلك شارع سان روش، فأفضى إلى شارع ميشوديير، وبلغ باب منزل السيّد دانغلار في اللّحظة التي كانت فيها عربةُ السيّد دو فيلفور قد بلغت به منزله بضاحية سان أونوري فأنزلته وزوجتَه، وأكملت الطّريق لتوصل السيّدة دانغلار إلى بيتها.

ولمّا كان السيّد دُبراي رجلًا مألوفًا في المنزل، فقد كان السبّاق إلى دخول الفناء، فسلّم اللّجام إلى خادم، وعاد إلى البوابة يستقبل السيّدة دانغلار، فأعطاها يدَه تستندُ إليها ليوصلها إلى جناحها.

وما إن انغلقت البوابة وصار السيّد دُبراي والبارونة في الفناء، حتّى قال: – ما بك إذًا يا هرمين؟ ولمَ انزعجت كلّ الانزعاج من القصّة، أو بالأحرى الخرافة، التي كان يقصّها علينا الكونت؟

أجابته البارونة: – لأنّ مزاجي هذا المساء كان سيّئًا جدًا يا صديقي.

قال دُبراي: – كلّا يا هرمين، لن أصدّق هذا. بالعكس، لقد كنت في

مزاجٍ رائقٍ جدًا حين وصلتِ بيت الكونت. صحيحٌ أنّ السيّد دانغلار كان كئيباً بعض الشّيء؛ لكنّني أعرف موقفك بالعادة من كآبته. هل تسبّب لك أحدٌ في مكروه. احكي لي، ولا تقلقي عليّ.

أجابته السيّدة دانغلار: - أنت مخطئٌ يا لوسيان، أؤكّد لك أنّ الأمر كما أخبرتُك، هذا فضلًا عن مزاج السيّد دانغلار السيّئ الذي انتبهتَ إليه، والذي لا أظنُّه يستحقُّ أن نخوضَ فيه.

كان واضحًا أنّ السيّدة دانغلار كانت تحت تأثير واحدٍ من تلك الاهتياجات العصبية التي غالبًا ما لا تنتبه إليها المرأةُ بمفردها، أو أنّها، كما خمّن دُبراي، فريسةُ صدمةٍ لا تريدُ أن تبوح بها إلى أحد. وبوصفه رجلًا اعتاد هذه الأمزجة كجزءٍ من الحياة الأنثوية، لم يزد دُبراي في الإلحاح، مفضّلًا انتظار استفهامٍ جديدٍ، أو اعترافٍ تلقائيّ.

وعند باب مخدعها وجدتً البارونة الآنسة كورنيلي، وكانت هذه خادمتها وأمينة سرّها.

سألت السيّدة دانغلار خادمتَها: - ماذا تفعل ابنتي؟

أجابتها الآنسة كورنيلي: - درست البيانو طيلة المساء، ثمّ خلدت إلى فراشها.

- لكن يبدو لي أنّني أسمع موسيقى؟

- إنّها الآنسة لويز دارميلي تعزف الموسيقى بينما آنستي في سريرها.

قال السيّدة دانغلار: - حسنًا؛ تعالي لتنزعي ملابسي.

دخلوا غرفة النّوم. استلقى دُبراي على أريكةٍ كبيرة، بينما انتقلت السيّدة دانغلار مع الآنسة كورنيلي إلى مخدع الزّينة.

قالت السيدة دانغلار عبر باب المخدع: - عزيزي السيّد لوسيان، هل ما زلت منزعجًا من كون يوجيني لم تشرّفك بالحديث إليك؟

قال لوسيان وهو يلاعبُ كلب البارونة الصّغير الذي اعتاد زيارة دُبراي فصار يغرقه مداعبةٍ كلّما أتى: - سيّدتي، لا أظنّني الوحيد الذي

يشكو من هذا الأمر، أظنُّ أنّني سمعت مورسيرف نفسه يشكو إليك المرة الماضية، ولم يحظَ بكلمةٍ واحدةٍ من خطيبته.

قالت السيّدة دانغلار: - صحيح؛ لكنّني أظنُّ أنّ كلّ هذا سيتغيّر يومًا ما، فترى يوجيني داخلةً عليك مكتبك.

- مكتبي أنا؟

- أقصد مكتبك في الوزارة.

- ولم؟

- لكي تطلب منك تعيينًا بالأوبرا! لم أرَ ولعًا كولعها بالموسيقى. إنّه أمرٌ سخيفٌ بالنّسبة إلى شخصٍ ينتمي إلى الطّبقة الرّفيعة.

ابتسم دُبراي. ثم قال: - لتأتِ إذًا بموافقةٍ منك ومن البارون، وسوف نعيّنُها، ونضعها في موضعٍ يناسبُ قدرها، وإن لم نكن نملك الإمكانيات المناسبة لموهبتها.

قالت السيّدة دانغلار: - هيّا يا كورنيلي، لم أعُد بحاجةٍ إليكِ.

انصرفت كورنيلي، ولحظةً بعد ذلك خرجت السيّدة دانغلار من مخدعها في مبذلٍ جميلٍ، وأتت تجلس بجانب لوسيان. ثمّ، بعصبيّةٍ، أخذت تداعب السّبَنيلّي[1] الصّغير.

تأمّلها لوسيان برهةً صامتًا، ثمّ قال:

- هيا يا هرمين، أجيبي صراحة. شيءٌ ما يؤلمك، أليس كذلك؟

أجابته البارونة: - لا شيء.

لكنّها كانت تحسُّ بالاختناق، فقامت واقفةً، وحاولت أن تتنفّس ثمّ قصدت مرآةً تنظرُ فيها.

قالت: - شكلي مرعبٌ هذا المساء.

قام دُبراي مبتسمًا، كي يطمئِن البارونة، وإذا باب الغرفة يُفتَح فجأةً.

---

(1) السبنيلي L'épagneul: كلب صيد أوبر، صغير الحجم وقصير القوائم.

برز في الباب دانغلار؛ عاد دُبراي إلى الجلوس. وللصّوت الذي أحدثَه البابُ التفتت السيّدةُ دانغلار، ونظرت إلى زوجها باندهاشٍ لم تتكلّف حتى جهدَ إخفائه.

قال المصرفيّ: - مساء الخير سيدتي؛ مساء الخير سيّدي دُبراي.

ظنّت البارونةُ أنّ هذه الزيارة غير المتوقّعة هي لأمرٍ ما، كأنّما البارون يريد أن يصلح ما قالَه من كلماتٍ مُرّة أثناء النّهار.

اتّخذت هيئةً متغطرسةً، واستدارت شطر لوسيان من غير أن تردّ تحيّةَ زوجها، قائلةً:

- اقرأ لي شيئًا يا سيدي دُبراي.

وكانت زيارة البارون غير المتوقّعة قد أقلقت دُبراي قليلًا في البداية، لكنّه ما لبث أن استعاد هدوءه، فمدّ يده إلى كتابٍ معلّمٍ بسكّينٍ من صدف اللؤلؤ مزيّنةٍ بالذّهب.

قال المصرفيّ: - عفوًا يا سيّدتي، لكنّك ستتعبين إن سهرتِ أكثرَ، السّاعةُ الآن الحادية عشرةَ والسيّد دُبراي يسكن بعيدًا.

بهت دُبراي، ليس من نبرة دانغلار الهادئة والمهذّبة تمامًا؛ لكن لأنّه عبر هدوئه وأدبه لمّح إلى أنّه على غير العادة ينوي معارضة إرادة زوجته.

كذلك بهتت البارونة وعبّرت عن ذهولها بنظرةٍ لا بدّ أنّها كانت لتدفع الزّوج إلى أن يعيد التّفكير في ما قاله، لو لا أنّ نظرتَه هو كانت معلّقةً على صحيفةٍ ينظر فيها كيف أُغلقت البورصة يومَها.

قالت البارونة: - سيّدي لوسيان، أعلمُك بأنّ لا رغبة عندي في النّوم، وأنّ لديّ ألف خبرٍ أقصّه عليك هذا المساء، وأنّك ستقضي اللّيلة هنا تنصتُ إليّ، حتّى وإن اضطُررتَ إلى النّوم واقفًا.

قال لوسيان ببرود: - أمرُك يا سيّدتي.

قال المصرفيّ بدوره: - عزيزي السيّد دُبراي، لا تُهلك نفسك بقضاء اللّيلة في الإنصات إلى حماقات السيّدة دانغلار، لأنّ بوسعك أن تسمعها

غدًا؛ أمّا هذا المساء، فأستأذنك في أن أخصّصه لنفسي، لأنّ عندي أمورًا خطيرةً جدًا أناقشها مع زوجتي.

وهذه المرّة كانت الضّربةُ مباشرة، فأصابت الهدف كالرّصاص، حتّى إنّ لوسيان والبارونة ذهلا؛ أخذا ينظران إلى بعضهما بعضًا وكلٌّ منهما يلتمس عند الآخر العون ضدّ هجوم السيّد دانغلار؛ غير أنّ سلطة سيّد المنزل النّافذة انتصرت، فكانت الغلبة للزّوج.

واصل دانغلار: - لا تظنّن يا عزيزي دُبراي أنّني أطردُك من المنزل، كلّا، بالمطلق، إنّ ظرفًا طارئًا يجبرني على أن أحادث البارونة اليوم؛ ونذُر أن يحدث هذا الأمرُ، بحيث لا يمكن أن يبقى في نفسك شيءٌ تجاهي.

غمغم دُبراي كلماتٍ، ثمّ حيّا البارونة ومضى يصطدم بالأركان مثل ناثان في مسرحية أثالي[1].

وحين أُقفل البابُ خلفَه قال لنفسه: -عجيبٌ كيف أنّ هؤلاء الأزواج الذين تجدهم غايةً في التّفاهة، يستطيعون أن يغلبونا بسهولةٍ!

ولمّا انصرف لوسيان، حلَّ دانغلار محلّه على الأريكة، وأقفل الكتابَ الذي كان قد تركه الشّابُّ مفتوحًا، ثمّ اتّخذ هيئةً متغطرسةً بشعة، وواصل ملاعبة الكلب. لكن، بما أنّ الكلب لم يكن يحمل له المودّة التي يحملها للوسيان، فقد أراد أن يعضّه، وما كان من المصرفيّ إلا أن حمل الحيوان من جلد رقبته ووضعه على كرسيّ في الجهة الأخرى من الغرفة. وأثناء عبوره المسافة محمولًا من طرف دانغلار، أطلق الكلبُ صيحةً، مذهولًا من هذه المعاملة التي لم يعتَدها، ولمّا بلغ به الرّجلُ مقصدَه سكن جامدًا صامتًا.

قالت البارونة من غير تكلّفٍ: - أوَتَدْري يا سيّدي أنّك تحرز تقدّمًا؟ بالعادة لا تكون إلا فظًا، أمّا اليوم فقد جاوزت الفظاظة إلى الوحشية.

---

(1) مسرحية جون راسين (1639- 1691).

أجابها دانغلار: - لأنّ مزاجي هذا المساء عكرٌ أكثر من المعتاد.

نظرت هرمين للمصرفيّ بازدراء كبير. بالعادة تثير نظراتها تلك سخط دانغلار، لكن هذا المساء بالكاد يبدو عليه أنّه يهتمّ لها.

أجابته البارونة، وقد هيّجها برودُه: - ولمَ تصبُّ عليّ أنا مزاجك العكر؟ هل لي علاقةٌ بهذه الأمور؟ اترك مزاجك العكر لنفسك، أو صرّفه في مكتبك؛ وبما أنّ لديك موظّفين تدفع أجورَهم، صرّف غضبك فيهم!

أجاب دانغلار: - كلّا؛ أنت مخطئةٌ في نصائحك يا سيّدتي، لذا لن أتّبعها. إنّ مكاتبي هي بالنّسبة إليّ منجم الذّهب، كما يقول ديموتييه[1]، على ما أظنُّ، ولا رغبة لي في أن أهزّ سيرَها وأزعج هدوءها. وموظّفيَّ رجالٌ شرفاءُ، بفضلهم أكسب ثروتي، وأدفع لهم مقابلًا أقلّ بكثيرٍ ممّا يستحقونَه قياسًا إلى ما يحقّقونه لي من مكاسب؛ لن أفرّغ فيهم إذًا غضبي؛ من يستحقُّ غضبي هو من يأكلُ من موائدي، ويرهقُ أحصنتي، ويفلس خزائني.

- ومن هم هؤلاء الذين يفلسون خزائنك؟ وضّح كلامَك يا سيّدي أرجوك.

أجابها دانغلار: - أوه! اطمئنّي، فلن ألجأ إلى الألغاز، لا أنوي الالتفاف في الكلام. الذين يفلسون خزائني، هم أولئك الذين يكسبون خمسمائة ألف فرنك في ساعة واحدة.

قالت البارونة محاولةً أن تخفي في آنٍ تأثّر صوتها واحمرار وجهها:

- لستُ أفهم.

قال دانغلار: - بل تفهمين، وتفهمين جيّدًا، لكن إن كنت مصرّةً على الادّعاء، فأقول لك إنّني قد خسرت سبعمائة ألف فرنك في سندات إسبانيا.

---

(1) يقصد على الأرجح شارل ديموتييه (1810-1902)، وهو سيّاسي فرنسي.

قالت البارونة متهكّمة: - آه! ومثلًا قد أكون أنا المسؤولة عن هذه الخسارة؟

- ولِمَ لا؟

- بسببي إذًا خسرتَ سبعمائة ألف فرنك؟

- على أيّة حالٍ لستُ أنا المسؤول.

قالت البارونة بمرارة: - أكرّر لك لآخر مرّةٍ: لا تتحدّث معي في مسائل النّقود يا سيّدي؛ تلك لُغةٌ لم أتعلّمها في منزل والديّ، ولا في منزلِ زوجي السّابق.

قال دانغلار: - الحقُّ أظنُّ أنّ لا أحد من والديك ولا زوجك كان يملك النّقود.

- وهذا سبب إضافيّ كي لا أتعلّم معجم المصرفيّين الذي غدا يزعج أذنيَّ من الصباح إلى المساء؛ إنّ رنين النّقود وهي تُعَدُّ وتُعَدُّ مؤذٍ لأذنيَّ، ولا أعرفُ صوتًا أنكر منه إلا صوتَك.

قال دانغلار: - عجيبٌ بحقّ! كنت أحسبك تهتمين لأعمالي غاية الاهتمام!

- أنا! وما الذي جعلك تعتقد هذه الحماقة؟

- أنت.

- أتمنّى أن تبيّن لي المناسبة التي دفعَتك إلى هذا الاعتقاد.

- آه! يا إلهي! لا أيسر من ذلك. شهرَ فبراير، كنتِ أوّل من حدّثتني عن أسهم هايتي، حلمتِ بأنّ سفينةً دخلت ميناء هافر، وأنّ هذه السّفينة تحمل خبر أنّ إتمامِ دفْعٍ كان قد عُلّق إلى أجلٍ غير مسمّى. أعرف مدى صدق رؤياك؛ اشتريت إذًا كلّ كوبونات الدَّيْن الهايتي التي استطعت أن أطالها، فربحت أربعمائة ألف فرنك، منها مائة ألف أعطيتك إيّاها عرفانًا. وفعلت بمالك ما يحلو لك، فهذا أمرٌ لا يخصّني.

وشهر مارس كانت المسألة تتعلّق بتفويت مشروع سكّة حديد.

تقدّمَت ثلاثُ شركاتٍ بعروضٍ، وكانت ضماناتها متساوية. قلتِ لي إنّ حدسك، -ومع اعترافك بعدم قوّتك فيما يخصّ التّفكير والتّأمّل، إلاّ أنّني أرى حدسك متطوّرًا جدًا في بعض النّواحي-؛ قلتِ لي إنّ حدسك يخبرك بأنّ الصّفقة ستؤول إلى الشّركة المدعوة شركة الجنوب.

اشتريتُ ثلثي أسهم الشّركة. وبالفعل حصلت الشّركة على الصّفقة، فتضاعفت قيمة الأسهم ثلاث مراتٍ، وكسبتُ مليونًا، أعطيتك منه مائتين وخمسين ألف فرنك؟ فكيف صرفت تلك المائتين وخمسين ألفًا؟

صاحت البارونة وهي ترجف كللًا ونفادَ صبر: - إلامَ تريد أن تصلَ يا سيّدي؟

- صبرًا يا سيّدتي، سأصل.

- بُشرانا!

- شهر أبريل تعشّيت عند الوزير؛ ودار الحديث حول إسبانيا، وسمعت أحاديث سريّة؛ أقصد أخبارَ نفي دون كارلوس؛ واشتريتُ السندات الإسبانية. وتمّ النّفيُ، فكسبت ستمائة ألف فرنك يوم عبر شارل الخامس نهر بيداسوا (إقليم الباسك). ومن الستمائة ألف فرنك كان نصيبُك خمسين ألف قطعةٍ ذهبية؛ كانت لك، وصرفتها كما يحلو لك، ولست أسألك أين وكيف؛ لكنَّ الحقَّ الذي لا جدال فيه، أنّك كسبت هذه السّنة ما يقارب خمسمائة ألف جنيه.

- طيّب يا سيّدي، وبعد؟

- آه! نعم وبعد! وبعد... ابتداءً من هنا تفسد الأمور.

- الحقُّ أنّ لديك طريقةً فريدةً في الكلام...

- إنّها تبلغُ مقصودي، ولست أحتاج أكثر من ذلك... وبعد، منذ ثلاثة أيّام بدأت «وبعدُ» هذه. منذ ثلاثة أيّام تحدّثتِ في السّياسة مع السيّد دُبرّاي، وحسبتِ أنّ في كلامه ما يشير إلَى عودة دون كارلوس إلى إسبانيا؛ فكان أن بعتُ أسهمي، فانتشر الخبرُ، فعمّ الذعر، فبعتُ أكثر، لا

بل أعطيتُ؛ وإذا ينتشر في اليوم التالي خبرٌ يؤكّد زيف الخبر السّابق، وإذا بي أخسر سبعمائة ألف فرنك!

- وإذًا؟

- وإذًا، ما دمتُ أعطيك ربع الأرباح، فينبغي أن تتحمّلي ربع الخسائر؛ ربع سبعمائة ألف هو مائة وخمسةٌ وسبعون ألفَ فرنك.

- إنّ ما تقوله الآن غريبٌ، ولا أرى كيف أدخلتَ السيّد دُبراي في هذه القصّة.

- لأنّك إن لم تكوني تملكين المائة وخمسة وسبعين ألف فرنك التي تدينين لي بها، فسوف تقترضينها من أصدقائك، والسيّد دُبراي من أصدقائك.

صاحت البارونة: - اللّعنة!

- أوه! أرجوك، لا أريد حركاتٍ ولا صياحًا، ولا دراما حديثة يا سيّدتي، وإلّا ستضطرّينني إلى أن أقول إنّي أرى من مكاني هذا السيّد دُبراي يضحك متهكّمًا وبين يديه الخمسمائة ألف جنيه التي عددتِها له هذه السّنة، ويقول لنفسه إنّه قد وجد أخيرًا ما يبحث عنه أمهرُ المقامرينَ، وجد عجلة الحظّ التي نربح فيها دونما مراهنةٍ، وحين نخسر الرّهان لا نخسر شيئًا.

كادت البارونة تنفجر. قالت: - أيّها الحقير! هل تجرؤ على أن تقول إنّك لم تكن تعلم ما تلومني عليه اليومَ؟

- لن أقول إنّني كنتُ أعلم، ولن أقول إنّني لم أكن أعلم، وإنّما أقول: تأمّلي سلوكي معك منذ أربع سنوات، أي منذ لم أعد زوجك ولا أنت زوجتي، وانظري هل كان سلوكي هذا دومًا منسجمًا مع نفسه. ثمّ ارجعي القهقرى قبل القطيعة بيننا بقليل، وتذكّري: أردتِ أن تتعلّمي

الموسيقى على يد ذاك المغنّي الباريتون[1] الشّهير، الذي حصد في بداياته نجاحًا كبيرًا بالمسرح الإيطالي؛ وأنا أردتُ أن أتعلّم الرّقص مع تلك الرّاقصة التي حازت صيتًا واسعًا في لندن. كلّفني الأمر ما يقارب المائة ألف فرنك لكلّ واحدٍ منّا. ولم أشكُ شيئًا، لأنّني أومن بأنّ الحياة الزوجية تتطلّب شيئًا من التّناغم. مائة ألف فرنك لكي يتعلّمّ الزّوج وزوجته الرقص والموسيقى، ليس بالمبلغ الكبير. ثمّ ما لبثتِ أن مللت الموسيقى، ورغبت في دراسة الدبلوماسية مع سكرتيرِ وزيرٍ. وتركتك تدرسين. تفهمين! ما همّني أنا، ما دمتِ تدفعين أجر الدّروس من مدَّخراتك؟ لكنّني اليوم أرى أنّك تأخذين من أموالي أنا، وأنّ دروسك تكلّفني سبعمائة ألف فرنك. كفى يا سيّدتي! لا يمكن للأمور أن تستمرّ هكذا. فإمّا أن يعطي الدبلوماسيّ دروسًا... مجانية، وسأسمح له بذلك، وإمّا لن يضع قدمَه مرّةً أخرى في المنزل. هل تسمعين يا سيّدتي؟

صاحت هرمين مختنقةً: - أوه! هذا كثيرٌ يا سيّدي! وإنّك تتجاوز حدود الخزي.

أجاب دانغلار: - لكنّني أرى مسرورًا أنّك لم تقفي عندها، وأنّك اتّبعتِ راضيةً القاعدة القائلة: «على المرأة أن تتبع زوجها».

- تسبّني!

- أنت محقّة. لنكفّ عن هذا، ولنتعقّل ونفكّر بهدوء. أنا لم أتدخّل يومًا في شؤونك، وهذا لمصلحتك. فلتفعلي الشّيء نفسَه. لا شأن لك بعد الآن بأموالي. افعلي ما شئتِ بأموالك، لكن أتركي أموالي وشأنها فلا تزيديها أو تنقصيها. ثمّ من يدرِي ما إذا كان كلّ هذا ضربةً سياسيةً؛ قد يكون الوزير غضب من وقوفي في صفّ المعارضة، وغار من شعبيتي المتنامية، فأوعز إلى السيّد دُبراي أن يسعى في إفلاسي.

---

(1) مستوى من مستويات الصّوت الرّجالي.

- ما أرجَحَها من فكرةٍ!

- قطعًا؛ من سبق أن شهدَ شيئًا مماثلًا... خبرٌ برقيٌّ زائفٌ، أي المستحيل، أو ما يقارب المستحيل. إشاراتٌ مختلفةٌ تمامًا يعطيها التلغرافان!.. أرى أنّه أمرٌ مقصود.

قالت البارونة بخنوع: - سيّدي، أظنُّ أنّك لا تجهل أنّ هذا العامل قد فُصل من وظيفته، لا بل ويروجُ أنّه سيحاكَم، وأنّ أمرًا صدرَ بإيقافه، وأنّه كان ليُلقى عليه القبضُ لولا أنّه هربَ، ممّا يعني أنّه إمّا جُنَّ أو تعمّد الخطأ... إنّه مجرّد خطأٍ.

- نعم، وهذا ما يضحك السذّج، ويؤرّق الوزير ليلةً، ويسيءُ إلى سمعة السّادة كتّاب الدّولة، لكن أنا يكلّفني سبعمائة ألف فرنك.

قاطعته هرمين بغتةً: - لكن يا سيّدي، ما دمت تزعمُ أنّ السّبب في كلّ هذا هو السيّد دُبراي، لماذا لا تقوله له مباشرةً، بدلًا من أن تقوله لي أنا؟ لماذا بدلًا من مواجهة الرّجل تواجه المرأة؟

أجابها دانغلار: - وهل أعرف أنا السيّد دُبراي؟ وهل عندي رغبةٌ في أن أعرفَه؟ هل أريد أن أعرف أنّه يقدّم نصائحَ؟ وهل أريد أن أتّبع نصائحه؟ هل أنا أضارب؟ كلّا؛ أنت من يقوم بكلّ ذلك، وليس أنا!

- لكن يبدو لي أنّك ما دمتَ تنتفع..

هزّ دانغلار كتفيه:

- الحقّ، ما أحمق معشر النّساء، تحسبُ الواحدة منهنّ نفسها عبقريةً لمجرّد أنّها قامت بخديعة أو عشرٍ، ولم ينتشر اسمها في باريس بأكملها! لكن فكّري: إن حاولت أن تخفي ألاعيبك عن زوجك، وهذه أولى درجات فنّ الخداع، إذ إنّ أغلب الرّجال لا يريدون أن يروا، فإنّك لن تكوني إلا نسخةً باهتةً عمّا تفعله أكثر صديقاتك من نساء الطّبقة الرّفيعة. لكن معي أنا الأمرُ مختلف؛ أنا أرى، ولطالما رأيتُ؛ طيلةَ ستّ عشرة سنةً تقريبًا. قد تكونين أخفيتِ عنّي فكرةً ما، لكنّك لم تُخفي قطٌّ سلوكًا،

أو فعلًا، أو خطأً. بينما تصفّقين لنفسك على اصطناعِ السلوك القويم، وتظنّين أنّك تخدعينني: ما كانت النّتيجة؟ بفضل ادعائي الجهلَ، بدءًا من علاقتك بفيلفور حتّى علاقتك بدُبراي، لا أحد من أصدقائك إلّا وارتجف أمامي؛ لا أحد منهم إلّا وعاملني معاملة ربِّ المنزل؛ ثمّ لا أحد منهم جرؤ على أن يقول لك عنّي ما أقوله بنفسي اليومَ. قد أسمح لك يا سيّدتي أن تجعليني بغيضًا، لكنّني أمنعك من أن تجعليني أبله، ثمّ بخاصّة أمنعك من أن تسعي في خرابي.

كانت البارونة قد أبدت صبرًا وسعةً إلى حدود اللّحظة التي نطق فيها دانغلار اسمَ فيلفور؛ لكن ما إن نطق اسمه حتّى شحبت، وقامت كأنّما وخزها مهمازٌ، وفردت ذراعيها كأنّما تناشدُ طيفًا، وتحرّكت ثلاث خطواتٍ نحو زوجها، كأنّما تريد أن تنتزع منه السرّ الذي لا يعرفُه، أو ربّما يعرفُه لكنّه لا يريد أن يفصح عنه بالكاملِ، بباعث من حسابٍ بغيضٍ من حساباته المألوفة.

– السيّد دو فيلفور! ماذا يعني هذا! ماذا تقصد؟

– أقصد يا سيّدتي أن السيّدَ نارغون، زوجك الأوّل، إذ لم يكن مصرفيًا ولا فيلسوفًا، أو ربّما كان هذا وذاك في آنٍ، فلم يرَ ما يمكن أن يكسبه من وكيل الملك، فقد مات غمًا أو غيظًا حين عاد بعد غيابٍ دامَ تسعة أشهرٍ، فوجدك حاملًا في شهرك السّادس. أنا قاسٍ، لا أدري ذلك فقط وإنّما أفتخر به: هذا سرٌّ من أسرار نجاحي التّجاري. لمَ بدلًا من أن يقتُلَ أحدًا، قتلَ نفسه؟ لأنّه لم يكن يملك خزنةً ينقذها. لكن أنا مدينٌ لخزنتي. لقد تسبّب شريكي السيّد دُبراي في خسارتي سبعمائة ألف فرنك، فليتحمّل إذًا نصيبَه من الخسارة، وسوف نواصل أعمالنا؛ وإلا فليعلن إفلاسه ويتنازل لي عن المائة وخمسة وسبعين ألف جنيه، ويفعل ما يفعله المفلسون: يختفي. إِه، يا إلهي! إنّه شابٌّ لطيفٌ حينَ تصدقُ أخباره! لكن حين تكذب أخبارُه، فإنّي أعرف خمسين شابًا أجدى منه وأنفع.

كانت السيّدة دانغلار منهارةً؛ لكنّها قامت بجهدٍ جهيدٍ كي تدفع عن نفسها هجومه الأخير. تهاوت على أريكة، تفكّرُ في فيلفور، في مشهد العشاء، في سلسلة المصائب التي تضرب منزلها منذ أيّام، فتقلبُ هدوءَ بيتها إلى جدالٍ فاضحٍ. لم يكلّف دانغلار نفسه عناء النّظر إليها، وإن بذلت كلّ ما في وسعها ليغمى عليها. سحب باب غرفة النّوم من غير أن يضيف كلمةً، وانسحبَ إلى غرفته؛ حتّى إنّ السيّدة دانغلار، لمّا استعادت وعيها خالت نفسها قد رأت كابوسًا.

66

مشاريع زواج

غِبَّ المشهد الذي نقلناه آنفًا، وفي السّاعة التي اعتاد دُبراي أن يعرّج فيها على السّيدة دانغلار، ليزورها زيارةً قصيرةً، في طريقه إلى مكتبه؛ قلنا في تلك السّاعة، لم تظهر عربة الشّاب في فناء المنزل.

إذّاك، أي حوالى نصف ساعة بعد منتصف اللّيل، طلبت السيّدة دانغلار عربتها، وخرجت. وكان دانغلار، الواقف خلف ستارٍ، قد رصد خروجها الذي كان يتوقّعه. أمرَ بأن يُعلَم بعودة السيّدة ما إن تعودَ؛ لكن مرّت ساعتان وما عادت السيّدة.

وفي الثانية ظهرًا طلب أحصنتَه، وقصد المجلس، وسجّل اسمَه ليتدخّل معترضًا على الميزانية.

من الثانية عشرة إلى الثانية ظلّ دانغلار في مكتبه، يفتح برقياتٍ، وكآبته ما تنفكُّ تتعاظمُ، يراكمُ أرقامًا فوق أرقامٍ، ويستقبل زياراتٍ، من بينها زيارة الرّائد كافالكانتي الذي، وفيًا لزيّه وصرامته ودقّته، حضر في الوقت الذي كان قد حدّده عشيّة ذلك لكي يُتمّ معاملته مع المصرفيّ.

وأثناء مغادرة دانغلار مكتبَه؛ وكان قد أبدى علامات توتّر شديد أثناء الاجتماع، وأبانَ عن حدّة غير مسبوقةٍ تجاه الوزير؛ ركبَ عربتَه، وأمر السّائس بأن يقوده إلى شارع الشانزيليزيه، الرّقم 30.

كان الكونت مونت كريستو في بيته، لكنّه كان مشغولًا مع أحدهم، فطلب من دانغلار انتظارَه قليلًا في الصّالون.

وبينما المصرفيُّ ينتظرُ، فُتح البابُ، ودخل رجلٌ يرتدي زيّ راهبٍ،

وبدلًا من أن ينتظر مثلَه، إذ كان مألوفًا بالمنزل أكثر منه، فقد حيّاهُ ودخل إلى الحجرات الدّاخلية واختفى.

بعد ذلك بلحظةٍ، فتح مجدّدًا البابُ الذي دخل منه القسّ، وظهر الكونت مونت كريستو.

قال: - عذرًا عزيزي البارون، لقد وصل إلى باريس أحد أعزّ أصدقائي، الأب بوزوني الذي رأيتَه يدخُل. منذ زمنٍ لم نلتقِ، ولم أوتَ شجاعةَ تركه فور وصوله. أتمنّى أن يكون في عذريَ ما يشفع لي جريرةَ تركك تنتظرُ.

قال دانغلار: - لا داعي للاعتذار، الأمر بسيط؛ أنا الذي اخترت وقتًا غير مناسبٍ لزيارتك، وسأنسحب.

- كلاّ، تفضّل بالجلوس. لكن، يا إلهي! ما بك؟ تبدو شديد القلق؛ الحقّ أنّك تخيفني؛ حين يبدو الرأسماليُّ حزينًا فإنّه كالمُذَنَّب دائمًا ينذر بمصيبةً كبيرة تنزل على العالم.

قال دانغلار: - يا سيّدي، إنّ الحظّ العاثر لا يفارقُني منذ أيامٍ، ولا تصلني إلا أخبار الكوارث.

ردّ الكونت متسائلًا: - يا إلهي! هل خسرت خسارةً في البورصة؟

- كلاّ لقد تعافيتُ من خسارتي؛ ما حدث هو إفلاسٌ في تريستي.

- حقًا! أوَليسَ مُفلسك هو جاكوبو مانفِردي؟

- بلى، إنّه هو! تصوّر رجلًا دأب منذ زمنٍ طويلٍ على التعامل معي سنويًا بما لا يقلّ عن ثمانمائة أو تسعمائة ألف فرنك. ولم يسبق أن تعسّر أو تأخّر في السّداد؛ صنديدٌ يدفع كأميرٍ... يدفع. أعطيتُه تسبيقًا قدره مليونًا، ولم أحسب أنّ الشيطان جاكوبو مانفِردي سيوقف الدّفع!

- حقًا؟

- إنّها ضربةُ قدرٍ لم أشهد لها مثيلًا. أردت أن أسحب من رصيده ستّمائة ألف جنيه، لكن رُفض السّحبُ، وبالإضافة إلى ذلك لا تزال

عندي أربعمائة ألف فرنك صكوكًا موقّعةً من طرفه تُستخلص نهاية الشّهر من عند عميله في باريس. نحن اليوم في الثلاثين من الشّهر، أرسلت الصّكوك لأصرفها؛ آه! العميل اختفى. وإذا ما أضفنا كلّ هذا إلى صفقة إسبانيا، فإنّ الحاصل سيكون نهاية شهرٍ لطيفةٍ جدًا!

– وهل صفقةُ إسبانيا خسارةٌ كبيرة؟

– قطعًا، سبعمائة ألف فرنك من حرّ مالي.

– أنّى لك أن تخسر هذه الخسارة، وأنت الذئب المتمرّس على الصفقات؟

– إيه! إنّه خطأ زوجتي؛ لقد حلُمت بأنّ دون كارلوس دخل إسبانيا؛ وهي امرأة تصدّق الأحلام. تقول إنّ الأمر أشبه بالتّأثير المغناطيسيّ؛ حين تحلم بشيءٍ، فإنّ ذلك الشّيء، على زعمها، لا بدّ واقعٌ. وبباعثٍ من يقينها سمحت لها بأن تضارب؛ لديها خزنتُها ومالُها: لعبت وخسرت. صحيح أنّها لا تضارب بمالي وإنّما بأموالها. لكن مع ذلك، لا بدّ أنّك ستوافقني الرّأي: إنّ خسارة سبعمائة ألف فرنك من أموال الزوجة لا بدّ أن تؤثّر على الزوج. لكن، كيف يا سيّدي لم تعلم بالخبر وقد انتشر كلّ الانتشار؟

– بلى، لقد تناهى إليّ الخبر، لكنّي كنت أجهل التفاصيل؛ ثمّ إنّني جاهلٌ كلّ الجهل بأمورِ البورصة.

– لا تُضارب إذًا؟

– أنا! وكيف تريدني أن أضارب؟ أنا الذي أعاني أصلًا في تدبير عائداتي، سأضطرُّ إلى أن أعيّنَ، فضلًا عن مدبّر منزلي، كاتبًا وصرّافًا. لكن، بخصوص قضيّة إسبانيا، لا يبدو لي أنّ رجوع الدون كارلوس كان مجرّد حُلم رأته البارونة. ألم تكتب الجرائد خبرًا مماثلًا؟

– أنت تصدّقُ الجرائد إذًا؟

– أنا؟ كلّا، بالمطلق؛ لكن يبدو لي أنّ صحيفة **لوميساجيه** النّزيهة،

تشذّ عن القاعدة، وأنّها لا تنشر إلا الأخبار الموثوقة، الأخبار التي تصل بالتّلغراف.

أجابه دانغلار: - وهذا تحديدًا ما لا يمكن تفسيرُه. خبر رجوع الدون كارلوس كان بالفعل خبرًا برقيًا.

- يعني أنّك فقدت تقريبًا ما يقارب مليونًا وسبعمائة ألف فرنك هذا الشّهر؟

- ليس تقريبًا، بل إنّه الرّقم المظبوط.

قال مونت كريستو بشفقة: - اللعنة! إنّها ضربة قاسية بالنّسبة إلى ثروةٍ من الدّرجة الثالثة.

قال دانغلار وقد شعر ببعض الإهانة: - ثروة من الدّرجة الثالثة! ماذا تقصد بحقّ الشّيطان!

واصل مونت كريستو: - بالطّبع أقسِّمُ الثّروات إلى فئاتٍ ثلاث: ثروة الدّرجة الأولى، وثروة الدّرجة الثانية، وثروة الدّرجة الثالثة. أقصد بثروة الدّرجة الأولى تلك المكوّنة من كنوزٍ تحت أيدينا: أراضٍ، مناجم، سندات دولٍ كفرنسا والنّمسا وإنجلترا، شرطَ أن يكون مجموع تلك الكنوز والمناجم والسّندات يقارب المائة مليون؛ وأقصد بثروة الدّرجة الثّانية استغلال المصانع، والمقاولات المشتركة، والأقاليم التّابعة للممالك والإمارات التي لا تتعدّى إيراداتها مليونًا وخمسمائة ألف فرنك، بما يشكّل رأسمالًا يقارب خمسين مليونًا؛ وأخيرًا أقصد بثروة الدّرجة الثالثة الرّساميل المستثمَرة بمصالح مشتركة، والأرباح المرتبطة بالغير أو الحظّ، الأرباح التي يحقّقها إفلاسُ أحدهم، أو يخرّبها خبرٌ برقيٌّ؛ المضاربات المحتملة، ولنقُل العمليات الخاضعة لحظوظ ذاك القدَر الذي يمكن أن نسمّيه قوّةً صغرى، قياسًا إلى القوّة الكبرى، التي هي قوّة الطّبيعة؛ وكلّ ذلك في حدود رأسمالٍ مفترضٍ أو واقعيّ يقارب خمسة عشر مليونًا. أليس وضعك مشابهًا للفئة الثالثة؟

أجاب دانغلار: - اللعنة! بلى، هو كذلك.

واصل الكونت ببرودٍ: - ممّا يعني أنّ ستّة أشهر تُقفَلُ على هذا النّحو، ستُلقي بمؤسّسةٍ صغيرة إلى فراشِ الاحتضار.

قال دانغلار وعلى شفتيه ابتسامةٌ باهتة: - أوه! لَشَدَّ ما تبالغُ!

أجاب الكونت بنفس النّبرة: - لنجعلها إذًا سبعة أشهر. قُل لي، هل سبق أن فكّرت في هذا: خسارة سبعمائة ألفٍ سبعَ مرّاتٍ، تعني خسارةَ اثني عشر مليونًا تقريبًا... كلاّ؟ حسنًا، أنت محقٌّ، إذ إنَّ من يفكّر على هذا النّحو لن يستثمر قطّ أموالَه، الأموال التي هي بالنّسبة للمصرفيّ نظيرَ الجلد بالنّسبة إلى الإنسان المتحضّر. نملك ملابسنا، الفخمةَ بدرجةٍ أو بأخرى، تلك هي أرصدتنا؛ لكن حين يموت الواحد منّا فإنّ لا شيء يبقى له إلا جلده؛ وذلك شأن المصرفيّ، حين يغادر الصّفقات، لا يبقى لديه إلا أملاكه الفعلية، خمسة ملايين أو ستّة على أقصى تقدير؛ ذاك أنّ الثّروات من الدّرجة الثالثة ليست في الحقيقة إلا ثلث ما تظهر عليه، تمامًا مثل قاطرة السّكة الحديد التي ليست وسط الدّخان الذي يحوطها ويضخّمُها إلا آلةً قويّة بدرجةٍ أو بأخرى. وإذًا، من الخمسة ملايين التي تشكّل رأسمالك الحقيقيّ، خسرتَ ما يقاربُ مليونين، ممّا ينقص أيضًا من ثروتك المفترضة ورصيدك؛ ممّا يعني يا عزيزي السيّد دانغلار أنّ جلدك قد شُجَّ شجّةً، إن شُجَّ أربعًا أخرَ مثلها، مُتَّ. إه! إه! حذار يا عزيزي السيّد دانغلار. هل تحتاج نقودًا؟ هل تريد أن أُقرِضَك؟

صاح دانغلار مستنجدًا بكلّ الفلسفة وكلّ التّقنّع: - ما أسوأك في الحساب يا سيّدي! في اللّحظة التي أحدّثك فيها، دخلت الأموال إلى خزائني بمضاربات أخرى ناجحة عوّضتني خسارتي. إنّ الدّم الذي نزفته من الشجّة، عوّضتُه بالغذاء. خسرتُ المعركةَ في إسبانيا، وانهزمت في تريستي؛ لكنّ جيشي البحريّ في الهند سطا على بعض السّفن؛ وروّادي بالمكسيك قد اكتشفوا منجمًا.

- عظيم، عظيم! لكنّ أثر الشجّة لا يزولُ، وعند أوّل خسارةٍ سيتفتّقُ الجرحُ.

واصل دانغلار بطريقة الدّجال في استعراضِ ثروته: - كلّا، لأنّني أمشي على أرضٍ صلبة؛ لكي أقع ينبغي أن تسقط ثلاث حكوماتٍ.

- اللّعنة! شهدنا ذلك من قبل.

- وأن تُعدمُ الأرضُ الغلّةَ.

- تذكّر السبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف.

- وأن ينسحب البحر كما حدث في زمن فرعون؛ وحتّى في هذه الحال ثمّة أبحُر عديدةٌ، وستكون السّفُن دومًا جاهزةً للتحرّك قوافلَ.

قال مونت كريستو: - خيرًا، ألفَ خير، يا عزيزي دانغلار؛ أرى أنّني أخطأتُ التّقديرَ، وأنّك تنتمي إلى طبقة الثّروة الثّانية.

قال دانغلار وعلى شفتيه ابتسامةٌ من تلك الابتسامات النّمطية التي تخلّف في نفس الكونت انطباع الأقمار الرّخوة التي يضيء بها بعض الرّسامين خرائبهم: - أظنّني خليقًا بأن أصبو إلى هذا الشّرف. (ثمّ أضاف سعيدًا أن وجد فرصةً لتغيير الموضوع)، لكن، ما دمنا نتكلّم في الأعمال، أخبرني ما يمكنني أن أفعله للسيّد كافالكانتي.

- أن تعطيَه مالًا، إذا ما كان يملك رصيدًا لديك، وبدا لك طلبُه مقبولًا.

- ممتاز! لقد أتاني هذا الصّباح حاملًا صكًّا بأربعين ألف فرنكٍ موقّعًا باسم السيّد بوزوني، ومُرسلًا منك إليّ على مسؤوليتك. ولا شكّ أنّك تعرف أنّي قد عددتُ له على الفور الأوراق الأربعين المربّعةَ.

أومأ مونت كريستو برأسه إيماءة تفيد بأنّه يصادق على كلّ ما فاه به دانغلار. وواصل دانغلار كلامه: - وليس هذا كلّ شيء؛ لقد فتح عندي حسابًا لابنه.

- لا أقصد أن أكون متطفّلًا، لكن، كم أعطى الشّابَّ؟

- خمسة آلاف فرنكٍ في الشّهر.

- أي ستّين ألف فرنك في السّنة. (وأضافَ هازًّا كتفيه) كنت أتوقّع ذلك. ما أجبنَ آل كافالكانتي هؤلاء. ما الذي يمكن أن يصنعه شابٌّ بخمسة آلاف فرنك في الشّهر؟

- لكنّك تفهم إذا ما طلب الشّابُّ زيادةً...

- لا تُعطِه زيادةً، فوالده سيتنصّل ويتركك تتدبّر أمرك بنفسك. أنت لا تعرف كيف هم مليونيراتُ مناطقَ ما وراء الجبال[1]، إنّهم غايةٌ في الشحّ. ومن ذا الذي فتح له الحساب؟

- أوه! مؤسّسة فِنتزي، إحدى أهمّ مؤسّسات فلورنسا.

- لا أقول إنّك خاسرٌ مالك؛ لكن مع ذلك تقيَّد بالحدود التي تُمليها الرّسالة.

- ألا تثق إذًا في هذا المدعو كافالكانتي؟

- أنا يمكن أن أعطيه عشرة ملايين إن وقّع لي على استلامها. فهذا يدخلُ في ثروات المستوى الثّاني التي حدّثتك عنها قبل قليل، يا عزيزي دانغلار.

- زد على ذلك أنّه بسيط الهيئة! ما كنت لأحسبه أكثر من رائد.

- وستكون قد رفعت من قدره؛ الحقّ إنّه لا يوحي بالثقة. حين رأيتُه أوّل مرّةٍ حسبتُه ملازمًا تعفّنَ لطول مكوثه في رتبته. غير أنّ كلّ الإيطاليّين كذلك، حين لا يشبه الواحدُ منهم مجوسَ الشّرق، فإنّه يشبه يهوديًا عتيقًا.

قال دانغلار: - الشّابُ أفضل حالًا.

- نعم، لعلّه خجولٌ بعض الشّيء؛ لكنّه يبدو لي مقبولًا على العموم. كنت في البداية قلقًا.

---

(1) النعت ultramontain، يصف به الفرنسيون من يقع وراء جبال الألب على وجه التّخصيص، كما يشير إلى التطرّف والتّعصّب البابوي.

- ولمَ؟

- لأنّك رأيتَه عندي تقريبًا أوّل ما دخل عالمنا، على ما قيل لي. لقد كان مسافرًا مع معلّم صارم، ولم يزُر باريس قطّ.

سأله دانغلار بلاً مبالاةٍ: - هؤلاء الإيطاليون من أبناء الأسر الرّاقية قد اعتادوا مصاهرة بعضهم بعضًا، أليس كذلك؟ يحبّون تنمية ثرواتهم.

- بلى، بالعادة يفعلون ذلك؛ لكنّ كافالكانتي رجلٌ مختلفٌ، رجل درَج على ألّا يفعل شيئًا يفعلُه الجميع. لن يقنعني أحدٌ بالتّخلي عن فكرة أنّ الرّجل قد أرسل ابنه إلى فرنسا بحثًا عن زوجةٍ.

- تعتقد ذلك؟

- لا بل إنّي متأكّد من ذلك.

- وهل سمعتَ شيئًا عن ثروته؟

- لا حديث إلّا عن ذلك؛ غير أنّ بعضًا يقولون إنّه يملك ملايينَ، وآخرين يزعمون أنّه لا يملك بولسًا(1) واحدًا.

- وما رأيك أنت؟

- لا ينبغي أن تؤسّس على رأيي شيئًا؛ إنّه رأيٌ خاصٌّ جدًا.

- لكن،...

- رأيي أنا أنّ كلّ أولئك القادة، والزّعماء القدامى، لأنّ آل كافالكانتي قادوا جيوشًا، وحكموا أقاليم؛ أقول رأيي أنّهم قد دفنوا ملايين في أماكن وحدهم أبناؤهم البكر يعرفونَها ويعرّفونها أبناءهم البكر بعدَهم، جيلًا تلو جيل؛ والدّليل أنّهم جميعًا صُفرٌ يُبّسٌ مثلهم مثل عملات الجلدر القديمة التي يحتفظون بها من أيّام الجمهورية الرّومانية، والتي أخذوا منها بريقًا لفرط ما تأمّلوها.

قال دانغلار: - تمام؛ وإنّ ما يشهد على صحّة ما تقول هو أنّنا لا ندري لهم بوصةَ أرضٍ.

---

(1) البولس من عملات الدّولة البابوية.

– أو لا ندري عن أراضيهم إلا القليل؛ أنا مثلًا لا أعرف من أملاك كافالكانتي إلا قصرَه بلوكا.

قال دانغلار ضاحكًا: – آه! عنده قصر! هذا أصلًا ليس بالقليل.

– أجل، ثمّ إنّه يكتريه لوزير المالية، بينما يسكن هو منزلًا صغيرًا. أوه! لقد قلت لك من قبل، إنّ الرّجل مقتّر.

– الرّجل لا يلقى عندك مديحًا يا سيّدي.

– اسمع، أنا بالكاد أعرفه؛ أحسب أنّي التقيته ثلاث مرّات في حياتي. ما أعرفه عنه هو ما أخبرني به الأب بوزوني وما سمعتُه من فمه هو نفسه؛ وصباح اليوم كان يحدّثني عن مشاريعه لابنه، وأوحى إليّ بأنّه ملّ من ترك أموالٍ معتبرةٍ راقدةً في إيطاليا التي تعدّ بالنّسبة إليه بلدًا ميتًا؛ وأنّه يبحث عن طريقة لجعل ملايينه تتنامى، سواء في فرنسا أو إيطاليا. لكنّي أؤكّد لك، أنّي على الرّغم من ثقتي في الأب بوزوني إلا أنّني لا أستطيع أن أؤكّد شيئًا.

– على أيّ حالٍ، شكرًا على الزّبون الذي أتيتني به؛ إنّه اسمٌ رفيعٌ أسطّرُه في سجلّاتي، وقد امتلأ خازني فخرًا حين أخبرتُه من يكون السيّد كافالكانتي. بالمناسبة، وهذا مجرّد تفصيل بسيط أودّ معرفته: حين يزوّج هؤلاء القوم أولادَهم، هل يعطونهم مهورًا؟

– أوه! يا إلهي! على حسب. عرفتُ أميرًا إيطاليًا، غنيًا كأنّه منجمُ ذهب، وأحد ألمع الأسماء بتوسكانا؛ وكان صاحبنا هذا حين يتزوّج ابنٌ من أبنائه زيجةً توافقُ هواه، يعطيه ملايينَ، وحينَ يتزوّج زيجةً لا تروقه يكتفي بأن يخصّص له ثلاثين قطعةً ذهبيّة في الشّهر. لنفترض أنّ أندريا تزوّج زيجةً توافق هوى والِده، لا شكّ أنّ الرّائد آنذاك سيعطيه مليونًا أو مليونين أو ثلاثة. ولو أنّ الفتاة التي اختارها ابنةُ مصرفيّ، فلربّما انخرط الأبُ في مؤسسةِ صهره؛ ثمّ هب، بالمقابل، أنّ زوجة ابنه لم ترُقه: سلامًا، سيضع الأب كافالكانتي يده على خزنته، ويضيفُ لها قفلًا،

فيضطرُّ المايسترو أندريا إلى أن يعيش عيشة أحد أبناء الأسر الباريسية، حياة الخداع والمظاهر.

- سيجد هذا الولدُ أميرةً بافارية أو بيروفية، فهو لن يرضى إلا بمصاهرة تاج قويّ، أو إلدورادو تملأها مناجمُ الذّهب.

- كلّا، إنّ سادة الجانب الآخر من الجبل يتزوّجون في الغالب الأعمّ نساءً بسيطاتٍ من البشر الفانين؛ إنّهم مثل الإله جوبيتير يحبّون اختلاط الأجناس. ولكن، لمَ تسألني كلّ هذه الأسئلة يا سيّد دانغلار؟ هل تريد تزويج أندريا؟

- الحقّ أقول، إنّي لا أراها صفقةً سيئةً؛ وإنّي لمضاربٌ جيّدٌ.

- أفترض أنّك لست تفكّر في تزويجه من الآنسة دانغلار؛ أنت لا تريد أن يصارع ألبير المسكينَ آندريا؟

أجابه دانغلار وهو يهزّ كتفيه: - ألبير! بلى، إنّه لا يكترث للأمر.

- لكنّه وابنتك خطيبان، على ما أعتقد؟

- يعني أنّي والسيّد مورسيرف قد تكلّمنا غير ما مرّةٍ في أمر هذا الزّواج؛ لكن السيّدة مورسيرف وألبير...

- لن تقول إنّهما لا يريان في هذه الزّيجة مكسبًا؟

- رويدك! إنّ الآنسة دانغلار ليست أقلّ قدرًا من السيّد مورسيرف على ما أحسبُ!

- نعم، إنّ مهر الآنسة دانغلار سيكون معتبرًا، لا شكّ عندي في ذلك، خاصّة إن لم يتسبّب التّلغراف بحماقاتٍ أخرى.

- لا أقصد المهر فقط، لكن قُل لي بالمناسبة...

- أقول لك ماذا...

- لمَ لم تَدْعُ السيّد مورسيرف وأسرتَه إلى عشائك.

- بلى، لقد دعوتُه، لكنّه اعتذر بسفرٍ إلى دييب (فرنسا) مع السيّدة دو مورسيرف التي وُصف لها هواء البحر.

قال دانغلار ضاحكًا: - نعم، نعم، لا بدّ أنّه مفيدٌ لها.

- لم؟

- لأنّه الهواء الذي كانت تتنفّسه أيّام شبابها.

ترك مونت كريستو الملاحظة تمرُّ من غير أن يبدِي اهتمامًا بها.

قال: - وألبير إن لم يكن يضاهي الآنسة دانغلار ثراءً، فإنّك لن تستطيع إنكار أنّه يحمل اسمًا معتبرًا؟

قال دانغلار: - وإن كنت، أفضّلُ عليه اسمي.

- لا شكّ في أن اسمك رفيعُ الصّيت، ويشرّفُ اللّقبَ الذي يحمله؛ لكنّك حصيفٌ بما يكفي لتدرك أنّ بعض الأحكام المسبقة تظلُّ من التجذّر بحيث يصعب اقتلاعها. إنّ نبالةً تمتد لخمسة قرونٍ لا يمكن أن تقارنَ بنبالةٍ عمرُها عشرون سنةً.

قال دانغلار بابتسامةٍ حاول أن يجعلها ساخرةً: - وهذا هو السبب؛ هذا هو السّبب في أنّني أفضّل مصاهرة السيّد أندريا كافالكانتي على مصاهرة السيّد ألبير دو مورسيرف.

قال مونت كريستو: - لكنّني أحسب أنّ آل مورسيرف لا يقلّون شأنًا عن آل كافالكانتي؟

واصل دانغلار: - آل مورسيرف! قل لي يا عزيزي الكونت، أنت رجلٌ رفيعٌ؟

- أظنُّ ذلك.

- وعلاوةً على ذلك، لديك معرفةٌ بشعارات العائلات؟

- بعض معرفة.

- حسنًا! اُنظُر إلى لون شعاري؛ إنّه أغمق من لون شعار مورسيرف.

- ولمَ ذلك؟

- لأنّي أنا، وإن لم أكن قد وُلدت بارونًا، فإنّي على الأقلّ أسمّى دانغلار.

- ثمّ؟

- أمّا هو فليس اسمه مورسيرف.
- كيف، ليس اسمه مورسيرف؟
- ليس اسمه مورسيرف بالمطلق.
- ماذا تقول!
- أنا جُعلت بارونًا من طرفِ أحدهم، وبالتّالي أنا بارون؛ أمّا هو فقد جعل من نفسه بنفسه كونتًا، وبالتّالي هو ليس كونتًا.
- مستحيل.
واصل دانغلار: - اسمع يا عزيزي الكونت، إنّ السيّد دو مورسيرف صديقي، أو بالأحرى تجمعني به معرفة ثلاثين سنة؛ وتعرفُ أنّني أنا أُفيد من شعار نبالتي ما وسعتني الإفادةُ، لأنّني لا أنسى من أين انطلقتُ.
قال مونت كريستو: - وفي هذا علامةُ تواضعٍ كبيرٍ، أو غطرسةٍ عظيمة.
- حسنًا، حين كنتُ أنا ما أزال تاجرًا صغيرًا، كان مورسيرف مجرّد صيّادٍ بسيط.
- وإذّاك ماذا كان يدعى؟

- فرنان.
- فرنان وفقط؟
- فرنان مونديغو.
- أمتأكّد أنت؟
- طبعًا! لقد باعني من الأسماك ما يكفي لكي أعرفَه.
- وإذًا، لمَ تعطيه ابنتَك؟
- لأنّ فرنان ودانغلار، بوصفهما من الأغنياء الجدد، ولا أحد منهما ينتمي إلى النّبالة، يتساويان في العمق؛ هذا إن ضربنا صفحًا عن بعض الأشياء التي رُمِي بها هو، ولم تُقل في حقّي أنا قطّ.
- ماذا تقصد؟

- لا شيء.
- آه! أجل، فهمت؛ إنّ ما قلتَه الآنَ قد أنعش ذاكرتي بخصوص اسم فرنان مونديغو. لقد سمعت بهذا الاسم في اليونان.
- بخصوص قضيّة علي باشا؟
- تحديدًا.
استأنف دانغلار الكلام: - ذاك لُغزٌ، وأُقرّ بأنّي كنت لأعطي الكثير في سبيل كشفه.
- لم يكن من الصّعب عليك كشفه، لو أنّك أردتَ ذلك.
- وكيف؟
- لا ريب أنّ لديك علاقاتٍ في اليونان.
- طبعًا!
- بمدينة يوانينا؟
- في كلّ مكانٍ باليونان...
- فاكتب إلى معارفك بيوانينا، واسألهم أيّ دورٍ لعبه الفرنسيُّ المدعو فرنان في مأساة علي الألباني.
صاح دانغلار وهو ينهض بسرعة: - أنت محقّ! سأكتب الرّسالة اليوم.
- اكتُب.
- سأفعل.
- وإن وصلتك أخبارٌ مخزيةٌ...
- سوف أبلغك بها.
- سيسرّني سماعها.
انطلق دانغلار خارج المنزل، وبقفزةٍ واحدةٍ كان أمام عربته.

67

مكتب وكيل الملك

لنترُك المصرفيَّ يعود بخيوله هرولةً، ولنَقْفُ أثر السيّدةَ دانغلار في جولتها الصّباحية.

قُلنا إنّ السيّدة دانغلار كانت قد طلبت خيولها، نصف ساعة بعد منتصف النّهار، وخرجت بعربتها. توجّهت ناحيةَ ضاحيةِ سان جرمان، فسلكت شارع مازاران، وتوقّفت عند معبر بون نوف. وهناك نزلت وعبرت المعبر. كانت ترتدي زيًا غايةً في البساطة، زيَّ امرأة راقيةٍ تخرجُ صباحًا.

ولمّا وافت شارع غينيرو، صعدت عربةَ أجرة ووجّهَتها صوب شارع هارلاي.

وما إن صعدت العربة حتّى أخرجت من جيبها حجابًا أسودَ سميكًا، شدّته إلى قبّعتها القشّ؛ ثمّ اعتمرت قبّعتها مجدّدًا، وتأمّلت في مرآةٍ، راضيةً إذ لاحظت أنّ النّاظر إليها لا يمكن أن يرى منها إلاّ بشرتها البيضاء وبريق بؤبؤ عينيها.

اتّخذت العربةُ طريق بون نوف، ودخلت من ساحة دوفين إلى فناء هارلاي؛ ولمّا فتح لها السّائقُ بابَ العربة دفعت له أجرتَه، وانطلقت صوب السلّم، فارتقته بخطواتٍ خفيفة، ثمّ ما لبثت أن وافت رواق قصر العدالة.

صباحًا يكون القصر غاصًّا بالأعمالِ ورجال الأعمال؛ ومن عادة رجال الأعمال ألّا يتفرّسوا في النّساء، فعبرت السيّدة دانغلار الرّواق

من دون أن يلحظها إلا عشر نساءٍ أخريات كنّ يتربّصن محامِيّهنَّ. كان بهو مكتب السيّد دو فيلفور مزدحمًا؛ لكنّ السيدّة دانغلار لم تكن تحتاج حتّى أن تفصح عن اسمِها، فما إن برزت حتّى قام نحوها مأمورٌ، فسألها ما إذا كانت هي الشّخص الذي ضرب له وكيل الملك موعدًا، وإذ أجابته موافقةً، اقتادها عبر ردهةٍ مخصّصة لمكتب وكيل الملك.

كان رجل القضاء جالسًا على أريكته يكتب، موليًا ظهره إلى الباب. سمع البابَ يُفتَح، والمأمور ينطق بهذه الكلمات: «ادخلي يا سيّدتي!»، ثمّ انغلق البابُ من دون أن يتحرّك فيلفور حركةً؛ لكن ما إن تبيّن ابتعادَ المأمور من وقع خطواته، حتّى قام من فوره إلى الأقفال يُوصدها، والسّتائر يُنزلُها، وأركان مكتبه يفحصُها رُكنًا رُكنًا.

ثمّ لمّا حاز اليقين بأنّ لا أحد يستطيع أن يراهُ أو يسمعه، فاطمأنّ، قال:

- سيّدتي، شكرًا لدِقَّتك.

ثمّ قرّب من السيّدة دانغلار مقعدًا، جلست عليه، إذ كان قلبها يخفق بعنفٍ لدرجة أنّها كانت على وشك الاختناق.

قال وكيل الملك وهو يجلس بدوره، ويستدير نصف استدارةٍ كي يواجه السيّدة دانغلار: - منذ زمنٍ طويلٍ لم تتح لي الفرصة لأن أحادثك رأسًا لرأس يا سيّدتي؛ ولأسفي الشّديد نلتقي اليوم لنتحادث في أمرٍ مؤلمٍ.

- ومع ذلك تراني، يا سيّدي، لبّيت النّداءُ ما إن طلبتني، على الرّغم من أنّ الأمر أكثر إيلامًا بالنّسبة إليّ أنا.

ابتسم فيلفور بمرارة.

قال مجيبًا خواطرَه بالأحرى، أكثر منه مجيبًا كلام البارونة: - صحيح إذًا أنّ كلّ أفعالنا تترك آثارها، بعضها لامعةً وأخرى مظلمةً، في ماضينا! صحيح إذًا أنّ حياتنا تشبه في مسيرها سير الزّواحف على الرّمل تاركةً ثلومًا. للأسف! بالنّسبة إلى الكثيرين يكون الثلمُ صنيعةَ دموعهم!

قالت السيّدة دانغلار: - سيّدي، تفهم انفعالي، أليس كذلك؟ اعذرني إذًا. هذه الغرفة التي مرّ منها كثير من المتّهمين، مرتعدين يغشاهم العارُ، وهذه الأريكة التي أجلس عليها بدوري مرتعدة يغشاني العار!... أوه! أحتاج أن أستعين بكلّ قوايَ حتّى لا أرى في نفسي متّهمةً وفيك القاضي المتوعّد.

هزّ فيلفور رأسه وأطلق تنهيدة.

قال: - وأنا أقول إنّ مكاني ليس كرسيّ القاضي، وإنّما قفص المتّهم.

قالت السيّدة دانغلار دهشة: - أنت؟

- أجل، أنا.

قالت البارونة وقد لمعت عينُها الفاتنة ببريق خاطف: - سيّدي، أظنُّ فيما يخصّك أنّ نزعتك المتشدّدة تدفعك إلى المبالغة. إنّ الثّلوم التي ذكرتَها، إنّما رسمَها جميعًا الشّبابُ الأهوجُ. وفي عمق الأهواء، وفي ما وراء المتعة، ثمّة دائمًا شيءٌ من ندم؛ لذلك ترى الإنجيل، ملاذ الأشقياء الأبديّ، قد أعطانا أمثولة الصبيّة الآثمة والمرأة الزّانية[1]. لذا، أعترف بأنّني حين أستعيد حماقات الشّباب، أفكّر في أنّ الرّب سيغفرها لي، لأنّني إن لم أجد العذر في آلامي، فعلى الأقلّ سأجد فيها العزاء؛ أمّا أنتم، يا معشر الرّجال، فماذا تخشونَ، أنتم الذين يغفر لكم الجميعُ وترفع من قدركم الفضائحُ؟

أجابها فيلفور: - سيّدتي، تعرفينني؛ لست منافقًا، أو على الأقل لا أمارس النّفاق مجّانًا. إذا ما كان جبيني قاسيًا، فإنّما لفرط ما خطّت عليه الخطوبُ، وإذا ما كان قلبي قد تحجّر، فإنّما ليستطيع تحمّل ما نزل به صدمات. لم أكن هكذا أيّام شبابي، لم أكن هكذا مساء خطوبتي، مساء كنّا نجلس جميعًا إلى المائدة بشارع المجالس، في مارسيليا. لكن،

(1) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن.

انقضى زمنٌ مُذّاك، وتغيّرت أمورٌ كثيرة فيّ وحواليّ؛ قضيت حياتي في طلب الصّعاب، ومقارعة الشّدائد، ومن وضعَهم القدرُ في طريقي، كرهًا أو اختيارًا، سُحقوا. إنّ الأشياء التي نرغب فيها بشدّة، يندُر ألّا يعارضها بشدّةٍ أولئك الذين نطلبها منهم أو نحاول انتزاعها منهم. لذا فإنّ أغلب شرور البشر إنّما قصدَتهُم ولم يقصدوها، أتَتهم مقنّعةً في قناع الضّرورة؛ ثمّ إنّ ما نرتكبه من شرورٍ في ساعةِ إثارةٍ أو خوفٍ أو هذيانٍ، هي شرورٌ كان بالإمكان أن نتجنّبها. إذ تأتيك، فيما بعدُ، بسيطةً وواضحةً وسهلةً، الطّريقةُ التي كان بإمكانك أن تسلكها لولا أن عميت عنها؛ فتقول لنفسك: كيف فعلت هذا بدلًا من أفعل ذلك؟ أمّا أنتنّ يا سيّداتي، فيندُر أن تعذّبكنّ الحسرةُ، لأنّكن نادرًا ما تكنَّ صاحبات القرارِ، إنّ مصائبكنّ تكاد تكون دائمًا مفروضةً عليكنّ، وأخطاؤكنّ هي في الغالب الأعمّ جرائمُ الغير.

أجابته السيّدة دانغلار: - على أيّة حالٍ يا سيّدي، إن كنتُ قد ارتكبتُ خطيئةً، وارتكبتُها بيدي، فإنّي قد لقيتُ عقابي القاسي أمس.

قال فيلفور وهو يشدّ على يدها: - أيّتها المرأة المسكينة! كان العقاب أقسى ممّا تتحمّله قواك، إذ مرّتين كدتِ تسقطين، ومع ذلك...

- ومع ذلك؟

- ومع ذلك، ينبغي أن أقول لك يا سيّدتي... استجمعي شجاعتك كلّها، لأنّنا لم نبلغ بعد غايةَ المطاف.

صاحت البارونة مرعوبةً: - يا إلهي! ماذا يوجد بعد؟

- أنت لا ترين إلا الماضي يا سيّدتي، والحقّ أنّه مظلمٌ. فإذًا، تخيّلي مستقبلًا أحلك وأظلمَ، مستقبلًا... مرعبًا بلا شكّ... وربّما دمويًا!...

كانت البارونة تعرف طبع دو فيلفور الهادئ؛ فتملّكها الرّعب من استثارته حتّى فتحت فاها لتصيح، لكنّ الصّيحة ماتت في حنجرتها.

صاح فيلفور: - كيف انبعث الماضي الرّهيب؟ كيف انبعث من أغوار

القبر، ومن أعماق مرقده في قلوبنا، لكي يأتينا في صورة شبحٍ تبهت له خدودُنا وتحمرُّ جباهُنا؟

قالت هرمين: - واأسفًا! لا بدّ أنّها الصّدفة!

أجابها فيلفور: - الصّدفة! كلّا، كلّا يا سيّدتي، لا مكان للصّدفة هنا!

- لكن، حتّى وإن لم يكن الأمر صدفةً، فإنّ الصّدفة كانت وراء هذا كلّه؟ أليس محض صدفةٍ أن اشترى الكونت مونت كريستو المنزل؟ أليس صدفةً نبش الأرض؟ أليس صدفةً أنّ الطّفل المسكين قد دُفِنَ هناك تحت الأشجار؟ ذاك المخلوق المسكين الذي خرج منّي، فلم أمنحه ولا قبلةً، وإنّما منحتُه دموعًا. آه! قلبي انخلع وطار أمام الكونت حين تحدّث عن الجسد العاري الذي عثر عليه تحت الأزهار.

أجاب فيلفور بصوت مخنوق: - وهذا يا سيّدتي هو الأمر الفظيع الذي كنت أنوي قوله لك: كلّا، لم يعثر الكونت على أيّ جسدٍ تحت الأزهار؛ لم يستخرج من التّراب أيّ طفل؛ كلّا، لا ينبغي أن تبكي، ولا أن تئنّي، وإنّما أن ترتجفي!

صاحت السيّدة دانغلار مرتجفةً: - ماذا تقصد؟

- أقول إنّ الكونت مونت كريستو حين حفر عند الأشجار لم يجد لا عظام طفلٍ ولا بقايا صندوق، لأنّ تحت تلك الأشجار لم يكن ثمّة لا هذه ولا تلك.

ردّدت السيّدة دانغلار كلامَ وكيل الملك وهي تحدّق فيه بمقلةٍ اتّسع بؤبؤها بما يدلّ على مبلغ رُعبها: - لم يكن ثمّة لا هذه ولا تلك! (ثمّ ردّدت مرّةً أخرى مثل من يحاول بنبرة كلماته وجَرْس صوتِه تثبيت أفكار الموشكة على الإفلات) - لم يكن ثمّة لا هذه ولا تلك!

أجابها فيلفور وهو يهوي بجبهته على يديه: - لا، وألف لا!...

- أوَلم تدفن الطّفل المسكين هناك يا سيّدي؟ لمَ خدعتني إذًا؟ ما هدفك من ذاك؟ هيّا، قُل!

- بلى وضعتُه هناك؛ لكن أصغي إليّ، أصغي يا سيّدتي، وسوف ترثين لحالي، أنا الذي حملت هذا الثقل عشرين سنةً، من غير أن ألقيَ عليك بأدنى ذرّةٍ منه؛ ثقل الألم الذي سأبوح لك به.

- يا إلهي! أنت ترعبني! لكن، أيًّا كان الأمرُ، تكلّم، أنا مصغيةٌ إليك.

- تذكرين مُجريات اللّيلة المؤلمة التي كنتِ فيها تنازعين على فراشك بغرفة الدّمقس الأحمر، بينما أنا أنتظر الخلاص، لاهثًا مثلك. ثمّ أتى الطّفل، وسلّمَ إليّ ساكنَ الحركة، منقطعَ النّفس، صامتًا: حسبناه وُلد ميتًا.

تحرّكت السيّدةُ دانغلار حركةً سريعةً كأنّما تريد أن تقوم من مقعدها. لكنّ السيّد فيلفور أوقفها بحركة من يده يطلب بها اهتمامها.

استأنف كلامَه: - حسبناهُ ميتًا؛ وضعتُه في صندوق يفترض أن يقوم له مقامَ التّابوت، ونزلتُ إلى الحديقة، فحفرت فيها حفرةً على عجلٍ، ثمّ وضعته فيها. وما كدتُ أواريه الثرّى، حتّى امتدّت إليّ يدُ الكورسيكيّ. رأيتُ ما يشبه الظلَّ ينتصب أمامي، وما يشبه بريقًا يلمع. أحسست بالألم، فأردت أن أصرخ، لكنّ رجفةً باردةً هزّت جسدي بأكمله، وعصرَت حلقي... هويت محتضرًا، وخلتُني متُّ. ولن أنسى أبدًا شجاعتك العظيمة، حين استعدتُ وعيي، وسحبت نفسي وأنا أنازع حتّى بلغتُ أسفل الدّرج، فأتيتني وأنت في حالة الموت. وإذ كان علينا أن نضرب الصّمت حول الواقعة الرّهيبة؛ فقد تشجّعتِ وعدت إلى منزلك مسنودةً بمربيّتك؛ وتحجّجت أنا بأنّي خضتُ نزالًا فأصِبتُ. وضدًا على كلّ توقّع، وإذ لم يكشف سرّنا أحدٌ، نُقلتُ إلى فرساي؛ فقضيت ثلاثة أيّام أنازع الموتَ؛ ثمّ إذ بدت عليّ أمارات استعادة الحياةِ، فقد وُصفت لي شمس الجنوب وهواؤه. فحملني أربعة رجالٍ من باريس إلى شالون، قاطعين ستّة فراسخ في اليوم. وكانت السيدة دو فيلفور تتبع المحمل في عربتها. ولمّا بلغنا شالون، أركبوني نهرَ ساون، ومنه وافينا نهر روون،

فنزلناه، لا محرّكَ لنا إلا سُرعة التيّار، حتّى بلغنا آرل، وهناك أعادوني إلى النّقالة، وواصلنا الطّريق إلى مارسيليا. دامت نقاهتي ستّة أشهر، ما بلغني فيها شيءٌ من أخبارك، ولا جرؤت على أن أتقصّى ما كان من أمرك. ولمّا عدت إلى باريس علمت أنّك صرت أرملة السّيد دو نارغون، ثمّ زوجة السيّد دانغلار.

«ما الذي ما برحتُ أفكّر فيه منذ أن استعدتُ وعيي؟ شيءٌ واحدٌ، الشّيء نفسه: جثة الطّفل التي كانت تزورني كلّ ليلةٍ في منامي، كلّ ليلةٍ أراها تخرجُ من التّراب، فترتفع فوق الحفرة وتتوعّدني بنظراتها وحركاتها. لذا، ما إن عدت إلى باريس، استفسرتُ؛ لم يُسكن المنزل مُذ خرجنا منه، ولكنّه أُجِّر لتسع سنين؛ قصدتُ المستأجر، وتظاهرت بأنّني أرغب في ألّا يضيع من يدي المنزل الذي كان ملكًا لأبوَي زوجتي؛ وعرضت عليالمستأجر تعويضًا، فطلب ستّة آلاف فرنك، وكنتُ لأعطيه حتّى عشرة أو عشرين إن طلبها. وإذ كنت أحمل السّتّة آلاف معي، فقد أعطيته المبلغ وفسخت العقد؛ وما إن أنهيت الإجراءات حتّى ركضت إلى أوتوي.

مُذ خرجت من المنزل، ما دخله أحد. كانت السّاعة الخامسة مساءً، فصعدت إلى الغرفة الحمراء وانتظرت اللّيل.

وهنا استعاد ذهني بوضوح كلّ ما كنت أهذي به منذ عامٍ أثناء احتضاري المتواصل. إنّ الكورسيكيّ الذي أعلن عليّ الفونديتا، وتعقّبني من نيم إلى باريس؛ الكورسيكيّ الذي كمن لي في الحديقة، فضربني؛ كان قد رآني أدفن الطّفل؛ وكان بإمكانه أن يتعرّف عليك؛ ومن يدري لعلّه يعرفك... ألن يسعى يومًا ما إلى جعلك تدفعين ثمن الخطيئة الرّهيبة؟... ألن يجد في ذلك انتقامًا جميلًا، إن علم أنّني لم أمت من ضربة خنجره؟ لذا كان مُلِحًّا، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أن أخفي آثار الواقعة، وأدمّر كلّ قرينةٍ مادية؛ بحيث لا يبقى من الواقعة إلا ما في ذاكرتي. ولذلك ألغيت الإيجار، ولذلك عدتُ إلى المنزل، ولذلك مكثت في الغرفة منتظرًا.

حلّ اللّيل، فتركته حتّى اشتدّت ظلمتَه؛ وكنت بلا نورٍ في تلك الغرفة حيث تعوي الرّيح فتضطرب لها الأبوابُ التي كنت ما أزال أتخيّل خلفَها عيونًا متربّصةً؛ ومن حين إلى آخر كنت أرتجف، فأتخيّلك خلفي، في هذا السّرير، أسمع أنّاتك، فلا أجرؤ على الالتفاف. قلبي يخفق وسط الصّمت، وأحسّ بقوّة خفقه كأنّما جرحي سينفتح مرّةً أخرى؛ وأخيرًا صمتت أصواتُ القرية، صوتًا بعد آخر. أدركت أنّه لم يعد ثمّة ما أخشاه، وأنّ لا أحد يستطيع أن يراني أو يسمعني، فقررت أن أنزل إلى الحديقة.

اسمعي يا هرمين، أحسبُ أنّني لا أقلُّ شجاعةً عن أيّ رجلٍ غيري، لكن حين أخرجت من صدري مفتاحَ السلّم الصّغيرَ الذي كنّا نحبّه معًا، وكنت تريدين أن تلحميه في خاتم ذهب؛ وحين فتحتُ الباب، وحين لمحتُ، عبر النّوافذ، قمرًا شاحبًا يلقي على درجات السلّم اللّولبيّ شريطًا طويلًا من ضوءٍ أبيض كأنّه طيف، التصقت بالجدار، وكدتُ أصرخ؛ خلت أنّني سأفقد صوابي.

وأخيرًا استطعت أن أتمالك زمام نفسي. ونزلت السلّم درجةً درجة؛ شيءٌ واحد فقط لم أستطع هزمَه: رعدةٌ غريبة في ركبتيَّ. تشبّثت بالدّرابزين؛ ولو أنّني تركته لحظةً لهويت. وأخيرًا بلغت البابَ السفليّ؛ خارج الباب كانت مجرفةٌ موضوعةٌ لصق الجدار. وكنت أحمل مصباحًا مكتومًا؛ ولمّا بلغت وسط الأرضية المعشبة، توقّفت لأنيره، ثمّ أكملت طريقي.

كنّا في نهايةَ نوفمبر، وقد اختفت الخضرة كاملةً، ولم تعد الأشجار إلاّ هياكل عظمية بأذرع طويلة نُزع لحمها، والأوراق الميّتة تئنّ مع الرمل تحت قدميّ. وكان الفزع يقبض على قلبي قبضًا، حتّى إنّني لما بلغت حزمة الأشجار أخرجت مسدّسًا وعبّأته. كنت إخال أنّني أرى وجه الكورسيكيّ يبرز بين الأغصان.

أضأتُ الأشجار بمصباحي المكتوم؛ كان فارغًا. جلت ببصري

حواليّ؛ كنت بالفعل وحيدًا؛ لا صوت يخدش صمت اللّيل، اللّهم إلاّ بومة تطلق صيحتها الحادّة الكئيبة كأنّما تنادي أشباح اللّيل. علّقت مصباحي في غصنٍ متشعّبٍ، كنت قد لاحظتُه سنةً من قبلُ، في المكان نفسه حيث حفرتُ القبر. وكان العشب قد نما صيفًا فغطّى المكان سميكًا، ثم أعقب الصّيفَ الخريفُ، وما أتى أحدٌ يجزّه. غير أنّ موضعًا عشبُه أقلّ كثافةً، استرعى نظري؛ كان بديهيًا أنّه الموضع الذي حفرت فيه الحفرة. وانطلقت أعمل.

بلغت إذًا اللّحظة التي كنت أنتظرها منذ سنةٍ! لذا، راجيًا جعلتُ اشتغلُ، مقلّبًا كلّ بقعة عشبٍ، ظانًا أن مجرفتي لا بدّ أن تنتهي إلى شيءٍ صلبٍ؛ لكن، لا شيء! مع أنّني حفرت حفرةً حجمها ضعفُ حجم الحفرة الأولى. ظننتُني أخطأت التقدير، ولم أحفر في المكان المناسب؛ وقفت أستعيد توجّهي، تأملت الأشجار، حاولت استعادة التّفاصيل التي أثارت انتباهي. هواء باردٌ قارص يهبّ خلال الأغصان العارية، ومع ذلك كان العرق يتلألأ على جبيني. تذكّرت أنّني تلقّيت الضّربة ساعة كنت أدوس بقدمي التراب لأسدّ به الحفرة؛ وبينما أدوس التراب كنت أستند إلى جذع شجرة من صنف الأبنوس الزّائف؛ وخلفي كانت صخرةٌ مصطنعةٌ جُعلت مقعدًا يرتاح عليه المتنزّهون؛ إذ إنّي لمّا سقطت، تركَت يدي شجرةَ الأبنوس الزّائف، وهوت على الصّخرة فأحسستُ برودتها. عن يميني الأبنوسة، وخلفي الصّخرة، أعدتُ تمثيل السّقطة، وقمت، فجعلتُ أحفر وأوسّع الحفرة، وما وجدتُ شيئًا! لا شيء! لم يكن الصّندوق هناك».

غمغمت السيّدة دانغلار والرّعب يخنقها: - لم يكن الصّندوق هناك؟

- ولا تحسبي أنّني توقّفت عند هذه المحاولة، إنّما قلّبتُ الأرضية العشب شبرًا شبرًا؛ خطر ببالي أنّ القاتل قد نبش عن الصّندوق ظنًّا منه أنّ فيه كنزًا، فأخذه، فلما انتبه إلى غلطته، دفنه بدوره في حفرةٍ أخرى

حفرها؛ لكن، لا شيء. ثمّ خطر ببالي أنّه لم يكن ليزعج نفسه بكلّ تلك التّدابير، وأنّه ببساطةٍ ألقى بالصّندوق في مكانٍ ما. ولأتحقّق من فرضيّتي الثانية كان لزامًا عليّ أن أنتظر ضوء النّهار. فكان أن صعدت إلى الغرفة، وانتظرت الصّباح.

- أوه! يا إلهي!

- وإذ طلع النّهار، نزلت مرّةً أخرى. وكان أوّل ما فحصته موضعُ الأشجار؛ كنت آمل أن أجد فيه أثارًا قد تكون فاتتني في العتمة. كنت قد حفرت الأرض على مساحة عشرين قدمًا مربّعةً، وبعمق قدمين. إنّ ما قمت به أنا في ساعةٍ، يحتاجُ حفّارٌ أجيرٌ إلى يوم للقيام به. لا شيء، لم أرَ شيئًا. فانطلقت إذًا أبحث عن الصّندوق مفترضًا أنّ الكورسيكيَّ قد ألقى به في مكانٍ ما. قلت لا بدّ أنّه ألقى به في طريقه إلى باب الخروج؛ لكنّ بحثي ذاك لم يكن بأجدى من سابقه، وبصدرٍ ضيّق، عدت إلى الأشجار التي هي نفسها لم تترك لي أملًا.

صاحت السيّدة دانغلار: - أوه! كان في الأمر ما يمكن أن يُفقد المرء صوابَه.

قال فيلفور: - تمنّيت لوهلةٍ أن يحدث ذلك، لكنّني لم أحظ بتلك السّعادة؛ على أنّني استجمعت قوايَ، ومعها أفكاري. أخذت أتساءل: لمَ حمل الرّجل معه الجثّة؟

قاطعته السيّدة دانغلار: - ولكنّك قلتها. أخذه ليملك عليك دليلًا.

- إه! كلاّ يا سيّدتي، غير ممكن؛ لا أحد يحتفظ بجثّة سنةً، وإنّما يأخذه إلى قاضٍ ويقدّم شكايةً. لكن، لا شيء من ذلك حدث.

سألته هرمين وقد أخذت منها الاستثارة كلّ مأخذ: - وإذًا، ماذا تظنّ؟...

- وإذًا، ثمّة احتمالٌ أشدّ رعبًا، وخطرًا، وإفزاعًا لنا: ربّما كان الطّفلُ لا يزال حيًا، وأنقذه القاتل.

أطلقت السيّدة دانغلار صيحةً رهيبةً وهي تشدّ على يد فيلفور.

قالت: - طفلي كان لا يزال حيًا! دفنت ابني حيًا يا سيّدي! لم تكن متيقّنًا من أنّ ابني ميّت، ومع ذلك دفنتَه! آه!...

كانت السيّدة دانغلار قد وقفت، وصارت منتصبةً أمام وكيل الملك، ممسكةً بمعصميه بيديها الرّقيقتين، كأنّها تتوعّده.

أجابها فيلفور محدّقًا بطريقةٍ تنبئ بأنّ هذا الرّجل القويّ يوشك أن يبلغ حدود اليأس والجنون: - وما أدراني أنا؟ لقد قلت لك ما قلته، مثلما كان يمكن أن أقول لك شيئًا آخر.

صاحت البارونة متهاويةً على المقعد تكتم شهقاتها في منديلها: - آه! يا طفلي، يا طفلي المسكين!

استعاد فيلفور وعيه، وأدرك أنّه لكي يتجنّب عاصفة الأمومة التي تتشكّل فوق رأس السيّدة دانغلار، عليه أن ينقل إليها الخوف الذي يعتمل في نفسه هو.

قام بدوره، ودنا من كرسيّ البارونة ليكلّمها بصوتٍ هامسٍ: - تدركين إذًا أنّه لو كان الأمر على هذا النّحو، فإنّنا ضعنا: إنّ الطّفل حيٌّ، وثمّة من يعرف أنّه حيّ، ثمّة من يملك سرّنا؛ وما دام مونت كريستو يقول إنّه قد انتشل الطّفل من القبر، والطّفل أصلًا لم يكن مدفونًا، فإنّ مونت كريستو هو من يملك السرّ.

غمغمت السيّدة دانغلار: - الرّب، الربّ العادل، الربّ المنتقم!

لم يجبها فيلفور إلا بما يشبه الزّمجرة. فقالت الأمّ العنيدة: - لكن ماذا عن الطّفل، ماذا عن الطّفل يا سيّدي؟

قال فيلفور وهو يشبك ذراعيه: - أوه! لكم بحثتُ عنه! ولكم ناديته في ليالي أرقي الطّويلة! ولكم تمنّيت ثروةً ملكيّةً، أشتري بها مليون سرٍّ من عند مليون رجلٍ، فأفتّش بينها عن سرّي! ثمّ ذات يوم وأنا أحمل المجرفة للمرّة الألف، خطر ببالي مرّةً أخرى سؤال ما الذي يمكن أن

يكون الكورسيكيّ قد فعله بالطّفل: إنّ طفلًا لا بدَّ أن يزعج هاربًا؛ ربّما إذ لاحظ أنّه لا يزال حيًا، ألقى به في النّهر.

صاحت السيّدة دانغلار: - أوه! مستحيل؛ من يقتل رجلًا بدافع الانتقام، لا يغرق طفلًا بدمٍ باردٍ في النّهر!

واصل السيّد فيلفور: - ربّما، وضعه في ملجأ أطفال.

صاحت البارونة: - أوه! نعم، نعم! إنّ طفلي هناك.

- هرعتُ إلى ملجأ الأطفال، فعلمت أنّهم في تلك اللّيلة نفسها، أي ليلة 20 سبتمبر، وُضع عندهم طفلٌ؛ وقد كان ملفوفًا في نصف لفّةٍ ناعمةٍ مُزّقت عمدًا. ونصف اللّفة ذاك كان يحمل شعار نبالة بارون وحرف H.

صاحت السيّدة دانغلار: - هوَ ذاك، هو ذاك! كان السيّد دو نارغون بارونًا، وأنا اسمي هِرمين. حمدًا لك يا إلهي! طفلي لم يمت!

- كلّا، لم يمت!

- ولا تخشى، إذ تقول لي هذا، أن تقضي عليّ من الفرحة، يا سيّدي! أين هو؟ أين طفلي؟

هزّ فيلفور كتفيه. وقال: - وما أدراني؟ وتظنّين أنّني لو كنت أعرف أين هو، كنت لأطوّف بك من هذا السّرد المتدرّج، كما قد يفعل دراماتورجيّ أو روائيّ؟ كلّا، للأسف! كلاّ! لا أعرف أين هو. إنّ امرأةً، بعد ستّة أشهر تقريبًا، أتت تطالبُ به حاملةً معها نصف اللّفة الباقي. لقد قدّمَت تلك المرأةُ كلَّ الضّمانات التي يطالب بها القانون، فأعيد إليها الطّفلُ.

- لكن، كان ينبغي أن تستعلم عن تلك المرأة، أن تجدها.

- وهل تظنّين يا سيّدتي أنّني لم أفعل؟ لقد اختلقت مذكّرة بحث، وأرسلت في إثرها كلّ ما في عداد الشّرطة من كلابٍ مدرّبة ورجالٍ مهرة. وقد وجدوا أثرها، وتعقّبوه حتّى شالون؛ ثمّ في شالون أضاعوه.

- أضاعوه؟

- أجل، أضاعوه، أضاعوه إلى الأبد.

كانت السيّدة دانغلار قد تابعت الحكاية، مصاحبةً كلّ لحظةٍ من لحظاتها بزفرة، ودمعة، وصيحة.

قالت: - وهذا كلّ شيء؛ توقّفتَ عند هذا الحد؟

قال فيلفور: - أوه! كلّا، لم أكفّ أبدًا عن البحث وتقصّي الأخبار. غير أنّني منذ سنتين أو ثلاث تراخيت في البحث. لكنّني اليوم عازم على العودة إلى البحث بمثابرة وضراوة غير مسبوقتَيْن؛ وسوف أنجح. تعرفين لم؟ لأنّ دافعي هذه المرّة ليس الضّمير وإنّما الخوف.

استأنفت السيّدة دانغلار الكلام: - لكنّ الكونت مونت كريستو لا يعرف شيئًا؛ وإلّا لما استفزّنا كما فعل.

أجابها فيلفور: - أوه! إنّ شرّ البشر لا قرارَ له، ما دام أعمق من طيبة الربّ. هل لاحظت عينيّ الرّجل حين كان يكلّمنا؟

- كلّا.

- لكن هل تأمّلته برويّة أحيانًا؟

- طبعًا. إنّه غريب. شيءٌ واحدٌ فقط أثارني! من المائدة الفخمة التي خصّنا بها، لم يَمسّ شيئًا، لم يذق أيّ طبق.

قال فيلفور: - أجل، أجل! لقد لاحظتُ ذلك أيضًا. ولو أنّي كنت أعرفُ ما أعرفه الآن، لما ذقت بدوري من أيّ طبق؛ إذ كنت لأظنّ بأنّه يريد تسميمنا.

- وستكون مخطئًا في ظنّك كما ترى.

- نعم، بالتّأكيد؛ لكن، صدّقيني، إنّ هذا الرّجل يحمل نيّات أخرى. لهذا أردت أن أراكِ، لهذا طلبت أن أقابلكِ، لهذا أردت أن أنبّهك من الجميع، ومنه هو على وجه التّخصيص. (واصل وكيل الملك وهو يحدّق في عينيّ البارونة أشدّ من أيّ وقتٍ مضى) قولي لي، أنت لم تخبري أحدًا قطّ عن علاقتنا.

- لم أخبر أحد قطّ.

أضاف فيلفور بنبرة عذبة: - تفهمين ما أقوله، حين أقول لا أحد، فأنا أقصد لا أحد بالمطلق، أليس كذلك؟

قالت البارونة وقد احمرّ وجهها: - أوه! بلى، بلى، أفهمك جيّدًا؛ لم أخبر أحدًا بالمطلق! أقسم لك!

- وليست من عاداتك أن تكتبي مساءً ما تعيشينه في يومك؟ ليست لديك يوميات؟

- كلاّ! للأسف! حياتي تمضي في توافه الأمور، حتّى إنّي أنساها!

- ولا تحلمين بصوتٍ عالٍ، على حدّ علمك؟

- إنّ نومي أشبه ما يكون بنوم الأطفال؛ ألا تذكر ذلك؟

تدرّج وجه البارونة بالحمرة، واجتاح الشّحوب وجه دو فيلفور.

قال بصوتٍ خافت بالكاد يُسمع: - صحيح.

سألته البارونة: - وإذًا؟

- وإذًا، أعرف ما عليّ أن أفعله. في غضون ثمانية أيّام سيكون عندي خبر هذا الكونت مونت كريستو؛ سأعرف من يكون، ومنْ أين أتى، وإلى أين يمضي، ولما يحدّث النّاس عن أطفالٍ دفنوهم في حدائقهم.

نطق الكونت الكلمات السّابقة بنبرةٍ كان ليرتجف لها الكونت مونت كريستو لو أنّه سمعها. ثمّ صافح البارونة التي تردّدت في مدّ يدها إليه، ورافقها باحترامٍ حتّى الباب.

استقلّت السّيّدة دانغلار عربة أجرةٍ أخرى، أقلّتها حتّى المعبر، وفي الجانب الآخر منه وجدت عربتها وحوذيّها الذي كان ينعم، في انتظارها، بغفوةٍ هانئة على مقعده.

68

حفلٌ راقصٌ صيفيٌّ

في اليوم نفسه، وفي الوقت الذي كانت فيه السيّدة دانغلار منخرطةً في المشهد الذي وصفناه بمكتب وكيل الملك، دخلت عربةُ سَفرٍ شارع هِيلدر، واجتازت عتبة باب البيت رقم 27، ثمّ توقّفت في الفناء. وما هي سوى لحظةٍ حتّى انفتحت البوابة، فنزلت من العربة السيّدة دو مورسيرف متأبّطة ذراع ابنها.

وما إن أوصل ألبير أمّه إلى مقرّها، وأمر بأن يجهّز الحمّامُ وتحضّرَ خيولهُ، حتّى غادر إلى الشانزيليزيه عند الكونت مونت كريستو. واستقبله الكونت بابتسامته المعتادة. أمر غريب: لا يشعر المرء قطّ أنّه يتقدّم خطوةً في قلب أو عقل هذا الرّجل. وإنّ من حاولوا اقتحام حميميّته بالقوّة، اصطدموا بجدارٍ.

وإنّ مورسيرف الذي هرع إلى الكونت فاتحًا ذراعيه، ما إن رآه حتّى أنزل ذراعيه ولم يجرؤ على أكثر من أن يمدّ إليه يده، على الرّغم من الابتسامة الودود التي استقبله بها الكونت.

من جهته، صافحه الكونت، على دأبه كلّ مرّةٍ، لكنّه لم يشدّ على يده هذه المرّة.

قال مورسيرف: - ها أنا ذا يا سيّدي الكونت.

- أهلًا بك.

- لقد عدت منذ ساعةٍ.

- من دييب؟

– لا، بل من تريبور (فرنسا).
– آه! صحيح!
– وأنت أوّل من أزوره بعد عودتي.
أجاب مونت كريستو بنبرةٍ عادية: – لطفٌ منك.
– حسنًا، لنرَ ما جديد الأخبار؟
– جديد الأخبار؟ تسألني، أنا الغريب؟
– أوضّحُ: حين أسألك عن جديد الأخبار، فإنّني أقصد هل لديك جديد بخصوصي؟
أجابه الكونت متعمّدًا التلاعب بأعصابه:
– هل كلّفتني بمهمة من المهمّات؟
قال ألبير: – أرجوك! لا تصطنع اللامبالاة. يُقال إنّ ثمّة من الخواطر الطيّبة ما يطوي المسافات. وأقولُ: في تريبور أحسستُ بدبدبة كهربائيّة؛ فإن لم تفعل شيئًا لأجلي، فعلى الأقل ستكون قد فكّرت فيّ.
– هذا ممكن. لا بل الحقّ أنّني فكّرت فيك؛ لكنّني أقرُّ بأنّ التيار المغناطيسي الذي كنتُ أنا بمثابة الموصل له، كان يتحرّك باستقلالٍ عن إرادتي.
– حقًا! هيا أخبرني، رجاءً!
– الأمر بسيط، لقد تعشّى السيّد دانغلار عندي.
– أعرف ذلك، ما دمنا أنا وأمّي قد سافرنا هروبًا من لقائه.
– لكنّ العشاء عندي جمعَه والسيّد أندريا كافالكانتي.
– صاحبك الأمير الإيطاليّ؟
– لا تبالغ. إنّ السيّد أندريا كافالكانتي لا يطلق على نفسه سوى لقب فيكونت.
– تقولُ: يطلق على نفسه؟
– أقول: يطلق على نفسه.

– هو ليس بالفيكونت إذًا؟

– إه! وما أدراني أنا؟ يطلقه على نفسه، أو أطلقُه أنا عليه، أو يُطلَق عليه؛ أليست كلّها صيغًا تعني أنّه فيكونت؟

– ما أغربك من رجلٍ! ثمّ؟

– ثمّ ماذا؟

– السيّد دانغلار تعشّى عندك؟

– نعم.

– مع صاحبك الفيكونت أندريا كافالكانتي؟

– مع الفيكونت أندريا كافالكانتي، ووالده الماركيز، والسيّدة دانغلار، والسيّد دو فيلفور، أنّاس لطفاء، والسيّد دُبراي، وماكسيميليان موريل، ثمّ من... مهلًا... آه! السيّد دو شاتو رونو.

– وتحدّثتم عنّي؟

– لم نذكرك بكلمة.

– لا بأس.

– لماذا تقول هذا؟ يبدو لي أنّنا إن نسينا ذكرك، فإنّما تصرّفنا بما يُوافق هواك!

– عزيزي الكونت، إن لم أُذكر بكلمة فهذا يعني أنّي كنت موضوع تفكير، وإنّه لأمرٌ باعثٌ على الخيبة.

– وفيمَ يهمّك ذلك، ما دامت الآنسة دانغلار لم تكن من جملةِ من فكّروا فيك أثناء دعوة العشاء! آه! نسيت أنّها تستطيع التّفكير فيك وهي في بيتها.

– أوه! أمّا هذا فمتأكّدٌ من أنّه لم يحدث، وإن حدث فإنّما فكّرَت فيّ على النّحو الذي أفكّر به أنا فيها.

قال الكونت: – ودٌّ مثيرٌ! أنتما إذًا تتباغضان؟

قال مورسيرف: – أصغِ إليّ، لو أنّ الآنسة دانغلار كانت امرأةً تقبل بي

خارج التعاقد الذي توافقَت عليه عائلتانا، فسيكون الأمر رائعًا بالنّسبة إليّ. باختصار، أرى الآنسة دانغلار عشيقةً جيّدةً جدًا، لكن زوجةً... اللّعنة!

قال مونت كريستو ضاحكًا: - هكذا إذًا تتصوّرُ مستقبلك؟

- أوه! يا إلهي! نعم، قد يكون تصوّرًا فظًا، لكنّه صائبٌ على الأقل. لكن، بما أنّنا لا نستطيع تحقيق هذا الحلم؛ وبما أنّني لكي أبلغ هدفًا معيّنًا، ينبغي أن تصير الآنسة دانغلار زوجتي، أي أن تعيش معي، وتفكّر بقربي، وتغنّي بجانبي، وتنظم أبياتًا وتعزف موسيقى على بعد خطواتٍ منّي، وكلّ ذلك طيلة العمر، فإنّ الأمر يصير مرعبًا. إنّ عشيقةً نستطيع أن نتركها يا عزيزي الكونت، أمّا الزّوجة، فاللعنة! ذاك أمرٌ آخرُ، أمر يلتصق بك إلى الأبد، سواء عن قربٍ أو عن بعد. والحال أنّ من المرعب تخيّل الآنسة دانغلار معي إلى الأبد، حتّى وإن عن بعد.

- أنت متطلّبٌ جدًا يا فيكونت.

- نعم، لأنّني أغلب الوقت أفكّر في أمرٍ مستحيل.

- ما هو؟

- أن أجد لنفسي زوجةً مثل تلك التي وجدها أبي لنفسه.

شحب مونت كريستو وأخذ يتأمّل ألبير وهو يعالج مسدّسات رائعة يدير نوابضها بسرعة.

قال: - والدك إذًا سعيد جدًا.

- أنت تعرف رأيي في أمّي يا سيّدي الكونت: ملاكٌ نزل من السّماء؛ ولا تزال تزداد جمالًا، وظرفًا، ولطافةً. وأيما شاب يصطحب أمّه معه إلا ويفعل ذلك كرهًا أو لأنّه لم يجد بدًا، أمّا أنا، فلمّا بلغت معها تريبور، وألفيتني معها رأسًا لرأسٍ، فقد قضيت أربعة أيّام، وأنا في حالٍ من الرّضا والهناءة والجمال أكثر ممّا لو اصطحبت معي إلى تريبور الملكة ماب أو تيتانيا[1].

---

(1) جنيّات ملكات من شخوص حكايات القرون الوسطى الإنجليزية، ولها حضور قويّ في أعمال شكسبير.

- إنّ هذا كمالٌ مُيئِّسٌ، ويمكن أن يدفع أيّ رجلٍ إلى اختيار العزوبية.

استأنف مورسيرف: - هوَذا تحديدًا ما أقصده. لأنّني أعرف امرأةً كاملةً، لا يمكن أن أقتنع بالزّواج من الآنسة دانغلار. هل لاحظت من قبلُ كيف أنّ أنانيتنا تضفي ألوانًا برّاقةً على كلّ ما نملكه؟ إنّ الألماسة التي تلمع في واجهة محلّ فوسّان أو مال تصبح أجمل حين تصير ألماستنا؛ لكن إذا ما كانت البداهة تجبرك على الاعتراف بأنّ ثمّة من الألماس ما هو أنقى منها، وأنّك مضطرٌّ إلى أن تحمل إلى الأبد هذه الألماسة الأقلّ قيمةً، فلا بدّ أنّك تدرك أيّ معاناةٍ هي؟

غمغم الكونت: - عالم المظاهر!

- لهذا سأقفز فرحًا حين تدرك الآنسة دانغلار أنّني لست سوى ذرّةٍ هيّنةٍ، وأنّ مقابل ملايينها لست أملك أنا إلا مائة ألف فرنك.

ابتسم الكونت.

واصل ألبير الكلام: - كنت قد فكّرتُ في شيءٍ آخر؛ إنّ فرانز يحبّ الأشياء الغريبة، لذا أردت أن أجعله مغرمًا بالآ ة دانغلار. لكن، على الرّسائل الأربع التي كتبتها له بأشدّ الأساليب إغراءً، أجاب رابطَ الجأش: «صحيحٌ أنّ ذوقي غريب، لكنّني لن أبلغ به حدّ أن أتملّص من كلمة قطعتُها».

- وهذا ما أسمّيه قمّة التّفاني في الصّداقة: أن تعرض على صديقك الزّواج بامرأة، أنت لا يمكن أن تقبلها إلا عشيقةً.

ابتسم ألبير، وقال: - بالمناسبة، إنّ العزيز فرانز على وشك الرّجوع، لكنّني لا أظنّ الأمر يهمّك، لأنّي أحسبك لا تحبّه؟

أجاب مونت كريستو: - أنا! إه! أين رأيت يا عزيزي الفيكونت أنّني لا أحبُّ السيّد فرانز؟ أنا أحبّ الجميع.

- وأنا ضمن هذا الجميع... شكرًا.

- قال مونت كريستو: - أوه! لا تخلط الأمور؛ حين أقول إنّني أحبّ

الجميع، فإنّني أقصد أنّني أحبّهم على الطّريقة التي أوصانا به الرّب حين أمرنا بأن نحبّ القريب، أي أحبّهم حبًّا مسيحيًّا، لكن هذا لا يمنع من أنّني أكره بعض النّاس. ولنعد إلى السيّد فرانز ديبيناي. قلت إذًا إنّه على وشك العودة.

- أجل يعود بطلب من السيّد دو فيلفور الذي يبدو متلهّفًا على تزويج الآنسة فالانتين، لهفةً دانغلار على تزويج الآنسة يوجيني. يبدو أنّ أبوّةَ البنات مرهقة؛ كأنّما آباء البنات يعيشون وضعًا محمومًا، ونبضهم يخفق تسعين نبضة في الدّقيقة، فلا يرتاحون حتّى يتخلّصون منهنّ.

- بيد أنّ السيّد ديبيناي لا يشبهك، فهو يبدو صابرًا على مصابه.

- لا بل أكثر، إنّه يأخذ الأمر بجديّة؛ صار يضع ربطات عنقٍ بيضاء، ويتحدّث باسم عائلته. ثمّ إنّ آل فيلفور يقدّرونه أيّما تقدير.

- تقدير مستحقٌّ، أليس كذلك؟

- أظنُّ ذلك. لطالما كان السيّد دو فيلفور قاسيًا، لكنّه عادلٌ.

قال مونت كريستو: - خير وبركة إذًا، ها على الأقل رجلٌ لا تُعاملُه معاملتكَ المسكين دانغلار.

أجاب ألبير ضاحكًا: - ربّما لأنّني لست مضطرًا إلى أن أتزوّج ابنته.

- الحقّ يا سيّدي العزيز أنّك متبجّحٌ تبجّحًا منفّرًا.

- أنا؟

- نعم، أنت. خُذ أوّلًا سيجارًا.

- بكلّ سرور، لكن لمَ تظنّني متبجّحًا؟

- لأنّك هنا تدافع عن نفسك وعن حقّك في ألّا تتزوّج الآنسة دانغلار. يا إلهي! دعِ الأمور تسير، فما يجعلك تظنُّ بأنّك قد تكون بالضّرورة البادئ إلى التّنصّل من وعدك؟

نظر ألبير إلى الكونت بعينين وسّعتهما الدّهشةُ.

قال الكونت: - يا عزيزي الفيكونت، لا أحد سيدفع بك قسرًا إلى

الجحيم! (ثمّ أضاف مغيّرًا نبرة صوته) حسنًا، قل لي، هل ترغب في قطع علاقتك بها؟

- سأبذل مائة ألف فرنك في سبيل ذلك.

- وإذًا! فلتهنأ بالًا. إنّ السيّد دانغلار مستعدّ لبذل ضعفها في سبيل الغاية نفسها.

صاح ألبير: - أصادقٌ نبَؤك السّعيد هذا؟

ومع فرحته لم يستطع الشّاب أن يكبح غيمة قلقٍ عبرت جبينه، فأضاف:

- لكن، إذا ما كان ما تقوله صحيحًا، فإنّ ذلك يعني أنّ للسيّد دانغلار أسبابَه؟

- آه! ها أنتِ أيّتها الطّبيعة المتغطرسة والأنانية! سرعان ما انبثق الرّجلُ المستعدّ لأن يقوّض حُبَّ غيره بضربات معول، ولكنّه يصيح بمجرّد أن نخِز حبّه هو بإبرةٍ.

- كلّا! إنّما فقط يبدو لي أنّ السيّد دانغلار...

- يبدو لك أنّ السيّد دانغلار ينبغي أن يكون سعيدًا بك، أليس كذلك؟ حسنًا! إنّ السيّد دانغلار رجلٌ سيّئ الذّوق، هذا ممّا لا خلاف عليه، لذا وجد سعادةً أكبر في مصاهرة غيرك...

- مصاهرة من؟

- لستُ أدري؛ تدبّر، وانظر، والتقط الإشارات أثناء مرورها، ثمّ اغنم الفرصة.

- حسنًا، فهمت؛ اسمع: إنّ أمّي... كلّا! أخطأتُ، ليست أمّي، وإنّما أبي قد أتتهُ فكرة تنظيم حفلٍ راقص.

- حفل راقص في هذا الوقت من السنّة؟

- الحفلات الرّاقصة في فصل الصّيف هي الموضة الآن.

- وحتّى إن لم تكن، ما على الكونتيسة إلا أن تقرّر تنظيم حفلٍ راقصٍ في هذا الوقت، ليصير موضةً.

- مجاملة لا بأس بها؛ وكما تفهم هي حفلاتٌ راقصة لا تختلط فيها الدّماء؛ إذ لا يظلّ في باريس شهرَ يوليو سوى من كان باريسيًا حقًّا. فهلّا، تفضّلت بدعوة السيّدين كافالكانتي إلى حفلتنا؟

- متى موعد حفلكم؟

- السبت.

- سيكون السيّد كافالكانتي الأب قد رحل.

- لكن السيّد كافالكانتي الابن سيظلّ هنا. فهلّا تفضّلت باصطحابه معك؟

- أصغِ إليّ يا سيّدي الفيكونت، أنا لا أعرفه.

- لا تعرفه؟

- كلّا؛ لم أُقابله أوّل مرّةٍ إلا منذ ثلاثة أيّامٍ أو أربعة، ولا أضمنه!

- ولكنّك تستقبله في بيتك؟

- الأمر مختلفٌ معي؛ لقد أوصاني به راهبٌ شهمٌ، قد يكون هو نفسه خُدِع فيه. ادعُه بنفسك؛ لكن لا تطلب منّي أن أعرّفك به. لأنّه إن تزوّج لاحقًا الآنسة دانغلار، ستتهمني أنت بالتلاعب، و[لربّما] خاصمتني. ثمّ إنّي أنا نفسي لا أدري إذا ما كنت سأذهب.

- إلى أين؟

- إلى حفلكم.

- ولمَ لن تأتي؟

- أوّلًا لأنّك لم تدعُني إلى الآن.

- لقد أتيت بنفسي حاملًا إليك الدّعوة.

- أوه! لطفٌ منك، لكن قد يحول بيني وبين الحضور مانعٌ.

- حين سأخبرك بأمرٍ ستتلطّف بدرء كلّ مانع يمنعك من الحضور.

- أخبرني.

- إنّ أمّي ترجوك أن تحضر.

أجاب الكونت مرتجفًا: - سيّدتي الكونتيسة دو مورسيرف؟

- آه! وأنبّهك يا سيّدي الكونت إلى أنّ السيّدة دو مورسيرف تكلّمني من دون تحفّظٍ؛ وإن لم تكن أحسستَ بالذّبذبات الأَلوف التي ذكرتُها لك آنفًا، فإنّ ذلك يعني افتقادك كلّيًا للأسلاك الموصلة؛ ذاك أنّنا طيلة الأيام الأربعة لم يكن لنا موضوعٌ سواك.

- أنا؟ الحقّ أنّك تغمرني بلطفك!

- هذا المفترضُ حين يكون المرء مشكلةً حيّةً.

- آه! أنا إذًا مشكلة بالنّسبة إلى والدتك أيضًا؟ الحقّ أنّني كنت أحسبك أعقل من أن تنقاد إلى مثل هذه التهيّؤات!

- أنت مشكلةٌ يا عزيزي الكونت، مشكلة بالنّسبة إلى الجميع، وأمّي من جملتهم؛ مشكلةٌ قبلناها، وإن لم نجد لها حلًّا؛ ما زلت في وضع اللّغز! فلتطمئنّ. إنّ أمّي تتساءَل دائمًا كيف لا تزالُ بهذا القدر من الشّباب. أظنُّ أنّه إن كانت الكونتيسة ج. تحسبك اللّورد روثوين، فإنّ أمّي في المقابل تحسبك كاليوسترو أو كونت سان جرمان. وما إن تعنّ لك فرصةُ لقاء السيّدة دو مورسيرف، أرجوك أكّد لها رأيَها هذا. ولن يشقّ عليك الأمر، إذ لا بدّ أنّك تملك حجر فلاسفة الأوّل أو روح الثاني[1].

أجاب الكونت باسمًا: - أشكرك لأنّك نبّهتني، سوف أحرص على أن أستجيب لكلّ ما يحوم حولي من ظنون.

- ستأتي إذًا يوم السّبت؟

- حسنًا، ما دامت السيّدة دو مورسيرف ترجو حضوري.

- لطفٌ منك.

---

(1) كان يُشاع عن الكونت سان جرمان، الشّاعر والموسيقي والخيميائي المجهول، أنّه خالد؛ أمّا المغامر كاليوسترو الذي سبق أن أشرنا إليه في حاشية سابقة، فربّما شاع عنه أنّه عثر على حجر الفلاسفة.

- والسيّد دانغلار؟

- أوه! لقد تلقّى ثلاث دعوات؛ والدي تكلّف بنفسه بالأمر. نأمل كذلك أن يحظر العظيم داغيسو[1]، أقصد السيّد دو فيلفور؛ لكنّي يائسٌ من حضوره.

- يقول المثل: - لا تيأس من شيء.

- هل ترقص يا سيّدي الكونت؟

- أنا؟

- نعم، أنت، ما الغريب في أن ترقص؟

- آه! أجل، لا غرابة ما دام المرء لم يجتز عتبة الأربعين... كلّا، أنا لا أرقص؛ لكنّني أحب متابعة الرّقص. وهل السيّدة دو مورسيرف ترقص؟

- كلاّ، لا ترقص بالمطلق... وهذه فرصةٌ لتقضيا السّهرة في الحديث، إنّها تتوق إلى أن تحادثك.

- حقًّا!

- بشرفي! أخبرك أنّك أوّل رجلٍ تبدي تجاهه أمّي هذا القدر من الفضول!

حمل ألبير قبّعته وقام؛ وبينما يرافقه الكونت حتّى الباب.قال له وهو يوقفه أمام درجات العتبة: - ثمّة أمرٌ ألوم نفسي عليه.

- وما هو؟

- كنتُ فضوليًا، إذ حدّثتك عن السيّد دانغلار.

- بالعكس، تحدّث ما طاب لك، أكثِر الحديث، تحدّث على الدّوام، لكن تحدّث دائمًا على نفس النّحو.

- حسنًا! لقد طمأنتني. بالمناسبة، متى يصل السيّد دیبيناي؟

- في غضون خمسة أيّامٍ أو ستّة على أبعد تقدير.

---

(1) يُلمح إلى أحد أشهر القضاة الفرنسيّين، هُنري فرانسوا داغيسو (1751-1668)

- ومتى يتزوّج؟
- ما إن يصل السيّد والسيّدة دو سان مران.
- اِئتني به إذًا متى ما وصل باريس. فعلى الرّغم من أنّك تقول إنّني لا أحبه، إلا أنّني سأسعد برؤيته.
- حسنًا، سمعًا وطاعةً يا سنيور.
- إلى اللّقاء!
- إلى السّبت، بالطّبع، أليس كذلك؟
- وكيف! إنّه وعد.
تابع الكونت ألبير بعينيه وهو يلوّح بيده. ثمّ لما صعد الشّابُ إلى عربته، استدار مونت كريستو، فألفى برتوتشو خلفه.
سأله: - وإذًا؟
أجابه المدبّر: - لقد ذهبَتْ إلى قصر العدالة.
- وأطالت المكوث؟
- ساعةً ونصفًا
- وعادت إلى منزلها؟
- مباشرةً.
قال الكونت: - والآن يا عزيزي برتوتشو عندي لك نصيحةٌ: أن تقصد النورماندي فترى هل تعثر على قطعة الأرض التي حدّثتك عنها.
حيّا برتوتشو الكونت، وبما أنّ رغبته كانت توافق الأمر الذي تلقّاه، فقد سافر من مسائه.

69

الأخبار

أوفى السيّد دو فيلفور بما قطعه للسيّدة دانغلار، ولنفسه بخاصّة، فسعى إلى أن يعرف بأيّ سبيل أحاط الكونت مونت كريستو بواقعة منزل أوتوي.

فكتب في اليوم نفسه إلى شخصٍ يدعى السيّد دو بوفيل، وكان هذا بعد أن خدم مفتّش سجونٍ، أُلحق، بدرجة رفيعةٍ، بشرطة الأمن؛ وقد كتب إليه وكيل الملك طالبًا المعلومات التي يريدها، فطلب الشّرطيُّ مهلة يومين يتقصّى فيهما عمّن يستطيع أن يستفسر لديه من أمر الكونت.

وما إن انقضى اليومان حتّى تلقّى السيّد دو فيلفور المذكّرة الآتية:

إنّ المدعو كونت مونت كريستو، معروفٌ، على وجه التخصيص، عند اللورد ويلمور، وهو ثريّ أجنبي، يأتي باريس بين الفينة والأخرى، وحاليًا هو فيها؛ كذلك معروفٌ هو عند الأب بوزوني، وهو قسّ صقليّ ذائع الصّيت في الشّرق، حيث يقوم بالكثير من الأعمال الخيرية.

أصدر السيّد دو فيلفور أمره بأن تصله بخصوص الشّخصين المذكورين معلوماتٌ مستعجلة ودقيقة؛ ومساء اليوم التّالي نُفِّذت الأوامرُ، ووصلت المعلومات التّالية:

إنّ الرّاهب، الذي لم يأتِ إلى باريس إلا منذ شهرٍ، يقيم خلف كنيسة سانسولبيس، في منزلٍ صغيرٍ مؤلّفٍ من طابقٍ واحدٍ بالإضافة إلى الطّابق السّفليّ، ويضمّ غرفتين بالأعلى وغرفتين بالأسفل، هما كلّ ما في المنزل الذي يستأجره بمفرده.

غرفتا الطّابق السّفليّ عبارةٌ عن حجرةِ طعامٍ فيها طاولة وكرسيّان

وخزانة من خشب الجوز، وصالونٌ من خشب مطليٍّ بالأبيض، وليس به زخارف أو بساط أو بندول. ممّا يدلّ على أنّ الرّاهب يقتصر على أدنى الاحتياجات عندما يتعلّق الأمر بنفسه.

ويفضّل الرّاهب الإقامة في الصّالون بالطّابق الأوّل. وهذا الصّالون مليء بكتب اللاهوت والمخطوطات التي يدفن نفسه فيها شهورًا، بحسب خادمه، ممّا يعني أنّ الحجرة المذكورة مكتبةٌ أكثر منها صالون.

وحينما يزوره زائرٌ، فإنّ الخادم ينظر إليه عبر ضربٍ من الشّباك، فإن لم يتعرّفه، أو إن لم تعجبه هيأته، يقول إنّ سيّدَه غير موجود في باريس، فينسحب أغلبهم من دون أن يزيدوا كلمةً، لأنّهم أَلِفوا في الرّجل كثرة التّرحالِ وطولَ الغياب عن باريسَ.

ثمّ، سواء أكان الرّاهب في بيته أم لم يكن، وسواء كان في باريس أو خارجها، فإنّ الصّدقات لا تتوقّف، إذ يوزّعها الخادمُ باسمِ سيّده على المحتاجين.

أمّا الغرفة الثّانية الواقعة بجانب المكتبة، فكانت غرفة نوم. ليس فيها من أثاث سوى سرير بلا أستار، وأربعة مقاعد وأريكة من مخمل أوتريخت صفراء ومركع[1].

أمّا اللّورد ويلمور، فيقيم في شارع فونتين جورج. إنّه أحد أولئك الإنجليز السّياح الذين يستهلكون مالهم في الأسفار. يستأجر شقّةً مفروشة لا يقضي فيها إلا ساعتين أو ثلاثًا في اليوم، ولا ينام فيها إلا نادرًا. ومن بدعه أنّه لا يريد أن يتكلّم حرفًا بالفرنسية، مع أنّه يكتب بها ببلاغة رفيعة.

وغداة اليوم الذي توصّل فيه السيّد وكيل الملك بتلك المعلومات القيّمة، نزلَ رجلٌ من عربة عند زاوية شارع فرو، وطرق بابًا مدهونًا بالأخضر الزّيتونيّ وطلب الأب بوزوني.

أجاب الخادمُ: - إنّ سيّدي الأب قد خرج منذ الصّباح.

---

(1) المركع ما يركع عليه للصّلاة في الكنيسة.

قال الزّائر: - لا يمكنني أن أقنع بهذا الردّ، فأنا من طرف شخصٍ بالنّسبة إليه الرّاهبُ دائمًا موجود. هلّا أعطيت الأب بوزوني هذا...

كرّر الخادمُ: - قلتُ لك إنّه غير موجود.

- حسنًا، حين يعود أعطِه هذه البطاقة وهذه الرّسالة المختومة. هل سيكون الرّاهب موجودًا، هذا المساء في السّاعة الثامنة؟

- أوه! بالتّأكيد ـ ما عدا إن كان سيّدي الأب يعملُ، ذاك أنّ العمل عنده صنو الخروج.

قال الزّائر: - سأعود إذًا مساء اليوم في السّاعة المعلومة.

ثمّ انصرف.

وبالفعل، في السّاعة المذكورة، عاد الرّجل نفسه في العربة نفسها، غير أنّه لم يوقفها هذه المرّة عند زاوية شارع فرو، وإنّما أمام الباب الأخضر. دقّ، ففُتح له الباب ودخل.

وممّا أبداه له الخادم من تقدير، أدرك أنّ الرّسالة قد فعلت مفعولها.

سأل: - هل سيّدي الأب موجود؟

أجابه الخادم: - نعم، إنّه يعمل في مكتبته، لكنّه بانتظارك يا سيّدي.

صعد الغريب درجًا وعرًا، وأمام طاولةٍ يغمرها ضوءُ مصباح عاكسٍ كبيرٍ، فيما باقي الغرفة يغرق في الظّلام، لمح القسَّ في ردائه الكنسيّ، وعلى رأسه تلك القبّعة الشّبيهة بعرف الدّيك التي كان يعتمرها متعالمو القرون الوسطى.

سأل الزائرُ: - هل سيّدي بوزوني هو من أتشرّف بالحديث إليه؟

أجابه الأب: - نعم، وهل أنت يا سيّدي مبعوثُ السيّد دو بوفيل، مدبّر السّجون سابقًا، إليّ، من طرف السيّد محافظ الشّرطة؟

- بالضّبط يا سيّدي.

- أحد الرّجال السّاهرين على أمن باريس؟

أجاب الغريب بنوع من التردّد، وبشيءٍ من الانفعال خاصّة: نعم يا سيّدي.

عدّل الأب نظارته الكبيرة التي لم تكن تغطّي منه العينين فقط وإنّما أيضًا الصّدغين، ثمّ جلس وهو يشير إلى الغريب بأن يجلس بدوره.

قال الرّاهب بنبرةٍ إيطالية شديدة الفصاحة: - تفضّل يا سيّدي، أنا مُصغٍ إليك.

أجاب الغريب وهو يزن كلّ كلمة من كلماته كأنّما يشقّ عليه إخراجها: - إنّ المهمّة التي أوكلتُ لها يا سيّدي، هي مهمّة سريّةٌ تحتاجُ تكتّمًا من طرف من يقوم بها، ومن طرف من تُطلب عندَه.

انحنى الرّاهب موافقًا. فواصل الغريب: - نعم يا سيّدي الرّاهب، إنّ استقامتك ونزاهتك معروفان عند محافظ الشّرطة، ولذلك تراه يقصدك في أمرٍ يخصّ الأمن العامّ الذي بُعثت إليك باسمه. نرجو إذًا يا سيّدي الرّاهب أنّ لا الصّداقةَ ولا أيَّ اعتبارٍ إنسانيّ سيجعلك تكتم الحقيقة عن العدالة.

- شرطَ ألاّ تُخلّ الحقائقُ بالواجب الذي يفرضه عليّ ضميري. أنا راهبٌ يا سيّدي، وإنّ ما يُسِرّ به إليّ المعترفون يظلّ بيني وبين عدالة السّماء، وليس بيني وبين عدالة البشر.

قال الغريب: - أوه! اطمئنّ يا سيّدي الرّاهب، في جميع الأحوال سيظلّ ضميرك راضيًا.

وإذ نطق الغريب كلماته تلك، رفع الرّاهبُ المصباح العاكس الذي كان من جهته، وجعله في الجهة المقابلة بحيث يضيءُ وجه الغريب ويترك وجهه هو في الظلّ.

قال مبعوث السيّد محافظ الشّرطة: - عفوك يا سيّدي الرّاهب، لكنّ هذا الضّوء يتعب عينيّ كلّ التّعب.

خفض الأب ضوء غطاء المصباح الأخضرَ.

- والآن، تفضّل يا سيّدي، أنا مصغٍ إليك.

- سأذهب إلى صلب الموضوع مباشرةً. هل تعرف السيّد الكونت مونت كريستو؟

- أظنّك تقصد السيّد تزاكّوني.

– تزاكّوني!... أليس اسمه إذًا مونت كريستو!
– إنّ مونت كريستو اسم أرضٍ، أو بالأحرى اسم صخرةٍ، وليس اسمَ عائلة.
– حسنًا؛ لنتجاوز مسألة الأسماء، وما دام السيّد مونت كريستو هو نفسه السيّد تزاكّوني...
– هو بشحمة ولحمه.
– لنتحدّث إذًا عن السيّد تزاكّوني.
– تفضّل.
– سألتك هل تعرفه.
– حقّ معرفة.
– ومن يكون؟
– هو ابن تاجر مالطي ثريّ.
– أجل، أعرف ذلك، هذا ما يُقال؛ لكن الشّرطة، كما تعرف، لا يمكنها أن تكتفي بـما يُقال.
أجابه الأب بابتسامة بشوشٍ: – لكن، حين يكون ما يُقال هو الحقيقة، ففي هذه الحال ينبغي أن يكتفي الجميع به، والشّرطة من جملة الجميع.
– لكن، هل أنت متيقّنٌ ممّا تقوله؟
– كيف! هل أنا متيقّن!
– لاحظ يا سيّدي أنّني لا أشكّك أبدًا في سلامة نيّتك، إنّما أقول فقط هل أنت متيقّنٌ.
– اسمع، لقد عرفتُ السّيد تزاكّوني الأب.
– آه! آه!
– وطفلًا لعبتُ مرارًا مع ابنه في أوراش مراكبهم.
– لكن، بالنّسبة إلى لقب كونت؟
– تلك أمور تُشترى.
– في إيطاليا؟

- في كلّ مكانٍ.
- وثرواته المهولة على ما يُقال...
- أوه! بالنّسبة لثرواته، فقد أحسنتَ اختيار النّعت: مهولة.
- كم تظنّ مبلغ ثروته، أنت الذي تعرفه حقّ المعرفة؟
- أوه! مداخيله تقدّر بمائة وخمسين إلى مائتي ألف جنيه.
قال الزّائر: - آه! هذا مبلغ معقول، لكن يُشاع أنّ المبلغ ثلاثة ملايين أو أربعة!
- لكي تحصل على مدخول بقيمة مائتي ألف جنيه يا سيّدي، تحتاج رأسمال أربعة ملايين.
- أقصد يُشاع أنّ مداخيله تبلغ ثلاثة ملايين أو أربعة!
- أوه! هذا مستحيل.
- وهل تعرف جزيرته المسمّاة مونت كريستو؟
- طبعًا؛ أيّما رجلٍ أتى من باليرمو أو نابولي أو روما إلى فرنسا عبر البحر إلا ويعرفها، إذ لا بدّ أن يمرّ بجانبها.
- هي مكانٌ ساحرٌ على ما يُقال.
- هي صخرةٌ.
- ولمَ يشتري الكونت صخرةً؟
- لكي يصير كونتًا. في إيطاليا لكي يصير المرء كونتًا، يحتاج كونتًا.
- لا بدّ أنّك سمعت شيئًا عن مغامرات الشّباب للسيّد تزاكّوني.
- تقصد الأب؟
- كلاّ، الابن.
- آه! هنا يبدأ بالنّسبة إليّ اللايقين، إذ إنّني فقدت أيّامَ الشّباب الصّلةَ بصديق طفولتي.
- هل شارك في الحرب؟
- أظنّه التحق بالخدمة العسكرية.
- في أيّ سلاح؟

– البحرية.

– ألستَ القسَّ الذي يعترف إليه.

– كلاّ يا سيّدي؛ أظنّه على مذهب اللوثرية.

– كيف؟ هو لوثري؟

– أقول إنّني أظنُّ، ولا أجزم. ثمّ أظنّ أنّ حريّةَ المعتقد مكفولةٌ في فرنسا.

– بلا شكّ، ثمّ إنّ ما يشغلنا الآن ليس معتقدات الرّجل، وإنّما أفعاله؛ باسم السيّد محافظ الشّرطة أدعوك إلى أن تخبرني بما تعرفه.

– يقدّم الرّجل نفسه باعتباره رجلًا خيِّرًا. حتّى إنّ قداسة البابا نصّبه فارسًا للمسيح، وهو منصبٌ لا يتكرّم به إلا على الأمراء لما أسدوه من خدماتٍ جليلة لمسيحيّي الشّرق؛ وكذلك يملك خمسة أوشحة أو ستّة حصل عليها بفضل ما أسداه من خدماتٍ إلى أمراءٍ أو دول.

– ويحملها؟

– كلاّ، لكنّه فخور بها، ويقول إنّه يفضّل المكافآت التي يحصل عليها المحسنون إلى الإنسانية على تلك التي يحصل عليها مدمّرو البشر.

– صاحبنا إذًا من الكواكرز(1)؟

– تمامًا، إنّه من الكواكرز، غير أنّه بالطّبع لا يلبس قبّعتهم الكبيرة وزيّهم البنيّ.

– وهل يُعرف له أصدقاء؟

– نعم، لأنّ كلّ من يعرفونه أصدقاؤه.

– لكن، لا بدّ أنّ لديه أعداءً؟

– عدوّ واحد.

– وما اسمه؟

---

(1) تترجم أحيانًا في العربية إلى «الصّاحبيون»، أو جمعية الأصدقاء الدّينية، وهي جماعة دينية بروتستانتية نشأت في إنجلترا نهاية القرن 17.

– اللّورد ويلمور.
– وأين هو؟
– في باريس حاليًا.
– وهل يستطيع أن يمدّنا بمعلومات؟
– قيّمة. لقد كان في الهند، في الوقت نفسه الذي كان الكونت فيها.
– وتعرف أين يقيم؟
– في شارع لاشوسيه دونتان؛ لكنّني لا أعرف الشّارع أو الرّقم.
– وهل علاقتكَ سيّئةٌ بهذا الإنجليزيّ؟
– أحبّ تزاكّوني، وهو يكرهه؛ لذلك علاقتنا يطبعها الفتور.
– سيّدي الأب، هل تظنُّ أنّ الكونت مونت كريستو قد زار فرنسا قبل زيارته الحالية إلى باريس؟
– آه!أستطيع أن أجيبك جوابًا شافيًا: لم يأتِ إلى فرنسا من قبل، لأنّه راسلني منذ ستّة شهور يسألني معلومات لسفره. ولأنّني لا أعرف في أيّ موعدٍ قد أغادر باريس، فقد وجّهته إلى السيّد كافالكانتي.
– أندريا؟
– كلاّ؛ بارتولوميو، الأب.
– حسنًا يا سيّدي؛ لم يعد عندي سوى سؤال واحدٍ، وأدعوك باسم الشّرف والإنسانية والدّين، أن تجيبني بلا مواربةٍ.
– تفضل يا سيّدي.
– هل تعرف لأيّ غرضٍ اشترى السيّد الكونت دو مونت كريستو منزلًا في أوتوي؟
– بالتّأكيد، لأنّه أخبرني.
– ولأيّ سبب، يا سيّدي؟
– يريد أن يبني فيه مأوى للمجانين، على شاكلة ما بناه البارون دو

بيزاني في باليرمو[1]. هل تعرف هذا المأوى يا سيّدي؟
- معرفة السّمع فقط، يا سيّدي.
- إنّه مكانٌ رائع.
وهنا حيّا الأبُ الغريبَ تحيّةً تشي بأنّه يستحسن العودة إلى ما كان فيه من اشتغالٍ. ثمّ إنّ الزّائر، إمّا لأنّه فهم رغبة الأب أو لأنّه فرغ من الأسئلة، قام بدوره.
اصطحبه الرّاهب حتّى الباب.
قال الزّائر: - أنت تعطي الكثير من الصّدقات يا سيّدي، وعلى الرّغم ممّا يُقال عن ثرائك، إلا أنّني أريد أن أساهم بشيءٍ تعطيه الفقراءَ؛ فهل تقبل عطيّتي يا سيّدي؟
- شكرًا يا سيّدي؛ لا أعبّر عن الأنانية إلا في هذا الموقف: أن تكون عطاياي من عندي.
- لكن...
- هذا قرارٌ راسخٌ. لكن ما عليك إلا أن تبحث يا سيّدي، وسوف تجد. وا أسفًا! في طريق كلّ رجلٍ غنيّ، ثمّة بُؤساء كثرٌ يحتاجون العون.
حيّا الأبُ زائرَه مرّةً أخرى وهو يفتح له الباب؛ وحيّا الغريبُ بدوره مضيفَه، وخرج.
وقادته العربةُ رأسًا إلى بيت السيّد دو فيلفور.
وساعةً بعد ذلك، غادرت العربة مجدّدًا، وهذه المرّة كانت تقصد شارع فونتين سان جورج. وتوقّفت عند الرّقم 5. هناك يقيم اللّورد ويلمور.
وكان الغريب قد كتب إلى اللّورد ويلمور يطلب منه موعدًا، فأجابه إلى ما طلب، وحُدّد الموعد في السّاعة العاشرة. وبما أنّ مبعوث محافظ

(1) كتب دوما عن هذا المأوى في روايته القبطان أرينا، بل وجعل عنوان فصلها الأوّل: مأوى المجانين.

الشّرطة وصل قبل الموعد بعشر دقائق، فقد أُخبر بأنّ اللّورد ويلمور، وهو الدّقةُ والانضباط مجسَّدَين، لم يعد بعدُ إلى المنزل، لكنّه بالتأكيد سيظهر ما إن تدقّ العاشرة.

انتظر الغريب في الصّالون. ولم يكن في الصّالون شيءٌ مميّزٌ، إذ لا فرق بينه وبين صالونات الشقق المفروشة. مدفأةٌ بمزهريّتين حديثتين، بندولٌ عليه تمثالُ إلهِ الحبّ موترًا قوسَه، ومرآةٌ من قطعتين؛ وفي كلّ قطعةٍ من قطعتي المرآة يوجد نقشٌ، واحدٌ يمثّل الشّاعر الضّرير هوميروس يقودُه دليلُه، والآخرُ يمثّلُ الجنرالَ الرّوماني بليساريوس يسأل الصّدقة؛ وورق حائط رماديّ، وأثاث من ثوبٍ أحمر مزيّن بالأسود. ذلكم كان صالون اللّورد ويلمور.

وكان مضاءً بكُراتٍ زجاجية تنشر ضوءًا باهتًا، يبدو كأنّما وُضع خصيصًا لعَينَي مبعوث محافظ الشّرطة المتعبتين.

وبعد عشر دقائق من الانتظار، دقّ البندول معلنًا السّاعة العاشرة؛ وعند الدقّة الخامسة، فُتح البابُ وظهر اللّورد ويلمور.

كان اللّورد رجلًا أمْيَل إلى الطّول منه إلى القِصر، حواشي ذقنه خفيفةُ الشّعر صهباء، وبشرته بيضاء وشعره أشقر مُشيَبٌّ. وكان يتزيّا بالطّريقة الإنجليزية الغريبة، أي يرتدي بدلة زرقاء مزرّرةً بأزرار ذهبية وياقة عالية، مثل تلك التي كانت تُرتدى سنوات 1811، وصدريّة من كاشمير أبيض، وسروالًا من نسيج النّانكين قصيرًا جدًا بمقدار ثلاث بوصات، غير أنّ جوارب طويلة من نفس النّسيج تمنعه من أن يصعد حتّى الرّكبة.

ولمّا أن دخل كان أوّل ما قاله:

- تعلم يا سيّدي أنّني لا أتحدّث الفرنسية.

أجابه مبعوث محافظ الشّرطة: - أعلم على الأقلّ بأنّك لا تحبّ الحديث بلغتنا.

- لكنّك تستطيع أن تتحدّث بها، لأنّني وإن كنت لا أتحدّث بها إلا أنّني أفهمها.

أجاب الزّائر وهو يغيّر لغة حديثه: - وأنا أتحدّث الإنجليزية بما يكفي من الطّلاقة لنتفاهم، فلا تنزعج يا سيّدي، وتحدّث كما يحلو لك.
قال اللّورد ويلمور: -! Hao. قالها بتلك النّبرة التي لا يملكها إلا أبناء بريطانيا العظمى الخُلَّص.
مدّ مبعوث محافظ الشّرطة إلى اللّورد ويلمور رسالة التّوصية. فقرأها الإنجليزي ببرود أنجليكانيّ؛ ثمّ، حين فرغ من قراءتها، قال:
- فهمت، فهمت جيّدًا.
فبدأت الأسئلة. وكانت تقريبًا نفسها تلك التي طرحها الزّائر على الأب بوزوني. لكن بما أنّ اللّورد ويلمور، وهو عدوّ الكونت، لم يكن يتحفّظ في الكلام، فقد جاءت الأجوبة ممطوطةً مفصّلة؛ فحكى الرّجل عن طفولة الكونت مونت كريستوالذي، بحسب زعم الإنجليزي، حين بلغ سنّ العاشرة التحق بخدمة أحد أولئك الأمراء الهنود الذين كانوا يحاربون إنجلترا؛ وهناك التقاه، هو اللّورد ويلمور، للمرّة الأولى، وتحاربا. ووقع تزاكوني في الأسر، فأُرسل إلى إنجلترا سجينًا في طوفٍ، لكنّه فرّ منه سباحةً. ومُذّاك ابتدأت سياحاته، وصراعاته، ونزواته؛ ثمّ انطلقت حرب الاستقلال اليونانية، فالتحق بصفوف اليونان. وبينما يحارب معهم، اكتشف منجم فضّة في جبال ثيساليا، لكنّه حرص على ألّا يخبر أحدًا باكتشافه. وبعد معركة نافارين، وبعدما استقام أمر الحكومة اليونانية، طلب من الملك أوتّو، امتياز استغلال المنجم المذكور، فأُجيب إلى طلبه. ومن هنا ثروته الهائلة التي قد تبلغ إيراداتها مليونًا أو مليونين، وهي على ضخامتها ثروةٌ قد تنقضي في أيّ لحظةٍ، إن جفّ المنجمُ الذي يزوّدها.
سأله الزّائرُ: - لكن، هل تعلم لماذا أتى إلى فرنسا؟
أجاب ويلمور: - يريد أن يقتحم استثمارات السكّة الحديد؛ ثمّ، بوصفه فيزيائيًا وكيميائيًا ماهرًا، فقد اكتشف تلغرافًا جديدًا ويريد أن يسهر على تطبيقه.

- كم يصرف في السّنة الواحدة؟
- أوه! خمسة ملايين أو ستّة على أقصى تقدير؛ إنّه بخيل.
كان بيّنًا أنّ الكراهية هي ما ينطق بلسان الإنجليزيّ، وأنّه إذ لم يجد نقيصةً يرمي بها الكونت، فقد رماه بالبخل.
- هل تعرف شيئًا عن منزله بأوتوي؟
- نعم، بالتّأكيد.
- ماذا تعرف؟
- تسأل عن غايته من شرائه؟
- نعم.
- حسنًا، إنّ الكونت مستثمر لا بدّ أن ينتهي إلى الإفلاس من جرّاء خيالاته التي يركض وراءها. إنّه يزعم أنّ في أوتوي، في أرجاء المنزل الذي اشتراه، نبع ماءٍ معدنيّ يستطيع أن ينافس مياه بانيير، ولوشون، وكوتيريه. يريد أن يجعل من العقار الذي اشتراه شِبهَ ما يسمّيه الألمانيون بادهاوس. وقد قلّب حديقته مرّتين أو ثلاثًا بحثًا عن النّبع المزعوم؛ وبما أنّه لم يجد شيئًا، فسوف ترى أنّه، بعد وقت وجيز، سيشتري كلّ المنازل المحيطة بمنزله. لكنّه، وكما أتمنّى، لا بدّ أن يفلس بسبب مشروع حمّاماته أو سكّته الحديد أو تلغرافه الكهربائي؛ وأنا أتبعه لكي أسعد بخرابه الذي لابدّ واقعًا اليومَ أو غدًا.
سأله الزّائر: - ولِمَ تريد خرابه؟
- أتمنّى خرابه، لأنّه لمّا مرّ بإنجلترا أغوى زوجة أحد أصدقائي.
- لكن إن كنت تكرهه، فلمَ لم تُحاول الانتقام منه؟
أجابه الإنجليزي: - سبق أن واجهت الكونت ثلاث مرّات: المرّة الأولى بالمسدّس، والثانية بالسّيف، والثالثة بالشّيش.
- وما كانت نتيجة المواجهات الثلاث؟
- في الأولى كسر ذراعي؛ وفي الثانية ثقب رئتي؛ وفي الثالثة خلّف فيّ هذه النّدبة.

ثمّ كشف الإنجليزي قميصه الذي تصعد ياقته حتى أذنيه، وأرى الرّجلَ ندبةً تبدو من احمرارها أنّها ليست بالقديمة جدًا. وأضاف: - لذا أنا أكرهه، ولن يموتَ بالطّبع إلا على يدي.

قال المبعوث: - لكن لا يبدو لي أنّك على الطّريق الصّحيحة لقتله؟

- هاو! كلّ يومٍ أذهب لأتمرّن على الرّماية، وكلّ يومين يأتي عندي غريزييه[1].

كان ذلك كلّ ما يرغب الزّائر في معرفته، أو بالأحرى كلّ ما يبدو أنّ الإنجليزي يعرفه. فكان أن قام الشّرطيّ، وبعدما حيّا اللّورد ويلمور الذي ردّ التحيّة بما عُهد في الإنجليز من برودة وأدب.

أمّا اللّورد ويلمور، فما إن سمع باب الشّارع يغلق، حتّى دخل إلى غرفة نومه، بحركةٍ من يده تخلّص من شعره الأشقر، وحواشي ذقنه الصّهباء، وفكّه المستعار، وندبته، ليستعيد البشرة الكامدة، وأسنان اللؤلؤ؛ بشرةَ الكونت مونت كريستو وأسنانه.

والحقّ أنّه من الجانب الآخر أيضًا، كان العائد بالأخبار إلى بيت السيّد دو فيلفور هو السيّد فيلفور نفسه، وليس مبعوث السيّد محافظ الشّرطة.

وقد اطمأنّ وكيل الملك بعد الزّيارتين اللّتين قام بهما؛ الزّيارتان اللّتان، وإن لم تحملا إليه أخبارًا مطمئنةً، لم تحملا إليه أيضًا ما يمكن أن يُقلقَه. والنّتيجةُ أنّه لأوّل مرّةٍ، منذ سهرة العشاء بأوتوي، ينامُ ليلةً بشيءٍ من هناءة.

---

(1) معلّم الأسلحة أوغوستان غريزييه (1791-1865).

70

الحفل الرّاقص

كان شهر يوليو قد بلغ أشدّ أيّامه حرارةً، حين أتى الدَّور، وفق منطق الرّوزنامة، على اليوم الموعود، نقصد يومَ السّبت الذي يُفترض أن يقام فيه الحفل الرّاقص الذي دعا إليه السيّد مورسيرف.

السّاعة العاشرة مساءً. أشجارُ حديقة قصر الكونت الكبيرةُ تبرزُ واضحةً في السّماء التي تعبُرها آخرُ غيومِ عاصفةٍ كانت قد زمجرت متوعّدةً طيلة النّهار؛ فتكشف عن نسيجٍ لازورديّ مرصّعٍ بالنّجوم الذّهبية.

في حجرات الطّابق السفليّ، كانت تصدح الموسيقى، وتدور رقصات الفالس والغالوب، بينما حزم ضوءٍ برّاقة تمرُّ وهّاجةً عبر فتحات المناور.

وكانت الحديقةُ في تلك السّاعة قد أُسلمت إلى دستةٍ من الخدم، وقد وجّهتهم سيّدتُهم بأن يضعوا مائدة العشاء، بعدما طمأنَها الطّقسُ الذي ما فتئ يزدادُ صفاءً.

وحتّى هذه اللّحظة كان أمرُ العشاء لا يزالُ متذبذبًا بين أن تُقدّم الوليمة في حجرة الطّعام أم تُمَدَّ المائدةُ تحت خيمةٍ طويلةٍ من قطن التّيكن نُصبت في الأرضية العشب. فأتت هذه السّماء الجميلةُ التي تملأها النّجوم، لتقطع في الاختيار، وتحكم لصالح الخيمة في العشب.

أضيئت مماشي الحديقة بالقناديل الملوّنة، على المُعتاد في إيطاليا، ومُلئت مائدة الطّعام بالشموع والزهور، على شاكلة ما يُفعل في كلّ

البلدان التي يفهمُ أهلها بعضًا من فنِّ ترف المائدة، الذي هو من بين كلّ فنون الترف، أندر فنٍّ يصادَفُ كاملًا مكتملًا.

وحين دخلت الكونتيسة إلى صالوناتها، بعدما أصدرت آخر أوامرها وتوجيهاتها، بدأت الصّالونات تمتلئ بالضيوف الذين جذبتهم إلى الحفل حفاوة الكونتيسة، أكثر ممّا فعلت مكانة الكونت؛ إذ كانوا متأكّدين مسبقًا من أنّ هذه الحفلةَ ستمنحهم، بفضل رفعة ذوق مرسيدس، بعضًا من التّفاصيل القمينة بأن تُحكى أو تُحاكى عند الحاجة.

إنّ السيّدة دانغلار التي خلّفت في نفسها الوقائعُ التي سردناها قلقًا عميقًا، كانت متردّدة في الذّهاب إلى حفل السيّدة دو مورسيرف. وإذا بعربتها تصادف صباحًا عربة السيّد فيلفور. أومأ لها فيلفور بإشارة، فدنت العربتان بعضهما من بعض حتّى تحاذتا، وعبْر البابين تبادل الرّاكبان الكلامَ.

سألَ وكيلُ الملك: - ستلبّين دعوة السيّدة دو مورسيرف، أليس كذلك؟

فأجابته السيّدة دانغلار: - كلّا، إنّي مريضةٌ جدًا.

فواصل فيلفور الكلام بنظرةٍ دالّة: - إنّك مخطئة، من المهمّ أن تظهري هناك.

تساءلت البارونة: - آه! أتعتقدُ ذلك؟

- نعم أعتقده.

- في هذه الحالة، سأذهب.

تابعت العربتان طريقهما كلّ في اتّجاه. وكان أن عملت السيّدة دانغلار بالنّصيحة؛ ولم تأتِ جميلةً فقط بحُسنها الطّبيعي، وإنّما متوهّجةً بترفها؛ وقد دخلت من أحد الأبواب في الوقت نفسه الذي دخلت فيه مرسيدس من باب آخر، فحثّت الكونتيسة ألبير على أن يتقدّم مستقبلًا

السيّدة دانغلار؛ وكان أن تقدّم ألبير نحو البارونة، وأثنى على أناقتها الثناءَ الذي تستحقّه، ثمّ أخذ بذراعها لكي يقتادها إلى أيّ موضع يروقها.

أجال ألبير النظر حواليه، فقالت البارونة باسمةً:

- هل تفتّش عن ابنتي؟

أجابها: - أعترف بذلك؛ هل قسا قلبك فلَم تصطحبيها معك؟

- اطمئنّ! لقد التقت الآنسة دوفيلفور فتأبّطت ذراعها؛ هاهما في إثرنا مرتديّتين فستانين أبيضين؛ وفي يد إحداهما باقة كاميليا، وبيد الأخرى باقة ميوسوتيس(1)، لكن قل لي...؟

قاطعها ألبير مبتسمًا: - وما الذي تبحثين عنه في المقابل؟

- ألن يحضر هذا المساء الكونت مونت كريستو؟

أجابها ألبير: - سبعةَ عشر!

- ما الذي تقصده؟

أجابها الفيكونت ضاحكًا: - أقصد أنّك الشّخص رقم سبعة عشر الذي يسألني السّؤالَ نفسَه؛ الكونت بخير وعافية!... أهنّئه على ذلك...

- وهل تجيبُ الجميعَ كما أجبتني؟

- آه! صحيح، لم أجبك عن سؤالك يا سيّدتي؛ اطمئني يا سيّدتي، سنحظى بزيارة الرّجل الذي يعدّ موضع الاهتمام في هذه الأيام؛ نحن من ذوي الحظوة.

- أكنتَ أمس بالأوبرا؟

- كلّا.

- أمّا هو فكانَ.

- آه! حقًا! وهل قام الرّجلُ محطُّ الأنظارِ بإبداعٍ من إبداعاته.

---

(1) زهر أذن الفار، أو آذان الفار، واسمها اللاتيني Myosotis، وتكون في الغالب الأعمّ زرقاء، وترمز بالعادة إلى الصّداقة والحبّ.

- وهل يمكن أن يظهرَ من دون أن يفعل ذلك؟ كانت إلسلر[1] ترقص في **الشّيطان الأعرج**؛ وكانت الأميرة اليونانية في نشوة الطرب، وبعد رقصة الكاشوشا[2]، ربط صاحبُنا خاتمًا رائعًا بذيل باقة زهورٍ، ورمى به إلى الرّاقصة الجميلة، والتي، إكرامًا له، ظهرت في المشهد الثالث مرتدية الخاتم. وأميرتُه اليونانية، هل هي مدعوةٌ؟

- كلاّ، ينبغي الامتناع عن ذلك، فوضعُها ببيت الكونت غير معروف.

- حسنًا، دعني هنا، واذهب لتحيّي السيّدة دو فيلفور؛ أرى أنّها تتحرّق رغبةً في الحديث إليك.

حيّا ألبير السيّدة دانغلار وتقدّم باتّجاه السيّدة دو فيلفور، التي كانت تفتح فاها بقدر ما كان هو يقترب.

قاطعها ألبير قائلًا: - أراهنُ أنّي على علمٍ بما ستقولينه؟

أجابته السيّدة دو فيلفور: - آه! مثلًا!

- فإن أخبرتُك وكنت على صوابٍ، هل ستقرّين بذلك؟

- نعم.

- بشرفك؟

- بشرفي.

- كنت ستسألينني عمّا إذا كان الكونت مونت كريستو قد وصل، أو عمّا إذا كان سيأتي؟

- كلّا. كنت سأسألك عمّا إذا وصلتك أخبارٌ من السيّد فرانز.

---

(1) المقصود راقصة الباليه النمساوية الشّهيرة فاني إلسلر (1810-1884). وقد قدّمت باليهًا مقتبسًا عن رواية الشيطان الأعرج (1707) لآلان رُنيه لوساج، ألّفته بنفسها، وحصدت رقصة الكاكوشا التي قدّمتها نجاحًا مبهرًا، فخصّها المؤلّف الفرنسي تيوفيل غوتييه بصفحاتٍ طويلة من المديح.

(2) رقصة إسبانية من القرن التّاسع عشر، تؤدّى بشكلٍ منفردٍ من طرف راقص أو راقصة، ويصاحبها عزفُ الجيتار وصنوج الكاستنيتْ.

- نعم، أمس.
- ماذا قال؟
- قال إنّه انطلق في الوقت نفسه الذي انطلقت فيه رسالته.
- حسن. والآن، ماذا عن الكونت؟
- الكونت سيحضر، لا تقلقي.
- أوَتعلمُ أنّ له اسمًا آخرَ غير اسم مونت كريستو؟
- كلاّ، لا أعلم.
- مونت كريستو اسمُ جزيرةٍ، أمّا هو فله اسمٌ عائليّ.
- ما سمعتُه قطّ ينطق به.
- وإذًا، أنا أوسعُ منك اطّلاعًا. إنّ اسمه تزاكّوني.
- ممكن.
- وهو مالطيّ.
- ممكنٌ أيضًا.
- ابنُ تاجر.
- أوه! الحقّ أنّ عليك أن تنطقي هذه الأخبار بأعلى صوتٍ، وستحصدين نجاحًا باهرًا.
- لقد خدم في الهند، وكان يستغل منجم فضّةٍ في ثيساليا، وجاء إلى باريس لكي يؤسّسَ شركةً للمياه المعدنية بأوتوي.
قال مورسيرف: - طيّب، خير وبركة، هي ذي أخبارٌ جيّدة! أتسمحين لي بنشرها؟
- أجل، لكن واحدةً واحدة، ومن دون أن تشير إلى أنّني أنا مصدرها.
- ولماذا؟
- لأنّ الأمر تقريبًا سِرٌّ أُسِرَّ به.
- لمن؟
- للشّرطة.

- هي إذن أسرارٌ تدين...
- أمس مساءً، بمكتب المحافظ. إنّ باريس متأثّرةٌ، أنت تفهمُ طبعًا، غايةَ التأثّر لمعاينة هذا التّرف غير المعتاد، فقامت الشّرطة بتحريّاتها.
- حسنًا، لم يبقَ إذًا إلا توقيف الكونت، مثل أيّ متشرّدٍ، بتهمةِ الغنى الفاحش.
- يا إلهي، ذاك ما كان سيحدث، لولا أنّ الأخبار الآتية بخصوصه كانت طيّبةً.
- الكونت المسكين. أوَيعرف على الأقلّ بالخطر الذي كان يتهدّدُه؟
- لا أعتقد ذلك.
- وإذًا، سيكون من باب الإحسان تنبيهه. ولن أضيع الفرصة ما إن يظهرَ.
وفي تلك اللحظة تقدّم لتحيّة السيّدة دو فيلفور شابٌ حسن الوجه، ذو عينين متّقدتين وشعر أسود وشاربٍ جذّاب. مدّ إليه ألبير يده.
قال ألبير: - سيّدتي، أتشرّف بأن أقدّم لك السيّد ماكسيميليان موريل، وهو نقيب بجيش الصبايحية، وأحد أطيب ضباطنا، والأهمّ من ذلك أحد أشدّهم بسالةً.
أجابت السيّدة دو فيلفور وهي تشيح بوجهها في برودٍ واضح:
- لقد تشرّفت بمعرفة السيّد بمنزل الكونت مونت كريستو في أوتوي.
أوجع جوابُها قلب المسكين موريل، وأوجعته على وجه التخصيص النّبرة التي قيلت به؛ لكن الظّرف كان يخبّئ له عزاءً؛ ذاك أنّه لما التفت لمح عند زاوية الباب وجهًا أبيضَ جميلًا، وجهًا عيناه الزرقاوان الواسعتان اللتان لا يعلوهما تعبيرٌ واضحٌ، تحدّقان فيه، بينما تتحرّك اليد حاملةً باقةً من ميوسوتيس، ببطءٍ باتّجاه الشّفتين.
فهم ماكسيميليان التحيّة، حتّى إنّه بنفس التّعبير في النّظرة، حرّك منديله باتّجاه فمه؛ وفي لحظةٍ نسيَ التمثالان الحيّان، اللذان كان قلباهُما

يدقّان بعنفٍ تحت برودة الرّخام الظّاهرة على الوجهين؛ واللذان كان يفصل بينهما عرضُ الصّالة بأكمله؛ قلنا إنّ التمثالين الحيّين نسيا العالمَ بأكمله وانخرطا في تأمّل صامتٍ.

وكان من الممكن أن يظلّا على تلك الحال، ذاهلين عن الوجود غارقين أحدهما في الآخر، من دون أن ينتبه إليهما أحد، لولا أن نوديَ بوصول الكونت مونت كريستو.

وقد سبق أن قلنا إنّ الكونت، إن بِهَيْبة مصطنعةٍ أو هيبةٍ طبيعية، كان يجذب الأنظار حيثما حلّ. ولم يجذب الأنظارَ بفضل لباسه الأسود، الذي وإن كانت -والحقُّ يقالُ- لا تشوبُ تفصيلَه شائبةٌ، فإنّه كان بسيطًا وبلا أوسمة؛ ولا بسترته البيضاء التي لا تطريز بها؛ ولا سرواله ذي الشّكل الأشدّ دقّة؛ وإنّما ما كان يجعل كلّ الأنظار تتعلّق به هو بشرته الكامدة، وشعره الأسود الأجعد، ووجهه الصافي الهادئ، وعينه العميقة الشجيّة، وأخيرًا فمه المرسوم بدقّة وبراعة، والذي يتّخذ بسهولةٍ تعبير ازدراء عظيم.

من الممكن أنّ ثمّة رجالًا أوسمَ منه، لكن الأكيد أن ليس هناك من هم أبلَغُ منه، ولتجيزوا لنا التّعبير، فكلّ شيء في الكونت كان يصبو إلى أن يقول شيئًا عن قيمته؛ ذاك أنّ تمرّسه على الفكر المفيد قد أصبغ على ملامحه، وعلى تعبيرات وجه وعلى أتفه حركاته مرونةً وصرامةً لا نظير لهما.

ثمّ إنّ عالمنا الباريسيّ من الغرابة، بحيث إنّه ما كان ليعير كلّ هذه الأمور اهتمامًا لو لم تكن خلفها قصّةٌ غامضةٌ تزيّنُها ثروةٌ هائلة.

على أيّة حالٍ تقدّم الرّجل، تحت ثقل النّظرات المتعلّقة به، وعبْر التحيّات القصيرة التي ظلَّ يتبادلها، حتّى بلغ السيّدةَ دو مورسيرف التي كانت واقفةً أمام المدفأة المزيّنة بالزّهور، ولمحت صورتَه في إحدى المرايا الموضوعة إزاء الباب، فتحضّرت لاستقباله، بأن استدارت نحوه بابتسامة واسعةٍ، في اللحظة نفسها التي انحنى فيها أمامها محيّيًا.

لا شكّ في أنّها حسبت أنّ الكونت سيكلّمها؛ ولا شكّ أيضًا في أنّه ظنّها ستبادئه بالحديث؛ لكنّهما لزما الصّمت معًا، لفرط ما كانت تبدو لهما تفاهةُ الأمر غير جديرةٍ بهما؛ وبعدما تبادلا التحيّة، اتّجه مونت كريستو صوبَ ألبير الذي كان يتقدّم شطره بيد مبسوطة.

سأله ألبير: - هل قابلت والدتي؟

أجابه الكونت: - لقد تشرّفت للتوّ بتحيّتها، لكنّي لم أرَ بعد والدك.

- انظُر! إنّه هناك، وسط ثلّة المشاهير تلك، يخوضون في أمور السّياسة.

- أَهؤلاء الرّجال الذين أراهم هناكَ مشاهير؟ ما كنت لأشكّ في ذلك! وأيّ نوع من المشاهير هم؟ ذاك أنّ المشاهير أنواعٌ شتّى كما تعلم.

- ثمّةَ بدءًا عالمٌ، أقصد ذاك الرّجل اليابس العود[1]؛ لقد اكتشف في ريف روما نوعًا جديدًا من السّحالي، نوعًا يتوفّر على فقرةٍ زائدةٍ في العمود الفقري مقارنة بغيرها من السّحالي، فعاد إلى المعهد ينشرُ اكتشافَه. إلا أنّ كشفَه عورض طويلًا، لكنّ موقف الرّجل اليابس ظلّ يتقوّى. لقد انتشر خبر الحيوان الفقريّ في المجتمع العلميّ العالمي؛ فحصل الرّجل على لقب فارس بجوقة الشّرف، ورُقِّيَ ضابطًا.

قال الكونت: - خيرٌ وبركة. هوذا لعمري وسامٌ مُنح بحكمة؛ وإذًا، إذا ما اكتشفَ صاحبنا فقرةً أخرى زائدة، هل سيرقّى إلى قائدٍ عسكريّ؟

أجابَه مورسيرف: - أمرٌ مرجَّح.

- والآخرُ هناك، الذي أتته الفكرةُ الفريدة، فكرة أن يتزيّا بلباسٍ أزرق مطرّز بالأخضر، من عساهُ يكون؟

- ليست فكرةُ اللّباس فكرتَه. لقد أرادت الجمهوريّةُ، مع ضعف

---

(1) يذهب جيلبير سيغو إلى أنّ هذا العالم مجرّد شخصية خيالية اخترعها المؤلّف، لأنّ العالم كوفييه الذي لطالما ظُنَّ أنّه المقصود، لتشابهه مع الشّخصية، قد توفي سنة 1832، أي سنواتٍ قبل حوادث الرّواية.

حسّها الفنيّ، كما تعلم، أن تصنع زيًا موحدًا لأكاديمييّها، فأوكلت إلى دافيد أمر تصميمه.

- آه! حقًا! الرّجلُ إذًا أكاديميّ؟

- منذ ثمانية أيّامٍ التحق بمجلس العلماء.

- وما مهنته، أقصد تخصّصه؟

- تخصّصه؟ أعتقد أنّه يغرز أشواكًا في رؤوس الأرانب، ويطعم الدّجاج نبات الفوة[1]، ويطعّم الحبل الشوكيّ للكلاب بالحيتان.

- وهو عضوٌ بأكاديمية العلوم لذلك؟

- كلّا، عضو الأكاديمية الفرنسية.

- لكن، ما علاقة الأكاديمية الفرنسية بكلّ هذا؟

- سأبيّن لك، يبدو أنّ...

- أنّ تجاربَهُ ستخطو بالعلم قطعًا خطوةً كبيرةً إلى الأمام؟

- كلاّ، وإنّما لأنّه يكتب بأسلوبٍ متين[2].

قال مونت كريستو: - لا شكّ في أنّ في ذلك ما يطري غايةَ الإطراء الاعتدادَ بالنّفس لدى الأرانب التي يغرز الأشواكَ في رؤوسها، والدّجاج الذي يصبغ عظامَه بالأحمر، والكلاب التي يطعّمُ نخاعها الشوكيّ.

أخذ ألبير يضحك.

سألَه الكونت: -والآخرُ هناك؟

- الآخرُ هناك؟

- نعم، الثالث.

---

(1) نبات صبغي.

(2) يرسم دوما هنا صورةً ساخرةً لبيير فلورنس (1867-1794) وهو عالم أحياء فرنسيّ، وكان بديلًا لكوفييه، وله أبحاث مهمة في علم الأعصاب. لكن ينبغي التّنبيه أنّ فلورنس لم يلتحق بالأكاديمية الفرنسية إلا سنة 1840، بينما حوادث روايتنا تقع سنة 1838.

- آه! صاحبُ الزيّ الأزرق الصّافي؟

- أجل.

- إنّه أحد زملاء الكونت، اعترض بقوّة على أن يكون ثمّة زيّ موحّد في مجلس الأقران[1]؛ وقد حصد نجاحًا بالغًا بهذا الصدد؛ كانت علاقته بالصحف الليبرالية سيّئة، لكن معارضته النّبيلة لرغبات القضاء صالحته مع تلك الصحف؛ ويُتداولُ الآن أنّه سيعيّنُ سفيرًا.

- وما المنجزات التي تمنحه نبلًا؟

- لقد ألّف عملين أو ثلاثةً في الأوبرا الهزلية، واشترى أربعة أو خمسة أسهم في صحيفة القرن، وصوّت للوزير ستّ مراتٍ أو سبعًا.

قال مونت كريستو ضاحكًا: - برافو! سيّدي الفيكونت أنت دليلٌ سياحيّ لطيف؛ والآن، هل ستسدي إليّ خدمةً؟

- أيّ خدمة؟

- لا تقدّمني إلى هؤلاء النّاس، وإن طلبوا التّعرّف إليّ، نبّهني إلى الأمر.

وفي تلك اللحظة أحسّ الكونت بيدٍ توضع على ذراعه، فاستدار؛ كان ذاك دانغلار.

قال الكونت: - آه! هذا أنت يا سيّدي البارون!

فأجابه دانغلار: - لمَ تدعوني بالبارون؟ أما علمت أنّي لست متعلّقًا بلَقبي. وهذا على خلافك أنت يا فيكونت ألبير، أليس كذلك؟

أجابه ألبير: - بلى، بكلّ تأكيد؛ فلو أنّي فقدت لقب فيكونت لصرتُ صفرَ اليدين، أمّا أنت فحتّى وإن تخلّيت عن لقب بارون، فستبقى مليونيرًا.

---

(1) مجلس الأقران، أو غرفة الأقران، كانت الهيئة العليا في البرلمان الفرنسيّ أثناء فترة ما بعد الجمهورية الأولى، والأيام المائة.

استأنف دانغلار الكلام: - وذاك لعمري أروع لقبٍ يمكن أن يحوزه المرء تحت حكم ملكية يوليو.

قال الكونت مونت كريستو: - للأسف، لا يحوز المرء لقب مليونير إلى الأبد، وذلك بخلاف لقب بارون، أو عضو مجلس فرنسا أو أكاديمي؛ ولنا مثلٌ في المليونيرَين فرانك وبولمان، من فرانكفورت، اللذين أعلنا إفلاسهما.

قال دانغلار شاحبًا: -حقًا؟

- صدقًا، لقد وصلني الخبر هذا المساء مع بريد؛ كان لي عندهم ما يقارب المليون؛ لكنّي إذ حُذِّرتُ في الوقت المناسب، فقد فرضت عليهما استعادة نقودي منذ شهرٍ تقريبًا.

استأنفَ دانغلار الكلام: - أوّاه! يا إلهي! لقد أرسلا يسحبان من عندي مائتي ألف فرنك.

- حسنًا إذًا، ها أنت ذا قد حُذِّرتَ! إنّ توقيعهما يساوي خمسًا بالمائة من قيمة ما يوقّعانه.

- أجل، لكنّي حُذّرتُ متأخّرًا، لقد أجزتُ توقيعهما.

قال مونت كريستو: - طيب! هي ذي إذًا مائتا ألف فرنك ذهبت...

قاطَعه دانغلار: - ششت! لا تتكلّم بهذه الأمور... (ثمّ أضاف وقد دنا من مونت كريستو) خصوصًا أمّام كافالكانتي الابن. (وإذ أضافَ المصرفيُّ تلك الكلمات، استدارَ مبتسمًا شطرَ الشّابّ).

كان مورسيرف قد ترك الكونت قاصدًا أمّه يحدّثها. وكذلك تركه دانغلار كي يحيّي كافالكانتي الابن. فألفى مونت كريستو نفسَه للحظةٍ وحيدًا.

على أنّ الحرارة كانت قد بدأت تصير مفرطةً. وكان الخدمُ يتنقّلون بين الغرف حاملين صوانيَ مملوءةً فواكه وكؤوسًا.

مسح مونت كريستو بمنديله وجهه المبلّل بالعرق؛ لكنّه تراجع حين مرّت الصّينيةُ من أمامه، فلم يأخذ شيئًا ينعش به نفسَه.

ولم تكن السيّدة دو مورسيرف تفلتُ بنظرتها مونت كريستو. رأت الصينية تمرّ من أمامه من دون أن يمسّها، بل وانتبهت حتّى إلى الحركة التي ندّت عنه لكي يتجنّبها.

قالت: - ألبير، هل لاحظتَ شيئًا؟

- ما هو يا أمّي؟

- لم يقبل الكونت أبدًا العشاء عند السيّد دو مورسيرف.

- أجل، لكنّه قبل الغداء عندي، بما أنّه عبر ذاك الغداء أعلن عن دخوله [هذا] العالم.

قالت مرسيدس هامسةً: - عندك ليس هو عند الكونت، ثمّ إنّي أراقبُه منذ حلّ ببيتنا.

- وإذًا؟

- وإذًا، لم يتناول بعد شيئًا.

- إنّ الكونت رجلٌ شديد الغموض.

ابتسمت مرسيدس بحزن. وقالت: - ادنُ منه، وعند أوّل صينيّة تقترب منكما صِرّ على دعوته.

- لمَ يا أمّي؟

- أسدينَّ إليّ معروفًا يا ألبير.

لثم ألبير يدَ أمّه، ثمّ ذهب يتّخذ موضعًا قربَ الكونت.

مرّت صينيةٌ أخرى مليئةٌ كسابقاتها؛ فرأت مرسيدس ألبير يلحّ على الكونت، لدرجة أنّه أخذ كأسًا وقدّمها إليه، لكنّ الكونت ظلّ يمتنع بضراوة.

عاد ألبير قربَ الكونتيسة أمّه؛ وكانت شاحبّةً غاية الشّحوب.

قالت: - أرأيت إذًا، ها قد رفض دعوتَك.

- أجل، لكن لمَ يشغلك ذلك؟

- أنت تعرف النّساء يا ألبير، إنّنا ننظرُ إلى الأمور على نحوٍ مغاير.

لكم وددت لو أنّ الكونت تناول عندي شيئًا، حتّى وإن كان حبّة رمّان. لكن لعلّه غير معتاد على التّقاليد الفرنسية، أو لعلّه يفضّل شيئًا آخر.

- كلّا، يا إلهي! لقد رأيتُه في إيطاليا يتناول من كلّ شيء؛ لا ريب في أنّه غير مرتاح هذا المساء.

أضافت الكونتيسة: - ثمّ، وهو الذي عاش طيلة حياته في مناخات رائعة، لا بدّ وأنّه أقلّ حساسية للحرارة من غيره؟

- لا أعتقد ذلك، لأنّه كان يشتكي من الاختناق، وسألني لمَ لم نفتح المناورَ ما دُمنا قد فتحنا النّوافذ؟

- في الواقع، هي طريقةٌ للتأكّد ممّا إذا لم يكن هذا الامتناع قرارًا مقصودًا.

غادرت الصالون. وبعد لحظاتٍ فُتحت المناور، وصار بالإمكان، عبر زهور الياسمين والظيّان التي تزين النّوافذ، رؤية الحديقة كلّها، وقد أنارتها القناديلُ، والعشاء المعروض تحت الخيمة.

أطلق الرّاقصون والرّاقصات، واللاعبون والمتحدّثون، جميعًا صيحة ابتهاج. كلّ تلك الرّئات الضيّقة تنفّست بمسرّةٍ دفء الهواء الذي اقتحم المكان.

وفي اللحظة نفسها عادت مرسيدس، أشدّ شحوبًا ممّا كانت حين خرجت، ولكنّ وجهها كانت عليه سيماء الصرامة التي تميّزها في بعض الظّروف. قصدت مباشرةً المجموعة التي كان زوجها مركزَها:

قالت: - لا تربط هؤلاء السّادة هنا يا سيّدي الكونت، فسيفضّلون، إن كانوا لا يلعبون، أن يتنفّسوا في الحديقة بدلًا من أن يختنقوا هنا.

قال جنرالٌ مسنٌّ، شديدُ اللّباقة، كان قد غنّى سنة 1809 نشيدَ «هيّا إلى سوريا![1]»:

---

(1) نشيد فرنسي أُلف حوالى سنة 1810، كان يرافق الضّباط في مختلف الاحتفالات إبّان حكم الإمبراطورية الثاني.

- آه! مدام، لن نذهب بمفردنا إلى الحديقة.
فأجابته مرسيدس: - حسناًإذًا، سأعطي المثال بنفسي.
ثمّ استدارت صوب مونت كريستو قائلةً:
- سيّدي الكونت، امنحني شرف تأبّط ذراعك.
كانت هذه الكلمات البسيطة كافيةً لكي يكاد الكونت يترنّح؛ نظرَ لحظةً إلى مرسيدس. كانت نظرةً خاطفةً كالبرق، لكنّها بدت للكونتيسة كأنّما دامت قرنًا، لفرط ما حمّلَ مونت كريستو من فِكَرٍ في نظرةٍ واحدة.
قدّم ذراعه إلى الكونتيسة؛ فاستندت إليها؛ ولكي نكون دقيقين، بالكاد مسّتها بيدها الصّغيرة، ونزلا معًا درجات السّلّم التي تحفّها زهور الردندرة والكاميليا.
خلفهما، وعبر السلم الآخر، انطلق إلى الحديقة نحو عشرين شخصًا تصحبهم عبارات الاستحسان الضّاجّة.

71

العيش والملح

دخلت السيّدة دو مورسيرف ومرافقُها تحت القبّة الشّجرية؛ وهذه القبّة عبارةٌ عن ممشى من أشجار الزيزفون يقود إلى دفيئة.

قالت: - إنّ الجوّ في الصالون حارٌ، أليس كذلك يا سيّدي الكونت؟

- بلى يا سيّدتي؛ وإنّ إقدامك على فتح الأبواب والمناور لفكرةٌ نيّرةٌ.

وإذ أتمّ كلماته تلك تنبّهَ الكونت إلى أنّ يد مرسيدس كانت ترتجف.

قال: - ولكنّك أنت، بهذا الفستان الخفيف، ومن دون أيّ شيءٍ يقي عنقك سوى وشاح الشّاش هذا، لعلّك تشعرين بالبرد؟

سألته الكونتيسة من دون أن تجيبَ عن سؤاله: - أوَتدري إلى أين أقودك؟

أجابها مونت كريستو: - كلاّ؛ وأنت ترين أنّني، كصديقٍ، لستُ أُبدي أيّ مقاومةٍ.

- إلى الدفيئة التي تراها هناك أقصى الممشى الذي نتبعه.

نظر الكونت إلى مرسيدس كأنّما يسائلها؛ لكنّها واصلت المسير من دون أن تنبس بكلمة، ومن جهته، لزم الكونت الصمت أيضًا.

بلغا المبنى، الممتلئ بصنوف الفواكه الرّائعة التي تصير ناضجةً منذ بداية يوليو، بفضل درجة الحرارة المحسوبة على الدّوام لكي تحلّ محلّ حرارة الشّمس الغائبة عن بلادنا أغلب الوقت.

تركت الكونتيسة ذراع مونت كريستو، وقصدت كرمةً تقطف منها عنقود عنب. وقالت بابتسامةٍ حزينةٍ إلى درجة أنّه كان بالإمكان رؤية

دمعتين تنبثقان عند طرفي عينيها: - تفضّل يا سيّدي، أعرف أنّ عنبنا لا يمكن أن يقارنَ بعنبكم في صقليّة أو قبرص، لكنّك ستكون متسامحًا مع شمس شمالنا الفقيرة.

انحنى الكونت وتراجع خطوةً إلى الوراء.

قالت مرسيدس بصوت راجف: - أترفضُ دعوتي؟

أجابها مونت كريستو: - مدام، أرجوك بلطفٍ أن تعذريني، فأنا لا أتناول العنب البتّة.

أفلتت مرسيدس العنقود باسمةً. وكانت ثمّة خوخةٌ رائعةٌ معلّقة على تعريشة مجاورة تدفئُها الدفيئةُ الاصطناعية، مثلما تدفئ كرمةَ العنب. اقتربت مرسيدس من الثمرة الطريّة وقطفتها.

قالت: - تفضّل هذه الخوخة إذًا.

لكن ندّت عن الكونت حركة الرّفض نفسها. فقالت بنبرة تختزن من الحزن ما يجعلنا نستشفّ أنّها تخفي أنينًا: - أوه! مرّةً أخرى! الحقّ أنّي مستاءة!

تلت المشهدَ لحظةُ صمتٍ طويلة؛ وانتهت الخوخة نهايةَ عنقود العنب ملقاةً على التراب.ثمّ استأنفت مرسيدس الكلام وهي تنظر إلى الكونت بعينين تكادان تتوسّلان: - سيّدي الكونت، ثمّة عادةٌ عربية بليغةٌ تعقدُ صداقةً أبديّةً بين من تشاركا الخبز والملح تحت سقفٍ واحد.

أجابها الكونت: - أعرفها يا سيّدتي، لكنّنا في فرنسا ولسنا في بلاد العرب، وفي فرنسا لم تعد ثمّة صداقاتٌ أبديّة بقدر ما لم يعد يتشَاركُ الخبزُ والملح.

قالت الكونتيسة مرتعدةً، وعيناها مسمّرتين في عيني مونت كريستو، وقد أمسكت ذراعه بيديها معًا في حركةٍ تكاد تكون متشنّجةً: - نحن صديقان، أليس كذلك؟

تدفّق الدّم في قلب الكونت الذي صار شاحبًا كالميت، ثمّ ما لبث

الدّم أن صعد من قلبه إلى حنجرته، وغزا خدّيه، وسبحت عيناه في الفراغ لحظاتٍ، مثل عيني رجلٍ أصابَه الذّهول.

أجابها: - بالتّأكيد نحن صديقان يا سيّدتي؛ ولمَ لا نكون كذلك؟

كانت النّبرة التي نطق بها الكونت بعيدةً جدًا عن تلك التي كانت تتمنّى السيّدة دو مورسيرف سماعها منه، حتّى إنّها استدارت لتطلق زفرةً أشبه ما تكون بالأنين.

قالت: - شكرًا.

ثمّ إنّها استأنفت المشيَ، فجالا معًا محيطَ الحديقة من دون أن ينبسا ولو بكلّمة واحدة.

فجأةً، وبعد ستّ دقائق من المشي الصّامت، استأنفت الكونتيسة الكلامَ: - سيّدي، هل صحيح أنّك رأيت الكثيرَ، وسافرتَ كثيرًا، وتألّمتَ كثيرًا؟

أجابها الكونت: - أجل يا سيّدتي، لقد تألّمتُ كثيرًا.

- لكنّك الآن سعيدٌ؟

- بلا ريب، لأنّ لا أحد يسمعني أشكو.

- وهل سعادتك الحالية تجعل روحك ألطفَ؟

- سعادتي الآنية تعادلُ بؤسيَ الماضي.

سألته الكونتيسة: - ألستَ متزوّجًا؟

أجابها منتفضًا: - أنا، متزوّج؟ من أخبرك بهذا؟

- لم يخبرني أحد، لكنّك كثيرًا ما شوهدتَ تصطحب إلى الأوبرا شابّةً جميلةً.

- إنّها جارية اشتريتُها من القسطنطينية يا سيّدتي؛ ابنةُ أميرٍ جعلتُ منها ابنتي، ولا تجمعني بها أيّ عاطفة غير تلك.

- أتعيشُ بمفردك إذًا؟

- أعيش بمفردي.

- ليس لك أختٌ... ولا ابن... ولا أب...؟

- ليس لي أحد.

- وكيف تقدر على العيش هكذا، من دون أيّ رابطةٍ تربطك إلى الحياة؟

- إنّها ليست غلطتي يا سيّدتي. في مالطة، أحببتُ شابّةً، وكنت سأتزوّجها، فلمّا اندلعت الحربُ انتزعتني منها وحملتني بعيدًا كدوّامةٍ. وكنت أحسبها تحبّني بما يكفي لتنتظرني، ولكي تظلّ وفيّةً إليّ حتّى وأنا في القبر. لكنّي حين رجعتُ وجدتُها قد تزوّجت. إنّها القصّةُ التي يجرّبُها كلّ رجلٍ عبرَ العشرين من عمره. لعلّ قلبي كان أوهنَ من قلوب غيري، فتألّمتُ أكثر ممّا يمكن أن يتألّموا لو أنّهم كانوا في موضعي، وهذا كلّ ما في الأمر.

توقّفت الكونتيسة لحظةً، كأنّما كانت تحتاج إلى التوقّف لتتنفّس، ثمّ قالت: - نعم، وقد ظلّ هذا الحبُّ مقيمًا في قلبك... فالمرء لا يحبُّ إلا مرّة واحدة... ولم ترَ تلك المرأة مرّةً أخرى؟

- أبدًا.

- أبدًا!

- لم أرجع أبدًا إلى البلاد التي هي فيها.

- تقصد مالطة؟

- نعم، مالطة.

- هي في مالطة إذًا؟

- أظنّ ذلك.

- وهل سامحتها على ما سببته لك من ألم؟

- هي، نعم سامحتُها.

- سامحتها وحدها؛ [أي إنّك] لا تزال تحقد على من فرّقوا بينكما؟

وقفت الكونتيسة وجهًا لوجهٍ مع مونت كريستو، وكانت لا تزال تحملُ في يديها قطعةً من عنقود العنب الزكيّ.

قالت: - خُذ.

أجابها الكونت وكأنّما لم يتحدّثا في الموضوع من قبل: - لا آكل العنب البتّة يا سيّدتي.

ألقت الكونتيسة بالعنقود في أقرب قطعةٍ عشبٍ كثيفة، بحركةٍ تنمّ عن اليأس.

غمغمت: - عنيد!

ظلّ الكونت على جموده، كأنّما ليس هو المعنيّ باللّوم.

وفي تلك اللّحظة كان ألبير يهرع إليهما راكضًا.

قال: - أوه! يا أمّي، مصيبةٌ عظيمة!

أجابته الكونتيسة متسائلة، كأنّما استيقظت من حلمٍ لتواجه الواقع:

- ماذا! ما الذي حدث؟ أَقلتَ مصيبة؟ الحقّ أنّه ينبغي أن تحدث مصائب.

- إنّ السيّد دو فيلفور هنا.

- وإذًا؟

- لقد أتى يأخذُ زوجته وابنته.

- ولِمَ؟

- لأنّ السيّدة الماركيزة دو سان مران وصلت إلى باريس، حاملةً خبر موت السيّد دو سان مران؛ لقد توفّيَ وهو يغادر مارسيليا في السّاعات الأولى. والسيّدة دو فيلفور، التي كانت في غاية الابتهاج قبل سماع الخبر، لم تستطع أن تفهم أو تصدّق المصيبة؛ أمّا الآنسة فالانتين، فما إن نطق والدُها أولى الكلمات، مع كلّ ما اتّخذه من احتياطاتٍ، حتّى خمّنت كلّ شيء: لقد نزل عليها الخبر كالصّاعقة، فهوت مغشيًّا عليها.

سألَ الكونتُ: - وما صلة القرابة بين السيّد دو سان مران والآنسة دو فيلفور؟

- إنّه جدّها لأمّها. وكان قادمًا يستعجل زواج فرانز وحفيدته.

- آه! حقًا!

- وها مشروع فرانز قد تأجّلَ. لمَ ليس السيّدُ دو سان مِران جدَّ الآنسة دانغلار؟

قالت السيّدة دو مورسيرف بصوتٍ يحمل نبرةَ عتابٍ لطيفة: - ألبير! يا ألبير! ما الذي تقولُه؟ آه! سيّدي الكونت، أنت الذّي يقدّرك أكبرَ التّقدير، قُل له إنّه قد أساءَ القولَ!

تقدّمت خطواتٍ إلى الأمام.

نظرَ إليها مونت كريستو بنظرةٍ غريبة وبتعبير في آنٍ حالم ومطبوع بإعجابٍ حنونٍ، حتّى إنّها تراجعت الخطوات التي كانت قد تقدّمتها.

وإذّاك أمسكت يده في الوقت نفسه الذي شدّت فيه على يد ابنها، وجمعتها معًا قائلةً: - نحنُ أصدقاءٌ، أليس كذلك؟

أجابها الكونت: - أوه! صديقُك يا سيّدتي، ذاك ما لست أدّعيه؛ إنّما أنا، في جميع الأحوال، خادمك الأمين.

ذهبت الكونتيسة وفي قلبها غصّة لا توصف؛ وقبل أن تكمل عشر خطواتٍ، رآها الكونت تمسح عينيها بمنديلها.

سأله ألبير دهشًا:

- ألست على وفاقٍ مع أمّي؟

أجابه الكونت: - بالعكس، ما دامت قد قالت أمامك إنّنا أصدقاء.

ثمّ عادا إلى الصالون الذي تركه منذ لحظةٍ كلّ من فالانتين والسيّد والسيّدة فيلفور.

ولا نحتاجُ القول إنّ موريل قد خرج في إثرهما.

72

السيّدة دو سان مِران

حدث منذ قليل مشهدٌ مفجعٌ في بيت السيّد دو فيلفور.

بعد انطلاق السيّدتين صوب الحفل الرّاقص، وبعدما أخفقت كلّ محاولات السيّدة دو فيلفور في أن تقنع زوجها بمرافقتها، غلق وكيلُ الملك، على عادته، باب مكتبه على نفسه رفقة كومةٍ من الملفات التي كان من الممكن أن تخيفَ أيّ شخص آخر غيره، لكنّها في الأوقات الاعتيادية بالكاد تكفي لإرضاء شهوته العظيمة في الاشتغال.

على أنّ الملفات كانت هذه المرّة مسألةً شكلية. ذاك أنّ فيلفور لم يغلق على نفسه المكتب ليشتغل، وإنّما ليفكّر؛ وإذ أغلق الباب، وأعطى أوامره بأن لا يزعجه أحدٌ اللهم إلا لأمرٍ جلل، جلسَ الرّجلُ على أريكته، وأخذ يعيد في ذاكرته شريطَ الحوادث التي، منذ سبعة أيّام أو ثمانية، تُفيض كأسَ أحزانه المظلمة وذكرياته المرّة.

فكان إذًا، بدلًا من أن ينقضّ على الملفات المكوَّمة أمامَه، أن فتح أحد أدراج مكتبه، فأدار قفلًا سرّيًا، وأخرج حزمةَ مذكّراته الشّخصية، تلك المخطوطات القيّمة التي أرشفَ فيها ورتّبَ، بأرقامٍ وحدَه يستطيعُ قراءَتها، أسماءَ كلّ أولئك الذي صاروا أعداءَه، على امتداد مساره السياسيّ، أو أعماله المالية، أو متابعاته القضائية، أو غرامياته السريّة.

وقد صار الرّقمُ اليومَ مهولًا، إلى درجة أنّ وكيل الملك بدأ يرتجف؛ ومع ذلك فإنّ كلّ تلك الأسماء، على قوّتها وخطورتها، دفعته غير ما مرّة إلى الابتسام، مثلما يبتسم المسافرُ الذي من أعلى قمّة الجبل ينظرُ،

تحت قدميه، إلى الطّرق الوعرة وأشفار الهاويات التي كان مضطرًا، لكي يصل، أن يزحفَ عبرها زحفًا مؤلمًا.

بعدما استعاد كلّ تلك الأسماء في ذاكرته بالتّفصيل، وبعدما قرأ جيّدًا وأعاد القراءة، ودقّق، وعلّق على لائحته، هزّ رأسَه. وغمغم: «كلّا، لا أحد من هؤلاء الأعداء يستطيع أن ينتظر بصبرٍ وأناةٍ حتّى يومنا هذا، ليسحقني اليومَ بواسطة هذا السرّ. يحدث أحيانًا، كما يقول هاملت، أن يخرج ضجيج الأشياء المدفونة عميقًا في الأرض، ومثل الأضواء الفوسفورية ينتشر بجنونٍ في الهواء، لكنّها مجرّد شظايا لهبٍ تضيءُ لحظةً ثمّ تذوي. لا بدّ أنّ الكورسيكي قد اعترف بالواقعة إلى راهبٍ، والرّاهبُ حكاها إلى غيره،حتّى تناهت إلى علم السيّد دو مونت كريستو، ولكي يتبيّنَ الأمر...».

وبعد هنيهة تأمّل، استأنف فيلفور: «لكن فيمَ يهمّه أن يتبيّن الأمرَ؟ أيّ فائدة سيجنيها السيّد دو مونت كريستو، السيّد تزاكّوني، ابن تاجر في مالطة، ومستغلّ منجم فضّة بثيساليا، الرّجل الذي يزور فرنسا لأوّل مرّة، أيّ فائدةٍ سيجنيها من أن يتبيّن حادثًا كهذا، حادثًا غامضًا، وملغزًا وبلا فائدة تذكر؟ من بين كلّ المعلومات غير المتجانسة التي جمعتها بخصوصه، المعلومات التي مدّنا بها الأب المدعو بوزوني، واللورد ويلمور، وجمعناها من هذا الصّديق وذاك العدو، ثمّةَ شيءٌ واحدٌ يبرز، واضحًا ودقيقًا، وجليًّا لعينيَّ: وهو أنّه في أيّ زمن، وفي أيّ وضع، وضمن أيّ ملابساتٍ، لا يمكن أن يكون قد حدث أدنى اتّصالٍ بيني وبينه».

لكنّ فيلفور كان يقول لنفسه هذا الكلام من دون أن يصدّق هو نفسه ما يقوله. وإنّ الأكثر إرعابًا بالنّسبة إليه ليس انكشاف السرّ، ذاك أنّ بوسعه الإنكار، لا بل وحتّى أن يردّ؛ فلم يكن يحفل حقًّا بعبارة «منا، منا، تقيل

وفرسين[1]» التي ظهرت بحروف من دم على الجدار، وإنّما ما كان يقلقه حقًا، هو معرفة الجسد الذي خطّت يدُه العبارةَ.

وفي اللّحظة التي كان يحاولُ فيها طمأنَة نفسه، والتي كان فيها المستقبلُ السيّاسيُّ الذي طالما تصوّره لنفسه، مدفوعًا بأحلامه الطّموحة، قد صار يتحلّلُ وسط الخوف من إيقاظِ عدوٍّ طالت رقدتُه، متحوّلًا إلى حلمِ عيشةٍ هانئة تقتصر على أفراح المنزل؛ قلنا في تلك اللّحظة تناهى صرير عربة في الحديقة؛ ثمّ سُمعت على السّلم خطوات شخصٍ مسنّ، ثمّ صرخاتٌ وعبارات أسف! من قبيل تلك التي يجيدُها الخدمُ حين يرغبون في أن يبرزوا ذواتهم عبر آلام أسيادهم.

هرع إلى باب مكتبه يفتح قفله، ثمّ ما لبث أن دخلت امرأةٌ عجوز، من دون أن يعلَن عن قدومها، واضعةً شالها على ذراعها، وحاملةً قبّعتها بيدها. شعرها الشائب يكشف عن جبين خشن كالعاج المصفرّ، وعيناها، اللتان حفر العمرُ عند جوانبهما تجاعيد عميقة، تكادان تختفيان تحت التورّم الذي سببته الدّموع.

قالت: - أوه! يا سيّدي؛ آه! يا سيّدي، مصيبةٌ وأي مصيبة! أنا أيضًا أموت! أوه! قطعًا أنا أيضًا أموت!

ثمّ، متهاويةً على الأريكة الأقرب من الباب، أطلقت العنانَ لصرخاتها.

كان الخدمُ، يقفون عند العتبة لا يجرؤون على التقدّم أبعدَ، ينظرون إلى خادم آل نوارتييه العجوز الذي، إذ سمع هذا الضّجيج من غرفة سيّده، هرع بدوره ووقف خلف الآخرين.

وقف فيلفور وركض صوب حماته، إذ كانت المرأة حماتَه نفسها.

سألها: - أوه! يا إلهي! ما الذي حدث يا سيّدتي؟ ما الذي قلَبَ كيانك هكذا؟ ولمَ لم يصحبك السيّد دو سان مران؟

---

(1) مشروحة في حاشيةٍ سابقة.

أجابته الماركيزة العجوز من دون أيّ تمهيد، أو تعبير، وبشيءٍ من الذّهول: - لقد توفي السيّد دو سان مران.

تراجع فيلفور خطوةً وضرب كفًا بكف.

تمتم قائلًا: - مات!...مات هكذا... فجأة؟

استأنفت السيّدة دو سان مران الكلام: - منذ ثمانية أيام، صعدنا أنا وهو العربة بعد العشاء. وكان السيّد دو سان مران عليلًا أيّامًا قبلها. ومع ذلك كانت فكرة أن يرى عزيزتنا فالانتين تمنحه الشّجاعة، وعلى الرّغم من آلامه أراد أن يأتي، وإذا به، بعدما صرنا على بعد ستّة فراسخ من مارسيليا، وعقب تناول أقراصه المعتادة غرق في نوم عميقٍ لدرجة أنّه بدا لي غير طبيعي؛ ومع ذلك، ظللت متردّدة في إيقاظه، إلى أن بدا لي أنّ وجهه يحمرُّ وأوداجه تضرب بقوّة أكثر من المعتاد. لكن، بما أنّ اللّيل كان قد حلّ، وما عدتُ أرى شيئًا، فقد تركته ينام؛ وما لبث أن أطلق صيحةً مكتومةً ومفجعة، كصيحة رجلٍ يعاني في أحلامه، وانقلب رأسُه بحركةٍ مباغتةٍ إلى الخلف. ناديت على الخادم، وأوقفت العربة، وصرتُ أنادي السيّد دو سان مران، وشمّمتُه قارورة أملاحي، لكن كان كلّ شيء قد انتهى، لقد مات، وكان عليّ أن أصل إلى آيكس جنبًا إلى جنب مع جثمانه.

ظلّ فيلفور ذاهلًا، فاغرًا فمه: - وطلبت طبيبًا بلا ريب؟

- ما إن وصلتُ؛ لكن كما قلت لك، كان الوقت قد فات.

- لا شكّ في ذلك؛ لكنّه على الأقل سيحدّد سبب وفاة الماركيز المسكين.

- يا إلهي! نعم يا سيّدي، ولقد أخبرني بسبب وفاته: سكتة دماغية مفاجئة.

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

- لطالما قال السيّد دو سان مران إنّه في حال مات بعيدًا عن باريس،

فرغبتُه هي أن ينقل إلى مدفن العائلة. لذا وضعتُه في تابوت رصاص، وها أنا أسبقُه بأيام.

قال فيلفور: - أوه! يا إلهي، أيّتها الأمّ المسكينة! أيّ طاقةٍ لك على الاضطلاع بكلّ هذه التّدابير، بعد صدمةٍ مماثلة، وفي سنّك هذه!

- لقد أعطاني الرّب القوّة لأمضي حتّى النّهاية؛ ثمّ إنّ الماركيز العزيز كان ليفعل لأجلي بالتّأكيد ما فعلت لأجله. صحيح أنّي منذ أن تركته هناك، أشعر بأنيّ كالمجنونة. لم أعد أستطيع البكاء؛ صحيحٌ ما يُقال عن أنّ النّساء في سنّي تجفُّ دموعهنّ؛ ومع ذلك يبدو لي أنّ الإنسان لفرط الألم لا بد وأن ينتهي به المطاف إلى البكاء. أين فالانتين يا سيّدي؟ فلأجلها كانت عودتُنا، أريد رؤية فالانتين.

فكّر فيلفور في أنّه سيكون أمرًا شنيعًا قولُ إنّ فالانتين في حفلٍ راقص، فاكتفى بأن قال إنّ حفيدته قد خرجت مع زوجة أبيها وإنّه سيستدعيها.

قالت العجوز: - حالًا، حالًا يا سيّدي، أتوسّل إليك.

أخذ فيلفور ذراع السيّدة دو سان مران تحت ذراعه، وقادها إلى جناحها.

قال: - ارتاحي يا أمّي.

ومع تلك الكلمات التي نطقها، رفعت الماركيزة رأسَها، فرأت هذا الرّجل الذي يذكّرها بالمرحومة ابنتها، ابنتها التي صارت تراها في حفيدتها فالانتين، فأوقفت عمرها على خدمتها؛ وشعرت بالأثر البليغ لكلمة «أمّي»، فتهاوت على ركبتيها دافنةً رأسها المهيبَ في أريكة.

عهد بها فيلفور إلى عناية النّساء، بينما صعد الشّيخ باروا مرعوبًا عند سيّده؛ ذاك أنّ لا شيءَ يرعب المسنّين أكثر من أن يترك الموت للحظةٍ جانبهم، فيصيبَ مسنًا آخرَ. ثمّ، بينما تصلّي السيّدة دو سان مران من كلّ قلبها، وهي لا تزال جاثية على ركبتيها، أرسلَ هو في طلب عربةٍ وأتى بنفسه يصطحب زوجته وابنته من بيت السيّدة دو مورسيرف إلى

بيته. وحين وقف بباب الصالون كان وجهه شاحبًا إلى درجه أنّ فالانتين ركضت إليه وهي تصيح: - أوه! يا أبي! أيّ مصيبة وقعت!

قال السيّد دو فيلفور: - لقد أتت جدّتك يا فالانتين.

سألته الفتاة وهي ترتعد: - وجدّي؟

لم يجب السيّد دو فيلفور ابنتَه إلا بأن مدّ إليها ذراعه. وقد فعل ذلك في الوقت المناسب، إذ ترنّحت فالانتين وأصابَها دوّارٌ. فهرعت السيّدة دو فيلفور إليها تسندها، وأعانت زوجها على اقتيادها حتّى العربة وهي تقول:

- هوَ ذا ما لم يكن بالحسبان! من كان ليتصوّرَه؟ بلى، هوَ ذا ما لم يكن بالحسبان!

ثمّ انصرفت العائلة المكلومة، ملقيةً على ما تبقّى من السّهرة سترَ حدادٍ أسود.

أسفل السلّم وجدت فالانتين باروا في انتظارها.

أسرّ إليها: - السيّدُ نوارتييه يرغب في لقائك هذا المساء.

فأجابته - قُل له إنّي غادرتُ مسرعةً لاستقبال جدّتي.

فبباعثٍ من رقّة روحها أدركت الشّابةُ أنّ من يحتاج إليها حقًا في تلك السّاعة هو السيّدةُ دو سان مِران.

وجدت فالانتين جدّتها على السّرير؛ ملاطفاتٌ صامتة، انقباضٌ موجعٌ في القلب، زفرات متقطّعة، دموع حارقةٌ، تلكمُ كانت التفاصيل الوحيدة التي يمكن أن نوردها بخصوص هذا اللّقاء الذي حضرتهُ السيّدة دو فيلفور متأبّطةً ذراع زوجها، وقد اكتسى وجهها إهابَ تبجيلٍ عظيمٍ، ظاهريًا على الأقل، للعجوز المكلومة.

بعد برهةٍ مالت على أذن زوجها قائلةً:- بعد إذنك، هل لي بالانسحاب، ذاك أنّ مرآي يبدو أنّه يزيد حماتك آلامًا فوق آلامها.

التقطت السيّدة دو سان مران كلامها، فوشوشت في أذن فالانتين:

- بلى، بلى، لتنصرف؛ لكن ابقي أنت، ابقي.

خرجت السيّدة دو فيلفور، وظلّت فالانتين وحدها قرب سرير جدّتها، إذ إنّ وكيل الملك، وقد أفزعه هذا الموت غير المتوقّع، قد لحق بزوجته.

وأثناء ذلك كلّه كان باروا قد قصد الشّيخ نوارتييه، وكان هذا قد سمع كلّ الضّجيج الذي ملأ المنزلَ، فأرسل، كما أسلفنا، الخادمَ المُسنَّ يتزوّد له بالأخبار.

وحين عودة الرّسول سأله المُرسلُ الشديد التيقّظ والذّكاء، فأجابَ:

– وا أسفًا! لقد وقعت مصيبة كبيرة: السيدة دو سان مران هنا، وزوجها مات.

لم تجمع قطّ بين السيّد دو سان مران ونوارتييه صداقةٌ فعلية، لكنّنا نعلم جيدًا الأثر التي يخلّفُه في نفس كلّ مُسِنٍّ خبرُ موتٍ مسنٍّ آخرَ.

أرخى نوارتييه رأسه على صدره، مثل رجلٍ منكوبٍ، أو رجلٍ يفكّر، ثمّ أغمض عينًا واحدةً.

سأله باروا: – الآنسة فالانتين؟

أشار إليه نوارتييه أن نعم.

– إنها في الحفل الراقص يا سيدي، ما دامت قد خرجت بكامل أناقتها.

أغمض نوارتييه مجدّدًا عينَه اليسرى.

– نعم، هل تريد رؤيتها؟

أشار إليه الشّيخُ بأنّ تلك كانت رغبته.

– حسنًا سيذهبون قطعًا لاستدعائها من بيت السيّدة دو مورسيرف؛ وسأنتظر لحظة عودتها لأقول لها أن تصعد عندك. أهذا ما تريده؟

أغمض المشلول عينه.

فكان أن تربّص باروا إذًا عودةَ فالانتين، وكما ذكرنا، أطلعها، حين عودتها، على رغبة جدّها. وبناءً على رغبة السيّد نوارتييه تلك، صعدت

فالانتين، بعد خروجها من عند السيّدة دو سان مران التي، مع كلّ ما أصابها من توتّر، سرعان ما استسلمت للتّعب وغرقت في نومٍ محموم. وقد وُضعت طوعَ يدها طاولةٌ عليها كأسٌ وقنينةُ عصير برتقالٍ، مشروبها المعتاد.

ثمّ، كما ذكرنا، كانت الشّابةُ قد تركت سرير الماركيزة لتصعد عند نوارتييه.

قبّلت فالانتين الشّيخ الذي كان ينظرُ إليها بحنانٍ إلى درجة أنّها أحسّت بأنّ عينيه ستفيضانِ مجدّدًا بالدّموع بعدما حسبت أنّ نبعها قد جفَّ.

ظلّ الشّيّخُ يلحّ بنظرته.

قالت فالانتين: - بلى، بلى، تريدُ أن تقول إنّ لي دومًا جدًّا طيّبًا، أليس كذلك؟

أشار إليها الشّيخُ إشارةً مفادُها أنّ مقصودَه كان بالفعل كذلك.

فاستأنفت فالانتين الكلامَ: - لحسن الحظّ، وإلا ماذا كان مصيري ليكون لولا ذلك؟

كانت السّاعةُ الواحدة صباحًا.

وقد أشار باروا الذي كان هو نفسه يرغب في أن يخلد للنّوم، إلى أنّه بعد ليلة موجعةٍ بهذا القدر، لا بدّ للجميع من راحة. لم يرد الشّيخ أن يقول إنّ راحتَه هي في أن يرى طفلتَه، إذ رغب في التخفيف عن فالانتين التي كان الألم والتّعب يضفيان عليها مسحةً من المعاناة.

وفي اليوم التالي، إذ دخلت فالانتين على جدّتها الغرفةَ، وجدتها على السّرير؛ لم تزايلها الحمّى؛ لا بل بالعكس، كان ثمّة لهيبٌ خامدٌ يلمع في عيني الماركيزة العجوز، وكان يبدو أنّها فريسة اهتياج عصبيّ حادّ.

صاحت فالانتين وقد عاينت كلّ أعراض الاهتياج تلكَ: - أوه! يا إلهي! هل ما زلت مريضةً يا جدّتي؟

أجابت السيّدةُ دو سان مِران: - كلّا يا بنيّتي، كلّا؛ إنّما كنت أنتظرك بفارغ الصّبر كي أُرسل في طلب والدك.

سألتها الشّابةُ قلقةً: - والدي؟

- نعم، أريد أن أكلّمَه في أمرٍ.

لم تشأ فالانتين أن تعترض على رغبة جدّتها، تلك الرّغبة التي كانت تجهلُ ما وراءها؛ وما هي إلا لحظةٌ حتّى دخل السيّد فيلفور.

طرقت الجدّة الموضوعِ مباشرةً، كأنّما تخشى ألاّ يمهلها الوقتُ:

- لقد كتبت لي تقول إنّ ثمّة في الأفقِ زواجًا يتحضّر لهذه الطّفلة؟

أجابها فيلفور: - أجل يا سيّدتي، وهو ليس مشروعًا فحسبًا وإنّما اتّفاقٌ.

- وصهرك يسمّى السيّد فرانز ديبيناي؟

- نعم يا سيّدتي.

- وهو ابن الجنرال ديبيناي الذي كان واحدًا منّا، وقُتل قبل عودة الغاصب من جزيرة إلبا بأيام؟

- نعم هو ذاك.

- ألا ينفر من الارتباط بحفيدة أحد اليعقوبيّين.

- لقد خمدت صراعاتنا المدنيّة لحسن الحظّ، يا أمّي، وكان السيّد ديبيناي تقريبًا طفلًا حين توفي والده؛ وبالكاد هو يعرف السيّد نوارتييه، فإن لم يقابله بمودّة، فإنّه سيقابله على الأقل بلامبالاة.

- أهوَ قرارٌ جيّدٌ؟

- من جميع النّواحي.

- والشّابُ...؟

- يتمتّع بتقدير عامّ.

- أهوَ لائقٌ؟

- إنّه من أكثر الرّجال الذين أعرفهم تميّزًا.

وطيلة هذه المحادثة ظلّت فالانتين صامتةً.

قالت السيّدة دو سان مران بعد ثوانٍ من التّفكير: - وإذًا يا سيّدي، عليك أن تعجّل بالأمر، إذ لم يعد لي من الوقت أعيشُه إلا قليلًا.

صاح السيّد دو فيلفور وفالانتين: - أنت، أنت أيّتها الجدّةُ الطيّبة!

واصلت الماركيزةُ الكلامَ: - أعلم ما أقول، عليكم إذًا أن تعجّلوا بالأمر، كي يكون، على الأقلّ، لهذه اليتيمة التي فقدت أمّها، جدّةٌ تبارك زواجَها. أنا آخر من بقيَ لها من جهة المرحومة رينيه التي سرعانَ ما نسيتَها يا سيّدي.

قال فيلفور: - آه! لقد نسيتِ يا سيّدتي أنّه كان عليّ إيجادُ أمّ لهذه الطّفلة المسكينة، بعدما فقدت أمّها.

- إنّ زوجةَ الأب لا تحلّ أبدًا محلّ الأمّ، يا سيّدي، لكن ليس هذا موضوعَنا، وإنّما يتعلّق الأمر بفالانتين؛ فلنترك إذًا الموتى في سلام.

وقد قيل كلّ ما سبق بدرجةٍ من الطّلاقة وبنبرةٍ تشيان بأنّ ثمّة في هذه المحادثة ما يشبه إرهاصات هذيان.

قال فيلفور: - ستكون مشيئتُك يا سيّدتي، خاصّةً وأنّ رغبتك توافق رغبتي؛ وما إن يصل السيّد ديبيناي إلى باريس...

قالت فالانتين: - لكن يا جدّتي، ينبغي مراعاة الحداد الذي للتوّ بدأ... أتريدين إذًا أن نقيم حفلَ زفاف في أجواء بهذه الدّرجة من الحزن؟

قاطعتها الجدّةُ بحدّةٍ: - أي بنيّتي، لنتجنّب تلك الأسباب التّافهة التي تمنع الأرواح الضّعيفة من أن تبنيَ دعائمَ مستقبلها. أنا أيضًا تزوّجت أثناء احتضار أمّي، ولم أرَ في ذلك ما يمنع سعادتي.

استأنف فيلفور الكلام: - مرّةً أخرى تأتين على سيرة الموت يا سيّدتي!

- أعود! وأعيد!... أقول لكم إنّي سأموت، فافهموا! وعليه، قبل أن أموت أريد أن أرى صهري، أريد أن آمره بإسعاد حفيدتي؛ وأريد أن أقرأ في عينيه ما إذا كان ينوي إطاعتي؛ (ثمّ واصلت بتعبير مرعبٍ) أريد أن

أعرِفه بنفسي، كي آتي إليه من وراء قبري في حال ما إذا لم يكن كما ينبغي له أن يكون.

قال فيلفور: - سيّدتي، ينبغي أن تطردي من ذهنك هذه الأفكار المغالية التي تكاد تبلغ الجنونَ. إنّ الموتى ما إن يوضعوا في قبورهم حتّى يرقدوا فيها رقدةً أبديّةً.

قالت فالانتين: - أو! أجل يا جدّتي، أجل، اهدئي!

- أمّا أنا يا سيّدي، فأقول لك إنّ الأمر على خلاف ما تعتقده تمامًا. فهذه اللّيلة نمتُ نومًا رهيبًا؛ إذ كنت أراني نائمةً وكأنّما روحي، بطريقةٍ ما، تحوم حول جسدي، وعيناي اللّتان كنت أجتهد في فتحهما، كانتا تنغلقان رغمًا عنّي؛ ومع ذلك أعلم أنّ هذا الأمر قد يبدو مستحيلًا، خاصّة بالنّسبة إليك أنت يا سيّدي؛ والحالُ أنّي رأيتُ، وعيناي مغمضتين، في الموضع نفسه حيث تقفُ أنت الآن، هيئةً بيضاءَ آتيةً من الجهة حيثُ الباب المفضي إلى مخدع السيّدة دو فيلفور؛ هيئةً بيضاءَ دخلت من دون ضجيج.

ندّت عن فالانتين صيحة.

قال فيلفور: - ذاك من أثر الحمّى التي كانت ترجّك.

- لك أن تشكّ كما شئت؛ أمّا أنا فواثقةٌ ممّا أقولُه: لقد رأيتُ هيئةً بيضاء؛ وكأنّما الربّ، مخافةَ أن أشكّك في شهادة حاسّة واحدةٍ من حواسي، جعلني أسمع كأسي تتحرّك، انظُر، إنّها تلك الكأس نفسها هناك على الطّاولة.

- أوه! أيّتها الجدّة الطّيبة، لم يكن ذلك إلا حلمًا.

- لم يكن يشبه الحلمَ، بحيث إنّي مددتُ يدي إلى الجرس، فاختفت لفعلي الهيئةُ. ثمّ دخلت الخادمة حاملةً ضوءًا. إنّ الأشباح لا تظهر إلا لمن ينبغي له رؤيتُها: كانت تلك روح زوجي. وعليه، إذا ما كانت روحُ زوجي قد عادت لتناديني، ما المانع في أن تعود روحي للدّفاع عن ابنتي؟ إنّ الرّابط بيني وبينها أكثر مباشرةً على ما أحسبُ.

قال فيلفور وقد اهتزّ رغمًا عنه حتّى أحشائه: - أوه! يا سيّدتي، لا تشجّعي هذه الأفكار الكئيبة؛ ستعيشين معنا، ستعيشين طويلًا، ستعيشين سعيدةً، محبوبةً، مكرّمة، وسوف نُنسِيكِ...

قالت الماركيزة: - أبدًا! أبدًا! أبدًا! متى موعدُ عودة السيّد ديبيناي؟

- إنّنا نترقّبُ وصولَه في أيّ لحظة.

- حسنًا؛ ما إن يصل أعلموني. لنعجّل بالأمر، لنعجّل به. ثمّ إنّي أريد أن أراجع موثّقًا لأضمن انتقال كامل أملاكنا إلى فالانتين.

همست فالانتين وهي تطبع شفتيها على جبين الجدّة الملتهب: - أوه! يا جدّتي تريدين لي الموتَ إذًا؟ يا إلهي! إنّك محمومة. ليس موثقًا من يلزمُك وإنّما طبيب!

أجابت هازّةً كتفيها: - طبيبًا؟ لست مريضةً، وإنّما أنا فقط عطشانة، وهذا كلّ ما في الأمر.

- ما الذي ترغبين بشربه يا جدّتي الطّيبة؟

- ما أشربه دائمًا، كما تعلمين: عصير البرتقال. إنّ كأسيَ هناك على تلك الطّاولة، ناوليني إيّاها يا فالانتين.

صبّت فالانتين عصير البرتقال من القارورة في الكأس وحملتها بشيءٍ من الوجل، ثمّ ناولتها الجدّةَ، إذ كانت تلك الكأسُ نفسُها الكأسَ التي تدّعي الجدّةُ أنّ الشّبح قد مسّها.

عبّت الماركيزةُ الكأس جرعةً واحدة. ثمّ استدارت على وسادتها وهي تردّد: «الموثّق! الموثّق!».

انصرف السيّد فيلفور. وجلست فالانتين قرب سرير جدّتها.

كانت الطّفلةُ المسكينة تبدو هي نفسها بحاجةٍ إلى الطّبيب الذي أوصت به جدّتها. حُمرةٌ أشبه شيءٍ بشعلةٍ كانت تلهب وجنتيها، وكان إيقاع تنفّسها قصيرًا وسريعًا، ونبضها يدقّ كأنّما هي محمومة. لقد كانت الصبيّة المسكينة تفكّر في اليأس الذي سيتملّك ماكسيميليان حين يعلم

بأنّ السيّدة دو سان مران، بدلًا من أن تكون حليفةً له، قد تصرّفت، من دون أن تعلم، كعدوٍّ له.

وغير ما مرّةٍ فكّرت فالانتين في أن تخبر جدّتها بكلّ شيء، وما كانت لتتردّد لحظةً لو أنّ ماكسيميليان موريل كان يسمّى ألبير دو مورسيرف أو راوول دو شاتو رونو؛ لكنّ موريل كان من عامّة الشّعب، وفالانتين تعرف أيّ احتقار تحمله الماركيزة المتغطرسة لكلّ من لا ينتمي إلى طبقتها.

كان سرّها إذًا، كلّما عنّ له أن ينكشف، يندفن في قلبها بباعثٍ من ذاك اليقين المحزن، يقين أنّها ستفصح عن سرّها عبثًا، وأنّه ما إن ينكشف أمام أبيها وجدّتها حتّى يضيع كلّ شيء.

مرّت ساعتان على ذاك النّحو. السيّدة دو سان مران ترقد في رقاد محموم ومتوتّر.

ثمّ أُعلنَ عن وصول الموثّق.

ومع أنّ الإعلان تمّ بصوتٍ خفيضٍ إلا أنّه جعل السيّدة دو سان مران ترفع رأسها عن وسادتها. وقالت: - أهوَ الموثّق؟ إليَّ به، إليّ به!

كان الموثّق واقفًا بالباب، فدخل.

قالت السيّدة دو سان مران: - انصرفي يا فالانتين واتركيني بمفردي مع السيّد.

- لكنّ يا أمّاه...

- هيا، انصرفي.

قبّلت الشّابةُ جدّتها على الجبين، ثمّ انصرفت ومنديلُها على عينها. عند الباب وجدت الخادمَ، فأخبرها أنّ الطّبيب ينتظرها بالصالة. نزلت فالانتين الدرج مسرعةً. كان الطّبيب صديقًا للعائلة، وفي الوقت نفسه أحد أمهر رجال ذاك العصر. وكان يمحض فالانتين كبيرَ حبٍّ، خاصّة أنّها على يديه أبصرت النّور أوّلَ مرّة. وقد كانت له ابنةٌ في سنّ الآنسة دو

فيلفور تقريبًا، لكنّه أنجبها من أمّ مسلولة؛ فكانت حياتُه خوفًا متواصلًا على ابنته.

قالت فالانتين: - أوه! سيّدي العزيز دافرينِيي، كنّا ننتظرك بفارغ الصّبر. لكن أخبرني أوّلًا، كيف حالُ مادلين وأنطوانيت؟

وكانت مادلين ابنةَ السيّد دافرينيي، وأنطوانيت ابنةَ أخيه.

ابتسمَ السيّد دافرينيي بحزن.

قال: - أنطوانيت بأفضل حالٍ؛ أمّا مادلين، فلا بأسَ. لكن هل أرسلت في طلبي يا بنيّتي؟ ليس المريضُ أباك ولا السيّدة دو فيلفور؟ أمّا نحن، فعلى الرّغم من أنّه من الواضح أنّنا لا نستطيع التّخلّص من أعصابنا، فإنّي أحسبُ أنّك لست بحاجةٍ إليّ إلا في أن أنصحك بأن لا تجعلي خيالنا يجنح بعيدًا؟

احمرّت فالانتين؛ لقد كان السيّد دافرينيي يدفع بعلم التخمين حتّى تخوم الإعجاز، إذ كان واحدًا من أولئك الأطباء الذين يداوون دائمًا الجسدَ عن طريق النّفس.

قالت: - كلّا، لقد استدعيتك لأجل جدّتي المسكينة. أنت تعرفُ المصيبة التي حقّت بنا، أليس كذلك؟

- لا علم لي بشيء.

قالت فالانتين وهي تحبس دموعها: - واأسفًا! لقد توفي جدّي.

- السيّد دو سان مران؟

- أجل.

- هكذا، فجأة؟

- بسكتةٍ دماغية مفاجئةٍ.

ردّد الطّبيب: - بسكتةٍ دماغية؟

- نعم، بحيث إنّ جدّتي المسكينة قد استولت عليها فكرةُ أنّ زوجها،

الذي لم يفارقها يومًا، يناديها، وأنّها ستلبّي نداءه قريبًا. أوه! يا سيّدي دافريني، إنّي أوصيك حقًا بجدّتي!

- أين هي؟

- في غرفتها مع الموثّق.

- والسيّد نوارتييه؟

- كما هو دائمًا، حصافةُ عقلٍ مذهلة، لكن مع سكونِ الحركةِ والخرس الدّائمين.

- ونفس الحبّ الذي يحمله لك يا بنيّتي، أليس كذلك؟

أجابت فالانتين متنهّدة: - أجل، إنّه يحبّني حقّ المحبّة، هو.

- ومن ذا الذي لا يحبّك؟

ابتسمت فالانتين بحزن.

- وبماذا تشعر جدّتك؟

- إنّها تدّعي أنّ روحها هذا الصباح، أثناء نومها، رفرفت فوق جسدها، وأخذت تراقبها وهي نائمة. إنّها في حالِ الهذيان؛ تدّعي أنّها رأت شبحًا يدخل إلى غرفتها وسمعت الضّجيج الذي أحدثه بينما يحرّك كأسَها.

قال الطّبيب: - غريبٌ، لم أكن أعلم أنّ السيّدة دو سان مران تأتيها تهيّؤاتٌ.

- إنّها المرّة الأولى التي أراها فيها على هذه الحال، وقد أرعبتني أشدّ الرّعب هذا الصّباح يا سيّدي، لقد حسبتها جُنّت؛ ووالدي، وأنت تعرف قطعًا ما يميّزه من رجاحة عقلٍ، هو أيضًا قد بدا متأثّرًا أشدّ التأثّر.

قال السيّد دافريني: - سوف نرى كلّ ذلك؛ إنّ ما تقولينه لي الآن يبدو لي غريبًا.

نزل الموثّق؛ فأتوا يُعلمون فالانتين أنّ جدّتها بمفردها.

قالت للطّبيب: - تفضّل، اصعد.

- وأنت؟

- أوه! أنا لا أجرؤ، فقد منعتني من أن أرسل في طلبك. ثمّ إنّي، كما تقول، أنا نفسي مضطربةٌ ومحمومة؛ سأقوم إذًا بجولةٍ في الحديقة كي أستعيد هدوئي.

شدّ الطبيب على يد فالانتين، وبينما هو يصعد درجات السلّم إلى غرفة الجدّة، كانت الصبيّةُ تنزل درجات العتبة.

ولسنا بحاجة إلى القول أيّ جزءٍ من الحديقة كان المكان المفضّل لنزهة فالانتين. بعدما تدور دورتين أو ثلاثًا على العشب الذي يحوط المنزل، وبعدما تقطفُ وردةً تضعها في حزامها أو شعرها، كانت تتوغّل في الممشى الظّليل الذي يقود إلى المقعد، ثمّ من المقعد إلى السياج.

وعلى عادتها قامت فالانتين هذه المرّة بدورتين أو ثلاث وسط الأزهار، لكن من دون أن تقطف منها زهرةً: كان الحِداد الذي يقيم في قلبها، والذي لم يمتدّ بعد إلى كيانها كلّه، يمنعها من أن تتزيّن بتلك الزينة البسيطة؛ ثمّ انطلقت صوبَ ممشاها. وبقدر ما كانت تتقدّم كان يخيّل إليها أنّها تسمع صوتًا يهمس باسمها.

توقّفت مندهشةً.

وإذاك بلغ أذنها الصوّتُ أكثرَ وضوحًا، فتعرّفت فيه صوتَ ماكسيميليان.

73

الوعدُ

كان ذاك بالفعل موريل، الذي منذ اللّيلة السّابقة وهو لا يكاد يحيا. فقد كان حدس، بتلك الغريزة التي يشترك فيها العشّاقُ والأمّهات، أنّ حدثًا ما يتعلق بعشقه لفالانتين، سيقعُ في بيت فيلفور عقب عودة السيّدة دو سان مران وموت الماركيز. وكما سنرى، لقد تحقّقت توقّعاته، ولم يكن مجرّد قلقٍ بسيطٍ ذاك الذي كان يقودُهُ ذاهلًا مرتجفًا إلى سياج الكستناء.

غير أنّ فالانتين لم تكن على علم بانتظار موريل لها، إذ لم تكن تلك ساعة مجيئه المعتادة، فكانت محض صدفةٍ، أو إن شئنا تعبيرًا أفضل، كانت منّة سعيدةً، هي ما قادها إلى الحديقة. حين بدت، ناداها موريل؛ فركضت إلى السّياج.

قالت: - أنت! في هذه السّاعة!

أجابها موريل: - أجل يا صديقتي المسكينة، لقد أتيت أستقصي وأحمل أخبارًا سيّئة.

قالت فالانتين: - هو إذًا بيتُ الشّقاء. هيا أفصح يا ماكسيميليان. وإن كانت حصيلة الشّقاء، في الواقع، حقًا كافيةً.

قال موريل وهو يحاول أن يسيطر على انفعالاته كي يكلّمها كما ينبغي: - أصغي إليّ جيّدًا، أرجوك يا عزيزتي فالانتين، لأنّ كلّ ما سأقوله لك جلَلٌ. متى ينوون تزويجَك؟

قالت له بدورها: - أصغِ إليّ أنت يا ماكسيميليان. لن أخفي عنك

شيئًا. صباح اليوم أثاروا مسألة زواجي، وجدّتي التي كنت اعتمد عليها، كما يعتمد المرء على سندٍ لن يتخلّى عنه، جدّتي هذه، لم تعلن تأييدها هذا الزّواج فحسب، وإنّما أبدت رغبتها فيه إلى درجة أنّ ما صار يؤخّره الآن هو فقط غيابُ السيّد ديبيناي، وما إن يعود حتّى يتمّ التّوقيع على العقد.

شقَّت صدرَ الشّاب زفرةٌ أليمة، ونظرَ إلى الصّبيّة نظرةً حزينةً طويلةً.

استأنف الكلامَ بصوتٍ خفيض: - واأسفًا! ما أفظع أن يسمع المرءُ المرأةَ التي يحبّها تقول بهدوء: «إنّ موعد عذابك قد حُدّدَ، ولم تعد تفصلنا عن ذلك إلاّ ساعاتٌ إذًا»؛ لكن لا أهميّة لذلك، كذلك ينبغي أن تكون الأمور، ومن جهتي، لن أُبديَ أيّ اعتراض. حسنًا إذًا، بما أنّك تقولين إنّكم لا تنتظرون إلا وصول السيّد ديبيناي لتوقّعوا العقد، وبأنّك ستصيرين له غداةَ وصوله، فإنّ غدًا هو موعد زواجك بالسيّد ديبيناي، لأنّه قد وصل صباح اليوم إلى باريس.

أطلقت فالانتين صيحةً.

قال موريل: - لقد كنت عند الكونت مونت كريستو، منذ ساعة، وكنا نتحدّث، هو يحدّثني عن ألم عائلتك، وأنا عن ألمك؛ وإذا بعربةٍ تتوقّف فجأةً في ساحة المنزل. وحتّى تلك اللّحظة لم أكن أومن بنذر الشؤم يا فالانتين؛ لكن الآن صار لزامًا عليّ الإيمان بها. مع صوت تلك العربة أخذتني رجفة. ثمّ ما لبثتُ أن سمعت خطواتٍ على السلّم. ولم تُرعب خطواتُ القائدِ المدويةُ دون خوانَ بقدر ما أرعبتني أنا تلك الخطوات. ثمّ أخيرًا انفتح البابُ؛ ودخل ألبير دو مورسيرف أوّلًا، وكدت أشكّ في نفسي، كدت أحسب أنّي أخطأتُ، وإذا بشابٍ آخرَ يدخلُ في إثره، فيصيح الكونت: «آه! سيّدي البارون فرانز ديبيناي!»، فاستدعيتُ كلّ ما في قلبي من شجاعةٍ لأتمكّن من السّيطرة على نفسي. ولربّما شحبت، لربّما ارتجفت، لكن المؤكّد هو أنّي حافظتُ على ابتسامتي. لكن ما هي

إلا خمس دقائق حتّى خرجتُ من دون أن أكون قد أنصتُّ إلى كلمة ممّا دار أثناء تلك الدّقائق الخمس؛ كنت محطّمًا.

غمغمت فالانتين: - مسكين يا ماكسيميليان!

- وها أنا ذا يا فالانتين. والآن، أجيبيني مثل رجلٍ في إجابتك موته أو حياتُه. ما الذي تنوين فعلَه؟

أحنت فالانتين رأسها؛ كانت مرهقة.

قال موريل: - اسمعي، ليست هذه المرّة الأولى التي تفكّرين فيها في الوضع الذي بلغناه. إنّها وضعيّةٌ خطيرة، وضعيةٌ كاسحة، وضعية جللٌ. ولا أحسب أنّ الوقتَ وقتُ استسلامٍ لألم عقيم. ذاك أمرٌ جيّدٌ بالنّسبة إلى من أراد أن يتألّم مستسلمًا، ويشربَ دمعه ما طاب له. ثمّة من النّاس من هم كذلك، ولا شكّ في أنّ الربّ سيكافئهم في السّماء على خنوعهم في الأرض؛ غير أنّ من يأنسُ في نفسه الإرادة على النّضال، لا يضيّعُ وقتًا ثمينًا، ويرجعُ فورًا للقدر اللّطمةَ التي وجّهها إليه. هل تريدين النّضال ضدّ سوء القدر يا فالانتين؟ قولي، فإنّما هذا ما أتيت أسألك إيّاه.

انتفضت فالانتين وأخذت تنظر إلى موريل بعينين مرعوبتين. ذلك أنّ فكرة مقاومة أبيها، وجدّتها، وكلّ عائلتها، لم تخطر ببالها حتّى.

سألتهُ: - ما الذي تطلبه منّي يا ماكسيميليان؟ ما الذي تعنيه بالنّضال؟ أوه! لا تنطق محرّمًا! ماذا! تنتظر منّي أنا أن أعصيَ أمرَ أبي، وأعارض رغبة جدّتي المحتضرة! مستحيل!

ندّت عن موريل حركة، واستأنفت هي كلامها.

- إنّ قلبك لمن النّبل، يا عزيزي ماكسيميليان، بحيث تفهمُني خير فهم، إلى درجة أنّك تلوذ بالصّمت. أن أعصيَ والدي أنا! ليجنّبني الربُّ ذلك! كلّا، كلّا؛ إنّما أحافظُ على رباطة جأشي كلّها كي اشربَ دمعي، مثلما قلتَ. أمّا أن أهين والدي، أو أعكّر آخرَ لحظات حياة جدّتي، فلا!

قال موريل ببرود واضح: - أنت محقّة.

فأجابته فالانتين وقد جرحها: - بأيّ نبرةٍ تقول ذلك، يا إلهي!
- أقولها بنبرة رجلٍ يقدّرك يا آنسة.
صاحت فالانتين: - آنسة! أوه! يا للأنانيّ! يراني على حافة اليأسِ ويتعمّد ألّا يفهمني.
- إنّك مخطئةٌ، فعلى العكس ممّا تظنّين، أنا أفهمك حقّ الفهم. لا تريدين أن تعارضي السيّد دو فيلفور ولا تريدين أن تعصي الماركيزة، وغدًا ستوقّعين على العقد الذي سيربطك بزوجك.
- ويا إلهي! هل لي أن أفعل غير ذلك؟
أجابها موريل الذي صار صوته المخنوق وكفّاه المقبوضتان تشي بتصاعد سخطه: - لا ينبغي أن تسأليني أنا يا آنسة، لأنّي لن أكون حكَمًا نزيهًا في هذه المسألة، وأنانيتي ستعميني عن رؤية الحقّ.
- وما الذي كنت لتقترح عليّ، يا موريل، لو وجدتني على استعداد لقبول اقتراحك؟ هيا أخبرني، إذ لا يكفي أن يقول لك المرء إنّك مخطئٌ، وإنّما ينبغي أن يقرن كلامه بالنّصح.
- أَجادةٌ أنت في قولك يا فالانتين، وعليّ أن أقدّم لك النّصح؟ قولي.
- بالتّأكيد يا عزيزي ماكسيميليان؛ فإن كانت نصيحتُك خيرًا اتّبعتُها؛ فأنت تعرف أنّي مخلصةٌ لمشاعرك.
قال موريل: - فالانتين، هاتِ يدك علامةً على أنّك غفرت لي غضبي؛ ذاك أنّ رأسي مضطرب، ومنذ ساعةٍ تعبر ذهني واحدةً إثر أخرى الأفكارُ الأغربُ. آه! إن رفضت نصيحتي...!
- حسنًا، أيّ نصيحةٍ هي؟
- هي ذي يا فالانتين.
رفعت الصبيّة عينيها إلى السّماء وأطلقت زفرةً. واستأنف الشّابُ كلامه:
- أنا حرٌّ، وغنيٌّ بما يكفي لنعيش معًا؛ وأقسم لك بأنّي لن أضع شفتيَّ على جبينك حتّى تصيرين زوجتي.

قالت الصبيّةُ: - إنّ كلامك يجعلني أرتعد.

واصل موريل: - اتبعيني؛ سوف آخذك عند أختي، التي تستحقّ شرف أن تكون أختك؛ ومن هناك نسافر إلى مدينة الجزائر أو إلى إنجلترا، أو أمريكا إذا لم تكوني ترغبين في أن نلوذ بإقليم من الأقاليم، منتظرين أن يتمكّن أصدقاؤنا من التغلّب على عناد عائلتك.

هزّت فالانتين رأسها قائلةً: - كنت أتوقّع هذا الكلام يا ماكسيميليان؛ إنّها نصيحةٌ غير معقولة، وسأكون أكثر لا معقولية منك إن لم أوقفك حالًا بكلمةٍ واحدة: مستحيل، مستحيل يا موريل.

قال موريل متجهّما: - ستخضعين إذًا لمشيئة القدر من دون أيّ محاولة للمقاومة.

- أجل، حتّى لو كلّفني الأمر حياتي!

- حسنا يا فالانتين، لا أملك مرّة أخرى إلا أن أقول إنّك محقّة. والحقّ أنّي أنا الأحمق، وستشاطرينني الرّأي في أنّ العاطفةَ تعمي أشدّ العقول حصافةً. شكرًا لك إذًا أنت، يا من تعقلين من دون انقيادٍ إلى عاطفة. مفهوم إذًا؛ غدًا ستكونين موعودة بشكلٍ لا رجعة فيه للسيّد فرانز ديبيناي؛ موعودة له ليس عبر ذاك الإجراء الشكليّ الذي اختُرِع للَمّ أجزاء المسرحية، والذي نسمّيه عقدًا، وإنّما عبر إرادتك الخاصّة.

قالت فالانتين: - مرّة أخرى تدفعني نحو اليأس يا ماكسيميليان، مرّة أخرى تدير السّكين في الجرح! ماذا كنت لتفعل أنت لو أنّ أختك فعلت ما تنصحني به؟

أجابها موريل بابتسامةٍ مرّة: - آنستي، أنا أنانيٌّ كما قلتِ، ولأنّني أنانيّ، فأنا لا أفكّر فيما يمكن أن يفعله الآخرون لو كانوا مكاني، وإنّما فكري منصبٌّ في ما أنوي أن أفعله أنا. أظنُّ أنّي أعرفك منذ سنةٍ، ومنذ اليوم الذي عرفتك فيه جعلت سعادتي كلّها متوقّفة على حبّك، حتّى أتى اليوم الذي قلتِ لي فيه إنّك تحبينني؛ ومنذ ذلك اليوم جعلت مستقبلي

كلّه رهن يديك: تلكم كانت حياتي. لم أعد أعتقد اليوم بأيّ شيء، وإنّما فقط أقول إنّ الحظّ قد قلب لي ظهره؛ كنتُ أحسبني ملكتُ السّماء، وها قد خسرتُ كلّ شيء. يحدث على الدّوام أن يخسر مقامرٌ كلّ شيء، يخسر ليس فقط ما يملكه، وإنّما أيضًا ما لا يملكه.

نطق موريل تلك الكلمات بهدوءٍ تامٍّ؛ نظرت إليه فالانتين لحظةً بعينيها الفاحصتين، محاولةً في الآن نفسه أن تمنع عينيه هو من أن ينفذا إلى دوامة الاضطراب الذي يعتمل في قلبها.

سألته فالانتين: - لكن أخبرني، ما أنت عازمٌ على فعله.

- سيكون لي شرف أن أقول لك وداعًا يا آنستي، مُشهِدًا الرّبَّ السّميع لكلامي والمطّلع على خفايا قلبي، على أنّي أرجو لك حياةً هنيّة وسعيدةً، وممتلئةً بحيث لا يبقى فيها من موضعٍ لذكرايَ.

غمغمت فالانتين: - آه!

ثمّ قال موريل وهو ينحني تحيّةً: - الوداع، الوداع يا فالانتين.

صاحت الصّبية وهي تمدّ يدها عبر السّياج وتمسك بالشّاب من ثيابه، موقنةً أنّ هدوء العاشق الذي يبديه، على ما يعتمل في نفسه من اضطرابٍ، لا يمكن أن يكون حقيقةً: - إلى أين أنت ذاهب؟ إلى أين؟

- ذاهبٌ حيث أحرص على ألّا أحدث اضطرابًا آخر وسط عائلتك، وحيث أستطيع أن أقدّم مثالًا يحتذيه كلّ رجلٍ شريفٍ ومخلص يجد نفسه في وضعٍ شبيهٍ بوضعي.

- قبل أن ترحل عنّي أخبرني ما أنت فاعلٌ يا ماكسيميليان؟

ابتسم الشّاب بحزن.

قالت فالانتين: - آه! تكلّم، تكلّم! أخبرني رجاءً!

- هل غيّرتِ قراركَ يا فالانتين؟

صاحت الشّابة: - واأسفًا! هو قرارٌ لا يمكن تغييره، وأنت عليمٌ بذلك.

- وإذًا، وداعًا يا فالانتين.

هزّت فالانتين السّياج بقوّةٍ ما كانت لتحسب نفسها قادرةً عليها؛ وإذ كان موريل يمضي مبتعدًا أدخلت يديها معًا عبر السّياج، وشبكتهما لاويةً ذراعيها، وصاحت:

- إلى أين أنت ذاهبٌ؟ أريد أن أعرف! إلى أين أنت ذاهبٌ؟

أجابها ماكسيميليان وهو يتوقّف على بعد ثلاث خطواتٍ من الباب: - أوه! اطمئنّي، ليس في نيّتي أن أعاقبَ رجلًا آخر على القسوة التي أبداها لي القدرُ. غيري كانَ ليهدّدك بأن يذهب إلى السيّد فرانز، فيستثيره، وينازلَه؛ لكنّ ذلك كلّه عبث. ما ذنب السيّد فرانز في كلّ ما يجري. صباح اليوم كانت أوّل مرّة يراني فيها، ولعلّه نسيَ الآن أصلًا أنّه قد رآني؛ لم يكن حتّى يعلم بوجودي حين اتّفقت عائلتاكما اتّفاقًا يجعل كلًا منكما منذورًا إلى الآخر. لا شيء يجمعني إذًا بالسيّد فرانز، وأعدك بأنّني لن أحاسبه أبدًا.

- ومن ستحاسب إذًا؟ أنا؟

- أحاسبُك أنت يا فالانتين! ليجنّبني الربُّ ذلك! إنّ المرأة مقدّسةٌ، والمرأة التي نحبُّها قدّيسةٌ!

- ستحاسب نفسك إذًا، يا شقيّ؟

قال موريل: - أنا المذنبُ في ما وقع، أليس كذلك؟

- تعالَ يا ماكسيميليان، أريدك أن تأتي!

اقتربَ ماكسيميليان بابتسامته العذبة، ولولا ما اعتراه من شحوبٍ ما كان أحدٌ ليحسبَه في غير حالته الاعتيادية.

قال بصوته المنغّم الحادّ: - أصغي إليّ يا فالانتين، إنّ النّاسَ من أمثالنا، النّاسَ ممّن لم يفكّروا قطّ فيما يخجلون من إظهاره أمام النّاس أو أمامَ ذويهم أو أمام الربّ، النّاس من أمثالنا يستطيعون أن يقرؤوا قلوبَ بعضهم بعضًا كما تُقرأ الكتبُ المفتوحة. أنا لم أتصوّر قطُّ روايةً، فأنا لست بطلًا

مأساويًا، ولا أدّعي دورَ مانفريد أو أنتوني: لكنّي من دون أن أتكلّم، من دون أن أفصح، ومن دون أن أقسم، جعلتُ حياتي رهنك؛ سأشتاق إليك، لكنّك تتصرّفين كما ينبغي لك، أقولها وأكرّرها؛ ورغم ذلك سأشتاق إليك، وسوف تضيع حياتي؛ ما إن تتركيني يا فالانتين حتّى أظلّ وحيدًا في هذا العالم. أختي سعيدةٌ مع زوجها؛ وزوجها ليس إلا أخًا لي، أقصد رجلًا لا يدين بالولاء اجتماعيًا إلا لي؛ هكذا إذًا لا أحد على هذه الأرض يحتاج وجودي الذي صار بلا فائدة. هوَذا ما سأفعله إذًا، سأنتظرُ حتّى الثانية الأخيرة قبل زواجك، إذ لا أريد أن أضيّع فرصةً من الفرص غير المتوقّعة التي يخبّئها لنا القدر أحيانًا، فمن يدري ما قد يحدث: قد يموت السيّد فرانز ديبيناي، قد تضرب مذبح الكنيسة صاعقة لحظةَ اقترابكما من المذبح. بالنّسبة إلى المحكوم بالإعدام يبدو كلّ شيءٍ ممكنًا، والمعجزاتُ بالنّسبة إليه تدخل في دائرة الممكن، ما إن تتعلّقَ بخلاصه من الموت. أقول إذًا، إنّي سأنتظر حتّى اللحظة الأخيرة، وحين يصير شقائي مؤكّدًا، لا شفاء منه، ولا رجاء، سأكتبُ رسالةً سريّة إلى صهري، وأخرى إلى رئيس الشّرطة أطلعه فيها على مصيري، ثمّ عند أطراف غابةٍ من الغابات، على شفا خندقٍ من الخنادق، على ضفّة نهرٍ من الأنهار، سأفجّرُ رأسي؛ يقينًا سأفعل ذلك، يقيني بأنّني كنت ابنًا لأشرف رجلٍ عاش في فرنسا.

رجّت أطراف فالانتين رجفةٌ تشنّجيّة؛ تركت السّياج الذي كانت تمسكه بيديها، وهوى ذراعاها على جانبيها، وسالت على خدّيها دمعتان كبيرتان.

ظلّ الشّابُ واقفًا أمامها غامضًا حازمًا.

قالت: – آه! أتوسّل إليك، أتوسّل إليك، ستظلُّ على قيد الحياة، أليس كذلك؟

– كلّا، بشرفي؛ لكن فيمَ يهمّك ذلك؟ أنت ستكونين قد قمت بواجبك، وسيظلُّ ضميرك مرتاحًا.

خرّت فالانتين على ركبتيها حاضنةً قلبها الذي كان يتهشّمُ.

قالت: - ماكسيميليان، يا ماكسيميليان، يا صديقي، يا أخي في هذه الدّنيا، وزوجيَ الحقَّ هناك في السّماء، أرجوك أفعل كما أفعلُ أنا، عِش بآلامك، فلربّما تجمعنا الأيامُ.

كرّر موريل: - وداعًا يا فالانتين!

قالت فالانتين وهي ترفع ذراعيها إلى السّماء في حركةٍ مهيبة:

- إلهي، أنت ترى أنّي فعلتُ كلّ ما في وسعي لأظلّ فتاةً مطيعةً: صلّيتُ، وتوسّلتُ، ورجوتُ؛ فلم تسمع صلواتي ولا توسّلاتي ولا دموعي. (ثمّ واصلت وهي تمسح دموعها وتستعيد رباطة جأشها) وإذًا لا أريد أن أموت ندمًا، أفضّلُ أن أموت من العار. ستعيش يا ماكسيميليان، ولن أكون لغيرك. في أيّ ساعةٍ؟ في أيّ لحظة؟ أتريد ذلك الآن؟ هيا قُل، مُرني، أنا مستعدة.

عاد موريل بعدما كان قد ابتعد بخطوات، عاد شاحبًا من الفرح، قلبُه مزهر، ومدّ يديه إلى فالانتين عبر السّياج.

قال: - فالانتين، يا صديقتي، ما هكذا ينبغي أن تقولي، وإلّا فاتركيني أموت. لمَ إذًا أضطرك إلى العنف، ما دمت تحبّينني مثلما أحبّك؟ هل تجبرينني على الحياة بدافع الشّفقة فقط؟ في هذه الحال أفضّلُ الموتَ.

غمغمت فالانتين: - في الواقع، من ذا الذي يحبّني في هذا العالم؟ هو. ومن الذي واساني من كلّ آلامي؟ هو. على من تتوقّف آمالي، وإلى من تتّجه نظرتي التّائهة، ولدى من يرتاح قلبي الدّامي؟ هو، هوَ، دائمًا هو. وإذًا، أنت محقٌّ بدورك يا ماكسيميليان؛ سأتبعك، وسأترك بيت والديّ، وكلّ شيء. (صاحت تشهق) آه، يا لي من عاقّة! سأترك كلّ شيء!... حتّى جدّي الطيّب سأنساه!

قال ماكسيميليان: - كلاّ، لن تتركيه. لقد أبدى السيّد نوارتييه تعاطفًا تجاهي. لذا، قبل أن تهربي معي، ستخبرينه بكلّ شيء؛ فتكون مباركته

لكِ برهانك أمّام الرّب؛ ثمّ ما إن نتزوّج حتّى نأتيَ به للعيش معنا. وبدلًا من ابنةٍ واحدة سيصير لديه ابنٌ وابنة. لقد أخبرتني كيف تحدّثينه وكيف يردّ عليك؛ ولسوف أتعلّم سريعًا هذه اللغة الإشارية المؤثّرة يا فالانتين. آه! إنّي لأقسم لك، بدلًا من اليأس الذي يترصّدنا، فإنّي بالسّعادة أعدكِ!

– آه يا ماكسيميليان، انظُر أيّ سطوةٍ تمارسها عليّ كلماتك؛ تكادُ تقنعني بما تقوله، مع أنّ ما تقوله غير منطقيّ، لأنّ والدي سيلعنني؛ إذ أعرفه وأعرف قسوة قلبه، أبدًا لن يسامحني. لذا اسمع يا ماكسيميليان، إذا ما تمكّنتُ بحيلة ما أو صلاةٍ أو حادثٍ، أو أيّ شيءٍ ممّا لا قبل لي به؛ أقول إذا ما تمكّنتُ من أن أؤخّر الزّواج، فأنت ستنتظرني، أليس كذلك؟

– بلى، أقسم لك، مثلما ستقسمين لي أنت أيضًا بأنّ هذا الزواج الفظيع لن يتمّ أبدًا، وأنّك، إن هم جرّوك جرًا إلى القاضي أو الرّاهب، فستقولين: لا.

– أقسم لك يا ماكسيميليان بأقدس ما لديّ في هذه الدّنيا، أقسم لك بذكرى أمّي.

قال موريل: – لننتظر إذًا.

فاستأنفت فالانتين وهي تتنفّس الصّعداء: – أجل، لننتظر؛ ثمّة العديد من الأشياء التي يمكن أن تنقذ شقيّين مثلنا.

أجابها موريل: – إنّي أسلّم إليك أمرنا يا فالانتين، كلّ ما ستقومين به سيكون خيرًا؛ لكن، إذا لم يهتمّوا لرجائك، وإذا أصرّ والدك والسّيدة دو سان مران على دعوة السيّد فرانز ديبيناي إلى توقيع العقد غدًا...

– إذّاك سأفي بما قطعته لك من وعد يا موريل.

– بدلًا من أن توقّعي...

– سآتي إليك، فنهرب معًا. لكن إلى أن يحين وقت ذلك، لنترك الأمور بيد الربّ يا موريل؛ ألسنا نلتقي؛ إنّها لمعجزةٌ، إنّه تدبيرٌ إلهيٌّ كونهم لم يكشفوا أمرنا إلى الآن؛ فلو أنّهم كشفوا أمرنا، لو أنّهم عرفوا كيف نلتقي، لما أمكننا اللقاء.

- أنت محقّةٌ يا فالانتين؛ لكن كيف سأعرف...
- عبر الموثّق، السيّد ديشان.
- إنّي أعرفه.
- وعبري أنا نفسي. سوف أكتب لك، ثق بي. يا إلهي! إنّ هذه الزّيجة مبغضةٌ عندي قدر بغضك لها يا ماكسيميليان.
- حسنًا، حسنًا، شكرًا يا محبوبتي فالانتين. لقد قيل كلّ شيء، ما إن أعرف السّاعةَ حتّى أهرع إلى هذا المكان، وستعبرين هذا السّور متأبّطةً ذراعي. لن يشقّ عليك الأمر، ستنتظرنا عربةٌ عند باب السّياج، وستصعدين إليها معي، فأصطحبك عند أختي؛ وهناك، سواءً مخفية هويّتك أو مبديّة إياها، كما يحلو لك، سنعلي قوّتنا وإرادتنا، ولن نستسلمَ على شاكلة الحمَل الذي يستسلم للذّبح ولا يدافع عن نفسه إلا بالأنين.
قالت فالانتين: - ليكن إذًا؛ سأقول لك بدوري يا ماكسيميليان إنّ كلّ ما ستقوم به ستقوم به على أمثل وجه.
- أوه!
قالت الشّابة بحزن: - وإذًا، أراضٍ أنت عن امرأتك؟
- يا محبوبتي فالانتين، إنّ كلمة نعم لا تكفي إجابةً.
- قل إذًا: دائمًا.
ثمّ إنّ فالانتين دنت، أو بالأحرى أدنت شفتيها، من السّياج، ومع كلماتها انزلقت أنفاسُها الذكيّة، حتّى شفتَي موريل اللّتين التصقتا بالجهة المقابلة من السياج البارد الجامد.
قالت فالانتين وهي تنزع نفسها نزعًا من تلك السّعادة: - وداعًا، وداعًا!
- ستصلني رسالة منك؟
- نعم.
- شكرًا يا امرأتي العزيزة! إلى اللقاء.

تردّد صوتُ قبلةٍ بريئةٍ ضائعة، وهربت فالانتين تحت أشجار الزّيزفون.

ظلّ موريل يصغي إلى آخر أصوات فستانها وهو يحتكّ بالتعريشات، وقدميها اللتين تستصرخان الرّملَ، ورفع عينيه إلى السّماء، وعلى شفتيه ابتسامةٌ لا سبيل إلى وصفها، شاكرًا إيّاها على ما وهبته من حبّ، ثمّ اختفى بدوره.

عاد الشّابُ إلى بيته وظلّ ينتظر طيلة ذاك المساء والنّهار الذي يليه من دون أن يصله أيّ جديد. ثمّ أخيرًا، في اليوم التالي، وحوالى السّاعة العاشرة صباحًا، وإذ كان في طريقه إلى السيّد ديشان، الموثّق، توصّلَ بمكتوبٍ عرف أنّه من طرف فالانتين وإن لم يكن قد رأى خطّها من قبل. وهوَ ذا مضمونُ المكتوب:

لا الدّموع، ولا التوّسلات، ولا الصّلوات نفعت. لقد أمضيت أمس ساعتين أصلّي للربّ في كنيسة القدّيس فيليب دو رول، صلّيت له من أعماق روحي، لكنّ الرّبَ شأنه شأن البشر لا يبالي؛ لقد تحدّد موعد توقيع العقد في الـتّاسعة من مساء اليوم. ليست لي إلا كلمةٌ واحدةٌ، مثلما ليس لي إلا قلبٌ واحد: كلمتي قطعتُها لك يا موريل، وقلبي ملكتَه!

موعدنا إذًا مساء اليوم عند السّاعة التّاسعة إلا ربعًا، عند السّياج.

امرأتك، فالانتين دو فيلفور.

ملحوظة: جدّتي المسكينة تمضي من حالٍ سيّئة إلى حالٍ أسوأ، أمس تحوّل هياجها إلى هذيانٍ، واليوم يكاد هذيانها يعانق الجنونَ. ستهبني من الحبّ يا موريل ما ينسيني أنّي تركتها على هذه الحال، أليس كذلك يا موريل؟

أحسب أنّهم يخفون عن جدّي نوارتييه أنّ موعد توقيع العقد قد تحدّد في هذا المساء.

لم يَحد موريل عن تعليمات فالانتين؛ قصد الموثّق الذي أكّد له

أنّ توقيع العقد قد تحدّد فعلًا في السّاعة التّاسعة مساءً. ثمّ عرج على الكونت مونت كريستو؛ وهناكَ، ببيت الكونت، عرف المزيدَ. فقد أتى فرانز عند مونت كريستو يزفّ إليه خبر المناسبة السّارة؛ كما كتبت إليه السيّدة دو فيلفور تعتذر عن عدم استدعائها إيّاه؛ ذاك أنّ وفاة السيّد دو سان مِران، والحال الذي توجد فيها أرملته، يلقيان على البيت ستارًا من حزنٍ لا تريدُه أن يعكّرَ صفوَ الكونت الذي تتمنّى له كلّ السّعادة.

في اليوم السّابق كانوا قد قدّموا السيّد فرانز إلى السيّدة دو سان مران التي تركت سريرَها لهذه المناسبة، ثمّ ما لبثت أن عادت إليه.

ومن اليسير أن ندركَ أنّ موريل كان في حالٍ من الاضطراب لا يمكن أن تخطئها عينٌ، خاصّةً إذا ما كانت العينُ عينَ الكونت، لذا أبدى له مونت كريستو من العطف أكثر ممّا أبداه له في أيّ وقتٍ مضى؛ غمره عطفًاحتّى أوشك ماكسيميليان أن يخبره بكلّ شيءٍ، في مناسبتين أو ثلاث. بيد أنّه تذكّر الوعد الصوريّ الذي قطعه لفالانتين، فظلّ سرّهُ دفينَ قلبه.

أعاد الشّاب قراءة رسالة الصبيّة أكثر من عشرين مرّة ذاك اليوم.

كانت تلكم أوّل مرّة تكتب فيها إليه، ويا لها من مناسبةٍ للكتابة! وكلّما قرأ الرّسالة عاد ليقطع على نفسه وعد أن يجعل فالانتين سعيدةً. والحالُ أيّ سلطةٍ قد لا تحوزُها صبيّةٌ تتخّذ قرارًا شجاعًا كهذا الذي اتّخذته صبيّتُنا! أيّ إخلاصٍ لا تستحقّ أن يبديه لها ذاك الذي ضحّت بكلّ شيء لأجله! ينبغي إذًا أن تكون بالنّسبة إلى عاشقها موضوعَ تقواهُ الأوّلَ! إنّها في آنٍ الملكة والزّوجة، ولا تكفي روحٌ واحدةٌ لعشقها وشكرها.

كان موريل يفكّر باضطرابٍ لا يوصفُ، في تلك اللّحظة التي ستصل فيها فالانتين قائلةً: «هاأنا ذي يا ماكسيميليان؛ خذني».

كان قد رتّبَ كلّ تفاصيل الهرب؛ أخفى سُلّمين في عشب السيّاج؛ ودبّر عربةً يقودها بنفسه؛ لا خادمَ، ولا أضواء؛ وعند منعطف الشّارع

الأوّل سيوقدان قناديل، إذ لا ينبغي، إمعانًا في الاحتياط، أن يقعا بين أيدي الشّرطة.

وبين الفينة والأخرى كانت تعبر جسد موريل رجفةٌ؛ كان يفكّر في اللّحظة التي يتعيّن عليه فيها حماية فالانتين وهي تنزل من هذا الجدار، فيشعر بين يديه، مرتجفةً ومسترخيةً، بتلك التي ما أمسك بعد سوى يدها، ولا قبّل إلّا أطرافَ أصابعها.

وما إن حلّت الظّهيرة، وأحس بدنوّ ساعة الحسم، حتّى شعر بالرّغبة في أن يكون وحيدًا؛ كان دمه يغلي، ومجرّد سؤالٍ بسيطٍ، أو صوتِ صديق كان ليزعجه؛ أغلق على نفسه في بيته محاولًا الاستغراق في القراءة، بيد أنّ نظرته كانت تنزلقُ على الصّفحات من دون أن يفهم شيئًا، فانتهى به المطاف إلى ترك الكتاب، والعودة،مرّة ثانية، إلى رسم خطّته وسُلّمَيه وسياجه.

أخيرًا دنت السّاعة.

أبدًا لم يترك العاشقُ السّاعات تقطع مسارها في سلام؛ لقد عذّبَ موريل ساعاته تدويرًا حتّى انتهى بها المطاف إلى إعلانِ الثّامنة والنّصف في السّادسة. قال إذّاك إنّ وقت الانطلاق قد أزِف، وإنّ التّاسعة هي بالفعل ساعةُ توقيع العقد، لكنّ فالانتين قد لا تنتظر حتّى تحين ساعة التوقيع الذي لا فائدة فيه؛ بالتّالي، وبعدما انطلق موريل من شارع مسلاي في الثامنة والنّصف بحسب إشارة ساعته، دخلَ السّياجَ وأجراس كنيسة القدّيس فليب دو رول تقرع الثّامنةَ.

أُخفيَ الحصانُ والعربة خلف كوخٍ متداعٍ اعتاد موريل على الاختباء فيه. وشيئًا فشيئًا أخذ النّهارُ ينصرفُ، وغرقتْ أشجار الحديقة في ظلامٍ دامس.

إذّاك غادر موريل مخبأه، وأتى ينظرُ، بقلبٍ راجفٍ، من ثقب السّياج: لم يكن ثمّةَ بعد أحد.

دقّت الثامنة والنّصف. كانت قد انصرمت نصفُ ساعةٍ في الانتظار؛ وموريل يقطع المكانَ طولًا وعرضًا؛ وبين لحظات ما فتئت المُدد بينها تقصرُ، كان يقصد الثقبَ فيستطلع منه. أخذت الحديقة تزداد عتمةً أكثر فأكثر؛ وفي العتمة كان يلتمسُ عبثًا الفستانَ الأبيضَ؛ وفي الصّمت كان يتسمّع بلا جدوى وقعَ أقدامٍ.

ظلّ المنزل الذي يُلمح عبر أوراق الأشجار مظلمًا، ولا علامة فيه تشي بأنّه يفتح أبوابَه لحدث مهمٍّ أهميّةَ توقيع عقد زواجٍ.

نظرَ موريل إلى ساعته وكانت تشير إلى التّاسعة وثلاثة أرباع السّاعة؛ لكن ما لبث قرعُ الأجراس أن عدّلَ مرّةً أخرى خطأ السّاعة، ودقّ معلنًا التّاسعة والنّصف.

هي إذًا نصفُ ساعةٍ أخرى من الانتظار مضافةٍ إلى ما كانت فالانتين قد حدّدته بنفسها: لقد قالت إنّها ستأتي في التّاسعة، وربّما قبلها، لكن ليس بعدها.

كانت تلك اللّحظة الأشدّ رعبًا على قلب الشّاب، كلّ ثانيةٍ منها كانت تهوي عليه كمطرقةٍ من رصاص. أدنى ارتعاشة أوراقٍ، وأخفَض صوتٍ، كانا يسترعيان انتباه أذنه، ويُسيلان العرق على جبينه. وإذّاك، في غمرة ارتعاشه، رفع سلّمه، وكي لا يضيع وقتًا، وضع قدمه على أولى درجاته.

ووسط ذاك السّعي الذي ينوس بين الخوف والرّجاء، ووسط انقباض القلب وانبساطه، دقّ ناقوس الكنيسة معلنًا السّاعة العاشرة.

غمغم الشّاب في نفسه مرعوبًا: «أوه! يستحيل أن يدوم توقيع عقدٍ كلّ هذا الوقت، اللهم إلّا إن كان قد حدث حادثٌ غير متوقّع؛ لقد وازنت كلّ الاحتمالات، وحسبت كلّ الوقت الذي يمكن أن تستغرقه الشّكليات، فلا بدّ أنّ شيئًا ما وقع».

وكان أن انطلق يجول مهتاجًا أمام السياج حينًا، ويعود تارةً ليضع جبينه الملتهب على الحديد المثلج.

أَأُغميَ على فالانتين بعدما وقّعت العقد، أم أنّهم أمسكوا بها بينما تحاول الفرار؟ ذلكما كانا الاحتمالين الوحيدين اللذين استطاع الشّاب أن يخلُص إليهما، وهما احتمالان أحدهما أيأس من الآخر.

ثمّ ما لبث أن توقّف عند خاطرةٍ: لربّما خارت قوى فالانتين وهي تحاول الهروب فأغشي عليها في الطّريق.

صاح وهو ينطلق متسلقًا درجات السّلم: «أوّاه! إن كان الأمر كذلك، فسأخسرها بسببي!».

إنّ الشّيطانُ الذي ألقى في صدره بذاك الهاجس، لم يفارقه البتّةَ، وصار يلحّ في الوسوسة حتّى تحوّلت الشّكوك، في لحظاتٍ، بفعل الاستدلال العقليّ، إلى يقين.

عيناه اللتان كانتا تحاولان النّفاذ في الظّلام المتعاظم، أوهمتاه بأنّه قد لمح، في الممشى المعتم، شيئًا ما يتحرّك؛ وذهب موريل إلى حدّ النّداء، فخيّل إليه أنّ نداءَه قوبل بأنين مكتوم.

ثمّ ما لبثت العاشرة والنّصف أن دقّت، فصار من المستحيل أن يمسك نفسَه أكثرَ، فكلّ شيءٍ صار محتملًا؛ كانت أوردة ماكسيميليان تنبض بعنفٍ، والغيوم تغشى عينيه؛ تسلّق الجدارَ وقفز إلى النّاحية الأخرى.

هو الآن في بيت فيلفور، لقد دخله متسلّقًا الجدارَ؛ فكّر في التّبعات التي قد تكون لفعلٍ مماثلٍ، ولكنّه لم يكن قد أتى حتّى مكانه ذاك كي يتراجعَ.

في لحظةٍ واحدةٍ صارَ أقصى ذاك المرتفع. صار عند النّقطة التي منها يمكن سبر المنزلِ. وإذّاك تأكّد من فرضيّة كان قد افترضها حين كان يحاول أن ينفذ ببصره بين الأشجار: بدلًا من الأضواء التي كان يخال نفسَه يراها تلمع عند كلّ نافذة، على عادة ما يحدثُ في مثل تلك المناسبات، لم يرَ إلا كتلةً رماديةً هائلةً يزيدُها قتامةً ستارٌ من ظلٍّ تلقيه غيمةٌ هائلةٌ حجبت القمرَ.

بين الفينة والأخرى كان يمرّ ضوءٌ، كالشّارد، من أمام نوافذ ثلاث من الطّابق الأوّل. وتلك النّوافذ كانت نوافذَ جناح السيّدة دو سان مران.

نورٌ آخرُ ظلّ ساكنًا خلف أستارٍ حمراء. تلك الأستار كانت أستار غرفة نوم السيّدة دو فيلفور.

وقد خمّن موريل كلّ ذلك، لفرط ما لاحق في خيالاته فالانتين في كلّ ساعةٍ من ساعات النّهار، ورسمَ، إن جاز لنا القول، تصميم المنزل الذي، وإن لم يكن قد رآه، كان يعرفه.

فزع الشّابُ من تلك الظلمة وذاك الصّمت أكثر ممّا فزع من غياب فالانتين. تائهًا، مجنونًا من الوجع، مصمّمًا على أن يسلك كلّ مسلك في سبيل أن يرى فالانتين ويطمئنّ إلى أنّها لم تصب بمكروه؛ قصد موريل حافة المرتفع، وكان يتأهّب إلى أن يعبر بأسرع ما يمكن الأرضية المكشوفة تمامًا، فإذا بالرّيح تحمل إليه صوتًا بعيدًا.

وإذ سمع ذاك الصّوتَ تراجع خطوةً إلى الوراء، بعدما كان قد خرج تقريبًا من بين الأشجار، وعاد يتوارى فيها تمامًا، ومكث ساكنًا صامتًا، مختفيًا في عتمته.

وكان قد حزم أمره: إن كان القادم فالانتين وحدها، فإنّه سينبّهها بكلمةٍ أثناء مرورها؛ أمّا إن كانت هيَ وبصحبتها شخصٌ آخر فسيراها على الأقلّ، ويطمئنّ إلى أنّها لم تصب بمكروه؛ أمّا إن كان القادم شخوصًا آخرين، فسيلتقط من حديثهما كلماتٍ، ويفهم اللغز الغامض حتّى تلك اللّحظة.

برز القمرُ إذّاك من خلف الغيمة التي كانت تحجبه، فاستطاع موريل أن يرى عند عتبة الباب فليفور يظهرُ، وفي إثره رجلٌ يلبس السّوادَ.

كانا ينزلان الدّرجات ويتقدّمان صوب المرتفع. ولم يكادا يتقدّمان أربع خطواتٍ حتّى عرف موريل الرّجل ذا الزيّ الأسود، لقد كان الدكتور دافرينيي.

وإذ رآهما الشّابُ يقتربان منه، تراجعَ حتّى لامس جذع جمّيزة كانت تقع وسط المرتفع؛ وهناك كان مجبرًا على التوقّف.

وما لبث صوت الرّمل أن توقّف تحت قدمَي الرّجلين.

قال نائب الملك: - آه! يا عزيزي الدكتور، هي ذي السّماء تبدي إرادتها معترضةً تمامًا إرادةَ بيتي. أيّ ميتةٍ رهيبة هي! أيّ صاعقة! لا تحاول تعزيتي! واأسفًا! إنّ الجرح عنيفٌ وشديدُ العمق! لقد ماتت، ماتت!

جمّدَ جبينَ الشّاب عرقٌ باردٌ، واصطكّت أسنانه.

من التي ماتت إذًا في بيت موريل الملعون بشهادته هو نفسه؟

قال الطّبيب بنبرةٍ ضاعفت من رعب الشّاب: - عزيزي السيّد دو فيلفور، أنا لم آتِ بك إلى هنا كي أعزّيك، وإنّما بالعكس.

سأله نائب الملك مرعوبًا: - ما الذي تقصده؟

- أقصد أنّه خلف المصيبة التي أصابتك، ثمّة مصيبةٌ أخرى قد تكون أعظم.

غمغم فيلفور شابكًا ذراعيه: - أواه! يا إلهي! ما الذي ستقوله؟

- هل نحن لوحدنا يا صديقي العزيز؟

- آه! نعم، نحن وحدنا تمامًا. لكن ما معنى كلّ هذا الحذر؟

- معناه أنّ لديَ سرًا خطيرًا أفصح لك به. لنجلس.

تهاوى فيلفور بالأحرى على مقعد. وظلّ الطّبيب واقفًا أمامه واضعًا يده على كتفه. أمّا موريل الذي يكاد يموت من الرّعب، فقد كان يضع يدًا على جبينه، ويشدّ بالأخرى على قلبه، يخشى أن تفضحه دقّاتُه. وقد ظلّ يردّد في ذهنه بصوت قلبه: «لقد ماتت، ماتت!»، وهو نفسه أحسّ نفسَه يموت.

قال فيلفور: - هيا تكلّم يا دكتور، اضرب، فأنا مستعدٌ لأيّ شيءٍ.

- إنّ السيّدة دو سان مران كانت مسنّةً بلا ريب، لكنّها كانت تتمتّع بصحّة ممتازة!

وأخيرًا تنفّس موريل الصّعداء للمرّة الأولى منذ عشر دقائق.

قال فيلفور: - لقد قتلها الحزن، بلى قتلها الحزنُ يا دكتور! قتلتها ألفةُ أربعين سنة من العيش بقرب الماركيز...!

- لم يقتلها الحزنُ، إنّ الحزنَ قد يقتل، وإن ندرت حالات الوفاة بتأثيره؛ غير أنّ الحزن لا يقتل في يومٍ واحدٍ، لا يقتل في ساعاتٍ، لا يقتل في عشر دقائق.

لم يحر فيلفور جوابًا؛ غير أنّه رفع عينيه بعدما كان قد تركهما خفيضتين حتّى تلك اللحظة، ونظر إلى الطّبيب برعب.

سأله السيّد دافرينيي: - هل ظللت بقربها ساعة النزع؟

أجابه وكيل الملك: - قطعًا؛ لقد همستَ لي بألّا أبتعد.

- وهل لاحظتَ أعراض المرض الذي كان فيه هلاك السيّدة دو سان مران؟

- بالطّبع؛ لقد تعرّضت السيّدة دو سان مران لثلاث نوباتٍ، تفصل كلّ نوبةٍ عن الأخرى بضعُ دقائقَ، في كلّ مرّة كانت النّوبة أشدَّ. ولمّا وصلتَ كانت السيّدة دو سان مران قد بدأت أصلًا تلهث. إذّاك أخذتها نوبةٌ حسبتها مجرّد نوبةٍ عصبية؛ لكنّي لم أبدأ في الشّعور بالخوف حقًا إلا حين بدأت ترتفع فوق سريرها، وأطرافُها وعنقها متصلّبة. إذّاك، وإذ نظرت إلى وجهك، عرفت أنّ الأمر أخطر ممّا كنت أتصوّر. وإذ مرّت الأزمة، بحثتُ عن عينيك فما صادفتهما. كنت تجسّ نبضها، تقيس ضربات قلبها، ثمّ أتت النوبة الثانية، قبل حتّى أن تستدير جهتي. وكانت هذه النوبة الثانية أعنف من الأولى، وقد تقلّص فمها وازرقّ.

- ومع النّوبة الثالثة فاضت روحها. ومن الأزمة الثانية كنت قد شخّصتُ أعراض الكزّاز؛ وستوافقني في رأيي هذا. وقد أردت توضيح هذا ونحن وحدنا.

- ما الذي تريد قوله بحقّ السّماء؟

- أريد أن أقول إنّ أعراض الكزاز هي نفسها أعراض التسمّم النّباتيّ.

انتصب السيّد دو فيلفور واقفًا على قدميه، ثمّ بعد برهةٍ من الصّمت والسّكون عاد يتهاوى على المقعد.

قال: - أوه! يا إلهي! هل فكّرتَ بما تقوله يا سيّدي الدكتور؟

ولم يكن موريل، [أثناء ذلك]، يدري ما إذا كان في حال الحلم أم في حال اليقظة.

قال الطّبيب: - اسمع، إنّي لمدركٌ خطورةَ تصريحي وقيمة الرّجل الذي أفصح له به.

سأله فيلفور: - هل أنت تخاطب الآنَ رجل القضاء، أم الصّديق؟

- إنّما أخاطب الصّديقَ، والصّديق وحده؛ إنّ أعراض مرض الكزاز وأعراض التسمم بالعناصر النباتية تكاد تكون متطابقة، لدرجة أنّه لو كان عليّ أن أعلم بما أصرّح لك به الآن، فسوف أتردّد. لذا أكرر عليك القول: لست أخاطب الآن القاضيَ وإنّما الصّديق. وللصّديق أقول إذًا، إنّي طيلة أرباع السّاعة الثلاثة التي امتدّ فيها الاحتضار، عكفت على ملاحظة النّزع والتّشنّجات، ثمّ موتَ السيّدة دو سان مِران؛ وأقول لك إنّي على قناعة بأنّ السيّدة دو سان مران لم تمت مسمومةً فحسب، لا بل أستطيع حتّى تحديد المادة التي سُمّمت بها.

- سيّدي! يا سيّدي!

- كلّ شيءٍ واضح: نعاس تقطعه نوباتٌ عصبية، تهيّج دماغي، خدر في المراكز. لقد ماتت السيّدة دو سان مران بجرعةٍ من مادة البروسين أو الستريكينين، جرعةٌ أعطيت لها من غير قصدٍ قطعًا، أو ربّما خطأً.

أمسك فيلفور بيد الطّبيب: - أوه! مستحيلٌ يا إلهي! لا بدّ أنّني في حلم! مرعبٌ أن أسمع مثل هذا الكلام من رجلٍ مثلك! بحقّ السّماء، أرجوك يا دكتور، قل لي إنّك يمكن أن تكون مخطئًا!

- لا ريب في أنّي قد أكون كذلك، لكن...

- لكن؟
- لكنّي لا أظنّ ذلك.
- يا سيّدي الدكتور، أشفق على حالي، منذ أيامٍ تحدث لي أشياءٌ لا تصدّق، حتّى صرت أشكّ في أنّي قد فقدت عقلي.
- هل رأى السيّدة دو سان مران شخصٌ آخر غيري؟
- لا أحد.
- هل طلبتم من الصيدليّ وصفاتٍ لم تعرَض عليَّ؟
- كلّا.
- هل كان للسيدة دو سان مران أعداءٌ؟
- لم أعرف لها أعداء.
- هل في مصلحة أحدهم وفاتُها؟
- كلّا يا سيّدي، كلّا، وحدها أسرتي ترث فيها، لا بل ابنتي فالانتين هي وريثتها الوحيدة... آه! لو أنّ خاطرًا كهذا خطر لي لطعنت نفسي عقابًا لي على السّماح لفؤادي بأن يأويَ ولو لحظةٍ خاطرًا مماثلًا.
صاح الطّبيب بدوره: - أوه! يا صديقي، ليعلم الربّ إنّي لا أتهم أحدًا، وإنّما فقط أعتقد في وقوع حادث أو خطأ. إنّه صوتُ ضميري فقط يحدّثني بصوتٍ خفيضٍ، ويدفع بي إلى أن أعبّر لك بصوتٍ مرتفع. فتحرَّ الأمر.
- أتحرّى ممن؟ وفيمَ؟ وكيف؟
- مثلًا: باروا، الخادمُ العجوز، ألا يمكن أن يكون قد أخطأ التقدير فأعطى السيّدة دو سان مران خلطةً أُعدّت لسيّده المسنّ؟
- أعدّت لوالدي؟
- أجل.
- لكن أنّى لخلطةٍ أعدّت للسيّد نوارتييه أن تقتل السيّدة دو سان مران؟

- لا أسهل من ذلك: أنت تعرف أنّه بالنّسبة إلى بعض الأمراض تصير السّموم أدويةً؛ وإنّ الشّلل أحد تلك الأمراض. منذ ثلاثة أشهر تقريبًا، وبعدما أعيتني محاولات إعادة الحركة والكلام للسيّد نوارتييه، قررت اللجوء إلى آخر الوسائل؛ منذ ثلاثة أشهر صرتُ إلى معالجته بالبروسين؛ فوصفت له في آخر مرّة ستّة سنتغرامات، وهي كميّة لا تأثير لها على الأعضاء المشلولة، خاصة وأنّي جعلته يعتادها بكمياتٍ أقلّ سابقة؛ لكنّها كميّةٌ قاتلةٌ بالنّسبة إلى أيّ شخصٍ آخر غيره.

- عزيزي الدكتور، لا يوجد أيّ اتّصال بين جناح السيّد نوارتييه وجناح السيّدة دو سان مران، وباروا لا يدخل البتّة على حماتي. ثمّ إنّي سأقول، رغم معرفتي بمهارتك وحسّ المسؤولية لديك، وعلى الرّغم من أنّ كلامك سيظلّ في جميع الملابسات مشعلًا ينير لي الطّريقَ قدر ما تنيره الشّمس، إلا أنّي مضطرٌّ إلى الاستشهاد بهذه الحكمة الخالدة: **errare humanum est**(1).

قال الطّبيب: - أصغ إليّ يا سيّد فيلفور، هل يوجد بين زملائي من تثق فيه قدر ثقتك فيَّ؟

- لمَ هذا السّؤال؟ إلامَ تريد أن تصل؟ أخبرني.

- أرسل في طلبه، سوف أخبره بما عاينته ولاحظته، ونجري تشريحًا.

- وستجدون أثرَ السّم؟

- كلّا، ليس أثر السّم؛ لم أقل هذا، وإنّما سنلاحظ تضرر الجهاز العصبيّ، ونتعرّف على الاختناق الواضح، الاختناق الذي لا شكّ فيه، فنخبرك بما يكون. عزيزي فيلفور إن كان الأمر قد حدثَ إهمالًا، فإنّك ينبغي أن تنتبه إلى خدمك؛ أمّا إن كان الأمر قد حدث كراهيةً، فينبغي أن تنتبه إلى أعدائك.

---

(1) باللاتينية في الأصل: الخطأ إنسانيٌّ.

أجابه فيلفور منهارًا: - أوه! يا إلهي! بما تشير عليّ الآن يا دافرينيي؟ ما إن نقحم أحدًا غيرك في المسألة حتّى يصير التحقيق أمرًا لا مفرّ منه، والتحقيق في بيتي أمرٌ مستحيل! (ثمّ أضاف وهو يستعيد زمام أمره وينظر إلى الطّبيب بقلقٍ)، ومع ذلك إن كنت تريد، وإن قدّرت أنّ الأمر لا مناص منه، فسأقوم به. الحقّ أنّه ينبغي أن أتابع هذه القضية، وضعيتي تحتّم عليّ ذلك، لكنّك ترى يا دكتور أنّني في حالٍ من الحزن. فأن أُدخل إلى بيتي كلّ هذه الفضائح، بعد كلّ هذه الآلام! أوه! زوجتي وابنتي قد يقتلهما ذلك؛ وأنا، أنا نفسي؛ فكما تعلم يا دكتور لا يبلغ رجلٌ المبلغ الذي بلغته، لا يصير وكيلَ ملك طيلة خمس وعشرين سنةً من دون أن يكون قد راكمَ من الأعداء عددًا؛ وأعدائي أنا كثر. وإنّ شائعةً كهذه ستكون بمثابة انتصارٍ يجعلهم يرقصون فرحًا، وتجعلني أنا أتوارى عارًا. سيّدي الطّبيب، اغفر لي هذه الأفكار التي يفرضها عليّ وضعي الاجتماعي. لو أنّك كنتَ راهبًا لما جرؤت على أن أقول لك ما قلته؛ لكنّك رجلٌ، وتفهم دوافع الرّجال؛ دكتور، يا دكتور، أنت لم تقل لي شيئًا، أليس كذلك؟

أجابه الطّبيب مضطربًا: - يا عزيزي السيّد دو فيلفور، إنّ واجبي الأوّل هو الإنسانية. كان بالإمكان أن أنقذ حياة السيّدة دو سان مران، لو أنّ العلم كان بمقدوره ذلك، لكنّها ماتت. وواجبي إذًا الآن حمايةُ الأحياء. لندفن في أعماق أعماقنا هذا السرّ الرّهيبَ. وفي حال ما إذا كشف أحدٌ الأمر، فسأقبل أن ألقيَ على كاهل جهلي الصمتَ الذي لزمتُه. لكن مع ذلك، تحرَّ الأمرَ يا سيّدي، لا تتوانى في التحرّي، فلربّما لن يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ... وإذا ما وجدتَ المذنبَ، فافعل ما يبدو لك، فأنت رجل القضاء!

قال فيلفور بفرحٍ لا يوصفُ: - أوه! شكرًا، شكرًا جزيلًا يا دكتور! لا صديق لي أوفى منكَ.

وكأنّما خشي أن يرجع الدّكتور دافرينيي في كلامه، قامَ فيلفور واقفًا وجرّ الطّبيب إلى جانب البيت. وسارا مبتعدين.

وكأنّما كان بحاجةٍ إلى أن يتنفّس، أخرج موريل رأسه من الغيضة، فأضاء القمرُ وجهه الشّاحب حتّى ليبدو كأنّما هو وجه شبح.

قال لنفسه: - لقد نجّاني الربّ بطريقة جليّة وإن كانت رهيبة. لكن ماذا عن فالانتين؟ عزيزتي فالانتين، هل ستعبر المسكينة كلّ هذه الآلام؟

وإذ نطق بتلك الكلمات أخذ يجيل عينيه تواليًا على النّافذة ذات الأستار الحمراء والنّوافذ الثلاث ذوات الأستار البيضاء. كان الضوء قد اختفى تقريبًا من الغرفة ذات الستائر الحمراء. لا بدّ أنّ السيّدة دو فيلفور قد أطفأت قنديلها، ووحده مصباح السّرير يرسل شعاعه عبر الزّجاج.

في المقابل، أقصى المبنى، رأى إحدى النوافذ الثلاث ذات الأستار البيضاء تنفتح. شمعةٌ موضوعةٌ فوق المدخنة ترسل إلى الخارج أشعة من نورها الشاحب، ثمّ أتى شبحٌ وأسندَ مرفقيه لحظةً إلى الشّرفة.

انتفض موريل، إذ بدا له أنّه قد سمع نحيبًا.

لم يكن غريبًا أنّ هذه الرّوح، الشّديدة القوّة والشّجاعة عادةً، وقد صارت الآن مضطربةً بأشدّ الأهواء البشريّة، نقصد الحبّ والخوف، قلنا لم يكن غريبًا عليها أن تبلغ من الوهن مبلغًا يصيّرُها فريسةَ الأوهام والتهيّؤات. على الرّغم من استحالة أن تميّزه عينُ فالانتين في مكمنه ذاك، إلا أنّه ظنّ أنّ الخيالَ في النّافذة يناديه؛ ذاك ما كانت تقوله نفسه المضطربة، فيردّد قولَها قلبُه المتحرّق. وسرعان ما صار وهمه المضاعفُ حقيقةً لا تقاوَمُ، وبحماسة شباب غير مفهومةٍ، انبرى من مكمنه، وبقفزتين اثنتين، مجازفًا بأن يراه أحدهم أو يرعب فالانتين، أو يوقظ أهل البيت بصرخةٍ تطلقها الصبيّةُ المرعوبة، قطع الأرضية العشبية التي كان ضوء القمر يجعلها تبدو واسعةً بيضاء كبحيرة؛ وبعد صفّ أشجار الليمون الممتدّ أمام المنزل، بلغ درجات العتبة، فارتقاها مسرعًا، ثمّ دفع الباب الذي انفتح له من دون مقاومةٍ.

لم تكن فالانتين قد تنبّهت إليه؛ عيناها المرفوعتان إلى السماء كانتا

تتابعان غيمةً فضيّةً تنزلق على صفحة السّماء، غيمة كان شكلها كشبحٍ يصعد في السّماء؛ ذهنُها الشِّعريّ والمتحمّس كان يقول لها إنّ تلك روحُ جدّها.

أثناء ذلك كان موريل قد عبر البهوَ وبلغ درابزين السلّم؛ بسطٌ ممدودة على درجات السلّم كانت تكتم وقع خطواته؛ ثمّ إنّ موريل كان قد بلغ من حماسته مبلغًا بحيث ما كان حتّى حضور السيّد فيلفور نفسه ليخيفه. ولو أنّ السيّد دو فيلفور برز أمامه في تلك اللّحظة فإنّ قراره كان قد اتُّخذ وقضيَ الأمر: سوف يعترف له بكلّ شيءٍ، راجيًا منه الغفران، ومباركة هذا الحبّ الذي يربطه بابنته، ويربط ابنته به. موريل كان أحمق. ولحسن الحظّ لم يلتق أحدًا. وكان يدين بالفضل في ذلك أساسًا للمعرفة التي مكّنته منهافالانتين عن تصميم منزلهم الدّاخليّ. بلغ أعلى السّلم من دون أن يعرض له عارض، وإذ صار هناك وجّهته شهقةٌ عرفَ نبرتها إلى الطّريق التي ينبغي أن يتبعها؛ قلب مساره؛ بابٌ مواربٌ كان يسمح بأن يتسلّل إليه شعاعُ ضوءٍ وصوتُ الأنين. دفع ذلك الباب ودخل. وسط مخدعٍ، وتحت ملاءة بيضاء تغطّي رأسها وتشفّ عن هيئتها، كانت ترقد الميّتةُ التي صارت أشدّ رعبًا بالنّسبة إلى موريل منذ أن أطلعته الصدفةُ على سرّها الخطير.

بجانب السّرير، جاثيةً على ركبتيها ورأسُها مدفونٌ في مخدّات مقعدٍ من مقاعد طراز الرّاعي[1]، كانت فالانتين تنتفض وتهتزُّ بالشّهيق، مادّةً فوق رأسها الذي لم يكن يُرى، يديها المتشابكتين والمتصلّبتين. كانت قد ابتعدت عن النّافذة التي بقيت مفتوحة، وكانت تصلّي بصوتٍ مرتفعٍ صلواتٍ كانت لتلامس أقسى القلوب، وكان الكلامُ ينفلت من بين

---

(1) مقاعد طراز الرّاعي أو البرجي (كما تنطق بالفرنسية)، مقاعد فرنسية شهيرة ظهرت بداية القرن الثامن عشر وتطوّر تصميمها على مرّ السّنوات.

شفتيها سريعًا، غير منسجمٍ ولا مفهوم، لفرط ما كان الألم يعتصر حلقها بقبضته الحارقة.

كان القمر المتسلّل نوره خلالَ المناور يجعل ضوء الشّمعة يبدو شاحبًا، ويصبغ بألوانه الجنائزية لوحة الأسى تلك.

لم يستطع موريل مقاومة المشهد؛ لم تكن تقواه يضرب بها المثل، ولا كان من النّوع الذي يسهل إغواؤه، بيد أنّ مشهد فالانتين متألّمةً، باكيةً، رافعةً ذراعيه على مرمى بصره، كان أكثر ممّا يستطيع أن يتحمّله. أطلق تنهيدةً، وهمسَ بِاسم، فرُفع الرّأسُ الغارقُ في الدّموع والمُنغرز في مخمل الوسائد، رُفع كأنّما هو وجه مريم المجدليّة كما صوّرها الرّسامُ أنطونيو دا كوريدجو، وظلَّ يحدّقُ فيه.

أبصرته فالانتين ولم تبدِ أيّ دهشةٍ. فليس ثمّة من مشاعر وسطيّة بالنّسبة إلى قلبٍ ملأه يأسٌ هائل.

مدّ موريل يده إلى صديقته. وكي تعتذر منه فالانتين على عدم الذّهاب إلى لقائه، أشارت بيدها إلى الجثمان المسجّى تحت الملاءة الجنائزية، وانخرطت في النّحيب.

لم يجرؤ أحدٌ منهما على الكلام في تلك الغرفة. ظلّا كلّ واحدٍ منهما متردّدًا في قطع الصّمت الذي يفرضه الموت الواقف في ركنٍ ما من أركان الغرفة واضعًا إصبعه على شفتيه.

وكان أن اتّخذت فالانتين الخطوة الجريئة في آخر المطاف.

قالت: - يا صديقي، كيف وصلت إلى هنا؟ واأسفًا! وددت لو أقول لك حللت أهلًا وسهلًا، لولا أنّ الموت هو من فتح لك باب هذا المنزل.

قال موريل بصوتٍ مضطربٍ ويدين مضمومتين: - أنا هنا منذ ثماني ساعاتٍ ونصف يا فالانتين؛ لم تأتِ فنَخَر القلقُ نفسي، وكان أن قفزتُ من السّور، ثمّ تسللتُ إلى الحديقة، وهناك تناهت إلى سمعي أصواتٌ تتحدّث عن الحادث المفجع...

سألته فالانتين: - أيّ أصواتٍ؟

اِنتفض موريل إذ استعاد ذهنه كلّ الحوار الذي دار بين السيّد دو فيلفور والطّبيب، وهُيّئ إليه أنّه يرى من تحت الملاءة تينك اليدين المتخشّبتين، والعنق المتصلّب والشفتين المزرقّتين.

قال: - لقد أدركت من أصواتِ خدمكم كلّ شيء.

قالت فالانتين من دون خوف أو غضب: - لكن مجيئك إلى هنا يا صديقي، فيه هلاكنا.

أجابها موريل بنفس النبرة: - سامحيني، سأنسحب.

قالت: - كلّا، لا تذهب، ستصادف أحدًا أثناء خروجك، ابقَ.

- لكن ماذا إن أتى أحدهم؟

هزّت الفتاةُ رأسها قائلةً: - لن يأتيَ أحد، فلتطمئنّ، هوذا الضّامن لنا.

وأشارت إلى هيئة الجثمان التي تلفّها الملاءة.

قال موريل: - لكن، ماذا كان من أمر السيّد ديبيناي، أخبريني أرجوك.

- لقد وصل السيّد فرانز لتوقيع العقد في اللّحظة التي كانت فيها جدّتي تلفظ آخر أنفاسها.

- واأسفًا!

قالها موريل وفي قلبه شعورٌ من الفرح الأناني، إذ كان يفكّر في قرارة نفسه بأنّ هذه الوفاة قد تُعلّق زواج فالانتين إلى الأبد. ثمّ استأنفت فالانتين كما لو أنّ شعوره كان ينبغي أن يلقى عقوبته فورًا: - بيد أنّ ما يضاعف ألمي هو أنّ جدّتي أوصت، وروحها تفيض، بوجوب إتمام هذا الزّواج في أقرب وقتٍ ممكن؛ يا إلهي، هي أيضًا! هي أيضًا تصرّفت ضدّ سعادتي، بينما تحسب أنّها تحميني.

قال موريل: - أنصتي!

صمت الشّابان. سُمع صوت الباب يُفتح، ثمّ وقع خطواتٍ على أرضية البهو الخشبية فدرجات السلّم.

قالت فالانتين: - إنّه أبي يخرج من مكتبه.
أضاف موريل: - ويقتاد الطّبيب.
سألته فالانتين دهشة: - كيف عرفت أنّه الطّبيب؟
أجابها: - أخمّن ذلك.

أخذت فالانتين تنظر إلى الشّاب. وأثناء ذلك سُمع بابُ الشّارع يُقفل. ثمّ ذهب السيّد دو فيلفور يغلق باب الحديقة أيضًا، ثمّ صعد السلّم. وإذ بلغ البهو، توقّف لحظةً متردّدًا هل يدخل إلى غرفته أم إلى غرفة السيّدة دو سان مران. توارى موريل خلف إحدى البوابات، وسكنت فالانتين في مكانها، لا تتحرّك أيّ حركة؛ كان يبدو أنّ ألمًا هائلًا كان يسمو بها فوق مخاوفها الاعتيادية.

دخل السيّد دو فيلفور إلى غرفته.

قالت فالانتين: - الآن لم يعد بإمكانك الخروج من باب الحديقة ولا من باب الشّارع.

أخذ موريل ينظر بذهول إلى الصبيّة.

فأضافت: - الآن، لم يعد ثمّة إلا منفذ واحد ممكنٌ وآمنٌ، ألا وهو جناح جديّ.

ثم قامت واقفةً وقالت: - تعال.
سألها ماكسيميليان: - إلى أين؟
- عند جدي.
- أنا؟ عند السيّد نوارتييه؟
-نعم.
- هل فكّرتِ فيما تقولين يا فالانتين؟
- منذ مدّة طويلة وأنا أفكّر فيه. ما من صديق لي في هذا العالم غيره. وكلانا الآن محتاجٌ إليه... تعال.

قال موريل، متردّدًا في أن يوافق الصبية في هواها: - حذار يا فالانتين،

لقد عميت بصيرتي إذ دخلت بيتكم، لقد أقدمت على فعلٍ أحمق. فهل لا تزالين أنت تحتفظين بعقلك يا صديقتي؟

- أجل، وما من شيءٍ يدفعني إلى التردّد، اللهم إلا تركي جثمان جدّتي المسكينة، بعدما كُلّفت بالسّهر إلى جانبها.

قال موريل: - الموتُ يا فالانتين مقدّسٌ بذاته.

أجابته الصبية: - أجل؛ لن نتأخّر، هيا، تعال.

ثمّ إنّ فالانتين عبرت الردهة التي منها ينزل سلّم صغيرٌ يفضي إلى مقرّ نوارتييه. وفي إثرها كان موريل يمشي على أطراف أصابع قدميه. وإذ وصلا إلى عتبة الجناح ألفيا الخادم المسنّ هناك.

قالت فالانتين: - أقفل الباب يا باروا، ولا تسمح لأحدٍ بالدّخول.

ثمّ دخلت أوّلًا.

على أريكته كان السيّد نوارتييه، لا يزالُ جالسًا متيقّظًا إلى أدنى ضجيج، وخادمه المسنُّ ينقلُ إليه كلّ ما يجري من أمور، عيناه تحدّقان بنظرةٍ متوهّجةٍ في مدخل الغرفة؛ ثمّ رأى فالانتين فبرقت عيناه.

لقد كانت تطبع مشية الصبيّة وطريقة سلوكها سمةُ مهابةٍ وجِدٍّ أثارت انتباه الشّيخ. ولما يتّصف به من ذكاء وفطنة صارت عينه متقصّيةً.

قالت بصوتٍ موجز: - أبي العزيز، أصغي إليّ جيدًا: أنت تعرف أنّ ماما سان مران قد توفيت منذ ساعة، والآن ما عاد لي من سندٍ في هذا العالم إلّاكَ؟

طاف بعيني الشّيخ تعبير حنانٍ لا يُحَدّ.

- إليك أنت وحدك إذًا ينبغي أن أبثّ همّي ورجائي، أليس كذلك؟

أشار إليها المشلول أن نعم.

أمسكت فالانتين بيد ماكسيميليان قائلةً: - انظر إذًا إلى السيّد.

حدّق الشيّخ في موريل بعينه الفاحصة والذّاهلة قليلًا.

قالت: - إنّه ماكسيميليان موريل، ابن التّاجر الشّهير بمرسيليا، والذي لا شكّ أنّك سمعت به؟

أشار إليها الشّيخ أن نعم.

- هو اسمٌ كريمٌ لا يعيبُه عيبٌ، اسمٌ زاده ماكسيميليان شرفًا ومجدًا، إذ، وهو بعد في الثلاثين من عمره، قد صار قبطان صبايحية، وضابطًا بجوقة الشّرف.

أشار الشّيخ بأنّه يتذكّره.

قالت فالانتين وهي تجثو على ركبتيها أمام الشّيخ وتشير بيدها إلى ماكسيميليان: - وإذن، أنا أحبّه، ولن أكون إلا له. وإن فرضوا عليّ الزّواج من غيره، فإمّا أن استسلم للموت أو أقتل نفسي.

طفحت عينا الشّيخ بعالم من الأفكار الهيّاجة.

سألته الشّابةُ: - أنت تحبّ السيّد ماكسيميليان موريل يا جدّي، أليس كذلك؟

«أجل»، أشار الشّيخ الجامد.

- وتقدر أن تحمينا، نحن ابنيك، ضدّ إرادة والدي؟

علّق نوارتييه بصره الفطن بموريل، كأنّما يريد أن يقول: «على حسب».

فهم ماكسيميليان الرسالة، فقال: - آنستي، لديك واجبٌ مقدّس تقومين به في غرفة جدّتك؛ فهلّا تكرّمتِ بمنحي شرف الحديث لحظةً مع السيّد نوارتييه؟

أشار الشيخ بعينه: - بلى بلى، هوذا المطلوب.

ثمّ نظرَ إلى فالانتين بقلق.

- تقصد كيف سيفهمك يا جدّي، أليس كذلك؟

- نعم.

- أوه! لا تقلق يا جدّي، لقد تحدّثنا عنك كثيرًا لدرجة أنّه يعرف كيف أتحدّث معك.

ثمّ استدارت صوب ماكسيميليان بابتسامةٍ عذبة، وإن كان يجلّلُها حزنٌ عميق. قالت: - إنّه يعرف كلّ ما أعرفه.

قامت فالانتين، أدنت مقعدًا من موريل، وأمرت باروا بألاّ يترك أحدًا يدخل؛ وبعدما قبّلت جدّها بحنوّ وودّعت موريل بحزن، انصرفت. وإذّاك، كي يبرهن للسيّد نوارتييه على أنّه يحوز ثقّة فالانتين ويُستأمن على كلّ أسرارها، أخذ موريل القاموس واليراع والورقة، ووضعها جميعًا على الطّاولة حيث كان مصباحٌ.

قال موريل: - اسمح لي أوّلًا يا سيّدي أن أبيّن لك من أكون، ومبلغَ حبّي لفالانتين، ونيّتي تجاهها.

أشار له نوارتييه: - أنا أنصت.

كان مشهدًا مثيرًا، مشهد هذا الشّيخ الذي يبدو مجرّدَ حملٍ ثقيلٍ لا فائدة منه، والذي صار الحاميَ الوحيد، السّنَد الوحيد، المدافعَ الوحيد عن عاشقَيْن شابَّين، جميلين، وقويّين، يتهيّئان لدخول الحياة.

وجهه، المطبوع بنبل وصرامة بارزين، كان يهيمن على موريل الذي بدأ كلامه مرتجفًا.

وكان أن حكى كيف التقى بفالانتين وأحبّها، وكيف أنّها، في عزلتها وشقائها، قبِلت هبة إخلاصه. أخبره بمولده، ومكانته، وثروته؛ ومراتٍ عديدة، حين كان يسائل نظرة الشّيخ المشلول، كانت تلك النّظرة تجيبُه:

- حسنًا، واصل.

وبعدما أكمل موريل الجزء الأوّل من كلامه، قال: - الآن، وقد بيّنتُ لك حبّي وأمانيَّ، هل ينبغي أن أطلعك على مشاريعي؟

أشار الشّيخ: - نعم.

- حسنًا، إليك ما عزمنا عليه.

ثمّ قصّ على نوارتييه كلّ شيء: كيف أنّ عربةً كانت تنتظره عند السيّاج، وكيف كان ينوي أن يأخذ فالانتين، فيصطحبها إلى بيت أخته، ويتزوّجها، ويظلُّ يأمل في عفوٍ من السيّد دو فيلفور.

أشار نوارتييه: - لا.

فاستأنف موريل: - لا؟ أليس هكذا ينبغي أن نفعل؟

«لا».

- أنت لا تبارك إذاً مشروعنا هذا؟

«لا».

- حسناً إذاً، هناك طريقةٌ أخرى.

ظهر التساؤل في نظرة الشيخ.

فاستأنف موريل الكلام: - سأقصد السيّد فرانز ديبيناي، وإنّي لسعيدٌ إذ أستطيع قول هذا الكلام له في غياب الآنسة دو فيلفور، وسأتعامل معه بطريقةٍ تجعله يتصرّف كرجلٍ شهم.

استمرت نظرة نوارتييه المتسائلة. فأكمل ماكسيميليان:

- إليك ما سأفعله. سأذهب إلى لقاء السيّد فرانز، فأخبره بأمرنا أنا وفالانتين، وما يجمعنا من رابط، فإن كان رجلًا يتحلّى بالمروءة، فإنّه سيعبّر عن مروءته بالتّخلي من تلقاء نفسه عن طلب يد خطيبته، ومنذ تلك اللحظة سأخصّه بصداقتي وإخلاصي حتّى الموت؛ أما إن رفض، إمّا بدافع من مصلحةٍ شخصيةٍ أو بإيعازٍ من كبرياء بليدٍ، بعدما أكون قد بيّنت له أنّه برفضه ذاك يسير ضدّ إرادة امرأتي، وأنّ فالانتين تحبّني ولن تكون لأحدٍ غيري، فسأطلبه في نزالٍ، تاركًا له كلّ الامتيازات عليّ، فإمّا أن أقتله وإمّا أن يقتلني؛ إذا ما قتلته فلن يتزوّج فالانتين، أمّا إن قتلني فسأكون على يقين من أنّ فالانتين لن تتزوّجه.

كان نوارتييه يتأمّل بمتعةٍ لا توصف تلك الهيأة النّبيلة والصادقة التي كانت تنطبع عليها كلّ المشاعر التي يلهج بها لسانُها، مضافًا إليها بواسطة تعابير الوجه الحسن كلّ ما يضيفُه اللّونُ إلى رسم متينٍ وصادقٍ.

على أنّه، حين فرغ موريل من الكلام، أغلق نوارتييه عينيه عدّة مرّات، وتلك كانت، كما نعلم، طريقته في قول لا.

قال موريل: - لا؟ أنت إذًا لا توافق على المشروع الثاني، مثلما لم توافق على الأوّل؟

أشار له المسنّ: - لا أوافق.

سأله موريل: - ما العمل إذًا يا سيّدي؟ لقد أوصت السيّدة دو سان مران في آخر كلماتها بأن يعجِّل بزواج حفيدتها. هل عليّ أن أترك الأمور تجري مجراها؟

ظلّ نوارتييه ساكنًا.

قال موريل: - فهمت، عليّ الانتظار إذًا.

«أجل».

- لكنّ كلّ وقتٍ ننفقه في الانتظار يا سيّدي، سيكون فيه ضياعنا. إنّ فالانتين بمفردها ستكون بلا حيلة، وسوف يُكرِهونها على الزّواج كأنّها طفلة. وأنا إذ دخلت إلى هنا بمعجزة كي أطّلع على ما يجري، وتمكّنت بمعجزة أيضًا أن أقف أمامك، لا أقدر أن أتصوّر عودة الأمور على بدء. صدقني، ما من حلّ سوى واحدٍ من الاثنين اللذين بسطتُهما أمامك، واغفر لي كلامي بهذه الطّريقة التي تفرضها عليّ حداثة سنّي؛ قل لي أيّهما تفضّل: هل تسمح لفالانتين بأن تتبعني؟

«كلّا».

- تفضّل أن أذهب فأواجه السيّد ديبيناي؟

«لا».

- لكن، يا إلهي! من ذا الذي سيحمل لنا العون الذي ننتظره من السّماء؟

ابتسم المسنّ بعينيه معًا، مثلما اعتاد أن يفعل كلّما أُتيَ على ذكر السّماء. ذاك أن أفكار العجوز اليعقوبي قد احتفظت دائمًا بشيءٍ من نزعتها الملحدة.

واصل موريل كلامه:

- من القدر؟

«لا».

- منك؟

«نعم».

- منك؟

كرّر الشّيخ جوابه: - نعم.

- تفهم جيّدًا ما أطلبه منك يا سيّدي؟ واغفر لي إلحاحي، ذاك أنّ حياتي متعلّقةٌ بجوابك: هل سيأتي خلاصنا من عندك؟

«نعم».

- أمتأكّد أنت؟

«نعم».

- تضمن لي ذلك؟

«نعم».

وكان في الجواب الذي قدّمَته النّظرة درجةٌ من الحزم، بحيث لم يكن ثمّة من مجالٍ للشكّ في إرادته، بله في قوّته.

- أوه! شكرًا يا سيّدي، شكرًا ألف مرّة! لكن أنّى لك أن تضمن ذلك، اللهم إلاّ إن حدثت معجزةٌ، فاستعدت بفضلها النّطق والحركة؛ أنّى لك وأنت المقيّد إلى هذا الكرسيّ، أخرسَ مشلولًا، أنّى لك أن تعارض هذا الزّواج؟

أضاءت وجه الشّيخ ابتسامةٌ غريبة، ابتسامةٌ غريبةٌ تلك التي رسمتها عينان في وجه جامد.

سأله الشّاب: - عليّ الانتظار إذًا؟

«نعم».

- ماذا عن العقد؟

عادت الابتسامةُ نفسها.

- أتريد أن تقول إذًا إنّه لن يوقّع؟

«نعم».

صاح موريل: - لن يوقّع العقد حتّى! أوه! عفوك يا سيّدي، لكن حين يبلغك أحدهم بكلامٍ فيه سعادتك كلّها، فليس لك إلا أن تشكّ فيما يقول! لن يوقّع العقد؟

أجابه المشلول: - لا.

وعلى الرّغم من تأكيد الشيّخ إلا أنّ موريل ظلّ متردّدًا في أن يصدّق. ذلك أنّ هذا الوعد الذي قطعه مسنٌّ عاجزٌ كان من الغرابة بحيث يمكن إرجاعه إلى اعتلالٍ في الأعضاء، بدلًا من قوّةٍ في الإرادة؛ أليس من الطّبيعي أنّ الأحمق الذي يجهل حمقه يدّعي القيام بأشياء تفوق قدرته؟ الواهن يتحدّث عمّا يستطيع حمله من أثقال، والخوّاف يتحدّث عن المردة الذين يستطيع مواجهتهم، والفقير عمّا يحوزه من كنوز، وأحقر مزارع يسمّي نفسه، بباعثٍ من غطرسته، الإله جوبيتير.

وكأنّما نوارتييه قد أدرك حيرة الشاب، أو كأنّما الشّابُ لم يضع بعد كلّ إيمانه في الطّاعة التي يبديها، فكان أن نظر إليه الشّيْخُ مسمّرًا فيه عينيه.

سأله موريل: - ما الذي تريده يا سيّدي؟ أتريد أن أجدّد لك وعدي بألّا أقدم على فعل أيّ شيء؟

ظلّت نظرة نوارتييه ثابتة وصارمة، وكأنّما يريد أن يقول إنّ وعدًا لا يكفيه؛ ثمّ نقل عينيه من وجه الشّاب إلى يديه.

سأله ماكسيميليان: - هل تريد أن أقسم لك يا سيّدي؟

أشار له المشلول إشارةً ملؤها الجدّية: «نعم، أريد».

فهم موريل أنّ الشّيخ يولي هذا القَسَم بالغ الاهتمام.

بسط يده. وقال:

- أقسم بشرفي، أن أنتظر ما تقرّره، قبل أن أقرّر ما أفعله ضدّ السيّد ديبيناي.

أشار الشّيخ بعينيه مؤكدًا.

فسأله الشّاب: - هل تسمح لي الآن بالانسحاب يا سيّدي؟
«نعم».
أكد موريل بأنّه سينفّذ ما طلب منه، وقال:
- هل تسمح الآن لابنك بأن يقبّلك، مثلما قبّلتك ابنتك قبل قليل!
لم يكن ثمّة في تعبير عيني نوارتييه ما يدفع إلى الشكّ.

طبع الشّاب شفتيه على جبين الشّيخ، في المكان نفسه حيث كانت الصبيّة قد طبعت شفتيها قبل ذلك.

ثمّ حيّا الشّيخَ مرّةً أخرى وانصرف. في البهو وجد الخادمَ المسنّ الذي كانت قد نبّهته فالانتين؛ كان الخادم ينتظر موريل، فاقتاده عبر التواءاتِ ممرّ معتمٍ إلى بابٍ صغير يفضي إلى الحديقة.

وإذ بلغ الحديقةَ، قصد موريل السياج، عبر الكوخ، وفي لحظةٍ كان أعلى السّور، ثمّ عبر السلّم، في ثانيةٍ، صار وسط حظيرة البرسيم، حيث كانت لا تزال تنتظره عربته.

ركب عربته، ونفسُه نهبٌ لعواطف متضاربة، لكن بقلب أشدّ ارتياحًا، عاد إلى شارع مسلاي حوالى منتصف الليل. وارتمى في سريره ونام كالغارق في سُكْرٍ عميقٍ.

74

مدفن عائلة دو فيلفور

يومان بعد ذلك، تجمّع حشدٌ معتبرٌ، حوالى السّاعة السّادسة صباحًا، أمام بيت السيّد دو فيلفور، وشوهد يتقدّمُ صفٌّ من عربات الحِداد والعربات الشّخصية على امتداد ضاحية سان أونوريه، وشارع المشتل.

ومن بين تلك العربات كانت واحدةٌ ذات شكلٍ مميّزٍ، ويبدو أنّها قدمت من سفرٍ بعيد. كانت أشبه بعربة شحنٍ مصبوغةً بالأسود، وكانت من بين أولى العربات التي حضرت إلى مكان العزاء.

فكان أن تساءل المتسائلون، فعلموا أنّ تلك العربة، التي وصلت بالصّدفة في ذلك التّوقيت، تحمل جثمان السيّد دو سان مِران، فصار أولئك الذين أتوا يشيّعون ميّتًا واحدًا، يسيرون في إثر جثمانين.

كان عدد المشيّعين كبيرًا جدًا؛ فالسيّد الماركيز دو سان مران، أحد الخدّام الأشدّ إخلاصًا وتفانيًا للملك لويس الثّامن عشر والملك شارل العاشر، كان قد حافظ على علاقته بالعديد من الأصدقاء، جاؤوا يشيّعونه صحبة أولئك الذين تجعلهم الأعراف الاجتماعية في علاقةٍ مع السيّد دو فيلفور، فصار الجميع يشكّلون فيلقًا معتبرًا.

أُخطرت السلطات على وجه الاستعجال، فأتى التّصريح يسمح بأن يضمّ الجثمانان في موكبٍ جنائزيٍ واحد. قُرّبت عربةٌ إلى باب السيّد دو فيلفور، ونُقل الجثمان من عربة الشّحن البريدي إلى النّقالة الجنائزية. كان الجثمانان سينقلان إلى مقبرة الأب لاشيز، حيث أقام السيّد دو فيلفور، منذ أمدٍ بعيدٍ، مدفنًا يفترض أن يضمّ رفات كلّ أفراد العائلة.

وفي المدفن كان يرقد جثمان المسكينة رينيه، وقد أتى جثمانا والديها يلحقان بها بعد عشر سنين من الفراق.

ثمّ شاهدت باريس، التي تُبدي دائمًا فضولًا وتأثرًا إزاء المراسم الجنائزية، قلنا شاهدت بصمتٍ قدسيٍّ مرور الموكب المهيب الذي يشيّع إلى مثواهما الأخير اسمين ينتميان إلى تلك الأرستقراطية العتيقة، اسمين من بين أشدّ أبناء تلك الطّبقة شهرةً بعقليتهما المحافظة، وبالحرص على التّجارة، والإخلاص للمبادئ.

وفي عربة حدادٍ واحدةٍ اجتمع بوشان، وألبير وشاتو رونو، يخوضان في أمر هذه المِيتة التي تكاد تكون مفاجئة.

قال شاتو رونو: - لقد قابلت السيّدة دو سان مران الصّيف الماضي في مارسيليا، وكنت عائدًا لتوي من الجزائر؛ لقد كانت امرأة منذورة للعيش مائة سنة بفضل صحّتها الممتازة، وذهنها المتيقّظ دائمًا ونشاطها المتّقد. كم كان عمرها؟

قال ألبير: - ستّة وستون عامًا، إن صحّ ما أخبرني به فرانز. على أنّ السنّ ليس هو ما قتلها، وإنّما أودى بها الحزنُ الذي تلا وفاة الماركيز؛ يبدو أنّها، منذ تلك الوفاة التي رجّت كيانها، لم تستطع أن تستعيد رجاحة عقلها.

سأله بوشان: - لكن ما السبب المباشر للموت؟

- ماتت جراء احتقان دماغي على ما يبدو، أو بسبب سكتة دماغية مفاجئة. أليس الأمران سيّين؟

- تقريبًا.

قال بوشان: - ماتت بسبب احتقان؟ إنّه لأمرٌ يصعب تصديقه. إنّ السيّدة دو سان مران، التي قدّر لي أن أراها مرّةً أو مرّتين في حياتي، كانت امرأة قصيرة ونحيلة، وبِنيةُ جسدها عصبيّة أكثر منها دموية؛ قلّما تصيب احتقانات الحزن أجسادًا ذات تكوينٍ مشابه لجسد السيّدة دو سان مران.

قال ألبير: - على العموم، سواءً كان المرض أو الطّبيب سببًا في وفاتها، فهوذا السيّد دو فيلفور، أو بالأحرى الآنسة فالانتين، أو بشكل أدقّ صديقنا فرانز، وقد صار في حوزته ميراث هائل: مداخيل تساوي ثمانين ألف فرنك.

- وهو ميراثٌ سيتضاعف تقريبًا، بوفاة ذاك اليعقوبي المسنّ السيّد نوارتييه.

قال بوشان: - هو ذا جدٌّ عنيد. أظنّ أنّه قد راهن الموتَ على ألّا يموت قبل أن يدفن جميع الورثة. ولعمري إنّه سينجح في ذلك. ألم يكن أحد أعضاء مؤتمر [1]93، وأليس هو من كان يقول لنابليون سنة 1814: «إنّما أنت تشهد انحدارًا، لأنّ إمبراطوريتك برعُمٌ صغيرٌ ينهكه نموّهُ؛ اتّخِذ الجمهورية وصيًا، ولنرجع ومعنا دستورٌ محكم إلى ساحات المعارك، وإنّي لأعدك بخمسمائة ألف جنديّ، وأعدك بأن نعيد سيرة معركتَي مرنغو وأوسترليتز». إنّ الأفكارَ لا تموت، يا سيّدي، تنام أحيانًا، لكنّها لا تلبث أن تستيقظ أقوى ممّا كانت عليه قبل نومتها.

قال ألبير: - يبدو أنّ ما يصدق على الأفكار يصدق أيضًا على النّاس؛ على أنّ ثمّة شيئًا يشغلني. كيف للسيّد فرانز ديبيناي أن يتأقلم مع حمًى لا يقدر أن يفترق عن زوجته؟ بالمناسبة، أين فرانز؟

- إنّه في العربة الأولى مع السيّد دو فيلفور الذي صار يعتبره أصلًا فردًا من أفراد عائلته.

في كلّ عربة من العربات التي تشيّع الجثمانين، كان الحديث هو هو تقريبًا؛ كان الجميع مندهشًا من الميتتين القريبتين والمباغتتين، بيد أنّ لا أحد كان يخطر بباله السِّر الرّهيب الذي باح به السيّد دافرينيي إلى

(1) يقصد مؤتمر 1793 المعروف بمؤتمر الجبليين، وصوّت فيه الجبليون على دستور سُمي دستور السَّنة.

السيّد دو فيلفور أثناء جولتهما الليلية. بعد ساعةٍ من المشي تقريبًا، بلغوا باب المقبرة. كان الجوّ هادئًا، لكن مكفهرًا، وبالتّالي منسجمًا مع المناسبة الجنائزية التي جرت قبل قليل. ومن بين زرافات النّاس الذين كانوا يتّجهون صوب مقبرة آل فيلفور عرفَ شاتو رونو السيّدَ موريل، الذي كان قد أتى بمفرده في عربة؛ كان يمشي وحيدًا، شديد الشّحوب وصامتًا، في الطريق التي تحفّها أشجارُ الطّقسوس.

قال شاتو رونو، وهو يدسّ ذراعه تحت ذراع القبطان الشّاب: -أنت هنا! أنت تعرف إذًا السيّد دو فيلفور؟ كيف إذًا لم يسبق لي أن رأيتك في بيته؟

أجابه موريل: – ليس السيّد دو فيلفور من أعرفه، وإنّما السيّدة دو سان مران هي التي كانت من معارفي.

في تلك اللحظة التحق بهما ألبير وفرانز.

قال ألبير: – إنّ المكان غير ملائم للتّعارف، لكن ما علينا، نحن لسنا متشائمين. اسمح لي يا سيّد موريل بأن أقدّم إليك السيّد فرانز دېبيناي، رفيق سفرٍ ممتاز، فقد صاحبته في رحلة حول إيطاليا. والسيّد موريل، يا عزيزي فرانز صديقٌ رائعٌ عرفته في غيابك، ولا ريب في أنّكَ ستشهد اسمه يتردّد على لساني كلّما عنّ لي الحديث عن الطّيبة والفطنة واللّطف.

انتابت موريل لحظة تردّد. تساءل عمّا إذا لم يكن فعل نفاقٍ منه أن يحيي تحيّةً تكاد تكون ودودًا الرّجلَ الذي كان يحاربه في الخفاء؛ لكن ما لبث أن عاد إلى ذهنه القسَم الذي قطعه، وكذا الملابسات التي حكمت لقاءهما، فجاهد في ألّا يترك شيئًا ينطبع على وجهه، وحيّا فرانز متمالكًا نفسه.

قال دُبراي لفرانز: – إنّ الآنسة دو فيلفور حزينةٌ جدًا، أليس كذلك؟

أجاب فرانز: – آهٍ يا سيّدي! حزينةٌ حزنًا لا يوصف. هذا الصّباح كانت منهارة، بحيث بالكاد استطعت التّعرّف عليها.

تلك الكلمات، على بساطتها الظّاهرة، مزّقت قلب موريل. هذا الرّجلُ رأى فالانتين إذًا، فهل كلّمها؟ احتاج إذّاك الضّابط الشّاب المتّقد، أن يستجمع كلّ قواه حتّى يمنع نفسه من أن ينكث القسَم الذي قطعه. أخذ شاتو رونو من ذراعه وسحبه سريعًا تجاه المدفن الذي كان أمامه عاملَين من عمال الجنائز قد وضعا للتوّ التابوتين.

قال بوشان وهو يجيل بصره في الضّريح: - يا له من مقرّ رائع؛ مقرّ صيفيّ وشتوي. ستقطنه بدورك يا سيّد ديبيناي، ما دمت ستصيرُ قريبًا فردًا من أفراد العائلة. أمّا أنا، فباعتباري فيلسوفًا، أريد منزلًا ريفيًا، كوخًا هناكَ تحت الأشجار، لا أن توضع فوق جسدي المسكين كلّ تلك الأحجار الهائلة. وساعة موتي سأقول للمحيطين بي ما كتبه فولتير لبيرون[1]: **Eorus**[2]، ويكون الأمر قد قُضي...اللعنة! تصبَّر يا فرانز، فإنّ امرأتك سترث.

قال فرانز: - الحقّ يا بوشان أنّك لا تطاق. لقد أكسبك خوضُك في أمور السياسة عادة أن تضحك من كلّ الأمور، وإنّ من عادة الرّجال الذين يديرون الأعمال ألاّ يثقوا في شيء. لكن حين تتشرّ تّواجد مع رجال عاديّين يا بوشان، وتنعم للحظة بالبعد عن السياسة، فلتحرص على أن تستعيد قلبك الذي تتركه في مكاتب مجلس النّواب أو مجلس باريس.

قال بوشان: - يا إلهي! ما الحياةُ إلا سعيٌ في بهو الموت.

قال ألبير: - لم أعد أطيق بوشان.

ثمّ انتحى بفرانز إلى الخلف مسرعًا، تاركًا بوشان يواصل إنشاءاته الفلسفية مع دُبراي.

---

(1) المقصود الشّاعر الفرنسي أليكسيس بيرون Piron (1689- 1773).

(2) يشير دائما هنا إلى الطرفة الشّهيرة بين فولتير والشّاعر بيرون، حيث تنافسا في من يبعث للثاني بأقصر رسالة ممكنة، وردًا على رسالة بيرون (ومعناها باللاتينية: أنا ذاهب إلى الرّيف)، كتب إليه فولتير رسالةً من حرف واحد فقط (ومعناها باللاتينية اذهب!).

كان مدفن عائلة فيلفور يشكّل مربّعًا من الأحجار البيضاء، ارتفاعه عشرون قدمًا تقريبًا، وفاصلٌ وسطه يقسمه قسمين، قسمٌ لعائلة سان مِران، وقصم لعائلة فيلفور، ولكلّ قسم مدخله الخاصّ.

وعلى خلاف المدافن الأخرى، لَم يكن به، تلك الأدراج الحقيرة الموضوعة واحدًا فوق آخر، والتي فيها يغلق على أجساد الموتى مع شاهدة تشبه ملصقًا صغيرًا؛ أوّل ما كان يرى في مدفن فيلفور عبر الباب البرونزي هو ردهةٌ قاتمةٌ مظلمة، يفصلها جدارٌ عن المدفن الفعليّ، وفي ذاك الجدار جُعل البابان اللذان ذكرناهما قبل قليل، واللذان كانا يفضيان إلى مدفنَي فيلفور وسان مِران.

هناك كان بالإمكان إطلاق العنان للآلام بمنأى عن المتنزّهين المُجّان الذين يجعلون من زيارة مقبرة الأب لاشيز، مناسبةً للنّزهة والغراميات، والذين قد يأتون ليزعجوا بغنائهم وركضهم التأمّل الصّامتَ أو الصّلاة الباكية لأهل المدفن.

أُدخل التابوتان إلى المدفن الأيمن، أي مدفن عائلة دو سان مران؛ وُضعا على نعشين مُعدَّيْن سلفًا، ينتظران أن يحملا الميت؛ وحدهم فيلفور وفرانز وبعض الأقارب المقرّبين ولجوا الضريح. وبما أنّ المراسم كانت قد تمّت عند الباب، وما كان ثمّة من خطابٍ يُتلى، فإنّ الحضور تفرّقوا على الفور؛ ذهب شاتو رونو وموريل في اتّجاه، ودُبراي وبوشان في اتّجاه آخر. بينما بقيَ فرانز مع السيّد دو فيلفور عند باب المقبرة؛ توقّف موريل متذرّعًا بأوّل ذريعةٍ خطرت على باله؛ رأى فرانز والسيّد دو فيلفور يغادران في عربة عزاء، وخلص من بقائهما معًا رأسًا لرأسٍ إلى فألٍ سيئ.

فكان أن عاد إلى باريس، وعلى الرّغم من أنّه شارك عربة العودة كُلًّا من شاتو رونو وألبير، إلا أنّه لم يكن يسمع شيئًا ممّا كانا يقولانه.

والحال أنّه في اللّحظة التي كان فيها فرانز سيودّع السيّد دو فيلفور، قال له فيلفور:

- متّى سأراك مرّةً أخرى يا سيّدي البارون؟
أجابه فرانز: - في أيّ وقت تشاء يا سيّدي.
- في أقرب وقتٍ ممكن.
- أنا طوع أمرك يا سيّدي؛ هل تودّ أن نعود معًا؟
- إن لم يكن في الأمر ما يزعجك.
- لا إزعاج البتّة.

هكذا إذًا صعد في عربةٍ واحدةٍ الحَمو والصهر المستقبليّين، وإذ رآهما موريل كذلك، كان محقًّا في مخاوفه الخطيرة.

عاد فيلفور وفرانز إلى ضاحية سان أونوريه.

ومن دون أن يدخل عند أحد، من دون أن يكلّم لا زوجته ولا ابنته، اقتاد الشّابَ إلى مكتبه، وأشار له إلى مقعدٍ قائلًا: - سيّدي ديبيناي، أحسبُ أنّ عليّ تذكيرك، ولعلّ اختيار الوقت ليس بالسوء الذي نظنّه، إذ إنّ أفضل عطاءٍ يمكن أن يوضع على توابيت الموتى هو أن ننفّذ وصاياهم؛ عليّ إذًا أن أذكّرك بالأمنية التي عبّرت عنها أمس السيّدة دو سان مران، وهي على فراش الاحتضار، أقصد أمنيتها في أن لا يتأجّل زواجك من فالانتين. أنت على علمٍ بأنّ أعمال المرحومة تسير كما ينبغي؛ وبأنّها في وصيّتها وهبت كامل ثروتها لفالانتين؛ لقد أراني الموثّق أمس العقود التي تسمح لنا بتحرير عقدٍ نهائيّ للزّواج. إنّ بإمكانك أن تقابل الموثّق وتأخذ نسخًا من تلك الوثائق. الموثّق هو السيّد ديشان، الواقع مكتبه بساحة بوفو، ضاحية سان أونوريه.

أجابه ديبيناي: - سيدي، ربّما ليس الوقت مناسبًا للآنسة فالانتين، وهي الغارقة في الألم، كي تفكّر في زوج، إنّي في واقع الأمر أخشى...

قاطعه السيّد دو فيلفور: - إنّ فالانتين لن ترغب في رغبةٍ أشدّ من تنفيذ آخر وصايا جدّتها؛ وبالتّالي، ليس هذا الجانب الذي قد تأتي منه المشاكل، إنّي أضمن لك ذلك.

- في هذه الحال يا سيّدي، وبما أنّ المشاكل لن تأتي من جهتي أنا أيضًا، فبإمكانك أن تفعل كما يحلو لك؛ قولي ملزِمٌ، وسأنفذه، ليس عن طيب خاطر فقط، وإنّما بسعادة.

- لا شيء يعترضنا إذًا؛ كان يفترض توقيع العقد منذ ثلاثة أيّام، وبالتّالي سنجده جاهزًا: بإمكاننا توقيعه اليوم.

أجابه فرانز متردّدًا: - لكن ماذا عن الحِداد؟

- فلتطمئنّ يا سيّدي، ليس في بيتي تنتهكُ الأعرافُ؛ بوسع الآنسة دو فيلفور أن تنعزل ثلاثة أشهر في أرضها بسان مران؛ أقول أرضها، لأنّ ملكيّتها بالفعل آلت إليها. وهناك، بعد ثمانية أيامٍ، إن أردتَ، بوسعنا أن نتمّ الزّواج المدنيّ، من دون مظاهر احتفال أو بهرجة أو ضجيج. لقد كانت رغبة السيّدة دو سان مران أن تتزوّج حفيدتها هناك. وما إن يتمّ الزّواج حتّى يكون بقدورك العودة إلى باريس يا سيّدي، بينما تقضي فالانتين حدادها هانئةً هناك برفقة زوجة أبيها.

- كما تشاء يا سيّدي.

- انتظر رجاءً إذًا نصفَ ساعةٍ، ستنزل فالانتين إلى الصالون؛ سأرسل في طلب السيّد ديشان، ونقرأ العقد ونوقّعه، ومن مساء اليوم ستصطحب السيّدة دو فيلفور فالانتين إلى أرضها، ثمّ بعد ثلاثة أيامٍ نلحق بهما أنا وأنت.

قال فرانز: - سيّدي لي رجاءٌ وحيدٌ عندك.

- أيّ رجاء؟

- أرغب في أن يحضر توقيعَ العقد ألبير دو مورسيرف وراوول دو شاتو رونو أنت تعلم أنّهما شاهداي.

- نصف ساعةٍ تكفي لإعلامهما؛ هل ترغب في أن تذهب بنفسك لإحضارهما، أم تفضّل أن أرسل في طلبهما؟

- أفضّل أن أذهب بنفسي يا سيّدي.

- سأنتظر عودتك إذًا يا سيّدي البارون في نصف ساعة؛ وفي نصف ساعةٍ ستكون فالانتين جاهزة.

حيّا فرانز السيّدَ دو فيلفور وانصرف.

وما إن أُغلق باب الشّارع خلفَ الشّاب، حتّى أرسل فيلفور يُعلم فالانتين أنّ عليها النّزول إلى الصالون في نصف ساعة، حيث ينتظرها الموثّق وشهود السيّد ديبيناي.

وقد أحدث الخبرُ غير المتوقّع أثرًا كبيرًا في المنزل.

لم تستطع السيّدة دو فيلفور تصديق الأمر، وانهارت فالانتين كأنّما ضربتها عاصفة. صارت تنظر حواليها كأنّما تلتمس من تستطيع الاستنجاد به.

أرادت أن تنزل عند جدّها، لكنّها صادفت في السلّم السيّد دو فيلفور، فأخذها من ذراعها وأنزلها الصالون.

في البهو صادفت باروا، ورمته بنظرةٍ يائسة.

وبعد لحظةٍ من دخول فالانتين الصّالون، دخلت السيّدةُ دو فيلفور ومعها الصّغير إدوارد. وكان واضحًا أنّ المرأة قد أخذت نصيبها من أحزان العائلة؛ فقد كانت شاحبة، وتبدو تعبة بشكلٍ مريع.

جلست، وأجلست إدوار على ركبتيها، وبين الفينة والأخرى كانت تضغط بحركاتها التي تكاد تكون تشنّجات لا إرادية، على صدر الطّفل الذي كان يبدو أنّها قصَرت حياتها كلّها عليه.

ثمّ ما لبث صرير عربتين أن تردّد في ساحة البيت. إحداهما كانت عربة الموثّق، والثّانية كانت عربة فرانز وصديقَيه.

وفي لحظة صار الجميع متجمِّعِيْن في الصالون.

كانت فالانتين شاحبةً إلى درجة أنّ عروق صدغيها الزرقاء كانت ترتسم حول عينيها منتشرةً على امتداد وجنتيها.

لم يكن فرانز يستطيع أن يكبح جماح انفعاله الشّديد. وكان شاتو

رونو وألبير ينظران إلى بعضهما بعضًا في دهشة. ذلك أنّ المناسبة التي يحضرانها الآن بدت لهما لا تقلّ حزنًا عن تلك التي حضراها منذ قليل.

كانت السيّدة دو فيلفور قد انزوت إلى الظّل، خلف ستارٍ من مخمل، وبما أنّها كانت منكفئةٍ باستمرارٍ على ابنها، فقد كان من الصّعب قراءة انفعالات قلبها على صفحة وجهها. أمّا السيّد دو فيلفور فكان، على دأبه، جامدًا.

وبعدما قام الموثّق، على ديدن رجال القانون، بترتيب الأوراق ووضعها على الطّاولة، وبعدما اتّخذ موضعه على الأريكة ونزع نظارتيه، استدار شطر فرانز سائلًا، وإن كان يعرف الجوابَ مسبقًا حقّ المعرفة:

-هل حضرتك السيّد فرانز دو كِسنل، بارون إيبيناي؟

أ-جابه فرانز: - نعم يا سيّدي.

فأومأ الموثّق موافقًا. قال: - ينبغي إذًا أن أعلمك يا سيّدي، من طرف السيّد دو فيلفور، بأنّ زواجك المرتقب من طرف الآنسة دو فيلفور قد غيّر موقف السيّد نوارتييه من حفيدته، وأنّه سيحرمها كليًا من الثروة التي كان يفترض أن تؤول إليها؛ ولنقل بلا إبطاء إنّ الموصي لا يحقّ له أن يمنع إلّا جزءًا من ثروته، وبما أنّه منع ثروته كلّها، فسيكون من السّهل علينا الوقوف ضدّ قراره، وستُبطَلُ وصيّته.

قال فيلفور: - أجل؛ لكنّي أنبّه السيّد ديبيناي مسبقًا بأنّ وصيّة والدي لن تُنقض ما حييت، فأبدًا لن أسمح أن يَمَسَّ مركزي ولو بشبح فضيحة.

قال فرانز: - سيّدي، إنّه لمؤسفٌ إثارة هذه المسائل أمام الآنسة فالانتين. لم يسبق لي قطّ أن تساءلت عن أرقام ثروتها التي مهما تضاءلت ستظلّ أكبر من ثروتي أنا. إنّ ما تلتمسه عائلتي من مصاهرة السيّد دو فيلفور هو التقدير الاجتماعي؛ وما أطلبه أنا هو السّعادة.

أومأت فالانتين إيماءة شكرٍ لا تكاد تبين، بينما دمعتان صامتتان تنزلان على خدّيها.

قال فيلفور موجّهًا كلامه إلى صهره المستقبليّ: - ثمّ إنّ خسارة جزءٍ ممّا يمكن أن ترجوه، بسبب هذه الوصية غير المتوقّعة، ليس فيها ما يمسّك شخصيًا. إنّما هو علامةٌ على وهَن قوى السيّد نوارتييه العقلية. إنّ ما لا يعجب والدي، ليس زواج الآنسة دو فيلفور منك، وإنّما زواجها في حدّ ذاته. وبالتّالي فإنّ زواجها من أيّ شخصٍ غيرك كان ليخلّف لديه الحزنَ نفسَه. إنّ الشّيخوخة أنانية يا سيّدي، والآنسة دو فيلفور كانت تمنح السيّد نوارتييه صحبةً وفيّةً، صحبةً لا يمكن أن تضمنها له حين تصير السيّدة البارونة ديبيناي. إنّ الوضعية المؤسفة التي يوجد فيها والدي، تمنعنا من أن نتحدّث معه في الأمور الجديّة، إذ إنّ عقله يعجز عن المتابعة. وإنّي لعلى اقتناع تامٍّ من أنّه، في هذه السّاعة، وإن كان يتذكّر بأنّ حفيدته ستتزوّج، إلاّ أنه لا يذكر أيّ شيءٍ آخر، بما في ذلك الرّجل الذي سيصاهره.

وما كاد السيّد دو فيلفور ينهي كلامه، الذي أجاب عنه فرانز بتحيّة، حتّى انفتح باب الصالون، وظهر باروا.

قال بصوت مفرطٍ في الحزم قياسًا إلى خادمٍ يكلّم أسياده ضمن ملابساتٍ بهذه الدّرجة من الرّسمية: - سادتي، إنّ السيّد نوارتييه دو فيلفور يرغب في الحديث إلى السيّد فرانز دو كيسنل، بارون إيبيناي، على الفور.

وقد ذكر، مثلما فعل الموثّق، كلّ ألقاب الخاطب، تأكيدًا على أنّه لم يخطئ الشّخص.

انتفض فيلفور، وأفلتت السيّدة دو فيلفور ابنها ينزلق على ركبتيها، بينما وقفت فالانتين شاحبةً صامته كصنم.

تبادل ألبير وشاتو رونو نظرةً أكثر غرابةً من تلك تبادلاها من قبل. وأخذ الموثّق يحدّق في فيلفور.

قال وكيل الملك: - مستحيل؛ ثمّ إنّ السيّد ديبيناي لا يستطيع ترك الصّالون في هذه اللّحظة.

استأنف باروا الكلام بنفس الصّرامة: - في هذه اللّحظة تحديدًا يريد السيّد نوارتييه، سيّدي، الحديث في أمور مهمّة مع السيّد فرانز ديبيناي.

قال إدوارد بتهوّره المعتاد: - هل صار أبي الطيّب نوارتييه الآن يتكلّم؟

بيد أنّ عبارته تلك لم تنتزع من السيّدة دو فيلفور حتّى ابتسامة، لفرط ما كانت النّفوس منشغلةً، والوضع مهيبٌ.

استأنف فيلفور الكلام: - قُل للسيّد نوارتييه أنّ ما يطلبه متعذّرُ التّنفيذ.

أجاب باروا: - في هذه الحال يعلمكم السيّد نوارتييه بأنّه سينتقل بنفسه إلى الصالون.

بلغ الذّهول ذروته.

ارتسم على شفتي السيّدة دو فيلفور ما يشبه الابتسامة. أمّا فالانتين، فكأنّما رغمًا عنها، رفعت عينيها إلى السّقف كي تشكر السّماء.

قال السيّد دو فيلفور: - اذهبي يا فالانتين، فضلًا، فانظري بأيّ نزوةٍ من نزوات جدّك يتعلّقُ الأمر هذه المرّة.

تحرّكت فالانتين بسرعةٍ كي تخرج، لكنّ السيّد دو فيلفور ما لبث أن غيّر رأيه.

قال: - مهلًا، سأرافقك.

قال فرانز: - عفوك يا سيّدي، لكن بما أنّ السيّد نوارتييه قد طلبني أنا شخصيًا، فيبدو لي أنّ من واجبي أنا على وجه التّخصيص أن أذهب إليه؛ ثمّ إنّي سأسعد بأن أقدّم إليه تحيّاتي، ما دامت المناسبةُ لم تسنح لي من قبل لأنال هذا الشّرف.

قال فيلفور بقلق واضح: - أوه! يا إلهي! لا تزعج نفسك.

أجابه فرانز بنبرة رجلٍ حزمَ أمرَه: - عفوًا يا سيّدي، لكنّي مصممٌ على ألّا أفوّت فرصة أن أبرهن للسيّد نوارتييه كم سيكون مخطئًا في نفوره منّي، ذاك النّفور الذي لا أشكّ في أنّني هازمُه بإخلاصي.

ومن دون أن يترك الفرصة لفيلفور يستوقفه، قام فرانز بدوره، وسار في إثر فالانتين التي كانت أصلًا قد نزلت السلّم بفرحة غريقٍ وقعت يدُه على صخرة. ولحق بهما السيّد دو فيلفور.

تبادل شاتو رونو ومورسيرف نظرةً ثالثة أشدّ ذهولًا من سابقتَيها.

75
التّقرير

كان نوارتييه ينتظر جالسًا على مقعده، مرتديًا الأسود. وحين أُدخل عليه الأشخاصُ الثلاثة الذين كان ينتظرهم، نظرَ إلى الباب فبادر خادمه إلى إغلاقه.

همس فيلفور إلى فالانتين التي لم تكن تستطيع إخفاء فرحتها:

- حذار! إنّ السيّد نوارتييه يريد أن يخبرك بأشياء تمنع زواجك؛ أمنعك من أن تسايريه وتفهمي ما يقوله.

احمرّ وجه فالانتين، ولم تحِر جوابًا.

دنا فيلفور من السيّد نوارتييه وقال: - هو ذا السيّد ديبيناي، لقد طلبتَ رؤيته، فلبّى النّداء. قطعًا، كنّا نودّ حصول هذا الاجتماع بينكما منذ زمنٍ، وسأكون سعيدًا حين يبيّن لك السيّد فرانز أنّ اعتراضك على زواجه من فالانتين لا أساسٍ له.

لم يجب نوارتييه إلا بنظرة رجفت لها عروق فيلفور. وبنظره أشار إلى فالانتين أن تقترب.

وما هي إلا لحظةٌ حتّى كانت قد استطاعت، بفضل الطّريقة التي دأبت على أن تتواصل بها مع جدّها، أن تجد الكلمة التي يطلبها: كلمة مفتاح.

إذّاك تفحّصت نظرة المشلول التي كانت متعلّقةً بدرج أثاثٍ صغير بين النّافذتين. فتحت الدرج، وعثرت بالفعل على مفتاح.

وحين صار المفتاح بيدها، وأشار إليها الشّيخ بأنّه حقًّا المفتاح الذي طلبه، إذّاك اتّجهت عينا المشلول إلى مكتب صغيرٍ عتيقٍ، مكتبٍ منسيٍ كانوا يحسبون أدراجه لا تحوي إلا أوراقًا غير ذات أهميّة.

سألته فالانتين: - هل أفتح المكتب؟
أشار لها الشّيخ: - نعم.
- أفتح أدراجه؟
- نعم.
- الأدراج الجانبية؟
- لا.
- درج الوسط؟
- نعم.
فتحت فالانتين الدّرج، وأخرجت منه حزمة أوراقٍ.
سألت: - هي ذي الأوراق التي تريدها يا جدّي؟
- لا.
أخرجت كلّ الأوراق واحدةً بعد أخرى، حتّى لم يبق شيءٌ بالدّرج.
قالت: - ولكنّ الدّرج قد صار فارغًا الآن.
تعلّقت عينا نوارتييه بالقاموس.
قالت الشّابة: - نعم يا جدي، أفهمك!
ثمّ إنّها أخذت تردّد حروف الأبجدية واحدًا بعد آخر، إلى أن توقّف نوارتييه عند حرف س. فتحت المعجم وأخذت تبحث إلى أن توصلت إلى كلمة «سرّ».
قالت: - آه! هناك سرّ إذًا؟
أشار لها نوارتييه: - نعم.
- ومن يعرف هذا السرّ؟
نظر نوارتييه إلى الباب الذي خرج منه الخادم.
قالت: - باروا؟
فأشار الشّيخ: - نعم.
- هل أنادي عليه؟

- نعم.

قصدت فالانتين البابَ، ونادت على باروا. وأثناء ذلك كان عرقُ نفاد الصّبر يلمع على جبين فيلفور، فيما ظلّ فرانز جامدًا من الذّهول.

ثمّ ظهر الخادم المسنُّ.

قالت فالانتين: - باروا، لقد طلب منّي جدّي أخذ هذا المفتاح من ذلك الدّرج، ثمّ فتح هذا المكتب، والآن في هذا المكتب سرٌّ يبدو أنّك أنت من يعرفه؛ فافتحه.

نظر باروا إلى الشّيخ. فقالت له عينُ نوارتييه الذكيّة: «نفّذ الأمر».

ونفّذ باروا الأمرَ، فانفتَح داخلٌ مزدوجٌ وظهرت حزمة أوراق مربوطة برباط أسود.

سأل باروا سيّدَه: - أهذا ما تريده يا سيّدي؟

أشار نوارتييه: - نعم.

- لمن ينبغي أن أسلّمَ هذه الأوراق؟ للسيّد دو فيلفور؟

- لا.

- للآنسة فالانتين؟

- لا.

للسيّد فرانز ديبيناي؟

- نعم.

مندهشًا تقدّمَ فرانز خطوةً إلى الأمام.

قال: - لي أنا يا سيّدي؟

وأغمض الشيخ عينه، أن نعم.

أخذ فرانز الأوراق من يد باروا. وملقيًا نظرةً على الغلاف، قرأ: **يسلّم، بعد موتي، إلى صديقي الجنرال دوران، الذي سيترك هو نفسه هذه الحزمة، بعد موته، إلى ابنه، مع الأمر بالحرص عليه كلّ الحرص، إذ يحوي وثيقةً من الأهميّة بمكان.**

قال فرانز: - وما الذي تريد منّي أن أفعله بهذه الوثيقة يا سيّدي؟
أجاب وكيل الملك: - طبعًا أن تحتفظ به مغلّفًا كما هو.
أجاب نوارتييه بعنف: - كلّا، كلّا.
سألته فالانتين: - لعلّك ترغبُ في أن يقرأه السيّد؟
أجابها الشّيخ: - نعم.
قالت فالانتين: - أسمعتَ يا سيّدي البارون؟ إنّ جدّي يطلب منك أن تقرأ الوثيقة.
قال فيلفور بنفاد صبرٍ: - هيّا، لنجلس، فالأمر سوف يأخذ وقتًا.
أشارت عينُ الشّيخ: - اجلسوا!
جلس فيلفور، أمّا فالانتين فظلّت واقفةً بجانب والدها، مستندةً إلى حاشية مقعده، وفرانز أمامهما ممسكًا بيده الورقة الغامضة.
كانت عينا الشّيخ تقولان: «اقرأ!».
فكّ فرانز الرزمة، وبسط صمتٌ عظيم يديه على المكانِ. وفي وسط ذاك الصّمت قرأ:
مقتطف من تقارير أحد اجتماعات النّادي البونابرتي بشارع سان جاك، بتاريخ 5 فبراير 1815.
توقّف فرانز عن القراءة، قائلًا: -الخامس من فبراير 1815! إنّه التّاريخ الذي قُتل فيه والدي!
ظلّ فيلفور وفالانتين صامتَيْن؛ وحدها عينُ الشّيخ كانت تقول بوضوح: أكمل!
واصل فرانز الكلام: - لكنّ والدي اختفى لدى مغادرته النّادي!
واصلت نظرةُ نوارتييه القول: اقرأ.
واستأنفَ فرانز القراءة:
نحنُ الموقّعين لوي-جاك بوربير، الملازم العقيد بسلاح المدفعية؛ وإيتيان دوشامبي، الجنرال بسرية الجيش، وكلود لوشاربال، مدير المياه

والغابات؛ نصرّحُ بأنّه، في الرّابع من فبراير 1815، وصلتنا من جزيرة إلبا رسالةٌ توصي أعضاء النّادي بالجنرال فلافيان دو كيسنل الذي، باعتباره قد خدم الإمبراطور منذ سنة 1804 وحتّى سنة 1815، يفترض أن يكون مخلصًا كلّ الإخلاص للعرش البونابرتي، وذلك على الرّغم من لقب بارون الذي خلعه لويس الثامن عشر على أراضيه بإيبيناي.

وعليه، أُرسلَت رسالة إلى الجنرال دو كيسنل، تدعوه إلى حضور اجتماع اليوم التالي. ولم تكن الرسالة تتضمّن لا اسم الشّارع ولا رقم العنوان الذي يُفترض أن يتمّ فيه الاجتماع؛ ولم تكن الرّسالة كذلك تحمل أيّ توقيع، لكنّها كانت تُعلم الجنرال بأنّه إن كان على استعداد فسيأتي من يأخذه عند السّاعة التّاسعة مساءً.

كان موعد الاجتماعات يومئذ من التّاسعة مساءً حتّى منتصف الليل.

في التّاسعة مساءً، حضر رئيس النّادي إلى بيت الجنرال؛ وكان الجنرال جاهزًا؛ أبلغه الرّئيس أنّ أحد شروط التحاقه بالنّادي، هو أن يجهل إلى الأبد مكان الاجتماع، وأن يتركهم يعصبون عينيه، ويقسم على ألّا يسعى إلى رفع العصّابة.

وافق الجنرال دو كيسنل على الشّرط، واقسم بشرفه على ألّا يسعى إلى رؤية أين يقتادونَه.

كان الجنرال قد جهّزَ عربته؛ لكنّ الرّئيس قال له إنّه مستحيل استعمالها، إذ ما الفائدة من تعصيب عيني السيّد إذا كان الحوذيّ سيظلّ بعينين مفتوحتين ويعرف الشّوارع التي مرّوا منها.

سأل الجنرال: - كيف سنذهب إذًا؟

فأجاب الرّئيس: - عندي عربة.

- هل أنت إذًا واثقٌ كلّ الثقة من حوذيّك، حتّى تعهد إليه بسرٍّ ترى أنّ الحذرَ يستوجبُ عدم إطلاع حوذيٍّ أنا عليه؟

قال الرّئيس: - حوذيّنا عضوٌ في النّادي؛ سيقود عربتنا مستشار دولة.

فقال الجنرال ضاحكًا: - نواجه إذًا خطرًا آخر، خطر أن ننقلب.

وقد أخذنا دعابته تلك دليلًا على أنّ الجنرال لم يكن البتّة مجبرًا على حضور الجلسة، وأنّه قد أتى عن طيب خاطر.

وإذ صعدوا إلى العربة، ذكّر الرّئيسُ الجنرالَ بالوعد الذي قطعه، وعد أن يدعهم يعصبون عينيه. ولم يبدِ الجنرال أيّ اعتراض على هذا الإجراء. وقد تمّ ذلك بواسطة وشاح كان مجهّزًا بالعربة لهذا الغرض.

أثناء طريقهم، خال الرّئيس أنّه لَمح الجنرال يحاول النّظر من تحت العصابة: فذكّره بقسمه.

قال الجنرال: - آه! أنت محقّ.

توقّفت العربة أمام أحد ممرّات شارع سان جاك. نزل الجنرال مستندًا إلى ذراع الرّئيس، وقد كان يجهل مكانته ويحسبه مجرّد عضوٍ من أعضاء النّادي، عبرا الممرّ، وصعدا إلى الطّابق، ودخلا إلى قاعة المداولات.

كانت الجلسة قد بدأت. وكان أعضاء النّادي، وقد أُخطروا بطبيعة العرض الذي سيقدّم هذا المساء، قد حضروا بأكملهم. ولمّا صار الجنرال في وسط القاعة طُلبَ منه أن ينزع عصّابته. نفّذ الطلب على الفور، وبدا مندهشًا جدًا من كثرة الوجوه المألوفة التي رآها هناك في مجتمعٍ كان، حتّى وقتٍ قريب، يجهل وجودَه.

سُئلَ عن ميوله، فأجابَ بأنّ الرّسالة الواصلة من جزيرة إلبا يفترض أنّها تخبر بذلك...

قطع فرانز قراءتَه، وقال:

- والدي كان ملكيًا؛ وما كانوا بحاجةٍ إلى سؤاله لمعرفة ميوله، فقد كانت معروفة.

قال فيلفور: - ومن هنا أصل العلاقة التي ربطتني بوالدك، يا عزيزي السيّد فرانز؛ يسهل أن نرتبط حين تكون لدينا آراء مشتركة.

استمرت عينُ الشّيخ تقول: «اقرأ!»، فواصل فرانز القراءة:

- انبرى إذّاك الرّئيسُ للكلام، وطلب من الجنرال أن يكون أكثر وضوحًا؛ بيد أنّ السيّد دو كيسنل قال إنّه يريد أن يعرف أوّلًا ماذا ينتظرون منه.

أُطلع إذّاك الجنرال على الرّسالة القادمة من جزيرة إلبا التي توصي به، باعتباره شخصًا يُعتمد عليه.

وكانت في الرّسالة، فقرةٌ بأكملها تعرض عودةً وشيكةً من جزيرة إلبا، وتعد برسالة أخرى تليها، رسالة تكون أكثر تفصيلًا، وتصل مع السّفينة المسمّاة «الفرعون» التي يملكها التاجر موريل من مارسيليا، والتي يدين قبطانها بالولاء التّام للإمبراطور.

وطيلة قراءة الرّسالة، أبدى الجنرال الذي كنّا نحسبه أخًا نعتمد عليه، علاماتِ نفورٍ واستياء. وحين فُرغ من القراءة، ظلّ صامتًا مقطّب الحاجبين.

قال الرّئيس: - وإذًا يا سيّدي الجنرال، ما رأيك بما تقوله الرّسالة؟

أجاب: - أقول إنّنا بالكاد أقسمنا قسم الولاء للملك، حتّى يُطلب منّا أن ننكثه لصالح الإمبراطور السّابق.

وهذه المرّة كان الجوابُ صريحًا، بحيث ما عاد من إمكانٍ للخطأ في ميول الجنرال.

قال الرّئيس: - سيّدي الجنرال، بالنّسبة إلينا ما من ملك يدعى لويس الثامن عشر، كما لا وجود لإمبراطور سابق. نحن لا نعرف إلا جلالة الإمبراطور والملك الذي أُبعد من فرنسا، دولتِه، منذ عشرة أشهر، بالعنف والخيانة.

قال الجنرال: - عفوا يا سادتي؛ قد لا يوجد بالنّسبة إليكم ملك يدعى لويس الثامن عشر، لكن بالنّسبة إليّ أنا يوجد. خاصةً بعدما جعل منّي بارونًا وماريشالًا. فلن أنسى أبدًا بأنّي مدينٌ بلقبَيَّ هذين لرجوعه المظفّر إلى فرنسا.

قال الرّئيس بأشدّ ما تكون الجدّيّة: - انتبه لما تقوله يا سيّدي، فمعنى كلامك هذا أنّهم أخطأوا التّقدير بخصوصك في جزيرة إلبا، وجعلونا نخطئ نحن أيضًا جرّاء خطإِهم. إنّ المراسلة التي خُصِّصتَ بها تنطلق من الثقة أُوليَت لك، وبالتّالي من شعورٍ ينبغي أن يملأك فخرًا. وإذا نحن الآن نكتشف أنّنا كنّا مخطئين. لقبٌ ورتبةٌ عسكريّة جعلاك مرتبطًا كلّ الارتباط بالحكومة الجديدة التي ننوي الانقلاب عليها. لن نجبرك على أن تسير مسرانا؛ فنحن لا نوجّه أحدًا ضدّ إرادته وضميره؛ لكنّنا نلزمك بأن تتصرّف كرجلٍ شهم، حتّى وإن لم تكن على استعدادٍ لذلك.

- تقصدون بالشّهامة معرفة مؤامرتكم، وعدم الإفصاح عنها! أمّا أنا فأسمّي ذلك تواطؤًا. ها أنتم ترون أنّي أكثر صراحةً منكم...

قال فرانز قاطعًا قراءته: «آه يا أبي! أفهم الآن لمَ اغتالوك».

لم تستطع فالانتين أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة على فرانز، وقد كان الشّاب يبدو حقًّا جميلًا وهو يتقمّص حماسة الابن.

كان فيلفور يذرع الغرفة خلف فرانز طولًا وعرضًا. ونوارتييه يتابع بعينيه تعبيرات الجميع، محافظًا على هيئته المعتدّة والصّارمة.

عاد فرانز إلى المخطوط وواصل القراءة:

قال الرّئيس: - لقد طلبنا منك أن تحضر الاجتماع عن طيب خاطر، لم نجرّك إلى هنا غصبًا. طلبنا منك عصب عينيك، ووافقت. وحين قبلت طلبنا المزدوج ذاك، كنت على علم بأنّنا لا نجتمع هنا سعيًا إلى حماية عرش لويس الثامن عشر، وإلا لماَ كنّا حرصنا كلّ هذا الحرص على التّخفّي عن أعين الشّرطة. والآن أنت تدرك الأمر. من السّهل على المرء أن يضع قناعًا يمكّنه من أن يطّلع على أسرار النّاس، ثمّ بعد ذلك ينزع القناع ليُهلك أولئك الذين وضعوا فيه ثقتهم. كلّا، كلاّ، عليك أوّلًا أن تقول بصراحة هل أنت مع هذا الملك الذي يحكم الآن محضَ صدفةٍ، أم مع جلالة الإمبراطور.

أجاب الجنرال: - أنا ملكيّ؛ لقد أقسمت قسم الولاء للويس الثامن عشر وسأحفظ القسمَ.

تلت تلك الكلمات همهمة جماعية، وكان يبدو على وجوه عدد كبير من أعضاء النّادي الرّغبة في جعل الجنرال ديبيناي يتوب عن الكلام الخطير الذي تفوّه به.

وقف الرّئيس مرةً أخرى وفرض الصّمتَ.

قال: - سيّدي، أنت رجلٌ من الأهميّة والحصافة بحيث ستدرك لا محالة خطورة الوضع الذي نجد أنفسنا فيه الآن، واحدًا في مواجهة الآخر، وإنّ صراحتك نفسها هي ما يفرض علينا أن نملي عليك الخيارات التي ما زلنا نملكها: ينبغي إذًا أن تقسم بشرفك على ألّا تتفوّه بشيءٍ ممّا سمعته هنا.

أمسك الجنرال بسيفه وصاح: - إذا ما كنتم تتكلّمون عن الشّرف، فلتبدأوا أوّلًا بعدم إنكار قواعده، ولا تفرضوا شيئًا بالعنف.

واصل الرّئيس الكلام بهدوء أشدّ رعبًا من غضب الجنرال: - وأنت يا سيّدي الجنرال، لا تلمس سيفك، إنّها نصيحةٌ منّي إليك.

أجال الجنرال حوله عينيه اللتين كانتا تشيان بإرهاصات قلق. على أنّه لم يفكّر؛ لا بل على العكس من ذلك، استدعى كلّ قوّته وقال:

- لن أقسم.

أجاب الرّئيس بهدوء: - إذًا، ستموت يا سيّدي.

صار السيّد ديبيناي بالغ الشّحوب، وأدار عينيه حواليه مرّةً أخرى؛ كان العديد من أعضاء النّادي يتوشوشون ويتلمَّسون أسلحتهم تحت معاطفهم.

قال الرّئيس: - اهدأ يا سيّدي الجنرال؛ إنّك هنا بين رجالِ شرفٍ، رجالٍ سيحرصون بكلّ الوسائل على إقناعك قبل أن يلجأوا معك إلى أقصى الحلول، لكن أيضًا وكما قلت بنفسك أنت الآن بين متآمرين، وقد صرت تملك سرّنا، عليك إذًا أن تردّه إلينا.

تلا كلام الرّئيس صمتٌ بليغ، وبما أنّ الجنرال لم يحر جوابًا، قال الرّئيس مخاطبًا السّعاة:

- أغلقوا الأبواب.

تلا أمره ذاك، نفس الصّمت السابق، صمت الموت. إذ ذاك تقدّم الجنرال، وضاغطًا على نفسه بجهدٍ جهيد، قال:

- إنّ ليَ ابنًا، وينبغي أن أفكّر فيه وأنا بين جماعةٍ من القتلة.

قال رئيس المجلس بنبلٍ: - سيّدي الجنرال، من حقّ رجلٍ واحدٍ دائمًا أن يسبَّ خمسينَ رجلًا: ذلكم امتيازُ الضّعف. غير أنّه يخطئ حين يفرط في استخدام هذا الحقّ. ثق بي يا سيّدي الجنرال: اقسِم ولا تسبّ!

خاضعًا أمام تفّوق رئيس المجلس، تردّد الجنرال مرّةً أخرى؛ لكنّه انتهى إلى التقدّم صوبَ مكتب الرّئيس. وسأل: - ما صيغة القسم؟

- هي ذي: أقسم بشرفي ألّا أخبر أحدًا بما رأيته وسمعته يوم 5 فبرايرمن عام 1815، ما بين السّاعتين التّاسعة والعاشرة مساءً، وأصرّح بأنّي استحقّ القتل إن أنا خالفتُ قسَمي هذا.

بدا أنّ الجنرال يعتريه تشنّج عصبيّ منعه لثوانٍ من أن يستجيب؛ ثمّ أخيرًا، متغلّبًا على نفوره الجليّ، نطقَ بالقسَم، لكن بصوتٍ خفيضٍ بالكاد يُسمع. لذا طالبه العديد من الأعضاء بأن يعيد قسَمه بصوتٍ أعلى وأوضح، وهو ما قام به.

قال الجنرال: - الآن أرغب في المغادرة. هل أنا حرّ؟

قام الرّئيس وعيّنَ ثلاثة أعضاء لمرافقته، ثمّ صعد إلى العربة مع الجنرال بعدما عصب عينيه.

من بين أولئك الأعضاء الثلاثة الذين رافقوه كان الحوذي الذي أتى به.

أمّا باقي الأعضاء فقد تفرّقوا في صمت.

سأله الرّئيس: - إلى أين تريد أن نقودك؟

أجابه السيّد ديبيناي: - حيثما أستطيع أن أتخلّص من حضوركم.

قال الرّئيس: - سيّدي، انتبه لما تقوله، أنت لم تعد في المجلس، أنت الآن تواجه رجالًا معزولين؛ لا تسبّهم وإلا دفعت ثمن سبابك.

بيد أنّ السيّد ديبيناي، بدلًا من أن يعقلَ الكلامَ، أجاب: - ما زلتَ شجاعًا يا سيّدي وأنت في عربتك، قدْر شجاعتك وأنت بالمجلس، باعتبار أنّ أربعة رجالٍ هم أقوى من رجلٍ مفرد.

أوقف الرّئيس العربة.

وكانوا قد بلغوا بالضّبط مدخل رصيف الدّردار، حيث يوجد الدّرج الذي ينزل إلى النّهر.

سأل السيّدُ ديبيناي: - لمَ أوقفت العربة هنا؟

فأجابه الرّئيس: - لأنّك يا سيّدي شتمتَ رجلًا، وهذا الرّجل لا يريد أن يزيد خطوةً أخرى قبل أن يفصل معك في الأمر.

قال الجنرال هازًّا كتفيه: - هي إذًا طريقةٌ أخرى من طرق الاغتيال.

أجابه الرّئيس: - لا تضف كلمةً أخرى، إن كنت تريد ألّا أعتبرك واحدًا من أولئك الذين كنت تتحدّث عنهم من قبل، أقصد جبانًا يتعلّلُ بضعفه. أنت رجلٌ مفردٌ، ورجلٌ مفردٌ سيتصدّى لك؛ لديك سيفٌ، ولديّ سيفٌ في غمدي هذا؛ ليس لديك شاهدٌ، لذا سيكون شاهدك أحد هؤلاء الرّجال. والآن، إن كان يناسبك كلّ هذا، فلتنزع العصابة.

وعلى الفور نزع الجنرال المنديل الذي كان يغطّي عينيه. قال: أخيرًا سأعرف أيّ الرّجال أواجه.

فُتح باب العربة، ونزل الرّجالُ الأربعة...

قطع فرانز القراءة مرّة أخرى، ومسح عرقًا باردًا يسيل على جبينه، كان مرعبًا مرأى الابن، راجفًا وشاحبًا، يقرأ بأعلى صوته تفاصيل موت أبيه التي ظلّت مجهولةً حتّى ذلك الوقت.

ضمّت فالانتين ذراعيها كأنّما تصلّي.

وكان نوارتييه ينظر إلى فيلفور بتعبير يكاد يكون مهيبًا، لكنه تعبير يطفح احتقارًا وغطرسةً.

واصل فرانز القراءة:

- كان التّاريخ، كما أسلفنا، الخامس من فبراير. ومنذ ثلاثة أيّام كان الصقيع يبلغ خمس درجات أو ستًا؛ وكان الدرج شديد التصلّب بسبب الجليد، ولأنّ الجنرال كان بدينًا وعظيم الجسم، فقد ترك له الرّئيس جانب المنحدر لينزل منه. وكان الشّاهدان يلحقان بهما في الخلف.

كان الظّلام حالكًا، والمسافةُ من الدّرج إلى النّهر كانت مبلّلة بالثلج والصقيع، وكان يُرى الماءُ يجري، أسودَ غائرًا يجرّ في طريقه بعض قطع الجليد.

ذهب أحد الشّاهدَين يطلب قنديلًا من إحدى سفن الفحم. وعلى ضوء ذاك القنديل فُحصت الأسلحة. سيفُ الرّئيس، الذي كان ببساطةٍ سيفًا يحمله في غمده كما أسلف؛ قلنا سيفُ الرّئيس كان أقصر طولًا من سيف خصمه، وليس فيه واقٍ. اقترح الجنرال أن يجروا قرعةً بين السّيفين: ولكنّ الرّئيس اعترض محتجًا بأنّه هو من أثار المبارزة، وإذ أثارها فقد أقرّ ضمنيًا بأنّ كلّ واحدٍ سيستخدم سلاحَه. حاول الشّاهدان أن يلحّا في القول، لكنّ الرّئيس ألزمهما بالصّمت.

وُضع القنديل أرضًا، ووقف الخصمان كلّ واحدٍ في جهته؛ ثمّ بدأت المبارزة.

كان السّيفان يبدوان في ضوء القنديل كبرقَين. أمّا الرّجلان فبالكاد كانا يُلمحان، لفرط ما كان الظّلامُ دامسًا.

كان الجنرال يحمل ما يعدّ أحد أفضل سيوف الجيش. بيد أنّه ضُغط أشدّ الضّغط حتّى إنّه تراجع منذ الضّربات الأولى. وإذ تراجع عثرَ.

حسبه الشّاهدان قد ماتَ؛ لكنّ خصمه، الذي كان يعرف أنّه لم يلمسه، مدَّ له يده ليعينه على النّهوض. على أنّ تلك الحركة بدلًا من

أن تهدّئ الجنرال، لم تزده إلا هياجًا، فانهال بدوره على خصمه. بيد أنّ الخصمَ لم يتراجع قيد أنملة، وظلّ يستقبلُ هجوم الجنرال على سيفه.

ثلاث مرّات تراجع الجنرال إذ أحسّ نفسه قد بالغ في التّقدم، ثمّ عادَ يهجم.

وفي المرة الثالثة سقط ثانيةً.

ظنّوه انزلق مثلما حدث في المرة الأولى؛ على أنّ الشّاهدين إذ لاحظا أنّه لم يقم، اقتربا منه وحاولا إيقافه على قدميه مرّة أخرى؛ بيد أنّ الذي احتضنه منهما لينهضه أحسّ في يديه بللًا حارًا. كان دمًا.

استعاد الجنرال، الذي كان شبه مغشيًا عليه، وعيه. وقال: - آه! لقد أرسلوا لي أحد الفرسان، أحد مختصّي الأسلحة بالجيش.

ومن دون أن يجيبَ الرّئيسُ، اقترب من الشّاهد الذي كان يحمل القنديل، ورفع كمّ قميصه فبدت ذراعه وقد اخترقتها ضربتان؛ ثمّ فتح زيّه وفكّ أزرار صدريّته، فبدت على خاصرته ضربةٌ ثالثة. بيد أنّه لم تندّ عنه ولا أنّةٌ واحدة.

دخل الجنرال ديبيناي في النّزع، وتوفيَ خمس دقائق بعد ذلك.

قرأ فرانز تلك الكلمات الأخيرة بصوت مختنقٍ، بحيث بالكاد كان يُسمع؛ وبعدما فرغ من قراءتها، توقّف، ومرّ بكفّه على عينيه، كأنّما هو يطردُ عنهما غيمةً. لكن، بعد لحظة صمتٍ عاد يكمل القراءة:

- صعد الرّئيسُ الدّرج، بعدما أعاد سيفه إلى غمده؛ خيطٌ من دم على الثلج كان يرسمُ مسارَه. وما كاد يبلغ أعلى الدّرج حتّى سمع صوت ارتماءٍ مكتوم في الماء. كان صوت جسد الجنرال وقد ألقى به الشّاهدان في الماء، بعدما عاينا موتَه.

لقد هلك الجنرال إذًا في مبارزةٍ عادلة، وليس في كمين كما قد يقال.

لذلك وقّعنا على هذا المحضر الذي يفصّل الحقائق، خشيةَ أن يأتي زمنٌ يتّهم فيه أحد المشاركين في هذا المشهد الرّهيب بالقتل عن سابق إصرار وترصّد، أو بعدم احترام قواعد الشّرف.

وقّعه: بورغار، ودوشامبي، ولُشاربيل.

وحين فرغ فرانز من قراءته الرّهيبة بالنّسبة إلى ابنٍ؛ ومسحت فالانتين، الشّاحبة من التّأثر، دمعةً؛ وحاولَ فيلفور، المرتجف والمستكين في ركنه، تهدئة العاصفة بنظراتٍ متوسّلة وجّهها إلى الشّيخ العنيد. قال إيبيناي لنوارتييه: - سيّدي، ما دمت مطّلعًا على هذه الحكاية الرّهيبة، في أدقّ تفاصيلها، وما دمت قد أكّدتها بتوقيعاتٍ محترمة؛ وبما أنّك، أخيرًا، تبدو مهتمًا لأمري، وإن لم تعبّر عن اهتمامك إلا بما يوجع، فأرجو ألاّ ترفض لي طلبًا أخيرًا: أخبرني ما اسم رئيس النّادي، حتّى أستطيع معرفة اسم قاتل والدي المسكين.

التمس فيلفور، كالمذهول، مقبض الباب. أمّا فالانتين التي عرفت قبل الجميع جوابَ الشّيخ، إذ لطالما لاحظت على ذراعه ندبتين من أثر ضربة سيف، فقد تراجعت إلى الخلف.

صاح فرانز موجّهًا كلامه إلى خطيبته: - بحق السّماء! تعالي هنا، لأعرف اسم الرّجل الذي يتّمني في الثانية من عمري.

ظلّت فالانتين ساكنةً خرساء.

قال فيلفور: - ثِق بي يا سيّدي، ولا تغُص في هذه القصّة الرّهيبة؛ ثمّ إنّ الأسماء قد أُغفلت عمدًا. والدي نفسه لا يعرفها، ولن يستطيع الإجابة عن سؤالك: أسماء الأعلام لا وجود لها في القاموس.

صاح فرانز: - أوه! ما أشقاني! الأمل الوحيد الذي ظلّ يدعمني، وأعانني على إتمام هذه القراءة، هو معرفة اسم ذاك الذي قتل والدي! (ثمّ صاح وهو يستدير نحو نوارتييه) سيّدي! سيّدي! بحقّ السّماء! افعل كلّ ما في وسعك كي تعينني وتُبيّن لي...

أجاب نوارتييه: - نعم.

صاح فرانز: - أوه يا آنسة! لقد أشار جدّك بأنّه يستطيع أن يخبرني باسم الرّجل... ساعديني... أنت تفهمينه... أعينيني...

نظر نوارتييه إلى القاموس.

أخذه فرانز بارتعادٍ عصبيّ، وتلا الحرف «أ»، فأشار إليه الشّيخ أنّه الحرف المطلوب.

ردّد الشّابُ: حرف ألف. ثمّ انزلقت إصبعه على الكلمات، وعند كلّ كلمة كان نوارتييه يجيب بإشارة نفي.

كانت فالانتين تخفي رأسها بين يديها.

أخيرًا بلغ فرانز كلمة «أنا».

أشار إليه الشّيخ إشارة تأكيد.

صاح فرانز وقد انتصب شعره في رأسه: - أنت! أنت، يا سيّد نوارتييه! أنت قاتل والدي؟

أجاب نوارتييه وهو يرمق الشّاب بنظرةٍ مهيبةٍ: - نعم.

خرّ الشّاب واهنًا على مقعده.

فتح فيلفور الباب وخرج، إذ كانت تراوده فكرة خنق ذاك النّزر اليسير من الحياة الذي كان لا يزال يعتمل في قلب الشّيخ الرّهيب.

76

ازدهار كافالكانتي الابن

أثناء ذلك، كان كافالكانتي الأب قد ذهب يستعيد موقعه، ليس ضمن جيش جلالة الإمبراطور، وإنّما على طاولة قمارِ صالات لوكا التي كان أحد روادها المثابرين.

ولا نحتاج أن نقول إنّه قد أخذ معه حتّى آخر قطعةٍ المبلغَ الذي كان قد مُنحه لأجل سفره، ولمكافأته على الطّريقة العظيمة التي كان قد أدّى بها دور الأب.

وقد ورث السيّد أندريا من هذا الرّحيل كلّ الوثائق التي تؤكّد أنّه يحوز حقًا شرفَ كونه ابنًا للماركيز بارتولوميو والمركيزة ليونورا كورسيناري.

كان إذًا من اليسير عليه أن يندمج في هذا المجتمع الباريسي الذي لا يشقّ عليه استقبال الأجانب، ومعاملتهم ليس بحسب ما هم عليه، وإنّما بحسب ما يصبون إلى أن يكونوه.

ثمّ ما المطلوب من شابٍ في باريس؟ أن يتحدّث تقريبًا لغتها، وأن يلبس ملابس لائقة، وأن يكون لاعبًا ماهرًا، وأن يدفع بالذّهب.

ولا نحتاج قولًا إنّ الأمور تجري بالنّسبة إلى أجنبيّ، أيسر ممّا تجري بالنّسبة إلى باريسي. ولم تكد تمضي إذًا خمسةٌ وعشرون يومًا، حتّى كان أندريا قد حازَ مكانةً معتبرةً؛ كانوا ينادونه سيّدي الكونت، ويقولون إنّ له أملاكًا تدرّ خمسينَ ألف جنيه، ويتحدّثون عن ثروات والده الهائلة، ثرواته الدّفينة في مقالع سارافيزا (إيطاليا). ولما ذُكر خبر تلك المقالع أمام أحد العلماء، باعتبارها أمرًا واقعًا، قال إنّه قد سبق أن رآها، مانحًا

بذلك وزنًا لأخبارٍ كانت حتّى تلك اللحظة تموج في حالِ الشّك. ومُذّاك حازَ الوضعُ صلابةَ الواقع.

كانت حوادثُنا إذًا تجري ضمن دائرة المجتمع الباريسي تلك، حيثُ أدخلنا قرّاءنا، حين أتى مونت كريستو ذات مساءٍ لزيارة دانغلار. ولم يكن السيّد دانغلار موجودًا، فاقترحوا على الكونت أن تستقبله البارونة، فوافق.

ومنذ ما حدث في عشاء أوتوي، والحوادث التي لحقته، لم يكن يمرّ ذكر اسم مونت كريستو على البارونة من دون أن يخلّف فيها رجفةً عصبيّة. أمّا إن لم يعقب ذكرَ اسمِ الكونت حضورُه، فإنّ الإحساس المؤلم لا بدّ أن يصير أشدَّ إيلامًا؛ أمّا إن ظهر الكونت، فإنّ وجهه المنشرح، وعينيه البرّاقتين، ولُطفه، ولباقته تجاه السيّدة دانغلار، تمحو كلّ المحوِ أيّ انطباع خوفٍ لديها؛ كان يبدو للبارونة أنّه يستحيل على رجلٍ بهذا القدر من الوِدّ أن يضمر لها سوءًا؛ ثمّ إنّ حتّى أشرّ القلوب لا يمكنها أن تعتنق الشرّ إلا من حيث هو يخدم مصلحةً لها؛ إنّ الشرّ من غير فائدة أو سبب، تنفرُ منه النّفوس نفورها ممّا هو شاذ.

حين دخل مونت كريستو المخدعَ الذي سبق أن أدخلنا إليه قرّاءنا، وحيث كانت السيّدة دانغلار تتابع بنظرةٍ قلقة الرّسومات التي كانت تمدّها بها ابنتها بعد أن رأتها مع السيّد كافالكانتي الابن؛ قلنا حين دخل الكونت كان لحضوره نفس التأثير الذي يكون له عادةً، وبعد اضطرابٍ قليل استقبلته البارونة باسمةً.

وإذ دخل الكونت أحاط بالمنظر كلّه، بنظرةٍ واحدة.

قرب البارونة شبه المستلقية على مقعدٍ مزدوج، كانت أوجيني جالسةً فيما كافالكانتي واقف، وقد ارتدى السّواد كأنّه بطلٌ من أبطال غوته، وانتعل حذاءً مبرنقًا، ومن تحته جوارب حرير بيضاء كالنّهار؛ كان يخلّل شعرَه الأشقر بيدٍ على درجةٍ من البياض والعناية، وفي وسطها

يلمع خاتمٌ من ألماس لم يستطع الشّابُ المغرور مقاومةَ وضعه في خنصره على الرّغم من نصائح الكونت دو مونت كريستو.

وكانت تصاحب حركته تلك نظراتٌ قاتلةٌ وتنهيدات يلقي بها إلى الآنسة دانغلار.

أمّا الآنسة دانغلار فكانت على عادتها: أي جميلةً، وباردة، ومتهكّمة؛ لم تكن تفلت نظرة واحدة، ولا تنهيدة، من تلك التي يلقي بها إليها كافالكانتي؛ كان يبدو كأنّما تلك التنهيدات والنّظرات تنزلقُ على ترس مينيرفا، التّرس الذي يدّعي بعض الفلاسفة أنّه كان يغطّي أحيانًا صدر الشّاعرة صافو.

حيَّت أوجيني الكونت ببرود، واستغلّت بدء الحديث كي تنسلّ إلى صالة دراستها، حيث ما لبث أن ارتفع صوتان ضاحكان وضاجّان، تتخلّلهما أولى ضرباتِ بيانو، فأدرك الكونت أنّ الآنسة دانغلار قد فضّلت على رفقته ورفقة السيّد كافالكانتي رفقة الآنسة لويز دارميلي، مدرّستها لمادة الغناء.

وإذّاك تحديدًا، وهو منخرطٌ في الحديث مع السيّدة دانغلار وقد بدا عليه الاستغراق في عذوبة الحديث، انتبه الكونت إلى الاهتمام الذي أبداه أندريا كافالكانتي، وطريقته في أن يذهب، لينصت إلى الموسيقى، حتّى يبلغ الباب الذي لم يجرؤ على اقتحامه؛ وكذلك طريقته في إظهار إعجابِه.

ثمّ ما لبث المصرفيّ أن عاد. كانت نظرته الأولى، طبعًا، من نصيب الكونت دو مونت كريستو، لكن أندريا أيضًا أصاب النّظرة الثانية. أمّا زوجته، فقد حيّاها على الطّريقة التي يحيّي بها بعض الرّجال زوجاتهم، وهي الطّريقة التي لا يمكن أن يحيط بها العزّابُ علمًا إلا حين تُنشرُ مدوّنةٌ مفصَّلةٌ في الحياة الزوجية.

سأل دانغلار أندريا: - ألم تدعوك تانك الفتاتان إلى مشاركتهما الموسيقى؟

أجاب أندريا بتنهيدةٍ أقوى من سابقاتها: - للأسف! كلّا، يا سيّدي.

تقدّم دانغلار على الفور نحو الباب وفتحه. فظهرت الفتاتان جالستان على مقعدٍ واحدٍ أمام البيانو. كانتا تعزفان معًا، كلّ واحدة بيدٍ، وهو عزفٌ مارستاه بدافعٍ من نزوة، وتمرّستا عليه حتّى صارتا تتقنانه غاية الإتقان.

الآنسة دارميلي التي بدت تشكّل، بفضل إطار الباب، مع الآنسة أوجيني واحدة من تلك اللّوحات الحية التي كثيرًا ما تنجزُ مثيلاتها بألمانيا؛ قلنا إنّ الآنسةَ دارميلي كانت ذات جمالٍ أخّاذٍ، أو بالأحرى تتّصفُ بلطفٍ بالغٍ. كانت امرأةً ناحلة العود وشقراء كجنيّة، شعرها المجعّد ينزل على جيدها الطّويل بعض الشّيء، شأن الجيد الذي يمنحه أحيانًا الرّسام بيروجينو لعذراواته، وعيناها يظلّلهما التّعبُ. كان يقالُ إنّ صدرها واهنٌ، وإنّها قد تموت يومًا ميتة أنطونيا في قصّة **كمنجة كريمونا**[1]، التي ماتت وهي تغنّي.

غاص مونت كريستو في ذاك الخِدر بنظرةٍ سريعةٍ متفحّصة؛ كانت تلك المرّة الأولى التي يرى فيها الآنسة دارميلي التي كثيرًا ما سمع باسمها في المنزل.

قال المصرفيّ لابنته: - وإذًا، نحن ممنوعون من مشاركتكما؟

ثمّ إنّه اقتاد الشّابَ إلى الصالة الصّغيرة؛ وإمّا صدفةً أو عن قصدٍ، دُفع الباب خلف أندريا، بحيث ما عاد بالإمكان رؤيةُ شيءٍ من الموضع الذي كان يجلس فيه الكونت مونت كريستو والبارونة، لكن بما أنّ المصرفيّ كان قد رافق أندريا، فلم يبدُ على السيّدة دانغلار أنّها قد انتبهت أصلًا إلى هذا الأمر.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى تناهى إلى سمع الكونت صوتُ أندريا يدندنُ مع نغمات البيانو أغنيةً كورسيكية. وبينما يصغي الكونت مبتسمًا

---

(1) من تأليف الألماني إرنست هوفمان، ألّفها سنة 1818.

إلى الأغنية التي أنسَته أندريا، لتذكّره ببِنِيديتو، كانت السيّدة دانغلار تفخر برباطة جأش زوجها الذي كان قد خسر صباح ذلك اليوم نفسه، بسبب إفلاسٍ في مدينة ميلانو، ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف فرنك.

والحقُّ أنَّ مديحها كان في محلّه، فلولا أنّها أخبرت الكونت بالأمر، أو لولا أنّه عرفه بطرقه الخاصة، ما كان وجه دانغلار ليشيَ بشيءٍ من ذلك.

قال مونت كريستو في نفسه: -جيد! ها قد وصل إلى مرحلة كتمان خسائره: منذ شهرٍ كان ليفخر بها.

ثمّ أضاف بصوتٍ عالٍ: - أوه! يا سيّدتي، إنّ السيّد دانغلار خبيرٌ بالبورصة، بحيث إنّه سيعوّض لا محالةَ هنا، ما يخسره هناك.

قالت السيّدة دانغلار: - أراك تعتنق الخطأ الشّائع.

- أيّ خطأ تقصدين؟

- خطأ الاعتقاد في أنّ السيّد دانغلار يضارب في البورصة، والحقّ أنّه لا يفعل ذلك أبدًا.

- آه! أنت محقّة يا سيّدتي. أذكر أنّ السيّد دُبراي، قد قال لي... بالمناسبة، أين اختفى دُبراي؟ لم أرَه منذ ثلاثة أيّام أو أربعة!

أجابت السيّدة دانغلار بثباتٍ معجزٍ: - ولا أنا... لكنّك كنت قد بدأت جملةً ولم تُنهِها.

- أي جملة؟

- قلت إنّ دُبراي قد قال لك...

- آه! نعم؛ لقد أخبرني السيّد دُبراي أنّك أنتِ من يستسلم لغواية المضاربات.

- أعترف أنّي كنت شغوفةً بذلك ردحًا من الزّمن، لكن الآن ما عدت كذلك.

- وإنّك لمخطئةٌ يا سيّدتي. يا إلهي! إنّ حظوظ الثروة هشّةٌ، ولو

أنّي كنت امرأةً، وشاء لي القدر أن أكون زوجة مصرفيّ، فمهما كانت ثقتي في سعادتي الزوجية، فسأبدأ دائمًا بالعمل على ضمان ثروةٍ مستقلّة خاصّة بي؛ أقول سأسعى إلى حيازة هذه الثروة عبر وضع مصالحي في أيدٍ لا يعرفها هو.

احمرّ وجه السيّدة دانغلار رغمًا عنها.

واصل مونت كريستو الكلام، كأنّما لم يرَ شيئًا: - هاك مثلًا، يتحدّثون عن ضربةٍ مربحةٍ في أسهم نابولي.

ردّت البارونة بحدّة: - ليس لديّ أسهم؛ والحقّ أقول، لم يكن لي يومًا أسهم؛ لكن كفانا حديثًا في شؤون البورصة، إنّنا لنبدو مثل سمسارَين؛ لنتكلّم عن آل فيلفور المساكين، الذين يبدو أنّ صروف الدّهر تقلّب حياتهم الآن.

سألها مونت كريستو ببراءة مُثلى: - ما الذي حلّ بهم؟

- أنت تعرف؛ بعدما فقدوا الماركيز دو سان مِران، فجعوا بموت الماركيزة بعد ثلاثة أيامٍ أو أربعة من قدومها.

- آه! صحيح، لقد علمت ذلك؛ لكن مثلما يقول كلوديوس لهاملت، إنّه قانون الطّبيعة. لقد مات آباؤهم قبلهم، فبكوهم؛ وسيموتون قبل أبنائهم، فيبكيهم أبناؤهم.

- ليس هذا كلّ شيء.

- كيف، ليس كلّ شيء؟

- كلاّ؛ أنت تعرف أنّهم كانوا يستعدون لتزويج ابنتهم؟

- نعم؛ للسيّد فرانز ديبيناي... هل أُلغي الزّواج؟

- يبدو أنّ السيّد فرانز قد فسخ الخطوبة أمس.

- آه! حقًّا... وهل عُرفت أسبابُ الفسخ؟

- كلّا.

- ماذا تقولين يا سيّدتي؟ يا إلهي، أنّى للسيّد دو فيلفور الطّاقة على كلّ هذه المصائب؟

- كالعادة يتحمّلها بحكمة الفيلسوف.

في تلك اللّحظة دخل دانغلار بمفرده. فقالت البارونة: - هل تترك السيّد كافالكانتي مع ابنتك بمفردهما؟

أجابها المصرفيّ: - والآنسة دارميلي، ماذا تحسبينها إذًا؟

ثم استدار شطر الكونت دو مونت كريستو وأضاف: - إنّه لشابٌ لطيفٌ الأميرُ كافالكانتي، أليس كذلك يا سيّدي الكونت؟

- بلى، لا شكّ عندي في ذلك. لقد قدَّموا إليّ والده بوصفه ماركيزًا، وهو سيصير كونتًا؛ بيد أنّي أحسبه هو نفسه لا يطمح إلى هذا اللقب.

قال المصرفيّ: - لِمَ؟ إذا كان أميرًا، فإنّه مخطئ بأن لا يعتدّ بذلك. وهو حرٌّ. أمّا أنا، فلا أحبّ أن يتنكّر الإنسانُ لأصله.

قال مونت كريستو باسمًا: - أوه! إنّك ديموقراطيٌّ حقّ!

قالت البارونة: - لكن، انظُر إلى ماذا سوف تعرّض نفسك. لو أنّ السيّد دو مورسيرف أتى الآن صدفةً، فوجد السيّد كافالكانتي مع أوجيني في غرفةٍ واحدةٍ، الشّيء الذي لا يسمح به لنفسه، على الرّغم من أنّه خطيبها.

قال المصرفيّ: - أحسنتِ قولًا إذ قلتِ صدفةً، لأنّنا بالفعل لا نراه إلا نادرًا، بحيث نستطيع أن نقول صدقًا إنّ الصدفة وحدها ما تأتي به إلينا.

- المهم، إن أتى فوجد الشّابَ بقرب ابنتك، قد يغضب.

- يغضب؟ هو؟ أوه، يا إلهي! إنّكِ مخطئةٌ، فالسيّد ألبير دو مورسيرف لا يُنعم علينا بشرف الغيرة على خطيبته، فهو لا يحبّها إلى درجة الغيرة. ثمّ، فيمَ يهمّنا إن غضبَ أم لم يغضب!

- لكن، قياسًا إلى حيث وصلنا...

- نعم، قياسًا إلى حيث وصلنا. أتريدين أن تعرفي إلى أين وصلنا؟ في الحفل الرّاقص الذي نظّمته أمّه، لم يراقص ابنتنا سوى مرّة واحدة، بينما راقصها السيّد كافالكانتي ثلاث مرّات، من دون حتّى أن ينتبه هو للأمر.

صاح الخادم معلنًا: - السيّد الفيكونت ألبير دو مورسيرف!

وقفت البارونة بسرعة، وقصدت الصالون تعلم ابنتها بقدوم خطيبها، وإذا بدانغلار يوقفها من ذراعها.

قال: - دعي الأمر.

أخذت تنظر إليه في ذهول. وتظاهر مونت كريستو بعدم ملاحظة التمثيلية التي تجري فصولها أمامه.

دخل ألبير، وكان وسيمًا ومرحًا غاية الوسامة والمرح. حيّا البارونة بأريحيّةٍ ودانغلار بألفةٍ ومونت كريستو بعطفٍ؛ ثمّ استدار صوب البارونة قائلًا: - أتسمحين لي يا سيّدتي بأن أسألك عن أحوال الآنسة دانغلار؟

أجابه دانغلار بحدّة: - على خير ما يرام، إنّها تعزف الآن الموسيقى في صالتها الصّغيرة مع السيّد كافالكانتي.

حافظ ألبير على مظهره الهادئ وغير المبالي: - لعلّه كان يحسّ شيئًا من الحسرة داخليًا؛ غير أنّه أحسّ بنظرة مونت كريستو تحدّق فيه.

قال: - إنّ للسيّد كافالكانتي صوتَ تينورٍ رائعًا؛ وللآنسة يوجيني صوت سوبرانو بديعًا، هذا من دون أن نغفل أنّها تعزف على البيانو بمهارة تالبيرغ[1]. لا ريب في أنّهما يقدّمان حفلاً موسيقيًا جميلاً.

قال دانغلار: - الحقّ أنّهما منسجمان غاية الانسجام.

بدا على ألبير عدم فهم التعبير الملتبس الفظيع الذي نطق به دانغلار، بينما احمرّت البارونة.

واصل الشّاب الكلام: - أنا أيضًا موسيقيٌّ ماهرٌ؛ على الأقل بحسب ما يقوله معلّميَّ؛ والغريب هو أنّي لم أتمكّن إلى اليوم من خلق انسجامٍ بين صوتي وأيّ صوتٍ آخر، خاصّة الأصوات السوبرانو.

ابتسم دانغلار ابتسامةً مفادها: «هيا ابدِ غضبك!».

---

(1) المقصود عازف البيانو النمساوي زيغيسموند تالبيرغ (1812-1871).

ثمّ قال، راغبًا بلا شكّ في أن يبلغ الهدف الذي ينشده:

- أمس حصد الأمير وابنتي إعجاب الجميع، ألم تكن هناك؟

سأله ألبير: - أيّ أمير؟

أجاب دانغلار الذي لطالما اجتنب استعمال هذا اللقب: - الأمير كافالكانتي.

قال ألبير: - آه! عفوًا، لم أكن أعرف أنّه أمير. آه! الأمير كافالكانتي غنّى أمس برفقة الآنسة أوجيني؟ الحقّ يقال، لابد أنّهما قدّما عرضًا بديعًا، ولشدّ ما أتحسّر على عدم حضوره. لكنّي لم أستطع تلبية دعوتكم، إذ كنت مضطرًا إلى اصطحاب السيّدة دو مورسيرف إلى بيت البارونة شاتو رونو، الأمّ، حيث كان يغنّي الألمان.

ثمّ، بعد برهة صمتٍ، وكأنّما لم يحدث شيء، أضافَ ألبير: - هل مسموح لي بأن أقدّم تحياتي إلى الآنسة دانغلار؟

قال المصرفيّ موقفًا الشّابَ: - أوه! مهلًا، أرجـ مهلًا؛ هل تسمع المقطوعة العذبة: تا، تا، تا، تي، تا، تي، تا، تا، تا... مدهل، إنّها توشك أن تنتهي... لحظة واحدة: ممتاز! برافو! برافي! برافا!

ثمّ انطلق المصرفيّ إلى التّصفيق بحرارة.

قال ألبير: - رائعٌ بحق، ومن المستحيل أن يفهم المرء موسيقى بلده بقدر ما يفهمها الأمير كافالكانتي. قلت لي إنّه أمير، أليس كذلك؟ ثمّ إنّه، حتّى وإن لم يكن أميرًا، فسيجعلون منه أميرًا، تلك أمورٌ بسيطةٌ في إيطاليا. لكن، بالعودة إلى مغنيَّيْنا الرّائعَيْن، ينبغي أن تنعم علينا بمعروف، يا سيّد دانغلار: من دون أن تخبرهما أنّ ثمّة غريبًا هنا، أطلب من الآنسة دانغلار والسيّد كافالكانتي أن يُتحفانا بقطعةٍ أخرى. فما أطيب أن يستلذّ المرء بالموسيقى من بعيدٍ، أن يستلذ بها في غبش، من دون أن يُرى، ولا

أن يَرى، وبالتّالي من دون أن يزعج المغنّي، فيتركه على سجيّته ينطلقُ مفصحًا عن كامل عبقريّته وعنفوان قلبه.

وهذا المرّة غلبَ برودُ الشّابِ البارونَ دانغلار. فكان أن انتحى جانبًا بالكونت دو مونت كريستو وسأله: - ما قولك إذًا في عاشقنا؟

- اللعنة! يبدو لي متبلّد الحس، لا مراء في ذلك؛ لكن ما العمل؟ هل أنت ملتزم!

- بلا ريب أنا ملتزم؛ ملتزمٌ بأن أعطيَ ابنتي لرجلٍ يحبّها، وليس لرجلٍ لا يحبّها. أوَرأيت كيف هو هذا الرّجل: باردٌ كالرّخام، ومتغطرسٌ كأبيه؛ ولو أنّه كان غنيًا، لو أنّه كان يملك أملاك آل كافالكانتي، لما نظر إلينا حتّى. لعمري، أنا لم أسأل ابنتي رأيها؛ لكن، إن كانت تتمتّع بذوقٍ رفيع...

قال مونت كريستو: - أوه! لا أدري ما إذا كانت صداقتي له هي ما يعميني عن الحقيقة، لكنّني أؤكّد لك أنّ ألبير دو مورسيرف شابٌ لطيفٌ، سوف يسعد ابنتك، وسوف يبلغ عاجلًا أم آجلًا شأنًا عاليًا؛ ما دام مركز أبيه رفيعًا في نهاية المطاف.

اكتفى دانغلار بصوت: - هممم!

- لمَ هذا الشّك؟

- سيبقى ثمّة دائمًا الماضي... ذاك الماضي المظلم.

- لكن ما شأن الولد بماضي أبيه.

- حسنًا! حسنًا!

- لا تعاند؛ منذ شهر فقط كنت تعتبر هذا الزواج مربحًا... لا شكّ أنّك تفهم وضعي. ففي بيتي تعرّفت على الشّاب كافالكانتي، الذي أعيد وأكرّر أنّني لا أعرفه.

قال دانغلار: - أنا أعرفه، وحسبي ذلك.

سأله مونت كريستو: - أتعرفه؟ هل تقصّيت أخبارَه إذًا؟

- وهل أحتاج إلى ذلك؟ من الوهلة الأولى يدرك المرء مع من يتعامل؛ فهو بدءًا رجلٌ ثريٌّ.

- لا أستطيع تأكيد ذلك.

- لكنّك ضمنته مع ذلك.

- ضمنته في مبلغ خمسين ألف جنيه، أي مبلغ زهيد.

- تربيتُه رفيعة.

أتى الدّور على مونت كريستو ليقوم بصوت: هممم!

- إنّه موسيقي.

- كلّ الإيطاليين كذلك.

- لست منصفًا تجاه هذا الشّاب يا سيّدي الكونت.

- حسنًا، أقرّ بذلك، إذ يحزّ في نفسي أن أراه، مع معرفتي بالتزامك وعائلة مورسيرف، يأتي فيأخذ مكانَ ألبير مستغلًا ثروته.

انخرط دانغلار في الضّحك. وقال: - يا إلهي ما أطهرك! هذا يحدث كلّ يومٍ وفي كلّ مكانٍ من العالم.

- ومع ذلك، لا تستطيع أن تقطع ببساطة مع هذا المشروع يا سيد دانغلار؛ إنّ آل مورسيرف يعوّلون على هذه الزّيجة كلّ التّعويل.

- يعوّلون عليها؟

- بالطّبع.

- وإذًا.

- فليفصحوا إذًا. عليك أن تلمّح لمورسيرف الأب بكلمات من هذا، يا عزيزي الكونت؛ وأنت المكينُ لديهم.

- أنا! أين رأيتَ ذلك، بحقّ الشّيطان؟

- في حفلهم الرّاقص على ما بدا لي. وكيف! ألم ترَ كيف عاملتك

الكونتيسة؛ مرسيدس المعتدّة بنفسها، الكاتالانية المترفّعة، التي تترفّع حتّى عن فتح فمها لكي تجيب معارفها القدامى، أخذتك أنت من ذراعك، وخرجت بك إلى الحديقة، ومشت بك على الممرات الصّغيرة، ولم تظهر إلا بعد نصفِ ساعةٍ من ذلك.

صاح ألبير: - آه! يا سيّدي البارون، إنّك تشوّش علينا الاستماع. أيّ همجيّة هيَ من رجلٍ مولع بالموسيقى مثلك!

قال دانغلار: - حسنًا، حسنًا يا سيّدي المتهكّم!

ثم مستديرًا شطر مونت كريستو: - هل تتكفّل بإبلاغ أبيه بما قلتُه؟

- حبًا وكرامةً، إن شئتَ.

- لكن، لتتمّ الأمور هذه المرّة بوضوح وصرامة؛ وينبغي عليه خاصّة أن يطلب يد ابنتي صراحةً، ويحدّد موعدًا للزوّاج، ويفصّل في الأمور الماديّة؛ المهم أن نصل إلى اتّفاق ونعجّل؛ بصريح العبارة، لا مجال للتّسويف.

- حسنًا، سيتمّ لك ما طلبت.

- لن أكذب عليك فأقول إنّي أنتظر الأمر بلهفةٍ، لكنّي أنتظره في جميع الأحوال. إنّ المصرفيَّ، كما تعلم، عبدٌ لكلمته.

ثمّ أطلق دانغلار تنهيدة من تلك التي كان يطلقها كافالكانتي الابن منذ نصف ساعةٍ.

صاح مورسيرف: «برافي! برافا! برافو!»، مقلّدًا المصرفيّ بتهكّمٍ، ومصفّقًا نهايةَ المقطع.

كان دانغلار قد بدأ ينظر إلى ألبير شزرًا، حين أتوا يهمسون إليه بكلمتين.

قال لمونت كريستو: - سأعود بعد قليل، انتظرني، ربّما يكون لديّ ما أقوله لك آنذاك.

استغلّت البارونة غياب زوجها لتدفع باب صالون دراسة ابنتها، فكشف البابُ عن السيّد أندريا الذي وقف كأنّما بنابضٍ، بعدما كان يجالس الآنسة أوجيني أمام البيانو.

حيّا ألبير الآنسة دانغلار باسمًا، فردّت عليه التّحية ببرودٍ كالعادة، من دون أن يبدو عليها أدنى اضطرابٍ.

بالطّبع بدا كافالكانتي محرجًا، فحيّا ألبير الذي ردّ التّحيّة بأوقح هيئة ممكنة. ثمّ إنّ ألبير انطلق ينهالُ بالثناء على صوت الآنسة دانغلار، ويبدي الأسف على أنّه لم يتمكّن من حضور حفل المساء السّابق، خاصّة بعدما سمعه من مديحٍ فيه...

أمّا كافالكانتي الذي تُرك لحاله، فقد انتحى جانبًا بالكونت مونت كريستو.

هتفت السيّدة دانغلار: - هيّا كفانا موسيقى ومجاملات، وتعالوا نشرب الشّايَ.

قالت الآنسة دانغلار لصديقتها: - تعالي يا لويز.

انتقلوا إلى الصالون المجاور، حيث بالفعل كان الشّاي قد أُعدَّ. وفي اللحظة التي كانوا يوشكون فيها على ترك الملاعق في الفناجين، على طريقة الإنجليز، فُتح البابُ مجدّدًا وبرز منه دانغلار وقد بدا في غاية التوتّر.

وكان مونت كريستو تحديدًا أكثر من لاحظ ذاك التوتّر، فساءلَ المصرفيَّ بعينيه.

قال دانغلار: - لقد وصلني بريدي من اليونان.

قال الكونت: - آه! آه! لهذا طلبوك!

سأله ألبير بنبرة شديدة المرح: - ما أخبار الملك أوتّو؟

نظر إليه دانغلار شزرًا من دون أن يجيبه، أمّا مونت كريستو فأشاح

بوجهه كي يخفيَ تعبير الشّفقة الذي ظهر على وجهه، واختفى على الفور.

قال ألبير مخاطبًا الكونت: - سنسافرُ معًا إلى اليونان، أليس كذلك؟

أجابه الكونت: - بلى، بلى، إن كنت تريد.

لم يتمكّن ألبير أن يفهم شيئًا من نظرة المصرفيّ؛ لذا استدار صوب الكونت الذي كان قد أدرك كلّ شيء، قائلًا: - هل رأيت كيف نظرَ إليّ؟

أجابه الكونت: - نعم، لكن هل رأيت شيئًا ما مميّزًا في نظرته؟

- أظنّ ذلك، لكن ما الذي يقصده بالأخبار القادمة من اليونان؟

- كيف تحسب أنّي أعرف؟

- لأنّي أظنّ أنّ لديك معارف في البلد.

ابتسم مونت كريستو بتلك الطّريقة التي نبتسم بها عادةً حين نريد أن نعفي أنفسنا من الإجابة.

قال ألبير: - انظُر، ها هو قادمٌ، سأمدح الآنسة أوجيني لأشتت انتباهها، وأثناء ذلك سيكون للأب ما يكفي من الوقت ليخبرك.

قال الكونت: - إن كنت ستمدحها، فامدح صوتَها على الأقلّ.

- كلا، فذلك ما سيفعله أيّ كان.

- عزيزي الفيكونت، إنّ فيك غطرسة الوقاحة.

تقدّم ألبير صوب أوجيني راسمًا على شفتيه ابتسامةً. أثناء ذلك مال دانغلار على أذن الكونت.

قال: - لقد أعطيتني نصيحةً من ذهب: ثمّة قصّة رهيبة خلف الاسمين فرنان ويوانينا.

أجاب الكونت: - حقًّا!

- نعم، سوف أقصّ عليك الخبر كاملًا؛ لكن الآن خُذ الشّابَ رجاءً. سيزعجني كثيرًا البقاء بقربه الآن.

- ذاك ما سأفعله، سأصطحبه معي؛ والآن، أما زال ينبغي عليّ أن أرسل لك أباه.

- أكثر من أيّ وقت مضى.

- حسنًا.

أومأ الكونت إلى ألبير بإشارة. وحيّا الرّجلان السيّدات وخرجا. وكان ألبير يبدو لا مباليًا تمامًا تُجاه نظرات الازدراء التي كانت ترميه بها الآنسة دانغلار؛ وأكدّ مونت كريستو للسيّدة دانغلار على النّصيحة التي كان قد خصّها بها، نصيحة الاحتياطات التي ينبغي أن تحتاطها زوجةُ مصرفيّ، فيما يخصّ تأمين مستقبلها.

وبقيَ السيّد كافالكانتي متسيّدًا ساحة المعركة.

ألكسندر دوما

كونت مونت كريستو

في قصة رومانسية، وعلى خلفية الحقبة النابليونية وانقسامات المجتمع الفرنسي بين أنصار الملكية وأنصار نابليون، كتب ألكسندر دوما رائعته "كونت مونت كريستو"، لتتحول إلى واحدة من الأعمال العظيمة في تاريخ الأدب، وتحظى بشهرة وانتشار واسعَيْن منذ صدورها في العام 1844. وتُعاد طباعتها وترجمتها إلى كل لغات العالم، مرة بعد مرة، لتتكرّس كواحدة من الأعمال الكلاسيكية الكبرى.

إدمون دانتس، الشاب الطموح والمَرِح، يتعرّض لمكيدة تؤدي إلى اعتقاله يوم تحقق فرحته بالزواج من حبيبته الجميلة مرسيدس. ويقع بين يدي قاضٍ يودعه السجن من دون محاكمة ليُسجَن ظلمًا لأربعة عشر عامًا في أشد الظروف قساوةً. لكن الأب فاريا المتهم بالجنون يفتح له باب الأمل من طريق غير متوقَّع.

يفرّ إدمون دانتس من سجنه الانفرادي معرِّضًا نفسه للموت، لكنه ينجو. يخرج ليرى أن الذين أدخلوه السجن ظلمًا صاروا شخصيات كبيرة عن طريق الكذب والغشّ. يبدأ كونت مونت كريستو عملية انتقام متقنة الصنع في سياق رسم صورة للمجتمع الفرنسي في تلك الفترة.

إن دار التنوير لتفخر بتقديم هذا العمل العظيم لأول مرة في ترجمة كاملة إلى اللغة العربية، ترجمة بذل فيها محمد آيت حنا جهدًا كبيرًا لتوضيح الوقائع والشخصيات الكثيرة التي يذكرها دوما في هذه الرواية المليئة بالإحالات على التاريخ والفلسفة والميثولوجيا.

... كتابات دوما هي قمة الفن. لن يستطيع، ولم يستطع أحد من قبل، أن يتجاوز إبداعه في قصصه الرومانسية ومسرحياته.

جورج برنارد شو

لا أعتقد أنه يوجد كتاب تستطيع أن تعيش معه جوًا رومانسيًا صافيًا مثل هذا الكتاب.

روبرت لويس ستيفنسون



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس